شعراء الأندلس



رسائله أخباره شعره الملكين

«ابن زيدون عبقرىّ زمانه   قصر المحسنون عن إحسانه
أخذ الروم في الحريرة عنه   ومشوا في حياله وافتنانه .»
« سوق »

شرح وضبط وتصنيف

كامل كيلانى و عبد الرحمن خليفة

الطبعة الأولى

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م - رقم ٤٧٤

طبع بمطبعة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
وناشر طبعه · محمد أمين عمران

فهرس

مقدمة ديوان ابن زيدون

فهرس ديوان ابن زيدون

مقدمة ابن زيدون

تصدير

لحضرة صاحب السعادة أمير الشعراء

يَا ابْنَ زَيْدُونَ مَرْحَبَا　　قَدْ أَطَلْتَ التَّغَيُّبَا
إِنَّ دِيوَانَكَ الَّذِى　　ظَلَّ سِرًّا مُحَجَّبَا
يَشْتَكِى الْيُتْمَ دُرُّهُ ،　　وَيُقَاسِى التَّغَرُّبَا
صَارَ - فى كُلِّ بَلْدَةٍ -　　لِلْأَلِبَّاءِ مَطْلَبَا
جَاءَنَا « كَامِلٌ » بِهِ　　عَرَبِيًّا مُهَذَّبَا
تَجِدُ النَّصَّ مُعْجِبًا　　وَتَرَى الشَّرْحَ أَعْجَبَا

* * *

أَنْتَ فى الْقَوْلِ كُلِّهِ　　أَجْمَلُ النَّاسِ مَذْهَبَا
بِأَبِى أَنْتَ هَيْكَلاً　　- مِنْ فُنُونٍ - مُرَكَّبَا
شَاعِرًا أَمْ مُصَوِّرًا　　كُنْتَ،أَمْ كُنْتَ مُطْرِبَا؟
تُرْسِلُ اللَّحْنَ كُلَّهُ　　مُبْدِعًا فِيهِ مُغْرِبَا
أَحْسَنَ النَّاسِ هَاتِفًا ،　　بِالْغَوَانِى مُشَبِّبَا
وَنَزِيلَ الْمُتَوَّجِيـ　　ـنَ النَّدِيمَ الْمُقَرَّبَا
كَمْ سَقَاهُمْ بِشِعْرِهِ　　مِدْحَةً أَوْ تَعَتُّبَا
وَمِنَ الْمَدْحِ مَا جَزَى　　وَأَذَاعَ الْمَنَاقِبَا

* * *

وَإِذَا الْمَجْوُ هَاجَهُ　　- لِمُعَانَاتِهِ - أَبَى

وَرَآهُ رَذِيــلَةً لاَ تُمَاشِي التَّــأَدُّبَا
مَا رأى النَّاسُ شاعِراً فَاضِلَ الخُلْقِ طَيِّبَا
دَسَّ لِلنَّاشِقِينَ ـ فى زَنْبَقِ الشِّعْرِ ـ عَقْرَبَا

***

جُلْتَ ـ فى الخُلْدِ ـ جَوْلَةً هَلْ عَنِ الْخُلْدِ مَنْ نَبَا ؟
صِفْ لَنَا مَا وَرَاءَهُ مِنْ عُيُونٍ وَمِنْ رُبَى
وَنَعِيمٍ وَنَضْرَةٍ وَظِلاَلٍ مِنَ الصَّبَا
وَصِفِ الْحُورَ مُوجِزاً ـ وَإِذَا شِئْتَ ـ مُطْنِبَا »

***

وَمْ تَرَ الْأَرْضَ ـ مِثْلَمَا كُنْتُمُو أَمْسِ ـ مَلْعَبَا
وَتَرَى الْعَيْشَ لَمْ يَزَلْ ـ لِبَنِى المَوْتِ ـ مَأْرَبَا
وَتَرَى ذَاكَ ـ بِالَّذِى عِنْدَ هٰذَا ـ مُعَذَّبَا

***

« إِنَّ مَرْوَانَ عُصْبَةٌ يَصْنَعُونَ الْعَجَائِبَا
طَوَّفُوا الْأَرْضَ مَشْرِقًا ـ بِالْأَيَادِى ـ وَمَغْرِبَا
آلَهٌ أَطْلَعَتْكَ فِي ذِرْوَةِ المَجْدِ كَوْكَبَا
أَنْتَ لِلْفَتْحِ تَنْتَمِي وَكَفَى الفَتْحُ مَنْصِبَا
لَسْتُ أَرْضَى بِغَيْرِهِ لَكَ جَدًّا وَلاَ أَبَا »

« شوقي »

مقدمة

١ تحريف الديوان

كان أيسر مافى هذا الديوان نسخه وضبطه وشرحه : فقد أسلمنا ما كابدناه فيه من عناء التحريف كل عناء آخر كابدناه فيه ، وقد وفق النساخ أيما توفيق فى تشويه محاسن هذا الديوان الفذ ، وتحريف أبياته ، وطمس غرره وشنوفه .

ولقد كنا نقرأ القصيدة عدة مرات ، وكأننا ــ لشدة مافيها من تحريف واضطراب ــ أمام طلسم غامض لاسبيل إلى حله ، ثم لايلبث الصبر أن يذلل من العقبات ما كنا نوقن باستحالة تذليله ، وكانت تعرينا لذة النور والانتصار ــ كلما اجتزنا عقبة ــ أن نقتحم أخرى حتى انتهينا من هذا الديوان ونحن لانكاد نصدق بأننا قد اجتزنا هذه المفازة المجهلة . ورفعنا عن ذلك المنجم الرائع كثيرا من الهضاب والكثبان المتراصة فوقه .

وما نزعم أننا قد برأنا هذا الديوان من كل عيب ، ونزهناه عن كل تحريف ، ولكننا نجرؤ فنزعم أننا لم نأل جهدا فى تبرئته من كل عيب وتنزيهه عن كل تحريف ، فإذا ند عن خاطرنا معنى أولحق مذهبنا كلال فى تصحيح بيت أوتجلية غامض فهو الذهن الانسانى يحلق ثم يسقط ، ويبدع ثم يسحف ، و يعتوره النقص والكلال ، فوق مايكون رغبة فى توخى الابداع والكمال .

٢ أمثلة من التحريف

قلنا إن نسخ هذا الديوان وضبطه وشرحه كانت أيسر ما لقيناه من العناء ، وهذا الكلام ربما لمح فيه القارئ الخلى الذهن نوعا من الزهو والخيلاء ، ولكنه الحقيقة التى لا أثر للمغالاة فيها ، ولو أننا أردنا أن نسرد كل ماأصلحناه من تحريف أوتشويه لاضطررنا إلى ذكر أكثرأبيات الديوان ، وقد أشرنا إليها فى مواضعها من الكتاب ، فلنجتزئ بذكر القليل منها عن الكثير ، ليرى القارئ المنصف مقدار ماجنى النساخ على شعر هذا الشاعر العظيم ، ونحن لانرى فى مثل هذا العمل إلا أنه زكاة يؤديها الأديب للأدب العربى الزاخر بأروع الخوالج النفسية وأسمى المعانى الرائعة

وليمثل القارئ نفسه أمام هذا البيت مثلا .

« لم يدع مني شيئا من جلد مع أني لم أزل ثبت العزر . »

أو البيت التالى :

« كأنا لم يواليا ،زمان لين الأخدع . »

أو قوله فى نفس القصيدة : « وأب النمل لايجدع . »

أو قوله فى قصيدة أخرى :

« حياء هو الليل ادهم ظلامه . »

أو قوله :

« رمن كما لون الرصا ع يشوق ذكراه الفطيم »

أو قوله : « لم أدع حظى منها بالحيل . »

أو قوله :

« فما انك إلا عدل نفسك إن يسر فللجسم لا للنفس منك مقام »

فى قصيدة لم يرد فيها ذكر اسمه ثابتا :

فإذا قرأت البيت الأول قراءة صحيحة ، قلت :

« لم ندع مني سقامى خلدا مع أنى لم أزل نبت المور »

والبيت الثانى

« كأنا لم يؤالفنا زمان لين الأخدع »

والشطر الثالث : « وأب العجل لايجدع »

والبيت الرابع :

« حفاء هو الليل ادهم ظلامه »

والبيت الخامس

« رمن كمألوف الرضا ع يشوق ذكراه الفطيم »

والبيت السادس

« لم أرع حظى منها بالحيل »

والبيت السابع

« فما انك إلا عدل نفسك ان يعف فللجسم لا للنفس منك مقام »

فإذا أضفت إلى هذا العناء عناء آخر هو بعض تكملة الأبيات الناقصة بما يلائمها ظهر لك

أننا لم نكن مغالين فى وصف ما كابدناه من المشقة والتعب .

ومن أمثلة ذلك قوله : « . . . فى حواركم دليل . »

وقد أتممناه بما يلائم المعنى فقلنا : « [حاجى] فى حواركم ذليل »

وقوله :

« . . . . . ساووا لأياديك التى بعضها فوق الشامخ »

وقد أتممناه وأصلحناه كما يلى :

« [فتقبله] شافعا لأيادي . لك التى بعضها يفوق الشاء »

وإنما اجترأنا بهذه الأمثلة القليلة لأن الثمرة – كما يقول شيخ المعرة – تدل على الشجرة ولأن الديوان كله ماثل بين يدى القارئ فلا حاجة بنا إلى الإفاضة فى ذكر الأمثلة .

٣ أثر التحريف

وكثير مما يرويه أساتذة الأدب فى المدارس من شعر ابن زيدون محرّف أو مشوّه ، من ذلك ما أثبته الأستاذ علام سلامة فى مذكراته المطبوعة لطلبة دار العلوم :

« وبيت ملك كأن الله أنشأه مسكا وقد أنشأ الله الورى طينا . »

والبيت فى وصف ولادة . وصوابه . « ربيب ملك » ، وقد أكثر شعراء الأندلس – ومنهم ابن زيدون – من هذا التعبير، والرواية التى أخذ بها الاستاذ علام هى رواية نفح الطيب الذى لا يقل تحريفه وتصحيفه عن تحريف الديوان وتصحيفه . وقد أنشدنا هذا البيت كما يلى :

« ربيب ملك كأن الله أنشأه مسكا وقدر إنشاء الورى طينا »

وبهذا يظهر جمال أسلوب ابن زيدون وروعة أدائه .

وقد روى بعض الأدباء البيت التالى لابن زيدون هكذا .

« سنون من الأيام خمس قطعتها أسيرا ، وإن لم يبد شد ولا قمط . »

وصوابها « مئون من الأيام خمس قطعتها » فإن سنين من الأيام أو سنين من الليالى أو سنين من الساعات لا معنى لها – ويؤيد هذا الرأى قول ابن زيدون نفسه من قصيدة أخرى فى رسالة لابن جهور .

« أقصيرا مئين خمسا من الأيام » »

وقد وقع فى هذا التحريف الأستاذ أحمد زكى باشا ثم تابعه فى ذلك الأستاذ أحمد السكندرى وظن الاستاذ زكى باشا أن ابن زيدون قد سجن مرتين ، الأولى خمس سنوات ، واستدل على ذلك بالبيت الأول ، والثانية خمسمائة يوم ، واستدل على ذلك بالبيت الثانى .

أما الأستاذ السكندرى فقد قرر أن ابن زيدون سجن خمس سنوات (١) ، وهو لم يسجن إلا خمسمائة يوم كما يدل على ذلك شعره .

---

(١) قال الاستاذ السكندرى :

« لبث ابن زيدون فى السجن سبع سنين ، واختلف كم كانت مدتها ؟ ومتى كان مبدؤها ؟ أما الأول فيحيلنا هو عليه بقوله من قصيدته الطائية البليغة :

«سنون من الأيام – خمس قطعتها أسيرا، وإن لم يبد شد ولا قمط»

وأما الثانى فيحيلنا هو أيضا عليه بقوله من قصيدته الرائية التى كتب بها من السجن الى أبى الحزم جهور : «ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل»

وقد جنى تحريف النساخ على أدباء العربية وشعرائها جناية لا تغتفر فاضطربت بسببه آيات البلاغة ودقائق البيان وعزف الكثيرون عن أدبهم بعد أن رأوا ما فيه من الخلط والتشويه والتحريف ولاموهم على ذنوب لم يجترموها وآخذوهم بعيوب لا يد لهم فيها :

« وذنب جرّه سفهاء قوم وحلّ بغير جارمه العقاب »

ولا يزال رجال الأدب وأساتيذه الأفاضل مسؤلين عن إصلاح هذه الروائع وتنظيم هذه الكنوز النفيسة وردّها إلى الصواب، حتى يظهر جلال الأدب العربي وروعته وتبرأ ذمم القدماء مما لحق آثارهم الأدبية من الخلط والتشويه .

٤ — لماذا بدأت بهذا الديوان

كانت فكرة موفقة سديدة تلك الفكرة التي خطرت ببال الأستاذ الكبير الدكتور «أحمد ضيف» مدرس الأدب العربي بالجامعة المصرية القديمة حين طلب الى عام ١٩٢٢ أن أترجم لطلبة الجامعة الفصل الرائع الذي كتبه الأستاذ المستشرق « نيكلسون » عن الأدب الأندلسي وتاريخه ، فقد كان من آثار تلك الفكرة أني نشطت إلى إلقاء تلك المحاضرات التي أظهرتها للقراء في ذلك العام بعنوان « نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي [1] » ووعدت في مقدمة ذلك الكتاب بالعودة إلى البحث .

قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كثب وللشبيبة غصن غير مهتصر »

ونحن نعلم أن انقطاع دعوة بني أمية عن قرطبة كان سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، ونعلم أن قد ولد ابن زيدون في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة فاذا كان بدأ خدمته في دولة آل جهور وهو في الثانية والعشرين من عمره وإذا قدرنا أنه بعث بهذه القصيدة في مبدأ اعتقاله كما هو الظاهر إذ قد صرح فيها بأنه لم يبلغ الثلاثين ، كانت مدة خدمته لآل جهور لا تزيد على سنتين وكان بدء اعتقاله في نهاية سنة أربع وعشرين وأربعمائة أو أول خمس وعشرين وأربعمائة .

لبث ابن زيدون في السجن خمس سنين استعطف فيها أبا الحزم جهورا واستشفع عنده بابنه أبي الوليد محمد بن جهور ، وكان أليفه وصديقه من قبل ونظيره من الرؤساء ووجوه قرطبة وبث إليه وإليهم شكواه بعدة قصائد أبدعها ورسائل استنفد فيها جهده فما ألان له قلبا اهـ

(١) وقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب مايلي

طلب الى حضرة الدكتور أحمد ضيف ، أن أترجم الفصل التاسع من كتاب « تاريخ آداب العرب للاستاذ نيكلسون » لألقيه في الجامعة المصرية ، وهو الفصل الذي أفرده من كتابه الممتع ، بالكلام على تاريخ الأدب العربي في أسبانيا .

لم أكد أقرأ هذا الفصل حتى بدا لي خطره ونفاسته وعرضت لي عدة ملاحظات على بعض ماجاء فيه ولم أكد أشرع في مناقشة نقطه الجوهرية حتى انفسح أمامي مجال البحث وشجعني على مواصلة مارأيته من النقص الشديد الذي يكاد يلمسه كل مطلع على الكتب العربية التي تناولت الكلام في هذا الموضوع وما علمته من الحاجة الماسة الى كتاب ييسر على طلبة الأدب الأندلسي وغيرهم من المتأدبين به ، قليلا مما يتكبدونه من عناء البحث في الأسفار العربية الضخمة المهوشة ويحفظ وقتهم الثمين من الضياع -

فالآن أعود إلى الكتابة بعد عشر سنوات مضت على تلك البحوث التمهيدية الأولى .

***

ولكن لماذا اخترت ابن زيدون وبدأت به قبل غيره من الشعراء ؟

لقد كنت أسيء الظن بشعر ابن زيدون وأدبه ، ويخيل إليّ - كما يخيل إلى كثير من أدبائنا الذين يتسرعون في الحكم على الشعراء من غير أن يعنوا أنفسهم بدرس آثارهم وعصورهم دراسة مستفيضة - أنه شاعر صنعة مولع بالبديع والمقابلات اللفظية لايسمو إلى درجة الفحول الممتازين .

فلما وصلت الى قول « نيكلسون » في فصله الرائع : « وكانوا يلقبون ابن هانئ بأنه متنبي العرب،كما يلقبون ابن زيدون بأنه بحتري الغرب [1] » صارحت القارئ حينئذ بأني لا أستطيع الحكم على الجزء الثاني من هذه التسمية ، وقد عقدت فصلا موجزا في المقارنة بين ابن هانئ والمتنبي، لأني درست ديوانيهما،وقد عدلت الآن عن بعض رأيي في ذلك الفصل . ولم أستطع المقارنة بين ابن زيدون والبحتري ، لأني قرأت ديوان الثاني ولم أقرأ للأول إلا بضع قصائد لاتكفي للحكم على شاعر .

وذكرت أن جلال نهضتنا القومية لايتناسب مع جهلنا عظماء أمتنا الذين تركوا أوضح الأثر في ثقافة تستمد منها الحياة والقوة ، وأن كان من الواجب ألا يجهل الانسان عظماء الأمم ذوي الأثر الكبير في الحضارة العالمية فهو أجدر ألا يجهل عظماءه قبل كل شيء .

دعتني هذه الاعتبارات إلى عدم الاقتصار على ترجمة هذا الفصل الممتع وأن أتخذه مرجعا من المراجع الكثيرة التي رجعت اليها بدلا من أن أتخذه موضوع محاضرة .

وقد اقتصرت في هذا الكتاب على ترجمة القسم الأول من هذا الفصل ، وقد ألقيت القسم الأكبر من هذه المحاضرات منذ أكثر من عامين في الجامعة المصرية ، ثم نشرت بعضها في احدى الصحف الأدبية فلقيت من الاستحسان والإقبال ما حملني على طبعها .

ولم يفتني ان أورد في هوامش الكتاب كثيرا من الملاحظات الضرورية التي أسقطتها في ضيق الزمن إذ الاكتفاء بالإشارة اليها دون ذكرها وقت القاء المحاضرات .

وقد تعمدت ذكر أمثلة وشواهد تشغل مكانا من الكتاب ما كانت لتشغله لو لم يكن ما حدا بي الى الاستشهاد بها أولا أني وثقت أن جمهور الأدباء يجهلها .

(وبعد) فهذه محاضرات سريعة أمهد بها الى تاريخ الأدب الاندلسي وسأتبعها بعد قليل بالقسم الثاني منها فليقرأها القارئ على أنها مقدمة لدراسة الأدب في ذلك العصر ، وأن يجدها نواة لكتاب يتناول فيه ذلك التاريخ بشيء من التوسع ولاسيما اذا أمكنتنا الفرص . والله ولي الهداية .

(1) قال الأستاذ نيكلسون

« إن قافلة العلماء الذين رحلوا في طلب العلم الى افريقيا ومصر والى المدن المقدسة في بلاد العرب والى حواضر سوريا العظمى والعراق ، والى خراسان وتركستان بل والى بلاد الصين أحيانا كانت تحوي كل نامي الأدباء وحب البلاغة العربية لدى أندلسيي اسبانيا للاسلام كما يرى ذلك من يتصفح الفصل الخامس من كتاب المقري . لهذا كانت حركة متبادلة للآراء في دؤوب ونشاط فلم يستأثر أحد من رجال الشرق والغرب بشيء خاص . ويعرف الناس قبل كل شيء أن أشهر شعراء الاندلس كابن هانئ وابن زيدون كان يلقبهما النقاد الشرقيون متنبي الغرب وبحتريه . »

ورأيت أن واجب الأمانة يقضي عليّ أن أدرس ابن زيدون كما درست البحتري ليتسنى لي أن أنصفه .

وما كدت أبدأ في درس ابن زيدون ، شعره ونثره ، وأتقصى أخباره وأخبار عصره ، حتى رأيت ماراعني وأدهشني ما رأيت ، لقد كنت أستكثر عليه اسم شاعر عادي فصرت أستقل له الآن اسم شاعر كبير وكنت أكرهه لكلفه بالصنعة التي بغضت إلينا أكثر شعراء ذلك العصر وأفسدت علينا أكثر الأدب العربي ، فإذا بي أحب هذا اللون الرائع من الصنعة المبهجة التي تمتزج بالنفس وتهيمن على القلب وتحبب فيها أشد الناس بغضا لها ، وقد عرف ابن زيدون كيف يتخذ من الصناعة والبديع أدوات للافتنان في الأداء والتعبير والابداع في تصوير أروع المعاني الساحرة وأدق الخوالج النفسية ، وإذا بها نفس تطرب إلى الجمال وتفتن في التعبير عنه ، وطبيعة سمحة صناع لا التواء فيها ولا تكلف ، وقد صدق القائل : « كل طعام يتناوله الصحيح ينقلب إلى صحة ، وكل طعام يتناوله المريض ينقلب إلى مرض » وهكذا كرهنا المقلدون في الصنعة والبديع ، كما حبب إلينا المبدعون كثيرا من ألوان الصنعة والبديع .

الحق أن ابن زيدون ساحر بياني خلاب يتخذ من الصنعة وسيلة للروعة والدقة وحسن الأداء ، كما يتخذ المصوّر الماهر ـ من مختلف الألوان والأصباغ ـ وسيلة للتعبير عن أدق وأخفى الأسارير واللمحات .

ولا أكتم القارئ أني من ألدّ أعداء الصنعة اللفظية ، ولكني من أشد أنصارها إذا جاءت عن هذه الطريق .

ولقد أراد بعض الكتاب أن يعيب على ابن زيدون وأناتول فرانس أنهما من رجال الأساليب ، ونسوا أن الأسلوب العالي هو غاية تنحاع دونها الرقاب ، وأن طول المرانة والدرس تخلق من صاحبها الكاتب الحاذق والشاعر اللبق ولكنها أعجز من أن تخلق الكاتب الموهوب والشاعر العبقري أوتلهمهما الأسلوب العالي الذي يحاول بعض الأدعياء أن يزري به ويحقره .

٥ تنفيذ الفكرة

ولم أكد أبدأ في قراءة ديوانه ونسخه حتى أكبرت الرجل وفتنت بشعره وسحرت ببيانه الرائع وإن قطع عليّ إعجابي وفتني ما اعتوره من التحريف والتشويه ـ وهما من جنايات النساخ على الأدب العربي ـ ولكني اعتزمت المضي في هذه الطريق الوعرة وصممت على اجتياز هذه المفازة التي لا أعلام فيها ولا صوى (١) نسترشد بها في السير ، ثم شغلتني أعمالي الكثيرة عن المضي فيها لما تتطلبه من عناء لا تحتمله صحتي المنهوكة ، وفراغ من الزمن يضيق عنه وقتي المزدحم بالفروض والواجبات .

---

(١) الصوى : العلامات الطرقية التي تطلق عليها اسم « Milestones »

ولم يكن من اليسير عليّ أن أظفر بأديب تدفعه الغيرة على الأدب العربى الى التضحية بصحته ووقته فى عمل مضن شاق لايفهم منه القارئ العادى إلا أنه هين سهل لايتجاوز شرح ديوان شاعر وضبطه .

ولكن صديقى الأديب العالم الفاضل الشيخ عبد الرحمن خليفة تقدم الىّ مظهرا لى استعداده لمعاونتى فى هذا العمل والسير معى فى هذه المفازة .

ولصديقى الفاضل ولع شديد بدرس الأدب العربى، وغيرة نادرة على اللغة العربية، وحرص بالغ على كنوز البيان العربى ، وصبر لايشركه فيه الا القليل من الأدباء المخلصين ، وعزيمة لاتعرف للتردد والنكوص معنى ، وهذه هى الصفات التى كنت ولازلت أنشدها فيمن ينصدى لمثل هذه الأعمال المضنية .

وكان صديقى عند حسن ظنى به ، فقد كان يقضى معى الساعات الطوال دائبا لا يكلّ ولا ينى ولا يفتر عزمه الا ريثما يتجدد ، ويعود إلى أقوى مما كان عليه نشاطا وهمة ، وهكذا مضينا معتزمين فى شرح الديوان وضبطه وإصلاح تحريفه حتى أظهرناه للقارئ فى هذا المظهر الأنيق .

٦ — رسائل ابن زيدون وأخباره

ولما كان التحريف قد لحق نثر ابن زيدون كما لحق أشعاره وان جمعت عناية الأدباء وتعاونهم وشروحهم عناء التحريف فى الرسالتين الجدية والهزلية فقد رأينا أن نثبت كل ماوقع لنا من نثر ابن زيدون وشعره وأخباره كما أثبتنا ماوصل الينا من شعر « المعتمد » و « المعتضد » و « ابن جهور » وبعض المعاصرين لابن زيدون كابن عمار وغيره ، وأتبعناهم بدراسات الأدباء المعاصرين تتمة للبحث .

وقد اتسع النطاق حتى ضاقت صفحات هذا الديوان — على كثرتها فاضطررت إلى فصل سفرين عنه واخراجهما مستقلين ليعاونا القارئ على درس هذه الفكرة من كل وجوهها . وسأفرد — ان شاء الله — كتابا يظهر بعد انتهاء طبع هذا الديوان الحافل . بعنوان « ابن زيدون — أدبه وعصره » وكتابا آخر بعنوان « ملوك الطوائف » يتناول ماسهاب الكلام فى عصر ابن زيدون الذى عاش فيه ، حتى لاينطبق علينا قول المتنبى :

« ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام »

فاذا انتهيت من ذلك بدأت فى إظهار ديوان « ابن حمديس » فى الحلقة الثانية من سلسلة شعراء الأندلس ، إن ساعفت الظروف وكان فى الأجل بقية .

كامل كيلانى

إلمامة

١ — ملوك الطوائف [1]

ابن جهور — بنو عباد

منذ سنين عديدة تقلص ظل السلطة العامة عن الولايات الاسلامية ، وأصبح أمرها بيدها ، ولم يكن تفكك السلطة أمرا مرغوبا فيه عند أهل تلك الولايات عامة ، فقد ذهب بهم التفكير إلى أبعد مداه جزعا من المستقبل وأسفا على الماضى . ولم يستفد من هذا الانحلال فى البلاد إلا ملوك الطوائف وحدهم . وكان من نتائج هذا الانحلال أن اقتسم قوّاد البربر جنوب الجزيرة فيما بينهم ، وحكم الصقالبة الشرق ، وصار ما تبقى بعد ذلك نهبا مقسما بين الطامعين المتوثبين على الحكم ، وآخرين من بقايا الأسر العريقة ممن سنحت لهم الفرصة وساعدتهم على الثبات أمام ضربات « عبد الرحمن الثالث والمنصور » التى كانت مصوّبة إلى الأرستوقراطية ، وانتهى الأمر بأن تكوّن من المدينتين الكبيرتين : قرطبة ، واشبيلية . حكومتان شوريتان ، أما قرطبة فقد حدث بعد إلغاء الخلافة أن اجتمع كبار أهلها وعمدوا الى إسناد السلطة التنفيذية إلى «ابن جهور» الذى عرف عند الجميع بالجدارة والاستحقاق لتقلد هذا المنصب والاضطلاع بالحكم فرفض بادئ ذى بدء، هذا المركز السامى الذى عرض عليه ، وبعد إلحاح من جماعة المنتخبين له ، رضى بقبول هذا المنصب ، ولكن على شريطة أن يكون عضوان من أسرته زميلين له فى مجلس الشورى، وهما : محمود بن عباس ، وعبد العزيز بن حسن ، فأجابه الجماعة إلى ما طلب ، ولكن على شرط أن يكون لهذين الاثنين صوت استشارى .

وقد حكم السفير الأوّل الحكومة الشورية الجديدة بطريقة عادلة رشيدة ، وإليه يرجع الفضل فى أن أهل قرطبة لم يعودوا يشكون شيئا من المظالم التى كانت تقع عليهم من قسوة البربر . فكان أوّل ما وجه إليه نظره أن صرفهم عن الخدمة ، واحتفظ بنى

(١) ارجع إلى ما نشرناه فى آخر الديوان للأستاذ « نيكلسون » « ص ٤٢٧ » أما هذا الفصل فهو للعلامة دوزى وقد نقلناه من كتاب « ملوك الطوائف » الذى سنظهره قريباً إن شاء الله .

ايفورين» « Beni - Iforen » وحدهم ، وهم الذين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وطاعتهم، واستبدل بالآخرين الذين سرحهم من البربر حرسا وطنيا . وكان يتظاهر بمظهر من يريد استقرار نظام الحكم الجمهوري ، فكان إذا طلب إليه سيد أمر يقول : « ليس من شأني أن أقرر أمرا هو من اختصاص مجلس الشورى ، وما أنا إلا منفذ لأوامره وقراراته . »

وكلما وردت عليه قصة أو كتاب رسمي يكون موجها إلى شخصه أبى تسلمه وأمر بتوجيهه إلى مجلس الوزراء. ولم يكن ليصدر قرارا قبل عرضه على مجلس الشورى . أضف إلى هذا أنه لم يكن يتظاهر البتة بمظهر الحاكم ، فهو ـ بدلا من أن يقيم بقصر الخلافة ـ بقى مقيما بمسكنه المتواضع الذى اعتاد سكناه دائما. وكانت العقيدة فى نزاهته ثابتة قوية لاتحوم حولها الشكوك والريب، وقد رفض ـ مع هذا ـ أن يكون بيت المال فى داره وتحت إمرته ، فعهد بحراسته الى أكثر الناس مقاما وأكثرهم احتراما فى المدينة . ومع حبه ـ فى الحقيقة ـ للمال، فقد عليه المصلحة ألا يرتكب عملا غير شريف، ولما كان مقتصدا بل وحريصا حرصا يكاد يصل به إلى درجة البخل فقد أثرى حتى صار أغنى رجل فى قرطبة ، ولكنه فى الوقت نفسه بذل من الجهد المحمود ما وفر به اليسر والرخاء على الناس كافة .

وكان يبذل مافى وسعه لتحسين العلاقات الودية بينه وبين الممالك المجاورة ، وقد كتب له النجاح فى ذلك . فلم يمض وقت طويل حتى توطد الأمن . وأمنت السبل ، وانتشرت التجارة والصناعة وهبطت أسعار المواد الغذائية . وأمّ قرطبة طوائف كثيرة من السكان أعادوا بناء الأحياء التى دمرها البربر أو أحرقوها حينما أوقعوا النهب والسلب فى المدينة .

وعلى الرغم من هذه الأعمال التى قام بها، فإن قرطبة ـ عاصمة الخلافة القديمة ـ لم تسترد مكانتها السياسية ، ومنذ ذلك الحين بدأت اشبيلية ـ التى سنعنى بتاريخها عناية خاصة ـ تحرز الشأن الأول فى المركز السياسى .

كانت اشبيلية ـ منذ أمد بعيد لاتزال ـ مرتبطة الحظ بقرطبة متأثرة بما يجرى من الحوادث فيها ، متأسية بالعاصمة خاضعة لملوك الدولة الأموية على التعاقب ثم لدولة بنى حمود ، ومن جراء ذلك كان للثورة التى وقعت فى قرطبة أثرها السيء فى اشبيلية ، فقد ثار القرطبيون على قاسم بن حمود وطردوه، فعوّل هذا الامير على الالتجاء الى اشبيلية حيث يقيم بها ولداه ، ومعهما حامية من البربر تحت قيادة محمد بن زيرى من قبيلة بنى ايفورين .

وأرسل إلى الاشبيليين يأمرهم باخلاء مائة مسكن لجنوده القادمين معه . وقد ترك هذا الأمر أثرا سيئا فى نفوس أهل إشبيلية هذا إلى ماعرف عن جنود قاسم الذين هم أحقر أبناء جنسهم من أنهم من كبار اللصوص . وقد أظهرت قرطبة للاشبيليين أن من الممكن أن يتحرروا من هذا النير الذى يضجون بالشكوى منه. فعوّلوا على أن يحذوا حذو قرطبة، إلا أن خوفهم من حامية البربر المقيمة بين ظهرانيهم حال بينهم وبين تحقيق أمانيهم ، وبعد

جهد بجح قاضي المدينة «أبو القاسم بن عباد» في كسب قائد الحامية وضمه إلى جانبه بعد أن صرح له بأنه من الهين السهل أن يصبح ملكاً على اشبيلية ، فأعلن حينئذ محمد بن زيرى استعداده لمساعدته، وسارع القاضي فعقد بينه وبين قائد بربر «قرمونة» محالفة تقلدوا السلاح - على أثرها - ضد ولدي قاسم وحاصروا قصره .

ووصل قاسم إلى أبواب اشبيلية التي كانت مغلقة ، وحاول أن يجتذب سكان المدينة إليه بالوعود الخلابة ، ولكنه أخفق في هذه المحاولة ، ولما أوجس خيفة من نفسه على ولديه اللذين كانا معرضين للهلاك داخل المدينة ، قطع على نفسه عهدا أن يجلي - هو ومن معه من الجند - عن أراضي اشبيلية، اذا ماأساءوا اليه ولديه وأموالهما وممتلكاتهما، فضمن له الاشبيليون تنفيذ هذا الشرط ، وعلى أثر ذلك انسحب قسم وعاد أدراجه، وتم سنحت للقاضي أول فرصة ليرضي حامية البربر.

ولما حصلت المدينة على حريتها اجتمع كبارها ليختاروا حاكما يولونه عليهم ، إلا أن الخواطر في هذه الحال لم تكن هادئة والنفوس لم تكن مطمئنة خشية أن تتمخض الحوادث عن ثورة . أو أن يعيد بنو حمود الكرة عليهم ، وحينئذ لا يتوانون لحظة عن معاقبة المجرمين الثائرين ، ولهذا لم تبد من أحد منهم أية رغبة قط في أن يأخذ على عاتقه تحمل عبء المسؤلية عما وقع .

واتفق عامتهم على أن يلقوا عبء المسؤولية على عاتق القاضي وحده الذي حسدوا ثروته واستشعروا سرورا خفيا في أعماق نفوسهم لدنو الساعة التي تصادر فيها هذه الثروة الطائلة .

فعرضوا على القاضي أن يتولى حكم المملكة، وكان - مع ما يجيش بصدره من مطامع وآمال - حكيما حازما ، فرفض في إباء أن يتولى الحكم في وقت غير مناسب . ولم يكن القاضي متصل النسب بالسلالات العريقة، إلا أنه امتاز بجيازته أكبر ثروة ، فقد كان يملك ثلث أرض اشبيلية ، وفوق ذلك فقد كانت له منزلة سامية من الاعتبار نظرا لمواهبه العلمية ، وكان يعوزه أن يضم الى هذه المؤهلات أن تندمج أسرته ضمن السلالات العريقة القديمة . وقد تم له ذلك - فيما بعد - تدريجا ، وكان يدرك أنه في حاجة ماسة إلى وجود عدد من الجند تحت إمرته ، وليس لهذا العدد وجود، ولم يشك في أن الارستقراطية العظيمة المجيدة في اشبيلية لابد أن تثور على صعلوك مثله غير معروف النسب ، يسمو مكانه إلى تسنم ذروة الخلافة ، ولم يكن ثمة شيء غير هذا في الواقع ، وقد وقع هذا حقيقة عندما أوشك بنو عباد أن يؤسسوا الخلافة لأنفسهم .

وثمة زعم آل عباد أنهم من سلالة ملوك « لخم » الذين كانوا يحكمون الحيرة قديما قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وكان الشعراء الذين يريدون إسباغ بطونهم يتحينون الفرص للاشادة بهذا النسب العريق المزعوم ، على أنه لم يوجد مايبرر هذا الزعم، لأن بني عباد والمنزلفين إليهم ومن يتملقونهم لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل على ذلك، وكل ما يربط هذه الأسرة بملوك الحيرة أنها تنتسب الى قبيلة لخم اليمنية التي ينتسب إليها ملوك الحيرة . ولكن فرع أسرة آل عباد الذي

تسلسل منه آباؤهم لم يقطن ـ على ما يظهر ـ الحيرة بتاتا ، ولكنهم كانوا يقيمون أخيرا بالعريش الواقعة على حدود مصر وسوريا فى قسم إيميز « Emese ».

وعلى الرغم من أن آل عباد بذلوا ما فى استطاعتهم كى يصلوا نسبهم بملوك الحيرة فانهم لم يستطيعوا أن يصعدوا به إلى أبعد من نعيم والد عطاف ، وكان عطاف هذا على رأس كتيبة من جنود إيميز وقد رحل الى أسبانيا مع بلج حيث أعطيت لجنود إيميز أراض على مقربة من اشبيلية وأقام على ضفاف الوادى الكبير ، وقد انحدر عن أصل هذه الأسرة فروع فيما يقرب من سبعة أجيال أخرجت ببطء من ظلمة الماضى أناسا صالحين عاملين مقتصدين ، واسماعيل والد القاضى هو عنوان مجدها وهو الذى خط بيمينه فى الصحيفة الذهبية لنبلاء اشبيلية اسم عباد [1] . ولا غرو فقد كان اسماعيل من حملة الأقلام والسيوف ، وكان رجل فقه ودين كما كان رجل حرب وطعان ، فقد تولى قيادة فرقة فى حرس هشام الثانى ، ثم صار ـ فيما بعد ـ إماما لمجلس قرطبة الكبير ، ثم قاضيا لاشبيلية ، واشتهر بالفقه والذكاء والورع و إرشاد العامة ، و إسداء النصح للكافة ، وكانت شهرته فى النزاهة تربو على شهرته فى غير ذلك من الأمور ، فهو على الرغم من انتشار الفساد والرشوة كان يتورع عن أن يقبل هبة من سلطان أو وزير ، وكان كريما الى أبعد غايات الكرم ، وقد لقى القرطبيون منه كرم الضيافة ، وحسن العشرة ، فجعلته كل هذه المزايا والصفات حريا أن يحرز أكبر ألقاب النبل والسؤدد فى العرب .

وقبيل العهد الذى نحن بصدده توفى الى رحمة الله فى غصون سنة ١٠١٩ .

ورغما كان ابنه أبو القاسم محمد يماثله علما وأدبا و إن كان لا يدانيه خلقا وفضلا ، فقد كان أنانيا ذا أثرة وطمع وصلف وتنكر و إنكار للجميل ، وقد حدث على أثر وفاة أبيه أن طمع فى أن يخلفه فى منصب القضاء ، ولكن القوم آثروا عليه غيره ، فتقدم بالرجاء الى قاسم بن حمود فنال ـ بفضل قاسم ـ منصب القضاء الذى كان يؤمله . وقد يرى المتتبع للحوادث فيما بعد كيف كان نكرانه لهذا الجميل .

وفى مفتتح هذا العهد ـ الذى نحن بصدده ـ أشار نبلاء أشبيلية وأصحاب الرأى فيها على أبى القاسم قاضى اشبيلية أن يتبوأ عرش المملكة ، ولما أدرك الغاية التى يرمون اليها أظهر لهم أنه لا يستطيع أن يقبل هذا الشرف الذى يولونه إياه إلا بشرط أن يشرك معه فى الحكم أفرادا يعينهم هو نفسه على أن يكونوا وزراءه وأعوانه فى الاضطلاع بأعباء الحكم بحجة أن هؤلاء الاشخاص الذين يشركهم معه فى الرأى ستتألف منهم هيئة شورية تقوم على تدبير المملكة بحيث لا يصدر إلا عن رأيهم ، ولا يتخذ أى قرار بدون مشاورتهم ، فقبل الاشبيليون ما اشترطه القاضى من أن يكون حكمه على قواعد الشورى فلا يحكم بمفرده ، وطلبوا إليه إنفاذ ما اعتزمه من تعيين أولئك الزملاء والأعوان ، فعين بعض كرام الأسر العريقة مثل ابن حجاج وآخرين كانت تسمو إليهم الأنظار وترمقهم العيون من نصرائه الذين أنجبهم العصر ،

---

(١) وكان عباد الجد الثالث لاسماعيل

وأطلعهم كواكب فى سماء العصر ، كأبى بكر الزبيدى العالم النحوى الشهير مؤدب هشام الثانى ، وبعد أن تم له ما أراد من ذلك انصرف همه الى تكوين جيش للمملكة ، رفع أعطيات وأرزاق الجند ، فانضوى تحت لوائه كثير من العرب والبربر ، ثم اشترى عددا كبيرا من المماليك ودربهم على القتال وجرّد منهم حملة على الشمال ، وهى فى الكثير الغالب كانت موجهة الى أمراء آخرين ، وقد حاصر قصرين فى شمال فيزى أنشئا متقابلين على صخور يفصلهما سور وأطلق عليهما اسم الأخوين وهما معروفان الآن باسم «ألافوين» وكان يقطنهما اسبانيون مسيحيون كان أسلافهم قد عقدوا معاهدة مع موسى بن نصير ، والظاهر أن هذين القصرين لم يكونا فى العصر الذى نتحدث عنه فى حيازة ملك ليون ولا فى حيازة أمير مسلم ، ولذلك استولى القاضى عليهما وأرغم الذين كانوا يدافعون عنهما - وهم زهاء ثلاثمائة فارس على - الانضواء تحت لوائه ، وبذلك زادت نواة جيشه فبلغت خمسمائة فارس ، وثمة اجتمع لديه من الجند ما يكفى للاغارة على الممالك المتاخمة له ، إلا أن حالته هذه لم تكن لتمكنه من صد هجمات قوية جدية ضد اشبيلية ، وهذا ما وقع له سنة ١٠٢٧ ، فى هذه السنة جاء الخليفة الحمودى يحيى بن على وأمير بربر قرمونة محمد بن عبد الله وحاصرا اشبيلية ، ولما كان فى منتهى الضعف بحيث لا يستطيع المقاومة طويلا أخذ الاشبيليون يفاوضون يحيى وأعلنوا أنهم مستعدون للاعتراف بسيادته عليهم على شرط ألا يدخل البربر مدينتهم فقبل يحيى هذا الشرط ولكنه شرط عليهم - ضمانا لوفائهم وإخلاصهم - أن يرسل بعض أعيان ونبلاء اشبيلية أولادهم ليكونوا عنده رهائن يضمن بها ولاء الاشبيليين ، فلم يستطع أحد منهم أن يقدم ابنه خشية من البربر الذين يقضون على حياته لأقل شبهة ، والقاضى وحده هو الذى لم يتردد فى إجابة الطلب إذ أرسل الى يحيى نجله عباد. ولعل الخليفة بما للقاضى من الجاه والنفوذ اكتفى بقبول ابنه رهينة لديه ، وبفضل هذا العمل المجيد الدال على الاخلاص للبلاد ازدادت مكانة القاضى عند الاشبيليين عامة ، وأصبح منذ ذلك الحين - لا يخشى شيئا لا من جانب الشعب ، ولا من جانب الخليفة الذى اعترف بسيادته شكلا وخيل إليه أن الفرصة السانحة قد أمكنته من الانفراد بالحكم .

ولما كان قد أبعد من مجلس الحكم مثل ابن حجاج وغيره ولم يبق معه سوى زميلين ثم رأى أن يصرفهما عن خدمته ، ونفى زبيدى ، وعين رجلا من خواص أشبيلية اسمه « حبيب » رئيسا للوزارة ، ولم يكن حبيب هذا من رجال المبادئ إلا أنه مع هذا كان ذكيا مخلصا بكل معانى كلمة الاخلاص لمولاه ، منصرفا الى مصلحته .

وعلى أثر ذلك أراد القاضى أن يزيد فى رقعة المملكة بالاستيلاء على باجة ، وقد حلت أخيرا بهـذه المدينة المصائب فى غضـون القرن التاسع عشر من جراء الحرب التى نشبت بين العرب والحائنين . إذ نهبت وخرب البربر جزءا منها ، وعاثوا فيها سلبا ، وأحرقوا ماصادفوه فى طريقهم، وكان فى نية القاضى إعادة تشييد ماحرب منها ، ولـكن لما اتصـل بعبد الله بن الأفطس أمير «باداجوز» عزم القاضى ، جرد جيوشه تحت إمرة ابنه محمد «الذى حلمه فيما بعد باسم المظفر» وتمّ استيلاء هذه الجيوش على باجه فى الوقت الذى جاء فيه اسماعيل بن القاضى بجيش اشبيلية وجيش حليف أبيه أمير قرمونه ، فبدأ حصارها فى الحال وأمر فرسانه بالسلب والنهب فى القرى الواقعة بين ايفورا والبحر ، وعلى الرغم من المدد الذى جاء من ابن طيفور ، فان محمدا كان سيىء الحظ كثيرا إذ بعد أن فقد نخبة فرسانه المحاربين وقع أسيرا بين يدى أعدائه وأرسل الى قرمونه .

زادت هـذه الانتصارات فى حماسة القاضى وحليفه الأمير ، فلم يكتفيا بالاغارة على باداجوز وحدها بل أغارا على قرطبة أيضا فاضطرت حكومتها أن تستخدم للدفاع كثيرا من بربر ولاية سيدونا .

و بعد فترة من الزمن أبرم القاضى وحليفه صلحا أو بمعنى ـ إن شئت ـ هدنة مع الافتازيد وحينئذ أطلق محمد من الأسر برضا القاضى (مارس سنة ١٠٣٠) ولما أبلغه أمير قرمونه نبأ اطلاق سراحه عرض عليه أن يعرج فى طريقه على اشبيلية ، و يبلغ القاضى شكره ، ولـكن محمدا لفرط اشمئزازه من القاضى ، قال لأمير البربر : « إنى أوثر أن أظل سجينك على أن أقوم عما أشرت به علىّ ، فاذا كنت مدينا لغيرك باطلاق سراحى ، وكان على أن أشكر قاضى اشبيلية وفاء لهذا الحق ، فانى أفضل أن أبقى حيث أنا سجين » فاحترم الأمير شعوره وأرسله الى باداجوز مشيعا بما يليق برجل عظيم مثله من واجب الاجلال والتـكريم .

و بعـد بضع سنين أى فى سنة ١٠٣٤ انتقم عبد الله بطريقة قد تعتبر غير شريفة وثأر لنفسـه من تلك الشدائد التى نالته ، وذلك بأن أباح لقاضى أن تمرّ بأرضه جنوده بقيادة ابنه اسماعيل وهى ذاهبة فى طريقها للاغارة على مملـكة ليون ، ولما كان اسماعيل وجنوده فى مضيق لايبعد كثيرا عن الحـدود الليونية باغته جيش الافتاريد فقتل من جنود اشبيلية مقتلة عظيمة ، وقتل فرسان ليون فلول الجيش عند لياذهم بالفرار ، وأفلت اسماعيل من هذه المذبحة ومعه نفر يسير من رجاله ، وفيما كان موليا وجهه شطر مدينة لشبونه الواقعة على حدود مملـكة أبيه من الجهة الشمالية العربيـة تحمل هو ومن معه أشدّ آلام الحرمان من حاجات المعيشـة الضرورية .

ومنذ هذه [illegible] ار القاضى الخصم الألدّ لأمير «باداجوز» وليس لدينا معلومات تفصيلية عن

المعارك التي دارت بعد ذلك بين أمير «باداجوز» وخصمه، ومما لا ريب فيه أن هذه الحروب لم يكن لها نتائج ذات شأن عظيم لأسبانيا المسلمة ولم تترك فيها أثراً يضارع ما تركه فيها حادث آخر سنتناوله فيما يلي.

قلنا ان القاضي اعترف بسيادة الخليفة الحمودي يحيى بن على ولكن هذا الاعتراف عبارة عن تعهد غير مجد وقد بقي كذلك مدة طويلة فقد قام القاضي بحكم أشبيلية بلا سلطان عليه ولا رقابة وكان يحيى من الضعف بحيث لا يستطيع أن يلزمه بالمحافظة على حقوقه وقد تبدلت هذه الحال تدريجاً اذ وفق يحيى لأن يضم حوله جميع أمراء البربر تقريبا ، فأصبح من الآن بحق زعيم عامة الحزب الافريقي بعد أن كانت هذه الزعامة فيما مضى اسمية ، ولما كان معسكره العام في قرمونة التي طرد منها محمد بن عبد الله فقد أصبحت جيوشه تهدد قرطبة وأشبيلية في آن واحد ، وقد أوحى هذا الخطر المخيف المحدق الى القاضي بفكرة وطنية لها خطرها ، قيمتها لو لم يشبها الحرص والطمع والأنانية والجشع.

فقد رأى من الضروري أن يجتمع العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد حتى لا يغزو البربر الذين اتحدوا الاملاك التي سبق لهم غزوها .

وهذه هي الوسيلة التي تجعل البلاد بمنجاة من حلول مثل ما حل بها من المصائب من قبل ، وكان القاضي يشعر من أعماق نفسه بهذه الضرورة ، فقويت عنده الرغبة في أن يتألف حزب قوي كبير يندمج فيه جميع العناصر المعادية للحزب الافريقي ، وهو في الوقت ذاته يتمنى أن يكون رئيسه ، ولم تكن العقبات التي عليه أن يذللها لنيل تلك الغاية بخافية عليه . فقد كان يدرك أن ملوك الصقالبة وأمراء العرب ، وشيوخ قرطبة يجرحون في كرامتهم اذا ما حاول أن يبسط سلطانه عليهم ، على أن شيئا من ذلك لم يثبط همته ولم يجعل اليأس يتسرب الى نفسه .

ولما كانت المصادفات ستخدمه ، فهو سيتمكن الى حد ما من الوصول الى الغاية التي يرمي اليها ، والمشروع الذي يعمل على تحقيقه ، وسنرى فيما بعد على أي نحو يتم له ذلك .

أسلفنا أن الخليفة التعس «هشام الثاني» فر من القصر في عهد سليمان الثاني . وقلنا ان أكثر الظواهر تدل على أنه مات في آسيا مجهولا غير معروف . ومع هذا فقد بقي الشعب غير مصدق بوفاته لتعلقه المفرط بالدولة الأموية التي درت عليه أخلاف اليسر والرخاء، وكسته حلل الشرف والمجد ، وكان عامة أفراد الشعب يتلقون الاشاعات التي كانت تردالبهم من الخارج مثبتة بقائه على قيد الحياة باهتمام وشغف ، وهناك أفراد كانوا يزعمون أنهم واقفون على تفاصيل حياته في آسيا فقد أشاع بعض أولئك الزاعمين أنه رحل أولا إلى مكة ومعه حريطة مملوءة بالنقود والنفائس ، فسلبه الزنوج الذين كانوا برفقته ما معه ، وأنه استمر يومين لا يتذوق طعاما ولا شرابا ، إلى أن رآه رجل يصنع الفخار فرق له ورثى لحاله ، فعرض عليه أن يعجن له الصلصال على أن يعطيه في اليوم درهما ورغيفا ، فرجا صانع الفخار أن يعطيه الأجر سلفا إذ قد مضى عليه يومان لم

يتناول فيهما طعاماً و بعد لأى استطاع هشام على كسل رفترة فى العمل أن يكسب قوت يومه ، إلا أنه أنف من هذه الحالة فهرب ، وسار مع قافلة ذاهبة الى فلسطين ، ووصل الى أورشليم ، وهو فى أشدّ حالات الاملاق ، وهناك بينما هو يتنقل فى بعض طرق المدينة إذ وقف على حانوت حصرى ، وأخذ ينظر الى عمله بانتباه شديد ، فسأله الحصرى : هل تعرف هذه الصناعة ؟ فأجابه بحزن كلا ، وأنا آسف لأنه لا سبيل الى العيش وكسب ما أسدّ به الرّمق ، فقال الحصرى : اذن فابق معى لحاجتى اليك فى احضار الخيزران ، ولك أجرك ، فقبل مسرورا و بقى عند الحصرى الى أن حذق الصناعة ، وما زال على هذه الحال بضع سنين ؛ وقد أذاعوا بعد ذلك أنه عاد الى أسبانيا فى سنة ١٠٣٣ ونزل مالقه ثم تحوّل عنها الى المريه ، فوصل اليها سنة ١٠٣٥ فاضطر الأمير زهير الى إبعاده خارج حدود مملكته ، فرحل الى كالاترافا وثمة التى بها عصا التسيار .

هذه الرواية التى صادفت رواجا وقبولا من الشعب لا تستحق ـ على ما يظهر ـ أن تنال شيئا من الثقة ، والذى وقع حقيقة هو أنه فى العهد الذى كان فيه يحيى يهدّد إشبيلية وقرطبة ، كان فى كالاترافا رجل حصرى اسمه خلف يشبه تمام الشبه الخليفة هشاما الثانى ، ولكن لم يقم دليل على أنه هو بعينه ، وقد نفى الأمويون شيعة هشام ومعهم ابن حيان وابن حزم المؤرخان ما دار حول هشام المزعوم من الروايات والاراجيف وعدوه ضربا من الحيلة السياسية والخداع والقحة ، وان كان من مصلحتهم لو أمكن الوقوف لهشام على أثر ، ولم يتوقف خلف حين طرق سمعه كثيرا أنه يشبه هشام عن ادّعاء أنه هو نفسه الخليفة هشام الثانى ، وقد جازت هذه الحيلة على أهالى كالاترا ، لان خلفا لم يكن معروف النسب عندهم ، والأغرب من هذا أنهم دخلوا فى طاعته ، وثاروا على أميرهم اسماعيل بن دهمان ـ ذون أمير طليطلة فجاء هذا وحاصرهم ولم تطل مدّة مقاومتهم ، وأخرج هشاما المزعوم من المدينة فهدأ ثائر الأهالى ، وعادوا الى السكينة والخضوع .

ولم ينته دور خلف عند هذا الحدّ ، بل رجع عودا على بدء حين علم قاضى اشبيلية بخبره وعلم الفائدة التى يجنيها من وراء ذلك الرجل اذا هو أحضره الى إشبيلية ، وكان الذى يهمه إنما هو استغلال الموقف بقطع النظر عن شخصية الرجل . كما كان يسره كثيرا أن يرتضى الناس أنه هشام ، ليستطيع أن يكون باسمه حربا ضدّ البربر ويكون هو بعنوان كونه رئيس الوزراء زعيم روح هذا الحرب ، ولهذا بادر الى دعوة الخليفة المزعوم الى إشبيلية ، ووعده بتعضيده اذا نجح فى اثبات شخصيته ، ولما حضر الحصرى الى اشبيلية قدمه القاضى الى نساء هشام بالقصر ، فصرحن جميعهنّ تقريبا بأنه هو بعينه الخليفة السابق ، وعوّل القاضى على قوطنّ ، وبعث الى شيوخ اشبيلية وأمراء العرب والصقالبة يعلمهم بأن هشاما الثانى عنده ، ويدعوهم الى حمل السلاح معه دفاعا عن حقوقه ، ومؤازرة لقضية الخلافة وقد كان الله هذا المسمى

بالنجاح ، واعترف بسيادة هشام محمد بن عبد الله أمير قرمونة المخلوع الذى لجأ إلى اشبيلية ، وعبد العزيز أمير بلنسية ، ومجاهد أمير دانية ، وحزر بليار ، وأمير ترتوزا (طرطوشة) .

وعلم عامة الشعب فى قرطبة علما مقرونا بالسرور أنه لايزال على قيد الحياة ، إلا أن كبيرهم أبا الحزم بن جهور كان أقلهم تصديقا للخبر حرصا على الحكم ، فلم ينخدع ، ولم تجد هذه الحيلة الى نفسه مساغا ، ولكنه لم يجد سبيلا إلى مقاومة إرادة الشعب ، ومخالفة ميوله ، ورأى ضرورة اتحاد العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد ، لأنه كان يخشى فى ذلك الحين أن يهاجم البربر قرطبة ، فلهذه الأسباب لم يناقض أغراض مواطنيه ، وسمحت نفسه بأن تتجدد البيعة لهشام الثانى من جديد .

وكان من نتيجة هذه الحوادث أنه بينما كان الحزب العربى الصقلبى يتسلح ضدّ يحيى ، كان هذا محاصرا إشبيلية ، مجدّا فى تخريب ما يتصل بها من العمران ، موطنا النفس على الانتقام الهائل من القاضى الخائن ، ولكن الملتفين حوله ــ من بربر قرمونة الذين أكرههم على الانضواء تحت رايته ــ كان هواهم مع هشام الثانى خليفتهم السابق ، وكانت المخابرة بينهم و بينه سائرة ، وفى اكتوبر سنة ١٠٣٥ ذهب فريق منهم خفية الى إشبيلية ، وأبلغوا القاضى ومحمد بن عبدالله أنه من السهل مباغتة يحيى لأنه لا يكاد يفيق من السكر ، ولم يدع القاضى وحليفه هذه الفرصة تمر دون أن يستفيدا منها ، وهنا وجه القاضى ابنه اسماعيل ومعه محمد بن عبد الله على رأس الجيش الاشبيلى ، وبعد ما أرخى الليل سدوله كمن اسماعيل مع أكثر الجند فى كمين ، وأرسل كوكبة لمناوشة قرمونة ليغرى يحيى بالخروج الى ظاهرها وقد نجح فى خطته هذه ، اذ كان يحيى حين بلغه مجىء ابن عباد على رأس جيش ثملا ، فنهض وكان متكئا على سريره وصاح قائلا : « يا لها من فرصة سعيدة ، هذا ابن عباد مقبل لزيارتى ، والآن أيها الجند ، خذوا أسلحتكم وامتطوا جيادكم قبل ضياع الوقت ، وخرج فى ثلاثة آلاف فارس ، وكان النبيذ قد لعب برأسه فلم يتمهل ريثما يعبىء جنده و ينظم خططه ، يضاف الى ذلك أن ظلام الليل الحالك كان يحجب عنه كل شىء ، وفوجىء الاشبيليون منه بهذا الهجوم المباغت فقابلوه من جانبهم بجلد وعنف ، وأخذوا يتقهقرون بنظام نحو المكان الذى كمن فيه إسماعيل ، ومن هذه اللحظة سعى يحيى الى حتفه بنفسه . فان إسماعيل انقض عليه بكل قوات الجند ، واضطره الى التقهقر ، وقتل يحيى نفسه فى المعركة ، وكاد يأتى القتل على أكثر رجاله لو لم يحل محمد بن عبدالله دون ذلك ، وقال له : « إن أغلب هؤلاء المساكين من بربر قرمونة الذين أكرههم هذا الطاغية على الدخول فى خدمته مع كراهتهم واحتقارهم له . » فأبقى عليهم وأمر جنده بترك تعقبهم وخف محمد ابن عبد الله إلى قرمونة على ظهر جواده ليسترد ملكه ، وأراد زنوج يحيى الذين استولوا على أبواب المدينة أن يحولوا بينه و بين الدخول لو لا أن ساعده الأهالى على دخولها من ثغرة ، وسار الى قصر الامارة وسلم نساء الأمير يحيى الى بنيه ، واستولى على ما فى القصر من كنوز ونفائس « نوفمبر سنة ١٠٣٥ »

وقد أحدث نبأ وفاة يحي سرورا عظيما فى اشبيلية وقرطبة ، وعند ما وصل الخبرالى مسامع القاضى خرّ ساجدا شكرا لله ، وحذا حذوه جيع من كانوا حوله والآن أصبح القاضى لايخشى شيئا من جانب الحموديين، وقد نودى بادريس أحدأشقاء يحي خليفة فى مالقه ، وقد كان يعوزه الوقت الكافى الذى يستطيع فيه أن يكسب بقوّة نفوذه ، وما يقدّمه من وعود ، قلوب زعماء البربر ، ليجعلهم فى صفه ، ولهذا لم يعد فى استطاعته أن يخضع الجزيرة بعد أن نادى الزنوج فيها بابن عمه محمد ، خليفة .

ولما رأى القاضى أن الظروف خدمته، همّ بأن يقيم هو وهشام الثانى المزعوم بقصر الخلافة فى قرطبة ، إلا أن يقظة ابن جهور ، وتصميمه على عدم التخلى عن الحكم ، وقفا حجر عثرة فى طريقه ، فقد نجح فى اقناع أهل قرطبة أن الخليفة المزعوم لم يكن سوى رجل ماكر مخادع وأن اسم هشام قد ألغى من الامامة ، وعرف أن القاضى عند مجيئة بهشام الى قرطبة سيلقى أبوابها مغلقة فى وجهه ، وثمة لا يستطيع التغلب على مدينة منيعة حصينة مثلها ، فيضطر أن يعود من حيث أتى .

٭٭٭

وعوّل فى بداية الأمر على أن تعسكر جيوشه عند الأمير الصقلى ، وهو الامير الوحيد الذى أبى الاعتراف بهشام الثانى . ذلك الأمير هو زهير أمير المرية ، وعند أراد الخليفة رسم أن يهوّن على الأمير ، واقطعه عدّة أملاك بدأ زهير يناصر الحموديين ، ولما نودى بادريس خليفة بادر بالاعتراف به ، ولما صار الآن مهدّدا من القاضى عقد محالفة مع جيوش الغرناطى ، ثم زحف جيش إسبيلية ، وذهب لمقابلته بجوده وجنود حليفه إذ اضطره إلى التقهقر .

ومن المحقق أن القاضى قد بالغ فى الاعتداد بقوّته ، ولم يحسب حساب أعدائه ، وكان عليه أن يخشى مجىء الوقت الذى تغزو فيه جيوش المرية وغرناطة بدورها إسبيلية .

وكثيرا ما خدمته محاسن الصدف التى شاءت أن يخلصه أحد أعدائه من عدوه الآخر .

٢ ـ المناهج الأدبية [1]

كل ما يكتب فى هـذا العصر إنما هو محاولات أوّلية ترمى الى المثـل الأعلى الذى ننشده جميعا ، ولا يزال الأدب العربى وتاريخ الأدب العربى فى أشد الحاجة الى جهود الأدباء المتواصلة لتنظيمه وتمحيصه و إصلاح تحريفه والكشف عن الاغلاط الكثيرة التى ألحقها به النساخ .

ولازال كل جهد يبذل فى ازاحة الستور عن هذه المناجم النفيسة مفتقرا الى جهد آخر يشدّ أزره و يساعده .

قد كنا الى عهد قريب لا نكاد نؤمن بأن فى العربية كلها شاعرا واحدا يجارى المشهورين من شعراء الغرب . فلما انصرف الأدباء والعلماء الى الدرس والتمحيص والبحث والتحليل ، اكتشف الشباب نخبة من قادة الفكر العربى الممتازين ، ولا زلنا نطمع فى ازاحة الستور عن بقية اعلام الفكر العربى القدماء .

وقد كان من الطبيعى أن يصحب نهضتنا وهى فى أوّلها ما يصحب كل نهضة أخرى من الغلوّ والاسراف فى بعض النواحى ، وفى نهضتنا الأدبية عيب جوهرى نخشى أن يعوق سيرها حينا من الزمن نحن فى أشدّ الحاجة الى الانتفاع به واستغلاله بأقصى ما فيها من قوة: ذلك العيب الجوهرى هو أن أكثر من يكتب فى تاريخ الأدب العربى ينقسم قسـمين : فريق من المحافظين الجامدين وفريق من المجدّدين المسرفين .

يأبى الفريق الأوّل الا أن يتقيد بالنصوص القديمة و يأخذ بآراء القدماء فى النقد والأدب بالغة ما بلغت من الاضطراب والفساد من غير أن يعنى نفسه ببحثها وتمحيصها ولا يكاد يردّد الا عبارات محفوظة و (كليشيهات) قد أملاها الدهر ولا يكاد يجرؤ على استخلاص نتيجة واحدة من بحوثه الطويلة واطلاعه الواسع ، فامرؤ القيس أكبر مزاياه أنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى شطر بيت واحد وذلك فى قوله :

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل »

والنابغة الذبيانى قد بز الشعراء بقوله :

« فانك كالليل الذى هو مدركى   وان خلت أن المنتأى عنك واسع »

الى آخر هـذه العبارات التى حان الوقت لاراحتها بعد أن أنهكها طول الاستعمال وكثرة الاستشهاد والتكرار .

الفريق الثانى من غلاة المجددين أو ـ على الأصح ـ دعاة التجديد ، لا يبالون بالنصوص ولا يعنون أنفسهم بدرس الموضوع الذى يتصدّون لبحثه ، وربما اكتفى بعضهم بالخلاصات المدرسية التافهة فى الحكم على الشعراء والأدباء والأدب العربى كله .

فالعرب ـ فى رأى أحدهم ـ لم يطرقوا نوعا بعينه من الشعر ، لأنه لم يقرأ هذا النوع فى تلك

---

(١) ننشر فيما يلى فصولا مختارة من رسالتنا عن ابن زيدون ، تنويرا للقراء .

الخلاصات المدرسية ، وهذا الشاعر لا يسمو الى مرتبة الفحول لأن الأبيات القليلة التي قرأها في تلك الخلاصات لا تبرر وضعه في مصاف المتارين والنوابغ .

وهم لا يرون اذا تصدوا للكتابة إلا وسيلة واحدة للطرافة والابداع وهي الخيال ، فهم لا يبالون اذا أعوزتهم النصوص أن يخلقوا تاريخ الشاعر خلقا ، وأن يدمجوا حياتهم في حياته وينحلوه نقائصهم وما يتخيلونه في نفوسهم من مزايا، فتراهم يخلقون من الشاعر صورة هي أصدق مرآة نستشف فيها نفوسهم .

فاذا كان أحدهم خليعا تلمس شاعرا مشهورا بالخلاعة ولم يعن نفسه بشرح أسباب خلاعته مقدار عنايته بتبرير الخلاعة والتمدح بها ، واذا كان أحدهم حاقدا تلمس شاعرا مشهورا بالحقد ، ولم يعن بالأسباب التي أحفظته على معاصريه عنايته بتبرير هذه الخلة فيه .

ولست أنكر على الباحث أن يتصدى لتحليل أية نفس إنسانية ماجنة أو جادة ، راضية أو ساخطة ، ولكني أنكر عليه أن يخلق التاريخ خلقا ليؤيد رأيا — صالحا كان أو فاسدا — فان أمانة المؤرخ ودقته هما أول واجبه نحو الحقيقة والانصاف

اما أن ينصر هوى أو يجرى وراء خيال أو ينطق لنا — بلا روية ولا أناة — نظريات مغلوطة وآراء فاسدة خاطئة تلقفها بلا روية ولا تدبر ، فذلك أضر على الحقيقة من أولئك الجامدين الذين لا يتقدمون بالأدب خطوة واحدة .

وقد بلغ من تهوس وشطط بعض دعاة التجديد أنهم أنكروا كل خيال عربي — لماذا ? لأنهم سمعوا أن أحد المستشرقين قال « إن العرب ضيقو الخيال وإن سعة الخيال وعمق الفكر وقف على الآريين »

فان الرومي مثلا واسع الخيال لا لأنهم اقتنعوا بسعة خياله ، بل لأن جده رومي .

والمعري لا خيال له وان كان خياله أوسع من خيال ابن الرومي — لماذا ? لأنه عربي قح ، ولكن المعري هو صاحب رسالة الغفران التي تعد آية من آيات الخيال العربي . فماذا يقولون فيها ?

الأمر غاية في اليسر ، ليس في رسالة الغفران كلها خيال وانما هي كتاب أنشأه المعري في جغرافية الجنة والنار .

ومن اليوم الى أن يظهر للمعري جد رومي تبقى رسالة الغفران كتاب جغرافية ، ومتى ظهر له جد آرى أصبحت « رسالة الغفران » كتابا من أروع كتب الخيال

هكذا يحكمون من غير أن يحاسبوا نفوسهم على ما يقولون .

وقد حاولنا جهدنا أن نلمس لابن زيدون جدا آريا نقدم به الى هذه الفئة لنكبر من مواهبه وخياله ، فلم نظفر بذلك .

على أن في ابن زيدون مزية قد تشفع له عند هؤلاء المفتونين بالغرب وما يمت إلى الغرب .

فقد نشأ ابن زيدون في بلاد الأندلس : وهي في صميم أوروبا ، فهو شاعر أوروبي البيئة وقد مدحه كثير من المستشرقين ، ولعل هذا يشفع له عند هؤلاء المقلدين .

أما الشباب المنصف الذى لا يعنى إلا بالحقائق ، فانا نتقدّم إليه بديوان ابن زيدون ورسائله، وسيرى فيها أمثلة من الابداع والافتنان ، ونماذج من الروعة والاحسان ، وصفحات رائعة من صفاء الديباجة وسحر البيان ـ وكلنا ثقة بأن درس ابن زيدون سيكون أكبر حافز على درس غيره من فحول الأدب العربى والبيان العربى .

وما أجدر الباحثين أن يتوخوا الانصاف فان آفة الرأى الهوى، وأكثر الناقدين لا يفسد عليهم بحوثهم إلا التحيز وتنكب الجادة وإرضاء النزوات الفكرية الطائشة . وفى يقينى أن الناقد كالقاضى يجب أن يتوخى النزاهة التامّة ، ويسمو بنفسه عن مزالق الأهواء ، ولا يألو جهدا فى البحث عن الحقيقة ، أما أن ينقلب الناقد محاميا للدفاع أونائب اتهام ـ كما يفعل أكثر الكتاب ـ فذلك ما لا نرضاه له ، ولعلّ أكبر عقاب يناله هو فقدانه الثقة بما يكتب .

٣ — نشأة ابن زيدون

ولد ابن زيدون فى قرطبة سنة ٣٩٤ هـ فى زمن الدولة العامرية ، فى أول عهد المظفر ابن المنصور بعد سنة واحدة من موت المنصور بن أبى عامر . وهو من أسرة مجيدة من بنى مخزوم [1] ؛ وهو أحد ثلاثة تسموا بابن زيدون وهم :

١ — أبوه : عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون وكنيته أبو بكر ، وكان فقيها بقرطبة وكان قاضيا وعالما مشهورا وأديبا واسع الثقافة .
وقد مات [2] سنة ٤٠٥ هـ ، وترك ابنه وسنه حينئذ إحدى عشرة سنة وهكذا أصاب ابن زيدون اليتم وهو صغير .

٢ — أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون صاحب هذا الديوان الذى بين يدى القارئ وكنيته أبو الوليد

٣ — ابنه أبو بكر بن زيدون الذى تولى بعد وفاة أبيه وزارة المعتمد بن عباد وقتله يوسف بن تاشفين ، بعد أن استولى على ملك بنى عباد سنة ٤٨٤ هـ .

***

وكان ابن زيدون صاحب هـذا الديوان أشهر هؤلاء الثلاثة وقد كرّس حياته للدرس والتحصيل وساعده نبوغه ومواهبه على ذيوع صيته وشهرته وهو لم يتجاوز العشرين من سنيه . وكان عصره أزهى عصر أدبى فى الأندلس وقد تتلمذ على أساتيذ الأدب فى زمنه وألمّ من كل علم بطرف . وقرض الشعر ونبغ فيه وهو فى العشرين من عمره ، واشترك فى الفتنة القرطبية ، وقام بنصيب كبير فى تلك الثورة التى اندلعت نيرانها فى قرطبة .

وكان ابن زيدون من زعماء تلك الفتنة التى زلزلت دولة بنى أميـة ودولة بنى حمود والعلويين ، وانتهى الأمر بالقضاء عليهم جميعا وقيام ملوك الطوائف على أنقاضهم وكانت سنه وقت الثورة ثمانيا وعشرين سنة [3]

---

(١) بطن من قريش ، وهم عشيرة خالد بن الوليد .

(٢) مات أبوه بمدينة البيرة ، ونقلت جثته الى قرطبة فدفن بها ، ومما وصل الينا من رثاء الشعراء فيه قول بعضهم :

«أى ركن من الرياسة هيضا وجموم من المكارم غيضا
حملوه من بلدة نحو أخرى ليوافوا به ثراه الأريضا
مثل حمل السحاب ماء صبيبا ليداوى به مكانا مريضا»

(٣) بدأت الثورة سنة ٤٢٢ هـ وكانت ولادته فى سنة ٣٩٤ هـ فتكون سنه حينئذ ٢٨ عاما . وقد ظل ملك بنى أمية فى الاندلس ٢١٢ سنة وثلاثة وأربعين يوما . وقد انقسمت ممالك الأندلس بعد

فقربه اليه ابن جهور [1] وأعلى قدره ثم لم يلبث أن منحه لقب « ذى الوزارتين » .

وكانت بين ابن زيدون وابن عبدوس منافسات كثيرة لاشتراكهما فى حب ولادة ، فأخذ يكيد له ابن عبدوس هو وأصحابه الناقمون على ابن زيدون عند أبى الحزم حتى غيروا عليه قلبه وسجنوه بتهمة التآمر على قلب الملك واعادته الى بنى أمية كما سنفصل ذلك فى رسالة خاصة .

وقد أنشأ ابن زيدون فى سجنه كثيرا من القصائد الرائعة والرسائل البليغة التى يراها القارىء فى ديوانه . وحاول أن يستعطف بها ابن جهور متوسلا اليه تارة بابنه أبى الوليد وتارة بغيره من أصدقائه ، فلم تلق شكواه أذنا صاغية . على أن السجن لم ينس ابن زيدون حبه لولادة فنظم فيها نخبة من أروع قصائده ، ولما يئس من عفو أبى الحزم لجأ الى الفرار من السجن ، ولم ينس ولادة التى كان يهيم بحبها ، ولكنها أغفلته واشتغلت عنه بحب ابن عبدوس [2]

على أن ابن زيدون لم ينسها طول حياته ، وما زال ينظم الأشعار متغزلا بها ، شديد الحنين الى أيام وصالها وظل حبها المعين الثرار الذى لا ينضب ، وما زال يلهمه أروع خواطره الثائرة وعواطفه الجامحة ، وكان من أكثر الأسباب فى وصول ابن زيدون الى مرتبة الزعامة بين شعراء الغزل الممتازين .

سقوط الدولة الأموية الى تسع عشرة مملكة منها ، قرطبة ، واشبيلية ، وجيان ، وقرمونة ، والغرب ، والجزيرة الخضراء ومرسية وبلنسية ، ودانيه ، وطرطوشة ، ولاردة ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وباجة ، واشبونه الخ

قال ابن حزم : كانت طرطوشة وسرقسطة وفراغة ولاردة وقلعة أيوب فى يد بنى هود . وبلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز . ولنرى ماقوق طليطلة — من جهة الشمال — فى يد بنى رزين . وطليطلة فى يد بنى ذى النون . وقرطبة فى أيدى أبناء جهور . واشبيلية فى يد بنى عباد . ومالقة والجزيرة الخضراء فى يد بنى زيرى من البربر . والمرية فى يد زهير العامرى ثم ابن صمادح . ودانية وأعمالها الجزائر الشرقية فى يد مجاهد العامرى . وبطليوس ويابرة وشنترين واشبونه فى يد بنى الأفطس وأصبح كل امرىء وما اختار من الألقاب والاسماء ، حتى أن المستعين ، لما جلس على كرسى الخلافة ، قال للناس أجمعين : « ارتعوا كما شئتم وارتسموا بما أحببتم من الخطط » فقنعوا بالوزارة فى أيامه — مفردة ومثناة — أراذل الدائرة ، وأخابث الطارة ، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة .

(١) هو أبو الحزم بن جهور الذى استولى على المملكة بعد خلع الحمد آخر خلفاء بنى أمية ، ولم يتحول عن داره الى قصر الخلافة ، وجعل الأمر شورى ، وساس الأمور بحزمه وحسن تدبيره ، وكانت مدته فى الحكم أربع عشرة سنة وبضعة أشهر ، ثم خلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور الذى مات فى شوال سنة ٤٣٥ هـ

(٢) وفى ذلك يقول ابن زيدون .

«أكرم بولادة ذخرا لمدخر ... لو فرقت بين بيطار وعطار

قالوا : أبو عامر أضحى يلم بها ... قلت : الفراشة قد تدنو من النار

عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا ... فيمن نحب ، وما فى ذاك من عار

أكل شهى أصبنا من أطايبه ... بعضا ، وبعضا صفحنا عنه للفار»

ولما مات أبو الحزم عاد ابن زيدون الى قرطبة وانضمّ الى أبي الوليد وقام بالسفارة بينه وبين ملوك الطوائف فأعجبوا به وتموا استشارهم به لبراعته وحسن سيرته وتمكن من دولة ابن جهور وابتسم له الحظ ثانية حتى أفسد الحساد ماصلح ، وخشي ابن زيدون أن يلقى من الابن ما لقي من الأب من النكال والسجن ، ففرّ هاربا من قرطبة . وظلّ ينتقل في أرجاء الأندلس من رنده إلى باداجوز إلى اشبيلية أخيرا حيث اتصل بعباد ابن محمد صاحبها الملقب بالمعتضد(1) ولم يكن يخفى أدبه وشهرته ومكانته عليه فهش له وبش وألقى اليه مقاليد وزارته ، وبعد أن مات المعتضد حاول الوشاة وعلى رأسهم ابن عمار أخلص أصدقاء المعتمد أن يغيروا قلبه عليه وأن يدسوا له عنده فلم يفلحوا ، وأقصاهم المعتمد بن عباد عنه وقرّب اليه ابن زيدون وأعلى مكانته عنده وظلّ ابن زيدون يزين له غزو قرطبة حتى ملكها عنوة بفضل تدبير ابن زيدون وسعة حيلته ، وانتقل المعتمد وابن زيدون اليها وجعلها عاصمة ملكه .

***

ولما وقعت الثورة ضد يهود أشبيلية ، انتهز ابن عمار وابن مرتين وأنصارهما هذه الفرصة لاقصاء ابن زيدون عنهم تخلصا من منافسته ، فزينوا للمعتمد أن يوفده إلى اشبيلية لشدّة تعلق أهلها به واستغلال حبهم في تسكين الاضطراب وتهدئة الخواطر ، وكان المعتمد يعلم ما يكنه أهل اشبيلية لابن زيدون من الحب وما له عندهم من المكانة والخطر

وكان ابن زيدون مريضا فاضطره المعتمد الى السفر ، فلم يستطع إلى مخالفته سبيلا ، ولم يلبث أن اشتدّت به الحمى وألح عليه السقم فلحقت به أسرته .

ولكن الشيخوخة والمرض تكاتفا عليه فأهلكاه في ١٥ رجب سنة ٤٦٣ هـ فحزن عليه أهل اشبيلية أشدّ الحزن ودفن فيها باحتفال مهيب .

وقد مكث في خدمة آل عباد تسعة عشر عاما ، ولو طال عمره قليلا لأفلح حساده ومنافسوه في تغيير قلب المعتمد عليه والتنكيل به كما أفلحوا في مثل ذلك من قبل ، ولكن الموت أنقذه من دسائسهم وكيدهم ورحمه من شرّهم .

---

(1) استطاع المعتضد أن يتغلب على كل مناوئيه من الثائرين وبذل أقصى ما يبذل داهية من الدهاة حتى صفا له الجو وسلم له الملك وكان أكثر من يناوئه من المتغلبين وأشدهم عليه صنهاجة وبنو برزال الذين كانوا بقرمونة وأعمالها من نواحي اشبيلية ، فلم يزل يصرف الحيلة تارة — كما يقول المراكشي — ويجهز الجيوش أخرى الى أن استدرجهم ففرق كلمتهم ، وشتت منتظم أمرهم ، ونفاهم عن جميع تلك البلاد ، وصفت له أموره .

بحترى المغرب

« ويقول بعض أدبائنا : إن ابن زيدون بحترى زماننا، وصدقوا
لأنه حذا حذو الوليد فى بعض قصائده » « ابن بسام »

قلت فى فصل سابق : إننى ترددت فى مشايعة « نيكلسون » حين وصلت إلى قوله :
« وقد أطلقوا على ابن هانىء لقب متنبى العرب ، كما أطلقوا على ابن زيدون لقب بحترى العرب . »

وقد قلت حينئذ :

« ولما كنا لم ندرس ابن زيدون دراسة تمكننا من الحكم عليه حكما صحيحا ، فاننا نترك مناقشة القسم الثانى من هذه التسمية ونكتفى الآن بالكلام على النقطة الأولى وهى تشبيه ابن هانىء بالمتنبى لاستطاعتنا الكلام فى هذا الموضوع . »

والآن بعد عشر سنوات أستطيع أن أقرر مستوثقا : أن هذه التسمية صادقة فى تفصيلها وإجمالها، وأن من يدرس ابن زيدون والبحترى يطلق على ابن زيدون لقب بحترى المغرب، ولو لم يعرف أن القدماء قد أطلقوا عليه ذلك اللقب، فكلاهما رائع النظم ساحر الأداء ، وأكثر الصور الشعرية التى أبدعاها جديرة بأن تنال أعز مكان فى أرقى المتاحف الشعرية .

ولقد يسر علينا ما لقيناه من الجهد والعناء فى اظهار هذا الديوان أن به من الصور الشعرية الرائعة والبيان الساحر الخلاب ما يفخر به الأدب العربى والشعر العربى فى أزهى عصورهما وأنضرها ، فقد كان ابن زيدون فى سموه وافتنانه ـ وما أكثر سموه وافتنانه ـ مثالا رائعا للشاعر المبدع القادر المتصرف بفنون القول وأساليب البيان .

وأحب أن أصارح القارىء أنى كدت أتسرع فى الحكم حين عرضت لهذه التسمية فى كتابى « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى » ، فأقرر أن فى هذه التسمية كثيرا من الاسراف والمبالغة ، وقد كنت حينئذ متشبعا بروح البحترى مأخوذا بسحر بيانه ، وكنت لا أكاد أصدق أن شاعرا ـ كابن زيدون ـ جدير أن يوضع معه فى ميزان أو يشركه فى إحسان .

ولكننى رأيت أن من الظلم والعبث أن أفاضل بين شاعرين درست أحدهما دراسة مستفيضة ولم أقرأ لثانيهما إلا العشرات من الأبيات وبضع صفحات من النثر ، فأرجأت الحكم حتى أتم الدرس.

وهذه حالة نفسية تعرض لأكثر المشتغلين بالأدب فى هذا العصر ، وهى آفة من الآفات التى تفسد على الباحثين بحوثهم ، فان أكثرهم لا يتورع فى الحكم على شاعر لم يدرسه ولم يعن بقراءة آثاره وتقصى أخباره ، بأنه شاعر ممتاز أو سخيف ، وبعضهم يكتفى بالمختصرات المدرسية والمختارات الشائعة المقتضبة فيصدر الأحكام السريعة على الشعراء والأدباء وربما عكف أحدهم على درس شاعر ولم يدرس غيره ، فراح يملأ الأرض تمجيدا له ويسرف فى اظهار مزاياه وتفضيله على جميع شعراء العربية حتى ليقول أحدهم فى وصف بعض الشعراء :

« فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه وهو الشاعر فى جيده ورديئه ، وهو الشاعر فيما يحتفل به وما يلقيه على عواهنه » الى أن يقول « فما تحرك حركة الا كان للعقرية فيها أوفى نصيب » (1)

وقد كان المرحوم الشيخ محمد شريف سليم شارح ديوان ابن الرومى ، يرى بعد أن درسه دراسة مستفيضة أن ابن الرومى أشعر شعراء العربية . وأكثرهم تصرفا بفنون القول وكان الباعث له على ذلك أنه عكف على درسه زمنا طويلا وظهرت له مزاياه الباهرة فحسب أن أحدا من الشعراء مهما سما لن يصل الى مكانة ابن الرومى .

ولهؤلاء الباحثين عذرهم فى اصدار هذه الأحكام وان لم ينصفوا الحقيقة، فان كل شاعر من هؤلاء الفحول يترحم لنا عن حضارة هائلة و يحلق بنا فى أجواء ساحرة تنسينا ــ حين نحلق فيها ــ كل شاعر سواه ، فالبحترى والمتنبى والمعرى وابن الرومى وابن زيدون وابن حمديس وأضرابهم يكاد يعيك واحد منهم و يملأ نفسك جمالا وروعة اذا اقتصرت على درسه وحده .

ولكنك بعد ذلك جدير ألا تحكم بتفضيل أحد هؤلاء على الآخرين والازراء بهم لأنك لم تدرسهم جميعا دراسة مستفيضة .

وأذكر بهذه المناسبة أنى كنت فى مجلس يضم صفوة من رجال الأدب الممتازين كانوا يتناقشون فى الأدب فقال أحدهم :

« إن سيد كتاب العربية و إمام البيان العربى هو ابن المقفع » ثم راح يطريه ويخلع عليه كل عبارات الثناء ، فقال له الآخر : « أما أنا فلست من رأيك ، فان أبا الفرج الاصبهانى بنثره المعجز قد بز كل كتاب العربية » فقال الثالث : « أين أنتم من عبد الحميد الكاتب فهو سيد هؤلاء جميعا » فانبرى له الرابع قائلا :

« الحق أن امام البيان العربى هو الجاحظ » ثم سألونى رأيى فقلت :

« بل سيد كتاب العربية هم هؤلاء جميعا وأضرابهم ولكن كل واحد منكم عكف على درس كاتب من هؤلاء فخيل اليه أن أحدا لايدانيه بلاغة وسحرا »

وهذا مثال لا يزال يتكرر ولازلنا نرى فى كل يوم باحثا يأبى الا أن يتعصب لنابغة بعينه و يفضله على جميع الناس ، وفى هذا ما فيه من الاسراف والمغالاة وظلم الحقيقة .

وما رأيك فى قروى لم يغادر قريته الحقيرة طول عمره ، فلما سافر إلى مدينة كبيرة ورأى ما فيها من قصور فخمة وحدائق غناء ، ظن أن هذه المدينة الكبيرة ــ التى جمعت ألوان الحضارة والترف وجالات السرور ــ هى أجمل مدن العالم ، وليس من الضرورى أن يزور الانسان كل المدن الشهيرة ، فله أن يكتفى بواحدة أو أكثر ؛ ولكن من الضرورى لمن يريد المقارنة بينها و بين سائر المدن أن يزورها و يتعرفها جميعا .

كذلك ليس من الضرورى أن تقرأ كل شعراء العالم ، ولكن من الضرورى الا تفضل أحدا من الشعراء عليهم جميعا من غير أن تقرأهم جميعا .

---

(1) ارجع إلى كتابى « صور جديدة من الأدب العربى » « ص ٢٢٣ »

ماذا ، بل أنت اذا توخيت الإنصاف والدقة والنزاهة عاجز ـ بعد طول الأناة والدرس ـ عن البتّ فى تفضيل شاعر من الفحول على آخر ، وإن المنصف النزيه ليتردّد فى أن يجزم بتفضيل قصيدة رائعة على أخرى كما يتردد فى تفضيل حسناء بارعة فى الجمال على شبيهتها ، ورحم الله الأعرابى الذى طلب اليه أن يفاضل بين نوعين من الحلوى ، فظلّ يتذوّق أحدهما تارة ، ويتذوّق الثانى تارة أخرى ثم يعود إلى الأول ويرجع الى الثانى ثم قال :

« إننى كلما أردت أن أحكم لاحدهما أدلى الآخر بحجته »

وليس فى قدرة ناقد غربىّ نزيه أن يسخف شاعرا فحلا كشكسبير وإن كان فى قدرته أن ينتقده ويظهر عيوبه .

أما عندنا فعلى العكس من ذلك ، لا يتحرّج كاتب عن تسخيف شاعر فحل كالمتنبى أو إنكار شاعرية المعرى أو تحقير مواهب ابن الرومى أو ابن زيدون أو ابن حمديس أو البحترى الى آخر هؤلاء الفحول .

ثم ماذا ، عندنا من يجرؤ على انكار شاعرية عصر بأكمله كعصر ملوك الطوائف (١) الذى يعدّ أزهى عصر أدبى فى الأندلس ، بل عندنا متهوّسون يجرؤون ـ فيزعمون بلا حيطة أو مبالاة ـ أن ينكروا الأدب العصرى كله فى جميع عصوره المختلفة ، وعندنا آخرون ينكرون روعة الأدب العربى فى شتى لغاته وعصوره من غير أن يجشموا أنفسهم قراءة شىء من آثار هؤلاء أو أولئك .

وما كنا لنعرض لمناقشة أمثال هؤلاء المتسرعين فى الحكم لولا أن عدواهم كادت تسرى إلى اكثر شبابنا وبعض شيوخ الأدب واعلام الفكر عندنا .

وقد ساعدت الخلاصات المدرسية التى كتبها مدرّسو الآداب عندنا على إصدار هذه الأحكام السريعة ، فان أحدهم ليكتب كتابا يعرض فيه لتاريخ أدب الامة فى جميع عصوره ويقتبس من أحكام القدماء ما شاء من غير أن يقرأ ديوان شاعر واحد بأكمله ، ومن غير

---

(١) ومن هذه الأحكام قول أديب من هذا الطراز العجيب فى هجاء هذا العصر الذهبى ـ عصر ملوك الطوائف ـ الذى لا يكاد يعرف منه غير اسمه :

« ذلكم عصر الاسترخاء والترف . عصر ترتع فيه الأبصار والبصائر فتكل عما وراء القشور والظواهر تهجع المشاعر فى ذلك العصر وتعربد الحواس ، ويموت الحب الفطرى فتمرح فى رفاته ديدان الشهوات . وناهيك بعصر تكون فيه البهائم أصدق حباً من الناس ، لأن البهائم لا تعبث بالحب ولا تبتذله فى مثل هاتيك العصور يأخذ الناس من كل شىء بأيسره ، ويقنعون من كل مطلب بأقربه إلى الحس وأصغره . لا يكون الجمال فيها إلا صبغة فى البشرة تلحسها الألسنة حتى تزول ثم تمحها بصاقا ، ولا تكون الدنانير والأمواه إلا مجالس شراب ومراوح هواء ، ولا الطبيعة كلها ورياحينها وأثمارها إلا طنفسة مطرزة بمختلف الألوان والأشكال ، ولا الشعر إلا مهرجا براقاً لو صوّر بشرا سوياً لنالت منه العيون ما لا تنال النفوس، وما الأخلاق والمروءة والشرف إلا آدابا يصطلح عليها المعاقرون ليدوم لهم صفو المجلس ، ثم ما شاء المعاقر بعد ذلك من غى وشنار ، وما طاب له من عبث واستهتار لا يشينه ذلك ولا يقدح فى آدابه . »

ان يدرس عصره و يتقصى أخباره ، وهو لو فعل لما استطاع اصدار فصل واحد من كتابه .

وعندنا أن الخلاصات المدرسية [illegible] بتها الا بعد أن يستوفى الباحثون درس العصور والشعراء والأدباء و يقطع كل منهم لشاعر بعينه أو كاتب بعينه ، فيدرسه من جميع نواحيه ، فاذا تمّ ذلك كله أمكن اختصار بحوثهم المستفيضة فى صفحات قليلة للناشئين .

وقد تكاتفت فئة من أعلام الباحثين فى العصر الحديث ـ كما قلنا ـ على درس المتنبى وابن الرّومى والمعرى ، وظفروا بنتائج باهرة أقنعت كثيرا من الشباب المنصف بأن عندنا من الشعراء من نباهى بهم ونفخر معتطين ولا نتردّد فى مقارنتهم بأكبر شعراء العرب .

وما كان فى قدرة انسان أن يفهم جلال شعراء العرب وكتابه و يقدّر مواهبهم الممتازة وعبقرياتهم الفذة لو لم يعرض النقاد والشراح والباحثون لتحلية كل غامض وتوضيح مناحى اتجاهاتهم الفكرية ، ولن يقتنع الشباب العربىّ بأن أدبنا زاخر بالشعراء الفحول الذين لا يتخلفون عن أكبر شعراء الغرب ، الا بعد أن يتصدى أدباؤنا و باحثونا لتحليل آثار القدماء وتنظيمها وشرح غامضها و إزاحة الستور عن مناحى العبقرية فيها وتقديم ثمار جهودهم الناضجة للشباب العربىّ ، وثمّ يرى شبابنا أن هذه العقول العربية الكبيرة التى استوعبت أرقى الحضارات فى أزهى العصور وعبرت عن أخفى الخوالج النفسية وأدقّ الاحساسات وأروع الأفكار وأعمق الآراء ، جديرة بالانصاف والاقبال عليها والتمتع بسحرها الفاتن .

وسيرى الشباب ـ الذى نعلق عليه أكبر الآمال ـ فى ديوان ابن زيدون بحترى المغرب ، إذا درسه بعناية وأناة . ولم يكتف بتصفحه والمرور به ـ على عادته ـ مرورا سريعا ، أن ابن زيدون كان جديرا بما بذلنا من عناء وجهد ، وأنه جدير بمعاودة الكرة لدرسه دراسة مستفيضة فى رسالتنا التى أفردناها لتحليل أدبه وعصره والتنبيه على دقائقه ومراياه والالمام بعصره الزاهى .

و بعض الناس يفضلون البحترىّ على ابن زيدون . لأن ابن زيدون كان يعجب به ، وهو رأى مردود عليهم . فان إعجاب ابن زيدون بالبحترى كاعجاب المعرى بالمتنبى ، إعجاب عظيم بعظيم ، ولو تقدّم بابن زيدون زمنه على زمن البحترى لفتن البحترى شعره ، واتخذ منه مثالا ينسج على منواله و إماما يهتدى به فى فنه الرائع .

شاعرية ابن زيدون

« ابن زيدون عبقريّ زمانه قصر الحسنون عن إحسانه
أخذ الروم ـ فى الجزيرة ـ عنه ومشوا فى خياله وافتنانه »
« شوقى »

لكل شاعر من الفحول طابع خاص يمتاز به شعره فاذا امتاز المعرّى بالفلسفة فى شعره وامتاز المتنبى بالحكمة ، وامتاز ابن الرومى بالغوص على المعانى النادرة ، وامتاز أبو العتاهية بالزهديات ، وأبو نواس بالخمريات ، والبحترى بحسن النظم ، وأبو تمام بالصناعة وابن حمديس بالوصف فاى ميزة امتاز بها شعر ابن زيدون ؟

ميزة ابن زيدون التى تكاد تفرده من شعراء العربية هى الفنّ . فهو شاعر فنى قبل أن يكون فيلسوفا أوحكيما أوغوّاصا على المعانى أو وصافا .

الفنّ وحده هو الذى أكسب ابن زيدون زعامة الشعر فى عصره ، وأغرى فحول الشعراء فى زمنه وبعد زمنه بمحاكاته والانضواء تحت رايته . فهو شاعر الفنّ الذى أبدع أمير الشعراء فى وصفه حين قال :

« بأبى أنت هيكلا من فنون مركبا »

وإنك لترى صوره الفنية قد وصلت الى الذروة ، وقلما اشترك ابن زيدون مع شاعر آخر من الفحول فى معنى من المعانى إلا بزه ابن زيدون بفنه ، وأعجزه ببيانه الساحر المعجب . حتى البحترى الذى كان النقاد يلقبون ابن زيدون به ، كثيرا ما اشترك معه ابن زيدون فى صور شعرية وتفوّقت صور ابن زيدون على صور البحترى .

وإنما خصصنا البحترى بالذكر ، لأن البحترى هو المثال الذى اختاره ابن زيدون ونحا نحوه حتى غلب عليه اسم بحترى المغرب .

ومن العجيب أن ابن زيدون قد اشترك مع البحترى فى عدّة صور شعرية ـ كما اشترك مع غيره من الشعراء ـ فكان ماذا ؟

كانت الصور الكلامية التى يبدعها الشاعران جديرة أن توضع فى أرقى المتاحف حين يشتركان فى غرض واحد ، ولكن الصور التى أبدعها ابن زيدون جديرة بالجائزة الأولى فى أغلب الأحايين .

قال البحترى :

«ولما حضرنا سدة الاذن أخرت	رجال عن الباب الذى أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة	أقابل بدر التم حين أقابله
كما انتصب الرمح الردينى ثقفت	أنابيبه ، واهتز للطعن عامله
وكالبدر ، وافيناه ، تم سعوده	وتم سناه واستهلت منازله
وسلمت ، فاعتاقت جنانى هيبة	تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملنا الطلاقة ، وانثنى	إلىّ ببشر آنستنى مخايله

دنوت فقبلت الندى من يد امرئ ‌‌ كريم محياه سباط أنامله
صفت ــ مثل ماتصفو المدام ــ خلاله ‌‌ ورقت ــ كما رق النسيم ــ شمائله »

وقال ابن زيدون :

« فلما قضينا ماعنانا أداؤه ‌‌ وكل بما يرضيك داع فلحف
قرنا بحمد الله جدك ، إنه ‌‌ لأوكد مايحظى إليه ويزلف
وعدنا إلى القصر الذى هو كعبة ‌‌ يفاديه منا ناظر أومطرف
إذا نحن طالعناه والأفق لابس ‌‌ عجاجته والأرض بالخيل ترجف
رأيناك فى أعلى المصلى كأنما ‌‌ تطلع من محراب داود يوسف
ولما حضرنا الاذن والدهر خادم ‌‌ تشير فيمضى، والقضاء مصرف
وصلنا وقبلنا الندى منك فى يد ‌‌ بها يتلف المال الجسيم ويخلف
لقد جدت حتى ماتنفس خصاصة ‌‌ وأمنت حتى ما بقلب تخوف »

فأى الصورتين يفضل القارئ ؟

الحق ان الانسان ليحار فى تفضيل إحدى الصورتين على الأخرى ، فقد كادتا تصلان الى أقصى درجات الكمال . وتجلى إبداع الشاعرين فيهما إلى أقصى حدّ ، ولكن المنصف لايلبث بعد طول الروية والأناة أن يؤثر تلك الصورة الشعرية التى أبدعها ابن زيدون بحترى المغرب على صورة صاحبه بحترى المشرق .

وقد وقع كثير من النقاد المعاصرين فى خطأ شنيع حين تسرّعوا فى الحكم على ابن زيدون بأنه مقلد فى أكثر معانيه غير مبتدع، وحسبوه لذلك محصاص الفكر لايبعد شعره إلى الأعماق، وقد عاب بعض المتسرّعين فى الحكم مثل ذلك على أناتول فرانس ، وعيروه بأنه كاتب أسلوب لا أكثر : كما عيروا ابن زيدون بذلك ، ونسوا أن الفنّ ـ كما يقول أناتول فرانس ـ ليس فى الابداع والاختراع بقدر ما هو فى حسن التأليف ودقة الانسجام . وكثيرا ما اتخذ أناتول من الحوادث التافهة وسيلة إلى خلق قصة رائعة . وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر ـ إذا اشتركا فى معنى من المعانى ـ بما يبدعه أحدهما من الألوان وما يوفق اليه من التعبير عن ظلال المعانى ودقائقها .

فان أمّهات المعانى ـ كما قلت فى كتابى «صور جديدة من الأدب العربى» مشتركة بين الناس ـ على اختلاف لغاتهم وأزمانهم وبيئاتهم وأجناسهم ـ وانك لوحاولت أن تجد لأكثر المعانى أشباها لما أعياك ذلك . وربما قلت المعنى تحسب أنك انفردت به ثم عثرت على شبيهه ـ بعد عام أوعامين ـ فى شعر قديم أوحديث عربى أوغربى وقديما قال عنترة :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ . » وذلك أن النفس الانسانية ـ على اختلاف نزعاتها وشتى أحاسيسها وشعورها ـ تكاد لاتختلف فى الشعور بأمهات المعانى ، وثمة تتوارد الخواطر . وانما يمتاز الشاعر على الشاعر بالافتنان فى أداء هذه المعانى ، وروعة الأداء وحسن

التعبير عن دقائقها وظلالها والابداع فى صوغ الخوالج النفسية والصور الشعرية المشرقة بالحياة والقدرة على تهيئة الجو الرائع الذى تخلو فيه شاعريته وعرض معانيه فى أبهى صورها وأجل حليها .

ولنضرب للقارئ مثلا واحدا من أمثلة عدّة لايتسع لها المقام :

لعلّ كثيرا من الناس يدركون من أمثلة الحياة ونظمها أن مايضرّ واحدا قدينفع الآخر . هذا معنى شائع ميسور لكل متأمل وليس للسرقة مجال فيه . وقد افتن كثير من الشعراء فى صوغه فظهرت فى ذلك ميزاتهم ومواهبهم وتجلت قدرتهم على الخلق والابداع .

وقد صاغه المتنبى فى أبسط صوره فقال . « مصائب قوم عند قوم فوائد . »

وتناوله ابن الرومى من قبله فجلاه فى صورة أخرى وهى قوله :

« فاشقنى انما هجاؤك عندى مضحكات تزيد فى السرّاء

ومحال أن يسعد السعداء الد هر الابشقوة الأشقياء . »

فاما طرقه المعرّى جلاه فى أبدع صوره وأجلها فقال :

« وسخط الظباء بما نالها تولد منه رضى الحابل . »

فمثل لنا ـ من ذلك المعنى الشائع المطروق ـ صورة رائعة دقيقة مشرقة بالحياة وأظهر لنا ـ بريشة المصوّر الفطن ـ ظبية يوقعها القدر وسوء الحظّ ونكد الطالع فى حبالة الصائد فتدرك أن حينها قد اقترب وأن هلاكها وشيك ، وصيادا يراها ـ فى هذه الحال من الألم والسخط ـ فيرى فرصة ثمينة نادرة بات يحلم بها طويلا .

ولقد أحسن الجرجانى حين قال فى ضمن فصل طويل نحب أن يرجع القارئ اليه فى كتابه:

« وقد يتفاضل مدعو هذه المعانى ـ بحسب مراتبهم ـ فتشترك الجماعة فى الشىء المتداول وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أوترتيب يستحسن أوتأكيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى اليها ـ دون غيره ـ فيريك المبتذل فى صورة المبتدع والمخترع . »

وقد ضرب الجرجانى لذلك أمثلة كثيرة ثم قال :

« ولم يبق عليك الا أن تحترس من التفريط ـ كما احترست من الافراط ـ فلا تكن كمن يرى السرقة لاتتم الا باجتماع اللفظ والمعنى ونقل البيت جملة والمصراع تاما ، بل لايعرف إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزبير بأبيات معن بن أوس . »

إلى أن قال بعد كلام طويل :

« والسرق ـ أيدك الله ـ داء قديم وعيب عتيق ، ومازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمدّ من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه . »

ومن أجل ماأورده فى ذلك الفصل قوله :

« ومتى انصفت علمت أن أهل عصرنا ـ ثم العصر الذى بعدنا ـ أقرب فيه الى المعذرة وأبعد من المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق اليها وأتى على معظمها ، وانما يحصل

على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها أولبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذّر الوصول اليها .

ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه فى تحصيل معنى — يظنه غريبا مبتدعا ونظم بيت يحسبه فردا مخترعا ، ثم تصفح عنه الدواوين — ثم لم يخط أن يجده بعينه أويجد له مثالا يغض من حسنه .

ولهذا السبب أحظر على نفسى ولا أرى لغيرى بت الحكم على شاعر بالسرقة . وقد أحسن أحمد بن أبى طاهر فى محاجة البحترى لما ادّعى السرق فى قوله : —

« والشعرظهرطريق أنت راكبه   فمنه منشعب أو غير منشعب
وربما ضم بين الركب منهجه   وألصق الطنب العالى على الطنب »

فاذا شئت أن نمثل لك من شعر ابن زيدون بما يؤيد هذا الرأى، عرضنا لك نخبة موجزة من أقوال رجال البيان فى بعض المعانى التى طرقها ابن زيدون . قال معاوية: « السرو التغافل »

وقال المتنبى :   «ليس الغبى بسيد فى قومه   لكن سيد قومه المتغابى»

وقال زهير

«ومن لم يصانع فى أمور كثيرة   يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم»

وقال بشار :

« اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت وأىّ الناس تصفو مشاربه
فعش واحدا أوصل أخاك فانه   مقارف ذنب مرة ومجانبه»

وقال أحد الشعراء .

« ومن يتتبع جاهدا كل عثرة   يجدها ، ولا يسلم له الدهر صاحب »

وقال آخر :

« اقبل معاذير من يأتيك معتذرا   ان برّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره   وقد أجلك من يعصيك مستترا »

الى آخر ماقالوه فى هذا المعنى وهو كثير نجتزئ منه بما ذكرنا ، فهل ترى فى كل ماقالوه أروع من قول ابن زيدون :

« إن السيادة بالاغضاء لابسة   بهاءها وجمال الحسن فى الخفر »

ألا ترى أن فنّ ابن زيدون قد غلب فنون هؤلاء الفحول الأفذاذ وتفوّق عليهم فى هذه الصورة الرائعة ؟

وانظر الى ذلك البيت الرائع الذى طالما تغنينا به وحسبنا فانه قد تخطى به درجات الكمال والابداع حين قال :

« يزيدك وجهه حسنا   اذا مازدته نظرا »

وقد أخذه ابن الرومى فقال فى «وحيد» المغنية :

« ليت شعرى ، إذا أعاد الينا كرة الطرف مبدئ ومعيد
أهى شىء لا تسأم العين منه ؟ أم لها كل ساعة تجديد ؟
بل هى العيش لا يزال متى استعرض يملى غرائبا و يفيد »

انظر كيف تلطف ابن زيدون فى نظمه وتحويره اوفى أى صورة مشرقة بالحياة رائعة الحسن صاغه ذلك الشاعر العبقرى فقال :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا غاياته بأفانين من النظر . »

ومن اليسير على كل انسان أن يقرر أن حبيبه قد هجره وأنه لا يزال باقيا على عهده . ولكنه ليس من اليسير عليه أن يؤدى هذا المعنى كما أداه المجنون يقول :

« وأدنيتنى حتى اذا ماقتنتنى بقول يحل العصم سهل الأباطح
تناءيت عنى حين لالى حيلة وغادرت ماغادرت بين الجوانح »

ولا أن يقول مثل قوله أيضا :

« أليس وعدتنى ياقلب أنى إذا ما تبت عن ليلى تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى فمالك كلما ذكرت تذوب . »

أو يقول كما قال ابن زيدون :

« كان التجارى بمحص الود مذ زمن ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمد ماكنا لعهدكمو سلوتم و بقينا نحن عشاقا [(1)] ؟ »

تلك صور فنية تنخلع دونها الرقاب ولا يحسن أن يقولها إلا شاعر فنى موهوب ، ولا تزال أمهات المعانى كأصول لأنواع لاتكاد تختلف فى جلتها وان اختلفت فى دقائقها وتفاصيلها ، وانك لترى ألف حسناء فترى فى وجه كل منهن ملاحة من الحسن لاتوجد فى الأخرى ، ولا يزال الرسام يتفنن فى التعبير عن أسارير الوجوه و يبدع ماشاء ابداعه ، ولايزال اللحن الواحد يؤديه ألف مغن بارع فتحس نفسك لكل صوت سحرا خاصا يختلف عن الآخر .

ومانريد أن نخص ابن زيدون بالابداع فى كل معانيه دون سائر الشعراء ، فقد تخلف عنهم وقصر فى بعض قصائده كما يقصر الفحول أحيانا . الشعر كما يقول ابن الرومى كالشجر :

«ركب فيه اللحاء والخشب اليابس والشوك بينه الثمر . »

ولكن الانصاف يقضى عليك -إذا تصديت للتفضيل بين الشعراء- أن تقارن بين روائعهم و بدائعهم ، أما مايقولونه عفو الخاطر، أو فى ساعات الكلال والضعف، فلست جديرا أن تحكم به على شاعر بتهم، فقد تخرج الشجرة الممتازة -إلى ثمارها الشهية الغضة- ثمرة فجة فلا ينقص ذلك من قيمتها . وما نريد أن ننتصر لابن زيدون وأن نمدحه ولكننا نريد أن ننصفه ولا نظلمه .

(١) هاأنت ذا ترى صورتين رائعتين لمعنى واحد، فهل تستطيع أن تفصل إحداهما عن الأخرى ؟ ألا ترى أن كل واحدة من هاتين الصورتين مستقلة عن الأخرى كل الاستقلال وإن كانتا تعبران عن معنى واحد ؟ ألا ترى إلى الصدق الذى يتمثل فى كل صورة بينهما ؟ أليست كل واحدة من هاتين الصورتين ملكا للشاعر لا ينازع فيها الآخر ؟

لماذا سجن ابن زيدون ؟

لانكاد تقرأ تاريخ ابن زيدون فى أى كتاب من كتب الأدب وتصل إلى هذا الفصل من تاريخ حياته حتى تقرأ هذه الجملة بنصها أو معناها .

« ثم سجنه ابن جهور لسبب وشاية أعداء ابن زيدون به » .

ولكن كيف وشى به أعداؤه فأحفظوا عليه قلب ابن جهور وأى وشاية هى؟ ذلك مايقف أمامه مؤرخو الأدب من غير أن يتعرضوا له حلا .

وقد حاول بعضهم أن يعلل ذلك بانغماس ابن زيدون فى حب ولادة وقالوا ان ابن عبدوس وأحزابه وشوا به عند ابن جهور فسجنه لأن أبا الحزم بن جهور — فى زعمهم — رجل ورع يؤثر التقوى والزهد ولا يقبل أن يرى إلى جانبه خليعا ماجنا كابن زيدون ؛ ونسى هذا الفريق من مؤرخى الآداب أن ابن عبدوس نفسه كان منغمسا فى حب ولادة وكان أكثر من ابن زيدون خلاعة ومجونا إن كان لابد من هذا التعبير الذى ارتضاه مؤرخو الآداب : فليس من الانصاف أن يطلق اسم الماجن المستهتر على مثل ابن زيدون، فقد كان اذا قورن بغيره من شعراء عصره وشعراء العصور الأخرى أبعد عن هذه الصفة التى ألصقها به مؤرخو الآداب ، ولم يكن أبو الحزم بن جهور هذا متبتلا ورعا متقشفا كما حاولوا أن يقنعونا به، فقد كسر دنان الخمر حين ولى أمور الناس ، وهذا يدل على حزم وبعد نظر ولا يدل على تقشف وزهد وورع .

وما كان أبو الحزم ليسىء الى وزيره الذى خاض إلى جانبه نار الثورة القرطبية وكان يلهبها ببلاغته ويمدها ببيانه والذى كان لايستغنى عنه أبو الحزم بن جهور ، نقول ليس أبو الحزم الذكى الأريب — الذى شاد ملكا موطد الأساس بين الزعازع والفتن — من الغفلة بحيث يأبه لأمثال هذه الصغائر ، انما كان يعنى أبا الحزم بن جهور أن يثبت ملكه ولا يعنيه بعد ذلك أن يكون ابن زيدون ملاكا طاهرا أو شيطانا فاجرا .

ولقد سجن ابن زيدون وزير ابن جهور وكان معرضا للقتل وسجن ابن عمار وزير المعتمد وقتل وسجن غيرهما من الأدباء والشعراء الذين استوزرهم ملوك الطوائف ، فاذا شئت أن تبحث عن أسباب سجنهم وقتل أكثرهم ، فلن تجد لذلك الاسببا واحدا وتهمة لايتعداها من شاء أن يدس أويكيد وهى التهمة التى تعنى ملوك الطوائف وتقض مضاجعهم وتنسيهم كل يد أسلفت إليهم ، هذه التهمة هى التآمر على ولى الملك والطمع فيه.

ولقد كان ابن عمار أخلص صديق للمعتمد وكان المقرب الأمين عنده وكان أعز عليه من نفسه على حد تعبير المعتمد ، ولكنه طمع فى الملك فنسى المعتمد كل شىء الا سجنه وقتله والانتقام منه .

ولم تأخذ المعتضد رحمة بأحد أولاده حين عرف أنه يطمع فى ملكه ، فقتله حنقا عليه .

ولقد كان ابن زيدون شابا في مقتبل عمره وكان قريب عهد بالثورة التى دعا اليها آل جهور .
وكان أقرب شيء الى هذه النفس الشابة الفتية المتوقدة عزما وهمة ، والتى ظفرت بالوزارة فى مستهل حياتها السياسية أن تطمح الى ماهو أبعد من الوزارة .
وقد كان ابن زيدون كثير السفارات وكان موفقا محبوبا من ملوك الطوائف ذائع الشهرة فى عصره ، وكان قويا شديد النكاية والسخرية بخصومه ، ولم يكن لهم طريق يسلكونها للانتقام منه الا الكيد له - على أسلوب ذلك العصر - عند ابن جهور بأنه غير مخلص لعهده ولا أمين لأميره .
وما نبرئ ابن زيدون من تهمة التآمر فانه هو نفسه لم يتنصل منها تنصلا واضحا صريحا، بل نحن لانرى فى تصديقها حرجا فقد كانت الظواهر كلها تؤيدها ولاتنفيها .
ولقد فرّ ابن زيدون من سجن أبى الحزم ثم عاد بعد وفاته الى ابنه أبى الوليد وبذل له النصيحة كما بذل لأبيه، وظفر عنده بأعلى مكانة.ولكن تهمة ذلك العصر فرت به من جديد وكاد - لولا فراره - يسجن من جديد ويقضى بقية عمره فى السجن .
وقد اتصل بالمعتضد وحاول خصومه أن يدسوا له فلم يفلحوا ولما مات المعتضد أعادوا الكرة وأرادوا أن يغيروا عليه قلب المعتمد فأخفقوا ، وقرعهم المعتمد أشدّ تقريع وما زال ابن زيدون الوفىّ الأمين المخلص للمعتمد،حتى قربت منيته وقرب نجاح أعدائه فى تغيير قلب المعتمد عليه ، ولو طال عمره قليلا لأصابه من نكال المعتمد وانتقامه ماأصابه من أبى الحزم وما كاد يصيبه من أبى الوليدبن جهور.ولكن المنية أنقذته من شرورهموأحقادهم كما أسلفنا .
على أن سجن ابن زيدون قد ترك فى نفسه الفتية الوثابة أثرا لايوصف . وألهمه الحكمة والأناة والصبر وعلمه مداراة الناس ومجاملة الخصوم ، وأقنعه بأن معاداة الرجال غير مأمونة العواقب وأن السهام « فلما اعتورت غرضا الا كلّمته حتى يهى مااشتد من قوته » فلم يدخر جهدا فيما بعد فى اكتساب رضى العامة والخاصة ، حتى أحبوه - الا القليل ممن دفعهم الحسد والغيرة وهؤلاء لاحيلة لأحد فى اكتساب رضاهم وسل سخائمهم واحقادهم - وقد مات فبكاه أهل أشبيلية وجزعت لفقده جمهرة معاصريه . ولا تزال أشعاره ورسائله التى نظمها فى سجنه آيات فذة من البيان العالى والشعر المعجز . ولا زال قوله :

«لايهنئ الشامت المرتاح خاطره ... أنى معنى الأمانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ... أم الكسوف لغيرالشمس والقمر »

وقوله :

« ولا يغبط الأعداء كونى فى السجن ... فانى رأيت الشمس تحصن بالدجن
وما كنت الاالصارم العضب فى جفن ... أوالليث فى غاب أو الصقر فى وكن
أو العلق يخفى فى الصوار ويخبأ »

إلى آخر هذه القصائد الفذة التى كتب لها الخلود . مثالا عاليا للشعر الرائع والبيان الساحر

حساد ابن زيدون

كان من الطبيعي أن يلقى أديب مثقف وشاعر مجيد وسياسى مدرّب كابن زيدون ـ وصل فى مقتبل شبابه الى أرقى الدرجات ـ كثيرا من المنافسين والحساد ينقمون على أدبه وتفوّقه و يغارون من تقرّبه الى الملوك الذين أكبروا فضله وأدبه فقرّبوه منهم وحاطوه برعايتهم، وقد لقى ابن زيدون فى قرطبة جماعة من المنافسين وعلى رأسهم الوزير الأديب أبو عامر بن عبدوس ، فكادوا له حتى أحفظوا عليه أبا الحزم جهور فسجنه كما أشرنا الى ذلك فى فصل سابق . ثمّ فرّ من السجن وعاد فاتصل بأبى الوليد بن أبى الحزم ، فلم ينقطع كيد المنافسين حتى غيروا عليه قلب الابن كما غيروا عليه قلب أبيه من قبل ، ففرّ ابن زيدون خوفا من السجن ومازال يتنقل بين ملوك الطوائف حتى استقرّ به النوى فى اشبيلية فلقى من كيد الحساد وعنتهم مثل مالقى فى قرطبة ، ولكن مدائحه الخالدة التى مدح بها المعتضد والتى تعدّ من مفاخر الشعر العربى وروائعه ، وحسن سياسة ابن زيدون و بعد نظر المعتضد تغلبت على كيد المنافسين وأرغمت أنوفهم وأحلته فى المكان الأوّل كما يقول من قصيدة رائعة :

« وأرغم فى برى أنوف عصابة لقاؤهم جهم وأعينهم شزر »

« اذا ما انثنى فى الدست عاقد حبوة وقوم سماطا حوله فلى الصدر »

فلما مات المعتضد أعادوا الكرّة وجمعوا جموعهم للكيد له عند المعتمد ولكن المعتمد صدّهم أشنع صدّ وقرّبه اليه ، فلم ينس له ابن زيدون هذه اليد وفى ذلك يقول :

« يطيل العدا فىّ التناجى خفية يقولون لا تستفت قد قضى الأمر »

ثم ما زالوا يكيدون له حتى أقصوه عن قرطبة الى اشبيلية منتهزين فرصة مرضه فسار اليها مرغما حيث لقى حتفه . وأفلح كيد ابن عمار وأصحابه فى التخلص من منافسة ابن زيدون .

ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده فى أبى الحزم وأبى الوليد والمعتضد والمعتمد من الشكوى الصارخة من كيد الحساد الذين تطوّعوا لايذائه وأرهقوه بدسائسهم المتوالية ، والحسد داء قديم وكم لقى الأدباء والشعراء الممتازون منه ما نغص عليهم حياتهم وأقض مضاجعهم .

وقد لقى المتنبى قبله فى مجلس سيف الدولة من حسد أبى فراس وابن خالويه ، ثم لقى عند كافور الاخشيدى من حسد ابن حنزابه ، ثم لقى فى بغداد من حسد الوزير المهلبى الذى أغرى به الشعراء والأدباء كالحاتمى وابن سكرة وغيرهما ، ما أقلق باله وقاده الى حتفه .

وقد كان يبلغ المتنبى بعد أن ترك سيف الدولة تشنيع حساده به عنده ، فيقول :

« رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللبن

جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كلّ غريب عنكم ضغن . »

الى آخر ماقال .

وكان يبلغ ابن زيدون عن ابن جهور بعد اتصاله بالمعتضد مايسوءه فى نفسه وقرابته بقرطبة فيقول :

« بنى جهور أحرقتم بجفائكم فؤادى فما بال المدائح تعبق
تعدّوننى كالعنبر الورد إنما تطيب لكم أنفاسه حين يحرق »

وقوله :

« قل للوزير وقد قطعت بمدحه زمنا فكان السجن منه ثوابى :
لا تخش فى حق بما أمضيته من ذاك فى ولا توق عتابى
لم تخط فى أمرى الصواب موفقا هذا جزاء الشاعر الكذاب . »

وقوله .

« من مبلغ عنى البلاد اذا نبت أن لست للنفس الألوف بباخع
أما الهوان فصنت عنه صفحة أعشى بها حدّ الزمان الشارع
فليرغم الحظ المولى أنه ولىّ فلم أتبعه خطوة تابع
ان الغنى لهو القناعة لا الذى يشتف نطفة ماء وجه القانع »

الى آخر ماقال .

وقد كان لهذه المنافسات أثرها العظيم فى اجادة الشاعرين واظهار أروع ماقالاه من الشعر، وصدق القائل :

« لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود »

وما كاد المعتمد يتولى الأمر بعد أبيه المعتضد حتى نشط الدساسون والمفسدون لمحاربة ابن زيدون فرموا اليه برقعة فيها قصيدة طويلة أوّلها :

« يأيها الملك العلىّ الأعظم اقطع وريدى كل باغ يشتم
واقسم بسيفك داء كل منافق يبدى الجميل وضد ذلك يكتم »

فكان ردّ المعتمد على ذلك قوله :

« كذبت مناكم صرّحوا أوجمجموا الدين أمتن والسجية أكرم
خنتم ورمتم أن أخون ، وربما حاولتم أن يستخف يلملم [1] . »

(١) وفيها يقول

« وأردتم تضييق صدر لم يضق والسمر فى ثغر النحور تحطم
ورحفتم بمحالكم لمجرب مازال يثبت للمحال فيهزم
أنى رجوتم غدر من جربتم منه الوفا وظلم من لا يظلم
أنا لكم لا الغى يثمر غرسه عندى ولاهى الصنيعة يهدم
كفوا ، والافارقوا لى بطشه يلقى السفيه بمثلها فيحلم »

وقد عرف ابن زيدون كيف يشكر له هذه اليد فى قصيدته الرائعة التى يقول فيها :

« وأرى المساعى كالسيوف تبادرت شأو المضاء ، فنائن ومصمم
ولكم تسامى بالرفيع نصابه خطر ، فناصه الوضيع الألأم »

وفيها يقول ويبدع :

« قل للبغاة المنصبين قسيهم ستربون من تصميه تلك الأسهم
أسررتم ، فرأى محى عيوبكم شيحان ، مدلول عليها ملهم
وعاثتم ـ للفسق ـ طهر سعاية لم يعدكم أن رد وهو مقلم
ونبذتم التقوى وراء ظهوركم دعدا نعيصكم التقى الأكرم
ما كان حلم « محمد » ليحيله ـ عن عهده ـ دغل الضمير مذمم »

وفيها يقول بعد أن أغراه بأعدائه :

« فرق عوب ، فرأرت رأرة زاجر راع الكليب بها السبنتى الضيغم
ياليت شعرى هل يعود سفيههم أم قد حماه السح ذاك المكعم
لى منك ـ فليذب الحسود تلظيا ـ لطف المكانة والمحل الاكرم
وشفوف حظ ليس يفتأ يجتلى عض الشباب وكل حظ يهرم . »

الى آخر هذه القصيدة الرائعة .

وقلما تخلو قصيدة من قصائده من مناسبة يخلقها حلقا ، ويتطرق منها الى الشكوى والأ من حساده ومنافسيه وما لقيه من كيدهم وعنتهم

ومن أروع ماقاله فى ذلك ، قوله من قصيدة :

« كان الوشاة وقد منيت بإفكهم أسباط يعقوب وكنت الذيبا

الى أن قال :

« أنا سيفك الصدئ الذى مهما تشأ تعد الصقال اليه والتدريبا

وقوله :

« ايه « أبا الحزم » اهتبل غرة ألسنة الشكر عليها فصاح
لاطار لى حظ إلى غاية ان لم أكن منك مريش الجناح
عتباك ـ بعد العتب ـ أمنية مالى على الدهر سواها اقتراح
لم يثنى عن أمل ماجرى قد يرقع الخرق وتؤسى الجراح »

وقوله :

« ماجال بعدك لحظى فى سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر »

إلى أن قال :

« حسن أفانين لم تستوف أعينا غاياته بأفانين من النظر . »

إلى أن قال :

«من يسأل الناس عن حالى ، فشاهدها محض العيان الذى يغنى عن الخبر
لم تطو برد شبابى كبرة وأرى برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كثب وللشبيبة غصن غير مهتصر
ها انها لوعة فى الصدر قادحة نار الأسى ومشبى طائر الشرر
لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره انى معنى الأمانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ؟ أم الكسوف لغير الشمس والقمر
إن طال فى السجن إيداعى فلا عجب قد يودع الجفن حدّ الصارم الذكر
وان يثبط ـ « أبا الحزم » الرضى ـ قدر عن كشف ضرّى فلا عتب على القدر
ما للذنوب ـ التى جانى كبائرها غيرى ـ يحملنى أوزارها وزرى
من لم أزل من تأنيه على ثقة ولم أبت من تجنيه على حذر . »

إلى أن قال :

« لاتله عنى فلم أسألك معتسفا ردّ الصبا بعد ايفاء على الكبر
واستوفر الحظ من نصح وصاغية كلاهما العلق لم يوهب ولم يعر
هبنى أسأت فكان العلق سيئة لاعذر منها سوى أنى من البشر
ان السيادة بالأغضاء لابسة بهاءها وبهاء الحسن فى الخفر . »

وقال :

« ولو أنى أسطيع كى أرضى العدا شريت ببعض الحلم حظا من الجهل . »

إلى أن قال :

« جواد إذا استنّ الجياد الى مدى تمطر فاستولى على أمد الخصل
ثوى صافنا فى مربط الهون يشتكى بتصهاله ما ناله من أذى الشكل »

إلى أن قال :

« أعدّك للجلى وآمل أن أرى بنعماك موسوما وما أنا بالغفل . »

ثم قال :

« أئن زعم الواشون ما ليس مزعما تعذّر فى نصرى وتعذر فى خذلى
وأصدى إلى إسعافك السائغ الجنى وأضحى إلى إنصافك السابغ الظلّ
ولو أننى واقعت عمدا خطيئة لما كان بدعا من سجاياك أن تملى
فلم أستتر حرب « الفجار » ولم أطع «مسيلمة» إذ قال : انى من الرسل »

وانظر إلى قوله :

« فديتك كم ألقى النواغر من عدا قراهم ـ لنيران الفساد ـ ثقاب
عفا عنهم قدرى الرفيع فأهجروا وبانهم خلق الجميل فعابوا »

وقد تسمع الليث الجحاش نهيقها ... وتعلى إلى البدر الساح كلاب

إذا راق حسن الروض أو فاح طيبه ... فما ضرّه أن طنّ فيه ذباب . »

إلى أن قال :

« فأنت الحسام العضب أصدئ متنه ... وعطل منه مضرب وذباب

وما السيف مما يستبان مضاؤه ... إذا حاز جفن حده وقراب . »

وقوله :

« لاتستجز وضع قدرى بعد رفعكه ... فالله لايرفع القدر الذى تضع . »

الى أن قال :

« طن العدا اذ أغبت ـ أنها انقطعت ... هيهات ليس لمد البحر منقطع

لابأس بالأمر ـ ان ساءت مبادئه ... هس الشقيق ـ اذامامرت الرجع . »

الى أن قال :

« كم غرة لى تلقتها قلوبهم ... كما تلقى شهاب الموقد الشمع

اذا تأملت حى عتب غشهم ... لم يخف من فلق الاصباح منصدع

تلك العرانين لم يصلح لها شمم ... فكان أهون مابليت به الجدع

أودعت نعماك منهم شر مفترس ... لن يكرم العرس حتى تكرم البقع

لازال جدك بالاعداء يصرعهم ... ان كان بين جدود الناس مصطرع »

وماأروع قوله معتذراعن هجره ابن جهور : « وهو يرى و يسمع أن بالحضرة قوما لايحصرهم العدّ ، تحتمل سقطاتهم وتغتفر هفواتهم وتقال عثراتهم وما أعلم أنهم يدلون بوسيلة الا ساركتهم فيها ولا يمتون بذريعة ينفردون دونى بها » الخ .

وقوله :

« أرى نبوة لم أدر سرّ اعتراضها ... وقد كان يجلو عارض الهم أن أدرى

جفاء هو الليل ادلهم ظلامه ... فلا كوكب للعذر فى أفقه يسرى

هب العزل أنحى للولاية غاية ... فما غاية الموفى من الطلّ أن يكرى

فهيم أرى ردّ السلام إشارة ... تسوغ بى ازراء من شاء أن يزرى

أناس هم أخشى للدعة مقولى ... إذا لم يكن مما فعلت لهم مضر »

وقوله :

« ألا هل أتى الفتيان أن فتاهم ... فريسة من يعدو ونهزة من يسطو

وأن الجواد الفائت الشأو صافن ... تخونه شكل وأزرى به ربط

وأن الحسام العضب ثاو بجفنه ... وماذم من غربيه قدّ ولا قط »

وقوله :

« مثون من الأيام خمس قطعتها أسيرا ، وان لم يبد شدّ ولا قمط . »

وقال :

« وما زال يدنيني ، ويثني قبوله هوى سرف منه وصاغية فرط . »

وقال :

« عدا سمعه عني فأصغى الى عـدا لهـم في أديمي كلما استمكنوا عط
بلعت المنى إذ قصروا فقلوبهـم مكامن أحقاد أساودها رقط . »

وقوله :

« ومثلى قد تهفو به نشوة الصبا ومثلك قد يعمو ، ومالك من مثل
واني لتنهاني نهاى عن التي أشاد بها الواشي ويعقلني عقلي . »

الى أن قال :

« وما كنت بالمهدى الى السودد الحا ولا بالمسيء القول في الحسن الفعل . »

الى أن قال :

« هي النعل زلت بي ، فهل أنت مكذب لقيل الأعادى انها زلة الحسل . »

الى أن قال :

« ألا إن ظني ـ بين فعليك ـ واقف وقوف الهوى بين القطيعة والوصل . »

الى أن قال :

« وأين جواب عنك ترضى به العلا اذا سألتني بعد ألسنة الحفل . »

إلى آخر ما أبدعته هذه العقرية الجبارة ، من الافتنان البارع ، في صورها الشعرية التي لا تسامى .

٤ حب ولادة

تمرّ شتى الحوادث بالانسان فينساها ولا تكاد تترك فى نفسه أثرا يذكر ، على أن لبعض الحوادث أثرا لا يمحى ، حيث تمرّ الأيام والشهور والسنون وهو باق فى ذهنه يؤثر فيه أعمق الأثر ، و يطبع نفسه بطابع خاص ، ومن الحوادث التى أثرت فى نفس ابن زيدون وشعره ونثره أكبر الأثر ، حادثان : حب ولادة . وحبسه زهاء عامين .

فأما حب ولادة فقد ألهب نفسه إلهاما وأكسبها شاعرية خصبة ففاضت بأعذب الشعر وأبدعت فى ضروب الغزل ماشاء لها أن تبدع ، وأخرجت لنا أروع قصائده الغزلية ، وألهمته أسمى ألوان الخيال العالى والغزل الرقيق . كقوله :

« ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره مااستودعك »

وقوله :

« أما فى نفسى ، فأنت جميعها يا ليتنى أصبحت بعض فداك
يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم أكاد به أقبل فاك »

وقوله :

« كان التجارى بمحض الود مذ زمن ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم سلوتم و بقينا نحن عشاقا »

وقوله فى نفس القصيدة :

« لا سكن الله قلبا عنّ ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاق »

وقوله من قصيدة أخرى :

« ياليل طل ، لا أشتهى إلا بوصل قصرك »
« لو كان عندى قمرى ما بت أرعى قمرك »

وقوله :

« بينى و بينك مالو شئت لم يضع سر اذا ذاعت الأسرار لم يذع »

وقوله :

« بنتم و بنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا »

إلى أن يقول :

« ماحقنا أن تقرّوا عين ذى حسد بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا »
« غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا »
« فانحلّ ما كان معقودا بأنفسنا وأنبت ما كان موصولا بأيدينا »

وقوله :

« لا تستجدنّه فى عشقها زمنا ينسى سوالف أيامى وأزمانى

حتى تكون لمن أحببت خائنة نسخت - في حبها - كفرا بإيمان »

وقوله :

« إن ساء فعلك بي ، فما ذنبي أنا ؟ حسب المتيم انه قد أحسنا
لم أسل حتى كان عذرك - في الذي أبديته - أخفى وعذري أبينا
ولقد شكوتك - بالضمير - الى الهوى ودعوت - من حنق - عليك فأمنا
منيت نفسي - من وفائك - ضلة ولقد تغر المرء بارقة المنى »

وقوله :

« أغائبة عني وحاضرة معي أناديك - لما عيل صبري - فاسمعي
أفي الحق أن أشقى بحبك أو أرى حريقا بأنفاسي ، غريقا بأدمعي
ألا عطفة تحيا بها نفس عاشق ؟ جعلت الردى منه بمرأى ومسمع
صليني - بعض الوصل - حتى تبيني حقيقة حالي ؛ ثم ما شئت فاصنعي »

وقوله :

« قد كان - في شكوى الصبابة - راحة لو أنني أشكو إلى من يرحم »

وقوله :

« لما اتصلت اتصال الحب بالكبد ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد
ساء الوشاة مكاني منك واتقدت - في صدر كل عدو - جمرة الحسد
فليسخط الناس لا أهد الرضى لهم ولا يضع لك عهد آخر الأبد
لو استطعت - اذا ما كنت غائبة - غضضت طرفي فلم أنظر الى أحد »

وقوله :

« ياليل خبر . انني التد عنه خبرك
بالله قل لي : هل وفى ؟ فقال : « لا . بل عذرك »

وقوله :

« لئن فاتني منك حظ النظر لأكتفين بسماع الخبر
وان عرضت غفلة للرقيـ ـب فحسبي تسليمة تختصر
أحاذر أن تتظنى الوشا ة ، وقد يستدام الهوى بالحذر
واصبر مستيقنا انه سيحظى - بنيل المنى - من صبر »

وقوله :

« أشمت بي فيك العدا و بلغت - من ظلمي - المدى
لو كان يملك فدية - من حبك القلب افتدى
كنت الحياة لعاشق - مذ حلت - أيقن بالردى

لم يسل عنك ولو سلا لغدرته ، فبت افدى »

وقوله :

« أبديت لى — من أفانين القلى — عبرا أرسلتنى — فى أحاديث الهوى — مثلا
لم تبق جارحة بالهجر من جسدى الا خلعت عليها — بالضنى — حللا
فليغن كفك انى بعض من ملكت وليكف طرفك انى بعض من قتلا
ولقض ماشئت — من هجر ومن صلة — لاأقض ماعشت سلوانا ولا مللا
سقيا لعهدك والأيام تقبلى وجه السرور به جذلان مقتبلا
إذ الزمان مليغ فى مساعدتى يهدى الى — تعاريق المنى — جملا
ان كان لى أمل الا رضاك فلا بلغت يا أملى — من دهرى الأملا »

وقوله :

« انى لأعجب من شوق يطاولنى فكلما قيل فيه : « قد قضى » ثابا
كم نظرة لك فى عينى علمت بها — يوم الزيارة — أن القلب قد ذابا
قلب يطيل مقاماتى لطاعتكم — فان أكامه عنكم سلوة يابى
ماتوبتى بنصوح — من محبتكم لا عذب الله الا عاشقا تابا »

وقوله :

« معاهد لهو لم تزل فى ظلالها تدار علينا — للمجون — مدام
زمان رياض العيش خضر نواضر ترف وامواه السرور جمام
فان بان منى عهدها ، فلوعة يشب لها — بين الضلوع — غرام
تذكرت أيامى بها فتبادرت دموع كما خان الفريد نظام
وصحبة قوم كالمصابيح كلهم اذا هز للخطب الملم — حسام . »

الى أن قال :

« محل عفينا بالتصابى خلاله فأسعدنا ، والحادثات نيام
فما لحقت تلك الليالى ملامة ولا دم — من ذاك الحبيب — دمام »

وقوله : وهو مطليوس من قصيدة رائعة :

« إن قرت العين بأن أءوبا لم آل أن أسترضى العضوبا
حسبى ان أحرم المعيبا قد ينفع المذنب أن يتوبا »

وقوله :

لم ينجنى منك مااستشعرت من حذر هيهات كيد الهوى يستهلك الحذرا
ماكان حبك الا فتنة قدرت هل يستطيع فتى أن يدفع القدرا »

وقوله :

« ماالذى ضرك لو سر بمرآك الحزين

وتلطفت لصــب حينه فيك يحين »

وقوله :

« ماضر لو أنك لى راحــم وعلــتى أنت بها عالم
يهنيك ياسؤلى ويابغيــتى انك مما أشتـــكى سالم
تضحك فى الحب وأبكى أنا الله ـ فيما بيننا ـ حاكم
أقول لما طار عنى الكرى قول معـنى قلبـه هائم
يا نائما أيقظنى حبــــه هب لى رقادا أيها النائم »

وقوله :

« هلا جعلت ـ فدتك نفسى غاية للعتب أبلغها بجهد الجاهد
لاتفسدن ما قد تأكد بيننا ـ من صالح ـ خطرات ظن فاسد
حاشاك من تضييع ألف وسيلة شجى العدو لها بذنب واحد
ان أجـه خطأ فقـد عاقبتنى ظلما بأبلغ من عقاب العامد »

وقوله :

« علام اطبتك دواعى القلى ؟ وفيم ثنتك نواهى العذل ؟
ألم الزم الصبر كيما أخف ؟ ألم أكثر الهجر كى لا أمل ؟
ألم أرض منك بغير الرضى وأبدى السرور بما لم أنل ؟
ألم اغتفر موبقات الذنو ب عمدا أتيت بها أم زلل ؟
وما ساء ظنى فى أن يسىء بى الفعل حسك حتى فعل
على حين أصبحت حسب الضمير ولم تبغ منك الأمانى بدل
وصانك منى وفى أبى لعلق العـلاقة أن يبتذل »

وقوله :

« عليك السلام سلام الوداع وداع هوى مات قبل الأجل
وما باختيار تسليت عنــــك ولكننى مكره لا بطل
ولم يدر قلبى كيف النزوع إلى أن رأى سيرة فامتثل »

إلى آخر هذه القصيدة التى تحلق بك فى جو العباس بن الأحنف ، حتى ليخيل إليك أنها من شعره قد ألحقها بديوانه الحافل بهذه الروح الحائرة القلقة .

« يامن غدوت به فى الناس مشتهرا قلبى عليك يقاسى الهم والفكرا
إن غبت لم ألق إنسانا يؤنسنى وان حضرت فكل الناس قد حضرا »

وانظر إلى قوله وقد هاجته الذكرى الى قرطبة :

« سقى الله أطلال الأحبة بالحمى وحاك عليها ثوب وشى منمنما
وأطلع فيها للأزاهير أنجما فكم رفلت فيها الخرائد كالدمى
إذ العيش غض والزمان غلام »

وما أروع قوله في تلك الموشحة الساحرة :

« أهيم بجبار يعز وأخضع شذا المسك من أردانه يتضوّع
اذا جئت أشكو الهوى ليس يسمع فما أنا في شيء من الوصل أطمع
ولا أن يزور المقلتين منام »

الى أن يقول :

« فقل لزمان قد تولى نعيمه ورثت ـ على مر الليالى ـ رسومه
وكم رق فيه ـ بالعشى ـ نسيمه ، ولاحت ـ لسارى الليل فيه نجومه
عليك من الصب المشوق سلام »

وقوله في ذكرى قرطبة وولادة ومجالس أنسه :

« أقرطبة الغراء ، هل فيك مطمع وهل كبد حرى لبينك تنقع
وهل لليالك الحميدة مرجع اذ الحسن مرأى فيك واللهو مسمع
واذ كنف الدنيا لديك موطأ »

« أليس عجيبا أن تشط النوى بك فأحيا كأن لم أنس نفح جنابك
ولم يلتئم شملى خلال شعابك ولم يك حاقى بدوّه من ترابك
ولم يكتنفى ـ من نواحيك ـ منشأ »

الى أن يقول :

« معاهد أبكيها لعهد تصرما أغص من الورد الجنى وأنعما
لبسنا الصبا فيها حبيرا منمنما وقدنا إلى اللذات جيشا عرمرما
له الأمن رده والعداوة مربأ »

وقوله :

« أإخواننا للواردين مصادر ولا أول إلا سيتلوه آخر
وإنى لاعتاب الزمان لناظر فقد يستقيل الجد ، والجد عاثر
وتحمد عقبى الأمر ماز ال ينشأ »

وما أبدع قوله :

« وان بلادا هنت فيها لأهون ومن رام مثلى بالدنية أدنأ . »

الى آخر هذه القصائد الفذة التى يفخر بها الأدب العربى والبيان العربى . والتى كان الباعث الأول على نظمها المحب وصوغها المعجز هو حب ولادة .

٥ — أدب ابن زيدون

قلما يظفر الانسان بأديب عربي يحمل لواء الزعامتين فى النظم والنثر ، فان أغلب مانشاهده أن يبدع الأديب فى أحد النوعين إبداعا يعطى على إبداعه فى الآخر ، أما ابن زيدون فانك تقرأ نثره فلا تكاد تصدّق أن شعره يتسامى إلى مثل هذه المرتبة العالية ، فاذا عدت الى شعره أنساك إبداعه روعة ما قرأت من نثره ، وهكذا لاتكاد تقرأ قطعة مختارة من شعره أو نثره حتى تملأ نفسك بهجة وسرورا ويسيك سحرها كل شيء آخر . وليس من الانصاف أن نقول إنه شاعر ممتاز حسب أوناثر ممتاز فقط ، وما أجدرنا أن نصفه فنقول إنه زعيم من زعماء البيان العربى .

لقد قضى ابن زيدون حياته بين الدرس والتحصيل والتجارب والاختبار والاتصال بكبار ساسة عصره ودهاتهم ، وصهر قلبه حب ولادة كما أسلفنا ، وحنينه الى وطنه ، وأثر فى نفسه الشاعرة الحساسة ماأثارت به الأندلس من جمال التربة وصفاء الجوّ ، ولقى من السعادة والتمتع بالحسن أشهى وأعذب مالقى محب ، ثم لقى من لوعة الصدّ والهجران أشق وأمرّ مالقى إنسان :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا   غاياته بأفانين من النظر »

ولقد نعم بصولجان السلطة والقوّة حينا من الدهر ثم شقى بالسجن بين الأشرار والمجرمين زمنا غير قليل، ولقى من كيد المنافسين والحساد كما أسلفنا مالم يلقه أحد . فلا غرو أن تتضافر كل هذه العوامل القوية على خلق الشاعر العظيم . وأنت إذا درست أدب ابن زيدون دراسة مستفيضة رأيته خليقا بأن يقول كما قال فيلسوف المعرة :

« ماص فى هذه الدنيا بنو زمن   إلا وعندى من أخبارهم طرف »

ولقد ترى فى أدبه أمثلة من ثقافة المعرى وسعة اطلاعه وتمكنه من اللغة ، ومحافظته على أساليبها ، كما ترى فيه أمثلة من صناعة أبى تمام ونظم البحترى واسترسال ابن الرومى وقوّة أداء المتنبى .

وإنك لتقرأ أكثر غزله فيخيل اليك لسهولته أنك تحلق فى أجواء العباس بن الأحنف والشريف الرضى والمجنون ، ثم تقرأ اخوانياته فيخيل اليك لاسترساله وافتنانه فى ضروب القول ، انك تقرأ ابن الرومى وهو يخاطب أبا القاسم التوزى بهمزيته المشهورة ، ثم تقرأ رسائله فيخيل إليك أنك تقرأ رسائل الجاحظ فى براعة الاستخفاف والتهكم أو رسائل المعرى فى سعة الاحاطة وكثرة الاستشهاد ، والولوع بالأمثال .

وقد كان ابن زيدون زعيم شعراء عصره فى الأندلس فلا غرو أن يكون أدبه أصدق مرآة يتجلى فيها أدب هذا العصر الزاهى وثقافة

وقد كان يجمع ـ إلى حسن رويته ـ قوة الذلاقة وسرعة البديهة ، وقلما يتفق لأديب عمق التفكير مع ذلاقة اللسان ، فقد روى صاحب نفح الطيب محدثا عن ذلاقة ابن زيدون: أن ابنته توفيت ، و بعد الفراغ من دفنها ، وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليشكر لهم ، فقيل ، إنه ماأعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، قال الصفدى : « وهذا من التوسع فى العبارة والقدرة على التفنن فى أساليب الكلام ، وهو أمر صعب إلى الغاية » الى أن قال ـ بعد أن قارن بينه و بين واصل بن عطاء فى تجنبه الراء ، وأما ابن زيدون فأقول فى حقه : «أقلّ ما كان فى تلك الجنازة ـ وهو وزير ـ ألف رئيس ممن يتعين له أن يتشكر له و يضطرّ الى ذلك فيحتاج فى ذلك إلى ألف عبارة مضمونها الشكر وهذا كثير الغاية لاسيما من محزون فقد قطعة من كبده :

« ولكنه صوب العقول اذا انبرت   سحائب منه أعقبت بسحائب . »

ومهما كان فى هذا الخبر من الاسراف ، فان بعضه كاف فى الدلالة على فضله .

وكان ابن زيدون إلى ذلك إماما من أئمة عصره حتى قال بعض الأدباء فيه :

« من لبس البياض وتختم بالعقيق وقرأ لأبى عمرو وتفقه للشافعى وروى شعر ابن زيدون ، فقد استكمل الظرف » .

كامل كيلانى



— ١ —

في السجن (١)

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، وهو في السجن ، وبعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبي حفص بن برد »

مَا عَلَى ظَنِّيَ بَاسُ (١)   يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَاسُو (٢)

رُبَّمَا أَشْرَفَ بِالْمَرْءِ   عَلَى الآمَالِ يَاسُ

وَلَقَدْ يُنْجِيكَ إِغْفَالٌ   وَيُرْدِيكَ (٤) احْتِرَاسُ

وَالْمَحَاذِيرُ سِهَامٌ   وَالْمَقَادِيرُ قِيَاسُ (٥)

وَلَكَمْ أَجْدَى (٦) قُعُودٌ   وَلَكَمْ أَكْدَى (٧) الْتِمَاسُ

وَكَذَا الدَّهْرُ (٨) — إِذَا مَا   عَزَّ نَاسٌ — ذَلَّ نَاسُ

وَبَنُو الأَيَّامِ أَخْيَا   فٌ سَرَاةٌ وَخِسَاسُ (٩)

---

(١) جاء في قلائد العقيان :

« وله عند فقد الوفاء من ألافه ، يخاطب أبا حفص بن برد ، وقد جار ولم يجد هاديا ، وصار رهينا لا يرجو فاديا ، وعلم أن الناس متقلبون ، وعلى من انقلب الدهر منقلبون ، لا يديهم في الشدة إخاء ، ولا يثنيهم عن ذوي الحظوة رخو ولا انتخاء .

ما على ظني باس   يجرح الدهر ويأسو »

وقد ذكرت بترتيب يخالف هذا الترتيب الذي نقله عن نسخ الديوان .

(٢) ويروى : « ما على ظني باس » .   (٣) يداوي .   (٤) وفي رواية : « ويؤذيك احتراس »

(٥) جمع قوس : عن يعقوب وأبي عبيد فهو على فعال ، وأصله قواس قلبت الواو ياء لمناسبة الكسرة ، وشاهده قول القائل :

« ووتر الأساور القياسا   صغدية تنتزع الأنفاسا »

(٦) أغنى : أو أفاد .   (٧) اخفق ولم يفز — يقول : كثيراً ما يكون القعود عن المطلب سببا في الظفر والفوز والسعي سبباً في الاخفاق والحرمان ، وقد تهافت الشعراء على هذا المعنى كثيراً ، ومن أحسن ما جاء فيه قول بن رزيق :

والسعي في الرزق والأرزاق قد قسمت   بغي ألا إن بغي المرء يصرعه

(٨) في رواية : « وكذا الحكم » .

(٩) الناس أخياف : أي مختلفون ، شريف وخسيس . قال أحد الأعراب : « الناس أخياف وشتى في الشيم »

نَلبَسُ الدُّنيَا ، وَلٰكِنْ　　مُتْعَةٌ ذَاكَ اللِّبَاسُ (١)

يَا أَبَا حَفْصٍ وَمَا سَا　　وَاكَ فِي فَهْمٍ إِيَاسُ (٢)

مِنْ سَنَا (٣) رَأْيِكَ لِي فِي　　غَسَقِ (٤) الخَطْبِ اقْتِبَاسُ

وَوِدَادِي لَكَ نَصٌّ (٥)　　لَمْ يُخَالِفْهُ قِيَاسُ (٦)

أَنَا حَيْرَانُ وَلِلْأَمْرِ　　وُضُوحٌ وَالْتِبَاسُ

مَا تَرَى فِي مَعْشَرٍ حَا　　لُوا عَنِ الْعَهْدِ وَخَاسُوا (٧)

وَرَأَوْنِي سَامِرِيًّا (٨)　　يُتَّقَى مِنْهُ المَسَاسُ

أَذْؤُبٌ هَامَتْ بِلَحْمِي　　فَانْتِهَاشٌ (٩) وَانْتِهَاسُ

كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا　　لِي وَلِلذِّئْبِ اعْتِسَاسُ (١٠)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »

(٢) هو القاضي إياس بن معاوية بن إياس المزني ولي القضاء في زمن عمر بن عبد العزيز ، وكان يضرب به المثل في الألمعية :

والألمعي الذي يظن بك الظن　　كأن قد رأى وقد سمعا

وإياس هذا هو من عناه الحريري بقوله في المقامة السابعة « فإذا ألمعيّ ألمعية ابن عباس ، وفراسة تفوق فراسة إياس » وعناه أبو تمام في قصيدته السينية بقوله :

إقدام عمرو في سماحة حاتم　　في حلم أحنف في ذكاء إياس

(٣) من ضوء رأيك　　(٤) ظلمة　　(٥) النصّ : السند المقطوع بصحته والتعيين على شيء ، وهو في عرف الفقهاء ، مقطوع بصحته فلا يخالفه قياس ، فكأنه يقول : إنّ ودادي مسند إليك ، أو هو موقوف عليك ، أو معين لك ، وقد استعمل الشاعر لفظي النصّ والقياس في الشعر ، وهما من مصطلحات الفقهاء على عادته في ذلك ، وهو يشير بذلك إلى اصطلاح الفقهاء إذ يعتبرون النص والقياس من مآخذ الأحكام الشرعية ، والأول صريح لفظ القرآن أو الحديث ، والثاني إلحاق قضية — لا نص فيها — بقضية أخرى منصوصة لاشتراكهما في علة حكم الأولى　　(٦) وفي رواية : القياس

(٧) خانوا　　(٨) السامريّ : عظيم من بني إسرائيل عبد العجل . قال الكشاف : عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطمّ منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكلّ ما يعايش الناس به بعضهم ، وإذا مسّ أحداً رجلا أو امرأة حمّ الماس والممسوس ، فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح في الناس « لا مساس » .

(٩) الانتهاش بالشيء : الأخذ بالأضراس ، والنهس : الأخذ بمقدم الأسنان ، وفي رواية : فانتهاب وانتهاس

(١٠) طلب الصيد بالليل ، ومعنى الأبيات أن أعداءه كالذئاب لا ينون عن نهش لحمه ، متظاهرين بالتودد له والإشفاق عليه ، فهم يسألون عن حاله متجسسين ، كما يتجسس الذئب ليتعرف مواطن فريسته .

***

إنْ قَسَا الدَّهْرُ فَلِلْمَا ... ءِ مِنَ الصَّخْرِ انْبِجَاسُ (١)

وَلَئِنْ أَمْسَيْتُ مَحْبُو ... ساً فَلِلْغَيْثِ احْتِبَاسُ

يَلْبُدُ (٢) الْوَرْدُ السَّبَنْتَى ... وَلَهُ بَعْدُ افْتِرَاسُ

***

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ يَغْشَى ... مُقْلَةَ الْمَجْدِ النُّعَاسُ

وَيُفَتُّ الْمِسْكُ فِي التُّرْ ... بِ فَيُوطَا وَيُدَاسُ

***

لاَ يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْداً ... إِنَّ عَهْدِي لَكَ آسُ (٣)

وَأَدِرْ ذِكْرِيَ كَأْساً ... مَا امْتَطَتْ كَفَّكَ كَاسُ

وَاغْتَنِمْ صَفْوَ اللَّيَالِي ... إِنَّمَا الْعَيْشُ اخْتِلاَسُ

وَعَسَى أَنْ يَسْمَحَ الدَّهْـ ... ـرُ فَقَدْ طَالَ الشِّمَاسُ (٤)

---

(١) أي تنشق ينبع منه الماء ، وفي القرآن الكريم : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء » (٢) يلصق بالأرض ملازماً عرينه لا يبرحه والورد من أسماء الأسد ، والسبنتى الجريء ، ومنه في صفة أبي لؤلؤة قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه . قول الشماخ :

جزى الله خيراً من إمام وباركت ... يد الله في ذاك الأديم الممزّق

وما كنت أخشى أن تكون وفاته ... بكفّي سبنتى أزرق العين مطرق

والسبنتى النمر أيضاً ، وفي الذخيرة لابن بسام قوله : يلبد الورد السبنتى البيت ، كقول النابغة :

وقلت يا قوم إن الليث منقبض ... على براثنه للوثبة الضاري

وأخذه ابن الرومي فقال :

سكنت سكوناً كان رهناً لوثبة ... عماس كذاك الليث للوثب يلبد

(٣) يقول : لا يكن عهدك كالورد في سرعة الذبول ، فإن عهدي دائم كالآس ، ويفسر هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

ولكنني شبهت بالورد عهدها ... وليس يدوم الورد والآس دائم

(٤) وفي رواية ثانية : « وقد طال التماس » ومعنى الرواية الأولى أن عصيان الدهر وتمرده قد طالا .

ذكرى أيام الوصال[1]

« كتب ابن زيدون هذه القصيدة الفذّة ، يتحسر فيها على انقضاء أيام الوصال ويشكو فيها ما يحسه من الوجد المبرح والألم القاسي ، وقد بعث بها إلى حبيبته «ولادة بنت المستكفي» أديبة الاندلس الفذّة ، يستعطفها ويتلهف على أيام الوصال السابقة »

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينا	وَنَابَ[2] عَنْ طِيبِ لقيانا تجافِينا
أَلاَّ[3] وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحَنا	حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينا
مَنْ مُبْلِغُ الْمُلْبِسِينا بِانْتِزَاحِهِمِ	حُزْناً مَعَ الدَّهْرِ لاَ يَبْلَى وَيُبْلِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِى مَا زَالَ يُضْحِكُنَا	أُنْساً بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَوْا	بِأَنْ نَغَصَّ[4] فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُوداً بِأَنْفُسِنَا	وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِينا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا	فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلاَقِينَا

---

(١) جاء فى قلائد العقيان :

« ولم يزل يروم دنو ولادة فيتعذر ، ويباح دمه دونها ويهدر ، لسوء أثره فى ملك قرطبة وواليها ، ووقائع كان ينسبها اليه ويواليها ، أحقدت بنى جهور عليه ، وسددت أسنتهم اليه ، فلما يئس من لقياها ، وحجب عنه محياها ، كتب اليها يستديم عهدها ، ويؤكد ودها ، ويعتذر من فراقها بالخطب الذى غشيه ، والامتحان الذى خشيه ، ويعلمها أنه ماسلا عنها بخمر ، ولا خبا ما بين ضلوعه لها من ملتهب جمر ، وهى قصيدة ضربت فى الابداع بسهم ، وطلعت فى كل خاطر ووهم ، ونزعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم »

وقد عارض هذه القصيدة كثير من الشعراء — من قدماء ومحدثين — وقد أثبتنا شيئاً من ذلك فى غير هذا المكان من الكتاب فليرجع اليه من شاء   (٢) رواية الديوان « بان » .

(٣) لغة فى هلاّ ، والحين الهلاك ، والمعنى هلا صبحنا الهلاك صبيحة يوم الفراق — كأن الهجر والموت فى نظر الشاعر سيان ما دام كلاهما يبعده عمن يحبه ويهواه بل الموت أروح لأنه فراق اضطرار ، أما الهجر فانه عن اختيار   (٤) غصّ بالماء شرق به أو وقف فى حلقه .

*

* * *

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَمْ نُعْتِبْ[١] أَعَادِيَكُمْ ... هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ الْعُتْبَى أَعَادِينَا

لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلاَّ الْوَفَاءَ لَكُمْ ... رَأْياً وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا

مَا حَقُّنَا أَنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ ... بِنَا وَلاَ أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحاً فِينَا

* * *

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسْلِينَا عَوَارِضُهُ ... وَقَدْ يَئِسْنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا[٢]

بِنْتُمْ[٣] وَبِنَّا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا

نَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا ... يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى[٤] لَوْلاَ تَأَسِّينَا[٥]

حَالَتْ لِفَقْدِكُمُ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ ... سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضاً لَيَالِينَا

إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلْقٌ مِنْ تَأَلُّفِنَا ... وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا

وَإِذْ هَصَرْنَا[٦] فُنُونَ[٧] الْوَصْلِ دَانِيَةً ... قِطَافُهَا فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا

لِيُسْقَ[٨] عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا ... كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلاَّ رَيَاحِينَا

لاَ تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا ... إِنْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا

---

(١) أعتبه أعطاه العتبى أى أرضاه ، يقول : إننا لم نرض أعداءكم ، فهل أنتم كذلك لم ترضوا أعداءنا

(٢) كنا نظن أن اليأس يسلى ، فما بال يأسنا منكم يزيدنا ولو عا بكم ، وفى هذا المعنى يقول المجنون :

أليس وعدتنى يا قلب أنى ... إذا ما تبت عن ليلى تتوب

فها أنا تائب عن حب ليلى ... فمالك كلما ذكرت تذوب

(٣) بعدتم وبعدنا (٤) الحزن (٥) التعزى

(٦) هصر الغصن : إمالته (٧) ضروبه وأنواعه أو الفنون جمع فنن ، وهو الغصن وما تشعب منه ، وفى اللسان (قال أبو الهيثم : الفنون تكون فى الأغصان ، والأغصان تكون فى الشعب ، والشعب تكون فى السوق) فكان الشاعر استعار للوصل أفنانا يهصرها أى يميلها إليه كلما أراد اقتطاف زهرها ، واجتناء ثمرها (٨) أى سقياً لعهدكم عهد السرور [illegible]

وَٱللهِ مَا طَلَبَتْ (١) أَهْوَاؤُنَا بَدَلاً   مِنْكُمْ وَلاَ ٱنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

* * *

يَا سَارِيَ ٱلْبَرْقِ غَادِ (٢) ٱلْقَصْرَ وَٱسْقِ بِهِ   مَنْ كَانَ صِرْفَ ٱلْهَوَى وَٱلْوُدِّ يَسْقِينَا

وَٱسْأَلْ هُنَالِكَ هَلْ عَنَّى (٣) تَذَكُّرُنَا   إِلْفًا تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعَنِّينَا

وَيَا نَسِيمَ ٱلصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا   مَنْ لَوْ عَلَى ٱلْقُرْبِ حَيًّا كَانَ يُحَيِّينَا

فَهَلْ أَرَى ٱلدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً   مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا (٤)

* * *

رَبِيبُ مُلْكٍ كَأَنَّ ٱللهَ أَنْشَأَهُ   مِسْكًا (٥) وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ ٱلْوَرَى طِينَا

أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا (٦) مَحْضًا وَتَوَّجَهُ   مِنْ نَاصِعِ ٱلتِّبْرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينَا

إِذَا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفَاهِيَةً   تُومُ ٱلْعُقُودِ وَأَدْمَتْهُ ٱلْبُرَى لِينَا (٧)

كَانَتْ لَهُ ٱلشَّمْسُ ظِئْرًا (٨) فِي أَكِلَّتِهِ (٩)   بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلاَّ أَحَايِينَا

كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنِ وَجْنَتِهِ   زُهْرُ ٱلْكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا أَوْ تَزْيِينَا (١٠)

---

(١) وفي رواية . « ما اطرفت » استحدثت ، بدلا طريفا ، يقسم أنه ما استحدث هوى جديداً بعد هوى أحبابه ، (٢) باكره بالغمام أول النهار

(٣) هل شغل عن بأيامه بذكرنا كما شغلنا بذكره .

(٤) الغبّ في الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والمقصود هنا القلة . يقول الشاعر :

إننا لم نتقاض الوصال من الدهر غبا ، ولكننا نتقاضاه بالحاح فهل ترى الدهر — بعد هذا — يسعفنا باللقاء ؟

(٥) ليس هذا المحبوب مخلوقا من طين أو تراب كسائر البشر كلا ، وإنما هو طينة من المسك ولا زال الشعراء المحبون يتغالون فيمن يحبون إلى الآن ، حتى قال بعضهم أخيراً لمحبوبته :

أنت روحانية لا تدعي   أن هذا الجسم من طين وماء

(٦) فضة ، يريد أن الله أبدعه ناصع البياض وتوجه بشعر ذهبي   (٧) يقول إذا تثنى آدته أى أثقلته وشق حملها عليه (تُوم) أى لآلئ العقود وجرحته (البرى) أى الخلاخيل ، وذلك لرفاهته

(٨) مرضعة   (٩) جمع كِلة : وهى ستر رقيق يتقى من البعوض

(١٠) يعنى أن جماله استثار زهر الكواكب لتكون زينة له ، ولتعويذه من عيون حاسديه

مَاضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا ... وَفِى الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

***

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظَنَا ... وَرْداً جَلاَهُ الصِّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا

وَيَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَا (١) بِزَهْرَتِهَا ... مُنًى ضُرُوبًا وَلَذَّاتٍ أَفَانِينَا

وَيَا نَعِيماً خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ (٢) ... فِى وَشْىِ (٣) نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا

لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلاَلاً وَتَكْرِمَةً ... وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلِي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا

إِذَا انْفَرَدْتَ وَمَا شُورِكْتَ فِى صِفَةٍ ... فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِيضَاحًا وَتَبْيِينَا

***

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أُبْدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا ... وَالْكَوْثَرِ الْعَذْبِ زَقُّومًا وَغِسْلِينَا

كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا ... وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ (٤) مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا

سِرَّانِ فِى خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا ... حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا (٥)

لاَغَرْوَ فِى أَنْ ذَكَرْنَا الْحُزْنَ حِينَ نَهَتْ ... عَنْهُ النُّهَى وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا

إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُوَراً ... مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا

---

(١) تمتعنا ونعمنا

(٢) نضرته وخفضه (٣) فى نعمى كالثوب الضافى ذى الوشى أى النقش .

(٤) أنامه عنا فلم يش بنا

(٥) قال ابن بسام : وهو معنى مشهور وهو فى الشعر كثير ، قال أبو الطيب :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى ... وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

على أن أبا الطيب أعاده وكرره فى مواضع من شعره كقوله :

لاتلق إلا بليل من تواصله ... فالشمس نمامة والليل قوّاد

وكل من إلى هذا المعنى أشار ، فحوالى المثل دار ، وهو قولهم : « الليل أخفى للويل »

نقول : ولم نر فى هذه المعانى التى ذكرها ابن بسام أدق وألطف من قول ابن زيدون :

« سران فى خاطر الظلماء » الخ

أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْـدِلْ بِمَنْهَلِهِ ... شُرْباً وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا[١]

لَمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوْكَبُهُ ... سَالِينَ عَنْـهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا

وَلاَ اخْتِيَاراً تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَـثَبٍ ... لٰـكِنْ عَدَتْنَا عَلَى كُرْهٍ عَوَادِينَا[٢]

نَأْسَى عَلَيْكِ إِذَا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً[٣] ... فِينَا الشَّـمُولُ وَغَنَّانَا مُغَنِّينَا

لاَ أَكْؤُسُ الرَّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا ... سِيمَا ارْتِيَاحٍ وَلاَ الْأَوْتَارُ تُلْهِينَا

دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَادُمْنَا مُحَافِظَةً ... فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافاً كَمَا دِينَا[٤]

فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلاً مِنْكِ يَحْبِسُنَا ... وَلاَ اسْتَفَدْنَا حَبِيباً عَنْكِ يَثْنِينَا

وَلَوْ صَبَا[٥] نَحْوَنَا مِنْ عُلْوِ مَطْلَعِهِ ... بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكِ يُصْبِينَا

أَبْكِي وَفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِي صِلَةً ... فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا

وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتِ بِهِ ... بِيضَ الْأَيَادِي الَّتِي مَا زِلْتِ تُولِينَا

عَلَيْكِ مِنَّا سَلاَمُ اللهِ مَا بَقِيَتْ ... صَبَابَةٌ بِكِ نُخْفِيهَا[٦] فَتَخْفِينَا

---

(١) قال ابن نباتة : « وهذا معنى متداول من أشهره قول القائل :

ورِيق إذا ما ازددت من شربه ريا ... ثناك الرى ظمآن ما

كالخمر — أروى مايكون الفتى من شربها — أعطش ما كانا

ولابن الرومى فيما يناسبه من بعض الوجوه :

« يا ربّ ريق بات بدر الدجى ... يمجـــــه بين ثناياك

يروى ولا ينهاك عن شربه . والماء يرويك وينهاك »

(٢) لم نتجنبه عن كثب أى قرب اختياراً ، ولـكن صرفتنا على كره منا شواغلنا .

(٣) ممزوجة : أى نحزن لغيابك عن مجلسنا إذا حثت الشمول الممزوجة (٤) دومى محافظة على العهد مادمنا محافظين فالحرّ المنصف يجزى كما جوزى

(٥) مال (٦) أخفيت الشيء أخفيه سترته ، وخفيته أخفيه تأتى بمعنى سترته ، وبمعنى أظهرته ، وعلى ذلك فقوله « نخفيها » أى نسترها « فتخفينا » بفتح أوله أى تظهرنا ، وشاهد خفاه يخفيه بمعنى أظهره . قوله :

فان تكتموا السرّ لا نخفه ... وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

وقوله تعالى فى قراءة « أكاد أخفيها » بالفتح أى أظهرها ..

فى مدح ابن جهور(١)

مَا لِلْمُدَامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكِ ... فَيَمِيلُ فى سُكْرِ الصِّبَا عِطْفَاكِ

هَلاَّ مَزَجْتِ لِعَاشِقِيكِ سُلاَفَهَا ... بِبُرُودِ ظَلْمِكِ أَوْ بِعَذْبِ لَمَاكِ(٢)

بَلْ مَا عَلَيْكِ وَقَدْ مَحَضْتُ(٣) لَكِ الْهَوَى ... فى أَنْ أَفُوزَ بِحُظْوَةِ الْمِسْوَاكِ(٤)

نَاهِيكِ ظُلْمًا أَنْ أَضَرَّ بِيَ الصَّدَى(٥) ... بَرْحًا(٦) وَنَالَ الْبُرْءَ عُودُ أَرَاكِ

* * *

وَاهًا لِعِطْفِكِ وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا ... صُبِغَتْ غَضَارَتُهُ(٧) بِبُرْدِ صِبَاكِ

وَاللَّيْلُ مَهْمَا طَالَ قَصَّرَ طُولَهُ ... هَاتِي وَقَدْ غَفَلَ الرَّقِيبُ وَهَاكِ

وَلَطَالَمَا اعْتَلَّ النَّسِيمُ فَخِلْتُهُ ... شَكْوَايَ رَقَّتْ فَاقْتَضَتْ شَكْوَاكِ

إِنْ تَأْلَفِي سِنَةَ النَّؤُومِ خَلِيَّةً ... فَلَطَالَمَا نَافَرْتِ فِيَّ كَرَاكِ(٨)

أَوْ تَحْتَبِي بِالْهَجْرِ فى نَادِي الْقِلَى ... فَلَكَمْ حَلَلْتُ إِلَى الْوِصَالِ حُبَاكِ(٩)

* * *

أَمَّا مُنَى نَفْسِي فَأَنْتِ جَمِيعُهَا ... يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ بَعْضَ مُنَاكِ

يَدْنُو بِوَصْلِكِ حِينَ شَطَّ مَزَارُهُ ... وَهْمٌ أَكَادُ بِهِ أُقَبِّلُ فَاكِ

---

(١) تصدّى كثير من الشعراء المعاصرين لمعارضة هذه القصيدة وقد ذكرنا طرفا من ذلك فى غير هذا المكان من الكتاب فليرجع اليه من شاء .

(٢) الظلم : ماء الأسنان أو بريقها ، واللمى : سمرة فى الشفة (٣) أخلصت

(٤) يقول : ماضرك ـ بعد أن أخلصت لك الهوى ، ومحضتك الحب أن أفوز منك بحظ السواك .

(٥) العطش الشديد (٦) مشقة وشـدّة (٧) بهجته . يقول الشاعر : ما أحسن عطفك فيما مضى والزمان كأنما صبغت بهجته بما كسيت أنت به من برد الشباب (٨) يقول أن تتمادى النوم الآن خالية غير مبالية بى ، فكثيراً ما أسهدك الهوى ، وعاديت فى نومك (٩) احتبى بالثوب اشتمل والحبى كهدى جمع حبوة مثلثة الحاء ، فكأنّ الشاعر يقول : إن تحلى فى نادى البغض (القلى) محتبية أو مشتملة بحبوة الهجر ، فكثيراً ما نزعت إلى الوصال ، وحللت لأجله حباك .

وَلَئِنْ تَجَنَّبْتِ الرَّشَادَ بِغَدْرَةٍ   لَمْ يَهْوِ بِي فِي الْغَيِّ غَيْرُ هَوَاكِ [١]

* *

لِلْجَهْوَرِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلَائِقٌ   كَالرَّوْضِ أَضْحَكَهُ الْغَمَامُ الْبَاكِي

مَلِكٌ يَسُوسُ الدَّهْرَ مِنْهُ مُهَذَّبٌ   تَدْبِيرُهُ لِلْمُلْكِ خَيْرُ مِلَاكِ [٢]

جَارَى أَبَاهُ بَعْدَ مَا فَاتَ الْمَدَى   فَتَلَاهُ بَيْنَ الْفَوْتِ وَالْإِدْرَاكِ

شَمْسُ النَّهَارِ وَبَدْرُهُ وَنُجُومُهُ   أَبْنَاؤُهُ مِنْ فَرْقَدٍ وَسِمَاكِ [٣]

يَسْتَوْضِحُ السَّارُونَ زُهْرَ كَوَاكِبٍ   مِنْهُمْ تُنِيرُ غَيَاهِبَ الْأَحْلَاكِ [٤]

بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا وَبُشْرَانَا مَعًا   هٰذَا الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَدَاكِ [٥]

* * *

تُلْفَى السِّيَادَةُ ثَمَّ إِنْ أَضْلَلْتِهَا [٦]   وَمَتَى فَقَدْتِ السَّرْوَ [٧] فَهْوَ هُنَاكِ

وَإِذَا سَمِعْتِ بِوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ   فِرَقُ الْمَحَاسِنِ فِي الْأَنَامِ فَذَاكِ

صَمْصَامُ بَادِرَةٍ وَطَوْدُ سَكِينَةٍ   وَجَوَادُ غَايَاتٍ وَجِذْلُ حِكَاكِ [٨]

---

(١) المعنى لئن وقعت فى الغى بسبب غدرك بى فإنى أنا لم يوقعنى فى الغى غير هواك .

(٢) ملاك الأمر : بكسر الميم ، أى قوامه الذى يملك به .

(٣) الفرقد والسماك من النجوم النيرة

(٤) هم المسترشدين برأيهم إذا دجت الحوادث أمثال النجوم الزهر للسارين فى ظلمات الليل البهيم

(٥) وجد بعد هذا البيت عجز بيت ناقص هكذا : — (وصفت حمامك واستلذ جناك)

(٦) ذهبت عنك وندت ، والخطاب للدنيا فى قوله « بشراك يا دنيا » .

(٧) المروءة والشرف والوصف على فعيل يقال سرو يسرو فهو سرى

(٨) البادرة الحدة ، والجذل أصل شجرة قطع رأسها أو عود ينصب فى العطن لتحتك به الابل الجربى يقال هو جذل حكاك ، وهم جذال حكاك ، ومنه قول الحباب بن المنذر الأنصارى يوم سقيفة بنى ساعدة « أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب » أى إنه يستشفى برأيه وعلمه وتجاربه فى الأمور كما تستشفى الابل الجربى بهذا الجذل ، ومعنى البيت أنه مصمم كالسيف فى الغضب ثابت كالطود فى الحلم سباق إلى الغايات مجرب يستشفى برأيه صلب لايلين مكسره .

طَلْقٌ يُفَنِّدُ فِى السَّمَاحِ ، وَجَاهِلٌ   مَنْ يَسْتَشِفُّ النَّارَ بِالْمِحْرَاكِ [١]

***

صَنَعٌ[٢] الضَّمِيرِ إِذَا أَجَالَ بِمُهْرَقٍ[٣]   يُمْنَاهُ فِى مَهَلٍ وَفِى إِيشَاكِ [٤]

نَظَمَ الْبَلَاغَةَ فِى خِلَالِ سُطُورِهِ   نَظْمَ اللَّآلِى التُّومِ فِى الْأَسْلَاكِ

نَادَى مَسَاعِيَهُ الزَّمَانُ مُنَافِساً   أَحْرَزْتِ كُلَّ فَضِيلَةٍ فَكَفَاكِ

مَا الْوَرْدُ فِى مَجْنَاهُ سَامَرَهُ النَّدَى   مُتَحَلِّياً إِلَّا بِبَعْضِ حُلَاكِ

كَلَّا وَلَا الْمِسْكُ النَّمُومُ[٥] أَرِيجُهُ   مُتَعَطِّراً إِلَّا بِوَسْمِ [٦] ثَنَاكِ

اللَّهْوُ ذِكْرُكِ لَا غِنَاءُ مُرَجِّعٍ   يَفْتَنُّ فِى الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْسَاكِ [٧]

طَارَتْ إِلَيْكِ بِأَوْلِيَائِكِ هِزَّةٌ   تَهْفُو لَهَا أَسَفاً قُلُوبُ عِدَاكِ [٨]

***

يَـٰأَيُّهَا الْقَمَرُ الَّذِى لِسَنَائِهِ [٩]   وَسَنَاهُ تَعْنُو السَّبْعُ فِى الْأَفْلَاكِ

فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكْتَ عِنَانَهَا   فَرَحُ الْعَرُوسِ بِصِحَّةِ الْإِمْلَاكِ [١٠]

---

(١) الخشبة التى تحرك بها النار ، والمعنى أنه باش الوجه سمح وأن الكرم طبيعة فيه وليس يزيده تعنيف العاذلين إلا تماديا فى كرمه كالنار يزيدها المحراك اشتعالا

(٢) يقال لسان صنع ، وشاعر صنع ، وبليغ صنع ، إذا كان حاذقا ماهراً ، والمعنى أنه كاتب رائع البيان سيال رويته وإسراعه   (٣) صحيفة   (٤) إسراع

(٥) صيغة مبالغة من نم المسك سطع ، والأريج توهج ريح المسك

(٦) الوسم : العلامة والثناء والمدح ـ يخاطب على لسان الزمان فى هذا البيت والذى قبله مساعى الممدوح مثبتاً أن الورد فى مجناه ليس متحلياً إلا ببعض حلاها ، وأن المسك فى سطوع أريجه لم يكن متعطراً إلا من وسمها بالثناء   (٧) ما اللهو إلا ذكر تلك المساعى لا غناء مرجع يطلق فى الغناء صوته ويمسكه .

(٨) طارت : أسرعت ، والخطاب للمساعى ، والهزة تحرك فى نشاط وارتياح ، والمعنى أسرعت إليك أيتها المساعى مواكب بالأولياء ، وقد خفقت لها حزناً قلوب الأعداء

(٩) السناء بالمد الرفعة وبالقصر الضوء   (١٠) عقد النكاح

مَنْ قَالَ إِنَّكَ لَسْتَ أَوْحَدَ فِي النُّهَى ... وَالصَّالِحَاتِ فَدَانَ (١) بِالْإِشْرَاكِ

قَلِّدْنِيَ الرَّأْيَ الْجَمِيلَ فَإِنَّهُ ... حَسْبِي لِيَوْمَيْ زِينَةٍ وَعِرَاكِ

وَإِذَا تَحَدَّثَتِ الْحَوَادِثُ بِالرَّنَا ... شَزْراً إِلَيَّ فَقُلْ لَهَا إِيَّاكِ (٢)

هُوَ فِي ضَمَانِ الْعَزْمِ يَعْبِس وَجْهُهُ ... لِلْخَطْبِ وَالْخُلُقِ النَّدِي الضَّحَّاكِ (٣)

* * *

وَأَحَمَّ دَارِيٍّ تَضَاعَفَ عِزُّهُ ... لَمَّا أُهِينَ بِمَسْحَقٍ وَمَدَاكِ

وَالدَّجْنُ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ حَاجِبٌ ... وَالْجَفْنُ مَثْوَى الصَّارِمِ الْفَتَّاكِ

هَنَأَتْكَ صِحَّتُكَ الَّتِي لَوْ أَنَّهَا ... شَخْصٌ أُحَاوِرُهُ لَقُلْتُ هَنَاكِ

دَامَتْ حَيَاتُكَ مَا اسْتُدِمْتَ فَلَمْ تَزَلْ ... تَحْيَا بِكَ الْأَخْطَارُ بَعْدَ هَلَاكِ

ذكرى ولادة (٤)

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ ... ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكْ

يَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ ... زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَا إِذْ شَيَّعَكْ

يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنَا ... حَفِظَ اللهُ زَمَاناً أَطْلَعَكْ

إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكَمْ ... بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكْ

---

(١) أي فداك الذي قال إنك لست أوحد فيهما قد دان بالشرك

(٢) إذا الحوادث تحدّثت بالنظر إلى مؤخر عينها ، فقل لها حذار (٣) هو أي ذلك الذي تهمّ الحوادث أن تنظر إليه شزراً في ضمان عزم الممدوح العابس في وجه الحوادث وفي ضمان خلقه الندى أي السخي الضاحك عن ثغور الأماني .

(٤) جاء في قلائد العقيان :

ولما رحل عنه من كان يهواه ، وفاجأه منه ونواه ، فسايره قليلا وماشاه . وهو يتوهم ألم الفراق حتى غشاه ، فاستعجل الوداع ، وفي كبده ما فيها من الانصداع ، فأقام يومه بحالة المفجوع ، وبات ليلته نافر الهجوع ، يردد الفكر ، ويجدد الذكر . فقال :

وقد عزا صاحب نفح الطيب هذه الأبيات الأربعة إلى ولادة .

بعد الفرار من السجن (١)

« بعد أن فرّ ابن زيدون من السجن أرسل يخاطب ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر للشفاعة ويستنزل أبا الحزم ابن جهور وكان ابن زيدون مختفيا بقرطبة . فقال : « . . . . . . وبلغنى أملك أحد اللائمين لى ، ومن أمثالهم : « ويل للشجىّ من الخلىّ ، وهان على الأملس (٢) ما لاقى الدبر (٣) وعلمت أن العاجز من لا يستبدّ (٤) ، فالمرء يعجز لا محالة ، ولم أستحز أن أكون ثالث الأذلين ـ العير والوتد (٥) .

وتذكرت أن الفرار من الظلم ، والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : « ففررت منكم لما خفتكم »

فطرت فى مفارقة الوطن ، فقديما ضاع الفاضل فى وطنه ، وكسد العلق فى معدنه ، كما قال :

أضيع فى معشرى وكم بلد يكون عود الكباء (٦) من حطبه

فاستخرت الله فى إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن إلا أن النفى لم يرتفع ، ومادّة البغى لم تنقطع :

شَحَطْنَا وَمَا بِالدَّارِ نَأْىٌ وَلَا شَحْطُ وَشَطَّ بِمَنْ نَهْوَى المَزَارُ وَمَا شَطُّوا (٧)

---

(١) جاء فى قلائد العقيان :

وله عند فراره ، وخروجه من مراره ، وقد أقام بقرطبة متواريا يخاطب ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور

(٢) الصحيح الظهر . (٣) الذى ظهره قرحه ، أى أن السليم الظهر لا يحسّ ألم أخيه المقروح الظهر . (٤) يشير إلى البيتين المشهورين :

« ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرّة واحدة إنما العاجز من لا يستبدّ »

(٥) يشير إلى قول القائل :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

وابن زيدون يعنى أنه جدير ألا يقيم على الذل ، وأن يتخلص من الضيم بكلّ ما فى وسعه ، ولله درّ الشنفرى إذ يقول : « ولكن نفسا حرة لا تقيم بى على الضيم إلا ريثما أتحوّل »

(٦) عود البخور أو ضرب منه (٧) شحطت الدار : تشحط بفتح العين شحطاً وشحوطاً وشطت تشط بالضم بعدت. يقول : قربت دار من أهوى ، ودنا مزارها . إلا أنه قرب فى غاية البعد لاستحالة اللقاء .

أَأَحْبَابَنَا أَلْوَتْ بِحَادِثِ عَهْدِنَا   حَوَادِثُ لَاعَقْدٌ عَلَيْهَا وَلَاشَرْطُ (١)

لَعَمْرُكُمُ إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي قَضَى   بِشَتِّ جَمِيعِ الشَّمْلِ مِنَّا لَمُشْتَطُّ (٢)

وَأَمَّا الْكَرَى مُذْ لَمْ أَزُرْكُمْ فَهَاجِرٌ   زِيَارَتُهُ غِبٌّ وَإِلْمَامُهُ فَرْطُ (٣)

وَمَا شَوْقُ مَقْتُولِ الْجَوَانِحِ بِالصَّدَى   إِلَى نُطْفَةٍ زَرْقَاءَ أَضْمَرَهَا وَقْطُ (٤)

بِأَبْرَحَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكُمْ وَدُونَمَا   أُدِيرُ الْمُنَى عَنْهُ الْقَتَادَةُ وَالْخَرْطُ (٥)

وَفِي الرَّبْرَبِ الْإِنْسِيِّ أَحْوَى كِنَاسُهُ   نَوَاحِي ضَمِيرِي لَاالْكَثِيبُ وَلَاالسَّقْطُ (٦)

قال هذه القصيدة عند فراره من السجن واختفائه بقرطبة ، يخاطب بها ولادة عن كثب وهو لا يمكنه أن يدنو من دارها ، أو يخف لمزارها ، مشفقاً أن يقع فريسة في يد من يعدو عليه أو يسطو ، ملازماً مخبأه لا يتحرك ولا يخطو ، جاعلا الأديب « أبا بكر » عوضاً من أبيه والقربى ، مستعطفاً من أبي الحزم ابن جهور العتبى ، شاكياً إليه فرط إقصائه ، إلى عصبة السوء من أعدائه ، راجياً أن يجريه من شيمته على سابق عادته ، وأن يختصه بالشفاعة ، بعد طول الشد والضراعة ، وأن يسعفه بطلبته ، وتنفس كربته قبل أن يفيض عن نفسه ذلك الضغط ، فأمره إلى من بيده القبض والبسط .

(١) ألوت : ذهبت ، والعقد أوكد العهود ، والمعنى ذهبت بجديد عهدنا حوادث تجرى صروفها على غير ما نهوى ونريد ليس بيننا وبينها عهد نؤكده ، ولا شرط نحدده (٢) الشت : التفرق ، والجميع : المجتمع ، والشمل : الاجتماع . يقال جمع الله شملك أي ما تشتت من أمرك ، وفرق الله شمله أي ما اجتمع من أمره ، ومشتط : أي جائر فيما حكم به وقضى (٣) الكرى : النوم ، وزيارته غب أي يزور يوماً بعد انقطاعه أياماً ، ومنه « زر غباً ، تزدد حباً » والإلمام مصدر ألم به زاره غبا ، والفرط : بفتح فسكون الحين . يقال آتيه في الفرط ، أي في الحين بعد الحين

(٤) الجوانح : حنايا الضلوع المطبقة على القلب ، والنطفة : الماء الصافي وتجمع على نطف ، والوقط : نقر في الصخر يجتمع فيها ماء السماء .

(٥) بأبرح : بأشد برحا ومشقة وعذابا من شوقي ، أدير المنى عنه : أي ما أطالب المنى بتركه والانصراف عنه من قولهم ، أدار فلانا عن الأمر إذا طلب منه تركه . قال الشاعر :

يديرونني عن سالم وأديرهم   وجلدة بين العين والأنف سالم

والقتادة شجرة قصيرة ذات قضبان مجتمعة كل قضيب منها ملآن ما بين أعلاه وأسفله شوكا كالإبر ، وخرط القتادة اجتذاب شوكها من أعلى إلى أسفل بإمرار اليد مقبوضة على أغصانها ، وفي المثل « من دون ذلك خرط القتاد » (٦) الربرب : السرب من الظباء أو القطيع من بقر الوحش ، والإنسي : مقابل الوحشي أحوى في شفتيه حمرة ضاربة إلى السواد ، والكناس : مستتر من الشجر للظباء كالبيت للإنسان والفرس تكن فيه من الحر ، والكثيب الرمل المحدودب ، والسقط : مثلث الفاء الرقيق من الرمل حيث انقطع معظمه

غَرِيبُ فُنُونِ الْحُسْنِ يَرْتَاحُ دِرْعُهُ　　مَتَى ضَاقَ ذَرْعًا بِالَّذِي حَازَهُ الْمِرْطُ (١)

كَأَنَّ فُؤَادِي يَوْمَ أَهْوَى مُوَدِّعًا　　هَوَى خَافِقًا مِنْهُ بِحَيْثُ هَوَى الْقُرْطُ (٢)

إِذَا مَا كِتَابُ الْوَجْدِ أَشْكَلَ سَطْرُهُ　　فَمِنْ زَفْرَتِي شَكْلٌ وَمِنْ عَبْرَتِي نَقْطُ (٣)

أَلاَ هَلْ أَتَى الْفِتْيَانَ أَنَّ فَتَاهُمُ　　فَرِيسَةُ مَنْ يَعْدُو وَنُهْزَةُ مَنْ يَسْطُو (٤)

وَأَنَّ الْجَوَادَ الْفَائِتَ الشَّأْوِ صَافِنٌ　　تَخَوَّنَهُ شَكْلٌ وَأَزْرَى بِهِ رَبْطُ (٥)

وَأَنَّ الْحُسَامَ الْعَضْبَ ثَاوٍ بِجَفْنِهِ　　وَمَا ذُمَّ مِنْ غَرْبَيْهِ قَدٌّ وَلاَ قَطُّ (٦)

* * *

عَلَيْكَ (أَبَا بَكْرٍ) بَكَرْتُ بِهِمَّةٍ　　لَهَا الْخَطَرُ الْعَالِي وَإِنْ نَالَهَا حَطُّ (٧)

أَبِي بَعْدَ مَا هِيلَ التُّرَابُ عَلَى أَبِي　　وَرَهْطِي فَذًّا حِينَ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطُ (٨)

لَكَ النِّعْمَةُ الْخَضْرَاءُ تَنْدَى ظِلاَلُهَا　　عَلَيَّ وَلاَ جَحْدٌ لَدَيَّ وَلاَ غَمْطُ (٩)

---

(١) الدرع : القميص ، والمرط : كساء من خزّ ونحوه يؤتزر به ، والقميص يجوز النهدين والخصر ، والمرط : يجوز الردف ، والردف ثقيل ، والخصر نحيل (٢) أهوى مال إليه حانيا ظهره فى حال توديعه ، وهوى القرط ، وهو ما يعلق فى شحمة الأذن ، سقط متدليا فهوى فؤاده معه خافقا

(٣) أشكل سطره من أشكل عليه الأمر اختلط ولم يبن ، والشكل والنقط تقييد الكتاب بحركات الأعراب ، وإعجامه ليظهر معناه . يقول إذا أشكل على من أهوى كتاب الوجد أوضحته له بما أصعده من زفرات ، وأسفحه من عبرات (٤) الفتيان يريد بهم فتيان قرطبة ، والنهزة : الصيد المعرض لمن يسطو عليه ويقتنصه (٥) الشأو : الغاية ، والصافن : الذى يقوم على ثلاث ويثنى سنبك يده الرابع تخونه وتخوّنه : تنقصه ، ومنه قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوّف » ، وشاهد تخونه بمعنى تنقصه قول لبيد :

عذافرة تقمص بالرداف　　تخونها نزولى وارتحالى　　أى تنقص لحمها وشحمها

وشكل الدابة : شدّ قوائمها بحبل ، وأزرى به : أهانه وحقره (٦) الحسام العضب : السيف القاطع ، وثاو مقيم : يريد أنه كالسيف المغمد فى جفنه ، وما عيب من غربيه : أى حديه قد ، وهو القطع طولا ولا قط ، وهو القطع عرضا .

(٧) بدأ يخاطب الأديب (أبا بكر) ويستنهض همته ، ويذكر يده عنده . يقول : إنّ لى همة عالية لها خطرها بكرت بها عليك وتفوت بك قديما ، وإن نالها الآن انحطاط بعد علوّ .

(٨) أنت أبى بعد فقد أبى وأنت وحدك رهطى حين لم يبق لى رهط . (٩) غمط النعمة غمطاً لم يشكرها أى لك عندى النعمة الخضراء التى تظلنى ، والتى مازلت أشكرها ولا أنكرها وأكبرها ولا أحقرها

وَلَوْلاكَ لَمْ تَثْقُبْ زِنَادُ قَرِيحَتِي ... فَيَنْتَهِبَ الظَّلْمَاءَ مِنْ نَارِهَا سِقْطُ[(١)]

وَلاَ أَلِفَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ بَدَائِعِي ... فَمِنْ خَاطِرِي نَظْمٌ وَمِنْ زَهْرِهِ لَقْطُ[(٢)]

هَرِمْتُ وَمَا لِلشَّيْبِ وَخْطٌ بِمَفْرِقِي ... وَكَانَ لِشَيْبِ الْهَمِّ فِي كَبِدِي وَخْطُ[(٣)]

وَطَاوَلَ سُوءُ الْحَالِ نَفْسِي فَأَذْكَرَتْ ... مِنَ الرَّوْضَةِ الْغَنَّاءِ طَاوَلَهَا الْقَحْطُ[(٤)]

مِئُونَ مِنَ الأَيَّامِ خَمْسٌ قَطَعْتُهَا ... أَسِيراً وَإِنْ لَمْ يَبْدُ شَدٌّ وَلاَ قَمْطُ[(٥)]

أَتَتْ بِي كَمَا مِيصَ الإِنَاءُ مِنَ الأَذَى ... وَأَذْهَبَ مَا بِالثَّوْبِ مِنْ دَرَنٍ مَسْطُ[(٦)]

أَتَدْنُو قُطُوفُ الْجَنَّتَيْنِ لِمَعْشَرٍ ... وَغَايَتِيَ السِّدْرُ الْقَلِيلُ أَوِ الْخَمْطُ[(٧)]

---

(١) لم تثقب : أي لولاك لم تظهر نار ، قريحتي الشبيهة بالزناد في الايراء ، وينتهب الظلماء يأتي عليها ويلاشيها ، والسقط : مثلث الفاء ساكن العين ما سقط من النار بين الزندين . يقول : لولاك لم تقدح قريحتي فيظهر عند اقتداحها نار تنتهب الظلماء . (٢) النظم : نظم الحب في السلك ، واللقط : التقاطه — أي ولولاك (أبا بكر) ما ألفت بدائعي يد الربيع ، فهو يلتقط من محاسن الزهر ما أنظمه في سلك الخاطر . (٣) الوخط : فشو الشيب ، واختلاط بياضه بسواد الرأس ، والمفرق : وسط الرأس ، وهو موضع فرق الشعر من الجبين إلى الدائرة ، والمعنى لم أشب شيب الكبرة ، ولكن شبت شيب الهم . (٤) يقول أن مطاولة سوء الحال نفسه ذكرته بحال الروضة الغناء طال عليها أمد القحط . (٥) القمط : شد قمط الأسير ، وهو أن يجمع بين يديه ورجليه بحبل أو نحوه ، والمعنى أنه قطع خمسمائة يوم بقرطبة أسيراً ، ولكن بلا قيد ولا غل لأنه كان مختفيا متواريا عن الأنظار .

(٦) الموص : الغسل ، وميص الثوب : غسل بالأصابع ، ومسط الثوب : بله ثم تحريكه لاستخراج مائه والدرن : الوسخ ، والمعنى خرجت في أيام الخوف والاعتقال عند نهايتها مغسول الذنب كما غسل الاناء من الأذى ، والثوب من الدرن . (٧) السدر : النبق ، والخمط : كل نبت أخذ من المرارة طعما فلم يمكن أكله — يشير بهذا إلى قصة الجنتين في قوله تعالى — فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل — ووصف السدر بالقلة لكونه أحسن شيء فيما بدلوا ، والعرم بفتح فكسر ، والسكر : بكسر فسكون ، والمسناة : بضم ففتح فتشديد النون كلها — كما تؤخذ من اللسان والكشاف — أسماء للسد يبنى لحبس ماء العيون والأمطار ويترك فيه فتحات توضع عليها أبواب لاطلاق الماء على حسب ما يحتاجون إليه في سقيهم ، وقد ورد ذكر المسناة في بعض قصائد الديوان . يمثل في هذا البيت حاله بحال سبأ إذ أعرضوا عن الشكر ، فخرب الله جنتيهم بسيل العرم وأبدلهما عنهما الخمط ، والأثل والقليل من السدر ، ومعنى البيت : أيفوز غيري بالنعيم ولا أكاد أظفر بالتافه الحقير .

وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنْ تَغُرَّنِيَ الْمُنَى ... وَلِلْغِرِّ فِي الْعَشْوَاءِ مِنْ ظَنِّهِ خَبْطُ (١)

أَمَا وَأَرَتْنِي النَّجْمَ مَوْطِئَ أَخْمَصِي ... لَقَدْ أَوْطَأَتْ خَدِّي لِأَخْمَصِ مَنْ يَخْطُو (٢)

وَمُسْتَبْطِإِ الْعُتْبَى إِذَا قُلْتَ قَدْ أَنَى ... رِضَاهُ تَمَادَى الْعَتْبُ وَاتَّصَلَ السُّخْطُ (٣)

وَمَا زَالَ يُدْنِينِي وَيُنْئِي قَبُولَهُ ... هَوًى سَرَفٌ مِنْهُ وَصَاغِيَةٌ فَرْطُ (٤)

وَنَظْمُ ثَنَاءٍ فِي نِظَامِ وِلَايَةٍ ... تَحَلَّتْ بِهِ الدُّنْيَا لَآلِئُهُ وَسْطُ (٥)

عَلَى خَصْرِهَا مِنْهُ وِشَاحٌ مُفَصَّلٌ ... وَفِي رَأْسِهَا تَاجٌ وَفِي جِيدِهَا سِمْطُ (٦)

عَدَا سَمْعَهُ عَنِّي وَأَصْغَى إِلَى عِدًى ... لَهُمْ فِي أَدِيمِي كُلَّمَا اسْتَمْكَنُوا عَطُّ (٧)

بَلَغْتُ الْمَدَى إِذْ قَصَّرُوا فَقُلُوبُهُمْ ... مَكَامِنُ أَضْغَانٍ أَسَاوِدُهَا رُقْطُ (٨)

---

(١) الغِرّ : الذي لم يجرب الأمور ، وفي المثل : «هو يخبط خبط عشواء» يضرب للذي يركب رأسه ، ولا يهتم لعاقبة أمره ، كالناقة العشواء التي تخبط بيديها كل ما مرّت به لسوء بصرها ، والعشواء : هنا ظلمة الليل لا الناقة ، يريد أن ظنه حمله على الاغترار بالمنى ، فخبط لغراره في عشواء من ظنه أي في ظلمة ولبس . (٢) أما حرف للاستفتاح بمعنى ألا ، ولتحقيق الكلام الذي يتلوه بمعنى حقا ، والأخمص باطن القدم الذي لا يلصق بالأرض عند الوطء . يقول : حقا لقد أوطأت خدى لكلّ واطئ في حال أنها أرتني مما مضى النجم موطئ أخمصي (٣) العتبى: الرضا ، والعتب : السخط ، وفي رواية: «قد أنى»

(٤) صاغية الرجل من يلمّ به ويغشى مجلسه من أهله وحاشيته ، وفرط يريد بهذا أنهم يفرطون عليه في القول أي يسرفون ، والمعنى وما زال يقربني منه هوى متجاوز حد الاعتدال ويبعدني عنه حاشية مسرفة في القول . وقد جرى في هذا البيت على أسلوب اللف والنشر المرتب ، فهو يرى أن ممدوحه مسرف في هواه فهو يدنيه لذلك وأن حاسديه مسرفون في الوشاية به فهو ينئيه عنه لما يسمعه من وشاياتهم المتكررة

(٥) أي وما زال يقربني منه نظم ثناء أحبره في نظام ولاية كأنه العقد النفيس تحلت به الدنيا كل لؤلؤة منه جديرة أن تكون واسطة العقد لنفاستها .

(٦) أي على خصر الولاية من نظمه وشاح مفصل ، وفي رأسها تاج مرصع ، وفي جيدها سمط من لؤلؤ

(٧) الأديم : الجلد ، والعطّ . شقّ الثوب طولا أو عرضا من غير إبانة ، والمعنى صرف ابن جهور سمعه عني وأصغى إلى أعداء كلما تمكنوا من عرضي قدوه كما يقد الأديم وشقوه كما يشقّ الثوب .

(٨) المدى : الغاية ، والأضغان : الأحقاد ، والأساود ، الحيات ، والرقط : جمع رقطاء ، وهي التي في لونها سواد وبياض ، والمعنى بلغت الغاية التي قصروا عنها فكمن في قلوبهم من الأحقاد ما يشبه الحيات الرقط التي تنفث السموم القاتلة

يُوَلُّونَنِي عُرْضَ الْكَرَاهَةِ وَالْقِلَى ... وَمَا دَهْرُهُمْ إِلاَّ النَّفَاسَةُ وَالْغَمْطُ (١)

وَقَدْ وَسَمُونِي بِالَّتِي لَسْتُ أَهْلَهَا ... وَلَمْ يُمْنَ أَمْثَالِي بِأَمْثَالِهَا قَطْ (٢)

فَرَرْتُ فَإِنْ قَالُوا الْفِرَارُ إِرَابَةٌ ... فَقَدْ فَرَّ مُوسَى حِينَ هَمَّ بِهِ الْقِبْطُ (٣)

وَإِنِّي لَرَاجٍ أَنْ تَعُودَ كَبَدْئِهَا ... لِيَ الشِّيمَةُ الزَّهْرَاءُ وَالْخُلُقُ السَّبْطُ (٤)

وَحِلْمُ امْرِئٍ تَعْفُو الذُّنُوبُ لِعَفْوِهِ ... وَتُمْحَى الْخَطَايَا مِثْلَ مَا يُمْحَى الْخَطْ

فَمَا لَكَ لاَ تَخْتَصُّنِي بِشَفَاعَةٍ ... يَلُوحُ عَلَى دَهْرِي لِمِيسَمِهَا عَلْطُ (٥)

يَفِي بِنَسِيمِ الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ نَفْحُهَا ... إِذَا شَعْشَعَ الْمِسْكَ الْأَحَمَّ بِهِ خَلْطُ (٦)

فَإِنْ يُسْعِفِ الْمَوْلَى فَنُعْمَى هَنِيئَةٌ ... تُنَفِّسُ عَنْ نَفْسٍ أَلَظَّ بِهَا ضَغْطْ (٧)

وَإِنْ يَأْبَ إِلاَّ قَبْضَ مَبْسُوطِ فَضْلِهِ ... فَفِي يَدِ مَوْلًى فَوْقَهُ الْقَبْضُ وَالْبَسْطْ

---

(١) وفى رواية : الغمط والمعنى يجعلونى استقبل منهم ناحية الكراهة والبغض ، وليس عندهم أبد الدهر (إلا النفاسة) من نفس عليه بالشىء ضن به وكره أن يصل إليه ، و (الغمط) . من غمط الرجل يغمطه غمطا من باب ضرب حسده ، ومن معانيه أيضاً تمنى الوصول الى نعمة غيرك من غير أن تزول عنه .

(٢) أى جعلونى معروفا بالسمة والصفة المعيبة التى لست متأهلا لها . والتى ما منى أى ابتلى بها أمثالى فيما مضى . (٣) إرابة . سبب فى الريبة والشك والاتهام ، والمعنى فررت من السجن ، فان قالوا إن فى الفرار ما يجعلنى متهما ، فقد فرّ موسى من القبط حين ائتمروا به وهموا بقتله يشير إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : « ففررت منكم لما خفتكم »

(٤) السبط : السهل . (٥) الميسم : المكواة يوسم بها البعير ، والعلط : الوسم عرضا فى العنق يقول : لماذا لاترضى عنى وتمحى شفاعتك لأتغلب بها على دهرى وأذله وأدمغه فى قفاه دمغة بينة الأثر بخط أو خطين أو خطوط . (٦) العنبر : الطيب المعروف ولونه أسود ، ويطلق العنبر أيضا على الزعفران ، وهو المراد هنا ، والورد حمرة تضرب إلى صفرة حسنة ، وشعشع : مزج ، والأحم : الأسود من كلّ شىء ، أى يفى نفح هذه الشفاعة برائحة الزعفران الورد إذا مزج بالمسك الأسود .

(٧) تنفس : تفرّج ، وألظّ بها ـ وفى رواية : ألظ بها ـ لازمها . قال أبو العلاء :

ألظوا بالقبيح وتابعوه ... ولو أمروا به لتجنبوه

أى لازم الناس القبيح عناداً منهم حين نهاهم الله عنه ولو أمرهم به لدفعهم عنادهم إلى تنكبه، ضغط : أى ضيق

فى مدينة بطليوس (١)

يَا دَمْعُ صُبَّ مَاشِئْتَ أَنْ تَصُوبَا (٢)

وَيَا فُــؤَادِى آنَ أَنْ تَذُوبَا

إِذِ الرَّزَايَا أَصْــبَحَتْ ضُرُوبَا (٣)

لَمْ أَرَ لِى ـ فِى أَهْلِهَا ـ ضَرِيباً (٤)

قَدْ مَلأَ الشَّوْقُ الْحَشَا نُدُوبَا (٥)

فِى الْغَــرْبِ إِذْ رُحْتُ بِهِ غَرِيباً

عَلِيــلَ دَهْرٍ سَاءَنِى تَعْــذِيباً (٦)

أَدْنَى (٧) الضَّــنَى إِذْ أَبْعَدَ الطَّبِيبَا (٨)

* *

لَيْتَ الْقَبُولَ (٩) أَحْدَثَتْ هُبُوبَا

رِيحٌ يَرُوحُ عَهْــدُهَا قَرِيبَاً (١٠)

بِالْأُفُقِ الْمُهْــدِى إِلَيْنَا طِيباً (١١)

---

(١) مدينة كبيرة من مدن الأندلس تقع غربى قرطبة. وهذه الأرجوزة تذكرنا بالأرجوزة المشهورة : « دع المطايا تنسم الجنوبا » الخ (٢) اسكب يا دمعى ما شئت أن تسكب ، والأصل فى الصوب نزول المطر ، والفعل صاب يصوب والأمر صب . قالوا : وكلّ نازل من علوّ إلى أسفل فقد صاب ، ومنه قوله « كأنهمو صابت عليهم سحابه » . (٣) أصنافا . وفى رواية : إن الرزايا

(٤) نظيراً أو مثيلا . يقول : اسكب يادمع فقد صبت عليك ألوان من المصائب والآلام لم تصب على أحد من المرزئين . (٥) آثار الجروح إذا لم ترتفع عن الجلد ، ومنه قول الفرزدق :

ومكبل ترك الحديد بساقه ندبا من الرسفان فى الأحجال

(٦) أمرضنى دهر قد حشمنى ذلّ الاغتراب وسامنى سوء العذاب . (٧) وفى رواية: أعيى الضنى (٨) قرب الدهر منى السقام فى وقت أبعد فيه عنى الطبيب . (٩) مايستقبلك بين يديك من الرّيح إذا وقفت فى القبلة . (١٠) أى يكون رواح بما تحمله الريح من المطر قريبا ، والعهد هنا معناه المطر الأوّل الذى يليه الوسمى . (١١) أى متصلا بالأفق الذى طالما أهدى إلينا من ناحية الحبيب طيبا .

تَعَطَّرَتْ مِنْهُ الصَّبَا جُيُوبَا

يُبْرِدُ حَرَّ الْكَبِدِ الْمَشْبُوبَا [1]

*
* *

يَا مُتْبِعًا إِسْآدَهُ [2] التَّأْوِيبَا

مُشَرِّقًا قَدْ سَئِمَ التَّغْرِيبَا

أَمَا سَمِعْتَ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَا

أَرْسِلْ حَكِيمًا [3] وَاسْتَشِرْ لَبِيبَا

*
* *

إِذَا أَتَيْتَ الْوَطَنَ الْحَبِيبَا

وَالْجَانِبَ الْمُسْتَوْضَحَ [4] الْعَجِيبَا

وَالْحَاضِرَ [5] الْمُنْفَسِحَ الرَّحِيبَا

فَحَيِّ [6] مِنْهُ مَا أَرَى الْحَنُوبَا

---

(١) يطفئ ذلك الطيب الذي تعطرت منه جيوب الصبا كبدا مشبوبة فيها نيران الشوق. وفي الأصل «المشوبا»

(٢) الإسآد سير الليل كله لا تعريس فيه ، والتأويب : سير النهار كله لا تعريج فيه .

(٣) وفي رواية : أرسل حليما .

(٤) المبحوث عنه أو الذي يستوضحه الراكب أي يستشرفه ويستكفه بأن يضع كفه على عينيه في الشمس لينظر هل يراه .
(٥) الحاضر : ضد البادي .
(٦) مرتبط بالأبيات قبله . يقول : أيها المواصل سير الليل كله بسير النهار كله مشرقا قد مل السير إلى الجانب الغربي أني مرسلك في حاجة ، ومتبع المثل المشهور :

إذا كنت في حاجة مرسلا ... فأرسل حكيما ولا توصه

وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيبا ولا تعصه .

ذلك أنك إذا أتيت فزلك الوطن المحبوب ، والجانب المأهول والحاضرة الفسيحة فحي مما قد ترى الحنوب حيث يقيم الحبيب ، وقوله : ما رأى جملة معترضة وحدث هكذا وحرر .

مَصَانِعٌ (١) تَجْتَذِبُ (٢) الْقُــلُوبَا

حَيْثُ أُلِفْتُ الرَّشَــأَ الرَّبِيبَا (٣)

مُخَالِفاً (٤) فِى وَصْــلِهِ الرَّقِيبَا

كَمْ بَاتَ يَدْرِى (٥) لَيْلَهُ الْغِرْبِيبَا

لَمَّا انْثَنَى فِى سُــكْرِهِ قَضِيبَا

تَشْــدُو (٦) حَمَامُ حَلْيِهِ تَطْرِيبَا

أَرْشُفُ مِنْــهُ الْمَبْسِمَ الشَّنِيبَا (٧)

حَــتَّى إِذَا مَا اعْتَنَّ لِى مُرِيبَا (٨)

شَــبَابُ أُفْقٍ هَمَّ أَنْ يَشِيبَا

بَادَرْتُ سَعْياً ، هَلْ رَأَيْتَ الذِّيبَا ؟ (٩)

---

(١) دور وأبنية وقصور . قال لبيد .

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع

(٢) تجذب . (٣) الرشأ : الظبى إذا قوى وتحرك ومشى مع أمه ، والربيب : المربى من قولهم صبى مرب وربيب وفى رواية : اللدنا

(٤) من المخالفة بمعنى عدم الموافقة أو من قولهم جاء فلان خلاف صاحبه ومخالفته إذا أتى بعده مخالفاً له.

(٥) يدرى يختال من قولهم دريت الظبى أى احتلت له وختلت حتى أصيده ، والغربيب : الشديد السواد ومعنى الأبيات تلك دور ومصانع تجذب القلوب إليها ألف فيها الرشأ المتربى فى حجر النعمة مخالفا أى آتيا فى غفلة الرقيب ، وكثيراً ما بات يختال ليله الشديد السواد ليصيب منه غرة ويختلس منه غفلة .

(٦) تغنى ، استعار شدو الحمام لوسوسة الحلى (٧) أرشف : كأنصر وأضرب مضارع رشف الماء والريق ونحوهما رشفا ، وهو المص والتقبيل وشرب الماء قليلا قليلا ، والمبسم ، المقبل ، والشنيب : صفته مأخوذ من الشنب وهو برد وعذوبة فى الأسنان . قال ذو الرمة :

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أنيابها شنب

(٨) اعتن : اعترض ، ومريبا : ذا ريب . (٩) يقول فى هذا البيت والأبيات قبله : بت ناعما ليلتى بالعناق والتقبيل حتى إذا اعترضنى ماأرابنى من سواد أفق وشك أن يفضحه ضوء الصبح بادرت الطريق أسعى ، هل رأيت الذئب ، يريد : هل رأيت الذئب فى خفته وسرعة عدوه وفراره ويعنى : أنه قد فر فرار الذئب.

هَصَرْتُهُ (١) حُلْوَ الْجَنَى رَطِيبَا

***

أَهَاجِرِى أَمْ مُوسِعِى تَأْنِيبَا
مَنْ لَمْ أَسِغْ مِنْ بَعْدِهِ مَشْرُوبَا (٢)
مَا ضَرَّهُ لَوْ قَالَ لاَ تَثْرِيبَا (٣)
وَلاَ مَلاَمَ يَلْحَقُ الْقُلُوبَا
قَدْ طَالَ مَا تَجَرَّمَ الذُّنُوبَا (٤)
وَلَمْ يَدَعْ فِى الْعُذْرِ لِى نَصِيبَا

***

إِن قَرَّتِ الْعَيْنُ بِأَنْ أَءُوبَا (٥)
لَمْ آلُ أَنْ أَسْتَرْضِيَ الْغَضُوبَا
حَسْبِيَ أَن أُحَرِّمَ الْمَغِيبَا
قَدْ يَنْفَعُ الْمُذْنِبَ أَنْ يَتُوبَا

يوم بوصل ساعة

بِاللّٰهِ خُذْ مِنْ حَيَاتِى يَوْماً وَصِلْنِى سَاعَهْ
كَيْمَا أَنَالَ بِقَرْضٍ مَا لَمْ أَنَلْ بِشَفَاعَهْ

---

(١) أملته إلىّ وعطفته علىّ وهو جواب لما .

(٢) هل هـذا الحبيب الذى عصصت بفراقه ولم أجد بعده مساغا للشراب إلى حلق هاجرى أو موسعى لوما وتثريبا . (٣) أى ضرر عليه إذا هو قبل العذر ونفى الملام والعتاب .

(٤) كثيراً ما ادعى على ذنوبا لم أفعلها (٥) يقول فى هذا البيت والذى بعده : إن قرّت العين بالرجوع إلى الوطن بذلت جهدى فى استرضائه ، وكفانى أن أحرّم على نفسى ترك هـذا الوطن وأتوب فقد تنفع توبة المذنب .

فى عيـــد الأضحى (١)

« لما حلّ ابن زيدون من المعتضد بالمكان الذى حلّ ، وانتكث عقد شدائده وانحلّ ، تسلت نفسه من شجوها ، وحنت إلى صفا « ولادة » وشجوها ، وتذكرها وما تناساها ، وعاودته لوعتها وأساها ، وحنّ إليها حين من حيل بينه و بين مايشتهى ، وقنع باهداء تحية تبلغ إليها وتنتهى. فقال يتغزل فيها و يمدح المعتضد( ) » :

أَمَا فِي نَسِيمِ الرِّيحِ عَرْفٌ مُعَرِّفُ ... لَنَا هَلْ لِذَاتِ الْوَقْفِ بِالْجِزْعِ مَوْقِفُ (٣)

فَنَقْضِيَ أَوْطَارَ الْمُنَى مِنْ زِيَارَةٍ ... لَنَا كَلَفٌ مِنْهَا بِمَا نَتَكَلَّفُ (٤)

ضَمَانٌ عَلَيْنَا أَنْ تُزَارَ وَدُونَهَا ... رِقَاقُ الظُّبَا وَالسَّمْهَرِيُّ الْمُثَقَّفُ (٥)

وَقَوْمٌ عِدًى يُبْدُونَ عَنْ صَفَحَاتِهِمْ ... وَأَزْهَرُهَا مِنْ ظُلْمَةِ الْحِقْدِ أَكْلَفُ (٦)

غَيَارَى يَعُـــدُّون الْغَرَامَ جَرِيرَةً ... بِهَا وَالْهَوَى ظُلْمًا يَغِيظُ وَيُؤْسِفُ (٧)

---

(١) هو أضحى سنة ٤٤٥ هـ . وهذه القصيدة من ضمن قصائده التى يمدح بها المعتضد ، وقد ذكر طرفاً منها ابن بسام فى الذخيرة ، ونقد بعض أبياتها ، وذكر طائفة منها كذلك صاحب قلائد العقيان فى ضمن ما ذكره من طرف ابن زيدون وأخباره، ونقره وأشعاره . (٢) قلائد العقيان .

(٣) أما استفهام فيه معنى التمنى ، والعرف : الريح الطيبة ، والجزع : منعطف الوادى ، والوقف: السوار — من العاج وغيره — قال جران العود النميرى :

كوقف العاج من ذكى مسك ... تجىء به من اليمن التجار

أو هو الخلخال من الفضة وغيرها . والمعنى : ليت لنا فى هبوب النسيم طيب رائحـة يعرفنا هل المحبوبة واقفة بمكان وقوفها من منعطف الوادى فنقضى الخ . وفى رواية : يعرف .

(٤) المعنى : هل لها وقفة بالمنحنى فنقضى حاجات النفس من زيارة لنا ولع بما نتجشمه من مشقة التعرض لها.

(٥) الظبا . جمع ظبـة ، وهى حد السيف ، والسمهرى : الرمح ، والمثقف : المسوى بالثقاف ، وهى خشبة فيها خرق توضع فيه الرماح لتسوية ما اعوج منها ، أى نحن ضامنون على أنفسنا أن تزار ، ودون زيارتها ظبا السيوف الرقيقة ، وأسنة الرماح الصلبة ، وفى بعض النسخ عزيز علينا أن تزار .

(٦) أى ودون الوصول إليها أيضاً قوم معادون يظهر ما يخفونه من العـداوة والشر على وجوههـم ، والمشرق المضىء من تلك الوجوه أكلف أى به كلف وسواد من ظلمة الحقد .

(٧) غيارى وغيارى — بفتح الغين وضمها — كسكارى وسكارى جمع غيران من غار الرجل على امرأته يغار غيرة ، والجريرة : الذنب والجناية يجنيها الرجل على نفسه أو يجرها على غيره ، ويؤسف : كيغضب وزناً ومعنى ، ومنه قوله تعالى « فلما آسفونا انتقمنا منهم

يَوَدُّونَ لَوْ يَثْنِي الْوَعِيـــدُ زَمَاعَنَا وَهَيْهَاتَ رِيحُ الشَّوْقِ مِنْ ذَاكَ أَعْصَفُ[(١)]

يَسِيرٌ لَدَى الْمُشْتَاقِ فِى جَانِبِ الْهَوَى نَوَى غُرْبَةٍ أَوْ مَجْهَلٌ مُتَعَسَّفُ[(٢)]

هَلِ الرَّوْعُ إِلاَّ غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي أَمِ الْهَوْلُ إِلاَّ غُمَّةٌ ثُمَّ تُكْشَفُ[(٣)]

وَفِى السِّيَرَاءِ الرَّقْمِ وَسْطَ قِبَابِهِمْ بَعِيدُ مَنَاطِ الْقُرْطِ أَحْوَرُ أَوْطَفُ[(٤)]

تَبَايَنَ خَلْقَاهُ ، فَعَبْـــلٌ مُنَعَّمٌ تَأَوَّدَ فِى أَعْلاَهُ لَدْنٌ مُهَفْهَفُ[(٥)]

فَلِلْعَانِكِ الْمُرْتَجِّ مَا حَازَ مِئْزَرٌ وَلِلْغُصُنِ الْمُهْتَزِّ مَا ضَمَّ مِطْرَفُ[(٦)]

حَبِيبٌ إِلَيْهِ أَنْ نُسَرَّ بِوَصْـــلِهِ إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ وَنَهْنَا وَنُسْعَفُ

وَلَيْلَةَ وَافَيْنَا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدٍ سُرَى الْأَيْنِ لَمْ يُعْلَمْ لِمَسْرَاهُ مَزْحَفُ[(٧)]

---

(١) الوعيد : التهديد والتخويف ، والزماع : الاعتزام والمضى فى أمر الزيارة والعزم عليه ، وأعصف اسم تفضيل من عصفت الريح تعصف بالكسر فهى عاصف أى شديدة تمضى بما مرت به من تراب ونحوه ، أى يودون لو يصرفنا تهديدهم عما أزمعناه من أمر زيارة تلك الحسناء التى هام بها ودون لقياها ، وهيهات أن يصرفنا عن ذلك صارف ، فإن ريح الشوق أشد مضيا بنا إلى ناحيتهم من تهديدهم ووعيدهم.

(٢) يقول يسير علينا فى جنب الهوى الاغتراب واعتساف المجاهل

(٣) الروع : الخوف ، والغمرة : الشدة .

(٤) السيراء : بكسر ففتح نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور ، ويقال ثوب رقم إذا رقم أى كتب عليه ثمنه ، أو اسم التاجر ، ومناط القرط معلقه ، وأحور وصف من حور العين . وهو شدة سواد المقلة فى شدة بياضها ، وأوطف : طويل شعر أهداب العين ، وفى الأصل أوطب ، والمعنى أن حبيبه التى تلبس تلك الحلة السيراء الثمينة تقيم وسط خيام الأعداء وهى بعيدة مهوى القرط أى طويلة العنق ، فى عينيها حور ، وفى أهدابها وطف . (٥) عبل : أى ردف ضخم تام ، ومنعم : من النعمة والراحة ، وعدم الامتهان فى عمل البيت لوفر الخدم ، ويلزم ذلك الضآلة والامتلاء ، وتأود : تثنى ، ولدن أى غصن لين ، ومهفهف أى خصر دقيق ناحل ، يقول : تباينت خلقة أسفله وأعلاه ، فردف ثقيل وخصر نحيل .

(٦) العانك : من الرمال ما تعقد وارتفع ، وفى الأصل : العاتك . والمئزر : معروف وهو ما يشد على الوسط ، والمطرف — وهى مثلثة الميم — من ثياب الخز ما جعل فى طرفيه علمان ، ويجمع على مطارف ، أى فللكثيب المرتج ما حواه المئزر ، وللغصن المهتز ما ضمه المطرف . (٧) وافينا الكثيب : أى توافينا على موعد فى الكثيب ، والسرى : السير بالليل ، والأين : الأعياء والتعب ، والمزحف المقامة وموضع الزحف وهو المشى قليلا قليلا ، أو المراد به هنا أثر المشى ومنه مزحف الحية ، وهو أثر انسيابها فى الرمل قال الشاعر:

كأن مزاحف الحيات فيه ... قبيل الصبح آثار السياط

تَهَادَى أَنَاةَ الخَطْوِ مُرْتَاعَةَ الحَشَا ... كَمَا رِيعَ يَعْفُورُ الفَلَا المُتَشَوِّفُ (١)

فَمَا الشَّمْسُ رَقَّ الغَيْمُ دُونَ إِبَاتِهَا ... سِوَى مَا أَرَى ذَاكَ الجَبِينُ المُنَصَّفُ (٢)

فَدَيْتُكِ أَنَّى زُرْتِ نُورُكِ وَاضِـحٌ ... وَعِطْرُكِ نَمَّامٌ وَحَلْيُكِ مُرْجِفُ (٣)

هَبِيكِ اعْتَرَرْتِ الحَيَّ وَاشِيكِ هَاجِعٌ ... وَفَرْعُكِ غِرْبِيبٌ وَلَيْلُكِ أَغْضَفُ (٤)

فَأَنَّى اعْتَسَفْتِ الهَوْلَ خَطْوُكِ مُدْمَجٌ ... وَرِدْفُكِ رَجْرَاجٌ وَخَصْرُكِ مُخْطَفُ (٥)

لَجَاجٌ، تَمَادِي الحُبِّ فِي المَعْشَرِ العِدَا ... وَأَمُّ الهَوَى الأُفْقَ الَّذِي فِيهِ نُشْنَفُ (٦)

وَأَنْ نَتَلَقَّى السُّخْطَ ـ عَانِينَ ـ بِالرِّضَى ... لِغَيْرَانَ أَجْفَى مَا يُرَى حِينَ يَلْطُفُ (٧)

كَفَانَا مِنَ الوَصْلِ التَّحِيَّةُ خُلْسَةً ... فَيُومِئُ طَرْفٌ أَوْ بَنَانٌ مُطَرَّفُ (٨)

---

(١) تهادى أصله تتهادى أى تمشى فى تمايل وسكون، وأناة الخطو: متئدة الخطو وصفها بالمصدر، وهو الأناة تعنى التؤدة والمسالمة، ومرتاعة الحشا: مفزعة القلب، وريع: فزع وأخيف، واليعفور: الظبى والمتشوف المتطلع. وفى بعض النسخ المتشرف، وهو الذى يرفع رأسه ويمد بصره لينظر إلى الشىء.

(٢) إياة الشمس ـ بالكسر والفتح ـ حسنها وضوءها، وإياة هى الشمس أيضا، قال أبو العلاء:

وبعض العالم من بعضه ... لولا إياة لم يكن سحت

أى لولا الشمس لما كان القمر، والمنصف . الذى عليه النصيف وهو الخمار، أى ليست الشمس يستر الغيم الرقيق حسنها وضوءها إلا ما أراه ذلك الجبين من حسن يبدو من خلل النصيف .

(٣) وفى بعض الروايات: قعيدك وهو مصدر منصوب لنيابته عن الفعل والتقدير سألت الله حفظك من قوله تعالى « عن اليمين وعن الشمال قعيد » أى حفيظ، والمستعمل قعيدك الله مثل عمرك الله، وهو مصدر منصوب أيضاً نائب عن الفعل تقديره عمرك الله بالتشديد، ومعناه هنا: ملازمك، ومرجف: من أرجف إذا تحرك واضطرب، ويصح أن يكون من أرجف بالبناء للمجهول فهو مرجف، وفى بعض النسخ بدل قعيدك فديتك . (٤) هبيك: قال هبك فعلت، وهبك فعلت كذا، ولا يقال هب أنك فعلت، ولا هب أنك فعلت، والمعنى احسبي واعددى، واعتررت الحى: جئته وحزت به على غير علم، وفرعك غربيب: شعرك شديد السواد، وأغضف حالك السواد، يقال ليل أغضف إذا ألبس ظلامه .

(٥) مدمج: داخل بعضه فى بعض، ومخطف: ضامر يقال فرس مخطف الحشا: أى ضامره .

(٦) نشنف: نبغض، والمعنى أمرى لجاج فقد تمادى بى حب من أهواه بين المعشر العداء، وقصد الهوى: المكان الذى فيه أمقت وأبغض . (٧) المعنى ولجاج أيضا أن نتحمل السخط، وقد عانانا رضا صاحب غيرة يشتد جفاؤه وغلظته، حين يظن لطفه ورقته (٨) البنان: المطرف الذى طرف بالحناء .

خَلِيــلَىَّ مَهْلاً لاَ تَلُومَا فَإِنَّنِى ... فُؤَادِى أَلِيفُ الْبَثِّ وَالْجِسْمُ مُدْنَفُ
فَأَعْنَفُ مَا يَلْقَى الْمُحِبُّ لَجَاجَــةً ... عَلَى نَفْسِــهِ فِى الْحُبِّ حِينَ يُعَنَّفُ
وَإِنِّى لَيَسْتَهْوِينِىَ الْبَرْقُ صَبْوَةً ... إِلَى بَرْقِ ثَغْرٍ إِنْ بَدَا كَادَ يَخْطَفُ
وَمَا وَلَعِى بِالرَّاحِ إِلاَّ تَوَهُّمٌ ... لِظَلْمٍ بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ يُتَرَشَّفُ [1]
وَتُذْكِرُنِى الْعِــقْدَ الْمُرِنَّ جُمَانُهُ ... مُرِنَّاتُ وُرْقٍ فِى ذُرَا الْأَيْكِ تَهْتِفُ [2]
فَمَا قَبْلَ مَنْ أَهْوَى طَوَى الْبَدْرَ هَوْدَجٌ ... وَلاَ صَانَ رِيمَ الْقَفْرِ خِدْرٌ مُسَجَّفُ [3]
وَلاَ قَبْلَ « عَبَّادٍ » حَوَى الْبَحْرَ مَجْلِسٌ ... وَلاَ حَمَلَ الطَّوْدَ الْمُعَظَّمَ رَفْرَفُ [4]

---

(١) لظلم به : أى ما ذكر فى البيت قبله . قال فى اللسان ، والظلم : الماء الذى يجرى ويظهر على الأسنان من صفاء اللون لا من الريق كالفرند حتى تخيل لك فيه سواد من شدة البريق والصفاء ، قال كعب بن زهير :

تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول

لو يترشف : لو هنا للتمنى ، وفى بعض النسخ إذ يترشف ، والترشف : مص الماء قليلا قليلا . قال ابن بسام : « أراه بيت أبى الطيب :

وما شرق بالماء إلا تذكرا ... لماء به أهل الحبيب نزول

(٢) المرن : اسم فاعل من الإرنان ، وهو الصوت الحزين ، والجمان : حب يتخذ من صغار اللؤلؤ ، أو من الفضة أمثال اللؤلؤ ، والورق : جمع ورقاء وهى الحمامة التى لونها بين السواد والغبرة وهى ما تسمى فى عرف أهل مصر باليمامة ، وفى مثل هذا يقول الشاعر المحسن حران العود النميرى .

شجا قلبى حمائم ورق بالمدينة هتف

والأيك : جمع أيكة ، وهى الشجر الكثير الملتف ، وتهتف : تنوح . (٣) الهودج : مركب فيه المرأة يكون مقببا وغير مقبب ، وفى بعض النسخ بدل صان ضم ، والريم : الظبى الخالص البياض ، والخدر المسجف : ما على كل مدخل أو نافذة من نوافذه سجفان أى ستران بينهما مشقوق كالمصراعين .

(٤) (ولا قبل عباد) هو المعتضد بالله أبو عمرو عباد بن الظافر المؤيد بالله أبى القاسم محمد بن إسماعيل قاضى اشبيلية ينتهى نسبه إلى النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة ، وهو صاحب قرطبة وأشبيلية وما والاهما من جزيرة الأندلس ، ولى الملك بعد وفاة أبيه الظافر محمد بن إسماعيل القاضى سنة ٤٣٣ هـ وكان هو وابنه المعتمد أوسع ملوك الطوائف ملكا ، وأشدهم بأسا ، وأكثرهم عديدا وعددا ، وكان المعتضد فيما ذكره ابن بسام صاحب الذخيرة قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة فى بلاد الأندلس ، وإلى سياسته تعزى السبب فى تلك الحروب الطاحنة التى نشبت بين ملوك الطوائف واستعان بعضهم على بعض فيها بالعدو الذى انتهز فرصة ضعفهم ، وتفرق كلمتهم فعمل على ازالة ملكهم ، وإخراج المسلمين من بلادهم — والرفرف — الفرش والبسط ، وكل ما أعد للجلوس ، وفى التنزيل العزيز « متكئين على رفرف خضر » وهو جمع رفرفة ورفارف جمع الجمع . قال ابن بسام : وهذا البيت للقسطلى بجملته حيث يقول فى ابن أبى عامر :

وكيف استوى بالبر والبحر مجلس ... وقام بعبء الراسيات سرير

هُوَ المَلِكُ الجَعْدُ الَّذِى فِى ظِلاَلِهِ   تُكَفُّ صُرُوفُ الحَادِثَاتِ وَتُصْرَفُ[(١)]

هُمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلَهُ   مَلِيكٌ فَقِيهٌ كَاتِبٌ مُتَفَلْسِفُ

يَتِيهُ بِمَرْقَاهُ سَرِيرٌ وَمِنْبَرٌ   وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حُسَامٌ وَمُصْحَفُ

رَوِيَّتُهُ فِى الحَادِثِ الإِدِّ لَحْظَةٌ   وَتَوْقِيعُهُ الجَالِى دُجَى الخَطْبِ أَحْرُفُ[(٢)]

يَذِلُّ لَهُ الجَبَّارُ خِيفَةَ بَأْسِهِ   وَيَعْنُو إِلَيْهِ الأَبْلَجُ المُتَغَطْرِفُ[(٣)]

حِذَارَكَ - إِذْ تَبْغِى عَلَيْهِ - مِنَ الرَّدَى   وَدُونَكَ فَاسْتَوْفِ المُنَى حِينَ تُنْصِفُ

سَتَعْتَامُهُمْ فِى البَرِّ وَالبَحْرِ بِالتَّوَى   كَتَائِبُ تُزْجَى أَوْ سَفَائِنُ تُجْذَفُ[(٤)]

أَغَرُّ مَتَى نَدْرُسْ دَوَاوِينَ مَجْدِهِ   يَرُقْنَا غَرِيبٌ مُجْمَلٌ أَوْ مُصَنَّفُ[(٥)]

إِذَا نَحْنُ قَرَّظْنَاهُ قَصَّرَ مُطْنِبٌ   وَلَمْ يَتَجَاوَزْ غَايَةَ القَصْدِ مُسْرِفُ[(٦)]

---

(١) الجعد . قال فى اللسان « والجعد إذا ذهب به مذهب المدح فله معنيان مستحبان ، أحدهما : أن يكون معصوب الجوارح ، شديد الأسر والخلق غير مسترخ ولا مضطرب ، والثانى : أن يكون شعره جعدا غير سبط ، لأن سبوطة الشعر هى الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس ، وجعودة الشعر هى الغالبة على شعور العرب ، فإذا مدح الرجل بالجعد لم يخرج عن هذين المعنيين » الخ ما قال فى الجعد على كلا الاعتبارين المدح أو الذم فانظره ، والمعنى هو الملك المجتمع الخلق الذى ليس رهلا مسترخى الأعضاء ، أو الجعد الشعر ، أو الكريم الذى فى ظله وكنفه تكف غير الحوادث وصروف الدهر وتردها عن أن تقصد المستظلين بظله بالسوء .

(٢) الإد العظيم ، والتوقيع . ما يكتبه الملك أو الكتاب من جمل قصيرة ، وأحرف يسيرة، لإنفاذ أوامره، وإمضاء شؤون دولته ، والمعنى تفكيره فى الحادث العظيم الفظيع الداهى سريع لا يحتاج إلى تريث ، وعدم تمهل ، وتوقيعه الكاشف ظلمة الخطوب كلمات قليلة جامعة لمضمون ما يريد إنفاذه .

(٣) الأبلج : الأبيض ، والمتغطرف : السيد السرى المختال فى مشيته .

(٤) ستعتامهم : ستختارهم ، والتوى : الهلاك ، وتزجى : تساق وتسير ، وتجذف تدفع بالمجاديف .

(٥) أغرّ كريم الأفعال واضحها ، وندرس : أى متى نرس أنفسنا على قراءة ما سطر فى دفاتر مجده ، يرقنا : أى يعجبنا الخ ، وفى الأصل : « متى تدرس » ، والغريب : الغامض البعيد عن الفهم ، والمجمل: المحتاج إلى التفسير والبيان ، والمصنف : المميز بعضه من بعض ، والمبين خفاؤه وإجماله .

(٦) قرظناه : من التقريظ وهو المدح والثناء ، وأصله من تقريظ الجلد أى دبغه بالقرظ ، والمطنب : المسهب المتوسع فى القول ، والقصد : التوسط والاعتدال .

وَأَرْوَعُ لاَ الْبَاغِي أَخَاهُ مُبَلَّغٌ مُنَاهُ وَلاَ الرَّاجِى نَدَاهُ مُسَوَّفُ [١]

مُمِرُّ الْقُوَى لاَ يَمْلأُ الْخَطْبُ صَدْرَهُ وَلَيْسَ لِأَمْرٍ فَائِتٍ يَتَلَهَّفُ [٢]

لَهُ ظِلُّ نُعْمَى يَذْكُرُ الْهِمُّ عِنْدَهُ ظِلاَلَ الصِّبَا بَلْ ذَاكَ أَنْدَى وَأَوْرَفُ [٣]

جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ وَجَنَّةُ عَدْنٍ لِلْمُطِيعِينَ تُزْلَفُ [٤]

مَحَاسِنُ ، غَرْبُ الذَّمِّ عَنْهَا مُفَلَّلٌ كَهَامٌ ، وَشَمْلُ الْمَجْدِ فِيهَا مُؤَلَّفُ [٥]

تَنَاهَتْ فَعِقْدُ الْمَجْدِ مِنْهَا مُفَصَّلٌ سَنَاءً وَبُرْدُ الْفَخْرِ مِنْهَا مُفَوَّفُ [٦]

طَلاَقَةُ وَجْهٍ فِى مَضَاءٍ كَمِثْلِ مَا يَرُوقُ فِرِنْدُ السَّيْفِ وَالْحَدُّ مُرْهَفُ [٧]

عَلَى السَّيْفِ مِنْ تِلْكَ الشَّهَامَةِ مِيسَمٌ وَفِى الرَّوْضِ مِنْ تِلْكَ الطَّلاَقَةِ زُخْرُفُ [٨]

سَجَايَا لِمَنْ وَالاَهُ كَالْأَرْىِ تُجْتَنَى تَعُودُ لِمَنْ عَادَاهُ كَالشَّرْىِ يُنْقَفُ [٩]

يُرَاقِبُ مِنْهُ اللّٰهَ « مُعْتَضِدٌ » بِهِ يَدَ الدَّهْرِ يَقْسُو فِى رِضَاهُ وَيَرْأَفُ [١٠]

---

(١) الأروع : الذى يروعك حسنه ، ويعجبك مرآه ، ومعنى سائر البيت ليس الذى يبغى له مثلا ببالغ مناه ، وليس الذى يرجو نداه مؤخرا عطاؤه . (٢) المر : الحبل الذى أجيد فتله ، والقوى : طاقاته ، يريد أنه مستحكم القوى وليس رخوا ضعيفا يملأ الهول صدره رعبا ، ويأسى على ما فاته تلهفا وتحسرا .

(٣) الهم : الشيخ الكبير الفانى ، يعنى أن الشيخ الهم يذكر عند استظلاله ظل نعماه الوارف أنه فى ظل الشباب الندى الممتد بل إن ظل نعماه أكثر ندوة وورفا وامتدادا .

(٤) تزلف : تقرب ، وفى التنزيل العزيز « وأزلفت الجنة للمتقين » أى قربت .

(٥) الغرب : الحد ، مفلل : فيه كسور ، وكهام : كليل ناب عن الضريبة لا يقطع .

(٦) السناء : الرفعة ، وبرد مفوف : رقيق من نسج اليمن .

(٧) فرند السيف : جوهره وماؤه الذى يجرى فيه وطرائقه ، والمعنى : يعلو وجهه ماء كفرند السيف المترقرق ، مع مضاء عزم كحده المرهف فى التصميم والقطع ، وفى رواية « طلاقة مجد »

(٨) ميسم : أثر وعلامة . وفى الأصل : « من تلك الطلاقة مطرف »

(٩) الأرى : العسل ، والشرى : الحنظل ، وينقف : أى يشق لأخذ ما فى داخله قال امرؤ القيس :

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

(١٠) يد الدهر : مدى الدهر ، قال أبو العلاء :

فياليتنا عشنا حياة بلا ردى — يد الدهر — أو متنا معا فلا نشر

ومعنى البيت أنه يرأف ويعسف دائما فى سبيل مرضاة الله وحده ، ويقال أيضا يد الحياة ، قال أبو العلاء :

لو كان لى أمر يطاوع لم يشن ظهر الطريق — يد الحياة — منجم

فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الحَاسِدِيهِ مَتَى ادَّعَى ... سِبَاقَ العَتِيقِ الفَائِتِ الشَّأْوِ مُقْرِفُ (١)

أَلَيْسَ « بَنُو عَبَّادٍ » القِبْلَةَ الَّتِي ... عَلَيْهَا لِآمَالِ البَرِيَّةِ مَعْكَفُ (٢)

مُلُوكٌ يُرَى أَحْيَاؤُهُمْ فَخْرَ دَهْرِهِمْ ... وَيَخْلُفُ مَوْتَاهُمْ ثَنَاءٌ مُخَلَّفُ (٣)

بِهِمْ بَاهَتِ الأَرْضُ السَّمَاءَ فَأَوْجُهٌ ... شُمُوسٌ وَأَيْدٍ مِنْ حَيَا المُزْنِ أَوْكَفُ (٤)

***

أَشَارِحَ مَعْنَى المَجْدِ وَهْوَ مُعَمَّسٌ ... وَمُجْزِلَ حَظِّ الحَمْدِ وَهْوَ مُسَفْسِفُ (٥)

لَعَمْرُ العِدَا المُسْتَدْرِجِيكَ بِزَعْمِهِمْ ... إِلَى غِرَّةٍ كَادَتْ لَهَا الشَّمْسُ تُكْسَفُ (٦)

لَكَالُوكَ صَاعَ الغَدْرِ لُؤْمَ سَجِيَّةٍ ... وَكِيلَ لَهُمْ صَاعُ الجَزَاءِ المُطَفَّفُ (٧)

لَقَدْ حَاوَلُوا العُظْمَى الَّتِي لَا شَوَى لَهَا ... فَأَعْجَزَهُمْ عَقْدٌ مِنَ الهَمِّ مُحْصَفُ (٨)

---

(١) العتيق : النجيب الكريم من الخيل ، والشأو : الغاية ، والمقرف : الهجين وهو الذي أمه برذونة وأبوه عربي أو العكس . (٢) معكف مصدر ميمي بمعنى العكوف أي إقامة وملازمة .

(٣) أي بنو عباد ملوك يرى الناس أحياءهم مفخرة الزمان ، ويخلف من بعد موتاهم ذكر حسن وثناء موروث يتحدث به الناس ، ويتناقله الخلف عن السلف .

(٤) الحيا : المطر ، والمزن : السحاب ، وأوكف : أهطل وأغزر والمعنى : فاخرت بهم الأرض السماء فوجوههم أبهى طلعة من النيرات ، وآثار نعمهم ، وجود أيديهم أغزر وأهطل من السحب الهاطلات .

(٥) معمس . ملتبس ملتوى جهته مظلم لا يدرى من أين يؤتى له ، ومسفسف : نازل من أسف الطائر إذا دنا من الأرض ، والمعنى : يا من بفعالك المجيدة أبنت معنى المجد في حال كونه غامضا ملتبسا ، وأجزلت بآثارك الحميدة حظ الحمد على حين حظ غيرك منه حقير ، وجواب النداء في الأبيات بعده .

(٦) لعمر العدى : يقسم بحياتهم متهكماً للاشارة إلى إخفاقهم فيما حاولوا ، المستدرجيك: أي الذين حاولوا في زعمهم أن يتدرجوا بك قليلا قليلا على غرة ، ويأخذوك على غفلة إلى ما تكاد له الشمس تكسف لجرأتهم ، وهول ما أقدموا عليه . (٧) لكالوك : أي لقد كالوك من لؤم سجيتهم صاع الغدر ، وكلتهم صاع الجزاء والعقوبة على غدرهم ، والمطفف : في الأصل المنقوص المبخوس من طفف الكيل نقصه وبخسه ، وقد يستعمل بمعنى الوافي وهو المراد هنا .

(٨) لقد حاولوا العظمى : أي الفتكة العظمى ، التي لا شوى لها : أي التي لا تصيب الأطراف ولكن تصيب المقاتل ، وأعجزهم عقد : أي رأي وتدبير من همك وعزمك ، محصف : محكم سديد لاخلل فيه .

***

وَلَمَّا رَأَيْتَ الْغَدْرَ هَبَّ نَسِيمُهُ   تَلَقَّاهُ إِعْصَارٌ لِبَطْشِكَ حَرْجَفُ (١)

أَظَنَّ الْأَعَادِي أَنَّ حَزْمَكَ نَائِمٌ   لَقَدْ تَعِدُ الْفَسْلَ الظُّنُونُ فَتُخْلِفُ (٢)

دَوَاعِي نِفَاقٍ أَنْذَرَتْكَ بِأَنَّهُ   سَيَشْرَى وَيَذْوَى الْعُضْوُ مِنْ حَيْثُ يُشْأَفُ (٣)

تَحَمَّلْتَ عِبْءَ الدَّهْرِ عَنْهُمْ وَكُلُّهُمْ   بِنُعْمَاكَ مَوْصُولُ التَّنَعُّمِ مُتْرَفُ (٤)

فَإِنْ يَكْفُرُوا النُّعْمَى فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ   بِسَيْفِكَ قَاعٌ صَفْصَفٌ الرَّسْمِ تُنْسَفُ

وَطِيءُ الثَّرَى مَثْوًى يَكُونُ قُصَارَهُمْ   وَإِنْ طَالَ مِنْهُمْ فِي الْأَدَاهِمِ مَرْسَفُ (٥)

وَبُشْرَاكَ عِيدٌ بِالسُّرُورِ مُظَلَّلٌ   وَبِالْحَظِّ فِي نَيْلِ الْمُنَى مُتَكَنَّفُ (٦)

---

(١) النسيم : الريح تهب هونا سهلا ، والأعصار . الريح الشديدة التي تهب من الأرض ، وتثير الغبار فيرتفع كالعمود إلى نحو السماء ، وهي التي تسمى بالزوبعة . وفي المثل « إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً » يضرب للرجل يلقى نده في البسالة والقوة ، والحرجف . البارد وصف بها الأعصار . وفي الأصل «حرجب»

(٢) الفسل : الرذل الدنيء الأحمق ، والمعنى لم يتحقق ظن الأعادي أن تدبيرك نائم عن كيدهم وغدرهم وكثيراً ما تعد الظنون الحمقى الأرذال فتخلفهم .

(٣) يشرى العضو . أي يظهر عليه ورم وقروح يحتاج إلى الكي ، ويذوى . يذبل ويضمر ، ويشأف أي تكوى شأفته أي قرحته لتذهب بالكي ، والبيت تمثيل لحال طائفة ظهر فيها النفاق والشر فكانت كالعضو المريض حل به الداء فلم يكن بد من معالجته بالكي لاستئصال شأفته ، وفي رواية « يذوى العضو »

(٤) أي كفيتهم مؤونة السعي ، وحملت عنهم العبء ، فكلهم في ظل نعمائك دائم التنعم والترف .

(٥) قصارهم . يقال قصرك وقصاراك وقصاراك أن تفعل كذا أي غايتك ، والأداهم . القيود السوادها جمع أدهم وتسمى بالأساود أيضاً ، والمرسف . مصدر ميمي من الرسفان وهو مشي المقيد ، أي أن هؤلاء الأعداء سيكون مآلهم أن يموتوا في الحبس ، بعد أن تطول عليهم مدته .

(٦) انتقل إلى ذكر مظهر من مظاهر الدولة عند خروج الملك لصلاة العيد ، وترتيب المملكة في ذلك على ما يؤخذ من صبح الأعشى أن ينادي في عامة البلد ، وأهل الأسواق ليلة العيد فيخرج أهل كل صناعة بظاهر البلد ، ويتحى أهل كل سوق ناحية ، متجملين بأحسن الثياب ، وكل منهم متنكب قوسا أو متقلد سيفا ، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم ، عليه رنك أهل تلك الصناعة مما يناسبهم ، ويبكر الملك بالركوب فيركب وعن يمينه ويساره فارسان ، ويمسك بركابيه رجلان متقلدان سيفين ، ويركب العسكر معه ميمنة وميسرة ، ويصطف الناس صفوفا يمشون قدامه ، والملوح خلفه ملتفون به ، والأعلام منشورة وراءه ، والطبول خلفه حتى يصلي العيد ، ثم يعود فينصرف عامة الشعب ويمد السماط فيحضر طعامه خواصه وأعيان مملكته ، ومعنى البيت أنه يبشره بالعيد : يظلله السرور ، ويكتنفه الحظ ببلوغ المنى . .

كَمَا يَنْسُقُ النَّظْمَ الْمُوَالِي وَيَرْصُفُ   بَشِــيرٌ بِأَعْيَادٍ تُوَافِيكَ بَعْدَهُ[1]

دِمَاءُ الْعِدَى دَأْباً بِغَرْبَيْهِ تُطْلَفُ   تَجَرَّدَ فِيــــهِ سَيْفُ دَوْلَتِكَ الَّذِي[2]

وَحِلْيَتُهُ بَذْلُ النَّــدَى وَالتَّعَفُّفُ   هُوَ الصَّارِمُ الْعَضْبُ الَّذِي الْعَزْمُ حَدُّهُ

وَتَمَّتْ لَهُ آيَاتُهُ وَهُوَ مُخْلِفُ   هُمَامٌ سَمَا لِلْمُلْكِ إِذْ هُوَ يَافِعٌ[3]

فَيُولَعُ بِالْفِعْلِ الْجَمِيــــلِ وَيُشْغَفُ   كَرِيمٌ يَعُدُّ الْحَمْدَ أَنْفَسَ قِنْيَةٍ

لَأَحْفَلُ مِنْهَا مُكْفَهِرًّا وَأَكْثَفُ   غَدَا بِخَمِيسٍ يُقْسِمُ الْغَــيْمُ إِنَّهُ[4]

وَلِلطَّبْلِ رَعْدٌ فِى نَوَاحِيـهِ يَقْصِفُ   هُوَ الْغَيْمُ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ بَرْقُهُ

* * *

وَكُلٌّ بِمَا يُرْضِيكَ دَاعٍ فَمُلْحِفُ   فَلَمَّا قَضَــيْنَا مَا عَنَانَا أَدَاؤُهُ[5]

لَأَوْكَدُ مَا يُحْظِى لَدَيْهِ وَيُزْلِفُ   قَرَنَّا بِحَمْدِ اللهِ حَمْــدَكَ إِنَّهُ[6]

---

(١) نسق النظم : أي تابع بينه وجعله على طريقة نظام واحد ، ويرصف : أي ينظم ويتصل ، والمعنى هذا العيد بشير بأعياد تأتي بعده على نسقه وترتيبه .

(٢) بغربيه : بحديه ، وتطلف : تهدر من قولهم ذهب دمه طلفاً أي هدراً .

(٣) الغلام اليافع الذي شارف الاحتلام ، والمخلف : الذي اختلف نظر الناس فيه فبعضهم يقول قد احتلم وأدرك ، وبعض يقول غير مدرك ، والمعنى سما بهمته إلى الملك وهو دون الاحتلام ، وتمت له علاماته ورسومه ومميزاته ، وهو مشكوك في احتلامه .

(٤) الخميس : الجيش الجرار التام الفرق من المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والساق وأراد به العسكر السائرين في موكب الملك عند خروجه لصلاة العيد ، والغيم : السحاب ، وأحفل : أي أكثر منها احتشاداً واجتماعاً في حال كونه (مكفهراً) أي مظلماً أسود لما على الجند من الدروع والسلاح ، وأكثف : أي أكثر كثافة وتراكماً من السحاب لشدة الزحام وكثرة العدد وأعاد الضمير في قوله (منها) على الغيم مؤنثاً مراعاة للمعنى .

(٥) أي فلما أدينا ما أهمنا أداؤه من صلاة العيد : وكل الناس داع فملح في الدعاء بما يرضيك ، وجواب لما يأتي بعد .

(٦) يحظى : أي يوجب الحظوة والتفضيل ، ويزلف : يقرب ، والمعنى : ولما انتهينا من صلاة العيد جمعنا بين حمد الله والثناء عليك لأنه أبلغ في بلوغ الحظوة لديه ، والزلفى إليه

وَعُدْنَا إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةٌ ... نُغَادِيهِ مِنَّا نَاظِرٌ أَوْ مُطَرِّفُ (١)

فَإِذْ نَحْنُ طَالَعْنَاهُ وَالْأُفْقُ لَابِسٌ ... عَجَاجَتَهُ وَالْأَرْضُ بِالْخَيْلِ تَرْجُفُ (٢)

رَأَيْنَاكَ فِى أَعْلَى الْمُصَلَّى كَأَنَّمَا ... تَطَلَّعَ مِنْ مِحْرَابِ دَاوُدَ يُوسُفُ (٣)

وَلَمَّا حَضَرْنَا الْإِذْنَ وَالدَّهْرُ خَادِمٌ ... تُشِيرُ فَيَمْضِى وَالْقَضَاءُ مُصَرِّفُ (٤)

وَصَلْنَا فَقَبَّلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِى يَدٍ ... بِهَا يُتْلَفُ الْمَالُ الْجَسِيمُ وَيُخْلَفُ

* *

لَقَدْ جُدْتَ حَتَّى مَا بِنَفْسٍ خَصَاصَةٌ ... وَأَمَّنْتَ حَتَّى مَا بِقَلْبٍ تَخَوُّفُ

---

(١) يغاديه: أي يباكره ويغدو عليه فى أول النهار، والمطرف: الذى يديم النظر فى القصر من حب وإعجاب، وهو فى الأصل الذى أصاب طرفه أى عينه عود ونحوه أو ... طرفه فى الشىء، ولا يغمض طرفه أو هو اسم فاعل من طرّف الشىء أحرزه، قال الشاعر

أطرف أبكارا كأن وجوهها ... وجوه عذارى حسرت أن تقنعا

(٢) طالعناه: أى القصر، والعجاجة: ... سابلة الخيل من الغبار، وترجف: تضطرب.

(٣) المصلى: المكان المعد لصلاة العيد، وتطلع: ظهر وأشرف عليهم من محراب، وروى عن الزجاج فى قوله تعالى «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود» قال المحراب أرفع بيت فى الدار، وأرفع مكان فى المسجد، والمعنى: رأيناك حين عودتنا إلى القصر ومطالعتنا إياه مشرفا بأعلى المصلى من غرفة قصرك كأنما أشرق من محراب داود فى يوم نسكه وعبادته وجه يوسف رائعاً فى حسنه وجماله.

(٤) قال ابن بسام

وقوله ولما حضرنا الإذن البيت مع الذى بعده أرى أبا الوليد احتذى فيه حذو الوليد فى أبيات أنشدها لحسنها وهى من أحسن ما قيل فى الهيبة

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت ... رجال عن الباب الذى أنا داخله

فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة ... أقابل بدر التم حين أقابله

كما انتصب الرمح الردينى ثقفت ... أنابيبه وأجرى للطعن عامله

وكالبدر وافته لتم سعوده ... وتم سناه واستهلت منازله

وسلمت فاعتاقت جنانى هيبة ... تنازعنى القول الذى أنا قائله

فلما تأملت الطلاقة وانثنى ... إلىّ ببشر آنستنى مخايله

دنوت فقبلت الندى من يد امرئ ... كريم محياه سباط أنامله

صفت مثل ما يصفو المدام خلاله ... ورقت كما رق النسيم شمائله

وقول ابن زيدون وصلنا فقبلنا الندى من يد امرئ معنى مليح ولفظ صحيح، إلا أنه كما تراه لفظ بيت البحترى ويقول بعض أدبائنا إن ابن زيدون بحترى زماننا وصدقوا لأنه حذا حذو الوليد فى بعض قصائده .

وَلَوْلاَكَ لَمْ يَسْهُلْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ ... وَلاَ ذَلَّ مُقْتَادٌ وَلاَ لاَنَ مَعْطِفُ

لَكَ الْخَيْرُ ، أَنَّى لِي بِشُكْرِكَ نَهْضَةٌ ؟ ... وَكَيْفَ أُؤَدِّي فَرْضَ مَا أَنْتَ مُسْلِفُ ؟(١)

أَفَدْتَ بَهِيمَ الحَالِ مِنِّىَ غُرَّةً ... يُقَابِلُهَا طَرْفُ الجَمُوحِ فَيُطْرَفُ(٢)

وَبَوَّأْتَهُ دُنْيَاكَ دَارَ مُقَامَةٍ ... بِحَيْثُ دَنَا ظِلٌّ وَذُلِّلَ مَقْطِفُ(٣)

***

وَكَمْ نِعْمَةٍ أَلْبَسْتَنِهَا سُنْدُسِيَّةٍ ... أُسَرْبَلُهَا فِى كُلِّ حِينٍ وَأُلْحَفُ

مَوَاهِبُ فَيَّاضِ الْيَدَيْنِ كَأَنَّمَا ... مِنَ الْمُزْنِ تُمْرَى أَوْ مِنَ الْبَحْرِ تُغْرَفُ

فَإِنْ أَكُ عَبْداً قَدْ تَمَلَّكْتَ رِقَّهُ ... فَأَرْفَعُ أَحْوَالِي وَأَسْنَى وَأَشْرَفُ(٤)

---

(١) نهضة : أى طاقة وقدرة أى كيف يكون لى قدرة على القيام بشكرك ، ومسلف : اسم فاعل من أسلفه أى أمره ، وفى رواية : « فرض ما أنت مسلف »

(٢) المعنى اكتست سواد الحال منى غرة بيضاء تواجهها طرف الطموح الذى يمد بصره إلى الشىء فيطرف أى يثبت فيها نظره من قولهم فلان مطروف العين بفلان إذا كان لا ينظر إلا إليه .

(٣) أى أنزلنى وأحللنى من دنياك الشبيهة بدار المقامة جنة دنا ظلها وذللت قطوفها .

(٤) فإن أك عبدا أوليتنى من نعم عبدا مربوبا لك فى أعد انتمائى إليك بالعبودية والرق أسنى أحوالى وأرفعها وأشرفها ، قال أبو الطيب المتنبى « ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا » .

ولنذكر — بمناسبة هذه القصيدة الفذة التى قالها ابن زيدون بحترى الغرب فى المعتضد بالله بمناسبة عيد الأضحى — قصيدة بحترى الشرق التى قالها فى المتوكل بمناسبة عيد الفطر — ليرى القارئ صورتين قارب بينهما اتحاد الغرض والشاعرية وإن اختلفت القافية والبحر :

الله مكن للخليفة جعفر ... ملكا يحسنه الخليفة جعفر

نعمى من الله اصطفاه بفضلها ... والله يرزق من يشاء ويقدر

فاسلم أمير المؤمنين ، ولا تزل ... تعطى الزيادة — فى البقاء — وتشكر

عمت فواضلك البرية ، فالتقى ... فيها المقل على الغنى والمكثر

***

بالبر صمت — وأنت أفضل صائم — ... وبسنة الله الرضية تفطر

فانعم بيوم الفطر عينا ، إنه ... يوم أغر — من الزمان — مشهر

أظهرت عز الملك فيه بجحفل ... لجب ، يحاط الدين فيه وينصر

فى طرطوشة (١)

غَرِيبٌ بِأَقْصَى الشَّرْقِ يَشْكُرُ لِلصَّبَا (٢) — تَحَمُّلَهَا مِنْهُ السَّلَامَ إِلَى الْغَرْبِ

وَمَا ضَرَّ أَنْفَاسَ الصَّبَا فِى احْتِمَالِهَا — سَلَامَ هَوًى يُهْدِيهِ جِسْمٌ إِلَى قَلْبِ (٣)

فلبا الجمال تسير فيه ، وقد غدت — عدداً يسير بها العديد الأكثر

فالخيل تصهل ، والفوارس تدعى ، — والبيض تلمع ، والأسنة زهر

والأرض خاشعة تميد بثقلها ، — والجو معتكر الجوانب أغبر

والشمس طالعة توقد بالضحى — طورا ، ويطفئها العجاج الأكدر

حتى طلعت بضوء وجهك ، فانجلت — تلك الدجى ، وانجاب ذاك العثير

وافتن فيك الناظرون ، فإصبع — يومى إليك بها ، وعين تنظر

يجدون رؤيتك التى فازوا بها — من أنعم الله التى لا تكفر

ذكروا بطلعتك النبى فهللوا — لما طلعت من الصفوف وكبروا

حتى انتهيت إلى المصلى لابساً — نور الهدى يبدو عليك ويظهر

ومشيت مشية خاشع متواضع — لله لا يزهى ، ولا يتكبر

فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما — فى وسعه لسعى إليك المنبر

أبديت من فصل الخطاب بحكمة — تنبى عن الحق المبين وتخبر

ووقفت فى برد النبى مذكرا — بالله تنذر تارة وتبشر

ومواعظ شفت الصدور من الذى — يعتادها وشفاؤها متعذر

حتى لقد علم الجهول وأخلصت — نفس المروى واهتدى المتحير

ضلوا وراءك آخذين بعصمة — من ربهم وبذمة لا تخفر

فاسلم بنعمة الإله فلم يزل — يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر

الله أعطاك المحبة فى الورى — وحباك بالفضل الذى لا ينكر

ولأنت أملأ للعيون لديهم — وأجل قدراً فى الصدور وأكبر

(١) هى مدينة بأقصى الشرق من الأندلس على البحر الأبيض المتوسط ، وهى من أعمال بلنسية . قالوا : وكانت متقنة العمارة ، وهى من الفرض البحرية التى ينتابها التجار ويسافرون منها إلى سائر الأمصار ، وقد استولى عليها الافرنج وعلى جميع حصونها فى سنة ٥٤٣ هـ (٢) ريح الصبا ، وهى التى تهب من الشرق ، وتقابلها الدبور (٣) ليت الصبا تحتمل أنفاسها سلاما من جسم فى الشرق إلى فؤاده النائى عنه فى الغرب ، وقريب من هذا المعنى قول عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » :

إن جسمى كما علمت بأرض — وفؤادى وساكنيه بأرض

قدر الله بالفراق علينا — فعسى باجتماعنا سوف يقضى

إلى الوزير أبى عبـــد الله [١]

« لم تزل الأيام تدنى « ابن زيدون » وتبعده ، وتسوءه وتسعده ، وتقذف به إلى كل نازح ، وتطوف أمله بعين اللاعب المازح ؛ حتى أحلته « بلنسية » وهلال ذكائه كما أبدر ، وغصن ساحته يانع قد أثمر ، وبنو عبد العزيز غرر ملكها ، ودرر سلكها ، يفيضون بحور الندى ، ويومضون فى كل منتدى ، فحل منهم محلّ الحيا فى الكؤوس ، ووقع منهم موقع البشائر فى النفوس ، وأقام بين مبرة تواصله ، ومسرة تعاوله ، ومكارمة تغاديه ، ومجاملة كرائح القطر وغاديه ، فلما انفصل ، وحصل ما حصل ، تذكر بعد برهة ذلك العيش ونور عمره قد صوح ، وغصن سنه قد دوح ، فلم يجد إلا له طيبا ، ولم يبصر غير فنه غصنا رطيبا ، فكتب إلى ابن عبد العزيز [٢] » :

رَاحَتْ فَصَحَّ [٣] بِهَا السَّقِيمْ ... رِيحٌ مُعَطَّرَةُ النَّسِـــيمْ

مَقْبُولَةٌ هَبَّتْ قَبُو ... لًا [٤] فَهِىَ تَعْبَقُ فى الشَّمِيمْ [٥]

أَفَضِيضُ مِسْكٍ أَمْ بَلَنْـ ... ـسِيَةٌ لِرَيَّاهَا [٦] نَمِيمْ [٧]

بَلَدٌ حَبِيبٌ أُفْقُــهُ ... لِفَتًى يَحُلُّ بِهِ كَرِيمْ

(١) هو الوزير أبو عبد الله بن عبد العزيز . (٢) قلائد العقيان .

(٣) وفى رواية « وراح لها السقيم » راحت أى بردت وطابت ، وراح لها السقيم من قولهم : « راح للأمر يراح » إذا أحدثه أريحيه وخفة ونشاط ، أى فارتاح لطيبها السقيم .

(٤) القبول : ريح الصبا لأنها تقابل الدبور أو لأن النفس تقبلها .

(٥) أى أن ريح الصبا تحمل معها عطرا تتنسم منه طيب الشذى .

(٦) لريحها الطيبة ؛ (٧) يقول لعل نسيم بلنسية الشذى الذى تستروح النفس إليه قد هبّ علينا .

***

أَيْهَا أَبَا عَبْــدِ الإلَـ ـــهِ، دُعَاءُ مَغْلُوبِ الْعَزِيمْ.[١]

إِنْ عِيلَ صَبْرِى مِنْ فِرَا قِكَ فَالْعَذَابُ بِهِ أَلِيمْ.[٢]

أَوْ أَتْبَعَتْكَ حَنِينَهَا نَفْسِى فَأَنْتَ لَهَا قَسِيمْ.[٣]

ذِكْرَى لِعَهْدِكَ كَالشَّهَا دِ[٤] سَرَى فَبَرَّحَ بِالسَّلِيمْ.

مَهْمَا ذَمَمْتُ فَمَا زَمَا نِى فِى ذِمَامِكَ بِالذَّمِيمْ.[٥]

زَمَنٌ كَمَأْلُوفِ الرَّضَا عِ يَشُوقُ ذِكْرَاهُ الْفَطِيمْ.[٦]

أَيَّامَ أَغْتَبِــدُ نَاظِرِ ىَ بِذَلِكَ الْمَرْأَى الْوَسِيمْ.[٧]

فَأَرَى الْفُتُوَّةَ غَضَّــةً فِى ثَوْبِ أَوَّاهٍ حَلِيمْ.[٨]

اللهُ يَعْلَمُ أَنَّ حُبَّــكَ مِنْ فُؤَادِى بِالصَّمِيمْ[٩]

وَلَئِنْ تَحَمَّلَ عَنْكَ لِى جِسْمٌ فَعَنْ قَلْبٍ مُقِيمْ.[١٠]

---

(١) أيها : بكسر الهمزة بمعنى زدنى من الحديث ، وبفتحها بمعنى اكفف واسكت ، أو للتبعيد بمعنى هيهات ، أى بعد دعاء مغلوب العزيم ، والعزيم : الأمر الداهى العظيم ، والمعنى هيهات يجدى دعائى وأنا من غلبته الحادثات على أمره . وفى الأصل : « مغلوب العزيم »

(٢) لى العذر إذا ضجرت بفراقك وعيل صبرى فقد اشتدّ بى الألم لبعادك .

(٣) القسيم : شطر الشىء المقسوم ، أى أنت شطر نفسى الثانى فلا غنى لى عنك .

(٤) وفى الأصل : « كالعداد »

(٥) الذمام : الحق والحرمة ، والمعنى مهما ذممت : من عهود الزمان الغادر فلن أذم ذلك العهد الحميد الذى قضيته معك ونعمت فيه بقربك ورعايتك .

(٦) فقد كان فى ذلك العهد المحبوب منبعث ذكريات سارّة أحن إليها كما يحن الطفل المفطوم إلى عهد الرضاع القريب . وفى الأصل « زمن كما لوف الرضاع » (٧) أيام ينعم ناظرى برؤية محياك البهى .

(٨) الأوّاه : الكثير التأوّه إشفاقاً وفرقاً ، قالوا : « وهو الكثير التضرع والدعاء أو الحزن والبكاء أو هو الرحيم الرقيق » والمعنى : فأرى الفتوة — فى عنفوانها — مقترنة بالخشية والتضرع والحلم ، وفى الكتاب الكريم : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » (٩) الصميم : المحض أو الخالص .

(١٠) وإذا رحل عنك جسمى فإن قلبى لم يرحل عنك ولم يخل عن حبك فهو ثابت مقيم عندك .

قُلْ لِي بِأَيِّ خِلاَلِ سَرْ ... وِكَ[1] قَبْلُ أُفْتَنُ أَوْ أَهِيمْ[2]

أَبِمَجْدِكَ الْعَمَمِ[3] الَّذِي ... نَسَقَ الْحَدِيثَ مَعَ الْقَدِيمْ[4]

أَمْ ظَرْفِكَ الْحُلْوِ الْجَنَى ... أَمْ عِرْضِكَ الصَّافِي الْأَدِيمْ

أَمْ بِرِّكَ الْعَذْبِ الْجِمَا ... مِ، وَبِشْرِكَ الْغَضِّ الْجَمِيمْ[5]

أَمْ بِالْبَدَائِعِ كَاللَّآ ... لِئِ مِنْ نَثِيرٍ أَوْ نَظِيمْ

وَبَلاَغَةٍ إِنْ عُدَّ أَهْلُوهَا فَأَنْتَ لَهُمْ زَعِيمْ

فِقَرٌ تَسُوغُ بِهَا الْمُدَا ... مُ إِذَا تَكَرَّرَهَا النَّدِيمْ[6]

إِنْ أَشْمَسَتْ تِلْكَ الطَّلاَ ... قَةُ فَالنَّدَى مِنْهَا مُقِيمْ

***

إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْحُظُو ... ظَ حَبَاكَ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمْ

لاَ أَسْتَزِيدُ اللهَ نُعْـ ... ـمَى فِيكَ، لاَ بَلْ أَسْتَدِيمْ

فَلَقَدْ أَقَرَّ الْعَيْنَ أَنَّكَ غُرَّةُ الزَّمَنِ الْبَهِيمْ

حَسْبِي الثَّنَاءُ لِحُسْنِ بِرِّ ... كَ مَا بَدَا بَرْقٌ فَشِيمْ[7]

ثُمَّ الدُّعَاءُ بِأَنْ تَهَنَّـ ... ـأَ طُولَ عَيْشِكَ فِي نَعِيمْ

ثُمَّ السَّلاَمُ تُبَلِّغَنَّـ ... ـهُ فَغَيْبُ، مُهْدِيهِ سَلِيمْ[8]

---

(١) السرو : الفضل والسخاء فى المروءة . (٢) إنى لا أدرى أى خلال فضلك جدير بالاشارة والتنويه ، وأى مزاياك جدير بأن يهيم به عارفك ويفتتن . (٣) الشامل .

(٤) انتظم المجد الحديث ، والمجد القديم . (٥) الجمام — جمع جمة بتشديد الميم — الماء الكثير المجتمع ، يقال : جمت البئر جموما ، إذا اجتمع ماؤها وارتفع بعد نزح ما فيها ، قال زهير :

« ولما وردن الماء زرقا جمامه ... وضعن عصى الحاضر المتخيم »

والجميم : النبت الكثير . (٦) كلمات تعذب بها الخمر إذا رددها النديم .

(٧) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يمطر ، وفى الأصل : « لحسن برقك » .

(٨) وفى رواية : • « ثم السلام تبلغنه بقلب مهديه السليم »

جَوَابُ كِتَابٍ

« كتب إليه الوزير أبو بكر بن الطبي :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار
وقلّ منا ومنك اليوم زوّار

وبينا كل ما تدريه من ذمم
وللصبا ورق خصر ونوّار

وكل عتب وإعتاب جرى فله
مواقع حلوة عندى وآثار

فاذكر أخاك بخير — كلما لعبت
به الليالى — فإنّ الدهر دوّار »

فجاوبه بديها فى ظهر رقعته : »

لَوْ أَنَّنِي لَكَ فى الْأَهْوَاءِ مُخْتَارُ ... لَمَا جَرَتْ بِالَّذِى تَشْكُوهُ أَقْدَارُ

لٰكِنَّهَا فِتَنٌ فى مِثْلِ غَيْهَبِهَا ... تَعْمَى الْبَصَائِرُ إِنْ لَمْ تَعْمَ أَبْصَارُ (١)

فَأَحْسِنِ الظَّنَّ لَا تَرْتَبْ بِعَهْدِ فَتًى ... تَعْفُو الْعُهُودُ وَتَبْقَى مِنْهُ آثَارُ

لَوْ كَانَ يُعْطَى الْمُنَى فى الْأَمْرِ يُمْكِنُهُ ... لَمَا أَغَبَّكَ — يَوْمًا — مِنْهُ زَوَّارُ (٢)

فَلَا يَرِيبَنْكَ فى ذِكْرِ الصَّدِيقِ بِهِ ... مَنْ لَيْسَ يَجْهَلُ أَنَّ الدَّهْرَ دَوَّارُ

---

(١) لو كان لى الخيار فيما تهواه وتحبه لما جرى القدر بما يسوءك ويبعثك على الشكوى ، ولكنه قدر لا سبيل إلى ردّه ، وفتنة تضل فى غياهبها العقول وتعمى الأبصار

(٢) لو كان الأمر بيدى لما تخلفت عن زيارتك يوماً واحداً

فى الغـــزل

وَضَــحَ الحَقُّ المُبِينُ　　وَنَفَى الشَّكَّ اليَقِينُ
وَرَأَى الْأَعْدَاءُ مَا غَرَّ　　تْهُــمُ مِنْهُ الظُّنُونُ
أَمَّلُوا مَا لَيْسَ يُغْنَى　　وَرَجَوْا مَا لاَ يَكُونُ
وَتَمَنَّوْا أَنْ يَخُونَ الْـ　　ـعَهْدَ مَوْلًى لاَ يَخُونُ (١)
فَإِذَا الْغَيْبُ سَلِيمٌ　　وَإِذَا الْوُدُّ مَصُونُ (٢)

***

قُلْ لِمَنْ دَانَ بِهَجْرِى　　وَهَوَاهُ لِيَ دِينُ
يَا جَوَاداً بِيَ إِنِّى　　بِكَ وَاللّٰهِ ضَنِينُ
أَرْخَصَ الحُبُّ فُؤَادِى　　لَكَ وَالْعِلْقُ (٣) ثَمِينُ

***

يَا هِــلاَلاً تَتَرَا　　ءَاهُ نُفُوسٌ لاَ عُيُونُ
عَجَباً لِلْقَلْبِ يَقْسُو　　مِنْكَ وَالْقَدُّ يَلِينُ (٤)
مَا الَّذِى ضَرَّكَ لَوْ سُــ　　ـرَّ بِمَرْآكَ الحَزِينُ
وَتَلَطَّفْتَ لِصَــبٍّ　　حَيْنُهُ (٥) فِيكَ يَحِينُ
فَوُجُوهُ اللَّفْظِ شَتَّى　　وَالمَعَاذِيرُ فُنُونُ (٦)

---

(١) وفى رواية :　　وتمنوا أن يخون الـ　ـعبد مولى لا يخون
(٢) نجاب ظن الأعداء وظهر أنى لم أخن لمولاى عهداً ، وأن إخلاصى ووفائى لها سليمان وودى له لا يتغير
(٣) النفيس، وفى رواية : « والملق الثمين » .
(٤) وفى رواية « والعطف يلين » .　　(٥) هلاكه .　　(٦) شتى ؟

فى مدح ابن جهـــور

قال يمدح الوزير الأجل محمد بن جهور بن محمد بن جهور :

أَمَا عَلِمَتْ أَنَّ الشَّفِيعَ شَبَابُ ‌ ‌ ‌ ‌ فَيَقْصُرَ عَنْ لَوْمِ الْمُحِبِّ عِتَابُ (١)

عَلاَمَ الصِّبَا غَضٌّ يَرِفُّ رُوَاؤُهُ ‌ ‌ ‌ ‌ إِذَا عَنَّ مِنْ وَصْلِ الْحِسَانِ ذَهَابُ (٢)

وَفِيمَ الْهَوَى مَحْضٌ يَشِفُّ صَفَاؤُهُ ‌ ‌ ‌ ‌ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُنَّ عَنْهُ ثَوَابُ (٣)

وَمُسْعِفَةٍ بِالْوَصْلِ إِذْ مَرْبَعُ الْحِمَى ‌ ‌ ‌ ‌ لَهَا كُلَّمَا قَطِنَّا الْجَنَابَ جَنَابُ (٤)

تَظُنُّ النَّوَى تَعْدُو الْهَوَى عَنْ مَزَارِهَا ‌ ‌ ‌ ‌ وَدَاعِي الْهَوَى نَحْوَ الْبَعِيدِ مُجَابُ (٥)

---

(١) ألم تعلم أن خير شافع المحب إذا جنى ذنبا هو نضارة شبابه ، وأن الشباب لحسنه فى الأعين ولما فيه من الترفه والخفة يعتبر شفيعا فى تخفيف العقوبة وتنزيلها من لوم عنيف إلى عتاب خفيف يلطف مدخله على القلب ، وإذ كان الشباب خير شافع للحسان فما أجدرهن بالاقتصار على اللوم ، وما أبدع قول علقمة :

فإن تسألونى بالنساء ، فإننى ‌ ‌ خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله ‌ ‌ فليس له فى ودهنّ نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه ‌ ‌ وشرخ الشباب عندهنّ عجيب

(٢) غض : طرى ناعم ، يرفّ رواؤه : يترقرق فيه ماء الحسن ، والرواء الحسن ، ومعنى البيت : وما قيمة الشباب ونضارة الصبا إذا أخفقا فى ترغيب الحسان وعجزا عن اكتساب ودهن .

(٣) محض : خالص لا شائبة فيه ، ويشف من شفوف الماء أى يبدى ما وراءه أى وفيم حبا خالص لا يشوب صفاءه كدر إذا لم يكن من الحسان مثوبة عنه وجزاء عليه .

(٤) المربع : الموضع الذى ينزلون فيه زمن الربيع ، والحمى : موضع فيه كلأ يحميه أهله من أن يرعاه غيرهم ، وقطنا : من القيظ وهو صميم الصيف يقال قطنا بمكان كذا أى أقمنا فيه زمن الصيف والقيظ والصيف بمعنى واحد ، والجناب الأول ما قرب من محلة القوم أى قطنا فى المكان القريب من الحمى واتخذناه مصيفاً لنا ، والجناب الثانى الناحية ، أى رب حسناء تسعفنى بوصلها كلما اتخذنا جانب الحمى مصيفاً لنا وكانت لها ناحية الحمى سكناً فى زمن الربيع ، وفى هذا البيت جناس متكلف كما ترى .

(٥) تظن مسافة البعد بينى وبينها تصرف عنى عن زيارتها والحال إن داعى الهوى الذى ينادينى من ناحيتها مجاب الدعوة .

وَقِلٌ لَهَا نِضْوٌ بَرَى مَخْضَهُ السُّرَى ... وَبَهْمَاءُ غُفْلُ الصَّحْصَحَانِ تجابُ (١)

إِذَا مَا أَحَبَّ الرَّكْبُ وَجْهاً مَضَوْا لَهُ ... فَهَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَخُبَّ رِكَابُ (٢)

عَرُوبٌ أَلاَحَتْ مِنْ أَعَارِيبِ حِلَّةٍ ... تجَاوَبُ فِيهَا بِالصَّهِيلِ عِرَابُ (٣)

غَيَارَى، بِنَ الطَّيْفِ الْمُلِمِّ وَدِفِي الْكَرَى ... مُشِيحُونَ مِنْ رَجْمِ الظُّنُونِ غِضَابُ (٤)

وَمَاذَا عَلَيْهَا أَنْ يُسَنَّى وَصْلُهَا ... طِعَانٌ ـ فَإِنْ لَمْ يُغْنِنَا ـ فَضِرَابُ (٥)

أَلَمْ تَدْرِ أَنَّا لاَ نُرَاحُ لِرِيبَةٍ ... إِذَا لَمْ يُلَمِّعْ بِالنَّجِيعِ خِضَابُ (٦)

وَلاَ نَنْشَقُ الْعِطْرَ النَّمُومَ أَرِيجُهُ ... إِذَا لَمْ يُشَعْشَعْ بِالْعَجَاجِ مَلاَبُ (٧)

---

(١) النضو : المهزول والمراد به البعير الذى أضناه السفر أى أهزله ، وبرى محضه السرى : أى أذهب لحمه السير بالليل ، والبهماء : الفلاة لايهتدى فيها ، وغفل : أى لا علامة بها ولا أثر يعرف ، والصحصحان : المستوية الجرداء ، أى وقل لهذه المحبوبة النائية بعير أضناه السفر وفلاة مجهولة لا أثر فيها للعمارة والطرق تجاب وتقطع سيراً لأجلها . (٢) فى معنى هذا البيت قول الشاعر :

وكنت إذا ما جئت ليلى أزورها ... أرى البيد تطوى لى ويدنو بعيدها

(٣) العروب : المطيعة لزوجها المتحببة إليه ، وألاحت : ظهرت أولوحت بطرف شىء من مكان بعيد والأعاريب : الأعراب ، والحلة : مجتمع البيوت ، والعراب : الخيل العربية ، والمعنى : زوجة من طاعة زوجها والتحبب إليه بحيث لا تلتفت إلى غيره . قد لوحت بطرف منديل أو نحوه من ناحية الحلة التى ينزل بها أولئك الأعراب الغيورون حيث ارتبطوا خيولهم وركزوا رماحهم .

(٤) غيارى : جمع غيران من الغيرة وهى الحمية والأنفة . يقال رجل غيور على أهله وكذلك غيران والأنثى غيرى ، والمشيح : الحذر المجد المسرع إليك لمدافعة الموت أو الدفاع عن الحرم ، ومنه قوله .

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وإقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح

(٥) يسنى : أى يسهل وييسر ، ومنه تسنى له كذا أى تسهل وتيسر ، وقال الشاعر :

وأعلم علما ليس بالظن انه ... إذا الله سنى عقد شىء تيسرا

والمعنى : وأى نقمة ولوم عليها فى أن يسهل الطريق إلى وصلها مطاعنة بالرماح فان لم تغن فمضاربة بالسيوف

(٦) نراح : كمخاف من قولهم فلان يراح للمعروف إذا أخذته له أريحية وخفة ، ويلمع أى يلون بلون النجيع أى الدم ، يقول نحن لا نستريح لوصل الغانيات إذا لم ندفع ثمنه من دم الأعداء .

(٧) النموم : مبالغة فى النم كنى به عن سطوع الرائحة ، والأريج : ما يفوح من العطر ، ويشعشع : يختلط ، والعجاج : الغبار ، والملاب : كسحاب العطر ، أى لا نستريح إلى انتشاق عطرهن الساطع الأريج إلا بعد امتشاق الحسام، واختلاط ما تثيره سنابك الخيل من التراب ، بما يفوح من رائحة الملاب ، والمعنى أنه لا يحب أن يظفر بتلك اللذائذ إلا إذا اغتصبها اغتصاباً بحد السيف . فهو لا يصل الريبة إلا بالدم ولا ينشق العطر إلا مشوباً بغبار الهيجاء .

وَكَمْ رَاسَلَ الْغَيْرَانُ يُهْدِي وَعِيدَهُ ... فَمَا رَاعَهُ إِلاَّ الطُّرُوقَ جَوَابُ (١)

وَلَمْ يَثْنِنَا أَنَّ الرِّبَابَ عَقِيـــلَةٌ ... تَسَانَدُ سَـــعْدٌ دُونَهَا وَرِبَابُ

وَأَنْ رُكِزَتْ حَوْلَ الْخُدُورِ أَسِنَّةٌ ... وَحَفَّتْ بِقُبِّ السَّابِحَاتِ قِبَابُ (٢)

وَلَوْ نَدْرَ الْحَيَّانِ غِبَّ السُّرَى بِنَا ... لَـكَرَّتْ عُطَالَى أَوْ لَعَادَ كُلاَبُ (٣)

وَلَيْلَةَ وَافَتْنَا تَهَادَى فَنَمْتَرِي ... أَيَسْمُو حَبَابٌ أَوْ يَسِيبُ حُبَابُ (٤)

يُعَذِّبُهَا عَضُّ السِّوَارِ بِمِعْصَمٍ ... أَبَانَ لَهَـــا أَنَّ النَّعِيمَ عَذَابُ

لَأَبْرَحْتُ مِنْ شَيْحَانَ حُطَّ لِثَامُهُ ... إِلَى خَفِرٍ مَا حُطَّ عَنْهُ نِقَابُ (٥)

ثَوَى مِنْهُمَا ثِنْيَ النِّجَادِ مُشَـــيَّعٌ ... نَجِيدٌ وَمَيْلاَءُ الْوِشَاحِ كَعَابُ (٦)

---

(١) الغيران : وصف من الغيرة ، والطروق : طروق الحي بالليل ، وفي التمتع بالوصل رغم الغيور يقول ابن الرومي :

ألا ربما سؤت الغيور وساءني ... وبات كلانا من أخيه على وحر
وقبلت أفواهاً عذاباً كأنها ... ينابيع خمر حصبت لؤلؤ البحر

(٢) القب : جمع قباء وأقب والأقب الضامر من الخيل ، ومعنى هذا البيت والذي قبله لم يصرفنا عن زيارة هذه المحبوبة التي كنى عنها بالرباب أن تساند حاميا القبيلتين وتعاونتا دون الوصول إليها .

(٣) نذر به كفرح علمه فحذره وعطالى وكلاب نضم أولهما يومان من أيام العرب ، أي لو علم بسرانا إليها هذان الحيان لكان لنا معهما يومان كيومي عطالى وكلاب في الشهرة والهول .

(٤) يسمو : أي يرتفع للناظر اليه من بعيد فيستبينه وحباب — بالفتح — تموج الماء وطرائقه التي كأنها الوشي أو النسيج وبالضم الحية ، ويسمو الينا حباب بالفتح وهو الماء في تدافعه وتموجه وإحداثه طرائق كطرائق النسيج وهو تمثيل لاختلاس الخطا في المشي ، والمعنى : واذكر ليلة وافتنا مختفية فشك أيقبل نحونا حبيب أو تنساب الينا حية . يقول : لقد كنا لا ندري أتكون ليلتنا ليلة أنس واغتباط بقرب الحبيبة ، أم ليلة حرب وضراب بغزو أعدائنا إيانا ، وسمو الحباب : فيه إشارة إلى قول امرئ القيس :

سموت إليها — بعد ما نام أهلها — ... سمو حباب الماء ، حالا على حال

(٥) لأبرحت : لقد أفرطت في الحذر وتوقع مواثبة العدو ومشايعته ، والشيحان : الغيور الحذر على الحريم ، والخفر : الحياء ، واللثام : للرجل ، والنقاب : للمرأة ، يقول : لقد وضعت اللثام عن وجهي وتمتعت بحبيب لم يرفع عنه وجهه نقاب لفرط حيائه . ولقد كنت — إلى ذلك — دائم الحذر والتوقع لمواثبة العدو .

(٦) ثوى : أقام ، وثني النجاد : بكسر أولهما أي طي الفرش والوسائد ، والمشيع : كمعظم الشجاع ، والنجيد : الأسد — وهو يعني بذلك نفسه — وميلاء الوشاح : يريد أن وشاحها به ميل وانحدار لنهود ثدييها وضمور كشحيها ، والكعاب : كسحاب التي كعب ثدياها — وهو يعني بها حبيبته — وفي معنى هـذا البيت يقول الطغرائي :

وبتنا على رغم الغيور يضمنا ... جميعاً حواشي بردها وردائيا
وكانت إساءات الليالي كثيرة ... فما برحت حتى شكرنا الليالي "

يُعَلِّلُ مِنْ إِغْرِيضِ ثَغْرٍ يَعُلُّهُ غَرِيضٌ كَمَاءِ الْمُزْنِ وَهُوَ رُضَابُ (١)

إِلَى أَنْ بَدَتْ فِى دُهْمَةِ الْأُفْقِ غُرَّةٌ وَنَفَّرَ مِنْ جُنْحِ الظَّلَامِ غُرَابُ (٢)

وَقَدْ كَادَتِ الْجَوْزَاءُ تَهْوِى فَخِلْتُهَا ثَنَاهَا مِنَ الشِّعْرَى الْعَبُورِ جَنَابُ (٣)

كَأَنَّ الثُّرَيَّا رَايَةٌ مُشْرِعٌ لَهَا جَبَانٌ يُرِيدُ الطَّعْنَ ثُمَّ يَهَابُ

كَأَنَّ سُهَيْلًا فِى رَبَاوَةِ أُفْقِهِ مُسِيمُ نُجُومٍ حَانَ مِنْهُ إِيَابُ (٤)

كَأَنَّ السُّهَا فَانِى الْحُشَاشَةِ شَفَّهُ ضَنًى فَخُفَاتٌ مَرَّةً وَمَثَابُ

كَأَنَّ الصَّبَاحَ اسْتَقْبَسَ الشَّمْسَ نَارَهَا فَجَاءَ لَهُ مِنْ مُشْتَرِيهِ شِهَابُ

كَأَنَّ إِيَاةَ الشَّمْسِ بِشْرُ ابْنِ «جَهْوَرٍ» إِذَا بَذَلَ الْأَمْوَالَ وَهْىَ رِغَابُ (٥)

هُوَ الْبِشْرُ شِمْنَا مِنْهُ بَرْقَ غَمَامَةٍ لَهَا بِاللُّهَا فِى الْمُعْتَفِينَ مَصَابُ (٦)

---

(١) يعلل : أى يكرر من التعليل وهو جنى الثمرة مرة بعد مرة ، ومنه قول امرئ القيس :

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من جناك المعلل

والأغريض : الطلع جعل ما ناله مكررا من تقبيلها بمنزلة إغريض أبيض حلو تكرر جناه ، ويعله أى يسقيه مكررا ، والغريض : ماء الأسنان ، والرضاب : الريق المرشوف ، قالوا : وهو الريق ما دام فى الفم .

(٢) الدهمة : سواد الليل ، والغرة : بياض الصبح ، شبه الصبح فى استعجاله الدجى بمن يطير غرابا ، ونظير هذا قول ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نطير غرابا ذا قوادم جون

(٣) الجوزاء : نجم يعترض فى جوز السماء أى وسطه ، والشعرى : شعريان « إحداهما » الشعرى العبور وهى كوكب يطلع بعد الجوزاء وسميت العبور لأنها — كما يقال — عبرت السماء عرضاً ولم يعبر السماء عرضا غيرها وهى التى عبدها طائفة من العرب فى الجاهلية ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى « وأنه هو رب الشعرى » أى التى تعبدونها « والثانية » الغميصاء تقول العرب فى أحاديثها لأنها غمصت من بكائها على العبور ، وثناها : عطفها ، والجناب : الناحية والفناء .

(٤) سهيل نجم ، ورباوة أفقه ما ارتفع منه ، ومسيم : اسم فاعل من أسام الابل أى أرعاها ، شبه سهيلا فى انحداره آخر الليل وراء النجوم براع حان منه رجوع ورواح .

(٥) إياة الشمس : بكسر الهمزة وفتحها ضوءها وحسنها .

(٦) اللها : بالضم العطايا ، والمعتفى : كالعافى طالب الفضل والجود ، والمصاب : بالفتح نزول المطر مصدر ميمى من صاب المطر يصوب إذا نز

جَوَادٌ مَتَى اسْتَعْجَلْتَ أُولَى هِبَاتِهِ   كَفَاكَ مِنَ الْبَحْرِ الْخِضَمِّ عُبَابُ

غَنِيٌّ عَنِ الإِبْسَاسِ دَرُّ نَوَالِهِ   إِذَا اسْتَنْزَلَ الدَّرَّ الْبَكِيءِ عِصَابُ (١)

إِذَا حَسَبَ النَّيْلَ الزَّهِيدَ مُنِيلُهُ   فَمَا لِعَطَايَاهُ الْحِسَابِ حِسَابُ (٢)

عَطَايَا يُصِيبُ الحَاسِدُونَ بِحَمْدِهِ   عَلَيْهَا ، وَلَمْ يُحْبَوْا بِهَا فَيُحَابُوا

مُوَطَّأُ أَكْنَافِ السَّمَاحِ دَنَتْ بِهِ   خَلَائِقُ زُهْرٌ إِذْ أَنَافَ نِصَابُ (٣)

فَزُرْهُ تَزُرْ أَكْنَافَ غَنَّاءَ طَلَّةٍ   أَرَبَّتْ بِهَا لِلْمَكْرُمَاتِ رَبَابُ (٤)

زَعِيمُ الْمَسَاعِي أَنْ تَلِينَ شَدَائِدٌ   يُمَارِسُهَا أَوْ أَنْ تَلِينَ صِعَابُ

مَهِيبٌ يُغَضُّ الطَّرْفُ مِنْهُ لِآذِنٍ   مَهَابَتُهُ دُونَ الْحِجَابِ حِجَابُ (٥)

لِأَبْلَجَ مَوْفُورِ الجَلَالِ إِذَا احْتَبَى   عَلَا نَظَرٌ مِنْـــهُ وَعَزَّ خِطَابُ

وَذِي تُدْرَإٍ يَعْدُو الْعِدَا عَنْ قِرَاعِهِ   غِلَابٌ فَهَمَّا عَزَّهُ فَخِـــلَابُ (٦)

إِذَا هُوَ أَمْضَى الْعَزْمَ لَمْ يَكُ هَفْوَةً   يُؤَثِّرُ عَنْهَا فِي الْأَنَامِلِ نَابُ (٧)

---

(١) الناقة البسوس : هى التى لا تدر إلا على الابساس بأن يقال لها « بس بس » تسكيناً لها ، والدر اللبن ، والبكئ الناقة التى قل لبنها ، والعصاب : بالكسر شد فخذى الناقة لتدر . يقول : إن نواله قريب ميسور لا يكلفك مشقة ولا يحوجك إلى إلحاف . (٢) حسب : عد ، والحساب : بالكسر بمعنى الكثيرة الكافية صفة لعطاياه ، ومنه قوله تعالى « عطاء حسابا » أى كافياً ، والمعنى : إذا عد العطاء القليل منيله ومعطيه ليحصيه فما لعطاياه الكثيرة الكافية عد ولا إحصاء .

(٣) يقال رجل موطأ الأكناف : كمعظم أى سهل دمث الأخلاق سمح كريم ، والنصاب : كالمنصب الأصل ، والمعنى : أنه سهل جوانب السماح يقربه منك ويدنو به إليك دماثة أخلاقه وإن علا منصبه وسما أصله

(٤) الغناء : الكثيرة الشجر ، والطلة : الروضة بللها الطل ، وأربت : من أرب بالمكان إذا لزمه والرباب السحاب . (٥) يقول إن ابن جهور مهيب يغضى من مهابته ومع هذا فهو يغض طرفه حياء ، وهذا قريب من قول الفرزدق :

« يغضى حياء ، ويغضى من مهابته   فلا يكلم إلا حين يبتسم »

(٦) ذو تدرأ : بضم أوله أى صاحب عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وغلاب : أى مغالبة ، وعزه : غلبه ، وخلاب : من خلبه إذا خدعه ، وفى المثل « إذا لم تغلب فاخلب

(٧) يقول إذا أمضى العزم لم يك إمضاؤه هفوة يعض عليها أنامله ندماً وغيظاً

عَزَائِمُ يَنْصَاعُ الْعِدَا عَنْ مُمِرِّهَا ... كَمَا رُهِبَتْ يَوْمَ النِّضَالِ رِهَابُ (١)

صَوَائِبُ ، رِيشُ النَّصْرِ فِى جَنَبَاتِهَا ... لُؤَامٌ ، وَرِيشُ الطَّائِشَاتِ لُغَابُ (٢)

حَلِيمٌ تَلَافَى الجَاهِلِينَ أَنَاتُهُ ... إِذَا الْحِلْمُ عَنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ عِقَابُ (٣)

إِذَا عَثَرَ الجَانِى عَفَا عَفْوَ حَافِظٍ ... بِنُعْمَى لَهَا فِى الْمُذْنِبِينَ ذِنَابُ (٤)

شَهَامَةُ نَفْسٍ فِى سَلَامَةِ مَذْهَبٍ ... كَمَا الْمَاءُ لِلرَّاحِ الشَّمُولِ قِطَابُ (٥)

« بَنِى جَهْوَرٍ » مَهْمَا فَخَرْتُمْ بِأَوَّلٍ ... فَسِرٌّ مِنَ الْمَجْدِ التَّلِيدِ لُبَابُ

حَطَطْتُمْ بِحَيْثُ اسْتَنْطَحَتْ سَاحَةُ الْعُلَا ... وَأَوْفَتْ لِأَخْطَارِ السَّنَاءِ هِضَابُ

بِكُمْ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءَ فَأَوْجُهٌ ... شُمُوسٌ وَأَيْدٍ فِى الْمُحُولِ سَحَابُ

***

أَشَارِحَ مَغْنَى الْمَجْدِ وَهْوَ مُعَمَّسٌ ... وَعَامِرَ مَغْنَى الْحَمْدِ وَهْوَ خَرَابُ (٦)

مُحَيَّاكَ بَدْرٌ وَالْبُدُورُ أَهِلَّةٌ ... وَيُمْنَاكَ بَحْرٌ وَالْبُحُورُ ثِعَابُ (٧)

رَأَيْتُكَ جَارَاكَ الْوَرَى فَغَلَبْتَهُمْ ... لِذَلِكَ « جَرْىُ الْمُذْكِيَاتِ غِلَابُ » (٨)

---

(١) الانصياع الرجوع أى يرجع الأعداء عما أمره من العزائم خوفا ورهبة كما رهبت يوم النضال رهاب أى نصال رقيقة جمع رهب كنصل . (٢) صوائب : صفة العزائم فى البيت قبله يريد أنها عزائم صائبة كالسهام ، واللغاب : ريش السهم إذا لم يعتدل فاذا اعتدل فهو لؤام . (٣) وهذا قريب من قول المتنبى :

« ترفق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجانى عقاب »

(٤) الذناب : بالكسر خيط يشد به ذنب البعير لئلا يخطر به أى يحركه يميناً وشمالا فيملأ راكبه ، أى أنه بما يسديه إلى الجناة من نعمى يمنعهم من الوقوع فى الذنب كما يمنع الذناب ذنب البعير عن تلويث راكبه بخطرانه

(٥) قطاب : بالكسر مزاج . (٦) معمس : خفى مشتبه ، والمغنى : المنزل .

(٧) ثعاب : بالكسر جمع ثعب وهو الغدير . أو هو مسيل الوادى ، وجمعه ثعاب ، قال ابن دريد :

« والناس ضحضاح ثعاب وأضى » ويجمع أيضاً على ثعبان ، قال الحريرى فى أحاجيه التى ذكرها فى مقاماته : « أيجوز الوضوء من ماء الثعبان » فقيل : « وهل أحسن منه للعريان »

(٨) والمذكيات ـ والمذكيات بالتضعيف ـ الخيل التى بلغت تمام السن ونهاية الشباب وفى المثل : « جرى المذكيات غلاب » أى أن تغالب الجرى غلاباً

فَقَرَّتْ بِهَا مِنْ أَوْلِيَائِكَ أَعْيُنٌ　　وَذَلَّتْ لَهَا مِنْ حَاسِدِيكَ رِقَابُ

***

فَتَحْتَ الْمُنَى مِنْ بَعْدِ إِلْهَامِنَا بِهَا　　وَقَدْ ضَاعَ إِقْلِيدٌ وَأُبْهِمَ بَابُ (1)

مَدَدْتَ ظِلَالَ الْأَمْنِ تَخْضَرُّ تَحْتَهَا　　مِنَ الْعَيْشِ فِى أَعْدَى الْبِقَاعِ شِعَابُ (2)

حِمًى سَالَمَتْ فِيهِ الْبُغَاثَ جَوَارِحٌ　　وَكَفَّتْ عَنِ الْبَهْمِ الرِّتَاعِ ذِئَابُ (3)

فَلَازِلْتَ تَسْعَى سَعْىَ مَنْ حَظُّ سَعْيِهِ　　نَجَاحٌ وَحَظُّ الشَّانِئِيهِ تَبَابُ

فَإِنَّكَ لِلدِّينِ الشَّعِيبِ لَمِلْأَمٌ　　وَإِنَّكَ لِلْمُلْكِ الثَّئِىِّ لَرِئَابُ (4)

إِذَا مَعْشَرٌ أَلْهَاهُمُ جُلَسَاؤُهُمْ　　فَلَهْوُكَ ذِكْرٌ وَالْجَلِيسُ كِتَابُ (5)

نُعَزِّيكَ عَنْ شَهْرِ الصِّيَامِ الَّذِى انْقَضَى　　فَإِنَّكَ مَفْجُـــوعٌ بِهِ فَمُصَابُ

هُوَ الزَّوْرُ لَوْ تُعْطَى الْمُنَى وَضَعَ الْعَصَا　　لِيَزْدَادَ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ مُثَابُ

شَهِدْتُ لَأَدَّى مِنْكَ وَاجِبَ فَرْضِهِ　　عَلِيمٌ بِمَا يُرْضِى الْإِلٰهَ نِقَابُ (6)

وَجَاوَرْتَ بَيْتَ اللهِ أُنْسًا بِمَعْشَرٍ　　خَشُوهُ فَخَـــرُّوا رُكَّعًا وَأَنَابُوا

لَقَدْ جَدَّ إِخْبَاتٌ وَحَقَّ تَبَتُّلٌ　　وَبَالَغَ إِخْلَاصٌ وَصَحَّ مَتَابُ (7)

---

(١) إبهام : الباب إغلاقه ، وباب : مبهم أى مغلق ، والاقليد : المفتاح .

(٢) أعدى : أفعل تفضيل من عديت الأرض يقال أرض عداة وهى الطيبة التربة الخامة من الزرع البعيدة من ماء الأنهار والجداول، والشعاب: جمع شعب بالكسر وهو الطريق فى الجبل ومسيل الماء ، يقول أنه مد ظلال الأمن على البلاد النائية ، وجعل الخصب يمتد إلى الجهات البعيدة من مياه الأنهار .

(٣) البغاث : ضعاف الطير ، البهم : واحدتها بهمة بالفتح وهى أولاد الضأن والمعز والبقر . وهذا البيت من أبدع ما قرأناه فى وصف استتباب الأمن .　　(٤) الشعيب : المتفرق ، والثئى : الفاسد من ثأى يثأى فهو ثأ كجمر إذا فسد ، ورئاب : جمع رؤبة وهى القطعة من الخشب يشعب بها الاناء ويسد بها ثلمة الجفنة

(٥) يشير إلى قول المتنبى:　　« وخير جليس فى الزمان كتاب »

(٦) النقاب : بالكسر العالم بالأمور .

(٧) الاخبات : مصدر اخبت إلى ربه اطمأن إليه وتخشع وتواضع ، والتبتل : الانقطاع إلى الله تعالى

سَيَخْلُدُ فِى الدُّنْيَا بِهِ لَكَ مَفْخَرٌ ... وَيَحْسُنُ فِى دَارِ الْخُلُودِ مَآبُ

وَبُشْرَاكَ أَعْيَادٌ سَيَنْمِى اطِّرَادُهَا ... كَمَا اطَّرَدَتْ فِى السَّمْهَرِىِّ كِعَابُ

تَرَى مِنْكَ سَرْوَ الْمُلْكِ فِى قَشَفِ التُّقَى ... فَيَبْرُقُهَا مَرْأَى هُنَاكَ عُجَابُ

فَأَبْلِ وَأَخْلِفْ إِنَّمَا أَنْتَ لَابِسٌ ... لِهٰذِى اللَّيَالِى الْغُرِّ وَهْىَ ثِيَابُ

فَدَيْتُكَ كَمْ أَلْقَى الْفَوَاغِرَ مِنْ عِداً ... قِرَاهُمْ لِنِيرَانِ الْفَسَادِ ثِقَابُ [1]

عَفَا عَنْهُمُ قَدْرِى الرَّفِيعُ فَأَهْجَرُوا ... وَبَايَنَهُمْ خُلْقِى الْجَمِيلُ فَعَابُوا

وَقَدْ تُسْمَعُ الْأَيْثَ الْجِحَاشُ نَهِيقَهَا ... وَتُغْلِى إِلَى الْبَدْرِ النُّبَاحَ كِلَابُ

إِذَا رَاقَ حُسْنُ الرَّوْضِ أَوْ فَاحَ طِيبُهُ ... فَمَا ضَرَّهُ أَنْ طَنَّ فِيهِ ذُبَابُ

فَلَا بَرِحَتْ تِلْكَ الضَّغَائِنُ إِنَّهَا ... أَفَاعٍ لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ لِصَابُ [2]

يَقُولُونَ شَرِّقْ أَوْ فَغَرِّبْ صَرِيمَةً ... إِلَى حَيْثُ آمَالُ النُّفُوسِ نِهَابُ [3]

فَأَنْتَ الْحُسَامُ الْعَضْبُ أُصْدِئَ مَتْنُهُ ... وَعُطِّلَ مِنْهُ مَضْرَبٌ وَذُبَابُ [4]

وَمَا السَّيْفُ مِمَّا يُسْتَبَانُ مَضَاؤُهُ ... إِذَا حَازَ جَفْنٌ حَدَّهُ وَقِرَابُ

وَإِنَّ الَّذِى أَمَّلْتُ كُدِّرَ صَفْوُهُ ... فَأَضْحَى الرِّضَا بِالسُّخْطِ مِنْهُ يُشَابُ

وَقَدْ أَخْلَفَتْ مِمَّا ظَنَنْتُ مَخَايِلٌ ... وَقَدْ صَفِرَتْ مِمَّا رَجَوْتُ وِطَابُ

فَمَنْ لِى بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ عَلَيْهِمُ ... إِذَا لَجَّ بِالْخَصْمِ الْأَلَدِّ شِغَابُ

لِيُخْزِهِمْ إِنْ لَمْ تَرِدْنِى نَبْوَةٌ ... يُسَاءُ الْفَتَى مِنْ مِثْلِهَا وَيُرَابُ

---

(١) الفواغر : جمع فاغره من فغرفاه إذا فتحه أراد بها المخاوف ، والثقاب : ما أثقبت به النار[و]اشعلتها به من صمار الميدان . يقول : نفسى تداؤك ، كم ألق الكوارث من أعداء خبثاء دوى مكر خفى فى تدبير الفتن ، ودهاء فى نصب الشراك . (٢) لصاب : بالكسر من لصب الجلد باللحم لزق به من شدة الهزال يريد ان ما يحملونه من ضغن له قدح فى صدورهم كلذع الأفاعى سبب لهم الهزال .

(٣) الصريمة : العزيمة وقطع الأمر ، والنهاب : بالكسر الغنائم جمع نهب .

(٤) مضرب السيف : بالفتح والكسر ، وذبابه : بالضم حده .

فَقَدْ تَتَغَشَّى صَفْحَةَ الْمَاءِ كُدْرَةٌ ... وَيَغْطُو عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ ضَبَابُ (١)

سُرُورُ الْغِنَى مَا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ حَسْرَةٌ ... وَأَرْىُ الْمُنَى مَا لَمْ تُنَلْ بِكَ صَابُ (٢)

وَإِنْ يَكُ فِى أَهْلِ الزَّمَانِ مُؤَمَّلٌ ... فَأَنْتَ الشَّرَابُ الْعَذْبُ وَهْوَ سَرَابُ

أَيُعْوِرُ مِنْ جَارِ السَّمَا كَيْنِ جَانِبٌ ... وَيُعْمِزُ فِى ظِلِّ الرَّبِيعِ جَنَابُ (٣)

فَأَيْنَ ثَنَاءٌ يَهْرَمُ الدَّهْرُ كَبْرَةً ... وَحِلْيَتُهُ فِى الْغَابِرِينَ شَبَابُ

سَأَبْكِى عَلَى حَظِّى لَدَيْكَ كَمَا بَكَى ... رَبِيعَةُ لَمَّا ضَلَّ عَنْهُ ذُؤَابُ

وَأَشْكُو نُبُوَّ الْجَنْبِ عَنْ كُلِّ مَضْجَعٍ ... كَمَا يَتَجَافَى بِالْأَسِيرِ طِرَابُ (٤)

فَثِقْ بِهِزَبْرِ الشِّعْرِ وَاصْفَحْ عَنِ الْوَرَى ... فَإِنَّهُمُ - إِلَّا الْأَقَلَّ - ذُبَابُ

وَلَا تَعْدِلِ الْمُثْنِينَ بِى فَأَنَا الَّذِى ... إِذَا حَضَرَ الْعُقْمُ الشَّوَارِدُ غَابُوا

يَنُوبُ عَنِ الْمُدَّاحِ مِنِّىَ وَاحِدٌ ... جَمِيعُ الْخِصَالِ لَيْسَ عَنْهُ مَنَابُ

وَرَدْتُ مَعِينَ الطَّبْعِ إِذْ زِيدَ دُونَهُ ... أُنَاسٌ لَهُمْ فِى حَجْرَتَيْهِ لُوَابُ (٥)

وَنَجَّذَنِى عِلْمٌ تَوَالَتْ فُنُونُهُ ... كَمَا يَتَوَالَى فِى النِّظَامِ سِخَابُ (٦)

فَمُدَّ بِيَدٍ بَيْضَاءَ يَصْدَعُ صِدْقُهَا ... وَإِنَّ أَرَاجِيفَ الْعُدَاةِ كِذَابُ

وَحَاشَاكَ مِنْ أَنْ تُسْتَمَرَّ مَرِيرَةٌ ... لِمَهْدِكَ أَوْ يَخْفَى عَلَيْكَ صَوَابُ (٧)

---

(١) غطا يغطو : ستر والضباب سحاب رقيق يشبه الدخان .

(٢) الأرى : العسل ، والصاب : شجر مر واحدته صابه .

(٣) يعور : من أعور المكان إذا بدت منه عورة ، ويعمز : أى صاب ومنه المعزاء للأرض الصلبة .

(٤) الطرب : كتف ما بأ من الحجارة وحد طرفه والجمع طراب بالكسر .

(٥) زيد : بالبناء للمجهول منع ، والحجرة : بفتح فسكون الناحية ، ولواب : بالضم عطش ، والمعنى : أنه طبع على الشعر وورد معين الطبع فى حين أن غيره من الشعراء حبس عن وروده فله فى جانبيه لواب أى عطش

(٦) المنجذ : كمعظم الذى جرب الأمور وقاسها بعقله وعلمته التجارب ومثله المنجد بالدال المهملة ، والسخاب : بالكسر العقد . (٧) المرير : والمريرة الحبل ، والاستمرار إحكام فتله ، يقول حاشاك أن أدعوك إلى إصلاح حادث من عهدك ، أو يخفى عليك وجه الصو

بعـــد خمسمائة يوم فى السجن

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة فى مدح ابن جهور واستعطافه ، وقد وردت فى آخر رسالته الجدية التى بعث بها إلى ابن جهور [1] بعد أن مهد لتلك القصيدة بقوله مخاطبا ابن جهور :

وإنك إن سنيت عقد أمرى تيسر [2] ، ومتى أعذرت [3] فى فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة ، وفضل الجاه تعود به صدقة [4]

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعة من جاهه ، فكأنها من ماله

لعلى ألقى العصا بذراك [5] ، وتستقر بى النوى فى ظلك ، وأستأنف التأدب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجال لحظه [6] ، ولا أدع لقادح مساغ لفظه ، والله ميسرك من إطلابى [7] بهـذه الطلبة ، واشكائى من هـذه الشكوى لصنيعة تصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها أحفظ مستودع ، حسبما أنت خليق له ، وأنا منك حرى به ، وذلك بيده ، وهين عليه .

ولما توالت غرر هذا النثر واتسقت [8] درره ، فهز عطف غلوائه ، وجر ذيل خيلائه [9] ، عارضه النظم ماهيا ، بل كايده مداهيا ، حين أشفق من أن يعطفك استعطافه ، وتميل بنفسك الطافه ، فاستحسن العائدة منه ، واعتد بالفائدة له ، وما زال

---

(١) وقد أثبتنا هذه الرسالة فى مكان آخر من الكتاب فليرجع إليها القارئ إذا شاء .

(٢) أن يسرت ما تعقد من أمرى تيسر وسهل . (٣) قبلت العذر .

(٤) قال الشاعر :

قد نصت المنقول أن الشفقه على الصديق والعدو صدقه
وأفضل العالم عنـد الله من ساعد الناس بفضل الجاه
ومن أغاث البائس الملهوفا أغاثه الله إذا أخيفا

(٥) فى كنفك . (٦) فلا يجد الحاسد سبيلا إلى الشماتة بى وتمتعه بالنظر إلى وأنا منكوب

(٧) أسعافى وإنالتى ما أبتغيه . (٨) انتظمت . (٩) كبره وزهوه .

يستكد الذهن الطليل ، والخاطر الكليل حتى زف إليك عروسا مجلوة فى أثوابها ، منصوصه (١) بحليها وملابها (٢) وهاهى القصيدة»

أَلْهَوَى فى طلوعِ تِلْكَ النُّجُومِ　　وَالْمُنَى فى هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ

سَرَّنَا عَيْشُنَا الرَّقِيقُ الْحَوَاشِى　　لَوْ يَدُومُ السُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ

وَطَرٌ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقَضَّى　　زَمَنٌ مَا ذِمَامُهُ (٣) بِالْذَّمِيمِ (٤)

إِذْ خِتَامُ الرِّضَا الْمُسَوَّغِ مِسْكٌ　　وَمِزَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ

وَغَرِيضُ الدَّلَالِ (٥) غَضٌّ (٦) جَنَى الصَّبْوَةِ (٧) نَشْوَانُ مِنْ سُلَافِ (٨) النَّعِيمِ

طَالَمَا نَافَرَ الْهَوَى (٩) مِنْهُ غِرٌّ (١٠)　　لَمْ يَطُلْ عَهْدُ جِيدِهِ بِالتَّمِيمِ (١١)

* * *

أَيُّهَا الْمُؤْذِنِى بِظُلْمِ اللَّيَالِى　　لَيْسَ يَوْمِى بِوَاحِدٍ مِنْ ظَلُومِ (١٢)

قَمَرُ الْأُفْقِ ـ إِنْ تَأَمَّلْتَ ـ وَالشَّمْسُ هُمَا يُكْسَفَانِ دُونَ النُّجُومِ

---

(١) مرفوعة .

(٢) الملاب : الزعفران . قال الشاعر : « كالحقة الصفراء صاك عبيرها علابها »

(٣) ذمامه : عهده . (٤) لم ينقض لنا وطر من السرور تلك الحياة الناعمة والعيش الرغد حتى تولى ذلك الزمن غير مذموم العهد . (٥) وذلك الدلال اللطيف الحسن .

(٦) الغض : الطرى ، الناعم : الناضر . (٧) الهوى . (٨) خمر .

(٩) نافر الهوى : عاله . (١٠) لم يجرب الأمور .

(١١) التميم : جمع تميمة ، وهو العوذ : جمع عوذة . أى الخرزات ونحوها مما يعلق على الصبي ليبعد عنه العين ، وقد أنكر الإسلام ذلك ، وفى هذا يقول القائل :

وإذا المنية انشبت أظفارها　　ألفيت كل تميمة لا تنفع

ومعنى ذلك البيت : أن حبيبه قد عاصى الهوى وجافاه لأنه غر حدث لا يزال قريب العهد بالتمائم ، فهو لا ينفك كالغزال النافر لغرارته وحداثة عهده .

(١٢) أيها المخيفى بما تدخره لى الليالى من كيد ، رويدك لا تخفنى بذلك فلست بحانق يوما على دهرى لأنى ألفت منه الظلم دائماً

وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُّ يَنْحُو ... بِالمُصَابِ العَظِيمِ نَحْوَ العَظِيمِ (١)

***

بَوَّأَ اللهُ « جَهْوَراً » شَرَفَ السُّو ... دَدِ فِى السَّرْوِ (٢) وَاللُّبَابِ الصَّمِيمِ (٣)

وَاحِــدٌ سَلَّمَ الجَمِيعُ لَهُ الأَمْـ ... ـرَ، فَكَانَ الخُصُوصُ (٤) وَفْقَ العُمُومِ (٥)

قَلَّدَ الغُمْرُ (٦) ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ ... وَاكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ العَلِيمِ (٧)

خَطَرٌ يَقْتَضِى الكَمَالَ بِنَوْعَىْ ... خُلُقٍ بَارِعٍ وَخَلْقٍ وَسِيمِ (٨)

***

أَيُّهَا ذَا الوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو ... وَالعَصَا بَدْءُ قَرْعِهَا لِلْحَــلِيمِ (٩)

---

(١) أكثر الشعراء من ذكر هذا المعنى فى صور مختلفة ، وكادوا يذكرونه ببعض هذه الألفاظ ، وقد ذكره أبو تمام بأسلوب آخر فقال :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالســيل حرب للمكان العالى

ومنه قول أبى العلاء :

والخطب يهتاج الجليل وكم شكا ... نبأ على ، ما شكاه قنــبر

(٢) المروءة . (٣) المحض : الخالص . (٤) الخصوص : الخاصة ، قال الشاعر :

ابلغ خليــلى عبــد هــند فلا ... زلت قريباً من سواد الخصوص

(٥) اتفق الخاصة والعامة على تسليمه مقاليد الأمور (٦) الغمر : بالضم والفتح ، الذى لم يجرب الأمور

(٧) سلم الجميع مقاليد أمورهم إليه ، واتفق عامتهم وخاصتهم على الاعتراف له بالفضل فأولو العلم عرفوا بالعلم فضله ، ثم قلدهم فى ذلك الجاهلون ، واكتفى الغمر الجاهل بعلم الخبير المجرب ، قالوا : وابن زيدون ينظر من طرف خفى إلى قول البحترى :

ودوو الفضل مجمعون على فضـ ... ـلك من بين سيد ومسود

عرف العالمون فضلك بالعلـ ... ـم وقال الجهال بالتقليد

(٨) خطر : شرف وارتفاع قدر ، وعلوّ منزلة ، يقتضى الكمال : يستلزم الكمال وبلوغ الغاية لما أحرزه من جمال السجايا ، ووسامة الخلقة .

(٩) والعصا بدء قرعها للحليم : تضمين للمثل العربى المشهور : « إنّ العصا قرعت لذى الحلم » وهم يضربون هنا المثل للذكى الذى إذا نبهته انتبه

مَا عَنَانَا أَنْ يَأْنَفَ السَّابِقُ المَرْ ... بَطَ فِى الْعِتْقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ (١)

وَبَقَاءُ الْحُسَامِ فِى الْجَفْنِ يَثْنِى ... مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ

أَفَصَبْرٌ مِثْلِىَ خَمْساً مِنَ الْأَيَّا ... مِ، نَاهِيكَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمِ

وَمُعَنًّى مِنَ الضَّنَى بِهَنَاتٍ ... نَكَأَتْ بِالْكُلُومِ قَرْحَ الْكُلُومِ (٢)

سَقَمٌ لَا أُعَادُ فِيهِ وَفِى الْعَا ... ئِدِ أُنْسٌ يَنِى بِبُرْءِ السَّقِيمِ (٣)

نَارُ بَغْىٍ سَرَى إِلَى جَنَّةِ الْأَمْـ ... ـنِ لَظَاهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٤)

* * *

بِأَبِى أَنْتَ ـ إِنْ تَشَأْ ـ تَكُ بَرْداً ... وَسَلَامًا كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ (٥)

---

(١) السابق : الفرس ، المربط : اسم مكان ـ بكسر العين وفتحها ـ والعتق فى الخيل : الكرم ، والتطهيم : تمام الحسن فيها يشبه بعضه بعضه ـ وهو على هذه الحال من الاعتقال ـ بالسابق الذى سئم مكانه الذى ربط فيه ـ لعتقه وكرمه ، وقد وجد هذا البيت فى ديوانه على هذه الصورة :

. . . . يأنف المر ... بط فى العتق منه والتطهيم

فأكملناه مما ورد فى الروايات الأخرى .

(٢) المعنى : المحبوس من التعنية وهى الحبس الطويل ، والضنى : المرض الملازم ، والهنات : جمع هنة وهى الشدائد أو كنى بها عن الأشياء ، ونكأت : أى قشرت الجرح قبل أن يبرأ فأدمته ، والكلوم : الجراحات والمعنى : ومحبوس من المرض الملازم بسبب أشياء أدمت قرح جراحاته بجراحات أخرى ، يريد أن عناء السجن أضيف إليه عناء المرض فهو فى محبسين ، يعانى ألم شدتين .

(٣) أى مرض لا يعودنى فيه ـ وأما فى السجن ـ عائد وفى عيادة من يزورنى ما يكفى ويفى بشفائى لو أمكن ذلك

(٤) أى نار بغى وظلم استعر لظاها فى جنة الدعة والراحة والأمن فأصبحت كالصريم : أى كالليل فى السواد بعد الاحتراق ، وفيه تلميح إلى قصة أصحاب الجنة المذكورة فى قوله تعالى فى سورة القلم «إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين» الآيات ١٧ : ٣٣ وهم قوم كانت لأبيهم هذه الجنة فكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقى ، فلما مات رأى بنوه أن يستأثروا بما فيها لأنفسهم وعيالهم فحلفوا ليصرمنها مصبحين ، أى ليقطعن ثمارها مبكرين فى الصبح خفية عن أعين المساكين «فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم» أى احترقت فصارت فى السواد كفحمة الليل .

(٥) أفديك أنت أيها الممدوح بأبى ، إن تشأ تكن تلك النار التى سرت إلى جنة الأمن برداً وسلاما فلا تحترق كنار إبراهيم إذ قذف فيها بأمر نمرود فكانت برداً وسلاماً عليه فلم يحترق ، وفيه تلميح إلى قوله تعالى «قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم».

لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءِ ، وَالْحَمْدُ فِى صَوْ ... بِ الْحَيَا لِلرِّيَاحِ ، لاَ لِلْغُيُومِ (١)

وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذَلِّلَ لِى الصَّعْـ ... ـبَ مَثَابِى إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ (٢)

وَوِدَادٌ يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَا ... ءَ وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ

وَثَنَاءٍ أَرْسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظَّا ... عِنِ عَنْ شَوْقِهِ وَلَهْوَ الْمُقِيمِ (٣)

فَهْوَ رَيْحَانَةُ الْجَلِيسِ ـ وَلاَ فَخْـ ... ـرَ ـ وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ

لَمْ يَزَلْ مُغْضِياً عَلَى هَفْوَةِ الْجَا ... نِى مُصِيخاً إِلَى اعْتِذَارِ الْكَرِيمِ

وَمَتَى يَبْدَإِ الصَّنِيعَةَ يُولِعْـ ... ـكَ تَمَامُ الْخِصَالِ بِالتَّتْمِيمِ (٤)

---

(١) أى للشفيع الثناء والحمد لا للمشفوع إليه ، كما ان الحمد فى نزول المطر للرياح التى تؤلف بين الغيوم فينزل المطر بسببها لا لنفس الغيوم ، وهو كقول البحترى :

حار حدى وللرياح اللواتى ... تجلب الغيث مثل حمد الغيوم

(٢) كفيل بتذليل ما استصعب تذليله رجوعى إلى الهمام الرئيس . وقد ورد فى بعض النسخ البيت التالى بعد هذا البيت :

أمل يرغم الجفاء إليـــه ... وهو ثبت المقام ماضى العزيم

(٣) أى مدح أرسلته فسار على ألسنة الناس مسير المثل إذا تلاه الظاعن تسلى به عن شوقه إلى وطنه وحنينه إلى أهله ، وإذا تلاه المقيم كان فيه لهوه وأنسه .

(٤) أى متى يبتدئك بالجميل تغريك خصاله التامة ، وتحملك أخلاقه الكاملة على المطالبة بتتميم ما ابتدأك به من معروف ، وتكميل ما شرع فيه من صنيع يريد ــ بعبارة أوضح ــ أن ماله عليه من نعمة مبتدأة ، ويد سابقة يبعث فى نفسه أملا قويا فى إتمام تلك النعمة وانجاز ما وعده به ، وفى هذا المعنى يقول أبو تمام :

هذا سحاب أنت سقت غمامه ... فعليك ــ بعد الله ــ فيض غمامه

إنّ ابتداء العرف مجد باسق ... والمجد ــ كل المجد ــ فى استتمامه

وقريب منه قول المتنبى :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين على التمام

وقول القائل :

إذا أسديت مكرمة فأتمم ... فإن البدر يسطع بالتمام

من قصيدة صنعها ببطليوس [1]

« قال هذه القصيدة عند فراره من السجن والتجائه إلى بنى عباد باشبيلية سنة ٤٤١ هجرية ، وكان قد وافاه الفطر فالأضحى وهو على حاله من الذكرى والشوق إلى معاهد بقرطبة ، كان يخرج إليها فى العيد ، ويتفرج عنارهها ، ويلهو بمحاسنها مع من يهوى ، وقد أذكى تذكرها فى فؤاده لاعج الشوق ، وبه كأس الوجد ، فأخذ يذكرها معهداً معهداً ، ويصف ما حلفته فى نفسه من الأثر ، ويبين ما أثارته دواعي الذكرى فى قلبه من الصبابة والأسى والشوق ، ويقول صاحب قلائد العقيان فى هذه الأماكن التى يذكرها بعد : — « هذه معاهد لبنى أمية نعمت بها ليالى وأياما ، وطلت فيها الحوادث عنهم نياما ، فهاموا (بشرق العقاب) وشاموا به برقا يبدو من نقاب ، وسموا (بجوف الرصافه) ، وطعموا عيشا تولى الدهر حلاءه ورفافه ، وأسعدوا بصح الناصع ، وحمدوا أمس (مجلس ناصح) ، وعموا (بالزهراء) ، وصموا عن نبأ صاحب (الزوراء) حتى رحلهم الموت عنها وقوضهم ، وعوضهم منها ماعوضهم» إلى آخر ماقال » .

خَلِيـــلَىَّ لاَ فِطْرٌ يَسُرُّ وَلاَ أَضْحى ... فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقاً كَمَا أَضْحى

لَئِنْ شَاقَنِي (شَرْقُ الْعُقَابِ) فَلَمْ أَزَلْ ... أَخُصُّ بِمَمْحُوضِ الْهَوَى ذٰلِكَ السَّفْحَا [2]

وَمَا انْفَكَّ جُوفِيُّ (الرُّصَافَةِ) مُشْعِرِى ... دَوَاعِيَ ذِكْرَى تُعْقِبُ الْأَسَفَ الْبَرْحَا [3]

---

(١) بطليوس : بفتحتين وسكون اللام ، وياء مضمومة ، وسين مهملة مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر « آنه » غربى قرطبة كما فى معجم البلدان. (٢) العقاب : بالضم العلم الضخم والصخرة العظيمة فى عرض الجبل اسم موضع بقرطبة ، وممحوض الهوى : خالصه .

(٣) (جوفى الرصافه) : الجوفى بضم الجيم الواسع الجوف . قال فى اللسان وشىء جوفى أى واسع الجوف ، ودلاء جوف : أى واسعه ، و (الرصافة) : بضم ففتح اسم لعدة مواضع منها بالأندلس موضعان أحدهما بليدة صغيرة عند بلنسية ينسب إليها الرفاء الأندلسى الرصافى الشاعر المشهور والأخرى وهى التى ذكرها هنا عند قرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل أول ملوك الأندلس من بنى أمية وسماها برصافة جده هشام بن عبد الملك بن مروان التى كانت بالشام كما يؤخذ من ابن خلكان نقلا عن كتاب لياقوت الحموى اسمه « المشترك وضعا والمختلف صقعا » ، والبرح : بفتح فسكون العذاب والشدة وصف به الأسف مبالغة والمراد أنها تعقب أسفاً مبرحا شاقا شديدا

وَيَهْتَاجُ (قَصْرُ الْفَارِسِيِّ) صَبَابَةً　　لِقَلْبِيَ لاَتَأْلُو زِنَادَ الْأَسَى قَدْحَا [١]

وَلَيْسَ ذَمِيمًا عَهْدُ (مَجْلِسِ نَاصِحٍ)　　فَأَقْبَلَ فِي فَرْطِ الْوُلُوعِ بِهِ نُصْحَا

كَأَنِّيَ لَمْ أَشْهَدْ لَدَى (عَيْنِ شَهْدَةٍ)　　نِزَالَ عِتَابٍ كَانَ آخِرُهُ الْفَتْحَا [٢]

وَقَائِعُ جَانِيهَا التَّجَنِّي فَإِنْ مَشَى　　سَفِيرُ خُضُوعٍ بَيْنَنَا أَكَّدَ الصُّلْحَا [٣]

وَأَيَّامُ وَصْلٍ (بِالْعَقِيقِ) اقْتَضَيْتُهُ　　فَإِلاَّ يَكُنْ مِيعَادُهُ الْعِيدَ فَالْفِصْحَا [٤]

وَآصَالُ لَهْوٍ فِي مُسَنَّاةِ مَالِكٍ　　مُعَاطَاةَ نَدْمَانٍ إِذَا شِئْتُ أَوْ سَبْحَا [٥]

لَدَى رَاكِدٍ يُصْبِيكَ مِنْ صَفَحَاتِهِ　　قَوَارِيرُ خُضْرٌ خِلْتَهَا مُرِّدَتْ صَرْحَا [٦]

---

(١) يقول : تثير ذكرى قصر الفارسى لقلبي صبابة لاتفتر عن قدح زناد الحزن، والزناد: مايقتدح به النار

(٢) يعنى أنه غفر لمحبوبته فى هذا المكان حيث عتاب أحرز به نصراً عليها وفتحا .

(٣) التجنى ادعاؤها عليه ذنبا لم يفعله ، والسفير المصلح بين القوم ، والمعنى أن هناك وقائع جناها ادعاؤها الذنوب عليه كان خضوعه فيها رسول سلام لتوكيد الصلح بينهما . (٤) يقال اقتضيت الدين أى قبضته وأخذته ، والفصح بالكسر عيد النصارى ، والمعنى أن أياما معلومة من السنة كنت أحصل فيها (بالعقيق) على الوصل واقتضيه فى ميعاده كما يقتضى أى يقبض الغريم دينه ، فان لم يكن ذلك الاقتضاء موعده العيد فالفصح . (٥) الآصال : جمع أصيل وهو مابعد العصر إلى المغرب ، والمسناة : سدّ يبنى فى وسط الوادى لاحتجاز الماء ورد ما لايطلب منه ومنعه عن الجرى فى طريقه المعتاد ، له أبواب تفتح لاطلاق الماء بحسب الحاجة ، وهى العرم . قال فى الصحاح ، « والمسناة العرم لاواحد له من لفظه » ، والمعنى أنه يذكر تلك الأيام التى كان يلهو بها مع الأصيل فى تلك المسناة الملكية مرة بمعاطاة الراح إذا شاء ، وأخرى بالسبح والعوم فى الماء ، وهذا مما يثبت أنهم كانوا يبنون (الخزانات) لاخصاب الأرض وإمداد البرك بالماء بسد تطلبه . (٦) قال بعض المفسرين فى قوله تعالى (قيل لها ادخلى الصرح) . الصرح : بلاط اتخذ لها من قوارير . ومن معانى الصرح الساحة أيضا ، فكأنه أراد تشبيه ماء المسناة الراكد فى خضرته واستوائه بزجاج أخضر مرد (بالتشديد) أى ملس صرحا أى ساحة مستوية من زجاج

مَعَاهِدُ لَذَّاتٍ وَأَوْطَانُ صَبْوَةٍ ... أَجَلْتُ الْمُعَلَّى فِى الْأَمَانِى بِهَا قِدْحَا (١)

أَلَا هَلْ إِلَى (الزَّهْرَاء) أَوْبَةُ نَازِحٍ ... تَقَضَّى تَنَائِيهَا مَدَامِعَهُ نَزْحَا (٢)

مَقَاصِيرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَبَاتُهَا ... فَخِلْنَا الْعِشَاءَ الْجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحَا (٣)

يُمَثِّلُ قُرْطَيْهَا لِىَ الْوَهْمُ جَهْرَةً ... فَقُبَّتَهَا فَالْكَوْكَبَ الرَّحْبَ فَالسَّطْحَا (٤)

مَحَلُّ ارْتِيَاحٍ يُذْكِرُ الْخُلْدَ طِيبُهُ ... إِذَا عَزَّ أَنْ يَصْدَى الْفَتَى فِيهِ أَوْ يَضْحَى (٥)

---

(١) القدح : بكسر فسكون واحد السهام التى كانوا يستقسمون بها الجزور فى الميسر ، وكانت قداح الميسر عشرة ثلاثة منها غفل ، وسبعة من ذوات الانصباء ، وكان المعلى أوفرها حظا له سبعة أجزاء من الجزور ، فاذا أجال مخرج القداح يده فى الخريطة ، وأخرج المعلى باسم أحد المتقامرين كان هو الفائز بأكبر الأقسام وأوفر الحظوظ . يقول : هذه معاهد لذات قضيت فيها من اللذات ، وبلغت فيها من الأمانى ما جعل قدحى فيها المعلى . (٢) الزهراء من عجائب أبنية الدنيا أنشأها أبو المظفر عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى الملقب بالناصر أحد ملوك بنى أمية بالأندلس بالقرب من قرطبة فى سنة ٣٢٥ هـ والمسافة بينها وبين قرطبة ستة أميال تقريبا ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع ، وعرضها ١٥٠٠ ذراع ، وعدد السوارى التى فيها ٤٣٠٠ سارية ، وأبوابها نحو ١٥ بابا ، وكان الناصر ينفق على عمارتها ثلث جباية بلاد الأندلس التى كانت تبلغ فى ذلك الوقت نحو ستة ملايين من الدنانير ، وهى من أحسن مبانى الدنيا وأبدعها ، وقد أكثر أهل قرطبة فى وصفها وما قاله الشعراء فيها ، ولهم فى ذلك تصانيف ، والأوبة : الرجوع ، والنازح : البعيد ، وتقضى أخذ وتناول حقه من غريمه ، وهى المدامع هنا ، والنزح : من نزح البئر ، وهو استنزاف مائها ، ورأيت فى بعض النسخ (تقضت مبانيها مدامعه سفحا) (٣) المقصورة : ناحية من البناء على حيالها تقصر على الملك ، أو على صاحب الدار ، أو هى الدار الواسعة المحصنة ، وتجمع على مقاصر ومقاصير ، والجنبات : جمع جنبة كسجدة وسجدات ، وفى اللسان مايفيد اختلاف اللغويين فى إسكان النون وفتحها فى المفرد ، ونقل عن ابن جنى قوله : وقد غرى الناس بقولهم ، أنا فى فنائك وجنبتك بفتح النون قال والصواب إسكان النون ، واستشهد على ذلك بقول أبى صعترة البولانى :

فما نطفة من حب مزن تقاذفت ... بها جنبتا الجودى والليل دامس

بأطيب من فيها وما ذقت طعمها ... ولكننى فيما ترى العين فارس

والجون : هنا الأسود ، والمعنى أن تلك المقاصير أضيئت نواحيها بالمصابيح والسرج ، فخلنا العشاء فى داخلها صبحا

(٤) يمثل له الوهم هذه المواضع من الزهراء كأنه يراها جهرة (٥) فى بعض النسخ عن بدل من وفى بعضها يغذى بدل يصدى ، ولعلها مصحفة عن يعرى ، والأشبه بالصواب ما هنا ، ومعنى البيت أن

هُنَاكَ الْجِمَامُ الزُّرْقُ تَنْدَى حِفَافُهَا   ظِلاَلٌ عَهِدْتُ الدَّهْرَ فِيهَا فَتًى سَمْحَا (١)

تَعَوَّضْتُ مِنْ شَدْوِ الْقِيَانِ خِلاَلَهَا   صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الْكَرَى ضَبْحَا (٢)

وَمِنْ حَمْلِيَ الْكَأْسَ الْمُفَدَّى مُدِيرُهَا   تَقَحُّمَ أَهْوَالٍ حَمَلْتُ لَهَا الرُّمْحَا

أَجَلْ إِنَّ لَيْلِي فَوْقَ شَاطِئِ نِيطَةٍ   لأَقْصَرُ مِنْ لَيْلِي بِآنَةَ فَالْبَطْحَا (٣)

فى الغـــزل

عَلاَمَ صَرَمْتَ حَبْلَكَ مِنْ وَصُولٍ   فَدَيْتُكَ وَاعْتَزَزْتَ عَلَى ذَلِيلِ (٤)

وَفِيمَ أَنِفْتَ مِنْ تَعْلِيلِ صَبٍّ   صَحِيحِ الْوُدِّ ذِى جِسْمٍ عَلِيـــلِ

فَهَلاَّ عُدْتَنِي إِذْ لَمْ تَعُدْنِي   بِشَخْصِكَ بِالْكِتَابِ أَوِ الرَّسُولِ (٥)

لَقَــدْ أَعْيَا تَلَوُّنُكَ احْتِيَالِي   وَهَلْ يُغْنِي احْتِيَالٌ فِى مَلُولِ (٦)

الزهراء محل ترتاح النفس إليه يذكر طيبه جنة الخلد حيث يمتنع أن يصـدى الفتى أى يعطش أو يضحى أى يبرز للشمس ، وفيـه الاشارة إلى قوله تعالى « إنّ لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » ولا شكّ أن الجوع ، والعرى ، والظمأ ، وعدم السكن أركان الشقاء فى هذه الحياة وبدونها يكون النعيم والراحة والسعادة ، وأنّ الشخص فى الحياة الدنيا معنى بطلب هذه الأشياء بخلافه فى دار النعيم والخلد ، وقد توفرت له فى الزهراء أسباب الراحة والنعيم فاذكره ذلك جنة الخلد .

(١) الجمام : جمع جمة ، وهى مكان اجتماع الماء ، والزرق : صفة للجمام بمعنى المياه المجتمعة ، وحفافها : جوانبها وما يطيف بها من حولها ، والمعنى هناك فى الزهراء البرك ذات الأمواه الزرق تظللها جنانها وحولها ظلال بليلة ندية (٢) أي أبدلت من سماع صوت المغنيات خلال تلك النوادى الآهلة بأنواع الطرب سماع صدى هذه الفلوات المخيفة يتردد فيها ضبح العاديات من الخيل فيطير النوم من العين (٣) نيطه وآنه : نهران

(٤) يقول : لماذا قطعت حبل محب دائم الوصال لك ولماذا تكبرت على عبدك الخاضع الذليل .

(٥) هلا عدتنى بالكتاب أو الرسول إذ لم يكن من عادتك أن تعودنى بشخصك .

(٦) من أجمل ما قرأناه فى هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

لو كنت عاتبة لسكن لوعتى   أملى رضاك وزرت غير مراقب

لكن مللت فليس لى من حيلة   صدّ الملول خلاف صدّ العاتب

وقريب منه قول ابن الرومى :

ولكنكم كنتم تريدون علة   فهاجكم أدنى عتاب إلى الصد

أردت صلاح القلب باليد فانبرى   لنا ظلمكم فاستفسد القلب بالبعد

بين صـــديقين

«كتب اليه ذو الوزارتين أبو عامر معاتبا :

تباعدنا على قرب الجوار
كأنا صدنا شحط المزار
تطلع لى هلال الهجر بدرا
وصار هلال وصلك فى سرار
وشاع شنيع وصلك لى وهجرى
فهلا كان ذلك فى استتار
أيجمل أن ترى عنى صدورا
وأصبح مولعا دون اصطبار
ولما أن هجرت وطال غمرى
عقرت هموم نفسى بالعقار
وكنت أريد سمعك من عتابى
ولكن عاقنى قرب الجار
فراع مودتى واحفظ جوارى
فان الله أوصى بالجوار
وزرنى معلما من غير أمر
وآنس موحشا من عقر دار

فجاوبه ابن زيدون : »

هَوَايَ ـ وَإِنْ تَنَاءَتْ عَنْكَ دَارِي ـ ... كَمِثْلِ هَوَايَ فِي حَالِ الْجِوَارِ
مُقِيمٌ لَا تُغَيِّرُهُ عَوَادٍ ... تُبَاعِدُ بَيْنَ أَحْيَانِ الْمَزَارِ
رَأَيْتُكَ قُلْتَ : إِنَّ الْوَصْلَ بَدْرٌ ... مَتَى خَلَتِ الْبُدُورُ مِنَ السِّرَارِ (١)
وَرَابَكَ أَنَّنِي جَلْدٌ صَبُورٌ ... وَكَمْ صَبْرٍ يَكُونُ عَنِ اضْطِرَارِ (٢)

---

(١) متى أقررت أن الوصل بدر فأنت خليق أن تعلم أن للبدر ـ لا شك ـ محاقا فهو إذا اكتمل نموه فى وسط الشهر لحقه المحاق فى آخره .

(٢) إن صبرى ليس طبيعيا ولكنى اتكلفه اضطرارا إليه لأنى لا أجد مندوحة عنه .

وَلَمْ أَهْجُرْ لِعَتْبٍ غَـيْرَ أَنِّى ... أَضَرَّتْ بِى مُعَاقَرَةُ الْعُـقَارِ

وَأَنَّ الْخَمْرَ لَيْسَ لَهَا خِمَارٌ (١) ... تُبَرِّحُ بِى ، فَكَيْفَ مَعَ الْخِمَارِ (٢)

* * *

وَهَلْ أَنْسَى لَدَيْكَ نَعِيمَ عَيْشٍ ... كَوَشْيِ الْخَدِّ طُرِّزَ بِالْعِذَارِ

وَسَاعَاتٍ يَجُولُ اللَّهْوُ فِيهَا ... مَجَالَ الطَّلِّ فِى حَدَقِ الْبَهَارِ (٣)

وَإِنْ يَكُ قَرَّ عَنْكَ الْيَوْمَ جِسْمِي ... ـ فُدِيتَ ـ فَمَا لِقَلْبِي مِنْ قَرَارِ (٤)

وَكُنْتَ عَلَى الْبِعَادِ أَجَلَّ عِلْقٍ (٥) ... لَدَىَّ ، فَكَيْفَ إِذْ أَصْبَحْتَ جَارِي ؟ (٦)

دعــــوة

« كتبها إلى ذى الوزارتين أبى عامر يدعوه إلى زيارته »

طَابَتْ لَنَا لَيْلَتُنَا الْخَالِيَهْ ... فَلْتُنْسِنَاهَا هٰذِهِ التَّالِيَهْ (٧)

أَبَا الْمَعَالِى نَحْنُ فِى رَاحَةٍ ... فَانْقُلْ إِلَيْنَا الْقَدَمَ الْعَالِيَهْ

لَيْلَتُنَا عَاطِلَةٌ إِنْ تَغِبْ ... عَنَّا ، فَزُرْنَا كَىْ تُرَى حَالِيَهْ

أَنْتَ الَّذِى لَوْ تُشْتَرَى سَاعَةٌ ... مِنْهُ بِدَهْرٍ لَمْ تَكُنْ غَالِيَهْ

---

(١) سورة . (٢) إذا كانت الخمر التى لا سكر فيها تبرح بى فما بالك بها إذا أسكرت .

(٣) البهار : نبت طيب الريح . (٤) إذا كان جسمى قد قرّ قراره بعيداً عنك فانّ قلبي لايزال يهفو إليك .

(٥) العلق : النفيس ، قال الشاعر :

« أبيت اللعن ان سكاب علق ... نفيس لا يعار ولا يباع »

(٦) إنك ـ مع البعاد الذى ينسى الألاف ـ كنت أجل مخلوق لدى ، فكيف أنساك وقد زادنى الجوار حبا فيك

(٧) لقد طابت ليلة أمس بقربك منا فلنكررها ، وليمدنا ما يغمرنا من السرور فى ليلتنا التالية ما نعمنا فى ليلتنا الماضية

قال فى الوزير الشيخ أبى الحزم

«بَنِي جَهْوَرٍ» أَحْرَقْتُمُ بِجَفَائِكُمْ ... جَنَانِي وَلَكِنَّ الْمَدَائِحَ تَعْبَقُ [1]

تَعُدُّونَنِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ [2] إِنَّمَا ... تَطِيبُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ [3] حِينَ يُحْرَقُ

***

قُلْ لِلْوَزِيرِ وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدْحِهِ ... زَمَناً فَكَانَ السِّجْنُ مِنْهُ ثَوَابِي

لَا تَخْشَ فِى حَقِّ بِمَا أَمْضَيْتَهُ ... مِنْ ذَاكَ فِيَّ وَلَا تَوَقَّ عِتَابِي [4]

لَمْ تُخْطِ [5] فِى أَمْرِي الصَّوَابَ مُوَفَّقاً ... هٰذَا جَزَاءُ الشَّاعِرِ الْكَذَّابِ

وصـــال

وَشَادِنٍ أَسْأَلُهُ قَهْوَةً [6] ... فَجَادَ بِالْقَهْوَةِ وَالْوَرْدِ [7]

فَبِتُّ أُسْقَى الرَّاحَ مِنْ رِيقِهِ ... وَأَجْتَنِي الْوَرْدَ مِنَ الْخَدِّ

---

(١) عبق : الطيب يعبق من باب فرح بقيت رائحته زمانا ، يقول بالرغم من أنكم أحرقتم فؤادى بنار الجفاء ، وقابلتم شكواى بعدم الاصغاء ، فان مديحى باق فيكم ملازم لكم ملازمة الطيب صاحبه .

(٢) الزعفران لحمرته . (٣) ما ينبعث منه عند الاحراق من الروائح الطيبة ، والمعنى : تجعلوننى فى عداد ما يحرق من الطيب الذى ليس لكم من إحراقه إلا طيب أنفاسه . قال ابن بسام عند إيراده هذين البيتين ، وأراه توارد مع أبى علىّ بن رشيق القيروانى حيث يقول :

أراك اتهمت أخاك الثقه ... وعندك مقت وعندى مقه

وأنى عليك وقد سؤتنى ... كما طيب العود من أحرقه

وأخذاه معا من قول أبى تمام :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

(٤) لا تخش فى حق لوما بما أمضيته فىّ من حكم السجن ولا تتوق عتابى فانى أنا الحقيق باللوم والعتاب

(٥) أبدل الهمزة من الياء وحذفها للجازم كما يحذفها من المعتل وأصله لم تخطئ ، يقول : لم تعد فى أمرى الصواب وقد وفقت فى حكمك علىّ بالسجن بعد أن انقطعت زمانا لمدحك ، وهذا جزاء من يكذب فى شعره ويمدح من لا يستحق المدح ، وقريب من هذا الهجاء قول ابن الرومى :

إن كنت من جهل حقى غير معتذر ... وكنت من رد مدحى غير متئب

فأعطنى ثمن الطرس الذى كتبت ... فيه القصيدة أو كفارة الكذب

(٦) خمرا : يعنى خمر ريقه . (٧) أى ورد وجنته .

وقال معاتبا من قصيدة أولها

بَنَيْتَ فَلاَ تَهْدِمْ وَرِشْتَ[1] فَلاَ تَبْرِى   وَأَمْرَضْتَ حُسَّادِى وَحَاشَاكَ أَنْ تُبْرِى[2]

أَرَى نَبْوَةً لَمْ أَدْرِ سِرَّ اعْتِرَاضِهَا   وَقَدْ كَانَ يَجْلُو عَارِضَ الْهَمِّ أَنْ أَدْرِى[3]

جَفَاءٌ هُوَ اللَّيْلُ ادْلَهَمَّ ظَلاَمُهُ   فَلاَ كَوْكَبٌ لِلْعُذْرِ فِى أُفْقِهِ يَسْرِى[4]

هَبِ الْعَزْلَ أَضْحَى لِلْوِلاَيَةِ غَايَةً   فَمَا غَايَةُ الْمُوفِى مِنَ الظِّلِّ أَنْ يُكْرِى[5]

فَفِيمَ أَرَى رَدَّ السَّـلاَمِ إِشَارَةً   تُسَوِّغُ بِى إِزْرَاءَ مَنْ شَاءَ أَنْ يُزْرِى[6]

أُنَاسٌ هُمُ أَخْشَى لِلَذْعَةِ مِقْوَلِى   إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّا فَعَلْتَ لَهُمْ مُضْرِ[7]

فَإِنْ عَاقَتِ الْأَقْدَارُ فَالنَّفْسُ حُرَّةٌ   وَإِنْ تَكُنِ الْعُتْبَىٰ فَأَحْرِ بِهَا أَحْرِ

موقف وداع

وَلَمَّا الْتَقَيْنَا لِلْوَدَاعِ غُدَيَّةً   وَقَدْ خَفَقَتْ فِى سَاحَةِ الْقَصْرِ رَايَاتُ

وَقُرِّبَتِ الْجُرْدُ الْعِتَاقُ[8] وَصُفِّقَتْ[9]   طُبُولٌ وَلاَحَتْ لِلْفِرَاقِ عَلاَمَاتُ

بَكَيْنَا دَمًا حَتَّى كَأَنَّ عُيُونَنَا   لِجَرْىِ الدُّمُوعِ الْحُمْرِ فِيهَا جِرَاحَاتُ

وَكُنَّا نُرَجِّى الْأَوْبَ بَعْدَ ثَلاَثَةٍ   فَكَيْفَ وَقَدْ كَانَتْ عَلَيْهَا زِيَادَاتُ

---

(١) من راش صديقه كساه وأصلح حاله .   (٢) من البرء : وهو الشفاء من المرض .

(٣) أرى جفوة لم أدر سرّ اعتراضها أى منعها الود من أن يسير فى طريقه الأول ، وقد يكشف ماعرض لى من الهم والحزن بسبب ذلك أن أعرف سرّ تلك النبوة والجفوة .

(٤) جفاء كالليل اشتدّ ظلامه فلم يسر فى أفقه كوكب عذر واضح . وفى الأصل :

« حياء هو الليل ادلهمّ ظلامه »

(٥) أكرى : الظل يكرى نقص ، والمعنى : هب العزل أضحى خاتمة ماوليته من عمل فلا ينبغى أن تكون غاية ما أوفى علىّ من ظلك ورعايتك أن يكرى أى ينقص .   (٦) معنى البيت : فى أى ذنب أراك تشير بالسلام إشارة تسيغ وتجوز لمن شاء أن يزرى بى الازراء بى والتحقير لشأنى .

(٧) أضراه : بالصيد ونحوه أغراه به فهو مضر أى مغر ، يقول : أولئك الزارون علىّ المحقرون لشأنى أناس هم أخوف الناس من لسانى لو لم تكن مما فعلته معى قد أضريتهم بى وأغريتهم بالزراية على

(٨) الجياد الكريمة   (٩) دقت الطبول إيذاناً بالمسير

وقال أيضا يمدح أبا الوليد بن جهور

هَلْ عَهِدْنَا الشَّمْسَ تَعْتَادُ الْكِلَلْ (١) أَمْ عَهِدْنَا الْبَدْرَ يَجْتَابُ (٢) الْحُلَلْ
أَمْ قَضِيبُ الْبَانِ يَعْنِيهِ الْهَوَى أَمْ غَزَالُ الْقَفْرِ يُصْبِيهِ الْغَزَلْ (٣)
خَرَقَ الْعَادَاتِ مُبْدِي صُورَةٍ حَشَدَ (٤) الْحُسْنُ عَلَيْهَا فَاحْتَفَلْ (٥)
مُشْرَبُ الصَّفْحَةِ مِنْ مَاءِ الصِّبَا مُشْبَعُ الْوَجْنَةِ مِنْ صِبْغِ الْخَجَلْ
مَنْ عَذِيرِي (٦) مِنْهُ إِنْ أَغْبَبْتُهُ (٧) نَسِيَ الْعَهْدَ وَإِنْ عَاوَدْتُ مَلّْ

---

(١) جمع كلة بالكسر ، وهى ستر رقيق يخاط كالبيت يتوقى فيه من البعوض ونحوه ، وتقدم هذا المعنى عند قوله فى القصيدة النونية :

كانت له الشمس ظئرا فى أكلته بل ما تجلى لها إلا أحايينا

(٢) يجتاب يلبس من قولهم : اجتاب القميص إذا لبسه ، وشاهده قول لبيد :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى واجتاب أردية السراب إكامها

أى لبست الاكام أردية السراب ، والحلل بالضم جمع حلة أثبت أن من يهواه شمس وأنه بدر على الحقيقة ، وتعجب من احتجاب الشمس فى الكلل ، واجتياب أى لبس البدر الحلل ، وأنكر أن يكون ذلك معهودا فى العادة . (٣) يصبيه : يهيمه ، ويصبيه : يشوقه ويدعوه إلى الصبا والحنين إلى من يحب ، والغزل : مغازلة النساء ومحادثتهن ، أى ولم نعهد أيضا أن الهوى يهيم قضيب البان ، وأن المغازلة تدعو غزال القفر إلى الصبا فيحن إلى من يهوى . (٤) اجتمع .

(٥) احتشد واجتمع : أى أتى بالمعجزات ذلك الذى طلع علينا بصورته الفائقة الجامعة لفنون الحسن ، الحافلة بأنواع الجمال .

(٦) يقال من عذيرى من فلان أى من نصيرى ، ويقال : عذير فلان بالنصب أى هات عذرا له ، ومنه قول ذى الاصبع العدوانى :

عذير الحى من عدوا ن كانوا حية الأرض
بغى بعض على بعض فلم يرعوا على بعض

أى هات عذرا فيما فعل بعضهم ببعض من البغى ، والقتل ، والتباعد ، والتباغض ، ولم يرع بعضهم على بعض بعد ما كانوا حية الأرض التى يحذرها كل أحد ، ويقال عذيرى من فلان أى من يعذرنى ، ومنه قول الآخر :

عذيرى من الانسان لا إن جفوته صفا لى ولا إن كنت طوع يديه
وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

(٧) من الغب فى الزيارة ، أى جئته زائرا يوما وتركته يوما أو أكثر يقال : « زر غبا تزدد حبا » وفى اللسان : « الغب فى الزيارة قال الحسن فى كل أسبوع »

قائِلٌ لِي بِالتَّجَنِّى، مَا لَهُ لَيْتَ شِعْرِي أَحَلَالٌ مَا أَسْتَحَلّ ؟

***

أَيُّهَا الْمُخْتَالُ (١) فِي زِينَتِهِ أَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْخَالِ (٢) فَخَلْ (٣)

لَكَ إِنْ أَدْلَلْتَ (٤) عذرٌ وَاضِحٌ كُلُّ مَنْ ساعَفَهُ (٥) الْحُسْنُ أَدَلّ

سَبَبُ السُّقْمِ الَّذِي بَرَّحَ بِي صِحَّةٌ كَالسُّقْمِ فِي تِلْكَ الْمُقَلْ (٦)

إِنَّ مَنْ أَضْحَى أَبَاهُ « جَهْوَرٌ » قالَتِ الآمَالُ عَنْهُ فَفَعَلْ (٧)

مَلِكٌ لَذَّ جَنَى الْعَيْشِ بِهِ حَيْثُ وِرْدُ الْأَمْنِ لِلصَّادِي عَلَلْ (٨)

---

(١) ذو الخيلاء المعجب بنفسه المتباهي بزينته وحاله .

(٢) الخال له معان كثيرة منها الخيلاء ، وهو المراد هنا ، وقد أورد صاحب اللسان عن ابن برى أبياتاً في معاني الخال ، والمناسب منها لما نحن فيه قوله :

وإذ أنا حذف للهوى أخي الصبا وللغزل المريح ذي اللهو والخال

أي الخيلاء . (٣) أي كن ذا خيلاء وزهو وتكبر ، من خال يخال بمعنى اختال ، ومنه بيت الحماسة :

فان كنت سيدنا سدتنا وإن كنت للخال فاذهب فخل

معناه : إن فعلت ما يوجب لك السيادة علينا سدتنا ، وإن حاولت أن تسودنا لمجرّد الكبر والاختيال فاذهب فاختل ما شئت أن تختال ، فمالك لن تستطيع أن تسودنا حينئذ ، ومعنى البيت الذي نحن بصدده : أيها المختال المزهو صلفا وكبرا بزينته وحاله كن ذا خيلاء وفخر وإعجاب فأنت أولى الناس بذلك لفرط جمالك .

(٤) يقال أدل عليه وتدلل : انبسط واجترأ وتجنى في غير موضع تجن .

(٥) ساعده وواتاه وأسعفه باجتماع أسبابه لديه ، ومعنى البيت : إن أفرطت في الدالة على ثقة بعشق لك ، واعتدادا بمساعفة الحسن ومواتاته لك في الإدلال عذر واضح .

(٦) يقول : أن سبب الضنى والسقم الذي اشتد بي تبريحه وأذاه فتور في لحظ تلك العيون الصحيحة المريضة ، وهذا معنى مطروق للشعراء ، ومن أحسن ماجاء في مرض العيون قول ابن المعتز :

عليم بما تحت الصدور من الهوى سريع بكر الطرف والقلب جازع

ويجرح أحشائي بعين مريضة كما لان متن السيف والسيف قاطع

(٧) يعني أن « ابن جهور » : إذا قالت الآمال عنه قولا صدق قولها فعله .

(٨) شرب بعد شرب .

أَحْسَنَ الْمُحْسِنُ مِنَّا فَجَــزَى مِثْلُ مَا لَجَّ مُسِيءٌ فَاحْتَمَلْ [١]

سَــعْيُهُ فِى كُلِّ بِرٍّ مَثَلٌ [٢] إِذْ مَسَاعِي مَنْ يُنَاوِيهِ [٣] مُثُلْ [٤]

لاَ يَزَلْ مِنْ حَاسِدِيهِ مُكْثِرٌ أَوْ مُقِلٌّ ، سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلْ [٥]

***

« يَا بَنِي جَهْوَرٍ » الدُّنْيَا بِكُمْ حَلِيَتْ أَيَّامُهَا بَعْدَ الْعَطَلْ [٦]

إِنَّمَا دَوْلَتُــكُمْ وَاسِــطَةٌ [٧] أَهْدَتِ الْحُسْنَ إِلَى عِقْدِ الدُّوَلْ

نَحْنُ مِنْ نَعْمَائِكُمْ فِى زَهْرَةٍ جَدَّدَتْ عَهْدَ الرَّبِيعِ الْمُقْتَبَلْ [٨]

طَابَ كَانُونٌ [٩] لَنَا أَثْنَاءَهَا فَــكَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ بِالْحَمَلْ [١٠]

زَهَرَتْ أَخْلاَقُــكُمْ فَابْتَسَمَتْ كَابْتِسَامِ الْوَرْدِ عَنْ لُؤْلُؤِ طَلّْ

---

(١) أحسن المحسن منا بجزاء وكافأه على إحسانه ، كما تكررت إساءة المسىء فاحتملها عفوا منه وكرما .

(٢) أى كالمثل السائر يشيع فى الناس ذكره ، ويحمد أثره .

(٣) يعاديه ويناديه. (٤) جمع مثال ، أى أمثلة وصور يقول أن مساعي الممدوح فى صلة الناس بأنواع البر والاحسان أصبحت مضرب الأمثال ، فى حين أن مساعي أعدائه المناوئين له صور حائلة أماثل — كالترى — لم يشع لها ذكر ولم يعرف عنها أثر . (٥) يدعو باستمرار حاسديه على الاكثار أو الاقلال من لومه على مايصيبه على رءوسهم من ويلات ، وينزله بهم من عقوبات ويقول « سبق السيف العذل » أى فلا معنى للوم أكثر الأعداء منه أم أقلوا ، وهو مثل مشهور يضرب للأمر الذى فات فلم يمكن تداركه .

(٦) مصدر عطلت المرأة كفرح لم يكن عليها حلى ، وهو ضدّ « حليت » .

(٧) هى الدرّة التى فى وسط العقد وتعد أنفس جوهرة فيه .

(٨) يقول : نحن قد حللنا من نعمائكم فى بهجة من الزمان ، ونضرة من الحياة ، جددت لنا عهد الربيع عند استقبال أيامه ، وتجدد أوانه ، والربيع عند العرب ربيعان . الربيع الذى فيه النور والكلأ ، والربيع الذى تدرك فيه الثمار . (٩) شهر ، وهو اثنان : كانون الأول ، وكانون الثانى .

(١٠) الحمل : برج من بروج السماء

***

أَيُّهَا الْبَحْــرُ الَّذِى مَهْمَا تَفِضْ   بِالنَّدَى[١] عُمْنَاهُ فَالْبَحْرُ وَشَلْ[٢]

مَنْ لَنَا فِيكَ بِعَيْبٍ وَاحِــدٍ   تُحْذَرُ الْعَيْنُ إِذَا الْفَضْلُ كَمُلْ[٣]

شَرَفٌ تَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ بِهِ   مِثْلَ مَا يَغْنَى عَنِ الْكُحْلِ الْكَحَلْ[٤]

***

أَنَا غَرْسٌ فِى ثَرَى الْعَلْيَاءِ لَوْ   أَبْطَأَتْ سُقْيَاكَ عَنْــهُ لَذَبُلْ

لِىَ ذِكْرٌ بِالَّذِى أَسْــدَيْتَهُ   نَابِهٌ وَدَّ حَسُودٌ لَوْ خَمَلْ[٥]

فَلْيَمُتْ بِالدَّاءِ مِنْ حَالِ فَتًى   أَدَّبَتْهُ سِــيَرُ النَّاسِ الْأُوَلْ

فَوَعَى الْحِــكْمَةَ عَنْ قَائِلِهِمْ :   « الْزَمِ الصِّحَّةَ يَلْزَمْكَ الْعَمَلْ »

***

أَقْبَلَتْ نُعْمَاكَ تُهْدِى نَفْسَهَا   لَمْ أُرِغْ[٦] حَظِّىَ مِنْهَا بِالْحِيَلْ

فَقَبِلْتُ الْيَدَ[٧] مِنْ بَطْنِ يَدٍ   ظَهْرُهَا ـ الدَّهْرَ ـ مَحَــلٌّ لِلْقُبَلْ

كُلُّنَا يُبْلِغُ مَا أَمَّــلَهُ   فَابْلُغِ الْغَايَةَ مِنْ كُلِّ أَمَلْ

وَإِذَا مَا رَامَكَ الدَّهْرُ فَفُتْ   وَإِذَا رُمْتَ الْأَمَانِىَّ فَنَلْ

---

(١) الكرم .   (٢) ماء قليل يتحلب من جبل أو صخرة .

(٣) يقول من لنا بمن يعد فيك عيبا واحدا فإنا نحن نحذر عليك وقد كملت فضائلك عيون الحاسدين ، وهو نظير قول الآخر :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى   عيب يوقيــه من العــين

(٤) الكحل : محركة أن تسود مواضع الكحل من العين خلقة ، أى شرف تستغنى بسببه عن المدح كما تستغنى العين المكحولة خلقة عن التكحل بالكحل صناعة .   (٥) أسديته : أعطيته ، والذكر النابه : الشريف المشتهر ، وهو خلاف الخامل .   (٦) لم أطلب وفى الأصل : « لم أدع » .

(٧) الجميل .

مداعبـــة

« كتبها إلى أبي عبد الله بن القلاس البطليوس
يداعبه بها »

أَصِخْ لِمَقَالَتِي وَاسْمَعْ ... وَخُذْ ـ فيما تَرَى ـ أَوْ دَعْ
وَأَقْصِرْ ـ بَعْدَهَا ـ أَوْ زِدْ ... وَطِرْ ـ فى إِثْرِهَا ـ أَوْ قَعْ

***

أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْـ ... ـرَ يُعْطِي بَعْدَ مَا يَمْنَعْ
وَأَنَّ السَّعْيَ قَدْ يُكْدِي(١) ... وَأَنَّ الظَّنَّ قَدْ يَخْدَعْ
وَكَمْ ضَرَّ امْرَءًا أَمْرٌ ... تَوَهَّــمَ أَنَّهُ يَنْفَعْ

***

فَإِنْ يُجْدِبْ مِنَ الدُّنْيَا ... جَنَابٌ طَالَمَا أَمْرَعْ
فَمَا إِنْ غَاضَ لِي صَبْرٌ ... وَمَا إِنْ فَاضَ لِي مَدْمَعْ
وَكَائِنْ رَامَتِ الأَيَّا ... مُ تَرْوِيعِي فَلَمْ أَرْتَعْ(٢)
إِذَا صَافَقَنِيَ الْجُــلَّى ... تَجَلَّتْ عَنْ فَتًى أَرْوَعْ(٣)
عَلَى مَا فَاتَ لاَ يَأْسَى ... وَمِمَّـــا نَابَ لاَ يَجْزَعْ
تَدِبُّ إِلَيَّ مَا تَأْلُو ... عَقَارِبُ مَا تَنِي تَلْسَعْ

---

(١) يخفق ، وقد كرر هذا المعنى فى سينيته فقال :

« ولـكم أحـدى قعود ولـكم اكدى التماس »

(٢) حاولت الأيام أن تخيفنى فلم أخف .

(٣) أى أن المصائب لاتنال منه منالا ، صادت من صافه الهم إذا نزل به ، والجلى : الأمر العظيم والحادث المروع ، والأروع : الذكي الحديد الفؤاد الحى النفس ، والمعنى : إذا نزلت بى جلى الحوادث تكشفت عن فتى حاضر العقل حديد الفؤاد ، وفى الأصل « صابتى » من صاب السهم القرطاس بمعنى أصاب وهي لغة قليلة لا نظن أن ابن زيدون يلجأ إلى استعمالها مع غزارة مادته

كَأَنَّا لَمْ يُؤَالِفْنَا زَمَانٌ لَيِّنُ الْأَخْدَعْ (١)

إِذِ الدُّنْيَا ـ مَتَى نَقْتَدْ أَبِيَّ سُرُورِهَا ـ يَتْبَعْ (٢)

وَإِذْ لِلْحَظِّ إِقْبَالٌ وَإِذْ فِى الْعَيْشِ مُسْتَمْتَعْ

وَإِذْ أَوْتَارُنَا تَهْفُو وَإِذْ أَقْدَاحُنَا تُتْرَعْ (٣)

وَأَوْطَارُ الْمُنَى تُقْضَى وَأَسْبَابُ الْهَوَى تَشْفَعْ

فَمِنْ أُدْمَانَةٍ (٤) تَعْطُو (٥) وَمِنْ قُمْرِيَّةٍ تَسْجَعْ

أَعِدْ نَظَراً فَإِنَّ الْبَغْىَ مِمَّا لَمْ يَزَلْ يَصْرَعْ

وَلَا تُطِعِ الَّتِى تُغْوِيكَ، فَهْىَ لِغَيِّهِمْ أَطْوَعْ (٦)

تَقَبَّلْ ـ إِنْ أَتَى ـ خَطْباً وَأَنْفُ الْفَحْلِ لَا يُقْرَعْ (٧)

---

(١) يقول : إنك مولع الآن بالكيد والاساءة إلىّ متناسيا تلك الأيام التى ألف فيها بيننا الزمن المواتى ، حين كنا أحوين متآلفين ، وفى الأصل : « كأنا لم يولينا » .

(٢) وفى الأصل : « إذ الدنيا منى » . (٣) تملأ .

(٤) الأدمان ـ بالفتح ـ شجر الحمضة ، وهى أكبر من البقول وأصغر من الشجر ، الأدمانه : بضم فسكون قالوا إنه جمع إدماء كحمراء وهى الظبية الخالصة البياض ، قال ذو الرمة :

من المؤلفات الرمل أدماء حرة شعاع الضحى فى متنها يتوضح

وصحح بعض اللغويين أن أدمانة مفرد كخمصانة وإذن فهى مرادفة لأدماء ، وتعطوا : تتطاول إلى الشجر لتتناول منه . (٥) تميل .

(٦) دع غواية هذه الماكرة فإنها أطوع لغواية أعدائك ومنافسيك ولن تستطيع أن تتغلب على كيدهم وغوايتهم ، وفى الأصل : « فهى لبغيهم أطوع » .

(٧) قرع الأنف رمز للهوان ، قالوا : وخص الأنف بالضرب لأنه محل الأنفة والكبر والشمم .

والعرب تقول فى امثالها : « أنف الفحل لايقرع » وهى تقوله : للخاطب الكفء .

والأصل فحل الأبل إذا ضرب وجهه عن الناقة التى يريدون نتاجها منه .

قالوا : وتمثل به أبو سفيان بن حرب حين بلغه زواج النبى (صلى الله عليه وسلم) ابنته أم حبيبة فقال :

« ذاك الفحل لا يقرع أنفه » .

وفى الأصل : « وأنف النمل لا يقرع » يقول : إن العظيم لايهن عزمه أمام الخطوب والكوارث ، وليكن لك فى هـذا عزاء ولتتقبل أى خطب إن أتاك بصدر رحب ، فصبر واحد على تلك المرأة الغادرة التى لا قيمة لها ولا خطر

وَلاَ تَكُ مِنكَ تِلكَ ٱلدَّا ... رُ بِالمَرْأَى وَلاَ المَسْمَعْ

فَإِنَّ قُصَارَكَ ٱلدِّهْلِيـ ... ـزُ، حِينَ سِوَاكَ فِى المَضْجَعْ[1]

جَرِّبِ النَّاسَ وَٱمْتَحِنْ

خُنْتَ عَهْدِى وَلَمْ أَخُنْ ... بِعْتَ وُدِّى بِلاَ ثَمَنْ

قَائِلاً : « هَلْ مُزَايِدٌ ... رَابِحاً ؟ ثُمَّ مَنْ يَزِنْ[2] »

عُدَّتِى كُنْتَ لِلزَّمَا ... نِ، فَقَدْ خُنْتَ وَالزَّمَنْ[3]

أَرْخِصِ البَيْعَ كَيْفَ شِئْتَ ... وَذَرْنِى، لَتَنْدَمَنْ[4]

سَوْفَ تُبْلَى بِغَيْرِنَا، ... جَرِّبِ النَّاسَ وَٱمْتَحِنْ

---

(١) وتناس تلك الدار التى كانت ذكرياتها مبعث آلامك وأحزانك، فليس لك أمل فى اكتساب ودها، وقصارى ما تصل إليه أن تكون فى الدهليز حين ينعم غيرك بالمضجع.

(٢) بعت عهدى رخيصاً مع صدق ودادى لك، وأخذت تدلل عليه فى السوق زاهداً فيه باحثاً عمن يشتريه بأبخس الأثمان.

(٣) كنت عدتى التى أحارب بها الزمن فأصبحت حرباً علىّ أنت والزمن.

وقريب من هذا المعنى وأدق منه وأروع قول ابن الرومى:

« تخذتكمو درعاً حصيناً لتدفعوا ... سهام العدا عنى فكنتم نصالها

وقد كنت أرجو منكم خير ناصر ... على حين خذلان اليمين شمالها »

إلى أن يقول:

« قفوا وقفة المعذور عنى بمعزل ... وخلوا نبالى للعدا ونبالها »

وقول القائل:

« وإخوان حسبتهمو دروعاً ... فكانوها، ولكن للأعادى

وخلتهمو سهاماً صائبات ... فكانوها، ولكن فى فؤادى

وقالوا: « قد صفت منا قلوب ... لقد صدقوا، ولكن من ودادى »

(٤) ازهد فى ودى كما شئت فوالله لتندمنّ على زهادتك فىّ، وما أحلى قول ابن الرومى:

« وإذا امرؤ يودى أن يذال فإننى ... فى غير ذلك من الأمور أرخص

إياك لا تستغل ما أرخصته ... طرا، فأغلى منه ما لا أرخص

شترى منى استثارتى وطلبتى ... أنى سأزهد عند ذاك وتحرص »

فى مدح ابن جهـــور

« قالها فى مدح أبى الحزم بن جهور
أحد ملوك الطوائف »

هٰذَا الصَّبَاحُ عَلَى سُرَاكِ رَقِيبَا ... فَصِلِي بِفَرْعِكِ لَيْلَكِ الْغِرْبِيبَا (١)

وَلَدَيْكِ ـ أَمْثَالَ النُّجُومِ ـ قَلَائِدٌ ... أَلِفَتْ سَمَاءَكِ لَبَّةً وَتَرِيبَا (٢)

لِيَنُبْ عَنِ الْجَوْزَاءِ قُرْطُكِ كُلَّمَا ... جَنَحَتْ تَحُثُّ جَنَاحَهَا تَغْرِيبَا (٣)

وَإِذَا الْوِشَاحُ تَعَرَّضَتْ أَثْنَاؤُهُ ... طَلَعَتْ ثُرَيَّا لَمْ تَكُنْ لِتَغِيبَا (٤)

---

(١) سراك : سيرك ليلا ، الغربيب : الشديد السواد يقول كاد الصباح يفضحك فصلى سواد الليل بسواد شعرك ، أليس شعرك كالليل ، قال ابن بسام :

قوله : « فصلى بفرعك ليلك الغربيبا » من قول أبى الطيب :

« نشرت ثلاث ذوائب من شعرها ... فى ليـــلة فأرت ليالى أربعا »

وينظر إلى قول المعرى :

« يود أن ظلام الليل دام له ... وزيد فيه سواد القلب والبصر »

والتهامى :

« وتود لو جعلت سواد قلوبها ... وسواد أعينها ســواد عذار »

وقال محمد بن هانئ :

قد أظلموا بالهم منها بجرمهم ... فتكورت شمس النهار تعصبا
واستأنفوا نشأتها سحرا ، فلو ... عقدوا نواصيها أعادوا الغيهبا

(٢) اللبة موضع الحلية النحر ــ والتريب : واحد ترائب الصدر ، وهى موضع القلادة منه ــ والمعنى لديك قلائد شبيهة بالنجوم تسكن سماء النحر والصدر منك كما تسكن النجوم السماء ــ وأمثال النجوم بالنصب حال من قلائد النكرة متقدم عليه ، وهو الذى سوغ مجىء صاحب الحال نكرة ، قال ابن مالك :

« ولم ينكر غالبا ذو الحال إن * لم يتأخر » ومن شواهده قوله : « وما لام نفسى مثلها لى لائم » فمثلها بالنصب حال من لائم النكرة ، ويجوز أن يكون أمثال مبتدأ خبره لديك وقلائد بدلا منه .

(٣) الجوزاء : نجم يعترض فى جوز السماء أى وسطه ، شبه قرطها بالجوزاء وجنحت أى مالت مغربة كأنها طائر يحث جناحه . يقول أبيى عن الجوزاء قرطك إذا مالت مغربة لتغيب فى الأفق .

(٤) الوشاح : أديم ينسج عريضا ويرصع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها وتشبه الثريا إذا تعرضت أى سارت معوجة بالوشاح المعوجة أثناؤه ــ وأثناء الوشاح ما انثنى منه ، قال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل

أى أعوجت ولم تستقم فى سيرها اعوجاج ما انثنى من الوشاح على جارية الكشح به .

وَلَطَالَمَا أَبْدَيْتِ إِذْ حَيَّيْتِنَا   كَفًّا هِيَ الْكَفُّ الْخَضِيبُ خَضِيبَا

* * *

أَظَنِينَةً ، دَعْوَى الْبَرَاءةِ شَأْنُهَا   أَنْتِ الْعَدُوُّ فَلِمْ دُعِيتِ حَبِيبَا [(١)]

مَا بَالُ خَدِّكِ لَا يَزَالُ مُضَرَّجًا   بِدَمٍ وَلَحْظُكِ لَا يَزَالُ مُرِيبَا [(٢)]

لَوْ شِئْتِ مَا عَذَّبْتِ مُهْجَةَ عَاشِقٍ   مُسْتَعْذِبٍ فِي حُبِّكِ التَّعْذِيبَا

وَلَزُرْتِهِ ـ بَلْ عُدْتِهِ ـ إِنَّ الْهَوَى   مَرَضٌ يَكُونُ لَهُ الْوِصَالُ طَبِيبَا

مَا الْهَجْرُ إِلَّا الْبَيْنُ لَوْلَا أَنَّهُ   لَمْ يَشْحُ فَاهُ بِهِ الْغُرَابُ نَعِيبَا [(٣)]

---

(١) يا متهمة بقتل العاشقين يا مخضوبة الكف بدمائهم أنت العدو فكيف دعوت نفسك حبيبا .

(٢) مثله قول الحصرى :

« عيناك قد أغرته بدمى   وعلى خديك تورده »

(٣) شحا فاه يشحوه . فتحه ، والنعيب والنعاب : صوت الغراب ، ونعنى ما الهجر إلا البين إلا أن الغراب فى هذه المرة — لم يفتح فاه ليندرنا بذلك الهجر المميت ، والنعيب نذير الفراق عند العرب ، ويسمون الغراب الأبقع غراب البين ، قال عنترة :

« ظعن الذين فراقهم أتوقع   وجرى ببينهم الغراب الأبقع »

وقال النابغة الذبيانى :

« زعم الأحبة أن رحلتهم غدا   وبذاك تنعاب الغراب الأسود

لا مرحبا بغد ، ولا أهلا به   إن كان تفريق الأحبة فى غد »

وقال قيس ابن ذريح :

« ألا يا غراب البين ، قد طرت بالذى   أحاذر من لبنى فهل أنت واقع

وإنك لو أبلغتها : قيلى اسلمى   بكت حذرا وأرفض منها المدامع »

وقال المعرى :   « نبى من الغربان ليس على شرع   يخبرنا أن الشعوب إلى صدع

أصدقه فى مربه ، وقد امترت   صحابة موسى بعد آياته التسع »

وقال فى رثاء الشريف المرتضى :

« من شاعر للبين قال قصيدة   يرثى الشريف على روى القاف »

إلى آخر هذه الأبيات التى لا حاجة بنا إلى تقصيها .

وقد شذ أحد الشعراء فأنحى باللائمة على من مذهب هذا المذهب الخاطئ فى ذم الغراب ، وبرأه من تهمة التفريق ، فقال :

والناس يلحون غراب البين لما جهلوا

وهل غراب البين إلا ناقة أو جمل

وما على ظهر غراب البين تطوى الرحل

وَلَقَدْ قَضَى فِيكَ التَّجَلُّدُ نَحْبَهُ　　فَثَوَى وَأَعْقَبَ زَفْرَةً وَنَحِيبَا

وَأَرَى دُمُوعَ الْعَيْنِ لَيْسَ لِفَيْضِهَا　　غَيْضٌ إِذَا مَا الْقَلْبُ كَانَ قَلِيبَا

***

مَالِي وَلِلأَيَّامِ لَجَّ مَعَ الصِّبَا　　عُدْوَانُهَا فَكَسَا الْعِذَارَ مَشِيبَا

مَحَقَتْ هِلاَلَ السِّنِّ قَبْلَ تَمَامِهِ　　وَذَوَى بِهَا غُصْنُ الشَّبَابِ رَطِيبَا

لاَلَمَّ بِي مَا لَوْ أَلَمَّ بِشَاهِقٍ　　لاَنْهَالَ جَانِبُهُ فَصَارَ كَثِيبَا (١)

فَلَئِنْ تَسُمْنِي الْحَادِثَاتُ فَقَدْ أَرَى　　لِلْجَفْنِ فِي الْعَضْبِ «الطَّرِيرِ نُدُوبَا» (٢)

وَلَئِنْ عَجِبْتُ لِأَنْ أُضَامَ «وَجَهْوَرٌ»　　نِعْمَ النَّصِيرُ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيبَا

مَنْ لاَ تُعَدِّى النَّائِبَاتُ لِجَارِهِ　　زَحْفاً وَلاَ تَمْشِي الضَّرَاءَ دَبِيبَا (٣)

مَلِكٌ أَطَاعَ اللهَ مِنْهُ مُوَفَّقٌ　　مَا زَالَ أَوَّاباً إِلَيْهِ مُنِيبَا

يَأْتِي رِضَاهُ مُعَادِياً وَمُوَالِياً　　وَيَكُونُ فِيهِ مُعَاقِباً وَمُثِيبَا

مُتَمَرِّسٌ بِالدَّهْرِ يَقْعُدُ صَرْفُهُ　　إِنْ قَامَ فِي نَادِي الْخُطُوبِ خَطِيبَا

---

(١) المعنى : لقد نزل بى مالو نزل بجبل شاهق لسقط جانبه فصار كثيبا مهيلا أى رملا قد هيل وانتثر — وهو مأخوذ من قوله تعالى « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا »

(٢) تسمنى : أى تجشمنى مكروها من قولهم سامه خسفا إذا أولاه إياه وأراده عليه — والجفن : الغمد — والعضب : السيف — والطرير : القاطع — والندوب : جمع ندب بمتحتين وهو فى الأصل أثر الجرح فى الجسم إذا لم يرتفع عن الجلد — وأراد به هنا أثر الصدأ الذى يعلو فرند السيف لطول مكثه فى الغمد — والمعنى فلئن يعيرنى طول المكث فى السجن فإن السيف يصدأ بطول المكث فى الجفن .

(٣) تعدى : بالتضعيف تحضر وتسرع فى العدو — وزحفا من زحف الجيش — والضراء : من قولهم فلان يمشى الضراء إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر — والدبيب : مصدر دب النمل والشيخ مشى على هينته والمعنى : نعم النصير جهور من لا تسرع النائبات إلى جاره زحفا ولا تدب إليه مستخفية

لَا يُوسَمُ الرَّأْىُ الْفَطِيرُ بِهِ وَلَا ... يَعْتَادُ إِرْسَالَ الْكَلَامِ قَضِيبَا (١)

تَأْبَى ضَرَائِبُهُ الضُّرُوبَ نَفَاسَةً ... مِنْ أَنْ تَقِيسَ بِهِ النُّفُوسُ ضَرِيبَا (٢)

بَسَّامُ ثَغْرِ الْبِشْرِ إِنْ عَقَدَ الْحُبَا ... فَرَأَيْتَ وَضَّاحًا هُنَاكَ مَهِيبَا (٣)

مَلَأَ النَّوَاظِرَ صَامِتاً وَلَرُبَّمَا ... مَلَأَ الْمَسَامِعَ سَامِعاً وَمُجِيبَا (٤)

عِقْدٌ تَأَلَّفَ فِى نِظَامِ رِيَاسَةٍ ... نَسَقَ اللَّآلِئَ مُنْجِباً وَنَجِيبَا

يَغْشَى التَّجَارِبَ كَهْلُهُمْ مُسْتَغْنِياً ... بِقَرِيحَةٍ هِيَ حَسْبُهُ تَجْرِيبَا

وَإِذَا دَعَوْتَ وَلِيدَهُمْ لِعَظِيمَةٍ ... لَبَّاكَ رَقْرَاقَ السَّمَاحِ أَدِيبَا (٥)

---

(١) الرأى الفطير : ما فيه عجلة وأصله من اختمار العجين قبل أن يختمر — و قضيب : المقتضب من قولهم اقتضب الخطبة والكلام أى أرسلها من غير إعداد وتهيئة — والمعنى : أنه لا يتسم بسمة العجلة فى الرأى ولا يرسل الكلام مقتضبا مرتجلا من غير إعداد له ورياضة عليه .

(٢) ضرائبه : سجاياه — والضروب : جمع ضرب وهو المثل والشبيه كالضريب ، أى تمنع سجاياه أن يكون له أمثال وأشباه نفاسة بتلك الخلال الكريمة أى ضنا بها وإباء من أن تقيس به النفوس ضريبا وشبيها

(٣) الحبوة : كغرفة وسدرة تجمع على حبا كغرف وسدر ، والاحتباء أن يضم الجالس رجليه إلى بطنه ويجمعهما مع ظهره بثوب وقد يحتبي بيديه ، وهو يقوم مقام إسناد الظهر إلى حائط أو نحوه ، يعنى أنه كثير الابتسام فى طلاقة وبشر أن جلس محتبيا مطرقت منه وضاح الجبين مشرق الطلعة مهيبا .

(٤) المعنى : أنه ملأ النواظر — روعة وهيبة فى حال صمته والمسامع حكمة وبيانا سامعا من الناس ومجيبا قال ابن بسام :

قوله : « ملأ النواظر صامتا » من قول ابن زيدون أيضا :

أسألها واجعل بكاك جوابها ... تجدم الشوق سائلا ومجيبا

وينظر أيضا إلى لفظ هذا البيت دون معناه قول أبى الطيب :

فدعاك حاسدك الرئيس وأمسكوا ... ودعاك خالقك الرئيس الأكبرا

خلقت صفاتك فى العيون كلامه ... كالخط يملأ مسمعى من أبصرا

ويلمح أيضا هذا البيت قول أبى نواس — على ما فسره بعض الناس —

« ألا فاسقنى خمرا وقل لى : هى الخمر » وهذا التفسير فيه أضعف الوجوه ، وبيت بن شرف أشبه من هذه كلها ببيت ابن زيدون ، وهو قوله يمدح صاحب القيروان :

سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ... ملء المسامع والأفواه والمقل

(٥) لباك : أجابك — ورقراق السماح : يريد أن سماحه يترقرق أى يجرى كالماء جريا سهلا — وأديبا : لعلها أريبا بالراء المهملة أي عاقلا

هِمَمٌ تُنَافِسُهَا النُّجُومُ وَقَدْ تَلاَ   فِى سُؤْدَدٍ مِنْهَا الْعَقِيبُ عَقِيبَا

وَمَحَاسِنٌ تَنْدَى رَقَائِقُ ذِكْرِهَا   فَتَكَادُ تُوهِمُكَ الْمَدِيحَ نَسِيبَا (١)

كَالآسِ أَخْضَرَ نَضْرَةً ، وَالْوَرْدِ أَحْمَرَ بَهْجَةً ، وَالْمِسْكِ أَذْفَرَ (٢) طِيبَا

وَإِذَا تَفَنَّنَ فِى اللِّسَانِ ثَنَاؤُهُ   فَافْتَنَّ لَمْ يَكُنِ الْمُرَادُ غَرِيبَا (٣)

غَالَى بِمَا فِيهِ فَغَيْرُ مُوَاقِعٍ   سَرَفًا وَلاَ مُتَوَقِّعٍ تَكْذِيبَا (٤)

***

كَانَ الْوُشَاةُ ـ وَقَدْ مُنِيتُ بِإِفْكِهِمْ ـ   أَسْبَاطَ يَعْقُوبٍ وَكُنْتُ الذِّيبَا (٥)

وَإِذَا الْمُنَى بِقَبُولِكَ الْغَضِّ الْجَنَى   هُزَّتْ ذَوَائِبُهَا فَلاَ تَثْرِيبَا

أَنَا سَيْفُكَ الصَّدِئُ الَّذِى ـ مَهْمَا تَشَأْ ـ   تُعِدِ الصِّقَالَ إِلَيْهِ وَالتَّذْرِيبَا (٦)

كَمْ ضَاقَ بِى مِنْ مَذْهَبٍ فِى مَطْلَبٍ   فَثَنَيْتَهُ فُسُحَ الْمَجَالِ رَحِيبَا

«وَزَهَا» جَنَابُ الشُّكْرِ ـ حِينَ مَطَرْتَهُ   بِسَحَائِبِ النُّعْمَى ـ فَرُدَّ خَصِيبَا (٧)

---

(١) قال ابن بسام :

قوله : « فتكاد توهمك المديح نسيبا » من قول أبي تمام :

(٢) أذفر : ذكيّ طيب الريح .

طاب فيك المديح والتذ حتى   فاق وصف الديار والتشبيبا

(٣) إذا تفنن : أى أطرد مديحه فى اللسان ـ فافتن : أى أخذ فى فنون وضروب من المدح لم يكن مراد المادح غريبا لأنه يستملى من صفاته فيقول .

(٤) مواقع : مدان ، والمتوقع : المنتظر ـ والمعنى : بالغ مادحه بما فيه من الصفات فلم يكن مدانيا إفراطاً ولا متخوفا تكذيبا .

(٥) منيت بليت ـ والإفك الكذب والتحديث بالباطل ، يريد أنه برئ مما ابتلى به من إفكهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

(٦) التذريب : التحديد .

(٧) وجد هذا البيت فى الأصل وفى غيره من المظان ناقصا ، والزيادة يعطيها السياق .

***

فَتَهَنَّأِ الأعْيَادَ عَادَةَ لاَبِسٍ   يُبْلِي الدَّرِيسَ فيَسْتَجِدُّ قَشِيبا[١]

وَمَــــتَى سَعَيْتَ لِنَازِحٍ مُتَعَذِّرٍ   فَوَجَدْتَهُ سَهْلَ المَرَامِ قَرِيباَ[٢]

وَأَرَادَ فِيكَ مُرَادَكَ القَدَرُ الَّذِى   لاَ تَسْــــتَطِيعُ لِحُكْمِهِ تَعْقِيباَ

عتاب

أَحِينَ عَلِمْتَ حَظَّكَ مِنْ وِدَادِي   وَلَمْ تَجْهَلْ مَحَلَّكَ مِنْ فُؤَادِي

وَقَادَنِىَ الْهَوَى فَانْقَدْتُ طَوْعًا   وَمَا مَكَّنْتُ غَيْرَكَ مِنْ قِيَادِي

رَضِيتَ لِىَ السَّقَامَ لِبَاسَ جِسْمٍ   كَحَلْتُ الطَّرْفَ مِنْهُ بِالسُّهَادِ[٣]

***

أَجِلْ عَيْنَيْكَ فِى أَسْطَارِ كُتْبِي   تَجِدْ دَمْعِي مِزَاجًا لِلْمِدَادِ[٤]

فَدَيْتُكَ إِنَّنِي قَدْ ذَابَ قَلْبِي   مِنَ الشَّكْوَى إِلَى قَلْبٍ جَمَادِ

---

(١) يقال تهنأ الطعام وتهنأ به كما يقال تعلق الشيء وتعلق به — أى تهنأ بالأعياد غير مخالف عادتك فيها من إبلاء الثوب الدريس أى الخلق ، ولبس القشيب أى الجديد ، وهذا نظير قوله فى الرائية .

فأبل وأخلف إنما أنت لابس   لهذى الليالى الغر وهى ثياب

(٢) ومتى سعيت لعل الأصل ولكم سعيت الخ — والذى يظهر ان هذه الأبيات التى ختمت بها هذه القصيدة وقع فيها شيء من التحريف فليحرر .

(٣) يقول : « أحين أيقنت انى لا أحل أحداً محلك من قلبي وعلمت أنى أسير هواك حزيتنى على ذلك الاخلاص فى الحب سقاما وتسهيداً . وما أحلى قول المجنون :

وأدنيتنى حتى إذا ما فتنتنى   بقول يحل العصم سهل الأباطح

تناءيت عنى حين لالى حيلة   وغادرت ما غادرت بين الجوانح

(٤) تأمل فى سطور الكتب التى أبعث بها إليك تجد دمعى مختلطا بمداده

رثاء فتاة

« قال يرثى ابنة المعتضد المتوفاة قبل وفاته بثلاث »

سَرَّكَ الدَّهْرُ وَسَاءَ فَاقْنَ شُكْراً وَعَزَاء (١)

كَمْ أَفَادَ الصَّبْرُ أَجْراً وَاقْتَضَى الشُّكْرُ نَمَاء (٢)

أَنْتَ إِنْ تَأْسَ عَلَى الْمَفْقُودِ إِلْفاً وَاجْتِبَاء (٣)

فَاسْلُ عَنْهُ غَيْرَةً وَاحْتَمِلِ الرُّزْءَ إِبَاء

أَيُّهَا « الْمُعْتَضِدُ » الْمَنْصُورُ مُلِّيتَ الْبَقَاء (٤)

وَتَزَيَّدْتَ مَعَ الْأَيَّامِ عِزّاً وَعَلَاء (٥)

إِنَّمَا يُكْسِبُنَا الْحُزْنُ عَنَاءً لَا غَنَاء (٦)

أَنْتَ طَبٌّ أَنَّ دَاءَ الْمَوْتِ قَدْ أَعْيَا الدَّوَاء (٧)

فَتَأَسَّ (٨) إِنَّ ذَاكَ الْخَطْبَ غَالَ الْأَنْبِيَاء

وَسَيَفْنَى الْمَلَأُ الْأَعْلَى إِذَا مَا اللهُ شَاء

* * *

حَبَّذَا هَدْىُ عَرُوسٍ دَفْنُهَا كَانَ الْهِدَاء

عُمِّرَتْ حِيناً وَمَاءُ الْمُزْنِ شَكْلَيْنِ سَوَاء

---

(١) اقن : الزم من قولهم قنيت حيائى أى لزمته ، قال عنترة :

فأجبتها إن المنيـــة منهل لابد أن أسـقى بذاك المنهل

فاقنى حياءك لا أبا لك واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

والمعنى : سرك الدهر وساءك فاشكره على أن سرك وتعز بذلك عما ساءك .

(٢) زيادة . (٣) الاجتباء : الاصطفاء .

(٤) مليت البقاء : متعك الله بالبقاء . (٥) العلاء : الرفعة .

(٦) إنما يكسبنا الحزن ألما لا فائدة فيه ولا جدوى منه .

(٧) أنت عالم خبير بأن داء الموت لا دواء له . (٨) اصبر .

ثُمَّ وَلَّتْ فَوَجَدْنَا أَرَجَ (1) الْمِسْكِ ثَنَاء

جَمَعَتْ تَقْوَى وَإِخْبَا تًا (2) وَفَضْلاً وَذَكَاء

سَتُرَوَّى مِنْ جِمَامِ الْـكَوْثَرِ الْعَذْبِ رَوَاء (3)

حَيْثُ تَلْقَى الْأَتْقِيَا ءَ السُّعَدَاء الشُّهَدَاء

***

هَانَ مَالاَقَتْ عَلَيْهَا أَنْ غَدَتْ مِنْكَ فِدَاء (4)

غُنْمُ أَحْبَابِكَ أَنْ تَبْقَى وَإِنْ عُمُّوا فَنَاء (5)

فَالْبَسِ الصُّنْعَ مُلاَءً وَاسْحَبِ السَّعْدَ رِدَاء (6)

وَرِثِ الْأَعْدَاء أَعْمَا رَهُمُ وَالْأَوْلِيَاءَ (7)

فى الغــزل

مَا ضَرَّ لَوْ أَنَّكَ لِي رَاحِمُ وَعِلَّتِي أَنْتَ بِهَا عَالِمُ

يَهْنِيكَ يَا سُؤْلِي وَيَا بُغْيَتِي أَنَّكَ مِمَّا أَشْتَكِي سَالِمُ (8)

تَضْحَكُ فِي الْحُبِّ وَأَبْكِي أَنَا اللهُ ـ فِيمَا بَيْنَنَا ـ حَاكِمُ

أَقُولُ لَمَّا طَارَ عَنِّي الْكَرَى قَوْلَ مُعَنًّى قَلْبُهُ هَائِمُ

« يَا نَائِمًا أَيْقَظَنِي حُبُّهُ هَبْ لِي رُقَاداً أَيُّهَا النَّائِمُ (9) »

---

(1) طيب . (2) الاحات : الخشوع . (3) ستروى من ماء الكوثر .

(4) هون عليها حطب الموت أنها افتدتك بنفسها من الردى .

(5) إن أحبابك ليرون فى بقائك أكبر فوز لهم ولو افتدوك بأنفسهم .

(6) الملاء والملاءة : الريطة ذات لفقين ، والمعنى : ارفل فى حلل المعروف والسعادة .

(7) وهبك الله أعمار أعدائك وأصفيائك .

(8) من أبدع ما قرأناه فى هذا المعنى قول الشريف الرضى :

«أهون عليك ـ إذا امتلأت من الكرى ـ أنى أبيت بليــلة الملســوع»

(9) يقول : « ليس من العدالة أن تنام وأسهر ، فانعم على بالكرى بعد أن أيقظنى هجرك » .

تهنئة

« وقال يهنئ المعتضد وقد شرب دواء »

أَحْمَدْتَ عَاقِبَةَ الدَّوَاءِ   وَنِلْتَ عَافِيَةَ الشِّفَاءِ

وَخَرَجْتَ مِنْهُ مِثْلَمَا   خَرَجَ الْحُسَامُ مِنَ الْجِلَاءِ

وَبَقِيتَ لِلدُّنْيَا فَأَنْـ   ـتَ دَوَاؤُهَا مِنْ كُلِّ دَاءِ

وَوَرِثْتَ أَعْمَارَ الْعِدَى   وَقَسَمْتَهَا فِي الْأَوْلِيَاءِ [1]

يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْجِيَا   دَ وَسَارَ فِي ظِلِّ اللِّوَاءِ

وَاجْتَالَ يَوْمَ الْحَرْبِ قُدْ   مًا وَاحْتَبَى يَوْمَ الْحِبَاءِ [2]

بُشْرَاكَ عُقْبَى صِحَّةٍ   تَجْرِي إِلَى غَيْرِ انْتِهَاءِ

فِي دَوْلَةٍ تَبْقَى بَقَا   ءَ الدَّهْرِ آمِنَةَ الْفَنَاءِ

وَمَسَرَّةٍ يُفْضِي بِهَا   زَمَنٌ كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ

وَاشْرَبْ فَقَدْ لَذَّ النَّسِـ   ـيمُ وَرَقَّ سِرْبَالُ الْهَوَاءِ

لِنَرَى بِكَ الْبَهْوَ الْمُطِلَّ يَمِيسُ فِي حُلَلِ الْبَهَاءِ

وَبَقِيتَ مَفْدِيًّا بِنَا   إِنْ نَحْنُ جُزْنَا فِي الْفِدَاءِ [3]

---

(١) قوله : « وقسمتها في الأولياء » يذكرنا قول العباس الأحنف :

لو كان هذا الحب يـ   ـنفد فيه حكمي أو قضائي

لطلبته فجمعته   من كل أرض أو سماء

فقسمته بيني وبيـ   ـن حبيب نفسي بالسواء

حتى إذا متنا جميـ   ـعاً ، والأمور إلى انتهاء

مات الهوى من بعدنا   أو عاش في أهل الوفاء

(٢) أجال : من إجالة القداح في الميسر ويأسره قدحاً أي فاز بالظفر والنصر على الأعداء ، واجتال في الحرب وجال بمعنى واحد ويأسها قدماً نصبتين ـ والتخفيف بالاسكان في مثله جائز ـ ومعناه جال في الحرب يمضي قدماً أي إلى الامام ، والحباء : بالكسر العطاء .

(٣) فدتك أعمارنا إن كان يقبل ما هذا الفداء . .

تهنئة بفصد

« وقال يهنيه بفصد »

لِيَهْنِكَ أَنْ أَحْمَدْتَ عَاقِبَةَ الْفَصْدِ ... فَلِلّٰهِ مِنَّا أَجْمَلُ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ

وَيَا عَجَبًا مِنْ أَنَّ مِبْضَعَ فَاصِدٍ ... تَلَقَّيْتَهُ لَمْ يَنْصَرِفْ نَابِيَ الْحَدِّ

وَمِنْ مُتَوَلِّي فَصْدِ يُمْنَاكَ كَيْفَ لَمْ ... يَهُلْهُ عُبَابُ الْبَحْرِ فِي مُعْظَمِ الْمَدِّ

وَلَمْ تَغْشَهُ الشَّمْسُ الْمُنِيرُ شُعَاعُهَا ... فَيُخْطِئَ فِيمَا رَامَهُ سَنَنَ الْقَصْدِ

***

سَرَى دَمُكَ الْمُهْرَاقُ فِي الْأَرْضِ فَاكْتَسَتْ ... أَفَانِينَ رَوْضٍ مِثْلَ حَاشِيَةِ الْبُرْدِ

فِصَادٌ أَطَابَ الدَّهْرَ فَالْقَطْرُ فِي الثَّرَى ... كَمَا طَابَ مَاءُ الْوَرْدِ فِي الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ

لَقَدْ أَوْفَتِ الدُّنْيَا بِعَهْدِكَ نُصْرَةً ... كَأَنَّكَ قَدْ عَلَّمْتَهَا كَرَمَ الْعَهْدِ[1]

لَدَى زَمَنٍ غَضٍّ أَنِيقٍ فِرِنْدُهُ[2] ... كَمِثْلِ فِرِنْدِ الْوَرْدِ فِي خَجْلَةِ الْخَدِّ

تُسَوِّغُ مِنْهُ الْعَيْشَ فِي ظِلِّ دَوْلَةٍ ... مُقَابَلَةُ الْأَرْجَاءِ بِالْكَوْكَبِ السَّعْدِ

***

فَهُبَّ إِلَى اللَّذَاتِ مُؤْثِرَ رَاحَةٍ ... تُجِمُّ بِهَا[3] النَّفْسَ النَّفِيسَةَ لِلْكَدِّ[4]

وَوَالِ بِهَا فِي لُؤْلُؤٍ مِنْ جَنَابِهَا[5] ... كَجِيدِ الْفَتَاةِ الرُّودِ فِي لُؤْلُؤِ الْعِقْدِ

وَإِنْ تَدْعُنَا لِلْأُنْسِ عَنْ أَرْيَحِيَّةٍ ... فَقَدْ يَأْنَسُ الْمَوْلَى إِذَا ارْتَاحَ بِالْعَبْدِ

---

(١) يقال وفى بالعهد أوفى بالعهد وكلاهما بمعنى واحد قال تعالى « وأوفوا بعهد الله » ومعنى البيت لقد عاهدتك الدنيا على النصرة ووفت بالعهد ولم تنقضه فكأنك قد علمتها الوفاء وكرم العهد .

(٢) أنيق الوشى . (٣) ترتاح بها .

(٤) تجم : يقال جمت وأجمها هو أى تركها تستجمع ما فقدته ، والمعنى : انشط إلى اللذات مفضلا الراحة قليلا ، واترك نفسك تستجمع مافقدته من قوتها لتستأنف الكد والعمل لمهام الدولة .

(٥) الجناب : الناحية وما قرب من محلة القوم . .

فى مدح ابن جهور

مَا طولُ عَذْلِكِ لِلْمُحِبِّ بِنَافِعِ ... ذَهَبَ الْفُؤَادُ فَلَيْسَ فِيهِ بِرَاجِعِ (١)

فُنِّدْتِ حِينَ طَمِعْتِ فى سُلْوَانِهِ ... هَيْهَاتَ لاَ ظَفَرٌ هُنَاكَ لِطَامِعِ (٢)

فَدَعِيهِ حَيْثُ يَطُولُ مَيْدَانُ الصِّبَا ... كَيْمَا يَجُرُّ بِهِ عِنَانَ الْخَالِعِ (٣)

مَا ذَا يَرِيبُكِ مِنْ فَتًى عَزَّ الْهَوَى ... فَعَنَا لِنَخْوَتِهِ بِذِلَّةِ خَاضِعِ (٤)

هَلْ غَيْرَ أَنْ مَحْضَ الْوَفَاءِ لِغَادِرٍ ... أَوْ غَيْرَ أَنْ صَدَقَ الْوِصَالَ لِقَاطِعِ (٥)

لَمْ يَهْوَ مَنْ لَمْ يُمْسِ قُرَّةَ عَيْنِهِ ... سَهَرُ الصَّبَابَةِ فى خَلِيٍّ هَاجِعِ (٦)

وَاهاً لِأَيَّامٍ خَلَتْ مَا عَهْدُهَا ... فى حِينِ ضَيَّعْتِ الْعُهُودَ بِضَائِعِ (٧)

زَمَنٌ كَمَا رَاقَ السَّقِيطُ مِنَ النَّدَى ... يَسْتَنُّ فى صَفَحَاتِ وَرْدٍ يَانِعِ (٨)

أَيَّامَ إِنْ عَتَبَ الْحَبِيبُ لِهَفْوَةٍ ... شَفَعَ الشَّبَابُ فَكَانَ أَكْرَمَ شَافِعِ (٩)

---

(١) العذل : اللوم ، والمعنى : لا تعذليه فليس العذل بنافع بعد ما ذهب فؤاده مع من يهواه فليس يرجعه كثرة اللوم والتعنيف . (٢) فندت : أى نسبت إلى الكذب وضعف الرأى حين تطمعين فى سلو محب يبعد كل البعد أن يظفر طامع فى سلوانه بطائل .

(٣) الخالع : من خلع الفرس عذاره ألقاه عن نفسه فعدا بشر ، وهو مثل يضرب لمن أطلق من قيده ، يقول : اتركيه وشأنه فى الهوى حيث يتسع له مجال الصبا ، ومراح الشباب ، كى يطلق لنفسه العنان فى اللهو والمراح . (٤) ماذا يريبك : ماذا تكرهينه ويسوءك من فتى ، أو أى شىء يحملك منه فى ريبه وشك ، وعنا : خضع وأطاع ، والنخوة : العظمة والكبر ، وهذا البيت يذكرنا بقول الشريف الرضى :

« لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعى »

(٥) معناه : هل يعرف غير محض الوفاء لمن غدر ، وحسن الصلة لمن هجر .

(٦) لم يذق طعم الهوى من لم يكن سهر الصبابة فى خلى نائم حبيبا إلى نفسه ، وقرة لعينيه .

(٧) واها : كلمة يتعجب بها من طيب الشىء وحسنه ، والمعنى : ما عهد تلك الأيام التى تروق ببهجتها بضائع عندى فى حين ضيعت أنت كل العهود .

(٨) راق : أعجب ، والسقيط : ما سقط من الندى على الزهر ، ويستن : ينصب كالدمع فى صفحة الورد

(٩) قريب من هذا المعنى قوله فى مطلع بائيته :

أما علمت أن الشفيع شباب ... فيقصر عن لوم المحب عتاب

علام الصبا غض يرف رواؤه ... إذا عن من وصل الحسان ذهاب

انظر « ص ٤٠

مَالِي وَلِلدُّنْيَا غُرِرْتُ مِنَ الْمُنَى ... فِيهَا بِبَارِقَةِ السَّرَابِ الْخَادِعِ
مَا إِنْ أَزَالُ أَرُومُ شُهْدَةَ عَاسِلٍ ... أَحْمِي مُجَاجَتَهَا بِإِبْرَةِ لَاسِعِ (١)

* * *

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْبِلَادَ إِذَا نَبَتْ ... أَنْ لَسْتُ لِلنَّفْسِ الْأَلُوفِ بِبَاخِعِ (٢)
أَمَّا الْهَوَانُ فَصُنْتُ عَنْهُ صَفْحَةً ... أَغْشَى بِهَا حَدَّ الزَّمَانِ الشَّارِعِ (٣)
فَلْيُرْغِمِ الْحَظَّ الْمُوَلِّي أَنَّهُ ... وَلَّى فَلَمْ أُتْبِعْهُ خُطْوَةَ (٤) تَابِعِ
إِنَّ الْغِنَى لَهُوَ الْقَنَاعَةُ لَا الَّذِي ... يَشْتَفُّ نُطْفَةَ مَاءِ وَجْهِ الْقَانِعِ (٥)

* * *

لِلَّهِ جَارُ «الْجَوْهَرِيِّ» فَطَالَمَا ... مُنِيَتْ (٦) صَفَاةُ (٧) الدَّهْرِ مِنْهُ بِقَارِعِ

---

(١) شهدة : بالضم والفتح واحدة الشهد وهو العسل مادام لم يعصر من شمعه ، والعاسل : الذي يشتار العسل أي يأخذه من الخلية ، والمجاجة : ما يمجه النحل من العسل ، وبين « عاسل » و « لاسع » جناس القلب ، والمعنى : ما زلت أطلب من الدنيا أملا يحكي مجاجة عاسل حمتها إبرة لاسع .

(٢) نبت : لم يوافقني المقام بها قال : « وإذا نبا بك منزل فتحول » ، وباخع : مزهق نفسي وقاتلها غما والمعنى : من يبلغ عني ساكني تلك البلاد التي نزحت عنها مع شدة تعلقي بها أني لست بقاتل نفسي أسفا وغما على مفارقتها إذا نبت بي ولم توافقني الإقامة فيها ، وفي معنى التحول عن منزل الضيم يقول بشار :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها ... خرجت مع البازي على سواد

أي على بقية من سواد الليل .

(٣) الشارع : من شرع نحوه حد السيف أو الرمح وأشرعه سدده له وهو نظير قول الآخر :

نعرض للطعان إذا التقينا ... وجوها لا تعرض للسباب

(٤) بالضم ما بين القدمين وتجمع على خطا وخطوات .

(٥) النطفة الماء : القليل ، ويشتفها : يشربها عن آخرها ، يقال اشتف في شربه إذا أتى على آخر ما في الإناء فلم يسئر ، والمراد هنا أنه يريقها كلها عند السؤال ، والقانع : السائل ، وفي الكتاب العزيز « وأطعموا القانع والمعتر » وهو من قنع ـ بالفتح ـ قنوعا إذا سأل ، لا من قنع ـ بالكسر ـ قناعة إذا رضي ولم يرق ماء وجهه ببذل السؤال ، يقول أن الغنى غنى النفس بالقناعة لا غنى المال الذي يستنزف فيه السائل ماء وجهه ، ويشتف آخر قطرة من حيائه .

(٦) ابتليت .

(٧) الحجر العريض الأملس ويجمع على صفا .

مَلِكٌ دَرَى أَنَّ المَسَاعِيَ مُتْعَةٌ ... فَسَعَى فَطَابَ حَدِيثُهُ لِلسَّامِعِ

شِيَمٌ هِيَ الزَّهْرُ الْجَنِيُّ تَبَسَّمَتْ ... عَنْهُ الكَمَائِمُ فِي الضَّحَاءِ[1] المَاتِعِ[2]

أَغْرَى مُنَافِسَهُ لِيُدْرِكَ شَأْوَهُ ... فَشَآهُ بِالْبَاعِ الطَّوِيلِ الْوَاسِعِ[3]

ثَبْتُ السَّكِينَةِ فِي النَّدِيِّ كَأَنَّمَا ... تِلْكَ الْحُبَا لِيثَتْ بِهَضْبٍ مَتَالِعِ[4]

عَذْبُ الْجَنَى لِلْأَوْلِيَاءِ فَإِنْ يَهِجْ ... فَالسَّمُّ يَأْبَى أَنْ يَسُوغَ لِجَارِعِ

* * *

يَأَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي حَاطَ الْهُدَى ... لَوْلَاكَ كَانَ حِمًى قَلِيلَ المَانِعِ

أَنِسَ الْأَنَامُ إِلَيْكَ فِيهِ، فَهُمْ بِهِ ... مِنْ قَائِمٍ أَوْ سَاجِدٍ أَوْ رَاكِعِ

مُتَبَوِّئُونَ جَنَابَ عَيْشٍ مُونِقٍ ... مُتَفَيِّئُونَ ظِلَالَ أَمْنٍ شَائِعِ

فَلْتَضْرِبَنْ مَعَهُمْ بِأَوفَرِ شِرْكَةٍ ... فِي أَجْرِهِمْ مِنْ مُوتِرٍ أَوْ شَافِعِ

خَيْرُ الشُّهُورِ اُخْتَرْتَ عِنْدَ طُلُوعِهِ ... خَيْرَ الْبِقَاعِ لَهُ بِأَسْعَدِ طَالِعِ[5]

---

(١) النهار قبل انتصافه بقليل وزمنه بعد زمن الضحى .

(٢) المرتفع .

(٣) الشأو : الطلق والشوط والغاية ، وشآه : سبقه .

(٤) الندىّ : المجلس ، والحبا : بالضم والكسر جمع حبوه وهى أن يجمع الجالس ساقيه إلى بطنه بيديه أو يجمع ظهره وساقيه بثوب ، والاحتباء من عادة العرب وهو يمنع الجالس من السقوط ويغنيه عن الجدار الذي يسند إليه ظهره ، وليثت : لفت وطويت حوله كما تطوى العمامه ، والمعنى : أنه وقور فى مجلسه رابط الجأش كأنما شدّت تلك الحبا منه على طود من الصخر تنحدر عنه مسايل الماء .

(٥) يقول إن شهر الصيام وهو خير الشهور قد اخترت له خير البقاع عند طلوعه بأسعد طالع

شكر

« وقال أيضا وقد أباح له المعتضد التنزه مع حرمه فى إحدى جناته . »

غَمَرَتْنِي لَكَ الْأَيَادِي[1] الْبِيضُ … نَشَبٌ[2] وَافِرٌ وَجَاهٌ عَرِيضُ

كُلَّ يَوْمٍ يَجِدُّ مِنْكَ اهْتِبَالٌ[3] … عَهْدُ شُكْرِي عَلَيْهِ غَضٌّ غَرِيضُ[4]

بَوَّأَتْنِي[5] نُعْمَاكَ جَنَّـــةَ عَدْنٍ … جَالَ فِى وَصْفِهَا فَضَلَّ الْقَرِيضُ

مُجْتَـــنًى مُدَّنٍ ، وَظِلٌّ بَرُودٌ ، … وَنَسِيمٌ يَشْفِي النُّفُوسَ مَرِيضُ[6]

وَمِيَاهٌ قَدْ أَخْجَلَ الْوَرْدَ أَنْ عَا … رَضَ تَذْهِيبَهُ لَهَا تَفْضِيضُ

كُلَّمَا غَنَّتِ الْحَمَائِمُ قُلْنَا : … «مَعْبَدٌ إِذْ شَدَا أَجَابَ الْغَرِيضُ[7]»

---

(١) النعم . (٢) النشب : المال والعقار . (٣) غنم .

(٤) الغريض : ماء المطر ، وكل أبيض طرىّ ، والمعنى : إنى أظفر منك كل يوم بنعم جديد أقابله منك بشكر جديد . (٥) أحلتنى أو أنزلتنى أو أسكنتنى .

(٦) يصف الجنة التى أحله فيها ممدوحه بأن قطوفها دانية وظلها ظليل ونسيمها عليل يشفى النفوس .

* * *

(٧) معبد والغريض

علمان من أعلام الموسيقى العربية وقد كانا متعاصرين ، وقد ذاع صيتهما حتى أصبحا مضرب الأمثال فى إجادة الغناء والافتتان فيه ، وقد كان معبد يقدر صوغ الغريض ويشيد به ، كما تدل على ذلك قصة تعارفهما التى تترك لمعبد روايتها بأسلوبه الممتع ، قال :

« خرجت إلى مكة فى طلب لقاء الغريض ، وقد دلعنى حسن غنائه فى لحنه :

وما أنس ملأ شياء لا أنس شادنا … بمكة مكحولا أسـيلا مدامعه

وقد كان بلغنى أنه أول لحن صنعه ، وأن الجنّ نهته أن يغنيه لأنه فتن طائفة منهم فانتقلوا عن مكة من أجل حسنه

وفى هذا التمهيد ما يدل على تصورهم واعتقادهم فى ذلك العصر ، فقد سحرتهم ألحان الغريض فنسبوا إليها المعجزات وأنشأوا حولها الأساطير

. . . .

قال معبد :

فلما قدمت مكة سألت عنه فدللت على منزله فأتيته ، فقرعت الباب ، فما كلمني أحد ، فسألت بعض الجيران فقلت : هل فى الدار أحد ؟ فقال لى : نعم فيها الغريض ، فقلت : إنى قد أكثرت دقّ الباب فما أجابنى أحد قالوا : إنّ الغريض هناك ، فرجعت فدققت الباب ، فلم يجبنى أحد ، فقلت : إن نفعنى غنائى يوما نفعنى اليوم فاندفعت فغنيت لحنى فى شعر جميل ، فوالله ما سمعت حركة الباب ، فقلت : بطل سحرى ، وضاع سعرى وحشت أطلب ما هو عسير علىّ واحتقرت نفسى ، وقلت : لم يتوهمنى لضعف غنائى عنده ، فما شعرت إلا صائح يصيح يا معبد المغنى ، افهم وتلق عنى ، شعر جميل الذى غنى فيه ياشقىّ البخت ، وغنى :

« وما أنس مل اشياء لا أنس قولها . . . . »

(قال) فلقد سمعت شيئا لم اسمع احسن منه وقصر إلىّ نفسى وعلمت فضيلته علىّ بما احسّ من نفسه ، وقلت : انه لحرىّ بالاستتار من الناس تنزيها لنفسه وتعظيما لقدره وان مثله لا يستحق الابتذال ، ولا ان تتداوله الرحال ، فاردت الانصراف إلى المدينة راجعا ، فلما كنت غير بعيد إذا صائح يصيح بى :

يا معبد انظر أكلمك فرجعت ، فقال : إن الغريض يدعوك ، وأسرعت فرحاً فدنوت من الباب . فقال لى : أتحب الدخول ، فقلت: وهل إلى ذلك من سبيل، فقرع الباب ففتح، فقال لى: ادخل ولاتطل الجلوس فدخلت فاذا شمس طالعة فى بيت ، فسلمت فردّ السلام ثم قال : اجلس فجلست ، فاذا أجمل الناس وأحسنهم وجهاً وخلقا وخلقاً ، فقال : يامعبد كيف طرأت إلى مكة ، فقلت : جعلت فداءك وكيف عرفتنى ؟ فقال : بصوتك فقلت : وكيف وأنت لم تسمعه قط ؟ قال : لما غنيت عرفتك به وقلت : إن كان معبد فى الدنيا فهذا ، فقلت : جعلت فداك فكيف أجبتنى بقولك : «وما أنس مل أشياء لا أنس قولها » ، فقال : قد علمت أنك تريد أن أسمعك صوتى :

« وما أنس مل أشياء لاأنس شادنا بمكة مكحولا أسيلا مدامعه »

ولم يكن إلى ذلك سبيل لأنه صوت قد نهيت أن أغنيه فغنيتك هذا الصوت جواباً لما سألت وغنيت فقلت : والله ما عدوت ما أردت فهل لك حاجة ، فقال لى :يا أبا عباد لولا ملامة الحديث وثقل إطالة الجلوس لاستكثرت منك فاعذر ، فخرجت من عنده وإنه لأجلّ الناس عندى ورجعت إلى المدينة ، فتحدّثت بحديثه وعجبت من فطنته وقيافته ، فما رأيت الناس إلا وهو أجلّ منه فى عينى.

*
* *

ومما نختاره من أخبار معبد الطريفة ما حدث له فى السفينة ، فقد رووا عنه أنه كان قد علم الغناء جارية من جوارى الحجاز تدعى ظبية وعنى بتخريجها ، فاشتراها رجل من أهل العراق فأخرجها إلى البصرة وباعها هناك فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأعجب بها وذهبت به كل مذهب وغلبت عليه ، ثم ماتت — بعد أن أقامت عنده برهة من الزمان — وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها ، فكان لمحبته

. . . .

إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره ويظهر التعصب له والميل إليه والتقديم لغنائه على سائر أغانى أهل عصره إلى أن عرف ذلك منه وبلغ معبداً خبره فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما وردها صادف الرجل وقد خرج عنها فى ذلك اليوم إلى الأهواز فاكترى سـفينة ، وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز فلم يجد غير سفينة الرجل ، وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، فأمر الرجل الملاح أن يجلسه معه فى مؤخر السفينة ففعل وانحدروا ، فلما صاروا فى فم نهر الأبلة تغدّوا وشربوا وأمر جواريه فغنين ومعبد ساكت وهو فى ثياب السفر وعليـه فروة وخفان غليظان وزى جاف من زى أهل الحجاز إلى أن غنت إحدى الجوارى :

بانت سعاد وأمسى حبلها انصرما   واحتلت الغور فالأجزاع من إضما

(والغناء لمعبد) فلم تجد أداءه فصاح بها معبد : يا جارية إنّ غناءك هذا ليس بمستقيم (قال) فقال له مولاها ــ وقد غضب ــ وأنت ما يدريك الغناء؟ ما هو إلا أن تمسك وتلزم شأنك فأمسك ، ثم غنت أصواتاً من غناء غيره وهو ساكت لا يتكلم حتى غنت « يا ابنة الأزدى قلبي كئيب . . . » (والغناء لمعبد) فأخلت ببعضه ، فقال لها معبد : ياجارية لقد أخللت بهذا الصوت إخلالا شـديداً . فغضب الرجل وقال له : ويلك ما أنت والغناء ، ألا تكفّ عن هذا الفضول . فأمسك ، وغنى الجوارى مليا ثم غنت إحداهنّ :

خليليّ عوجا منكما ساعة معى   على الربع نقضى حاجة ونودّع

(والغناء لمعبد) فلم تصنع فيه شيئاً ، فقال لها معبد : يا هذه أما تقوين على أداء صوت واحد ؟ فغضب الرجل وقال له : ما أراك تدع هـذا الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسم بالله لئن عاودت لأخرجنك من السفينة فأمسك معبد حتى إذا سكتت الجوارى سكتة اندفع يغنى الصوت الأوّل حتى فرغ منه ، فصاح الجوارى : أحسنت يا رجل فأعده ، فقال : لا والله ولا كرامة ، ثم اندفع يغنى الثانى ، فقلن لسيدهنّ : ويحك هذا والله أحسن الناس غناء فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة لعلنا نأخذه عنه فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً فقال : قد سمعتنّ سوء ردّه عليكنّ وأنا خائف مثله منه وقد أسلفناه الإساءة فاصبرن حتى نداريه ، ثم غنى الثالث فزلزل عليهم الأرض ، فوثب الرجل فخرج إليه وقبل رأسه ، وقال : ياسيدى أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك ، فقال له : فهبك لم تعرف موضعى قد كان ينبغى لك أن تتثبت ولا تسرع إلىّ بسوء العشرة وجفاء القول . فقال له : قد أخطأت وأنا أعتذر إليك مما جرى وأسألك أن تنزل إلىّ وتختلط بى ، فقال : أما الآن فلا. فلم يزل يرفق به حتى نزل إليه ، فقال له الرجل: ممن أخذت هذا الغناء . قال : من بعض أهل الحجاز ، فمن أين أخذه جواريك ، فقال : أخذنه عن جارية كانت لى ابتاعها رجل من أهل البصرة من مكة ، وكانت قد أخذت عن أبى عباد معبد وعنى بتخريجها فكانت تحلّ منى محل الروح من الجسد ، ثم استأثر الله عزّ وجلّ بها وبقى هؤلاء الجوارى وهنّ من تعليمها فأنا إلى الآن التعصب لمعبد وأفضـله على المغنين جميعا وأفضل صنعته على كلّ صنعة . فقال له معبد : أو إنك لأنت هو أفتعرفنى ؟ قال : لا (قال) فصك معبد بيده صلعته ، ثم قال : فأنا والله معبد وإليك قدمت من الحجاز ووافيت البصرة ساعة نزلت السفينة لأقصدك بالأهواز ووالله لاقصرت فى جواريك هؤلاء ولأجعلنّ لك فى كلّ واحدة منهنّ خلفا من الماضية ، فاكـ

. . . .

الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبلونها ويقولون : كتمتنا نفسك طول هـذا حتى جفوناك فى المخاطبة وأسأنا عشرتك وأنت سيدنا ومن نتمنى على الله أن نلقاه . ثم غير الرجل زيه وحاله وخلع عليه عدة خلع وأعطاه فى وقته ثلثمائة دينار وطيبا وهدايا بمثلها، وانحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رضى حذق جواريه وما أخذنه ، ثم ودعه وانصرف إلى الحجاز .

* * *

وقد روى أبو الفرج قصة قدوم معبد إلى مكة وسماعه من المغنين وغنائه لهم فقال :

قال معبد : غنيت وأنا غلام وأعجب الناس غنائى وذهب لى به صيت وذكر ، فقلت : لآتين مكة فلأسمعن من المغنين بها ولأغنينهم ولأتعرفن إليهم ، فابتعت حمارا فخرجت عليه إلى مكة ، فلما قدمتها بعت حمارى وسألت عن المغنين أين يجتمعون ، فقيل : بقعيقعان فى بيت فلان فجئت إلى منزله فاطلعت فقرعت الباب ، فقال من هذا ، فقلت : انظر عافاك الله ، فدنا وهو يسبح ويستعيذ — كأنه يخاف — ففتح ، فقال : من أنت عافاك الله ؟ قلت : رجل من أهل المدينة . قال : فما حاجتك ؟ قلت : أنا رجل أشتهى الغناء وأزعم أنى أعرف منه شيئا وقد بلغنى أن القوم يجتمعون عندك وقد أحببت أن تنزلنى فى جانب منزلك وتخلطنى بهم فإنه لا مؤونة عليك ولا عليهم منى ، فلوى شيئاً ثم قال : انزل على بركة الله (قال) فنقلت متاعى ونزلت فى جانب حجرته ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد حتى اجتمعوا فأنكرونى وقالوا : من هذا الرجل . قال : رجل من أهل المدينة خفيف يشتهى الغناء ويطرب عليـه ليس عليكم منه عناء ولا مكروه . فرحبوا بى وكلمتهم ثم انبسطوا وشربوا وغنوا، فجعلت أعجب بغنائهم وأظهر ذلك لهم ويعجبهم منى حتى أقمنا أياماً وأخذت من غنائهم وهم لايدرون أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً ، ثم قلت لابن سريج : فديتك امسك علىّ صوتك :

قل لهنـد وتربها قبل شحط النوى غدا

قال : أو تحسن شيئا ، قلت : تنظر وعسى أن أصنع شيئا . واندفعت فيه فغنيته فصاح وصاحوا وقالوا : أحسنت عافاك الله. قلت : فأمسك على صوت كذا فامسكوه علىّ فغنيته فازدادوا عجباً وصياحا . فما تركت أحداً منهم إلا غنيته من غنائه أصواتاً قد تخيرتها (قال) فصاحوا حتى علت أصواتهم وهرجوا بى ، وقالوا : لأنت أحسن بأداء غنائنا منا ، قلت : فامسكوا علىّ ولا تضحكوا بى حتى تسمعوا من غنائى ، فامسكوا على فغنيت صوتا من غنائى فصاحوا بى ثم غنيتهم آخر وآخر فوثبوا إلى وقالوا : نحلف بالله إن لك لصيتا واسما وذكراً وان لك فيما هاهنا لسهماً عظيما فمن أنت ؟ قلت أنا معبد فقبلوا رأسى وقالوا : لبست علينا وكنا نتهاون بك ولا نعدّك شيئا وأنت أنت . وأقمت عندهم شهرا آخذ منهم ويأخذون منى ثم انصرفت إلى المدينة.

* * *

ومن الطرف النادرة ماحدث لمعبد والأسود .

قال معبد : بعث إلىّ بعض أمراء الحجاز وقد كان جمع له الحرمان أن اشخص إلى مكة فشخصت ، قال : فتقدمت غلامى فى بعض تلك الأيام واشـتد علىّ الحر والعطش فانتهيت إلى خباء فيه أسود ، وإذا حباب

جَاوَرَتْ حَمَّةً (١) مُشَــيَّدَةَ المَبْــنَى لِبَرْقِ الرّخَامِ فِيــهِ وَمِيض
مَرْمَرٌ أَوْقَدَ الفِرِنْدَ (٢) عَلَيْهِ سَلْسَلٌ بَحْرُهُ الزُّلاَلُ يَفِيضُ
وَسْطَهَا دُمْيَةٌ يَرُوقُ اجْتِلاَءُ الْــكُلِّ مِنْهَا وَيَفْتِنُ التَّبْعِيضُ (٣)

ماء قد بردت فملت إليه فقلت : يا هذا اسقني من هذا الماء ، فقال لا ، فقلت : فأذن لي في الكنّ ساعة قال : لا ، فأنخت ناقتي ولجأت إلى ظلها فاستترت به ، وقلت : لو احدثت لهذا الأمير شيئاً من الماء أقدم به عليه ولعلي إن حرّكت لساني ان يبل حلقي ريقي فيخفف عني بعض ما أجده من العطش. فترنمت بصوتي : « القصر فالنخل فالجماء بينهما » فلما سمعني الأسود ما شعرت به إلا وقد احتملني حتى ادخلني خباءه ثم قال اي بأبي أنت وأمي، هل لك في سويق السلت بهذا الماء البارد ، فقلت : قد منعتني أقل من ذلك وشربة ماء تجزئني (قال) فسقاني حتى رويت وجاء الغلام فأقمت عنده إلى وقت الرواح ، فلما أردت الرحلة قال : اي بأبي أنت وأمي الحرّ شديد ولا آمن عليك مثل الذي أصابك فأذن لي أن أحمل معك قربة من ماء على عنقي وأسعى بها معك فكلما عطشت سقيتك وغنيتني صوتاً (قال) قلت : ذلك لك ، فوالله ما فارقني يسقيني وأغنيه حتى بلغت المنزل .

وأخبار معبد والغريض طويلة متفرقة في كتاب الأغاني فليرجع إليها من شاء .

(١) الحمة — بالفتح — العين الحارة الماء يستشفي بها الأعلاء ومنه الحديث : « مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء ويتركها القرباء ، فبينما هي كذلك إذ غار ماؤها وقد انتفع بها قوم وبقي أقوام يتفكنون أي يتندمون» والحمة مدينة ذات ينابيع معدنية حارة وباردة بالقرب من مدينة «لوشة» وقد زارها «ابن بطوطة» ودخل مسجدها ووصف مافيها من صيد البر والبحر ، والحمة — أيضاً — اسم لمدائن أخرى ذات ينابيع معدنية حارة في إقليم « غرناطة » وإقليم مرسية وغير ذلك ، وحمة غرناطه ، وتسمى مدينة الحمة عند أهل غرناطة .

(٢) الفرند : السيف ووشيه وجوهره ، وهو مايرى فيه شبه غبار أو مدب نمل ، والفرند : الورد الأحمر أيضاً .

(٣) أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومي في وحيد المغنية :

وغرير بحسنها قال : « صفها » قلت : « أمران، هين وشديد.
يسهل القول : إنها أحسن الأشـ ـياء طرّاً ويصعب التحديد »

وفي هذه القصيدة يقول :

غادة زانها — من الغصن — قد ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد ين ذاك السواد والتوريد
فهي برد — بخدّها — وسلام وهي للعاشقين جهد جهيد
ما لما تصطليه — من وجنتيها — غير ترشاف ريقها تبريد
مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الـ ـوجد ، لولا الاباء والتصريد

وفيها يقول : تتجلى للناظرين إليها فشقي بحسنها وسعيد
وعليه — تسكن القلوب وترعا هما — وقربة لها تبريد

بَشَرٌ نَاصِعٌ وَخَدٌّ أَسِيـــلٌ   وَمُحَيًّا طَلْقٌ وَطَرْفٌ غَضِيضُ

وَقَوَامٌ كَمَا اسْتَقَامَ قَضِيبُ الْـ   ــبَانِ إِذْ عَلَّهُ[1] ثَرَاهُ الْأَرِيضُ[2]

وَابْتِسَامٌ لَوْ أَنَّهَا اسْتَغْرَبَتْ فِيــ   ــهِ أَرَاكَ اتَّسَاقُهُ الْإِغْرِيضُ[3]

وَالْتِفَاتٌ كَأَنَّمَـا هُوَ بِالْإِيـ   ــحَاءِ ــ مِنْ فَرْطِ لُطْفِهِ ــ تَعْرِيضُ

***

لُمَعٌ طَلَّةٌ مِنَ الْعَيْشِ مَا إِنْ   لِلْهَوَى عَنْ مَحَلِّهَا تَعْوِيضُ

سَوَّغَتْنِي نَعِيمَهَا نَفَحَاتٌ   لِلْمُنَى ــ مِنْ سَحَابِهَا ــ تَرْوِيضُ

تَابَعَتْهَا يَدُ الْهُمَامِ أَبِي عَمْــ   ــرٍو فَمَا غَمْرُهَا لَدَيَّ مَغِيضُ[4]

تتعـى كأنها لا تعـى   ـمن سكون الأوصال ـ وهى تحيد

لا تراها هناك تحطط عـين   ـ لك منها ـ ولا يدر وريد

من هدوٌ وليس فيه انقطاع ،   وسـجو وما به تبليـد

مدّ فى شأو صوتها نفس كا   ف ـ كأنفاس عاشقيها ـ مديد

وأرقّ الدلال والغنج منـه   وبراه الشجا ، فكاد يبيـد

فـتراه يمـوت طورا ويحيا   مستلذّ بسيطه والنشيد

فيـه وشى وفيـه حلى من النغـ   ـم مصوغ يختال فيـه القصيد

طاب فوها وما ترجع فيـه   كل شىء لها بذاك شهيـد

ثعب يقمع الصـدى ، وغناء   عنده يوجـد السرور الفقيد

فلها ـ الدهر ـ لاثم مستزيد   ولها ـ الدهر ـ سامع مستعيد

فى هـوى مثلها يخف حليم   ـ راجح حلمه ـ ويغوى رشيد

ما لعادى القلوب إلا أصابت   بهـواها منهنّ حيث تريد

إلى آخر هذه القصيدة الفذة التى نجتزئ منها بهذا القدر اليسير فليرجع إليها من شاء فى ديوانه ليقارن بين هذه القصيدة وقصيدة ابن زيدون .

(١) علّه : سقاه ، والأريض : الزكى التربة الخليق للنبت .   (٢) المعجب

(٣) استغربت : بالغت فى الضحك ، والاغريض : الطلع وكل أبيض طرى .

(٤) اليد : النعمة ، والغمر : الماء الكثير ، ومغيض : اسم مفعول من غيض الماء فهو مغيض إذا غار ونضب ، أى تابعت تلك اللمع من رغد العيش يد مضافة إلى « أبى عمرو » لا تزال تغمرنا بمعينها الذى الذى لا يغيض ماؤه فليس معينها الغزير الماء ناضبا عندى .

مَلِكٌ ذَادَ عَنْ حِمَى ٱلدِّينِ مِنْهُ   مَنْ إِلَيْهِ فِى نَصْرِهِ التَّفْوِيضُ
وَسَمَـــا نَاظِرٌ مِنَ المَجْدِ فِى دنْـــيَاهُ قَدْ كَانَ كَفَّهُ التَّغْمِيضُ[1]
إِنْ أَسَاءَ الزَّمَانُ أَحْسَنَ دَأْبًا   مِثْلَمَا بَايَنَ النَّقِيضَ النَّقِيضُ[2]

***

يَا مُعِزَّ الْهُدَى الَّذِى مَا لِمَسْـــعَا   هُ إِلَى غَـــيْرِ سَمْتِهِ تَعْرِيضُ
يَا مُحِـــلِّى يَفَاعَ حَالٍ ، مَكَانُ النَّـــجْمِ ـ مَهْمَا يُقَسْ إِلَيْهِ ـ حَضِيضُ[3]
إِنْ أَنَلْ أَيْسَرَ الرَّغَائِبِ فِيـــهِ   يَرْضَ فَوْزَ الْقِدَاحِ مِنِّى مُفِيضُ[4]
لَوْ يَفَاعُ المَجَـــرَّةِ اعْتَضْتَ مِنْهُ   رَاحَ يَدْعُو ثُبُورَهُ الْمُسْتَعِيضُ
حَظُّ سِنِّ امْرِئٍ نَأَى مِنْكَ قَرْعٌ   وَقُصَارَى بَنَانِهِ تَعْضِـــيضُ

***

حَسْبِىَ النُّصْحُ وَالْوِدَادُ وَشُكْرٌ   عَطَّرَ الدَّهْرَ مِنْهُ مِسْكٌ فَضِيضُ
دُمْ مُوَقًّى وَلِيُّكَ ـ الدَّهْرَ ـ مَجْبُو   رُ مَسَاعِيكَ ، وَالْعَـــدُوُّ مَهِيضُ
فَاعْتِرَافُ الْمُـــلُوكِ أَنَّكَ مَوْلَا   هُمْ حَدِيثٌ مَا بَيْنَهُمْ مُسْتَفِيضُ

---

(١) وتطلع إليك ناظر المجد بعد أن كف ناظره كثرة التغميض . يريد أنه بعد أن ذاد عن حوزة الدين سما بنظره فى شؤون دنيا كان قد صرفه عنها كثرة التغميض والاعراض .

(٢) وقريب من هذا قول الشاعر :

ضدّان لما استجمعا حسنا   والضدّ يظهر حسنه الضدّ .

(٣) اليفاع : ما ارتفع من الأرض . يقول : يامن أحلنى حالا رفيعا ، إذا قيس إليه النجم — على رفعته — عد حضيضا .   (٤) المفيض : من أفاض الرجل بقداح الميسر إذا ضرب بها فوقعت منبثة متفرقة .

شـــفاعة

قال هـذه القصيدة يمدح أبا الحزم بن جهور ويتحرم بجنابه ويطلب شفاعته ، قال ابن بسام :

« كان أبو الوليد ممن أنشأته دولة الجهاورة واصطفته اصطفاء الفرس للأساورة ، وقد اختص بأبي الوليد اختصاص الفرع بالورد وارتبطهم ارتباط الافاضة بالفور ، وأبو الحزم بن جهور — إذ ذاك — رأس الجماعة وأصل تلك الأسرة المطاعة من رجل أدهى من عمان وأجرأ من ليث خفان وأدهى من عمرو بن الحفان . وكان ابن زيدون متصلا بابـــه أبي الوليـــد أطول حقبه اتصال أبي زبيد بالوليـــد بن عقبة وبينهما تآلف أحرما بكعبته وطافا وسقيا من تصافيهما نطافا وابن زيدون يعتد ذلك حساما مسلولا ويرى أنه يرد به صعب الخطوب دلولا ، إلى أن طلب صد أبيه أبي الحزم وتوسل فاستدفع به تلك الأسة والأسل فثنى إليه عنان عطفه ولا كف عنه سنان صرفه مع استعطافه له بكل مقال يحل سخائم الاحقاد واستلطافه إياه بما يرد الصعب سلس القياد ، فمن بديع ذلك وأحسنه قوله :

ايه أبا الحزم اهتبل غرة ألسنة الشكر عليها فصاح »

أَمَا وَأَلْحَاظٍ مِرَاضٍ صِحَاحْ تُصْبِي وَأَعْطَافٍ نَشَاوَى صَوَاحْ

لِبَانَّ بِالْحُسْنِ فِي خَدِّهِ وَرْدٌ وَأَثْنَاءَ ثَنَايَاهُ رَاحْ

لَمْ أَنْسَ إِذْ بَاتَتْ يَدِي لَيْلَةً وِشَاحَهُ اللَّاصِقَ دُونَ الْوِشَاحْ [1]

أَلْمَمْتُ بِالْأَلْطَفِ مِنْـــهُ وَلَمْ أَجْنَحْ إِلَى مَا فِيهِ بَعْضُ الْجُنَاحْ

لَأَصْفِيَنَّ الْمُصْطَفَى [2] « جَهْوَرًا » عَهْدًا لِرَوْضِ الْحَزْنِ عَنْهُ انْتِضَاحْ

---

(١) قال ابن بسام : قوله : « وشاحه اللاصق دون الوشاح » معنى متداول ، ومن أقربه عصراً قول الفحل من أهل وقتنا :

« إن العزيز على حقوك انه بالردف حل منك مالا يحمل
تحدى له جسمي مكان وشاحه إن العليل بشكله يتعلل »

وقريب من هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

« يا ليت عباس سربال على جسدي أو ليتني كنت سربالا لعباس »

(٢) وفي رواية ابن بسام: « لأصفين المرتضى جهورا »

جَزَاءِ مَا رَفَّهَ شُرْبَ الْمُـــنَى   وَأَذَّنَ السَّعْيُ بِوَشْكِ النَّجَاحْ (١)

يَسَّرْتُ آمَالِي بِتَأْمِيـــلِهِ   فَمَا عَدَانِي مِنْهُ فَوْزُ الْقِدَاحْ (٢)

لَمْ أَشِمِ الْــبَرْقَ جَهَامًا وَلَمْ   أَقْتَدِحِ الصُّمَّ بِبِيضِ الصِّفَاحْ (٣)

مَنْ مِثْلُهُ ـ لَا مِثْلَ يُلْفَى لَهُ ـ   إِنْ فَسَدَتْ حَالٌ فَمَزَّ الصَّلَاحْ

يَا مُرْشِدِي جَهْلًا إِلَى غَـــيْرِهِ   أَغْنَى عَنِ الْمِصْبَاحِ ضَوْءُ الصَّبَاحْ

رَكِينُ مَا تُثْنَى عَلَيْهِ الْحُبَا   يَهْفُو بِهِ نَحْوَ الثَّنَاءِ ارْتِيَاحْ (٤)

ذُو بَاطِنٍ أُقْبِسَ نُورَ التُّقَى   وَظَاهِرٍ أُشْرِبَ مَاءَ السَّــمَاحْ

أُنْظُرْ تَرَ الْبَدْرَ سَـــنًا وَاخْتَبِرْ   تَجِدْهُ كَالْمِسْكِ إِذَا مِيثَ فَاحْ (٥)

***

إِيهِ « أَبَا الْحَزْمِ » اهْتَبِلْ غِرَّةً   أَلْسِنَةُ الشُّكْرِ عَلَيْهَا فِصَاحْ (٦)

لَا طَارَ بِي حَظٌّ إِلَى غَايَةٍ   إِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْكَ مَرِيشَ الْجَنَاحْ

---

(١) رفه : من ورود الإبل رفها ، وهو أن ترد الماء فى كل يوم متى شاءت .

(٢) يسرت يجوز أن يكون بالتشديد بمعنى سهلت وبالتخفيف من يسر ييسر إذا ضرب بقداح الميسر — والمعنى على الثانى ضربت بقداح آمالى ياسراً فلم يعدنى أن فزت بأوفر القداح حظوظا ، وفى رواية ابن بسام : « نثرت آمالى بتأميله »

(٣) أى لم أنظر البرق ليس فيه مطر ، ولم أقتدح صلدا لم يور ناراً .

(٤) ركين من الركانة أى الرزانة — والمعنى : أنه وقور الحبوة رزينها يهفو به ويحركه نحو المدح أريحية فيهتز بعد سكون فى مجلسه ووقار .

(٥) ماث الشىء يميثه إذا مرسه بيده فى الماء فذاب من مسك ونحوه — يقول انظر تره كالبدر سنا وبهاء واختبره تجده كالمسك فاح شذاه وقد ميث أى مرس باليد ، والمسك — إذا سحق — فاح شذاه ، وقد قال المعرى فى هذا المعنى وأجاد ما شاء أن يجيد .

« عل البلى سيفيد المرء فائدة   فالمسك يزداد من طيب إذا سحقا »

(٦) اهتبل : اغتنم يقال اهتبلت غفلته — والغرة : بالكسر الغفلة ، وفى المثل « الغرة تجلب الدرة » أى الغفلة تجلب الرزق — والمعنى : أستكثر أبا الحزم فى غفلة أعدائك من المغانم والأموال تنطلق الألسنة مفصحة بشكرك ، وفى رواية ابن بسام : « ألسنة الدهر عليها فصاح »

عُتْبَاكَ ـ بَعْـدَ الْعَتْبِ ـ أُمْنِيَّةٌ ... مَا لِى عَلَى الدَّهْرِ سِوَاهَا اقْتِرَاحْ [1]

لَمْ يَثْنِنِى عَنْ أَمَلٍ مَا جَرَى ... قَدْ يُرْقَعُ الْخَرْقُ وَتُوْسَى الْجِرَاحْ

فَاشْحَذْ ـ بِحُسْنِ الرَّأْىِ ـ عَزْمِى يُرَعْ ... مِنِّى الْعِدَا، أَلَيْسَ شَاكِى السِّلَاحْ؟ [2]

وَاشْـفَعْ فَلِلشَّافِعِ نُعْمَى بِمَا ... سَنَّاهُ مِنْ عَقْدٍ وَثِيقِ النَّوَاحْ [3]

إِنَّ سَحَابَ الْأُفْقِ مِنْهَا الْحَيَا ... وَالْحَمْدُ فِى تَأْلِيفِهَا لِلرِّيَاحْ [4]

وَقَاكَ مَا تَخْشَى مِنَ الدَّهْرِ مَنْ ... تَعِبْتَ فِى تَأْمِينِهِ وَاسْـتَرَاحْ

هـــدية تفاح

« وقال فى تفاح أهداه إلى المعتضد بالله
أبى عمرو عباد بن محمد بن عباد »

يَا مَنْ تَزَيَّنَتِ الرِّيَا ... سَةُ حِينَ أُلْبِسَ ثَوْبَهَا

وَلَهُ يَدٌ يَئِسَ الْغَـمَا ... مُ مِنَ اَنْ يُعَارِضَ صَوْبَهَا [5]

جَاءَتْكَ جَامِدَةُ الْمُدَا ... مِ فَخُذْ عَلَيْهَا ذَوْبَهَا [6]

---

(١) العتبى : الرجوع إلى ما يرضى العاتب أى رجوعك بعد العتاب إلى ما يرضينى أمنيه لا اقترح على الدهر سواها . (٢) قوّ بحسن الرأى عزمى يخف منى العدا ، أليس عزمى شاكي السلاح ؟

(٣) سناه : سهله ويسره ـ من عقد : أى من حل عقد ـ وثيق النواح : أى عسر الحل من أى نواحيه أتيته ، وقرأت شاهدا على هذا فى أمالى أبى القاسم الزجاجى ، إن معاوية بن أبى سفيان صرف روح ابن زنباع عن عمله لخيانة بلغته عنه ، وأمره بالقدوم عليه ففعل ، وأمر بضربه فلما أخذته السياط قال :

« نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم منى ركنا أنت بنيته ، أو تضع منى خسيسة أنت رفعتها » الخ ما قال ، فقال معاوية . « إذا الله سنى حل عقد تيسر ، خليا عنه » ـ ومعنى البيت أنه يطلب شفاعته ، ويبين أن للشافع على المشفوع له يد ونعمة بسبب ما سهله ويسره من حل عقد تيسر بعد أن تعقدت أواخيه وتوثقت نواحيه . (٤) الحيا : المطر ـ يريد أن الحمد للشافع لا للذى قبل منه الشفاعة ، كما أن الحمد ليس للسحب التى منها المطر بل للرياح التى تزجيها ثم تؤلف بينها فتمطر ، وقد كرر هذا المعنى فى بعض قصائده فقال :

للشفيع الثناء ـ والحمد فى صو ب الحيا للرياح لا للغيوم

انظر (ص) من هذا الديوان . وقد سبقه البحترى إلى هذا المعنى فقال وأبدع :

« حازحمدي ، وللرياح ـ اللواتى تجلب الغيث ـ مثل حمد الغيوم »

(٥) نزول المطر . (٦) جعل للمدام وهى الخمر نوعين جامدة وهى التفاح وذائبة وهى الراح وطلب إلى الممدوح أن يشرب عليها ذوبها وهى الراح الحقيقية .

لا يهنأ الشامت

« قال يمدح أبا الحزم بن جهور وقد كتبها
إليه من السجن . »

مَا جَالَ بَعْدَكِ لَحْظِى فِى سَنَا الْقَمَرِ ... إِلاَّ ذَكَرْتُكِ ذِكْرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ (١)

وَلاَ اسْتَطَلْتُ ذَمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسَفٍ ... إِلاَّ عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقِصَرِ (٢)

نَاهِيكِ مِنْ سَهَرٍ بَرْحٍ تَأَلَّفَهُ ... شَوْقٌ إِلَى مَا انْقَضَى مِنْ ذٰلِكَ السَّمَرِ

فَلَيْتَ ذَاكَ السَّوَادَ الْجَوْنَ مُتَّصِلٌ ... لَوِ اسْتَعَارَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ (٣)

***

أَمَّا الضَّنَى فَجَنَتْهُ لَحْظَةٌ عَنَنٌ ... كَأَنَّهَا وَالرَّدَى جَاءَا عَلَى قَدَرِ (٤)

فَهِمْتُ مَعْنَى الْهَوَى مِنْ وَحْيِ طَرْفِكِ لِى ... إِنَّ الْحِوَارَ لَمَفْهُومٌ مِنَ الْحَوَرِ

وَالصَّدْرُ مُذْ وَرَدَتْ رِفْهاً نَوَاحِيَهُ ... تُومُ الْقَلاَئِدِ لَمْ تَجْنَحْ إِلَى صَدَرِ (٥)

---

(١) أى لم أجل ملحظى فى نور القمر بعد غيبتك عنى إلا ذكرتك كما يذكر الرائى عين الشىء وذاته بما يراه من آثاره . (٢) الذماء : بالفتح البقية الباقية من الليل — أى ما تمنيت أن يطول ما بقى من عمر الليل إلا أسفا على ليلة اشتملت على ما يسر مع قصرها والشعراء كثيرا ما يصفون ليالى الوصال بالقصر ، ومن أبدع ما قرأناه فى ذلك قول الشريف الرضى :

« أشكو الليالى غير معتبة ... إما من الطول أو من القصر

تطول فى هجرهم وتقصر فى الوصـ ... ـل ، فلا نلتقى على القدر

يا ليلة كاد من تقاصرها ... يعثر فيها العشاء بالسحر »

(٣) يتمنى أن يصل ظلام الليل بما يستعيره من سواد القلب والبصر ، ولو تمنى أى وليته استعار ، ولا خفاء أن سويداء القلب وسواد العين من أنفس الأشياء وأعزها ، ولكنه يبذلهما طائعا فى سبيل استدامة الليل وطوله ، وجاء لابن بسام فى الذخيرة فى نقد هذا البيت . قوله : « لو استعار سواد القلب والبصر » لفظ للمعرى حيث يقول :

يودّ أنّ ظلام الليل دام له ... وزيد فيه سواد القلب والبصر

(٤) العنن : بفتحتين من عنّ الشىء إذا ظهر أمامك واعترض .

(٥) رفها : هو أن ترد الإبل الماء كل يوم — توم القلائد : جمع تومة بالضم وهى اللؤلؤة ، استعار ورود الإبل رفها لملازمة الحلى صدرها من غير أن تجنح بعد الورود إلى الصدر .

حُسْنٌ أَفَانِينُ لَمْ تَسْتَوْفِ أَعْيُنُنَا ... غَايَاتِهِ بِأَفَانِينٍ مِنَ النَّظَرِ

وَاهاً لِثَغْرِكِ ثَغْراً بَاتَ يَكْلَؤُهُ ... غَيْرَانُ تَسْرِى عَوَالِيهِ إِلَى الثُّغَرِ (١)

يَقْظَانُ لَمْ يَكْتَحِلْ غَمْضاً مُرَاقَبَةً ... لِرَابِطِ الْجَأْشِ مِقْدَامٍ عَلَى الْغِرَرِ (٢)

لاَ لَهْوُ أَيَّامِهِ الْخَالِى بِمُرْتَجَعٍ ... وَلاَ نَعِيمُ لَيَالِيهِ بِمُنْتَظَرِ

إِذْ لاَ التَّحِيَّةُ إِيمَاءٌ مُخَالَسَةً ... وَلاَ الزِّيَارَةُ إِلْمَامٌ عَلَى خَطَرِ

مُنًى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ تَذَكُّرُهَا ... إِنَّ الْغَرَامَ لَمُعْتَادٌ مَعَ الذِّكَرِ

***

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ حَالِى فَشَاهِدُهَا ... مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِى يُغْنِى عَنِ الْخَبَرِ

لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِى كَبْرَةٌ وَأَرَى ... بَرْقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِى عَارِضِ الشَّعَرِ (٣)

قَبْلَ الثَّلاَثِينَ إِذْ عَهْدُ الصِّبَا كَثَبٌ ... وَلِلشَّبِيبَةِ غُصْنٌ غَيْرُ مُهْتَصَرِ

---

(١) يكلؤه : يحفظه ويغار عليه — وغيران : وصف من الغيرة — والعوالى صدور الرماح — الثغر : جمع ثغرة بالضم وهى الطرق والمنافذ المسلوكة أو أراد بها جمع الثغرة وهى النقرة فى النحر .

(٢) الغرر : جمع غرة بالكسر وهى الغفلة ، والمعنى : أنه ينتهز غرّات الرقيب الساهر طول ليله غيرة وحفاظا ومراقبة ، فيقدم رابط الجأش بالرغم من يقظته وتنبهه ومراقبته إياه ، ولا يحجم عما اعتزمه من موافاة حبيبه .

(٣) الكبرة : بفتح فسكون كبر السن — والعارض : الخد يقال أخذ الشعر من عارضيه — والمعنى : أن بياض المشيب وخط عارضيه قبل أن يخلع برد الشباب وقبل أن يعد من سنيه ثلاثين ربيعا ، وأبدع أبو نواس فى هذا المعنى أيما إبداع إذ يقول فى سينيته :

« وإذا عددت سنى ، كم هى؟ لم أجد ... للشيب عذرا فى النزول برأسى

قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدى ... عن أن تسير إلى فمى بالكاس »

وقال ابن الرومى : « قد يشيب الفتى وليس عجيبا ... أن يرى النور فى القضيب الرطيب »

وقال الآخر : « ياعمرو هل لك فى شيخ فتى أبدا ... وقد يكون شباب غير فتيان »

وقال أبو العلاء : ارجع إلى السن فانظر ما تقادمها ... فاحكم عليه ولا تحكم على الشعر

فكم ثلاثين حولا شيبت ، ومضت ... ستون ، والشيب فيها غير مستعر

وليس ذلك إلا صبغة جعلت ... طبعا ، وإن قيل : شاب الرأس للدهر .

هَا إِنَّهَا لَوْعَةٌ فِى الصَّدْرِ قَادِحَةٌ   نَارَ الأَسَى وَمَشِيبِى طَائِرُ الشَّرَرِ (١)

***

لَا يَهْنِئُ الشَّامِتَ الْمُرْتَاحَ خَاطِرُهُ   أَنِّى مُعَنَّى الأَمَانِى ضَائِعُ الخَطَرِ (٢)

هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الأَرْضِ عَاصِفَةٌ ؟   أَمِ الْكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ (٣)

إِنْ طَالَ فِى السِّجْنِ إِيدَاعِى، فَلَا عَجَبٌ   قَدْ يُودَعُ الْجَفْنَ حَدُّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ

وَإِنْ يُثَبِّطْ ـ «أَبَا الحَزْمِ» الرِّضَى ـ قَدَرٌ   عَنْ كَشْفِ ضُرِّى فَلَا عَتْبٌ عَلَى الْقَدَرِ

***

مَا لِلذُّنُوبِ ـ الَّتِى جَانِى كَبَائِرِهَا   غَيْرِى ـ يُحَمِّلُنِى أَوْزَارَهَا وَزَرِى (٤)

---

(١) أى أنها لوعة تقدح نار الأسى والحزن فى صدره ، ومشيب رأسه ما تطاير من شرر تلك النار الموقدة فيه ، وجاء فى الذخيرة لابن بسام قبل هذا البيت قوله :

يا للرزايا لقد شافهت منهلها   غمرا فما أشرب المكروه بالغمر

والغمر القدح الصغير ، فهو يعنى أنه لا يشرب من المصائب بالقدح الصغير .

وجاء بعده فى نسختى الديوان المخطوطتين هذا البيت ناقصا هكذا :

حوادث استعرضتنى مابدرت لها   عراره . . . .

ونحن أثبتناهما هنا كما وجدناهما .

(٢) لا يهنأ : يقال هناه الأمر أى تهنأ به — معنى الأمانى : اسم مفعول من العناء وهو التعب — والخطر الشرف والمنزلة — والمعنى : لا يتهنأ الشامت المثلوج الفؤاد بكونى فى عناء ونصب بسبب الأمانى وبكونى ضائع القدر والمنزلة .

(٣) أراد بنجم الأرض ما نجم على وجهها من النبات ولم يقم على ساق ومنه قوله تعالى « والنجم والشجر يسجدان » وهذا البيت تعليل لما قبله أى لا تفرح أيها الشامت فالريح لا تعصف إلا بما له ساق من الشجر ، والكسوف : لا يكون لغير الشمس والقمر — وهو معنى طرقه الشعراء كثيرا ، ومنه قول أبى تمام

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت   عيدان نجد ولم يعبأن بالرتم

بنات نعش ونعش لا كسوف لها   والشمس والبدر منها الدهر فى رقم

وقريب منه قوله أيضاً :

لا تنكرى عطل الكريم من الاذى   فالسيل حرب للمكان العالى

(٤) الوزر : بالكسر الذنب والوزر بفتحتين الملجأ والمنجا — والمعنى : لأىّ سبب يحملنى ملجئى ومعتصمى تبعة ما جناه غيرى من كبائر الذنوب ، وهو نظير قول المعرى :

وجرم جره سفهاء قوم   وحل بغير جارمه العقاب

مَنْ لَمْ أَزَلْ منْ تَأَنِّيـــهِ عَلَى ثِقَةٍ   وَلَمْ أَبِتْ مِنْ تَجَنِّيهِ عَلَى حَذَرِ (١)

ذُوالشِّيمَةِ الرَّسْلِ ـ إِنْ هِيجَتْ حَفِيظَتُهُ ـ   وَالجَانِبِ السَّهْلِ وَالْمُسْتَعْتَبِ الْيَسَرِ (٢)

مَنْ فِيـــهِ لِلْمُجْتَلِي وَالْمُبْتَلِي نَسَقَا   جَمَالَ مَرْأَى عَلَيْهِ سَرْوُ مُخْتَبَرِ (٣)

مُدَلِّلٌ لِلْمَسَاعِي حُكْمَهَا شَطَطًا   عَلَيْهِ وَهْوَ الْعَزِيزُ النَّفْسِ وَالنَّفَرِ (٤)

وَزِيرُ سَـــلْمٍ كَفَاهُ يُمْنُ طَائِرِهِ   شُؤْمَ الحُرُوبِ وَرَأْيٌ مُحْصَدُ الْمِرَرِ (٥)

أَغْنَتْ قَرِيحَتُهُ مَغْـــــنَى تَجَارِبِهِ   وَنَابَتِ اللَّمْحَةُ الْعَجْلَى عَنِ الْفِكَرِ (٦)

كَمِ اشْتَرَى ـ بِكَرَى عَيْنَيْهِ ـ مِنْ سَهَرٍ ،   هُدُوءَ عَيْنِ الْهُدَى فِي ذَلِكَ السَّهَرِ

فِي حَضْرَةٍ غَابَ صَرْفُ الدَّهْرِ ـ خَشْيَتَهُ ـ   عَنْهَا ، وَنَامَ الْقَطَا فِيهَا فَلَمْ يُثِرِ

مُمَتَّعٌ بِالرَّبِيـــعِ الطَّلْقِ نَازِلُهَا   يُلْهِيهِ عَنْ طِيبِ آصَالٍ نَدَى بُكَرِ

مَا إِنْ يَزَالُ يَبُثُّ النَّبْتَ فِي جَـــلَدٍ   ـ مُذْ سَاسَهَا ـ وَيُفِيضُ الْمَاءَ مِنْ حَجَرِ (٧)

***

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي وَالنَّجْمَ فِي قَرَنٍ   فَفِيمَ أَصْبَحْتُ مُنْحَطًا إِلَى الْعَفَرِ (٨)

---

(١) التأنى : التمهل ، والتجنى : ادعاء ذنب لم يفعله — أى أنا على ثقة من الحصول على أمنيتى ، وان تأنى ، ولا أحذر أن ينسب إلىّ ذنبا لم أفعله .

(٢) الشيمة الرسل : الخلق السهل السمح — والحفيظة : الغضب — والمستعتب : مصدر ميمى بمعنى الاستعتاب أى الاسترضاء يقال استعتبته أى استرضيته فأعتبه أى أرضاه — واليسر : الميسر .

(٣) المجتلى : الناظر ، والمبتلى : المختبر ، والسرو : الشرف أى مختبر سرى شريف .

(٤) المساعى المآثر أى مدلل لمساعيه أن تشتط عليه فى الحكم وهو العزيز النفس المنيع الجانب .

(٥) محصد المرر : مفتول القوى .

(٦) يقول انه لألمعيته لايحتاج الى تجارب وان بداهته تغنى عن رويته ونظرته السريعة تغنى عن إطالة الفكر وقديماً قالوا :

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

(٧) الجلد : الأرض الصلبة ، أى أنه منذ ساس المملكة وهو دائب على بث النبات والزرع فى أرض لاتنبت لصلابتها وإفاضة الماء إليها من عيون تتفجر من الصخر .

(٨) يقول : ما بالك أخلفت آمالى وبدلت مكانتى العالية عندك التى كنت تحلى بها فوق ذروة النجم فأنزلتنى إلى حضيض الهوان؟

أَحِينَ رَفَّ عَلَى الآفَاقِ مِنْ أَدَبِي   غَرْسٌ لَهُ مِنْ جَنَاهُ يَانِعُ الثَّمَرِ (١)

وَسِـــيلَةً سَبَباً ـ إِلاَّ تَـكُنْ نَسَباً ـ   فَهْوَ الْوِدَادُ صَفاً مِنْ غَيْرِ مَا كَدَرِ

*
* *

وَبَاقٍ مِنْ ثَنَاءٍ حُسْنُهُ مَثَلٌ   وَشْىُ الْمَحَاسِنِ مِنْهُ مُعْلَمُ الطُّرَرِ

يُسْتَوْدَعُ الصُّحْفَ لاَ تَخْفَى نَوَافِحُهُ   إِلاَّ خَفَاءَ نَسِيمِ الْمِسْكِ فِى الصُّرَرِ (٢)

مِنْ كُلِّ مُخْتَالَةٍ بِالْحِبْرِ رَافِلَةٍ   فِيهِ اُخْتِيَالَ الْـكَعَابِ الرُّودِ بِالْحِبَرِ (٣)

تُجْنَى لَهَا الرَّوْضَةُ الْغَنَّاءُ أَضْحَكَهَا   مَجَالُ دَمْعِ النَّدَى فِى أَعْيُنِ الزَّهَرِ (٤)

---

(١) رف النبات اهتز ـ يقول : هل حين انتشرت آدابى ومدائحى فى الآفاق فاحتت يانع الثمر ، ولم يذكر جواب الاستفهام فى البيت بعده لأنه مفهوم من السياق ، وهى عادة مألوفة كما قال الشاعر :

« الآن لما كنت أكمل من مشى   وافتر نابك عن شباة القارح
وتكاملت فيك المروءة والتقى   وأعنت ذلك بالفعال الصالح »

وقول القائل :

« أبت لى همتى وأبى بلائى   وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإحشامى على المكروه نفسى   وضربى هامة البطل المشيح
وقولى ـ كلما جشأت وجاشت ـ   مكانك تحمدى أو تستريحى »

وربما ذكر الجواب كما ترى فى قول ابن الرومى :

« الآن حين رأرت واستمع الورى   رأيى وأنذر كلب شر ذيبه
الآن حين سبقت كل مسابق   فتركت أسرع جريه تقريبه
يتكلف المتكلفون رياسق   ليطل بذلك معجب تعجيبه »

(٢) أى يستودع ذلك الثناء ـ المضروب بحسنه المثل ـ بطون الصحف ولا يمكن أن يخفى ما يفوح من أريجه إلا إذا خفى ريح المسك فى الصرر .

(٣) أى من كل صحيفة تختال بما فيها من المداد الذى سطرت به آيات بيانه وسحر بلاغته اختيال الجارية التى كعب ثدياها بما تلبسه من وشى منمر وبرد محبر .

(٤) أى أنه يصطحب المحبرة التى يكتب بمدادها آيات بلاغته ويمحو لأجلها الروضة الغناء أضحكها الحيا ، وجالت فى أعين أزهارها دموع الندى .

يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ حَيًّا وَهْوَ - إِنْ فَنِيَتْ حَيَاتُهُ - زِينَةُ الآثَارِ وَالسِّيَرِ [١]

لِي فِي اعْتِمَادِكَ - بِالتَّأْمِيلِ - سَابِقَةٌ وَهِجْرَةٌ - فِي الْهَوَى - أَوْلَى مِنَ الْهِجَرِ

فَفِيمَ غَضَّتْ هُمُومِي مِنْ عُلاَ هِمَمِي وَحَاصَ بِي مَطْلَبِي عَنْ وِجْهَةِ الظَّفَرِ؟ [٢]

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ فَمَاءُ الْعَتْبِ لِي أَسِنٌ إِلَى الْعُذُوبَةِ مِنْ عُتْبَاكَ وَالْخَصَرِ؟ [٣]

نَذَرْتُ شُكْرَكَ لاَ أَنْسَى الْوَفَاءَ بِهِ إِنْ أَسْفَرَتْ لِيَ عَنْهَا أَوْجُهُ الْبُشَرِ [٤]

***

لاَ تَلْهُ عَنِّي فَلَمْ أَسْأَلْكَ مُعْتَسِفاً رَدَّ الصِّبَا بَعْدَ إِيفَاءٍ عَلَى الْكِبَرِ [٥]

وَاسْتَوْفِرِ الحَظَّ مِنْ نُصْحٍ وَصَاغِيَةٍ كِلاَهُمَا الْعِلْقُ لَمْ يُوهَبْ وَلَمْ يُعَرِ [٦]

هَبْنِي جَهِلْتُ فَكَانَ الْعِلْقُ سَيِّئَةً لاَ عُذْرَ مِنْهَا سِوَى أَنِّي مِنَ الْبَشَرِ

إِنَّ السِّيَادَةَ بِالإِغْضَاءِ لاَبِسَةٌ بَهَاءَهَا وَبَهَاءُ الْحُسْنِ فِي الْخَفَرِ

---

(١) يعني في هذا البيت ممدوحه وهو لا يزال حيا يرزق ، وقد أخذ هذا المعنى — ولم يحسن الأخذ — من قول أبي العلاء :

« جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم بعد الممات جمال الكتب والسير . »

(٢) حاص : حاد ومال .

(٣) العتب : السخط وإظهار الموجدة لمخالفة ارتكبت ، والعتبى : الرضا والرجوع إلى المسرّة بعد السخط ، والخصر : البرودة ، والمعنى : هل من سبيل بعد العتب الشبيه بالماء الآسن أي المتغير الذي لا يستسيغه شاربه إلى العتبى الشبيه بالماء العذب البارد السائغ شرابه — وقد أحسن أبو العلاء في جعل برد الماء الذي يصير به أطيب لشاربه سببا في هجره لإفراطه في الخصر والبرودة وذلك حيث يقول :

« لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر . »

(٤) الضمير في « عنها » عائد إلى العتبى ، والبشر : جمع بشرى .

(٥) أي لم أعتسف في السؤال ولم أطلب مستحيلا .

(٦) استوفر : استكثر ، وصاغية : الإنسان خاصته الذين يميلون إليه ويغشون مجلسه ويطلبون ما عنده والعلق : الشيء النفيس الذي يضنّ به لنفاسته فلا يوهب ولا يعار ، وقد ورد في ديوان الحماسة قول الشاعر :

« أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا يعار ولا يباع
مفـــداة مكرمة علينا يجاع لها العيال ولا تجاع
ســـليلة سابقين تناجلاها إذا نسبا يضمهما الكراع . »

لَكَ الشَّفَاعَةُ لاَ تُثْنَى أَعِنَّتُهَا ... دُونَ الْقَبُولِ بِعَقْبُولٍ مِنَ الْعِذَرِ [١]

وَالْبَسْ مِنَ النِّعْمَةِ الْخَضْرَاءِ أَيْكَتَهَا ... ظِلاًّ حَرَامًا عَلَى « الآفَاتِ وَالْغِيَرِ » [٢]

نَعِيمَ جَنَّةِ دُنْيَا ـ إِنْ هِيَ انْصَرَمَتْ ـ ... نَعِمْتَ بِالْخُلْدِ فِي الْجَنَّاتِ وَالنَّهَرِ

أترع الكأس

أَدِرْهَا فَقَدْ حَسُنَ الْمَجْلِسُ ... وَقَدْ آنَ أَنْ تُتْرَعَ الأَكْؤُسُ

وَلاَ بَأْسَ إِنْ كَانَ وَلَّى الرَّبِيعُ ... إِذَا لَمْ تَجِدْ فَقْدَهُ الأَنْفُسُ [٣]

فَإِنَّ خِلاَلَ أَبِي عَامِرٍ ... بِهَا يَحْضُرُ الْوَرْدُ وَالنَّرْجِسُ [٤]

لا حيلة في الحب

يَا مُخْجِلَ الْغُصْنِ الْفَيْنَانِ إِنْ خَطَرَا ... وَفَاضِحَ الرَّشَإِ الْوَسْنَانِ إِنْ نَظَرَا [٥]

يَفْدِيكَ مِنِّي مُحِبٌّ شَأْنُهُ عَجَبٌ ... مَا جِئْتَ بِالذَّنْبِ إِلاَّ جَاءَ مُعْتَذِرَا [٦]

لَمْ يُنْجِنِي مِنْكَ مَا اسْتَشْعَرْتُ مِنْ حَذَرٍ ... هَيْهَاتَ كَيْدُ الْهَوَى يَسْتَهْلِكُ الْحَذَرَا

مَا كَانَ حُبُّكَ إِلاَّ فِتْنَةً قُدِرَتْ ... هَلْ يَسْتَطِيعُ الْفَتَى أَنْ يَدْفَعَ الْقَدَرَا [٧]

---

(١) العذر : جمع عذرة كسدرة مصدر كالعذر . (٢) وجد هذا البيت فى الأصل ناقصاً هكذا :

وألبس من النعمة الخضراء أيكتها ... ظلا حراما على الارفات . .

ووجد فى هامش بعض النسخ تكملة لهذا البيت كله (والغير) وهذه الكلمة ياسمها الآفات لا الارفات فحصلت تكملة البيت بكلمتين كما ترى إحداهما من هامش بعض الأصول ، والأخرى يعطيها السياق .

(٣) أدر الكأس فقد صفا المجلس وأغناه حسنه عن حسن الربيع فلم نعد نحس للربيع فقدا .

(٤) فإن خلال أبى عامر تذكرنا بالورد والنرجس وينسينا طيبها عنهما .

(٥) يقول : « إنك تزرى بالغصن المورق إن مشيت وتزرى بالظبى الفاتر الطرف إن نظرت .

(٦) يقدمك الفداء محب أمره عجيب ، ذلك كلما أتيت ذنباً أبى إلا أن يلتمس لك الأعذار ويخلقها لك خلقاً

(٧) كنت أقدر أنك تهجرنى بعد الوصال وكنت أتلافى كل سبب يؤدى إلى ذلك وأحاذر جهدى ألا يقع ما خفته ولكن القدر لابد أن ينفذ حكمه وليس يدفعه حذر . وما أجمل قول الشاعر النابغ محمود أبى الوفا :

« يا لائمى فى الهوى دعنى وما خلقت ... روحى له ، ليس أمرى فى الهوى بيدى »

وقول العباس بن الأحنف :

« لقد ولدت حواء منك بلية ... علىّ أقاسيها ، وخبلا من الخبل . »

فى مدح ابن جهـــور

مَرَادُهُمُ حَيْثُ السِّلَاحُ خَمَائِلُ   وَمَوْرِدُهُمْ حَيْثُ الدِّمَاءُ مَنَاهِلُ (١)

وَدُونَ الْمُنَى فِيهِمْ جِيَادٌ صَوَافِنٌ   وَمَأْثُورَةٌ بِيضٌ وَسُمْرٌ عَوَامِلُ (٢)

لِكُلِّ نَجِيدٍ فِى النِّجَادِ كَأَنَّمَا   تُنَاطُ بِمَتْنِ الرُّمْحِ مِنْهُ الْحَمَائِلُ (٣)

طَوِيلٌ عَلَيْنَا لَيْلُهُ مِنْ حَفِيظَةٍ   كَأَنَّ صَبَابَاتِ النُّفُوسِ طَوَائِلُ (٤)

كِنَاسٌ دَنَا مِنْهُ الشَّرَى فِى مَحَلَّةٍ   بِهَا اللَّيْثُ يَعْدُو وَالْغَزَالُ يُغَازِلُ (٥)

---

(١) المراد : اسم مكان من راد يرود أى ارتاد طلبا للنجعة والكلأ ، والخمائل . جمع خميلة وهى الشجر الكثير المجتمع الملتف الذى يستر ما فى داخله ، والمناهل ــ جمع منهل ــ وهو موضع النهل وهو الشرب أولا يقال شرب عللا بعد نهل يريد أنهم ينهلون من دم واردهم ، والمعنى : الذى يرود حمى أولئك العرب الأنجاد حيث تسكن النجعة يرود هناك خمائل يكثر فيها السلاح وتشتجر الرماح، ومن يرد منهم يجد مناهل تنهل فيها الدماء وتتعرض واردها لأسباب الفناء .

(٢) الصوافن : من الخيل جمع صافن وهو الذى يقوم على ثلاث ويثنى سنبك الرابعة ، ومأثورة صفة السيوف ، يقال سيف مأثور أى فى متنه أثر بفتح فسكون وهو فرند السيف وجوهره وديباجته ، والسمر الرماح ، والعوامل : صدورها جمع عامل ، يقول دون ما سماه حمى منيع بالصافنات الجياد وبيض السيوف وسمر الرماح .

(٣) نجيد : شجاع ذو نجدة وبأس ، والنجاد : حمائل السيف ، وتناط : تعلق ، بمتن الرمح : أى بقامة كالرمح فى الطول ، والعرب تمدح بالطول وتذم الدمامة والقصر ، قال رجل من طيئ :

«ولما التقى الصفان واختلف القنا   نهالا وأسباب المنايا نهالها
تبين لى أن القماءة ذلة   وأن أعزاء الرجال طوالها
دعوا يا لسعد وانتمينا لطيئ   أسود الشرى إقدامها ونزالها .»

وقد أجاد أبو العلاء فى مدح القصر ، فقال :

«حب الأنام لطول همة ماجد   أوفى به قصر على أضرابه
سهم الفتى أقصى مدى من سيفه   والرمح ، يوم طعانه وضرابه .»

(٤) الحفيظة : الغضب ، والصبابات : جمع صبابة وهى العشق ، والطوائل : جمع طائلة وهى الترة والثأر يقول يطول على كل طويل النجاد ليله من حفيظة وغضب علينا ، وكأن العشق وصبابات النفوس أوجبت له عندنا طوائل وترات فهو كمن يطلبنا ليثأر منا .

(٥) الكناس : مأوى الظباء والبقر الذى تستكن فيه من الحر ، والشرى : موضع تنسب إليه الأسود .

أَمَمْرُ الْقِبَابِ الْحُمْرِ وَسْطَ عَرِينِهِمْ   لَقَدْ قُصِرَتْ فِيهَا السُّرُوبُ الْعَقَائِلُ(١)

أَمَحْجُوبَةٌ لَيْلَى وَلَمْ تُخْضَبِ الْقَنَا   وَلاَ حَجَبَتْ شَمْسَ الضَّحَاءِ الْقَسَاطِلُ؟(٢)

أَنَاةٌ عَلَيْهَا مِنْ سَنَا الْبَدْرِ مِيسَمٌ   وَفِيهَا مِنَ الْغُصْنِ النَّضِيرِ شَمَائِلُ(٣)

يَجُولُ وِشَاحَاهَا عَلَى خَيْزُرَانَةٍ   وَتَشْرَقُ فِى «مَوْشِيَّتَيْنِ» الْخَلاَخِلُ(٤)

وَلَيْلَةَ وَافَتْنَا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدٍ   كَمَا رِيعَ وَسْنَانُ الْعَشِيَّاتِ خَاذِلُ(٥)

تَهَادَى ـ انْسِيَابَ الْأَيْمِ ـ يَعْفُو إِثَارَهَا   مِنَ الْوَشْيِ مَرْقُومُ الْمِطَافَيْنِ ذَائِلُ(٦)

---

(١) العرين : مأوى الأسد ، وقصرت : حبست قال تعالى « حور مقصورات فى الخيام » أى محبوسات فى الخيام مخدّرات على أرواحهن فى الحبات ، والسروب جمع سرب بالكسر وهو القطيع من الظباء والنساء والطير ، والمنصوص فى كتب اللغة أنه يجمع على أسراب وسراب ، وقد جمعه هنا على سروب ، والقياس لا يأباه كما فى حمل وحمول وضرس وضروس ، والعقائل : جمع عقيلة وهى من النساء الكريمة المخدرة ، والمعنى أقسم بحياة القباب الحمر وسط عرين حماتها والذائدين عنها من أولئك الأسود لقد حبست فيها أسراب العقائل ومنعت من السروب إليها والخروج لملاقاتنا .

(٢) الضحاء : ارتفاع النهار ووقته عقب الضحى قبل انتصاف النهار ، والقساطل . جمع قسطل وهو الغبار الساطع

(٣) الأناة . المرأة التى فيها فتور عن القيام وتأن ، قال الشاعر :

أناة تزين البيت إما تلبست   وإن قعدت هلا فأحسن بها هلا

أى تزين البيت لابسة حليها ومتفضلة بثوب واحد ، والسنا : الضوء ، والميسم ما عليها من أثر الوسامة والحسن ، والشمائل : الطباع .

(٤) وفى الأصل « وتشرق فى بردتين الخلاخل » وبهذه الرواية يختل وزن البيت ، وقد أبدلناها بلفظة « موشيتين » الموضوعة بين قوسين لأنها تعنى بردتين منقوشتين ولأنها قريبة منها فى رسم الحروف ، إلى أن يظهر خلاف ما أثبتناه هنا .

(٥) ريع : من الأمر فاجئ ، والوسنان : الفاتر الطرف شبه المرأة الوسنى من النوم ، والعشيات : جمع عشية وهي آخر النهار ، والخاذل : من خذلت الظبية فهى خاذل تخلفت عن صواحبها وانفردت ، يقول ما أنس لا أنس ليلة وافتنا فى الكثيب لوقت حددناه موعدا للقاء فكانت كما ريع ظبى فاتر اللحظ انفرد عن سائر سرب الظباء . وقد مرّ الشطر الأول من هذا البيت فى قصيدته القافية ص(٢٤) من هذا الكتاب إذ قال :

وليلة وافتنا الكثيب لموعد   سرى الأين لم يعلم لمسراه مزحف

تهادى أناة الخطو مرتاعة الحشا   كما ريع يعفور الفلا المتشرف

(٦) تهادى : أصله تتهادى ، وهو مشى فى تثاقل وتمايل وسكون ، والأيم : والأين الحية ، ويعفو : يمحو والإثار : جمع أثر جمعه على فعال بالكسر جمعا قياسيا كما فى حبل وحبال وجمل وجمال ، قال ابن مالك :

« وفعـــل أيضا له فعال   ما لم يكن فى لامه اعتلال . »

قَميدَكِ ، أَنَّى زُرْتِ ضَوْءُكِ ساطعٌ ... وَطِيبُكِ نَفَّاحٌ وَحَلْيُكِ هَادِلُ (١)

هَبيكِ اغْتَرَرْتِ الحَىَّ وَاشِيكِ هَاجِعٌ ... وَفَرْعُكِ غِرْبِيبٌ وَلَيْلُكِ لاَئِلُ (٢)

فَأَنَّى اعْتَسَفْتِ الْهَوْلَ خَطْوُكِ مُدْمَجٌ ... وَرِدْفُكِ رَجْرَاجٌ وَعِطْفُكِ مَائِلُ

خَلِيلَىَّ مَالِى كُلَّمَا رُمْتُ سَلْوَةً ... تَعَرَّضَ شَوْقٌ دُونَ ذٰلِكَ حَائِلُ

أَرَاحُ إِذَا رَاحَ النَّسِيمُ شَآمِيًا ... كَأَنَّ شَمُولاً مَا تُدِيرُ الشَّمَائِلُ (٣)

ضَلاَلاً تَمَادَى الحُبُّ فى المَعْشَرِ العِدَا ... وَلَجَّ الْهَوَى فى حَيْثُ تُخْشَى الغَوَائِلُ (٤)

ولم نعثر فيما راجعناه من كتب اللغة على هذا الجمع ، والعطاف . بالكسر والمعطف كل ثوب كالرداء والطيلسان تعطفت أى ترديت به ، وسمى عطافا لوقوعه على عطفى اللابس وهما ناحيتا عنقه ، والمرقوم : ذو الوشى والنقش أو المكتوب عليه رقم التاجر ، والدائل ذو الذيل ، وهو أيضا من الدألان وهو مشى مقارب الخطو فيه نشاط وعجلة شبيه بمشية الذئب أو المثقل من حمل ، أو هو مشى سريع خفيف فى ميس وسرعة وبه سمى الذئب ذؤالة ، والمعنى الأول هو المقصود هنا، يقول وافتنا للموعد فى تلك الليلة تتهادى فى مشيتها كانسياب الحية فى الرمل يمحو ما تركته من آثار المشى ، ذيل ثوبها الموشى، وهو قريب من قول امرئ القيس :

« خرجت بها أمشى تجر وراءنا ... على أثرينا ذيل مرط مرحل. »

(١) قميدك : مصدر منصوب لنيابته عن الفعل والتقدير سألت الله حفظك ، وهادل : مرسل مسترخ إلى أسفل

(٢و٣) مكرران مع قوله فيما تقدم فى الفائية :

« هبيك اعتررت الحى واشيك هاجع ... وفرعك غربيب وليلك أغضف

فأنى اعتسفت الهول خطوك مدمج ... وردفك رجراج وخصرك مخطف »

ولكن بتغيير القافية كما ترى ، واغتررت : بالغين المعجمة أتيت منهم غرة وغفلة فزرتنا ، وقد ضمنه معنى خدعت فعداه إلى المفعول بنفسه ، وتقدم تفسيره بالعين المهملة بمعنى غشى الحى وطفت به سائلة على غير علم من أهله ، إلا أن هذا يستعمل غالبا فى المعتر أى طالب المعروف . قال حاتم الطائى :

« أوقد فإن الليل ليل قرّ ... والريح يا غلام ريح صرّ
لعلّ أن يبصرها المعتر ... إن جلبت ضيفاً فأنت حر. »

(٣) أراح : كأخاف من الارتياح ، وراح : من الرواح ، والشمول : من أسماء الخمر ، والشمائل : جمع الشمال بالفتح وهى ريح تهب من قبل الشام عن يسار القبلة ، وفى الشمال والشمول يقول الشاعر :

« ألمت سليمى والنسيم عليل ... فخيل لى أن الشمال شمول
كأن الخزامى صفقت منه قرقفا ... فسكر أعناق المطى تطول. »

(٤) معنى مكرر بلفظه ولكن بتغيير القافية مع قوله فى الفائية المتقدمة :

« لجاج تمادى الحب فى المعشر العدا ... وأم الهوى الأفق الذى فيه نشنف. »

كَأَنْ لَيْسَ فِى نُعْمَى الْهُمَامِ «مُحَمَّدٍ» ... مُسَلٍّ وَفِى مَثْنَى أَيَادِيهِ شَاغِلُ (١)

أَغَرُّ إِذَا شِمْنَا سَحَائِبَ جُودِهِ ... تَهَلَّلَ وَجْهُهُ وَاسْتَهَلَّتْ أَنَامِلُ (٢)

يُبَشِّرُنَا بِالنَّائِلِ الْغَمْرِ «جُودُهُ» ... وَقَبْلَ الْحَيَا مَا تَسْتَطِيرُ الْمَخَايِلُ (٣)

لَدَيْهِ رِيَاضٌ لِلسَّجَايَا أَنِيقَةٌ ... تَغَلْغَلُ فِيهَا لِلْعَطَايَا جَدَاوِلُ

أَنِيٌّ فَمَا تِلْكَ السَّمَاحَةُ نُهْزَةٌ ... وَفِيٌّ فَمَا تِلْكَ الْحِبَالُ حَبَائِلُ (٤)

زَعِيمُ الدَّهَاءِ أَنْ تُصَابَ مِنَ الْعِدَا ... مَكَايِدُهُ مَا لاَ تُصِيبُ الْجَحَافِلُ

فَمَا سَيْفُ ذَاكَ الْعَزْمِ فِيهِمْ بِمِعْضَدٍ ... وَلاَ سَهْمُ ذَاكَ الرَّأْيِ أَفْوَقُ نَاصِلُ (٥)

بَنِى «جَهْوَرٍ» عِشْتُمْ بِأَوْفَرِ غِبْطَةٍ ... فَلَوْلاَكُمُ مَا كَانَ فِى الْعَيْشِ طَائِلُ

تَفَاضَلَ فِى السَّرْوِ الْمُلُوكُ، فَخِلْتُهُمْ ... أَنَابِيبَ رُمْحٍ أَنْتُمُ فِيهِ عَامِلُ

---

(١) مسل: أى صارف عن الهوى لدى تحدث عنه فيما سبق من أبيات القصيدة، ومثنى الأيادى: إعادة المعروف مرتين فأكثر، والأصل أنه من جزور الميسر يشربها الجواد فيطعمها الأبرام، قال النابغة:

« ينبيك ذو عرضهم عنى وعالمهم ... وليس جاهل أمر مثل من علما
أنى أتمم أيسارى وأمنحهم ... مثنى الأيادى وأكسو الجفنة الأدما »

والبيت من أحسن أبيات التخلص من النسيب إلى المدح.

(٢) تهلل: أشرق وظهرت عليه أمارات السرور، واستهلت: من استهلال المطر وهو انصبابه بشدة حتى يسمع له صوت، شبه أنامله فى الجود بسحاب المنهل.

(٣) الحيا: المطر، ما تستطير: ما زائدة أو مصدرية، وتستطير: تنتشر وتعم الأفق، والمخايل: جمع مخيلة وهى أن ترجو وتظن أن السماء ماطرة لمخيلة المطر، وفى الأصل « يبشرنا بالنائل الغمر » وبعده بياض وقد أكملنا الشطر بلفظ « جوده » الموضوعة بين هلالين أخذا من السياق، ومعنى البيت يبشرنا بالعطاء الكثير جوده وقبل استهلال المطر تنتشر مخايله وعلاماته فى السماء.

(٤) الأنى: الناهد الذى يتأنى للأمور، ونهزة: يريد أنه لا يبذل السماحة انتهازاً وافتراصاً إذا سنحت له الفرصة بل يتأنى لها ويمضى عليها فى كل وقت غير متحين لها الفرص. والحبل: العهد والذمة والتواصل وعدم التقاطع، والحبائل: جمع حبالة وهى المصيدة وفى الحديث « النساء حبائل الشيطان » أى مصايده.

(٥) المعضد والمعضاد: سيف ممتهن على شكل المنجل يتخذه القصابون لقطع العظام، والرعاة لقطع فروع الشجر ليعلفوا بما يسقط من ورقها غنمهم وإبلهم، وأفوق: مكسور الفوق بالضم وهو حرف السهم وإذا كان فى إحدى زنتى السهم أى حرفيه انكسار فذلك السهم أفوق، والناصل: الساقط النصل وهو حديدة السهم، والمعنى: أنه ماضى العزيمة صائب الرأى، وفى الأصل: « أفوق ناصل ».

لَئِنْ قَلَّ فِى أَهْلِ الزَّمَانِ عَدِيدُكُمْ ... فَإِنَّ دَرَارِىَّ النُّجُومِ قَلَائِلُ (١)

فِدَاؤُكُمُ مَنْ إِنْ تَعِدْهُ ظُنُونُهُ ... لَحَاقَكُمُ فِى الْمَجْدِ فَالدَّهْرُ مَاطِلُ

مَنَاكِيدُ (٢) فِعْلُ الْخَيْرِ مِنْهُمْ تَكَلُّفٌ ... إِذِ الشَّرُّ طَبْعٌ مَا لَهُمْ عَنْهُ نَاقِلُ

فَإِنْ سُتِرَتْ أَخْلَاقُهُمْ بِتَخَلُّقٍ ... فَكُلُّ خَضِيبٍ لَا مَحَالَةَ نَاصِلُ (٣)

لَكَ الْخَيْرُ ، إِنِّى قَائِلٌ غَيْرُ مُقْصِرٍ ... فَمَنْ لِىَ بِاسْتِيفَاءِ مَا أَنْتَ فَاعِلُ ؟

لَعَمْرُ سَرَاةِ النَّفْرِ وَافَاكَ وَفْدُهُمْ ... لَمَا ذَمَّ مِنْهُمْ ذَلِكَ النُّزْلَ نَازِلُ

لَأَعْذَرْتَ لَمَّا لَمْ يُمِلَّكَ مُكْثُهُمْ ... إِذَا عَذَرَ الْمُسْتَثْقِلَ الْمُتَثَاقِلُ (٤)

نَضَدْتَ رَيَاحِينَ الطَّلَاقَةِ غَضَّةً ... وَرَقْرَقْتَ مَاءَ الْبِرِّ وَهْوَ سَلَاسِلُ

فَمَا مِنْهُمُ إِلَّا سَدِيدٌ نِزَاعُهُ ... إِلَيْكَ مُقِيمُ الْقَلْبِ وَالْجِسْمُ رَاحِلُ

ضَمَانٌ عَلَيْهِمْ أَنْ سَيُؤْثَرَ عَنْهُمُ ... عَلَيْكَ ثَنَاءٌ فِى الْمَحَافِلِ حَافِلُ (٥)

---

(١) ألم كثير من الشعراء بهذا المعنى فى صور مختلفة نختار منها قول السموأل فى لاميته المشهورة :

« تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها : إن الكرام قليل

وما قل من كانت بقاياه مثلنا ... شباب تسامى للعلا وكهول . »

وقول العباس بن مرداس :

« بغاث الطير أكثرها فراخا ... وأم الصقر مقلاة نزور . »

(٢) جمع منكود من نكد الرجل بالبناء للمجهول فهو منكود إذا كثر سؤاله وقلّ خيره .

(٣) خضيب : مخضوب ، وناصل : وصف من نصل الشعر ينصل بالضم زال عنه الخضاب ، وهو معنى كثير الورود فى كلام الشعراء ، قال زهير .

« ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم . »

وقال الآخر : « ومن يتخذ خيما سوى خيم نفسه ... يدعه ويغلبه على النفس خيمها . »

وقال ذو الأصبع العدوانى .

« كل امرئ صائر يوما لشيمته ... وإن تخالق أخلاقا إلى حين . »

(٤) لأعذرت : لقد بدا عذرك واتضح ، والمستثقل : المستبطئ لمكثهم أكثر مما تستلزمه موجبات الضيافة ، والمتثاقل : المتباطئ الذى أثقل على مضيفه بأهله وأصحابه ، يقول أنت عذرا لنفسك واضحا حين لم تمل ولم تسأم طول مكث سراة النفر الوافدين عليك فى وقت يعرف فيه المتثاقل عذر مضيفه إذا مل مكثه وعده ثقيلا .

(٥) ضمان على هؤلاء الوافدين أنه سيؤثر ويروى عنهم ثناء عليك فى المحافل حافل بأنواع المحامد والمدائح .

مَسَاعٍ هِيَ الْعِقْدُ انْتِظَامَ مَحَاسِنٍ ... تَحَلَّى بِهَا جِيـدٌ مِنَ الدَّهْرِ عَاطِلُ
تُنِيرُ بِهَا الآمَالُ وَاللَّيْلُ وَاقِبٌ[1] ... وَتَخْصِبُ مِنْهَا الأَرْضُ وَالأُفْقُ مَاحِلُ

*

هَنِيئًا لَكَ الْعِيدُ الَّذِي بِكَ أَصْبَحَتْ ... تَرُوقُ الضُّحَا مِنْهُ وَتَنْدَى الأَصَائِلُ
تَلَقَّاكَ بِالْبُشْرَى وَحَيَّاكَ بِالْمُنَى ... فَبُشْرَاكَ أَلْفٌ بَعْدَ عَامِكَ قَابِلُ
لَئِنْ يَنْصَرِمْ شَهْرُ الصِّيَامِ لَبَعْدَهُ ... ثَنَا صَالِحِ الأَعْمَالِ مَا أَنْتَ عَامِلُ
رَأَيْتَ أَدَاءَ الْفَرْضِ ضَرْبَةَ لَازِمٍ ... فَلَمْ تَرْضَ حَتَّى شَيَّعَتْهُ النَّوَافِلُ
سَدَنْتَ[2] بِبَيْتِ اللهِ حُبَّ جِوَارِهِ ، ... لَكَ اللهُ بِالأَجْرِ الْمُضَاعَفِ كَافِلُ
هَجَرْتَ لَهُ الدَّارَ الَّتِي أَنْتَ آلِفٌ ... لِيَعْتَادَهُ مَحْضُ الْهَوَى مِنْكَ وَاصِلُ
فَإِنْ تَتَنَاقَلْكَ الدِّيَارُ فَطَالَمَا ... تَنَاقَلَتِ الْبَـدْرَ الْمُنِيرَ الْمَنَازِلُ
أَلَا كُلُّ ـ رَجْوَى فِي سِوَاكَ ـ عُلَالَةٌ ... وَكُلُّ مَدِيحٍ ـ لَمْ يَكُنْ فِيكَ ـ بَاطِلُ
فَمَا لِعِمَادِ الدِّينِ ـ حَاشَاكَ ـ رَافِعٌ ... وَلَا لِلِوَاءِ الْمُلْكِ ـ غَيْرُكَ ـ حَامِلُ

*

لَأَمَّنْتَنِي الْخَطْبَ الَّذِي أَنَا خَائِفٌ ... وَبَلَّغْتَنِي الْحَظَّ الَّذِي أَنَا آمِلُ[3]
أَرَى خَاطِرِي كَالصَّارِمِ الْعَضْبِ لَمْ يَزَلْ ... لَهُ شَاحِذٌ مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ صَاقِلُ
وَمَا الشِّعْرُ مِمَّا أَدَّعِيهِ فَضِيلَةً ... تَزِينُ ، وَلَكِنْ أَنْطَقَتْنِي الْفَوَاضِلُ
بَقِيتَ كَمَا تَبْقَى مَعَالِيكَ إِنَّهَا ... خَوَالِدُ حِينَ الْعَيْشُ كَالظِّلِّ زَائِلُ
فَمَا نَسْتَزِيدُ اللهَ بَعْدَ نِهَايَةٍ ... لِنَفْسِكَ غَيْرَ الْخُلْدِ إِذْ أَنْتَ كَامِلُ[4]

---

(١) فى الأصل «رائد» (٢) وفى الأصل «سدلت» (٣) وقد ورد بعد هذا البيت قوله :
« . . . . ألم حتى مها أنا لا فعل ولا أت عاقل. »
وقد أثبتناه ناقصا كما ورد بالأصل .

(٤) قريب من هذا المعى قوله من قصيدة سابقة :
« لا أستزيد الله بعد معيك ، لابل أستديم »

إلى ابن جهـــور

« وقال أيضا مع تفاح أهداه إلى ابن جهور . »

أَتَتْكَ بِلَوْنِ المُحِبِّ الخَجِـــلْ تُخَالِطُ لَوْنَ المُحِبِّ الْوَجِلْ (١)

ثِمَارٌ تَضَمَّنَ (٢) إِدْرَاكَهَا هَوَاءٌ أَحَاطَ بِهَا مُعْتَـــدِلْ

تَأَتَّى (٣) لِإِلْطَافِ تَدْرِيجِهَا فَمِنْ حَرِّ شَمْسٍ إِلَى بَرْدِ ظِلّْ

إِلَى أَنْ تَنَاهَتْ شِفَاءَ العَلِيلِ وَأُنْسَ المَشُوقِ وَلَهْوَ الْغَزِلْ

فَلَوْ تَجْمُدُ الرَّاحُ لَمْ تَعْـدُهَا وَإِنْ هِيَ ذَابَتْ فَخَمْرٌ تَحِلّْ (٤)

لَهَا مَنْظَرٌ حَسَنٌ فِى النُّفُوسِ كَدُنْيَاكَ لَـكِنَّهُ مُنْتَقِلْ (٥)

وَطَعْمٌ يَلَذُّ لِمَـنْ ذَاقَهُ كَلَذَّةِ ذِكْرَاكَ لَوْ لَمْ يُمَلّْ (٦)

وَرَيَّا إِذَا نَفَحَتْ خِلْتَهَا تُمِلُّ ثَنَاءَكَ أَوْ تَسْتَهِلّْ (٧)

يُمَثِّلُ مَلْمَسُـــهَا لِلأَكُفِّ لِينَ زَمَانِكَ أَوْ يَمْتَثِلْ (٨)

---

(١) معى البيت: أتتك هده التفاحات بحمرة كحمرة خدود الملاح عند الخجل، تخالطها صفرة كصفرة خدود العاشقين عند الوجل . (٢) أى تكفل بانضاج هذه الثمار هواء معتدل متوسط بين الحرارة والبرودة

(٣) تأتى للامر ترفق له وأتاه من وجهه ، والمعى : تلطف ذلك الهواء فى تدريج نموها وصبغها بتلك الألوان الزاهية فتنقل معها من حر شمس إلى برد ظل حتى نضجت وأينعت .

(٤) يقول لو أن ذوب الراح تحول إلى حد لم يعد أن يكون ذلك التفاح ، ولو أن جامد التفاح تحول إلى ذوب أحمر لم يعد أن يكون خمرا حلالا لا إثم على شاربها .

(٥) يعنى : أن منظرها حسن ينتظم ما فى دنياك من محاسن إلا أنه حسن منتقل حائل ، وحسن دنياك لايحول ولا ينتقل .

(٦) ولها طعم حلو المذاق لذيذ كلذة ذكراك فى الأسماع إلا أنه يمل وترديد ذكراك لا يمل .

(٧) ولها ريا : أى ريح طيبة ، تمل : أى تملى مدحك ، أو تستهل : أى ترفع صوتها بالثناء عليك .

(٨) يصور ملمس التفاح الناعم للأكف لين زمانك حتى كأنها تحسه ، أو يمتثل أى يضرب نفسه مثلا للين زمانك .

صفَوْتُ فَأَدْلَلْتُ(١) فى عرْضِهَا ... وَمَنْ يَصْفُ مِنْهُ الْهَوَى فَلْيُدِلْ
قَبُولُكهَا نِعْمَةٌ غضَّـــةٌ ... وَفَضلٌ - بِمَا قَبْلَهُ - مُتَّصِلْ
وَلَوْ كُنْتُ أَهْدَيْتُ نَفْسِي اُخْتَصَرْ ... تُ عَلَى أَنَّهَا غَايَةُ الْمُحْتَفِلْ (٢)

مجلس أبى على

« لما ورد ابن زيدون إشبيلية نزل فى دار ذى الوزارتين الكاتب أبى علىّ بن جلة وهو يبنى فيها مجلسا ، فصنع أبياتا فكتبت فيه : »

عُمِّرَ مَنْ يعمُرُ ذَا الْمَجْلِسَا ... أَطْوَلَ عُمْرٍ يُبْهِجُ الأَنْفُسَا
وَبَعْدَ ذَا عُوِّضَ عَنْ دَارِهِ ... عَدْنًا وَمِنْ دِيبَاجِهِ السُّنْدُسَا
وَوُقِّيَ الْفَوْزَ بِهَا وَالرِّضَى ... وَوُقِيَ الْأَسْوَاءِ وَالأَبْؤُسَا(٣)
وَدَامَ عَبَّادٌ لِعَهْدِ الْهُدَى ... يَحْرُسُ حَتَّى يُفْنِيَ الأَحْرُسَا(٤)

***

مُعْتَضِـــدٌ بِاللهِ إِحْسَانُهُ ... جَمٌّ إِذَا مَا الدَّهْرُ يَوْمًا أَسَا
الْمَلِكُ الْغَمْرُ النَّدَى الْمُقْتَنِي ... مِنْ كُلِّ حَمْدٍ عِلْقَهُ الأَنْفَسَا(٥)
إِنْ رَامَ يَوْمًا وَصْفَ عَلْيَائِهِ ... مُفَوَّهٌ مُقْتَدِرٌ أُخْرِسَا (٦)
لاَ زَالَ بَدْراً طَالِعاً نَيِّراً ... يَكْشِفُ مِنْ آمَالِنَا الْحِنْدِسَا(٧)

---

(١) الادلال الدلل والاسساط والجرأة على من تحب باظهار الدالة عليه ، أى وثقت بما بيننا من الصفاء والود فأفرط فى الدالة عليك بعرض هـذا التماح الذى يتهادى مثله الأصفياء المخلصون ، ومن يصف فى الهوى فليظهر الدلال على من يحبه .

(٢) المحتفل المبالغ فى الاهداء ، والمعنى : لو كنت حين أردت الاهـداء أهديت نفسى لاختصرت ، على أنها غاية ما أحتفل وأبالغ فى تقديمه إليك هدية . (٣) الأسواء : جمع سوء والأبؤس جمع بؤس.

(٤) الأحرس : الدهور ، جمع حرس بفتح فسكون وهو الدهر .

(٥) الملك العظيم الاحسان الذى ظفر من الثناء بما لم يظفر به غيره من آيات الحمد .

(٦) إذا رام اللسن المبين أن يصف مجده أعياه الخرس لأنه يحاول بذلك أن يظفر بالمستحيل .

(٧) الظلام .

جـــواب

« كتب الوزير الفقيه صاحب الأحكام والأحباس

« أبو طالب بن مكي » بيتين وهما :

« يا بعيد الدار موصو

لا بقلبي ولساني

ربما باعدك الده

ر فأدنتك الأماني. »

فكتب إليه الأبيات التالية : »

لَا أُفَنِّنَانَ كافْتِنَانِي فى حُلَى الطَّرْفِ الحِسَانِ[1]

خَصَّـــنِي بِالْأَدَبِ اللَّهُ فَأَعْلَى فِيـــهِ شَأْنِي

خَاطِرِي أَنْفَـــذُ - مَهْمَا قِيسَ - مِنْ حَدِّ السِّنَانِ

* * *

أَيُّهَا الْمُرْسِـــلُ أَطْيَا رَ الْمُعَمَّى لِامْتِحَانِي

هَاكَ كَيْ تَزْدَادَ فِى الْآدَابِ عِلْمـــاً بِمَكَانِي

قَدْ أَتَتْنَا الطَّيْرُ تَشْدُو بَعْضَ أَبْيَاتِ الْأَغَانِي

بِرَطَانَاتٍ قَصَـــتْنَا مَا اقْتَضَتْنَا مِنْ بَيَانِ

* * *

إِنْ تَغَنَّى الْبُلْبُلُ أَهْتَا جَ غِنَاءَ الْوَرَشَانِ[2]

---

(١) قال فى اللسان : الطرف البراعة وذكاء القلب يوصف به الفتيان الأزوال والفتيات الزولات ولا يوصف به الشيخ ولا السيد، وقد وصف الحسان بالطرف مبالغة ، ويجوز أن يكون بالضم جمع طريف، فانه يجمع على طرف بضمتين ، والاسكان فى مثله جائز ، والمعنى : ليس يجيد أحد - كما أجيد - الافتنان فى صوغ تلك الحلى الحسان التى يمليها الطرف واللباقة .

(٢) الورشان : طائر لحمه - فيما يقولون - أخف من الحمام ، والمعنى : أن غناء البلبل يهتاج غناء الورشان يشير بذلك إلى أن شعر صديقه الوزير اهتاجه لحرك فيه بواعث الشعر كما اهتاج غناء البلبل غناء الورشان .

فَتَأَدَّى مِنْـــهُ بَيْتَا غَــزَلٍ مُنْفَرِدَانِ
لِمُحِبٍّ فى حَبِيبٍ عَنْهُ نَاءٍ مِنْهُ دَانِ :
« يَا بَعِيدَ الدَّارِ مَوْصُو لٌ بِقَلْبِي وَلِسَانِي
رُبَّمَـــا بَاعَدَكَ الدَّهْـــرُ فَأَدْنَتْكَ الأَمَانِي »

كن كيف شئت

يَا غَـــزَالاً أَصَارَنِي مُوثَقًا فى يَدِ الْمِحَنْ
إِنَّنِي - مُذْ هَجَرْتَنِي - لَمْ أَذُقْ لَذَّةَ الْوَسَنْ
لَيْتَ حَظِّي إِشَارَةٌ مِنْكَ، أَوْ لَحْظَةٌ عَنَنْ (١)
شَافِعِي يَا مُعَذِّبِي - فى الْهَوَى - وَجْهُكَ الْحَسَنْ
كُنْتُ خِلْواً مِنَ الْهَوَى فَأَنَا الْيَوْمَ مُرْتَهَنْ (٢)
كَانَ سِرِّي مُكَتَّماً وَهُوَ الآنَ قَدْ عَلَنْ (٣)
لَيْسَ لِي عَنْكَ مَذْهَبٌ فَكَمَا شِئْتَ لِي فَكُنْ (٤)

---

(١) يقول : إنى أقنع منك بالشىء القليل التافه وأكتفى بأن يكون حظى من حبك إشارة أو لفتة سريعة ، وقد دار الشعراء حول هذا المعنى ، ولعلّ أبدع ما قيل فيه قول جميل بثينة :

« وإنى لأرضى من بثينة بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى ، وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضى أواخره - لا نلتقى - وأوائله . »

(٢) الخلو : الخالى . يقول « كنت طليقاً خالياً من إسار الهوى فصرت اليوم أسيراً مرتهناً . »

(٣) يقول : « كان سرى خافياً لا يعلمه أحد فأصبح معلناً ، وما أجمل قول مرّود فى شبيه هذا المعنى :

« وقد كشف الغطاء فما نبالى أصرحنا بذكرك أم كنينا
نسائل عن ثمامات بحزوى وبان الرمل يعلم من عنينا
ولو أنا نادى « ياسليمى » لقالوا : ما عنيت سوى لبينى »

(٤) يقول : « لا انفكاك لى من إسار حبك فاصنع بى ما أنت صانع . »

حنين

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنهُمْ يُحَيِّينِي … إِذْ لاَ كِتَابَ يُوَافِينِي فَيُحْيِينِي [١]

قَدْ مِتُّ إِلاَّ ذَمَاءً فِيَّ يُمْسِكُهُ … أَنَّ الفُؤَادَ بِلُقْيَاهُمْ يُرَجِّينِي [٢]

مَا سَرَّحَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي وَأَطْلَقَهُ … إِلاَّ اعْتِيَادُ أَسًى فِي القَلْبِ مَسْجُونِ [٣]

صَبْراً لَعَلَّ الَّذِي بِالبُعْدِ أَمْرَضَنِي ، … بِالقُرْبِ يَوْمًا يُدَاوِينِي فَيَشْفِينِي

كَيْفَ اصْطِبَارِي وَفِي كَانُونَ [٤] فَارَقَنِي … قَلْبِي وَهَا نَحْنُ فِي أَعْقَابِ تَشْرِينِ [٥]

شَخْصٌ يُذَكِّرُنِي فَاهُ وَغُرَّتَهُ … شَمْسُ النَّهَارِ وَأَنْفَاسُ الرَّيَاحِينِ

لَئِنْ عَطِشْتُ إِلَى ذَاكَ الرُّضَابِ لَكَمْ … قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسَقِّينِي فَيُرْوِينِي

وَإِنْ أَفَاضَ دُمُوعِي نَوْحُ بَاكِيَةٍ … فَكَمْ أَرَاهُ يُغَنِّينِي فَيُشْجِينِي [٦]

وَإِنْ بَعُدْتُ وَأَضْنَتْنِي الهُمُومُ لَقَدْ … عَهِدْتُهُ وَهْوَ يُدْنِينِي فَيُسْلِينِي

أَوْ حَلَّ عَقْدَ عَزَائِي نَأْيُهُ فَلَكَمْ … حَلَّلْتُ عَنْ خَصْرِهِ عَقْدَ الثَّمَانِينِ [٧]

---

(١) هل يوافيني رسول من قبل من أحبه فيحمل إلى تحيتهم بعد أن حرمت كتبهم التي كانت تعيد إلى الحياة.

(٢) لقد كدت أحسب في عداد الهلكى لولا بقية قليلة من الروح بعثها في الرجاء والأمل في لقائهم . قال ابن الرومي في رثاء ابنه :

« ولقد تعزى القلب سلوته … أني بأن ألقاك مرتهن . »

(٣) لم يفض دمعي إلا ذكريات مؤلمة مسجونة في قلبي تعتادني حيناً بعد حين وتطيف بنفسي فتطلق الدمع وتسرحه . (٤) شهر من شهور الشتاء وهو ديسمبر ، قال أبو العلاء :

مضى كانون ما استعملت فيه … حميم الماء ، فاقدم يا سباط

تشابه أنفس الحشرات نفسي … يكون لهن بالصيف ارتباط

(٥) شهر من شهور السنة الرومية وهو يوافق ١٤ اكتوبر ، وهما تشرينان أحدهما في ١٤ اكتوبر والثاني في ١٤ نوفمبر ، ولعل المراد تشرين الثاني . (٦) في الأصل : فيرويني .

(٧) عقد عزائي : العقد ضد الحل ، والعزاء : الصبر ، والنأي : البعد وعقد الثمانين : أحد عقد الأصابع التي يفهم بها عدد الثمانين والاشارة إلى عقد الثمانين تكون ببسط الابهام والسبابة معا متلاصقتين بلا فرجة ظاهرة بينهما ، والمعنى : لئن حل نأي الحبيب وبعده عقد عزائي وسلواني عنه ، فكثيراً ما حللت عن خصره نطاقاً يشبه في الضيق عقد الثمانين ، وهذا الخصر الذي وصفه ابن زيدون يدق في الوهم ، ويلطف في الخيال والحس إلى حد أننا لا نعثر له على شبيه ومثيل حتى ولا في خصور الناحلات الرشيقات

***

تاحُسْنَ إشْرَاقِ ساعَاتِ الدُّنُوِّ بَدَتْ ... كَوَاكِباً فى لَيَالِى بُعْدِهِ الجُونِ (١)

من بنات أوربا وباريس فى العصر الحاضر عصر الفن فى الرشاقة ، ودقة الخصور ، والإفراط فى تضييق عقد النطاق .

عقد الأصابع

لما كانت كلمة « عقد الثمانين » الواردة فى بيت « ابن زيدون » هذا لايبين فيها وجه التعقيد والمماطلة التى عمد إليها ابن زيدون أحيانا ، إلا بعد بيان ما تدلّ عليه عقد الأصابع من الأعداد العربية للحساب ، وهو اصطلاح قديم استعمله العرب ، وجاء فى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم عقد ثلاثة وخمسين فى التشهد ، أى قبض الخنصر والبنصر والوسطى على هيئة خاصة تدلّ على العدد المذكور ، فنحن نستطرد بتلخيص فهو مبسوط فى بعض كتب اللغة والنحو ، مقفاً بهذا الموضوع فنقول :

جعلوا للدلالة على الآحاد من أصابع اليد اليمنى الخنصر والبنصر والوسطى ، والعشرات إلى التسعين الوسطى والسبابة .

فالعقد الدالّ على الواحد يكون بالصاق الخنصر بباطن الكف مع بسط سائر الأصابع ، وعلى الاثنين بالصاق البنصر معها كذلك ، وعلى الثلاثة ضم الوسطى إليهما كذلك ، وعلى الأربعة بالصاق البنصر والوسطى وحدهما كذلك ، وعلى الخمسة بالصاق الوسطى وحدها كذلك ، وعلى الستة بالصاق البنصر وحدها كذلك ، وعلى التسعة بالصاق الخنصر وحده ممدودة إلى أسفل الكف على شكل يخالف شكل الواحد .

وعلى العشرة بوضع ظفر السبابة فى وسط باطن أنملة الابهام بحيث يحصل شكل حلقة ، ولكن مع ظهور رأس الابهام بقدر نصف الأنملة ، وعلى العشرين بجعل المفصل الأوّل من السبابة على ظفر الابهام بحيث تكون السبابة على شكل الدال ، وعلى الثلاثين بضم رأس بطن السبابة إلى بطن رأس الابهام على هيئة لاقط الابرة ، وعلى الأربعين بوضع باطن أنملة الابهام على ظاهر أسفل السبابة مما يلى الكف ، وعلى الخمسين بوضع الطرف الأيمن للابهام على عجز العقدة السفلى للسبابة بحيث تكون قائمة ، والجانب الأعلى للابهام منحنياً عليها ، وعلى الستين بوضع باطن أعلى أنملة الابهام على باطن أعلى أنملة السبابة ، بحيث تكون السبابة على شكل قوس وتره الابهام ، وعلى السبعين بوضع حرف ظفر الابهام على العقدة الوسطى لباطن السبابة على هيئة رامى الحصاة بالحذف « وهو رمى صغار الحصا بعد أخذها بين طرفى السبابة والابهام » ، وعلى الثمانين ببسطهما معا لاصقتين بلا فرجة بينهما كما أسلفناه فى شرح البيت الذى نحن بصدده ، وعلى التسعين بطى السبابة إلى أصلها ووضع الابهام على ظهر العقدة الوسطى للسبابة كما تنحوى الحية .

وجعلوا للدلالة على المئات من أصابع اليد اليسرى السبابة والابهام طبق ما فى اليد اليمنى .

فالمائة فى اليسرى كالعشرة فى اليمنى ، والمئتان كالعشرين ، وهكذا إلى التسعمائة ، والألف فى اليسرى كالواحد فى اليمنى ، والألفان كالاثنين ، وهكذا إلى تسعة آلاف ، والعشرة آلاف بضم أعلى السبابة والابهام بطناً لبطن ، وتستعمل عقد أصابع اليدين معاً للدلالة على الأعداد المركبة من الآحاد والعشرات والمئات والآلاف بنفس الهيئات المتقدمة .

(١) أى أن ليالى الوصال تبدو مضيئات لامعات فى ليالى البعاد السود .

وَٱللهِ مَا فَارَقُونِى بِٱخْتِيَارِهِمِ ... وَإِنَّمَا ٱلدَّهْرُ بِالْمَكْرُوهِ يَرْمِينِى

وَمَا تَبَدَّلْتُ حُبًّا غَيْرَ حُبِّهِمِ ... إِذَا تَبَدَّلْتُ دِينَ الْكُفْرِ مِنْ دِينِى (١)

أَفْدِى الحَبِيبَ الَّذِى لَوْ كَانَ مُقْتَدِراً ... لَكَانَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِينَ يَفْدِينِى

يَا رَبِّ قَرِّبْ ـ عَلَى خَيْرٍ ـ تَلَاقِيَنَا ... بِالطَّالِعِ السَّعْدِ وَالطَّيْرِ المَيَامِينِ .

فى الغـــزل

أَيُوحِشُنِى الزَّمَانُ وَأَنْتَ أُنْسِى ... وَيُظْلِمُ لِى النَّهَارُ وَأَنْتَ شَمْسِى

وَأَغْرِسُ فِى مَحَبَّتِكَ الْأَمَانِى ... فَأَجْنِى الْمَوْتَ مِنْ ثَمَرَاتِ غَرْسِى (٢)

لَقَدْ جَازَيْتَ غَدْراً عَنْ وَفَائِى ... وَبِعْتَ مَوَدَّتِى ظُلْماً بِبَخْسِ

وَلَوْ أَنَّ الزَّمَانَ أَطَاعَ حُكْمِى ... فَدَيْتُكَ ـ مِنْ مَكَارِهِهِ ـ بِنَفْسِى (٣)

فى بعض مجالس الأنس

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الجَلِيـــلُ بِكُلِّ أَلْسُنِنَا جَلَالُكْ

انْظُرْ إِلَى مُحْتَلِّنَا (٤) قَدْ زَانَ سَاحَتَهُ ٱحْتِلَالُكْ

نَهْرٌ وَرَوْضٌ نَحْنُ بَيْنَهُمَا تُفَيِّئُنَا ظِلَالُكْ (٥)

قَدْ فَاضَ فِى هٰذَا نَدَا كَ وَنَمَّتْ هٰذَا خِلَالُكْ .

---

(١) إن إيمانى بحبهم كإيمانى بدينى سواء بسواء وليس فى مقدور أحد أن يبدلنى بمن أحب إلا إذا استطاع أن ينقلنى من دينى إلى الكفر .

(٢) يقول : « هل من العدل أن أكثر من الآمال والأمانى فلا أجنى من ذلك كله إلا الإخفاق » .

(٣) ليت الزمان يقبل حكمى ، إذن لفديتك بنفسى ، وإن كنت لا تجازينى بشىء إلا بالغدر .

(٤) المكان الذى حللنا فيه .

(٥) وفى الأصل : «تؤامنا ظلالك.» والظلال : ما أظلك من سحاب ونحوه ، وظلال البحر: أمواجه، والمقصود هنا النعيم والراحة ، ولما كانت بلاد العرب فى غاية الحرارة وكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة جعلوه كناية عن الراحة .

شــــكوى وألم !

« قال فى مدح ابن جهور »

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِي الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِي ... وَيَطْلُبَ ثَأْرِي الْبَرْقُ مُنْصَلِتَ النَّصْلِ (١)

وَهَلَّا أَقَامَتْ أَنْجُمُ اللَّيْلِ مَأْتَمًا ... لِتَنْدُبَ فِى الآفَاقِ مَاضَاعَ مِنْ نَثْلِي (٢)

وَلَوْ أَنْصَفَتْنِي ـ وَهْيَ أَشْكَالُ هِمَّتِي ـ ... لَأَلْقَتْ بِأَيْدِي الذُّلِّ لَمَّا رَأَتْ ذُلِّي

وَلَافْتَرَقَتْ سَبْعُ الثُّرَيَّا وَغَاضَهَا (٣) ... بِمَطْلَعِهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَمْلِي

* * *

لَعَمْرُ اللَّيَالِي إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا ... لَقَدْ قَرْطَسَتْ بِالنَّبْلِ فِى مَوْضِعِ النُّبْلِ (٤)

تَحَلَّتْ بِآدَابِي وَإِنَّ مَآرِبِي ... لَسَانِحَةٌ فِى عَرْضِ أُمْنِيَّةٍ عُطْلِ

أُخَصُّ لِفَهْمِي بِالْقِلَى وَكَأَنَّمَا ... يَبِيتُ لِذِي الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى ذَحْلِ (٥)

وَأُجْفَى عَلَى نَظْمِي لِكُلِّ قِلَادَةٍ ... مُفَصَّلَةِ السِّمْطَيْنِ بِالْمَنْطِقِ الْفَصْلِ

وَلَوْ أَنَّنِي أَسْطِيعُ كَيْ أُرْضِيَ الْعِدَا ... شَرَيْتُ بِبَعْضِ الْحِلْمِ حَظًّا مِنَ الْجَهْلِ (٦)

---

(١) الذى فى الأصل المنقول « ألم يأن أن تبكى الحمام على قتلى » والذى أثبتناه هنا هو ما نقلناه عن الذخيرة لابن بسام وهو أنسب مما ذكر فى الأصل لأنه يريد من الطبيعة أن تبكى لبكائه ، وتثأر من أعدائه .

(٢) نثلى : أى ما امتلكته واستخرجته فى حياتى من جاه ومنصب ومال .

(٣) غاضها : غيضها أى أحماها .

(٤) نزعها : جذبها وتر القوس مصوبة نحوى سهام المصائب ، وقرطس : أى أصاب القرطاس ، وهو غرض من أديم يتخذ للنضال وتسديد الرماية .

(٥) القلى ـ بالكسر ـ البغض ، والذحل الثأر ، يريد أن غيره من أهل الجهل نالوا الحظوة والقربى ، وهو أنه خص بالقلى والبعد وكأنه قد جنى على الزمان فبات يطالبه بثأره .

(٦) الحلم : العقل ، والحظ : النصيب . يقول : لو أستطيع لإرضاء العدا وشفاء ما فى نفوسهم من الحقد لاستبدلت بشىء يسير من الجهل ، حظا عظيما من العقل .

***

أَمقتُولةَ الأَجفانِ مالكِ والِهاً ... أَلمْ تُرِكِ الأَيامُ نجماً هوى قبْلِي (١)

أَقلّي بُكاءً لستِ أوّلَ حُرّةٍ ... طوتْ بالأسى كشْحاً على مضضِ الثُّكْلِ (٢)

وفي « أمّ موسى » عِبرةٌ أنْ رمتْ به ... إلى اليمّ في التابوتِ فاعتبري واسْلِي (٣)

لعلّ المليكَ المُجْمِلَ الصنعِ ـ قادرا ... لهُ ـ بعْدَ يأسٍ سوْفَ يُجْمِلُ صُنْعاً لِي (٤)

وللهِ فينا علمُ غيْبٍ وحسْبُنا ... بهِ ـ عنْدَ جوْرِ الدهْرِ ـ منْ حكَمٍ عدْلِ (٥)

***

همامٌ عريقٌ في الكرامِ ، وقلّما ... ترى الفرْعَ إلاَّ مُستمَدًّا منَ الأصْلِ

نهوضٌ بأعْباءِ المرُوءةِ والتُّقى ... سَحُوبٌ لأذْيالِ السيّادةِ والفضْلِ

إذا أشكلَ الخطْبُ الملمّ فإنّهُ ... وآراءهُ كالخطّ يُوضَحُ بالشَّكْلِ

***

وذو تُدْرَإٍ للعزْمِ ـ تحتَ أناتِهِ ـ ... كُمُونُ الرّدى في فتْرةِ الأعْيُنِ النُّجْلِ (٦)

---

(١) أمقتولة الأجفان ، الجريحة منها بالسهاد أي التي في أجفانها فتور وتكسر ، والواله : الشديدة الحزن على فقد ولد ، ما شبهها في شدة حزنها على نجمه الهاوي في غيابة السجن بالمرأة الثكلى التي لا تفتر أجفانها الفاترة المقرحة عن البكا لفقد الحبيب .

(٢) الكشح : الخاصرة ، وطوى كشحه على كذا استمر عليه ، والمضض : ألم المصيبة ، والثكل ـ بالضم ـ فقدان الولد والحبيب : أي لا تبكي باستمرار فلست أول حرة لازمها وجع مصيبة الثكل .

(٣) يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك » أي اعتبري بهذه القصة واصبري .

(٤) لعل الملك المتقن صنع الجميل ـ قادرا لعظمة قدره ـ سوف يعمل على خلاصي بعد يأس .

(٥) يلي هذا البيت بيت وجد في الأصل ناقصا هكذا :

. . . . آل جهور لمستحكم الأسباب مستحصد الحبل

(٦) ذو تدرإ ـ بالضم ـ أي ذو عدّة وقوّة على مدافعة أعدائه إذا وجه عزيمته لفعل أمر كمن الردى تحت أناته كمونه تحت فتور الأعين النجل أي الواسعة جمع نجلاء ، واستعمل الفترة بمعنى انكسار جفون العين وضعفها ليعقد بينها وبين الأناة مناسبة وموافقة .

يَرِفُ عَلَى التَّأمِيلِ لَألاءُ بِشْرِهِ ... كَمَا رَفَّ لَأْلاءُ الْحُسَامِ عَلَى الصَّقْلِ (١)

مَحَاسِنُ مَا لِلْحُسْنِ فِي الْبَدْرِ عِلَّةٌ ... سِوَى أَنَّهَا بَاتَتْ تُمِلُّ فَيَسْتَمْلِي (٢)

تُغِصُّ ثَنَائِي مِثْلَمَا غَصَّ جَاهِدًا ... سِوَارُ الْفَتَاةِ الرَّادِ بِالْمِعْصَمِ الْخَدْلِ (٣)

وَتَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ اكْتِفَاءً بِسَرْوِهَا ... غِنَى الْمُقْلَةِ الْكَحْلَاءِ عَنْ زِينَةِ الْكُحْلِ

***

« أَبَا الْحَزْمِ » إِنِّي فِي عِتَابِكَ مَائِلٌ ... عَلَى جَانِبٍ تَأْوِي إِلَيْهِ الْعُلَا سَهْلِ

حَمَائِمُ شَكْوَى صَبَّحَتْكَ هَوَادِلًا ... تُنَادِيكَ مِنْ أَفْنَانِ آدَابِيَ الْهُدْلِ (٤)

جَوَادٌ إِذَا اسْتَنَّ الْجِيَادُ إِلَى مَدًى ... تَمَطَّرَ فَاسْتَوْلَى عَلَى أَمَدِ الْخَصْلِ (٥)

ثَوَى صَافِنًا فِي مَرْبَطِ الْهُونِ يَشْتَكِي ... بِتَصْهَالِهِ مَا نَالَهُ مِنْ أَذَى الشِّكْلِ (٦)

---

(١) يرف — بالكسر — يبرق ويتلألأ ، أى يلوح لألاء بشره مع التأميل كما يبدو بريق السيف ولمعانه حين تصقله وتجلوه .

(٢) تمل مضارع أمل : يقال أملاه الوقول وأمله أعاده عليه ليكتبه ، ومنه قوله تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه » وقوله تعالى : « فليملل وليه بالعدل » واستمليته الكتاب طلبت أن يمليه على ، أى هذه محاسن الممدوح الشبيه بالبدر لاعيب فيها سوى أنها بات تملى على الشاعر وهو يكتب ، ويستكتبها فتمليه .

(٣) تغص ثنائى : أى تجعله يغص كما يغص الشارب بالماء ولا يمكنه أن يستوفى هذه المحاسن كلها أو يسيغها ، وكما يغص سوارا لفتاة الراد أى التى ترود بيوت جاراتها بالمعصم الخدل — بالدال المهملة — أى الممتلئ فلا يتحرك

(٤) الهوادل : جمع هادلة ، والهديل : صوت الحمام ، والهدل : جمع أهدل ، وهو صفة الأغصان ، يقال: تهدل أغصان الشجرة أى تدلت — يمثل شكوى رفعها إليه بالحمام الهوادل تناديه بهديلها من أعلى شجرة الأدب وقد تدلت أثمارها ، وتهدلت أغصانها .

(٥) استنت الجياد : مضت على وجهها فى السباق ، والمدى : الغاية تمطر : جاء إلى الغاية مسرعا ، فاستولى على الخصل : غلب على الرهان — يصف الشاعر نفسه بالسبق على غيره .

(٦) ثوى : أقام ، والصافن : من الجياد الذى قام على ثلاثة قوائم وقلب حافر الرابعة ، والشكل — بفتح فسكون — شد قوائم الدابة بالشكال — يصف حاله فى محبسه وما يبثه من الشكوى بحال الجواد المقيم على الهون يشكو بتصهاله ، أذى شكاله ، قال ابن بسام فى الذخيرة : « وقوله ثوى صافنا » كقول المتنبى :

« و إن تكن محكمات الشكل تمنعنى ... ظهور جرى فلى فيهن تصهال . »

* * *

أَفِي الْعَدْلِ أَنْ وَافَتْكَ تَتْرَى رَسَائِلِي ... فَلَمْ تَتْرُكَنْ وَضْعاً لَهَا فِي يَدَيْ عَدْلِ

أُعِدُّكَ لِلْجُلَّى وَآمُلُ أَنْ أُرَى ... بِنُعْمَاكَ مَوْسُومًا وَمَا أَنَا بِالْغُفْلِ

وَمَا ذَاكَ وَعْدُ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالْمُنَى ... كَأَنِّي بِهِ قَدْ شِمْتُ بَارِقَةَ الْمَحْلِ (١)

* * *

أَئِنْ زَعَمَ الْوَاشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَماً ... تُعَذِّرُ فِي نَصْرِي وَتُعْذِرُ فِي خَذْلِي

وَأَصْدَى إِلَى إِسْعَافِكَ السَّائِغِ الْجَنَى ... وَأَضْحَى إِلَى إِنْصَافِكَ السَّابِغِ الظِّلِّ (٢)

وَلَوْ أَنَّنِي وَاقَعْتُ عَمْــداً خَطِيئَةً ... لَمَا كَانَ بِدْعَا مِنْ سَجَايَاكَ أَنْ تُمْلِي (٣)

فَلَمْ أَسْتَثِرْ حَرْبَ «الْفِجَارِ» وَلَمْ أُطِعْ ... «مُسَيْلِمَةَ» إِذْ قَالَ: إِنِّي مِنَ الرُّسْلِ (٤)

---

(١) في معنى هذه الأبيات يقول ابن الرومي معاتبا :

« إذا أنت أرضعت الصنيعة مرة ... فلا تعتصر ماء الصنيعة بالمطل

ولا تخلط الحسنى بسوء فإنه ... يجشمنا أن نخلط الشكر بالعذل

أترضى بأن تكبى بسهل وأن ترى ... وما مطلب الحاجات عندك بالسهل

أبى لعشاق المكارم أن نرى ... مواعيدهم مثل البوارق في المحل . »

(٢) أصدى : مضارع صدى — بالكسر — أي أعطش ، وأضحى مضارع كل من ضحا وضحى — بالفتح والكسر — أي أبرز للشمس ، ومنه قوله تعالى : « وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » واستعمله هنا في البروز إلى إنصافه السابغ الظل ، لا في البروز إلى الشمس ، وبعد هذا البيت وجد في الأصل نقص بيت على هذه الصورة :

وحاشاك رام الضد إملاء سمعه ... نقص ....

(٣) واقعت دانيت ، وتملي تمهل ولا تتعجل العقوبة ، أي لو أني دانيت متعمدا الوقوع في الخطيئة لم يكن من سجاياك غير العفو والامهال .

(٤) يقول : إن هفوتي صغيرة لا ينبغي أن تجسم إلى حد أن أكون كمثير حرب الفجار أو كمطيع مسيلمة في دعواه الرسالة ، والفجار : بالكسر بمعنى المفاجرة كالقتال والمقاتلة ، وسميت حرب الفجار لأن العرب فجروا فيها إذ قاتلوا في الأشهر الحرم ، وكان للعرب قبل مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم أربع فجارات آخرها حرب الفجار التي ذكرت في كتب السير ، وكان بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيامها وسنه عشرون سنة ولم يقاتل ولكنه كان ينبل على أعمامه أي يرد عليهم نبل عدوّهم إذا رموهم ، وأما « مسيلمة » فكان من خبره أن وفد مع قومه

وَمِثْلِيَ قَدْ تَهْفُو بِهِ نَشْوَةُ الصِّبَا ... وَمِثْلُكَ قَدْ يَعْفُو، وَمَا لَكَ مِنْ مِثْلِ

وَإِنِّي لَتَنْهَانِي نُهَايَ عَنِ الَّتِي ... أَشَادَ بِهَا الْوَاشِي وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي (١)

* * *

أَأَنْكُثُ فِيكَ الْمَدْحَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ... وَلَا أَقْتَدِي إِلَّا بِنَاقِضَةِ الْغَزْلِ! (٢)

ذَمَمْتُ إِذًا عَهْدَ الْحَيَاةِ وَلَا يَزَلْ ... مُمِرًّا عَلَى الْأَيَّامِ طَعْمُهُمَا الْمُحْلِي (٣)

وَمَا كُنْتُ بِالْمُهْدِي إِلَى السُّودَدِ الْخَنَا ... وَلَا بِالْمُسِيءِ الْقَوْلَ فِي الْحَسَنِ الْفِعْلِ

وَمَا لِيَ لَا أُثْنِي بِآلَاءِ مُنْعِمٍ ... إِذَا الرَّوْضُ أَثْنَى بِالنَّسِيمِ عَلَى الطَّلِّ

هِيَ النَّعْلُ زَلَّتْ بِي، فَهَلْ أَنْتَ مُكْذِبٌ ... لِقِيلِ الْأَعَادِي إِنَّهَا زَلَّةُ الْحِسْلِ (٤)

وَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَشْفَعَ الطَّوْلَ شَافِعًا ... فَتُنْجِحَ مَيْمُونَ النَّقِيبَةِ أَوْ تُتْلِي (٥)

«بني حنيفة» من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما رجع وفد بني حنيفة إلى «اليمامة» ادعى النبوة ، وأنه أشرك مع محمد بالأمر ، واجتمع حوله «بنو حنيفة» وكانوا أربعين ألف مقاتل ، وفي عهد الخليفة «أبي بكر» رضي الله عنه أرسل إليه «خالد بن الوليد» على رأس جيش ، وجرت حرب بين الفريقين انتهت بقتل «مسيلمة» وتمزق أصحابه

(١) نهاى أى عقلى وأنا معه واحد ، فنى فى الإنسان . «والنهى العقل يكون واحدا وجمعا» ، وفى التنزيل العزيز «إن فى ذلك لآيات لأولى النهى» اهـ . ويدل عليه حيث اعتبره فردا وأسنده إلى نفسه أن يجرد العقل من علاقة البيت إلا أن يكون قد أراد جمع نهية ، وأن عقله بمنزلة عقول متعددة ، عن التى : أى التهمة التى ، أشاد بها أى أذاعها ونوه بها . والواشى [illegible] .

(٢) ناقضة الغزل ، فى الكشاف عند قوله تعالى . «ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا» قيل هى ريطة بنت سعد بن تيم وكانت حمقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع . وصنارة مثل أصبع ، وفلكة عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة إلى الظهر ، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن .»

(٣) ممرا من أمر الطعام صيره مرا ، والمحلى اسم مفعول من حلت العيش أحلاه أى استحليته .

(٤) الخسة والدناءة ، والحسل بالكسر ولد الضب ، ويكنى الضب : «أبا الحسل» .

(٥) تشفع : من قولهم شفع الوتر من العدد شفعا صيره زوجا ، والطول : القدرة والفضل ، وتتلى : تتبع مضارع أتليه إياه أتبعه ، والمعنى هل لك أن تضم إلى طولك وإحسانك شافعا منك يشفع لى فى الخلاص من السجن فتسعفنى بإدراك حاجتى فى حال كونك ميمون النقيبة أو تتلى أى تتبع الإحسان والشفاعة بأمثالهما : هذا مبلغ ما يفهم من البيت ، وقد وجد فى الأصل «تبلى» بالباء الموحدة ، وقد فهمنا من السياق أنها تتلى لا تبلى ليناسب قوله «تشفع» أى تضم .

أَجِزْ أَعْدِ آمِنْ أَحْسِنِ ابْدَأْ أَعِدْ أَكْفِ حُطْ — تَحَفَّ ابْسُطِ اسْتَأْلِفْ صُنِ احْمِ اصْطَنِعْ أَعْلِ (١)

مُنًى ـ لَوْ تَسَنَّى عَقْدُهَا بِيَدِ الرِّضَا ـ — تَيَسَّرَ مِنْهَا كُلُّ مُسْتَصْعَبِ الحَلِّ (٢)

أَلَا إِنَّ ظَنِّي ـ بَيْنَ فِعْلَيْكَ ـ وَاقِفٌ — وُقُوفَ الْهَوَى بَيْنَ الْقَطِيعَةِ وَالْوَصْلِ

فَإِنْ تُمْنَ لِي مِنْكَ الْأَمَانِي فَشِيمَةٌ — لِذَاكَ الفَعَالِ الْقَصْدِ وَالْخُلُقِ الرَّسْلِ (٣)

وَإِلَّا جَنَيْتُ الْأُنْسَ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى — وَهَوْلِ السُّرَى بَيْنَ الْمَطِيَّةِ وَالرَّحْلِ (٤)

سَيُغْنِي بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّيَ حَافِظٌ — وَيَلْقَى بِمَا أَرْخَصْتَ مِنْ خَطَرِي مُغْلِي

وَأَيْنَ جَوَابٌ عَنْكَ تَرْضَى بِهِ الْعُلَا — إِذَا سَأَلَتْنِي بَعْدُ أَلْسِنَةُ الْحَفْلِ (٥)

---

(١) في هذا البيت كما يرى القارئ محاكاة لقول المتنبي، وقد حاول فيه أن يجمع أكثر ما يمكن من الحروف، وهو :

« عش ، ابق ، اسم ، سد ، جد ، قد ، مر ، انه ، اسر ، فه ، تسل
غظ ، ارم ، صب ، احم ، اغز ، اسب ، رع ، زع ، دل ، اثن ، نل
وهذا دعاء لو سكت كفيته لأني سألت الله فيك ، وقد فعل . »

وخير من هذه المحاولة قول ابن الرومي .

« أبلى ، وربي ، وأحيل مشوق وثائر على إدرار ري وواطف
لشتى حدودك — وهي سايرة من الهم — ما فيها اعتلال لعاطف . »

(٢) لو تسنى : أي لو سهل وتيسر إحكام أمر تلك المنى من الممدوح لسهل منها ما استصعب حله

(٣) تمن : تقدر من مناه الله يمنيه قدره ومنه قول الشاعر :

« لا تأمن الدهر في حل ولا حرم فإن المنايا توافي كل إنسان
واسلك طريقك فيها غير محتشم حتى تلاقي ما يمني لك الماني . »

أي يقدر لك القادر ، والفعال — بالفتح — اسم جامع لكل فعل حسن ، والقصد الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، والرسل — بالكسر — الرفق والتؤدة يقال افعل كذا على رسلك أي على هينتك وليس مرادا هنا بل المراد الرسل — بالفتح — أي السهل يقال سير رسل أي سهل .

(٤) وإن لم يقدر الله حصول تلك الأماني على يديك ولم تجر على عادتك وحاجتك في إسعافي بحاجتي فأطلق سراحي لأضرب في الفيافي وأجني من وحشة النوى وهول السرى أنسا .

(٥) وأين جواب عنك أي بماذا يكون جوابي عنك إذا سئلت عما أسديت من معروف أو قدمت من معونة . قال ابن بسام في باب الموازنة والنقد : « وأين جواب فيك ترضى به العلا » مأخوذ من قول الآخر :

« فاختر لنفسك ما أقول فإنني لا بد أخبرهم وإن لم أسألِ »

جـــواب

« كتب اليه الوزير الكاتب أبو بكر بن القصيرة

فى يوم أحد فيه دواء .

مولاى حسى إلى مطالعة الـ

حسـى عقى الدواء مطلعه

وكيف داك الحس الذكى وقد

ماشر تلك المـداقة الشعه

وددت لو أنى حصصت ء ا اسـ

تشعت مه وحرب مستفعه

أعتـاك الله من وطاعتـه

آسوع صع فى مثله صعه

سـحة تصحب الزمان فتـ

امه وهى حديدة نصعه

فإن روح العلاء اساه الـ

له وسـل الوفاء لا صا عه

خاه به ابن رندمن »

قَدْ أَحْسَنَ اللهُ فِي الذي صَنَعَهْ   عَارِضَ كَرْبٍ بِلُطْفِهِ رَفَعَهْ

تَبَارَكَ اللهُ إِنَّ عَادَةَ حُسْنَـ   ـاهُ مَعَ الشُّكْرِ غَيْرُ مُنْتَزَعَهْ

يَاسَيِّدِي الْمُسْتَجِدُّ[1] مِنْ مِنَنٍ[2]   بِخُطَّةٍ فَاتَتِ الْحِسَابَ سَعَهْ

وَافَاكَ الْعِيدُ زِينَ نَاظِمُهُ   وَالْوَشْيُ لَا رَاعَ حَادِثٌ صَنَعَهْ[3]

بَثَثْتَ فِيهِ الْبَدِيعَ مُنْتَقِيًا   كَالرَّوْضِ إِذْ بَثَّ فِي الرُّبَا قِطَعَهْ

---

(١) فى الأصل : المنتبد .   (٢) من حى .   (٣) صانعه .

أَزَاحَ كَرْبَ الدَّوَاءِ مَطْلَعُهُ   لَمَّا بَدَا طَالِعُ السُّرُورِ مَعَهْ (١)

كَمْ دَعْوَةٍ ـ قَدْ حَوَاهُ ـ صَالِحَةٍ،   مِنْ أَمَلِي أَنْ تَكُونَ مُسْتَمَعَهْ (٢)

جُمْلَةُ مَا نَفْسُكَ السَّرِيَّةُ مِنْ حَا   لِي إِلَى عِلْمِ كُنْهِهِ طُلَعَهْ

أَنَّ الدَّوَاءَ الْتَذَّتْ عَوَاقِبَهُ   مِنِّيَ نَفْسٌ تَبَشَّعَتْ جُرَعَهْ (٣)

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ ـ لَا شَرِيكَ لَهُ ـ   إِنْ بَدَأَ الطَّوْلَ مُنْعِمًا شَفَعَهْ

حبيب

وَرَامِشَةٍ (٤) يَشْفِي الْعَلِيلَ نَسِيمُهَا   مُضَمَّخَةٌ (٥) الْأَنْفَاسِ طَيِّبَةُ النَّشْرِ (٦)

أَشَارَ بِهَا نَحْوِي بَنَانٌ مُنَعَّمٌ   لِأَغْيَدَ مَكْحُولِ الْمَدَامِعِ بِالسِّحْرِ (٧)

سَرَتْ نَضْرَةٌ ـ مِنْ عَهْدِهَا ـ فِي غُصُونِهَا   وَعُلَّتْ بِمِسْكٍ مِنْ شَمَائِلِهِ الزُّهْرِ

إِذَا هُوَ أَهْدَى الْيَاسَمِينَ بِكَفِّهِ   أَخَذْتُ النُّجُومَ الزُّهْرَ مِنْ رَاحَةِ الْبَدْرِ

لَهُ خُلُقٌ عَذْبٌ وَخَلْقٌ مُحَسَّنٌ (٨)   وَطَرْفٌ كَعَرْفِ الطِّيبِ أَوْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ (٩)

يُعَلِّلُ نَفْسِي مِنْ حَدِيثٍ تَلَذُّهُ   كَمِثْلِ الْمُنَى وَالْوَصْلِ فِي عُقُبِ الْهَجْرِ (١٠)

---

(١) لما بدا شعرك الجميل ومعه طالع السرور أنساني مرارة الدواء .

(٢) كم دعوة حواها سعرك ادعو الله أن تكون مستجابه .

(٣) كانت عاقبة الدواء حميدة وإن حزعت نفسى من شربه .

(٤) فى القاموس الرمش : الطاقة من الريحان ونحوه . وفى شفاء العليل ، رامشه : قال الصولى هى ورقة آس لها رأسان . قال أبو نواس :

« لها روامش يتحبب لنا بطل آذانا مطاياها . »

(٥) معطرة . (٦) طيبة : الرائحة .

(٧) ورب طاقة من الزهر معطرة الشذى طيبة الأنفاس قدمها إلىّ من أهواه .

(٨) حلقة حسنة . (٩) يعنى أن سحر عينيه يفعل فى النفس ما يفعله الطيب أو الخمر .

(١٠) العقب : ضمتين ، والعقب بضم فسكون العاقبة مثل عسر وعسر . قال تعالى : « هو خير ثوابا وخير عقبا . »

فى مدح ابن جهــــور

« قال يمدح ابن جهور ويذكر جوارا لم يرعه ، وأملا ضيعه ، وتجنى إعناته فى طلبه ، وإسعافه بأمنيته . »

« جَنَاحِي » فِى جِوَارِكُمُ الذَّلِيلُ ... وَحَدِّى فِى رِحَابِكُمُ الْكَلِيلُ (١)

نَصِيبٌ مِنْ وِلَايَتِكُمْ كَثِيرٌ ... وَحَظٌّ مِنْ عِنَايَتِكُمْ قَلِيلُ

لَمُخْتَلِفَانِ مِنْ حَالَيَّ فِيمَا ... أَجَالَ الْفِكْرَ بَيْنَهُمَا مُجِيلُ (٢)

أَتَحْيَا أَنْفُسُ الآمَالِ فِيكُمْ ... وَفِى أَثْنَائِهَا أَمَلٌ قَتِيلُ ؟ (٣)

وَأَعْجَبُ حَادِثٍ نَظَرِى لَدَيْكُمْ ... إِلَى غَلَلِ النَّجَاحِ وَبِى غَلِيلُ (٤)

وَقِدْحِى فِى وِفَادِكُمُ مُعَلًّى ... وَبَاعِى فِى اعْتِدَادِكُمُ طَوِيلُ (٥)

وَكَائِنْ لِى ثَنَاءٌ رَاحَ يُدْنِى ... إِلَيْهِ الْعَطْفَ مَجْدُكُمُ الأَثِيلُ (٦)

---

(١) وجد هذا البيت فى [illegible] على هذه الصورة

.... فى جواركم الذليل وحدى فى رحابكم الكليل

والتكملة من عندنا كما يعطيها السياق .

(٢) يقول إن حالى لمختلفان عند إجالة الفكر فيهما [illegible] ولايتكم ونصرتكم وحظى منكم كثير ، وحظى من عنايتكم وتفقدكم قليل .

(٣) ينكر عليهم أن تكون آمال الناس حية عندهم وأمله فيهم كالقتيل بين الأحياء .

(٤) الغلل الماء القليل الضعيف الذى يجرى فى أصول الشجر فيرويها قبل أن تضعف ، والغليل : العطش أى وأعجب ماحدث لى أن أنظر إلى مسيل ماء من ناحيتكم فيه نجاحى وانتعاش آمالى ، وبى ظمأ شديد ويحال بينى وبين مايبرد غلتى ويشفى عليلى .

(٥) المعلى من قداح الميسر العشرة ، والقدح : بالكسر اسم للسهم ، وكانت قداح الميسر عندهم معروفة بعلامات خاصة ، يضعونها فى خريطة على يدى عدل يجيلها ويخرج باسم كل واحد من اللاعبين قدحا ، فإن كان غفلا أى لانصيب له غرم صاحبه ، وإن كان من ذوات الأنصباء أخذ نصيبه بحسبه ، والذى يخرج له القدح المعلى يعد أكبر فائز بأوفر نصيب لأن له سبعة أنصباء ، وكانوا يتقامرون على جزور يقتسمونها والذى يخرج لهم من الأنصباء ، يوزعونه على الفقراء .

(٦) وكم من ثناء ومدح راح يدنى إليه مجدكم المتأصل عطفه .

تُنَافِسُـــهُ الرِّيَاضُ مُنَوِّرَاتٍ   تَنَفَّسَ عَنْ نَوَافِجِهَا الْأَصِيلُ (١)

⁂

« أَبَا الْحَزْمِ » الزَّمَانُ ـ بِأَنْ تُثَنَّى   إِذَا عُدَّتْ فَوَاضِلُـكُمْ ـ بَخِيلُ (٢)

عَلَوْتَ النَّجْـــمَ إِذْ مَلَّ الْمُسَامِي   وَحُزْتَ الْخَصْلَ إِذْ كَلَّ الرَّسِيلُ (٣)

رَأَيْتُ النَّاسَ ـ مَا أَصْبَحْتَ فِيهِمْ ـ   بَلَاءُ اللّٰهِ عِنْدَهُمُ جَمِيـــلُ

وَمَاءُ الْعَيْشِ بَيْنَهُمُ فَضِيضٌ   وَظِلُّ الْأَمْنِ فَوْقَهُمُ ظَلِيلُ (٤)

وَلَوْ فَقَدُوكَ ـ لَا فَقَدُوا ـ حَوَاهُمْ   مَرَادٌ مِنْ زَمَانِهِمِ وَبِيـــلُ (٥)

وَشَاقَ نُفُوسَـــهُمْ رَسْمٌ مُحِيلٌ   ـ مِنَ الدُّنْيَا ـ وَعَهْدٌ مُسْتَحِيلُ (٦)

فَخَاصِرْ دَوْلَةً تَفْنَى اللَّيَالِي   وَلَمْ يُلْمِمْ بِسَاحَتِهَا مُدِيلُ (٧)

وَلَا زَالَتْ نِبَالُ الدَّهْرِ تُصْمِي   عُدَاتَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّبِيلُ

أَأَيْأَسُ مِنْ مُسَاعَفَةِ اللَّيَالِي   وَأَنْتَ ـ إِلَى نِهَايَتِهَا ـ سَبِيلُ ؟

---

(١) النوافج . جمع نافجة وأراد بها أنفاس الرياض التى تحملها نسمات الأصيل فيفوح منها نفحات طيبة ، يقول إن ذلك الثناء الطيب تنافسه الرياض وهى منورات قد تنفس الأصيل عن نوافجها أى مانفوح من طيب روائحها ، ويجوز أن يكون عن نوافجها جمع نافجة المسك .   (٢) ثناه يثنيه جعل له ثانيا ، أى يا أبا الحزم الزمان بخيل بأن يعد لك ثانيا فى الفضل إذا عدت فواضلكم .

(٣) حزت الخصل : أى أحرزت القصبة فى الرهان أو أدركت الغاية فى السبق ، والرسيل المناضل ، أو المسابق ، وقد جاء فى الأصل «المساعي» موضعا فى مكانها «المسامى» كما يرشد إليه المعنى .

(٤) الفضيض : الماء العذب الكثير المتدفق ، أو ماء السحاب الغزير المغرق ، وظل ظليل : أى دائم لاينسخه الشمس .   (٥) مراد ـ بالفتح ـ اسم مكان من رادت الابل ترود ، أى اختلف ذهابها ومجيئها فى المرعى ، والوبيل الوخيم الذى لايستمرأ ، والمعنى : لو فقدوك ـ لاقدر الله ـ ولم يستظلوا بظل دولتك لاحتواهم من زمانهم مرعى وبيل فلم يهنأ لهم عيش ولم ينعم لهم بال .

(٦) الرسم ما بقى من آثار الدار بعد ارتحال ساكنيها ، والمحيل : المتقادم العهد الذى مرت عليه أحوال ، والمستحيل : المتغير ، أى لو فقدوك لاستوحشوا الفاقة ، ولنازعتهم نفوسهم ـ إذا استمرءوا فقدك ولم يقوموا بنصرتك ـ إلى دنيا تحولت جدتها إلى بلى ، وشبابها إلى هرم ، وتغير عهدها من سعادة وهناء إلى محنة وشقاء .   (٧) المخاصرة أخذ الرجل بيد صاحبه إذا ماشاه ، ومنه قوله :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشى فى مرمر مسنون

معناه ماشيتها إلى القبة الخضراء تمشى على مرمر مملس ، والمديل المتغلب الذى تنتقل إليه الدولة ، يدعو للممدوح ببقاء الدولة له من غير تحول ولا انتقال

إلى المظفــــر

« كتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر محمد بن
عبد الله بن محمد بن مسلم صاحب بطليوس . »

لِبِيضِ الطُّلَى وَلِسُودِ اللِّمَمْ　　بِعَقْلِيَ - مُذْ بِنَّ عَنِّي - لَمَمْ (١)
فَفِي نَاظِرِي - عَنْ رَشَادٍ - عَمًى　　وَفِي أُذْنِي - عَنْ مَلَامٍ - صَمَمْ (٢)
قَضَتْ بِشِمَاسِي عَلَى الْعَاذِلِينَ　　شُمُوسٌ مُكَلَّلَةٌ بِالظُّلَمْ (٣)
فَمَا سَقِمَتْ لَحَظَاتُ الْعُيُو　　نِ إِلَّا لِتُغْرِيَنِي بِالسَّقَمْ
يَلُومُ الْخَلِيُّ عَلَى أَنْ أُجَنَّ　　وَقَدْ مَزَجَ الشَّوْقُ دَمْعِي بِدَمْ (٤)
وَمَا ذُو التَّذَكُّرِ مِمَّنْ يُلَامُ　　وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُذَمّ (٥)

***

وَإِنِّي أُرَاحُ إِذَا مَا الْجَنُو　　بُ رَاحَتْ بِرَيَّا جَنُوبِ الْعَلَمْ (٦)

---

(١) الطلاة : بضم الطاء هي العنق والجمع طلى مثل تقاة وتقى ، واللمم : بكسر اللام جمع لمة — الشعر المجاور شحمة الأذن — لمم بفتح اللام — الجنون .

(٢) في هذا البيت والذي قبله يقول الشاعر أنه عمي عن الرشاد وصم عن الملام وصار في جنون . وقد بدا وسعه الجنون بين الأعماق سود اللمم .

(٣) شمس الفرس شموسا وشماسا منع ظهره — العرب تقول روضة مكللة ، يعني محفوفة بالنور ، فقول الشاعر : شموس مكللة · أي محلاة بالشعر الأسود — وهذا البيت تتابع التكملة لوصف حالته في البيتين السابقين فكأنه يقول وكما عميت عن الرشد وصممت عن الملامة كذلك فقد قضى على هذا الحال أن أشمس على العاذلين .　(٤) الخلي : كمي الفارغ ، وفي المثل العربي القديم « ويل للشجي من الخلي » .

(٥) انتقل الشاعر إلى تبرير جنونه في غرامه وفي دموعه التي مزجت بالدم فألزم لوامه بالحجة وقذف في وجوههم بالبرهان الذي ليس وراءه برهان ، فقال : إن بكائي وجنوني ولوعتي كل أولئك لا لوم فيه ولا بأس منه في سبيل الذكرى والحفاظ بالعهد فليس كرم العهد مما يذم ، وفي القرآن الكريم : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا »

(٦) أراح — استريح — ريح الجنوب هي المقابلة لريح الشمال — « راحت » — من الرواح ، وهو ضد الغدو . يقول : إني لكثرة تذكري الأحبة ولكثرة حفاظي بعهودهم أستريح إذا ريح الجنوب عادت إلي برائحة أمكنتهم المقدسة المحبوبة .

وَأَصْبُو لِعِرْفَانِ عَرْفِ الصَّبَا ... وَأُهْدِي السَّلَامَ إِلَى «ذِي سَلَمْ»(١)

وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوَ « الْبُرُو ... قِ» أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ ابْتَسَمْ (٢)

أَمَا وَزَمَانٍ ـ مَضَى عَهْدُهُ ... حَمِيداً ـ لَقَدْ جَارَ لَمَّا حَكَمْ

قَضَى بِالصَّبَابَةِ ثُمَّ انْقَضَى ... وَمَا اتَّصَلَ الْأُنْسُ حَتَّى انْصَرَمْ(٣)

لَيَالِيَ نَامَتْ عُيُونُ الْوُشَا ... ةِ عَنَّا ، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَنَمْ (٤)

وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهَوَى ... فَأَجْنَتْ ثِمَارَ الْمُنَى مِنْ أَمَمْ (٥)

وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ ... رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمْ(٦)

---

(١) أصبو ـ أميل ـ وعرفان ـ معرفة ، والعرف هو الشذى . يقول : أنى أيضا أميل صبوة وحنا إذا هبت الصبا ـ ريح الشمال ـ لأنها معطرة بشذى من يحبهم ويهواهم فيهدى السلام إلى ذى سلم الموضع الذى حملت منه الصبا ذلك الشذى المحبوب .

(٢) أجهشت : ارتفع صوتى باكيا ، يقول : كما أنى أسترجع للمحبوب إذا عادت بريا ريح العلم وأصبو إلى شذى الصبا كذلك أبكى من طرب يعاودنى إذا ابتسم البرق ولمع ، والمعنى فى هذه الأبيات أنه يسترجع لكل قادم من جهات أحبته لأن فى ذلك نوعا من الذكرى . ولا نظن شاعرا لم يبك لابتسام البروق ولم ينتش من ريا الصبا والمحبوب .

(٣) الصرم : هو القطع ، والمعنى أن الزمان الذى مضى حميدا حاد عن العدل حين حكم وهل أقل من وسم هذا الزمن بمجانبة العدل ، وهو الذى ما كاد يقضى لنا بالصبابة والاستمتاع حتى انقضى وسيكا ، وما كادت تتصل أوقات الأنس حتى صرمه عنا وحال بيننا وبينه .

(٤) الوشاة . فى الأصل هم الذين يمشون بالشر والسعاية فيذيعون الأسرار ، والمراد بهم هنا الخصوم على الاطلاق والمراد بعين الرضى حالة السعادة التى ينعم بها المحبوب فى ساعات الوصال ، وكأنك بالشاعر فى هذا الباب شرع يفصل الصبابة التى انقضت والأنس الذى انصرم ، فقال : ليالى نامت عيون الوشاة إلى آخر هذا الوصف الذى يتخلص به إلى المديح فى أبى بكر .

(٥) أجنت ثمار المنى . أى أعطت ، والأمم هو القرب ، تقول : رأيته من أمم ، أى من قرب ، يقول أيضا فى تفصيل الأنس الذى انصرم : ومالت علينا غصون الهوى أى وليالى ظللتنا هذه الغصون فجنينا منها ما شئنا .

(٦) مذهبات البرود : أى مموهة البرود ـ جمع برد ـ بالذهب ، وقوله « رقاق الحواشى » كناية عن رقة وخضرة العيش فى تلك الأيام ورغده ، وكذلك قوله صوافى الأدم ، والأدم هو الجلد . قال المتنبى :

« وأينما قدم سعيت إلى العلا أدم الهلال لأخمصيك حذاء . »

كَأَنَّ « أَبَا بَكْرٍ » الأَسْلَمِيَّ أَجْرَى عَلَيْهَا فِرِنْدَ الْكَرَمْ (١)

وَوَشَّحَ زَهْرَةَ ذَاكَ الزَّمَانِ بِمَا حَازَ مِنْ زُهْرِ تِلْكَ الشِّيَمْ (٢)

هُوَ الحَاجِبُ المُعْتَلِي لِلْعُلاَ شَمَارِيخَ كُلِّ مُنِيفٍ أَشَمّْ (٣)

مَلِيكٌ إِذَا سَابَقَتْهُ المُلُوكُ حَوَى الخَصْلَ أَوْ سَاهَمَتْهُ سَهَمْ (٤)

فَأَطْوَلُهُمْ ـ بِالأَيَادِي ـ يَداً ، وَأَثْبَتُهُمْ ـ فِي المَعَالِي ـ قَدَمْ (٥)

⁂

وَأَرْوَعَ لاَ مُعْتَفِي رِفْدِهِ يَخِيبُ وَلاَ جَارُهُ يُهْتَضَمْ (٦)

---

(١) كأن أبا بكر الأسلمي أجرى محاسن جوده وديباجة كرمه على تلك الليالي والأيام التي نامت عنها عيون الوشاة وطالت غصون الهوى فيها ، وهذا مما يفعل الشعراء كثيرا تخلصا من النسيب والأدب إلى المدح وهو ما يسميه علماء البديع « حسن التخلص » .

(٢) وكأن أبا بكر بما أحرز من شمائل حسنى كسا زهرة الدنيا ووشح تلك الأيام ووشحها به من نضرة وحسن .

(٣) شماريخ : جمع شمراخ أو شمروخ ـ أعالي الجبال ـ كل منيف أشم : أي كل عال مرتفع . يقول : إن أبا بكر هذا لا يتمسك في العلا بحد فهو في سبيلها قد تسنم ذرا كل منيف ، وعلا فوق كل عال .

(٤) حوى الخصل : أحرز الشيء المعلوم الذي تراهنوا عليه في السباق ، يعني أحرز قصب السبق ، وساهمه : أي قارعه به الملوك وبادلوه سهمهم أي غالبهم ، والمعنى أن هذا الملك سابقه الملوك في المجد فأحرز دونهم قصب السبق ، وزعزعه في مضمار العلا فرعهم وغلبهم .

(٥) بالأيادي : النعم ، ويدا : يريد عطاء ، وهذا البيت توضيح أو تأكيد لما قبله أو هو بيان الصفات التي بها يعلو هذا الملك أقدار الملوك من أمثاله وسبقهم .

(٦) الأروع : من يعجبك حسنه وجهارة منظره أو شجاعته كالرائع ، والمراد من الأروع هنا الرجل الكريم الحيي الحسن الذكي الجميل الذي يروعك حسنه ، ويعجبك إذا رأيته ، والمعتفي كالعافي كل من جاءه يطلب رفدا وعطاء وفضلا ، قال الأعشى :

« تطوف العفاة بأبوابه كطواف النصارى ببيت الوثن . »

وقال مسلم بن الوليد :

« ترى العفاة عكوفا حول حجرته يرجون أروع رحب الباع سمحا . »

وقال أبو تمام :

« كم أعطت راحتاه من نشب سلالة المعتفين في سخطه . »

والرفد : العطاء ـ وقوله لا معتفي ـ في القاموس اعتفت الإبل اليبيس واستعفت أخذته بمقامها فوق التراب مستعصية له ، والرفد هو العطاء ولا جاره يهتضم هضم الجار وتهضمه ظلمه يقول : إن هذا الملك اجتمع له حسن الخلق فهو يعجب الناظر إليه بحسنه وجمال هيئته كما اجتمع له حسن الخلق ، لأنه لا يخيب طالب رفده ولا يظلم جاره .

ذَلولُ الدَّمَاثَةِ صَعْبُ الإِبَاء ثَقِيفُ الْعَزِيمِ إِذَا مَا اعْتَزَمْ (١)

سَمَا لِلْمَجَـــرَّةِ فِى أُفْقِهَا فَجَرَّ عَلَيْهَا ذُيُولَ الْهِمَمْ (٢)

وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرَ النُّجُومِ وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وُطْفَ الدِّيَمْ (٣)

نَهِيكٌ إِذَا جَنَّ لَيْلُ الْعَجَاجِ سَرَى مِنْهُ فِى جُنْحِهِ بَدْرُ تَمْ (٤)

---

(١) الدماثة سهولة الخلق ــ وقوله ثقيف العزيم ــ ثقف إذا صار حاذقا حصيفا فطنا، وثقيف إذا عظمت فيه هذه الصفات ، والعزيم والعزيمة والعزم واحد ، يعنى أن الممدوح مع ماتقدّم من صفات دخوله وسمو مروءته وطوله أنه ليس بمتكبر ولا متعجرف ، وإنما هو سهل الخلق دمث الطبع ولكن فى إباء ، كما أنه كثير الحذق والفطنة مثقف العزيم إذا ما اعتزم الأمور أو طلب النفائس والرغاب .

(٢) المجرة : إحدى كواكب السماء فهذا الممدوح قد سما للمجرة أى علا إليها وزاد عليها بعلوّ الهمم التى فصلها قوله فى الأبيات السابقة لامه فى وعده يخيب ولا جاره يهتضم وأنه إذا سابق الملوك علاهم ، وأنه أطولهم يدا ، وأثبتهم قدما ، وليس المجرة من المآثر فى الناس ما يعادل مآثر همم هذا الممدوح .

(٣) ناصت مساعيه زهر النجوم : أى أن مساعيه ارتفعت حتى ساوت النجوم الزاهرة كالمجرة والنثرة والأكاليل ، وقوله وطف الديم ، وطف : جمع وطفاء ، وهى السحابة المسترخية من المطر ، والديم : جمع ديمة ، وهى مطر يدوم فى سكون بلا رعد ، يقول : إن عطاياه تبارى السحب الممطرة الدائمة بلا جلبة ولا ضوضاء فكأن هـذا البيت برهان لسابقه ، وكأنه يقول : لم لاتفضل على المجرة من هـذه صفات مساعيه وسحب مبراته وعطاياه .

(٤) النهيك : الشجاع القوى المبالغ فى الشجاعة لأنه ينهك عدوه فيبلغ منه ما يريد ، جن ليل العجاج : كل ما ستر عنك فقد جن عنك، والعجاج: الغبار المثار واحدته عجاجة ، وجنح الليل ــ بكسر الجيم وبضم ــ الطائفة من الليل ، وبدر تم: هو القمر إذا أبدر فى ليلة تمامه أربع عشرة ، يقول: حسبك من هذا الممدوح أنه إذا جن ليل الحرب سرى منه وجه مشرق أو سيف لامع يشبه البدر فى ليلة التمام يكشف ظلام هـذا العجاج ، ويبين عن جبهة النصر والفوز ، فهو بعـد أن فرغ من إثبات كرم ممدوحه ، وحسن خلقه بما يعلو به على مكانة النجوم ويزهو بقدره فوق هام الكواكب شرع يثبت له أنه فارس خيل ، وكاشف وغى ، وأنه لا يسطع بدر كلما ثارت عجاجة للهيجاء ، وادلهمت الحرب الهوجاء .

فَشَامَ السُّيُوفَ بِهَامِ الْكُمَاةِ ... وَرَوَّى الْقَنَا فِى نُحُورِ الْبُهَمْ(١)

جَوَادٌ ذَرَاهُ مَطَافُ الْعُفَاةِ ... وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمْ(٢)

يَهِيجُ النِّزَالُ بِهِ وَالسُّؤَا ... لُ لَيْثًا هَصُوراً وَبَحْراً خِضَمّ(٣)

شَهِدْنَا ، لَأُوتِىَ فَصْلَ الْخِطَابِ ... وَخُصَّ بِفَضْلِ النُّهَى وَالْحِكَمْ(٤)

وَهَلْ فَاتَ شَىْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ ... جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمْ(٥)

---

(١) فشام السيوف : معناه أغمدها أو سلها فهو من الاضداد ، ولكن يتعين هنا أن يكون معناه أغمدها فى هام الكماة ، يقال شام الشىء فى الشىء أدخله فيه أى جعل من رءوس الكماة أغمادا للسيوف — هام : جمع هامه ، وهى الرأس ، والكماة : جمع كمى ، وهو الفارس المدجج فى السلاح والقنا : جمع قناه ، وهى الرمح ، والبهم : جمع بهمة بضم الباء وسكون الهاء الشجاع الذى لايهتدى من أين يؤتى — أو هو الجيش ، فهو يقول: إذاحس إيل الصحاح وسرى من ذلك الممدوح فى تلك الناحية — مدر ثم — هنالك رأيت كيف تغمد السيوف فى رؤس الفرسان المدججين فى السلاح ، ورأيت كيف تسقى الرماح من دم نحور الشجعان الذين لاتعرف مآتيهم فى الحروب .

(٢) يقول : ان ممدوحه جواد وإن فى داره مطافا ومثابة للعفاة من طلاب الرفد والعطاء وإن يده اليمنى كأنها لكثرة ما تقبل من شفاه المرفودين أصبحت كالحجر الأسود المستلم الذى يقبله حجاج بيت الله الحرام .

(٣) الخضم : السيد الحمول المعطاء قال فى القاموس : هو خاص بالرجال ومن معانيه البحر أيضا — النزال : بالكسر أن ينزل الفريقان المتحاربان عن إبلهما إلى خيلهما فيتضاربوا ، ويقال : نزال : كقطام ، أى انزل — للواحد والجمع والمؤنث ، والليث من أسماء الأسد ، والهصور — كالهصار — والهصير — أسماء للأسد أيضا ، وقوله « وبحرا خضم » ، وكذلك قوله فى بيت سبق فى هذه القصيدة نفسها :

« فأطولهم بالأيادى يدا وأثبتهم فى المعالى قدم »

أجرى فيه المنصوب المنون فى الوقف مجرى المرفوع والمجرور، فوقف عليه بالسكون ولم يقف عليه بالألف. وذكر النحاة أن اللغة الفاشية من لسان العرب قلب التنوين ألفا فى المنصوب المنون عند الوقف نحو رأيت زيدا ، وبحرا خضما ، وربيعة يجيزون إجراءه فى الوقف مجرى المرفوع والمجرور ، قال الشاعر :

« ألا حبذا غنم وحسن حديثها لقد تركت قلبى بها هائما دنف . »

« وابن زيدون » على فحولته ما كان ينبغى له أن يضطر إلى استعمال هذه اللغة القليلة فى شعره . ومعنى البيت أن دعوة الحرب تهيج من هذا الممدوح ليثا هصورا كما أن سؤال رفده وعطائه يهيج منه سيدا حمولا لما يكلف معطاء لما يسأل كالبحر .

(٤) فى هذا البيت الجناس بين فصل الخطاب وفضل النهى ، ومعنى البيت أن الممدوح حكيم لا فى غبا وبكم ودرب اللسان والمنطق ولكن لا فى طيش وخفة ، وهذا قلما يتاح إلا لمن هيأهم الله لنصرة الحق والدفاع عن حوزة الدين ، وجدير بمن يؤتى فصل الخطاب وفضل النهى أن يشهد له قومه ويعترف له بالزعامة . والرياسة والفصل . (٥) يؤكد ما قاله فى البيت السابق ، فيقول : هل ترك الممدوح أو فات شيئا من المكرمات يمكن السيف والقلم إحرازه من غير أن يحرزه ؟

***

وَمُسْــــتَحْمَدٍ بِكَرِيمِ الْفَعَا ... لِ ـ عَفْوًا ـ إِذَامَا اللَّئِيمُ اسْتَذَمْ[١]

شَمَائِلُ تُهْجَرُ عَنْهَا الشَّمُولُ ... وَتُجْنَى لَهَا مُشْجِيَاتُ النَّغَمْ[٢]

عَلَى الرَّوْضِ مِنْهَا رُوَاءٌ يَرُوقُ ... وَفِى الْمِسْكِ طِيبُ أَرِيجٍ يُشَمْ[٣]

***

أَبُوهُ الَّذِى فَلَّ غَرْبَ الضَّلَالِ ... وَلَاءَمَ شَعْبَ الْهُدَى فَالْتَأَمْ[٤]

وَلَاذَ بِهِ الدِّينُ مُسْــــتَعْصِمًا ... بِذِمَّةِ أَبْلَجَ وَافِى الذِّمَمْ[٥]

وَجَاهَدَ ـ فِى اللهِ ـ حَقَّ الْجِهَا ... دِ مَنْ دَانَ ـ مِنْ دُونِهِ ـ بِالصَّنَمْ[٦]

---

(١) مستحمد : أى منسوب إلى الحمد ، ويقال فعل الشىء عفواً أى من غير تعمل ولا طلب ، واستذم : فعل ما يذم عليه ، والمعنى فى هــذا البيت أنه من طبيعته الاستحماد ــ عفواً ــ لأنه كريم الفعال التى من شأنها أن تعود على صاحبها بالحمد ، وذلك فى الوقت الذى يصدر فيــه لؤم اللؤماء عفواً أيضاً . يقول إن ممدوحه فى الوقت الذى يبدو فيــه لؤم اللؤماء رغم لؤمهم ورياءهم يظهر كرمه الفطرى وميوله الحمية التى ترغمه أيضا على إحراز المحامد .

(٢) الشمول : من أسماء الخمر ــ محى : تهجر ، والمعنى أن شمائل ممدوحه تغنى عن الخمر والغناء الشجى لأنها يتغنى بها فتطرب ويتحدث عنها فتسكر .

(٣) الرواء الحسن ــ الأريج : الرائحة الطيبــه ، يقول : إن هــذه الشمائل تاوى فى رواء الحسن الذى يروق الناظر فى الروض ، وكذلك تلوى فيما يلذ العاطس فى الأريج الطيب المشموم من المسك .

(٤) فلّ غرب الضلال : أى ثلم حده الذى يشبه حدّ السيف فى المضاء ، وقوله ــ ولاءم شعب الهدى فالتأم معناه أصلح شعث الهدى فاصلح ، والمعنى أن أباه رأب صدع الهدى وفرق حزب الضلال وحصد شوكته .

(٥) الأبلج : هو كل واضح ، ويقال : أبلج الصبح وضح يقول بأن الممدوح احتمى الدين منه واعتصم بواضح المكانة وافى الذمم .

(٦) يقول : وإن أبا هذا الممدوح أبلى البــلاء الحسن فى الجهاد لله وفى مجاهدة من دان من دون الله بالصنم ، يعنى أنه عاش لله وليا لأوليائه عدوّا لدودا لأعدائه

فَلاَ سَامِيَ الطَّرْفِ إِلاَّ أَذَلّ ... وَلاَ شَامِخَ الأَنْفِ إِلاَّ رَغَمْ [١]

تَقَيَّلَ فِى الْعِزِّ - مِنْ حِمْيَرٍ - ... مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الأُمَمْ [٢]

هُمُ نَعَشُوا الْمُلْكَ حَتَّى اسْتَقَلّ ... وَهُمْ أَظْلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى أَظْلَمْ

نُجُومُ هُدًى - وَالْمَعَالِى بُرُوجٌ - ... وَأُسْدُ وَغًى وَالْعَوَالِى أَجَمْ [٣]

***

« أَبَا بَكْرٍ » أَسْلَمْ عَلَى الْحَادِثَاتِ ... وَلاَ زِلْتَ مِنْ رَيْبِهَا فِى حَرَمْ [٤]

أُنَادِيكَ - عَنْ مِقَةٍ - عَهْدُهَا ... كَمَا وَشَّتِ الرَّوْضَ أَيْدِى الرِّهَمْ [٥]

وَإِنْ يَعْدُنِى عَنْكَ شَحْطُ النَّوَى ... فَحَظِّى أَخَسّ وَنَفْسِى ظَلَمْ [٦]

---

(١) رغم : ذل ، يقول : إنه لم يترك من أعدائه ، سامى الطرف إلا أذله ، ولا أشم الأنف إلا أرغمه ، ويقال رغم أنفه يعنى أذله عن كره منى أرغمه .

(٢) تقيل أباه أشبهه — مقاول ومقاولة وأقيال وأقوال جمع مقول كمنبر أو جمع قيل — الملك من ملوك حمير — أو هو مادون الملك الأعلى، وسمى قيلا لأنه يقول ماشاء فينفذ ، وحينئذ فمعنى البيت أنه فى عزه ومجده ومناعته أشبه آباءه وأجداده من ملوك وأقيال حمير الذين سادوا وعلوا جميع الأمم

(٣) بروج السماء معروفة — الوغى : غبار الحرب أوالحرب — العوالى صدور الرماح — والأجم بضمتين وبالتحريك جمع أجمة محركة — الشجر الكثير الملتف ، والمعنى أن المقاولة الاقيال آباء هذا الممدوح كانوا فى المعالى يشبهون النجوم فى بروجها فى السماء كما كانوا فى الحروب يشبهون الأسد تظلهم رماح كأنها أجم الأسد .

(٤) يدعو له أن يظل فى مأمن من أحداث الدهر ومصائبه ، وأن يظل فى موضع لا تنتهكه الحادثات ولا تصل إليه ريبها .

(٥) المقة : المحبة ، والرهم : كعنب جمع رهمة بكسر الراء وسكون الهاء ، وهى المطر الضعيف الدائم ويقال روضة مرهومة ، يقول الشاعر : أناديك نداء صادراً عن مقة ومحبة عهدها فى الجدة والشباب كما نقشت أيدى السحاب الماطر ، أديم الروض الناضر ، بألوان الربيع الزاهر .

(٦) عداه عن الأمر صرفه وشغله ، ويعدنى عنك : يصرفنى ويشغلنى عنك ، والشحط : البعد ، والنوى الاغتراب . يقول : إذا كان الاغتراب يشغلنى ويصرفنى عنك فإنه لم يرخص إلا حظى ولم يظلم إلا نفسى فضرر هذا البعد واقع بى وحدى وليس يقع منه شىء عليك

وَإِنِّى لَأُصْفِيكَ مَحْضَ الْهَوَى وَأُخْفِى لِبُعْدِكَ بَرْحَ الْأَلَمْ (١)
وَغَـيْرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الذِّمَامِ إِذَا حُسْنُ ظَنِّى عَلَيْهِ أَذِمْ (٢)

*

وَمُسْـتَشْفِعٍ بِىَ بَشَّرْتَهُ — عَلَى ثِقَةٍ — بِالنَّجَاحِ الْأَتَمْ (٣)
وَقِدْمًا أَقَلْتَ الْمُسِىءَ الْعِثَارَ وَأَحْسَنْتَ بِالصَّفْحِ عَمَّا اجْتَرَمْ (٤)
وَعِنْدِى — لِشُكْرِكَ — نَظْمُ الْعُقُودِ تَنَاسَقُ فِيهَا اللَّآلِى التُّؤَمْ (٥)
تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ إِذَا لَبِسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمْ (٦)
فَعِشْ مُعْصِمًا بِيَفَاعِ السُّعُودِ وَدُمْ نَاعِمًا فِى ظِلَالِ النِّعَمْ (٧)
وَلَا يَزَلِ الدَّهْرُ أَيَّامُــهُ لَـكُمْ حَشَمٌ وَاللَّيَالِى خَدَمْ (٨)

---

(١) محض الهوى : خالصه — والبرح : الشدة يدعم بهذا البيت معنى سابقه فيقول إنى لأصفيك وأمحضك الهوى خالصا لاشائبة فيه وإنى فى بعدك لأشعر فى نفسى بالألم المبرح واللوعة المرة ولكنى أخفى ذلك فى حنايا الضلوع وفى مواضع الأسرار من القلوب .

(٢) أخفر به : نقض عهده وغدره — الذمام : الحرمة ويجمع على أذمة ويقال — أذم له عليه أى أخذ له ذمة أى حرمة أو اجارة . يقول : إن غيرك ياأبا بكر هو الذى يخفر عهد الذمام ويضيعه ويغدر به إذا حمل حسن ظنى وطيب قلبى له حرمة عندى أو أذما لى عليه ذمة .

(٣) يقول : ما بشرت المستشفع بى لديك بالنجاح إلا تم لمطلبه وقيل له ثق بنجاحك فقد تشفعت بالذى لا ترد شفاعته عند أبى بكر ولا يخيب له رجاء لديه .

(٤) قدما أى قديما وأقلت فلانا من كذا يعنى أعفيته منه واجترم أى أتى الذنب أو الجريمة والصفح هو العفو يقول وإنما عرفوك تقيل العاثر من عثرته وتعفو عن الجانى فى جريمته .

(٥) التناسق هو التتابع حبات العقود ولآلئها واللآلئ التوم أى المتشابكة وتسمى اللؤلؤة التؤامية وتوائم النجوم واللؤلؤ ما تشابك منها يعمد الشاعر إلى تشويق الممدوح لاقتناء مدائحه وشعره الذى يشبه العقود المنظومة المتناسقة من توائم اللآلئ .

(٦) أجد الثوب صيره جديدا يعنى أن نظم هذه العقود المتسقة يجد ويعيد أبراد الشباب من الفخر بها جديدة فى الوقت الذى يلبس فيه الزمن ثوب الهرم ، أو أن فخر الممدوح نفسه هو الذى يظل بتلك المدائح جديدا .

(٧) يفاع : كسحاب التل والمقصود به هنا المرتفع يدعو للممدوح أن يعيش معتصما بمرتفعات السعود وأن يدوم مظللا بالنعم الظليلة لوارفة .

(٨) حشم الرجل وحشمته الذين يغضبون له من أهله وعبيده وجيرانه ، والحشم للواحد والجمع والخدم جمع خادم . يقول : لازال الدهر خادما لك

فى نكبة بنى ذكوان

«وقال عند نكبة بنى ذكوان وابن حذام
فى سنة ٤٤٠ هـ أربعين وأربعمائة.»

هَلِ النِّدَاءُ الَّذِى أَعْلَنْتُ مُسْتَمَعُ ... أَمْ فِى الْمِثَاتِ الَّتِى قَدَّمْتُ مُنْتَفَعُ (١)

إِنِّى لَأَعْجَبُ مِنْ حَظٍّ يُسَوِّفُ بِى ... كَالْيَأْسِ مِنْ نَيْلِهِ أَنْ يَجْذِبَ الطَّمَعُ (٢)

تَأْبَى السُّكُونَ إِلَى تَعْلِيلِ دَهْرِىَ لِى ... نَفْسٌ إِذَا خُودِعَتْ لَمْ تُرْضِهَا الْخُدَعُ (٣)

لَيْسَ الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا دَلِيلَ حِجًا ... فَإِنَّهَا دُوَلٌ أَيَّامُهَا مُتَعُ (٤)

تَأْتِى الرَّزَايَا نِظَامًا مِنْ حَوَادِثِهَا ... إِذِ الْفَوَائِدُ فِى أَثْنَائِهَا لُمَعُ (٥)

أَهْلُ النَّبَاهَةِ أَمْثَالِى لِدَهْرِهِمُ ... بِقَصْرِهِمْ دُونَ غَايَاتِ الْمُنَى وَلَعُ (٦)

---

(١) يقول : هل وصل إلى سمعكم ذلك النداء الذى أعلنت فيه شكواى ، أم هل مما قدمته من مثات القصائد والرسائل غناء ونفع ، وهو بهذا الاستفهام ينكر أن تكون شكواه قد سمعت ، وأن تكون قصائده قد نفعت .

(٢) الطمع : ضدّ اليأس ، والمعنى : إنى لأعجب من حظ امتدّ بى فى نيله تسويف الممدوح ومطله ، حتى لقد أصبح شبيها باليأس منه طمع يجذبنى إليه يريد أن الطمع فيه أخو اليأس منه .

(٣) يقول : إن دهرى يعللنى بنيل تلك الأمانى البعيدة ، ولكن نفسى لا تسكن إلى هذا التعليل لأنها لا تنخدع إذا خودعت .

(٤) الحجا : العقل والفطنة ، معناه أن الركون إلى الدنيا ليس فيه دليل على ذكاء وفطنة من يركن إليها لأنها زائلة متحولة ، والمتمتع بها مغرور مفتون .

(٥) يقول : ان الرزايا فى هذه الدنيا تأتى على نسق متتابع من الحوادث التى يتخلل سوادها بصيص من لمع الفوائد .

(٦) القصر : الحبس والمنع ، والولع : مصدر ولع فلان بكذا إذا لجّ فيه وحرص عليه ، يعنى أن الدهر مولع بالحيلولة بين النابه الشريف وبين بلوغ أمانيه .

***

لَوْلاَ بَنُو « جَهْوَرٍ » مَا أَشْرَقَتْ هِمَمِى ... كَمِثْلِ بِيضِ اللَّيَالِى دُونَهَا الدُّرَعُ (١)

هُمُ المُلُوكُ مُلُوكُ الأَرْضِ دُونَهُمُ ... غِيدُ السَّوَالِفِ فِى أَجْيَادِهَا تَلَعُ (٢)

مِنَ الْوَرَى إِنْ يَفُوقُوهُمْ فَلاَ عَجَبٌ ... لِذَلِكَ الشَّهْرُ مِنْ أَيَّامِهِ الجُمَعُ (٣)

قَوْمٌ مَتَى تَحْتَفِلْ فِى وَصْفِ سَوْدَدِهِمْ ... لاَ يَأْخُذِ الْوَصْفُ إِلاَّ بَعْضَ مَايَدَعُ (٤)

تَجَهَّمَ الدَّهْرُ فَانْصَاتَتْ لَهُمْ غُرَرٌ ... مَاءُ الطَّلاَقَةِ فِى أَسْرَارِهَا دُفَعُ (٥)

بَاهَتْ وُجُوهُهُمُ الأَعْرَاضَ مِنْ كَرَمٍ ... فَكُلَّمَا رَاقَ مَرْأًى طَابَ مُسْتَمَعُ

سَرْوٌ تَزَاحَمُ فِى وَصْفِ المَدِيحِ لَهُ ... مَحَاسِنُ الشِّعْرِ حَتَّى بَيْنَهَا قُرَعُ (٦)

---

(١) الدرع : الليالى التى اسودت أوائلها وابيض سائرها ، والليالى البيض هى التى يطلع فيها القمر من أولها إلى آخرها ، أى لولا الجهاورة ما أشرقت همتى إشراقا كاشراق الليالى البيض دونها فى البياض الدرع أى الليالى التي أظلمت أوائلها .

(٢) غيد جمع أغيد : أى مائل ، والسوالف : جمع سالفة ، وهى صفحة العنق مما يلى الأذن ، والتلع : طول العنق وامتداده ، يقول : بنو جهور هم ملوك الأرض لايدانيهم فى المنزلة أولئك الملوك الذين أمالوا سوالفهم ، ومدوا أعناقهم خيلاء وكبرا .

(٣) أى هم من الورى وليس عجيبا أن يفوقوهم ، كما أن الجمع من أيام الشهر ولكنها تفوق سائره .

(٤) تحتفل : تبالغ يريد أنك مهما تبالغ فى وصف سوددهم ولا يمكنك أن تثبت من صفاتهم فى السيادة والمجد إلا جزءا صغيرا مما تدعه لكثرته ، وعجزك عن الاحاطة به .

(٥) تجهم : عبس وتنكرت أيامه ، وانصاتت : اشتهرت ، والأسرار : جمع سرّ ، ويجمع أيضا على أسارير ، وهى خطوط فى الغرة والجبين ، والدفع : جمع دفعة ، وهى الدفقة من المطر ونحوه ، والمعنى عبس وجه الزمان واسودت جوانب العيش فاشتهرت لهم فى أثناء تجهمه غرر بيض يجرى فى غضونها ماء الطلاقة والبشر مترقرقا متسلسلا .

(٦) جمع قرعة ، وهى السهمة ، أى حتى يساهم ويقرع بين جيد الأشعار أيها أدق وأحسن وأجدر بسنى الجوائز

***

«أَبُو الْوَلِيدِ» قَدِ اسْتَوْفَى مَنَاقِبَهُمْ ... فَلِلتَّفَارِيقِ مِنْهَا فِيهِ مُجْتَمَعُ (١)

هُوَ الْكَرِيمِ الَّذِي سَنَّ الْكِرَامُ لَهُ ... زُهْرَ الْمَسَاعِي فَلَمْ تَسْتَهْوِهِ الْبِدَعُ

مِنْ عِتْرَةٍ أَوْهَمَتْهُ فِي تَعَاقُبِهَا ... أَنَّ الْمَكَارِمَ إِيصَاءٌ بِهَا شِرَعُ (٢)

مُهَذَّبٌ أَخْلَصَتْهُ أَوَّلِيَّتُهُ ... كَالسَّيْفِ بَالَغَ فِي إِخْلَاصِهِ الصَّنَعُ (٣)

---

(١) يعني أن (أبا الوليد) استوفى مناقب الملوك حتى اجتمع فيه ما تفرق في غيره منها وعبر بالتفاريق للإشارة إلى قولهم في المثل السائر «هو خير من تفاريق العصا» ، يريد أن مناقبه كالعصا جمعت كثيرا من المنافع ، وأن مناقب غيره من الملوك كتفاريق العصا اختصت كل واحدة منها بفائدة ومنفعة ، وجاء في كتاب العصا من البيان والتبيين للجاحظ ما نسخته : « ومن جمل القول في العصا » وما يجوز فيها من المنافع والمرافق ، تفسير شعر «غنية» الأعرابية في شأن ابنها ، وذلك أنها كان لها ابن شديد العرامة كثير التلفت إلى الناس مع ضعف أسر ، ودقة عظم ، فواثب مرة فتى من الأعراب ، فقطع الفتى أنفه وأخذت « غنية » دية أنفه ، فحسنت حالها بعد فقر مدقع ، ثم واثب آخر فقطع أذنه فأخذت الدية فزادت دية أذنه في المال وحسن الحال ، ثم واثب بعد ذلك آخر فقطع شفته ، فلما رأت ما قد صار عندها من الإبل والغنم والمتاع والكسب بجوارح ابنها ، حسن رأيها فيه فذكرته في أرجوزة لها تقول فيها :

« أحلف بالمروة يوما والصفا ... إنك خير من تفاريق العصا . »

فسئل ابن الأعرابي ، ما تفاريق العصا ؟ قال : العصا تقطع ساجورا وتقطع عصا الساجور فتصير أوتادا ، ويفرق الوتد فتصير كل قطعة شظاظا ، فإن كان رأس الشظاظ كالفلكة صار للبختي مهارا ، وهو العود الذي يدخل في أنف البختي ، وإذا فرق المهار جاءت منه التوادي ، والسواجير تكون للكلاب والأسراء من الناس — وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «عجبت لناس من هاهنا يقادون إلى حظوظهم بالسواجير» — وإذا كانت قناة فكل شقة منها قوس بندق ، فإن فرقت الشقة صارت سهاما ، فإن فرقت السهام صارت حظاء ، وهي سهام صغار ، والواحدة حظوة وسروة ، فإن فرقت الحظاء صارت مغازل ، فإن فرق المغزل شعب به الشعاب أقداحه المصدوعة المشقوقة على أنه لا يجد لها أصلح منها . وقال الشاعر :

« نوافذ أطراف القنا قد شككته ... كشكك بالشعب الإناء المثلما . »

فإذا كانت العصا صحيحة سالمة ففيها من المنافع الكبار ، والمرافق الأوساط والصغار ، ما لا يحصيه أحد ، فإذا فرقت ففيها مثل الذي ذكرنا وأكثر» إلى آخر ما أورده الجاحظ في هذا الباب .

(٢) جمع شرعة بكسر أوله أي شرائع ومناهج يجري فيها على سنة الملوك من آبائه . يريد أن آباءه من الملوك لتعاقبهم على سنن المكارم فيمن يخلفهم من أبنائهم أوهموه لكثرة ما أوصوا بها أنها شرائع منزلة .

(٣) الحاذق في صنعته .

إِنَّ السُّيُوفَ إِذَا مَا طَابَ جَوْهَرُهَا ... فِى أَوَّلِ الطَّبْعِ لَمْ يَعْلَقْ بِهَا طَبَعُ (١)

جَذْلَانُ يَسْتَضْحِكُ الْأَيَّامَ عَنْ شِيَمٍ ... كَالرَّوْضِ تَضْحَكُ مِنْهُ فِى الرُّبَا قِطَعُ

كَالْبَارِدِ الْعَذْبِ لَذَّتْ مِنْ مَوَارِدِهِ ... لِشَارِبٍ غِبَّ تَبْرِيحِ الصَّدَى جُرَعُ (٢)

***

قُلْ لِلْوَزِيرِ الَّذِى تَأْمِيلُهُ وَزَرِى ... إِنْ ضَاقَ مُضْطَرَبٌ أَوْ هَالَ مُطَّلَعُ (٣)

أَصِخْ لِهَمْسِ عِتَابٍ تَحْتَهُ مِقَةٌ ... وَكَلِّفِ النَّفْسَ مِنْهَا فَوْقَ مَا تَسَعُ (٤)

مَا لِلْعِتَابِ ــ الَّذِى أَحْصَفْتَ عُقْدَتَهُ ــ ... قَدْ خَامَرَ الْقَلْبَ مِنْ تَضْيِيعِهِ جَزَعُ (٥)

لِى فِى الْمُوَالَاةِ أَتْبَاعٌ يَسُرُّهُمُ ... أَنِّى لَهُمْ فِى الَّذِى يُجْزَى بِهِ تَبَعُ (٦)

أَلَسْتُ أَهْلَ اخْتِصَاصٍ مِنْكَ يُلْبِسُنِى ... جَمَالَ سِيمَاهُ ؟ أَمْ مَا فِىَّ مُصْطَنَعُ ؟ (٧)

---

(١) الطبع : الصدأ ، يقول : إن السيوف فى مبدأ طبيعتها إذا طاب جوهرها لم يعلق بها شىء من الصدأ ، يعنى أن الممدوح طابت أوليته فخلص جوهره ولم يشبه عيب .

(٢) فيه تشبيه الممدوح بورود الماء البارد العذب لذ لشاربه منه جرع أطفأت غلة صدره بعد ظمأ مبرح شديد .

(٣) وزرى : ملجئى ومعتصمى ، ومضطرب اسم مكان من الضرب وهو السير فى الأرض ، ومطلع : مكان الاطلاع من مشرف عال ، أو مكان الصعود من أسفل إلى أعلى ، وفى حديث عمر رضى الله عنه أنه قال عند موته : « لو أن لى ما فى الأرض جميعا لافتديت به من هول المطلع » وهو بالتشديد مكان الاطلاع أراد به ما يشرف عليه من أمر الآخرة ويطلع عليه عقيب الموت .

(٤) اقبل رقيق عتاب كالهمس فى الأذن منطوى على مقة ومحبة وكلف نفسك من تحقيق أمنيتى فوق طاقتها .

(٥) أحصفت : أحكمت ، والعقدة : المراد بها هنا الرأى والتدبير ، والمعنى : قد كان من العقل وحصافة الرأى أن أبادر إلى التنويه وهأنذا تائب مما نسب إلى ، فما لتوبتى قد ضيعت ولم تقبل مما جعل قلبى يخالطه الجزع وعدم الصبر ، ويمازجه اليأس والحزن .

(٦) يقول : أنا أوّل الناس فى الولاء لكم وغيرى تبع ، وأتباعى فى الموالاة يسرهم أن أكون فى الجزاء تبعا وتاليا لهم ، فهم دائما يسعون لإسقاط منزلتى وإحباط مسعاى .

(٧) يقول : أتنكر اختصاصى منك بما يحلى متحليا بجمال هذا الاختصاص ، فلا يتقدم على من هم تبع لى فى الولاء والإخلاص ؟ أم هل تنكر أنى قبل غيرى أهل لرب الصنيعة وإسداء الجميل ؟

لَمْ أُوتَ فِى الحَالِ مِنْ سَعْيِي لَدَيْكَ وَنًى ... بَلْ بِالْجُدُودِ تَطِيرُ الْحَالُ أَوْ تَقَعُ [1]

لاَ تَسْتَجِزْ وَضْعَ قَدْرِى بَعْدَ رَفْعِكَهُ ... فَاللهُ لاَ يَرْفَعُ الْقَدْرَ الَّذِى تَضَعُ

تَقَدَّمَتْ لَكَ نُعْمَى رَادَهَا أَمَلِى ... فِى جَانِبٍ هُوَ لِلإِنْسَانِ مُنْتَجَعُ [2]

مَا زَالَ يُونِقُ شُكْرِى فِى مَوَاقِعِهَا ... كَالْمُزْنِ تُونِقُ فِى آثَارِهِ التُّرَعُ [3]

شُكْرٌ يَرُوقُ وَيُرْضِى طِيبُ طُعْمَتِهِ ... فِى طَيِّهِ نَفَحَاتٌ بَيْنَهَا خِلَعُ [4]

ظَنَّ الْعِدَا ـ إِذْ أَغِبَّتْ ـ أَنَّهَا انْقَطَعَتْ، ... هَيْهَاتَ لَيْسَ لِمَدِّ الْبَحْرِ مُنْقَطَعُ [5]

لاَ بَأْسَ بِالأَمْرِ ـ إِنْ سَاءَتْ مَبَادِئُهُ ... نَفْسَ الشَّقِيقِ ـ إِذَا مَا سَرَّتِ الرُّجَعُ

***

إِنَّ الأُلَى كُنْتُ ـ مِنْ قَبْلِ افْتِضَاحِهِمِ ـ ... مِثْلَ الشَّجَى فِى لَهَاهُمْ لَيْسَ يُنْتَزَعُ [6]

---

(١) ونى : أى فترة وتوان فى السعى ، والجدود : جمع جد بالفتح وهو الحظ والبخت والمعنى : لم أوت ولم يذهب سعيي عندك فتور ولا تقصير فى المطالبة والسعى ، ولكن الذى قعد بى عن درك أمنيتى عندك إنما هو حظى الذى به يعلو الحال ويرتفع ، كما يطير الطائر أو يقع .

(٢) رادها : أى تقدمنى أملى أرسلته فى طلب النجعة ، وارتياد النعمة ، فصادف جانبا مرعا ، ومراداً لنعماك ومنتجعا .

(٣) الترع : جمع ترعة ، وهى الروضة على المكان المرتفع من الأرض ، يقول : ما زال روض شكرى مونقا مفتحا عن سماء نعماك ، كالمزن أي السحاب يضحك على أثر نزول المطر منه الرياض والربى قد أترعت بألوان الزهر ، وأينعت بأنواع الثمر .

(٤) طيب طعمته : أى مكسبه الطيب الحلال ، والخلع : جمع خلعة بالكسر ، وهى ما تخلعه من الثياب وتطرحه على آخر ، أى شكر يروق السامع حسنه . ويرضى الشاكر مايثمره من طيبات المكاسب ، فى طيه مثل نفحات الروض بينها وفى أثنائها تخلع علينا خلع ثمينة ، وحلل فاخرة .

(٥) ظن العدا أن هذه العطايا والمنائح مذ أغبت وتأخرت أياما أنها انقطعت عنى ، هيهات أن ينقطع عطاء يشبه البحر الذى ليس لمده انقطاع .

(٦) يقول فى هذا البيت والذى بعده : —
أن الذين كنت — من قبل افتضاح أمرهم وظهور صريح العداوة منهم كالشجا معترضا فى حلوقهم لا يمكن انتزاعه ، لم أحظ منهم وهم أعداء منافقون ، إلا بما كنت أحظى به منهم وهم شيعة مسالمون ، يريد أن نصيبه منهم فى الحالين لم يكن سوى الشر والأذى والوقيعة .

لَمْ أَحْظَ - إِذْ هُمْ عِدًا بَادٍ نِفَاقُهُمْ - إِلَّا كَمَا كُنْتُ أَحْظَى إِذْ هُمُ شِيَعُ

مَا غَاظَهُمْ غَيْرُ مَا سَيَّرْتُ مِنْ مِدَحٍ فِى صَائِكِ الْمِسْكِ مِنْ أَنْفَاسِهَا فَنَعُ (١)

كَمْ غُرَّةٍ لِى تَلَقَّتْهَا قُلُوبُهُمُ كَمَا تَلَقَّى شِهَابَ الْمُوقَدِ الشَّمَعُ (٢)

إِذَا تَأَمَّلْتَ حُسْــنِى غِبَّ غِشِّهِمِ لَمْ يَخْفَ مِنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ مُنْصَدِعُ (٣)

تِلْكَ الْعَرَانِينُ لَمْ يَصْلُحْ لَهَا شَمَمٌ فَــكَانَ أَهْوَنَ مَا نِيلَتْ بِهِ الْجَدَعُ (٤)

أَوْدَعْتَ نُعْمَاكَ مِنْهُمْ شَرَّ مُغْتَرَسٍ لَنْ يَــكْرُمَ الْغَرْسُ حَتَّى تَــكْرُمَ الْبُقَعُ (٥)

لَقَدْ جَزَتْهُمْ جَوَازِى الدَّهْرِ عَنْ مِنَنٍ عَفَتْ فَلَمْ يَقْنِهِمْ عَنْ غَمْطِهَا وَرَعُ (٦)

لَا زَالَ جَدُّكَ بِالْأَعْدَاءِ يَصْرَعُهُمْ إِنْ كَانَ بَيْنَ جُدُودِ النَّاسِ مُصْطَرَعُ

---

(١) صائك : اسم فاعل من صاك به المسك يصيك أى لصق به ، قال الأعشى :

« ومثلك معجبة بالشــبا ب صاك العبير بأجلادها . »

وسيأتى لصاحب الديوان قوله فى « ص ١٣٩ » :

« ثناء مختمل كأن ثناءه مسك بأردان الحامل صاكا . »

والفنع : نفحة المسك ، ومسك ذو فنع ذكي الرائحة طيب الأنفاس . قال الشاعر :

وفروع سابغ أطرافها علتها ريح مسك ذى فنع

وجاء بالأصل «صايك » بالياء و « فنع » بالكاف ولا معنى لهما .

(٢) كم غرّة لى واضحة منيرة تطلع عليهم فتتلقاها قلوبهم وهى متأججة مستعرة ، كما يتلقى الشــمع عند الانارة حر الشهاب من موقده ومشعله .

(٣) يقول حسني واضح كفلق الصبح ، وغشهم مغشوش كاذب .

(٤) العرانين : جمع عرنين ، وهو أعلى الأنف عند ملتقى الحاجبين ، أو هو ما صلب من عظم الأنف ، قال ذو الرمة :

« تثنى النقاب على عرنين أرنبة شماء مارنها بالمسك مرثوم . »

والشمم : ارتفاع قصبة الأنف وحسنها مع استواء أعلاها وإشراف الأرنبــة ، وإذا وصف الرجل بالشمم فانما يعنون أنه سيد شريف النفس ذو أنفة وشموخ وحميه ، ويقال هم شم العرانين كناية عن ذلك ، قال كعب بن زهير :

«شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود فى الهيجا سرابيل.»

والجدع : القطع البائن فى الأنف والأذن ونحوهما وهو مصدر جدع كفرح فهو أجدع .

(٥) يقول : لقد استنبت نعماك فى بقعة خبيثة من نفوس عرفت بغمط النعمة ونكران الجميل .

(٦) يقول : إن الدهر جازاهم عن منن أســديتوها إليهم ، فعفوا على آثارها ولم يتورعوا فى غمطها والامتناع عن شكرها.

تهنئـــة بقران

« وقال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عبد الله ويهنيه بالبناء على السيدة
بنت الموفق مجاهد رحمهما الله . »

أَخْطِبْ فَلْكَكَ يَفْقِدُ الْإِمْلاَكَا ... وَاُطْلُبْ فَسَعْدُكَ يَضْمَنُ الْإِدْرَاكَا (١)

وَصِلِ النُّجُومَ بِحَظِّ مَنْ لَوْ رَامَهَا ... هَجَرَتْ إِلَيْهِ زُهْرُهَا الْأَفْلاَكَا (٢)

وَاُسْتَهْدِ مِنْ أَحْمَى مَرَاتِعِهَا الْمَهَا ... فَالصَّعْبُ يَسْمَحُ فِي عِنَانِ هَوَاكَا (٣)

يَـأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي تَدْبِيرُهُ ... أَضْحَى لِمَمْلَكَةِ الزَّمَانِ مِلاَكَا (٤)

هٰذِي اللَّيَالِي بِالْأَمَانِي سَمْحَـةٌ ... فَتَى تَقُلْ: «هَاتِي» تَقُلْ لَكَ: «هَا كَا»

فَاعْقِلْ شَوَارِدَهَا إِزَاءَ عَقِيـلَةٍ ... وَافَتْ مُبَشِّرَةً بِنَيْلِ مُنَاكَا

أَهْدَى الزَّمَانُ إِلَيْكَ مِنْهَا تُحْفَةً ... لَمْ تَعْدُ أَنْ قَرَّتْ بِهَا عَيْنَاكَا

شَمْسٌ تَوَارَتْ فِي ظَلاَمِ مَضِيعَةٍ ... ثُمَّ اُسْتَطَارَ لَهَا السَّنَا بِسَنَاكَا (٥)

---

(١) الاملاك : عقـد الزواج ، يقول : اخطب فملـكتك يدورها الصهر والنسب ، واطلب فسعدك يضمن إدراك ما تطلب .

(٢) وصل النجوم بحظ ملك لو رام زهر النجوم لهجرت إليه أفلاكها ، يريد أنه لو رام مصاهرة من ارتفع نسبهم من الملوك إلى مسـتوى زهر الـكواكب فى أفلاكها ، لساقوا إليـه من زهر عرائسها ماترومه ، وتسمو إليه نفسه ، ويختاره نسبا وصهرا .

(٣) استهد : أطلب الهداء من هدى العروس يهديها إليه هداء زفها إليه ، وفى الأصل (استهو) وهو من استهواء الشياطين ، ولا معنى له هنا ، أى اطلب من أمنع أحياء العرب وأشدها حماية وحفيظة أن يهدوا إليك من بناتهم الشبيهات بالمها أى بقر الوحش فى البياض وسواد العيون من تريد وتهوى فان الصعب يسلس وينقاد فى عنانه مرادك وهواك .

(٤) أى أضحى تدبيره قوام المملـكة ونظامها الذى يعتمد عليه فى أمورها .

(٥) مضيعة : يقال هو بدار مضيعة كمعيشـة أى بدار ترك واطراح وإضاعة ، واسـتطار : انتشر ، والسنا : بالقصر الضياء ، أى كانت قبل هذا الاملاك شمسا محتجبة وراء حجب الاهمال والترك ، فاسـتطار إليها شعاع من سنا وجهك ، فأشرقت وأنارت .

قُرِنَتْ بِبَدْرِ التِّمِّ كَافِلَةً لَهُ ... أَنْ سَوْفَ تُتْبِعُ فَرْقَدَيْنِ سِمَاكَا (١)

هِيَ وَالْعَقِيدَةُ كَالْأَدِيمِ اخْتَرْتَهُ ... فَقَدَدْتَ إِذْ خَلُقَ الشِّرَاكُ شِرَاكَا (٢)

فَاصْفَحْ عَنِ الرُّزْءِ الْمُعَاوِدِ ذِكْرُهُ ... وَاسْتَأْنِفِ النُّعْمَى فَتِلْكَ بِذَاكَا (٣)

❋

لَمْ يَبْقَ عُذْرٌ فِي تَقَسُّمِ خَاطِرٍ ... إِلَّا الصَّبَابَةُ مِنْ دِمَاءِ عِدَاكَا

كُفَّارُ أَنْعُمِكَ الْأُلَى حَلَّيْتَهُمْ ... أَطْوَاقَهُمْ، سَيُطَوَّقُونَ ظُبَاكَا (٤)

أَعْرِضْ عَنِ الْخَطَرَاتِ إِنَّكَ إِنْ تَشَأْ ... تَكُنِ النُّجُومُ أَسِنَّةً لِقَنَاكَا (٥)

هُصِرَ النَّعِيمُ بِعِطْفِ دَهْرِكَ فَانْثَنَى ... وَجَرَى الْفِرِنْدُ بِصَفْحَتَيْ دُنْيَاكَا (٦)

وَبَدَا زَمَانُكَ لَابِسًا دِيبَاجَةً ... تَجْلُو لِعَيْنِ الْمُجْتَلِي سِيمَاكَا

دُنْيَا لِزَهْرَتِهَا شُعَاعٌ مُذْهَبٌ ... لَوْ كَانَ وَصْفًا كَانَ بَعْضَ حُلَاكَا

---

(١) يقول : قرنت هذه العقيلة ببدر التم ضامنة له أن ستتبع فرقدين سماكا يريد أنها ستنجب أمثال الكواكب النيرة من الذكور .

(٢) الأديم : الجلد ، وخلق : بلى ، والشراك : أحد سيور النعل التى على ظهرها ، يقول : هذه العقيلة وروحتك العقيدة كالأديم قطعت منه بدل الشراك الذى بلى شراكا جديدا ، أى اخترت بدل الفقيدة زوجا أخرى جديدة ، وقد ألف العرب أن يشبهوا المرأة بالنعل ، وجاراهم ابن زيدون فى ذلك ، وقد قال الحريرى فى مقاماته من حوار طويل : « فإن لمس ظهر نعله ، فقد انتقض وضوءه بفعله » أى إن لمس امرأته .

(٣) أى فتلك النعمى بالجديدة ، عوض من ذلك الرزء بالفقيدة ، فاضرب صفحا عما يعاودك من ذكريات تؤلم نفسك وتبعثك على الحزن .

(٤) جمع ظبة بالضم ، وهى حدّ السيف ، يقول : إن الذين طوقتهم بأنعمك فجحدوا بها ، ستجعل لهم غدا من سيوفك فى أعناقهم أطواقا يطوقونها .

(٥) أعرض عن كل خطرة تخطر بقلبك ، وتقع فى بالك من جهة تدبير المملكة ، فإنك منصور على أعدائك ، ولو شئت لتناولت نجوم السماء فجعلتها أسنة لرماحك .

(٦) جعل للنعيم عطفا كعطف الحسناء تهصره أى تميله إليك فينثنى كما تهصر الغصن وتميله نحوك لقطف ثماره ، وجعل لدنيا الممدوح التى احتوت النعيم فرندا يجرى فى صفحتيها ماؤه وتترقرق ديباجته ، فأعطاك صورة ساحرة فاتنة لما يتصل بالممدوح من دنيا يجمعها النعيم .

فَتَمَلَّ فى فُرُشِ الْكَرَامَةِ نَاعِماً ... وَاعْقِدْ بِمَرْتَبَةِ السُّرُورِ حُبَاكَا [1]

وَأَطِلْ ـ إِلَى شَدْوِ القِيَانِ ـ إِصَاخَةً ... وَتَلَقَّ مُتْرَعَةَ الْكُؤُسِ دِرَاكَا

تَحْتَثُّهَا مَثْــنَى مَثَانِى غَادَةٍ ... شَفَعَتْ بِحَثٍّ غِنَاءَهَا الإِمْسَاكَا [2]

مَا الْعَيْشُ إِلاَّ فى الصَّبُوحِ بِسُحْرَةٍ ... قَدْ جَاسَدَتْ أَنْوَارُهَا الْأَحْلاَكَا [3]

❁

لَكَ أَرْيَحِيَّةُ مَاجِدٍ ـ إِن تَعْتَرِضْ ... فى لَهْوِ رَاحِكَ ـ تَسْتَهِلَّ لُهَاكَا [4]

مَنْ كَانَ يَعْلَقُ فى خِلاَلِ نِدَامِهِ ... ذَمٌّ بِبَعْضِ خِلاَلِهِ فَخَلاَكَا [5]

أُسْبُوعُ أُنْسٍ مُحْدِثٌ لِى وَحْشَةً ... عِلْماً بِأَنِّى فِيــهِ لَسْتُ أَرَاكَا [6]

فَأَنَا الْمُعَذَّبُ غَــيْرَ أَنِّى مُشْعَرٌ ... ثِقَةً بِأَنَّكَ نَاعِمٌ فَهَنَاكَا

إِنِّى أَقُومُ بِشُكْرِ طَوْلِكَ بَعْدَ مَا ... مَلَأَتْ مِنَ الدُّنْيَا يَدَىَّ يَدَاكَا

بَرَدَتْ ظِلاَلُ ذَرَاكَ ، وَاحْلَوْلَى جَنَى ... نُعْمَاكَ لِى ، وَصَفَتْ جِمَامُ نَدَاكَا

وَأَمِنْتُ عَادِيَةَ الْعِدَا الْأَقْتَالِ مُذْ ... أَعْصَمْتُ فى أَعْلَى يَفَاعِ حِمَاكَا [7]

---

(١) تمل : تمع ، يقال ملاك الله حبيبك أى متعك وأعاشك معه طويلا ، والحبا : جمع حبوة وهو أن يجمع الجالس ظهره وساقيه بثوب أو نحوه .

(٢) تحتثها : أى الكؤوس أصوات تعاد مثنى من رنات مثانى عود فى يد غادة تسمع إلى حث الغناء إمساك الصوت بعد إطلاقه .

(٣) جاسدت : خالط بياض أنوارها سواد ظلماتها .

(٤) لهو راحك : أى فى إبان لهوك بشرب الراح : وتستهل تمطر واللها : جمع لهوة بالضم ، وهى العطايا الجزلة الكثيرة .

(٥) من كان فى أثناء المنادمة على الشراب يعلق ببعض خلاله وخصاله ما يعاب ويذم عليه ، فخلاك ذم وحاشاك عيب .

(٦) هو الأسبوع الذى يأنس فيه بعروسه ، ولا يخرج إلى خاصته الذرا : بالفتح كل ما استذريت به ، يقال أنا فى ذرا فلان أى فى كنفه ، والجمام : جمع جمة بالضم وهى معظم الماء ، والندى : العطاء أى صفا عطاؤك الشبيه بالماء فى الصفاء فلم يكدر بمن .

(٧) الأقتال : الأقران المساوون له فى الشجاعة من أعدائه ، وأعصمت : مثل اعتصمت أى استمسكت وامتنعت ولجأت ، واليفاع : المكان المرتفع .

جَهْـــدَ المقِلِّ نَصِيحَةً مَمْحُوضَةً ... أَفْرَدْتَ مُهْدِيَهَا فَلاَ إِشْرَاكَا[١]

وَثَنَاءِ مُحْتَفِلٍ كَأَنَّ ثَنَاءَهُ ... مِسْكٌ بِأَرْدَانِ المَحَافِلِ صَاكَا

وَلْتَدْعُنِي وَعَدُوَّكَ الشَّانِي ، فَإِنْ ... يَرُمِ القِرَاعَ يَجِدْ سِلاَحِيَ شَاكَا[٢]

⁂

لاَ تَعْدَمَنَّ الحَظَّ غَرْساً مُطْلِعاً ... ثَمَرَ الفَوَائِدِ دَانِياً لِجَنَاكَا

وَالنَّصْرَ جَارًا لاَ يُحَاوِلُ نُقْلَةً ... وَالصُّنْعَ رَهْناً لاَ يُرِيدُ فِكَاكَا

وَإِذَا غَمَامُ السَّعْدِ أَصْبَحَ صَوْبُهُ ... دَرْكَ المَطَالِبِ فَلْيَصِلْ سُقْيَاكَا

فَالدَّهْرُ مُعْــتَرِفٌ بِأَنَّا لَمْ نَكُنْ ... لِنُسَرَّ مِنْهُ بِسَاعَـــةٍ لَوْلاَكَا

عهـــد

كَمَا تَشَاءُ فَقُلْ لِي لَسْتُ مُنْتَقِلاَ ... لاَ تَخْشَ مِنِّيَ نِسْيَانًا وَلاَ بَدَلاَ[٣]

وَكَيْفَ يَنْسَاكَ مَنْ لَمْ يَدْرِ بَعْدَكَ مَا ... طَعْمُ الْحَيَاةِ وَلاَ بِالْبُعْدِ عَنْكَ سَلاَ

أَتْلَفْتَنِي كَلَفاً ، أَبْلَيْتَنِي أَسَفاً ... قَطَّعْتَنِي شَغَفاً ، أَوْرَثْتَنِي عِلَلاَ

⁂

إِنْ كُنْتُ خُنْتُ وَأَضْمَرْتُ السُّلُوَّ فَلاَ ... بَلَغْتُ يَا أَمَلِي مِنْ قُرْبِكَ الأَمَلاَ[٤]

وَاللهِ لاَ عَلِقَتْ نَفْسِي بِغَيْرِكُمُ ... وَلاَ اتَّخَذْتُ سِوَاكُمْ مِنْكُمُ بَدَلاَ

---

(١) أهدى إليك نهاية مايستطيع إهداءه مقل مثلى ، نصيحة خالصة أفردت مهديها واختصصته بها لم تشرك معه فيه غيره .

(٢) الشانى : المبغض ، والقراع المقارعة بالسيوف ، وشاك : السلاح يشاك شوكا ظهرت شوكته وحدته ، أى أدعى لمنازلة ومجالدة عدوك الشانى المبغض فانه متى يرم ذلك يجدنى شاكي السلاح مستعدا لمقارعته .

(٣) يقول : إنى احتمل منك كل شىء وليس ذلك بمحولى عن حبك ولا هو بداعى إلى نسيانك أو الانتقال عن حبك إلى حب سواك .

(٤) يقول : « حاقنى الله بيأسى منك وحرمى عطفك ووداده إن كنت فكرت لحظة فى السلو عنك .

مدح ورثاء [1]

« قال يمدح المعتمد ، ويرثى المعتضد بالله . »

هُوَ الدَّهْرُ فَاصْبِرْ لِلَّذِى أَحْدَثَ الدَّهْرُ ... فَمِنْ شِيَمِ الْأَبْرَارِ ـ فى مِثْلِهَا ـ الصَّبْرُ

سَتَصْبِرُ صَبْرَ الْيَأْسِ أَوْ صَبْرَ حِسْبَةٍ [2] ... فَلَا تُؤْثِرُ الْوَجْهَ الَّذِى مَعَهُ الْوِزْرُ [3]

حِذَارَكَ مِنْ أَنْ يُعْقِبَ الرُّزْءُ فِتْنَةً ... يَضِيقُ لَهَا ـ عَنْ مِثْلِ إِيمَانِكَ ـ الْعُذْرُ

إِذَا أَسِفَ الثُّكْلَ اللَّبِيبُ فَشَفَّهُ ... رَأَى أَفْدَحَ الثُّكْلَيْنِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ [4]

مُصَابُ الَّذِى يَأْسَى بِمَيْتِ ثَوَابِهِ ... هُوَ الْبَرْحُ لَا الْمَيْتُ الَّذِى أُحْرِزَ الْقَبْرُ [5]

***

حَيَاةُ الْوَرَى نَهْجٌ إِلَى الْمَوْتِ مَهْيَعٌ [6] ... لَهُمْ فِيهِ إِيضَاعٌ [7] كَمَا يُوضِعُ السَّفْرُ [8]

---

(١) جاء فى ص ٤٧٩ من نفح الطيب ما نصه :

« ولما مات والد المعتمد واستقل بالملك ، من دو لورارتين ابن زيدون يرثى المعتضد بقصيدة طويلة أولها :

« هو الدهر ، فاصبر للذى أحدث الدهر ... فمن شيم الأحرار فى مثلها الصبر . »

وقد ذكر صاحب نفح الطيب أكثر أبيات هـذه القصيدة وإن اختلفت فى قليل من الألفاظ فى بعض أبيات القصيدة عن رواية الديوان .

وسيرى القارئ تشابها كثيرا بين هـذه القصيدة وبين القصيدة الرائية التى قالها ابن زيدون فى رثاء الوزير أبى الحزم .

(٢) حسبة : احتساب الأجر ، وفى رواية نفح الطيب : « أو صبر وحشة »

(٣) وفى رواية نفح الطيب : « فلا تؤثر الوجه الذى معه العذر »

(٤) وفى روايه نفح الطيب : « أن يذهب الأجر »

(٥) وفى روايه نفح الطيب : « يأس بموت ثوابه »   (٦) طريق .

(٧) الايضاع : السير السريع . قال أبو العلاء :

« لا وضع للرحل إلا بعد إيضاع ... فكيف شاهدت إمضائى وإزماعى. »

(٨) السفر : المسافرون .

فَيَاهَادِىَ الْمِنْهَاجِ جُــرْتَ ، فَإِنَّمَا ... هُوَ الْفَجْرُ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ أَوِ الْبَجْرُ[١]

إِذَا الْمَوْتُ أَضْحَى قَصْرَ[٢] كُلِّ مُعَمَّرٍ ... فَإِنَّ سَوَاءٌ طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمْرُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ ضِــيمَ ذِمَارُهُ ... فَلَمْ يُغْنِ أَنْصَارٌ عَدِيدُهُمُ دَثْرُ[٣]

بِحَيْثُ اسْتَقَلَّ الْمُلْكَ ثَانِىَ عِطْفِهِ ... وَجَرَّرَ مِنْ أَذْيَالِهِ الْعَسْكَرُ الْمَجْرُ

هُوَ الضَّيْمُ لَوْ غَيْرُ الْقَضَاءِ يَرُومُهُ ... ثَنَاهُ الْمَرَامُ الصَّعْبُ وَالْمَسْلَكُ الْوَعْرُ

إِذَا عَثَرَتْ جُرْدُ الْعَنَاجِيجِ[٤] فِى الْقَنَا ... بِلَيْلٍ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُ

***

أَأَنْفَسَ نَفْسٍ ـ فِى الْوَرَى ـ أَقْصَدَ الرَّدَى ... وَأَخْطَرَ عِلْقٍ ـ لِلْهُدَى ـ أَفْقَدَ الدَّهْرُ

أَعَبَّادُ يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ ، لَقَدْ عَدَا ... عَلَيْكَ زَمَانٌ مِنْ سَجِيَّتِهِ الْغَدْرُ

فَهَلاَّ عَــدَاهُ أَنَّ عَلْيَاكَ حَلْيَهُ ، ... وَذِكْرَكَ ـ فِى أَرْدَانِ أَيَّامِهِ ـ عِطْرُ

***

غُشِيتَ فَلَمْ تَغْشَ الطِّرَادَ سَوَابِحٌ ، ... وَلاَ جُرِّدَتْ بِيضٌ ، وَلاَ أُشْرِعَتْ سُمْرُ[٥]

---

(١) البجر بالفتح والضم : المكروه والأمر العظيم ، وقد روى المبرد صاحب الكامل أن الخليفة أبا بكر رضى الله عنه حين حضرته الوفاة . قال فى آخر كلمة له : ياهادى الطريق جرت ، إنما هو والله الفجر أوالبجر وقوله « إنما هو والله الفجر أو البجر » يقول : « إن انتظرت حتى يضىء لك الفجر الطريق أبصرت قصدك وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه » وضرب ذلك مثلا لغمرات الدنيا وتحييرها أهلها (الكامل : حـ ١ ص ٥ و ٦ و ٧)

وجاء فى اللسان قوله : وفى حديث أبى بكر رضى الله عنه : إنما هو الفجر أوالبجر» قال : البجر ـ بالفتح والضم ـ الداهية والأمر العظيم . أى أن انتظرت حتى يضىء الفجر أبصرت الطريق ، وإن خبطت الظلماء أفضت بك إلى المكروه . قال : ويروى البحر بالحاء يريد غمرات الدنيا شبهها بالبحر لتحير أهلها فيها .

(٢) قصر : قصارى أو غاية . (٣) دثر : كثير .

(٤) العناجيج : جياد الخيل والأبل . (٥) بيض وسمر : سيوف ورماح .

وَلاَ ثَنَتِ المَحْذُورَ عنكَ جَـــلاَلَةٌ وَلاَ غُرَرٌ ثَبْتٌ وَلاَ نَائِلٌ غَمْرُ (١)

❁

لَئِنْ كَانَ بَطْنُ الأَرْضِ هُيِّئَ أُنْسُهُ بِأَنَّكَ ثَاوِيهِ لَقَدْ أَوْحَشَ الظَّهْرُ

لَعَمْرُ البُرُودِ البِيضِ فى ذٰلِكَ الثَّرَى لَقَدْ أُدْرِجَتْ أَثْنَاءَهَا النِّعَمُ الخُضْرُ

عَلَيْكَ ـ منَ اللهِ ـ السَّـــلاَمُ تَحِيَّةً يُنَسِّمُكَ الغُفْرَانَ رَيحَانُهَا النَّضْر

وَعَاهَدَ ذَاكَ اللَّحْدَ عَهْدُ سَحَائِبٍ إِذَا اسْتَعْبَرَتْ ـ فى تُرْبِهِ ـ ابْتَسَمَ الزَّهْرُ (٢)

فَفِيـــهِ عَلاَءٌ لاَ يُسَامَى يَفَاعُهُ (٣) وَقَدْرُ شَـــبَابٍ لَيْسَ يَعْدِلُهُ قَدْرُ

❁

وَأَبْيَضَ فى طَىِّ الصَّـــفِيحِ كَأَنَّهُ صَفِيحَةُ مَأْثُورٍ طَلاَقَتُهُ الأَثْرُ (٤)

كَأَنْ لَمْ تَسِرْ حُمْـــرُ المَنَايَا تُظِلُّهَا إِلَى مُهَجِ الأَقْيَالِ (٥) رَايَاتُهُ الحُمْرُ

وَلَمْ يَحْمِ منْ أَنْ يُسْتَبَاحَ حِمَى الهُدَى فَلَمْ يُرْضِـــهِ إِلاَّ أَنِ ارْتَجَعَ الثَّغْرُ

وَلَمْ يَنْتَجِعْهُ المُعْتَفُونَ (٦)، فَأَقْبَلَتْ عَطَايَا كَمَا وَالَى شَآبِيبَهُ (٧) القَطْرُ

---

(١) النائل الغمر : العطاء الجزيل الكثير .

(٢) يدعو الله أن يمطر جدثه سحائب تذرف ماءها على الأرض فتروى أزهارها فتنضرها .

(٣) اليفاع : المرتفع من الأرض .

(٤) الأثر : فرند السيف ، ورونقه ، وهو واحد ليس بجمع ، قال الشاعر :

« جلاها الصيقلون فأخلصوها خفافا ، كلها يتقى بأثر . »

أى كلها يستقبلك بفرنده . ويتقى مخفف من يتقى .

وقالت إعرابية :

« فإذا رقدت فأنت منتبه وإذا انتبهت فعزمك الأثر . »

وقالوا : سيف مأثور ، أى فى متنه أثر . وأخذ من الأثر كأن وشيه أثر فيه ، أو متنه حديد أنيث وشفرته حديد ذكر ، وقد زعموا أنه السيف الذى يعمله الجن .

(٥) الأقيال ــ جمع قيل ــ وهو الشجاع .

(٦) ينتجعه المعتفون : يطلب معروفه طالبو الاحسان والندى .

(٧) شآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر .

وَلَمْ تَكْتَنِفْ آرَاءهُ أَلْمَعِيَّةٌ   كَأَنَّ نَجِيَّ الْغَيْبِ فِي رَأْيِهَا جَهْرُ (١)

وَلَمْ يَتَشَذَّرْ لِلأُمُورِ (٢) مُجَلِّيًا   إِلَيْهَا كَمَا جَلَّى مِنَ الْمَرْقَبِ الصَّقْرُ

***

كِلاَ لَقَبَيْ سُلْطَانِهِ صَحَّ فَأْلُهُ   فَبَاكَرَهُ عَضْدٌ وَرَاوَحَهُ نَصْرُ (٣)

إِلَى أَنْ دَعَاهُ يَوْمُهُ فَأَجَابَهُ   وَقَدْ قَدَمَ الْمَعْرُوفُ وَاسْتَمْجَدَ الذُّخْرُ

فَأَمْسَى ثَبِيرٌ قَدْ تَصَدَّى لِحَمْلِهِ   سَرِيرٌ فَلَمْ يَبْهَضْهُ (٤) مِنْ هَضْبِهِ إِصْرُ

***

أَلاَ أَيُّهَا الْمَوْلَى الْوَصُولُ عَبِيدَهُ   لَقَدْ رَابَنَا أَنْ يَتْلُوَ الصِّلَةَ الْهَجْرُ

نُنَادِيكَ ـ دَاعِينَا السَّلاَمَ ـ كَعَهْدِنَا   فَمَا يُسْمَعُ الدَّاعِي وَلاَ يُرْفَعُ السِّتْرُ

أَعَتْبٌ عَلَيْنَا ذَادَ عَنْ ذَلِكَ الرِّضَى   فَنُعْتَبَ أَمْ بِالْمَسْمَعِ الْمُعْتَلِي وَقْرُ (٥)

أَمَا إِنَّهُ شُغْلٌ فَرَاغُكَ بَعْدَهُ   سَيَنْصَاتُ إِلاَّ أَنَّ مَوْعِدَهُ الْحَشْرُ (٦)

أَأَنْسَاكَ ـ لَمَّا يَنْأَ عَهْدٌ ـ وَلَوْ نَأَى   سَحِيسَ اللَّيَالِي لَمْ يَرِمْ نَفْسِيَ الذِّكْرُ (٧)

وَكَيْفَ بِنِسْيَانٍ وَقَدْ مَلأَتْ يَدِي   جِسَامُ أَيَادٍ مِنْكَ أَيْسَرُهَا الْوَفْرُ

---

(١) كأن لم تتكشف فطنته وألمعيته مستور الغيب الذى يتبدى لها رغم خفائه واضحا جليا .

(٢) تشذر للأمور : نشط إليها وتسرع ، وتشذر الرجل تهيأ للقتال والحملة .

(٣) يشير إلى تلقيبه بالمعتضد والمنصور .   (٤) يبهضه : يبهظه ، أى مثقل عليه حمله .

(٥) فى رواية نفح الطيب :

«أعتب علينا ذادوص ذلك الرضى   فنسمع أم الخ . . . . »

(٦) يقول : إنك فى شغل لن ينقضى إلا إذا جاء يوم المحشر .

(٧) رام يريم : فارق يفارق ، يقول : كيف أنساك ولم يطل عهدى بك ولو طال أبد الدهر لم أنسك ولم تفارق نفسى ذكراك

***

لَئِنْ كُنْتَ لَمْ أَشْكُرْ لَكَ المِنَنَ الّتِي ... تَمَلَّيْتُهَا تَتْرَى لَأَوْبَقَنِي (١) الكُفْرُ

فَهَلْ عَلِمَ الشِّلْوُ المُقَدَّسُ أَنَّنِي ... مُسَوِّغُ حَالٍ ضَلَّ فِي كُنْهِهَا الفِكْرُ (٢)

وَأَنَّ مَتَابِي لَمْ يُضِعْهُ « مُحَمَّدٌ » ... خَلِيفَتُكَ العَدْلُ الرِّضَى وَابْنُكَ البَرُّ

هُوَ الظَّافِرُ الأَعْلَى المُؤَيَّدُ بِالّذِي ... لَهُ فِي الّذِي وَلَّاهُ مِنْ صُنْعِهِ سِرُّ

رَأَى فِي اخْتِصَاصِي مَا رَأَيْتَ وَزَادَنِي ... مَزِيَّةَ زُلْفَى (٣) مِنْ نَتَائِجِهَا الفَخْرُ

وَأَرْغَمَ فِي بِرِّي أُنُوفَ عِصَابَةٍ ... لِقَاؤُهُمُ جَهْمٌ وَلَحْظُهُمُ شَزْرُ

إِذَا مَا اسْتَوَى فِي الدَّسْتِ عَاقِدَ حَبْوَةٍ ... وَقَامَ سِمَاطَا حَفْلِهِ فَلِيَ الصَّدْرُ (٤)

---

(١) لأهلكني (٢) الشلو : العضو جمعه أشلاء . يقول . هل علم الجسد الميت الطاهر أنى أحاول أن أستسيغ ما لا سبيل إلى استساغته أى أنه يحاول أن يرغم نفسه على الرضى عما حدث فلا يجد إلى ذلك سبيلا . (٣) قربى .

(٤) استوى : جلس ، والدست : معرب دشت ومعناها بالفارسية اليد — كما يؤخذ من شفاء الغليل وترك هذه المادة فى اللسان ، وفى القاموس : « الدست الدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت معربات . » واستعملها المولدون لمعان منها المجلس كما فى البيت الذى نحن بصدده ، قال أبو العلاء المعرى :

« من آلة الدست ما عند الوزير سوى ... تحريك لحيته فى حال إيماء

فهو الوزير ولا أزر يشد به ... مثل العروض له بحر بلا ماء . »

وورد فى المقامة الحادية عشرة من مقامات الحريرى عند قوله :

« تبصر ودع اللوم ... وقل لى هل ترى اليوم

فتى لا يقمر القوم ... إذا ما دسته تم . »

وهو هنا بمعنى الحيلة والخداع ، والمعنى تمت حيلته ، ويقال فلان تم عليه الدست فى القمار أى لم يفز وورد فى آخر المقامة الثامنة عشرة عند قوله :

« فبادرنا بعد أن وجدت عنده ، ورايلنا أنسه ، كدست عاب صدره ، أو ليل أفل بدره . »

وهو هنا بمعنى المجلس وورد فى أول المقامة الثالثة والعشرين عند قوله :

« فركضت فى إثر النظاره ، حتى وافينا باب الاماره ، وهناك صاحب المعونة مترسا فى دسته ، ومروعا بسمته . »

وَفِى نَفْسِـــهِ الْعَلْيَاءُ لِى مُتَبَوَّأٌ ... يُنَافِسُنِى فِيـــهِ السِّمَاكَانِ وَالنَّسْرُ

يُطِيلُ الْعِـدَا فِىَّ التَّنَاجِىَ خُفْيَةً ... يَقُولُونَ: « لاَتَسْتَفْتِ،قَدْقُضِىَ الْأَمْرُ »

مَضَى نَفْثُهُمْ ـ فِى عُقْدَةِ السَّعْىِ ـ ضَلَّةً ... فَعَادَ عَلَيْهِمْ غُمَّةً ذٰلِكَ السِّـــحْرُ

يَشِبُّ مَكَانِى عَنْ تَوَقِّى مَكَانِهِمْ ... كَمَاشَبَّ ـ قَبْلَ الْيَوْمِ ـ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو(١)

وهو هنا بمعنى المجلس أيضا وورد فى آخر هذه المقامة عند قوله :

« فلما حضرت الوالى وقد خلا مجلســه ، واحتفل بمسه ، أخذ يصف أبا زيد وفضله ، ويذم الدهر له ، ثم قال : نشدتك الله ـــ ألست الذى أعاره الدست ؟ فقلت : لا والذى أحلك فى هـــذا الدست ، ما أنا بصاحب هـــذا الدست ، بل أنت الذى تم عليه الدست . » فالدست الأول هو الثوب ، والثانى المجلس ، والثالث هو الثوب أيضا ، والرابع الحيلة .

والحبوة : بضم وكسر أوله وتحمع على حبا هى أن يجمع الجالس ظهره وساقيه بثوب أو بيديه ، ويقال حل فلان حبوته ، وهـــذا الأمر مما تحل له الحبا ، والحبوة ـــ بالفتح ـــ المصدر ، والسماط : الصف من الناس ، يقال قام القوم حوله سماطين أي صفين ، ومشى بين السماطين أى بين الصفين ، يقول إنه يفسح لى الجلوس فى الصدر إذا استوى فى مجلسه ومثل حوله صفان من حمله .

(١) أصـــل المثل : « شب عمرو عن الطوق » وفى رواية أساس البلاغة : « جل عمرو عن الطوق » ، وفى رواية مجمع الأمثال للميدانى « كبر عمرو عن الطوق » ومعنى البيت :

« لقد جل مكانى عن أن أحاذرهم ، كما جل عمرو عن الطوق . »

قال ابن قتيبة فى كتاب المعارف : وعمرو هذا هو عمرو بن عدى بن نصر ، ابن أخت جذيمة الأبرش، وهو الذى كان يقول ـــ إذا جنى الكمأة بين يدى خاله وهو صبى ـــ :

« هـــذا جناى ، وخياره فيـــه ... إذ كل جان يده إلى فيـــه . »

وقد زعموا أن الجن استهوته حينا ، ثم ظهر فوجـــده مالك وعقيل ، قالوا : « فانتسب لهما . فأتيا به جذيمة فسر به سرورا شديدا وحكمهما فسألاه منادمته . »

وقد ضربت الأمثال بندمانى جذيمة ، فقال متمم النويرى حين رثى أخاه :

« وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير ـــ فى الحياة ـــ وقبلنا ... أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... ـــ لطول اجتماع ـــ لم نبت ليلة معا . »

وقال أبو خراش الهذلى :

« ألم تعلمى أن قد تفرق قبلنا ... خليلا صفاء مالك وعقيل . »

وقد أشار أبو العلاء المعرى إلى ندمانى جذيمة إشارة نافعة فى رسالة الغفران (جـ ١ ص١٣٢) فليرجع إليها من شاء ، قالوا : وأصل هذا المثل أن أم عمرو قطعته وألبسته ثياب الملوك وطوقته بطوق فى عنقه وأمرته بزيارة خاله ، قالوا : فلما رأى خاله لحيته والطوق فى عنقه ، قال : « شب عمرو عن الطوق » فذهبت مثلا. قالوا : « وكانت الزباء قتلت خاله فأدرك عمرو وقصير ثأره فقتلاها . »

——— ١٠

***

لَكَ الْخَيْرُ ، إِنَّ الرُّزْءَ كَانَ غَيَابَةً ... طَلَعْتَ لَنَا فِيهَا كَمَا طَلَعَ الْبَدْرُ

فَقَرَّتْ عُيُونٌ كَانَ أَسْخَنَهَا الْبُكَا ... وَقَرَّتْ قُلُوبٌ كَانَ زَلْزَلَهَا الذُّعْرُ

وَلَوْلَاكَ أَعْيَا رَأْبُنَا ذَلِكَ الثَّأَى (١) ... وَعَزَّ فَلَمَّا يَنْتَعِشْ ذَلِكَ الْعَثْرُ

وَلَمَّا قَدَمْتَ الْجَيْشَ بِالْأَمْسِ أَشْرَقَتْ ... إِلَيْكَ - مِنَ الْآمَالِ - آفَاقُهَا الْغُبْرُ (٢)

فَقَضَّيْتَ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ لُبَانَةً ... مُشَيِّعُهَا نُسْكٌ وَفَارِطُهَا طُهْرُ (٣)

وَمِنْ قَبْلُ مَا قَدَّمْتَ مَثْنَى نَوَافِلٍ ... يُلَاقِي بِهَا مَنْ صَامَ مِنْ عِيدِهِ فِطْرُ

وَرُحْتَ إِلَى الْقَصْرِ الَّذِى غَضَّ طَرْفَهُ ... بُعَيْدَ التَّسَامِي أَنْ غَدَا غَيْرَهُ الْقَصْرُ (٤)

فَدَامَا مَعًا فِى خَيْرِ دَهْرٍ ، صُرُوفُهُ ... حَرَامٌ عَلَيْهَا أَنْ يَطُورَهُمَا هَجْرُ (٥)

وَأَجْمِلْ - عَنِ النَّاوِى - الْعَزَاءَ فَإِنْ ثَوَى ... فَإِنَّكَ لَا الْوَانِى ، وَلَا الضَّرَعُ الْغُمْرُ (٦)

---

(١) الثأى : الفساد ورأبه إصلاحه ، قال الشاعر :

« يرأب الصدع والثأى برصين ... من سجايا آرائه ويغير . »

(٢) قدمت : يقال قدم فلان فلانا يقدمه من باب نصر إذا تقدّمه ، قال تعالى : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار » والمعنى : ولما تقدمت الجيش صبيحة يوم الفطر أشرقت إليك شموس الآمال من آفاقها الغبر يريد أن الآمال ابتسمت له مشرقة ، وقد اغبرت الآفاق حزنا على فقد والده .

(٣) اللبانة : الحاجة يقال قضى فلان لبانته أى حاجته ، والفارط : المتقدّم أي قضيت حاجة فى نفسك من صلاة الفرض التى شيعها وتلاها نسك العيد وسبقها وتقدمها الطهر المسنون والطيب، وفى رواية نفح الطيب:

« فشيعها نسك وقارنها طهر »

(٤) أى بعد أن عدت من مصلى العيد رحت إلى القصر الذى غض طرفه حياء - بعد أن سما ببصره إليك - لأنك تبدلت به قصرا غيره . (٥) لايطورهما : لايقربهما والضمير عائد على القصرين .

(٦) الوانى : الضعيف ، والضرع : الخاضع الذليل ، والغمر : الذى لم يجرب الأمور ، يقول : تدرع بالصبر وأجمل عزاءك عن الراحل الثاوى فى قبره ، فإنك لست - إذ ألم بك خطب - بالضعيف ولا الغر الجاهل الذى لم يجرب الأمور ولم يعتبر بصروف الدهر ، وفى الأصل « فإنك لا الفانى » وقد أثبتنا هنا رواية نفح الطيب ، قال الشاعر :

أناة وحلما وانتظارا بهم غدا ... فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر

وَمَا أَعْطَتِ السَّبْعُونَ ـ قَبْلُ ـ أُولِي الْحِجَا مِنَ الْإِرْبِ مَا أَعْطَتْكَ عِشْرُوكَ وَالْعَشْرُ (١)

* * *

أَلَسْتَ الَّذِى إِنْ ضَاقَ ذَرْعٌ بِحَادِثٍ تَبَلَّجَ مِنْهُ الْوَجْهُ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ (٢)

فَلَا تَهِضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهُ فَمِنْكَ ـ لِمَنْ هَاضَتْ نَوَائِبُهَا ـ جَبْرُ

وَلَا زِلْتَ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقُرَّةٍ لِعَيْنَيْكَ مَشْدُودًا بِهِمْ ذَلِكَ الْأَزْرُ

فَإِنَّكَ شَمْسٌ ـ فِى سَمَاءِ رِيَاسَةٍ ـ تَطَلَّعَ مِنْهُمْ حَوْلَهَا أَنْجُمٌ زُهْرُ

* * *

شَكَكْنَا فَلَمْ نُثْبِتْ (٣) أَأَيَّامُ دَهْرِنَا بِهَا وَسَنٌ أَمْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ ؟

وَمَا إِنْ تَغَشَّتْهَا مُغَازَلَةُ الْكَرَى وَمَا إِنْ تَمَشَّتْ ـ فِى مَفَاصِلِهَا (٤) ـ خَمْرُ

سِوَى نَشَوَاتٍ ـ مِنْ سَجَايَا مُمَلَّكٍ ـ يُصَدِّقُ فِى عَلْيَائِهَا الْخَبَرَ الْخُبْرُ

* * *

أَرَى الدَّهْرَ ـ إِنْ يَبْطِشْ ـ فَأَنْتَ يَمِينُهُ وَإِنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا فَأَنْتَ لَهَا ثَغْرُ

وَكَمْ سَائِلٍ ـ بِالْغَيْبِ عَنْكَ ـ أَجَبْتُهُ : هُنَاكَ الْأَيَادِى الشَّفْعُ وَالسُّودَدُ الْوِتْرُ (٥)

هُنَاكَ التُّقَى وَالْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالنُّهَى وَبَذْلُ اللُّهَا وَالْبَأْسُ وَالنَّظْمُ وَالنَّثْرُ

---

(١) أولى الحجا : أرباب العقول ، والارب : العقل والدهاء والبصر بالأمور ، يقال أرب ككرم أرابة فهو أريب أى عاقل وجاء فى نفح الطيب «اللب» بدل «الارب» ، وعشروك : بالاضافة ، وعشرون إذا أضيف سقطت منه النون لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، يقال : «هذه عشروك وعشرىّ» بتشديد الياء كسلمى ، أى أن ثلاثين حجة أفادتك من الحجا والعقل ما لم تعطه غيرك السبعون .

(٢) ألست الذى إن ضاق الناس ذرعا بحادث تهلل له وجهك بشرا ، واتسع له صدرك احتمالا وصبراً ، ثقة منك بأنك ستكشف النازلة ، وتدفع الكارثة .

(٣) وفى نفح الطيب : «فلم ندرك» (٤) وفى نفح الطيب : «معاطفها» .

(٥) أى : هناك الايادى أى النعم المزدوجة المتكررة والمجد الفذ .

هُمَامٌ ـ إِذَا لاَقَى الْمُنَاجِزَ رَدَّهُ ـ   وَإِقْبَالُهُ خَطْوٌ ، وَإِدْبَارُهُ حُضْرُ (١)

مَحَاسِنُ ، مَا لِلرَّوْضِ ـ خَامَرَهُ النَّدَى ـ   رُوَاءٌ إِذَا نُصَّتْ حُلاَهَا وَلاَ نَشْرُ (٢)

مَتَى أُنْتُشِقَتْ لَمْ تُطْرِ دَارِينُ مِسْكَهَا   حَيَاءً ، وَلَمْ يَفْخَرْ بِعَنْبَرِهِ الشِّحْرُ (٣)

عَطَاءٌ وَلاَ مَنٌّ ، وَحُكْمٌ وَلاَ هَوًى   وَحِلْمٌ وَلاَ عَجْزٌ ، وَعِزٌّ وَلاَ كِبْرُ

قَدِ اُسْتَوْفَتِ النَّعْمَاءُ فِيكَ تَمَامَهَا   عَلَيْنَا ، فَمِنَّا الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَالشُّكْرُ

إلى ابن ذكوان

« كتب إلى الوزير أبى العباس بن حاتم بن ذكوان »

لَسْتَ مِنْ بَابَةِ الْمُلُوكِ (٤) أَبَا الْعَبَّاسِ ، دَعْهُمْ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَانِكْ

مَا جَزَاءُ الْوَزِيرِ مِنْكَ ـ إِذَا اُخْتَصَّكَ ـ أَنْ تَسْتَمِرَّ فِى إِدْمَانِكْ

أَتُرَاهُ لاَ يَسْتَرِيبُ لِإِمسَا   كِكَ سَرْدَ الْعِرَاقِ تَحْتَ لِسَانِكْ (٥)

مُذْ نَهَانَا ـ عَنِ الْمُدَامِ ـ اُنْتَهَيْنَا   مَعَ أَنَّا نُعَدُّ مِنْ صِبْيَانِكْ .

---

(١) الماجز : من الماجزة وهى المبارزة فى القتال والمقاتلة ، قال عبيد :

كالهندوانى المهنـــــد هزه القرن الماجز

والحضر : إحضار الفرس وعدوه ، يقول هو ملك همام إذا لاقى عدوه المناجز فى الحرب والقتال رده منهزما فى حال كون إقباله بطيئا وإدباره سريعا .

(٢) نصت : وضعت على المنصة بكسر الميم وهى سرير العروس الذى تنص وتجلى عليه ليلة الزفاف ، والنشر : الرائحة الطيبة ، وفى الأصل « ولا نشر » والذى أثبتناه هنا رواية نفح الطيب .

(٣) لم تطر : لم تمدح ، ودارين : ثغر على الخليج الفارسى يجلب إليه الطيب من بلاد الهند ، والذى فى نفح الطيب « لم تدر » والشحر : ساحل البحر بين « عمان » و « عدن » ـ أو هو صقع على ساحل الخليج الفارسى وإلى هذا الصقع ينسب العنبر الشحرى ، وهناك عدة مدن بهذا الاسم كما يؤخذ من معجم البلدان ، والمعنى : متى فاح عبير تلك المحاسن لم تثن دارين على مسكها ولم يفخر الشحر بعنبره .

(٤) من بابة الملوك : من الشروط والوجوه التى تصلح لهم ، ويقال : « هذا شىء من بابتك » أى يصلح لك . يقول : « لست من بيئتهم . »

(٥) العراق : بالكسر الجلد المخروز على فم السقاء والزق ونحوهما تشبه بخرزه الأسنان فى السرد ، والاستواء ، وجاء فى الأصل « سعد العراق » يقول : أترى الوزير لا يقع فى الريبة لوضعك مسرودة العراق تحت لسانك ، يريد أنه يحتسى الخمر من فم زق محرق أى على فمه عراق .

إلى المعتمد

« كتب ابن زيدون إلى المعتمد يشوّقه إلى تعاطى الحيا فى قصوره البديعة التى منها المبارك والثريا (١) . »

فُزْ بِالنَّجَاحِ وَأَحْرِزِ الْإِقْبَالاَ   وَحُزِ الْمُنَى وَتَنَجَّزِ الآمَالاَ
وَلْيَهْنِكَ التَّأْيِيدُ وَالظَّفَرُ اللّذَا   صَدَقَاكَ ـ فِى السِّمَةِ الْعَلِيَّةِ ـ فَالاَ
يٰأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى لَوْلاَهُ لَمْ   تَجِدِ الْعُقُولُ النَّاشِدَاتُ كَمَالاَ

* * *

أَمَّا « الثُّرَيَّا » (٢) فَالثُّرَيَّا نِسْبَةً   وَإِفَادَةً وَإِنَافَةً وَجَمَالاَ
قَدْ شَاقَهَا الْإِغْبَابُ حَتَّى أَنَّهَا   لَوْ تَسْتَطِيعُ سَرَتْ إِلَيْكَ خَيَالاَ
رَفِّهْ (٣) وُرُودَكَهَا لِتَغْنَمَ رَاحَةً   وَأَطِلْ مَزَارَكَهَا لِتَنْعَمَ بَالاَ

* * *

وَتَمَلِّ الْقَصْرَ « الْمُبَارَكَ » وَجْنَةً   قَدْ وَسَّطَتْ فِيهَا « الثُّرَيَّا » خَالاَ
وَأَدِرْ هُنَاكَ مِنَ الْمُدَامِ أَتَمَّهَا   أَرَجًا زَكَا وَأَشَفَّهَا جِرْيَالاَ (٤)
قَصْرٌ يُقِرُّ الْعَيْنَ مِنْهُ مَصْنَعٌ   بَهِجُ الْجَوَانِبِ، لَوْ مَشَى لَاخْتَالاَ
لَا زِلْتَ تَفْتَرِشُ السُّرُورَ حَدَائِقاً   فِيهِ، وَتَلْتَحِفُ النَّعِيمَ ظِلاَلاَ .

---

(١) وردت هذه القصيدة فى الديوان ولم يكتب لها عنوان ، وقد نقلنا هذه الكلمة من نفح الطيب

(٢) يعنى قصره المسمى « الثريا » .

(٣) أى اجعل ورودك اياها رفها أى كل يوم ، يقال وردت الابل رفها إذا كانت ترد الماء كلما شاءت الورود .   (٤) الجريال : الخمر ، أو حمرتها وسيأتى تفسيرها فى ص « ١٥٥ »

مدح ورثاء وتهنئة (١)

« وقال أيضا يمدحه ويرثى الوزير الكاتب الأعلى أبا الحزم أباه رحمهما الله . »

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا الْقبْرُ — وَأَنْ قَدْ كَفَانَا ـ فَقْدَنَا الْقَمَرَ ـ الْبَدْرُ
وَأَنَّ الحَيَا (٢) ـ إِنْ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ ـ — فَقَدْ فَاضَ لِلْآمَالِ فِى إِثْرِهِ الْبَحْرُ
إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفِعْلَ بَعْدَهَا ، — وَذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتْبَعُهُ الْعُذْرُ
فَلَا يَتَهَنَّ الْكَاشِحُونَ فَمَا دَجَا — لَنَا اللَّيْلُ إِلَّا رَيْثَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ
وَإِنْ يَكُ وَلَّى « جَهْوَرٌ » ، « فَمُحَمَّدٌ » — خَلِيفَتُهُ الْعَدْلُ الرِّضَى وَابْنُهُ الْبَرُّ

* * *

لَعَمْرِى لَنِعْمَ الْعِلْقُ (٣) أَتْلَفَهُ الرَّدَى — فَبَانَ ، وَنِعْمَ الْعِلْقُ أَخْلَفَهُ الدَّهْرُ
هَزَزْنَا بِهِ الصَّمْصَامَ (٤) فَالْعَزْمُ حَدُّهُ — وَحِلْيَتُهُ الْعَلْيَا وَإِفْرِنْدُهُ الْبِشْرُ
فَتًى يَجْمَعُ الْمَجْدَ الْمُفَرَّقَ هَمُّهُ — وَيُنْظَمُ ـ فِى أَخْلَاقِهِ ـ السُّوْدَدُ النَّثْرُ
أَهَابَتْ إِلَيْهِ بِالْقُلُوبِ مَحَبَّةٌ — هِىَ السِّحْرُ لِلْأَهْوَاءِ ، بَلْ دُونَهَا السِّحْرُ
سَرَتْ ـ حَيْثُ لَا تَسْرِى مِنَ الْأَنْفُسِ الْمُنَى ـ — وَدَبَّتْ دَبِيبًا لَيْسَ يُحْسِنُهُ الْخَمْرُ
لَبِسْنَا لَدَيْهِ الْأَمْنَ تَنْدَى ظِلَالُهُ — وَزَهْرَةَ عَيْشٍ مِثْلَ مَا أَيْنَعَ الزَّهْرُ
وَعَادَتْ لَنَا عَادَاتُ دُنْيَا كَأَنَّهَا — بِهَا وَسَنٌ أَوْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ

* * *

مَلِيكٌ لَهُ مِنَّا النَّصِيحَةُ وَالْهَوَى — وَمِنْهُ الْأَيَادِى الْبِيضُ وَالنِّعَمُ الْخُضْرُ

---

(١) ارجع إلى ص « ١٤٠ » و ص « ١٧٤ » من هذا الديوان .

(٢) المطر . (٣) النفيس . (٤) الحسام .

نُسِرُّ وَفَاءً — حِينَ نُعْلِنُ طَاعَةً — فَمَا خَانَهُ سِرٌّ وَلاَ رَابَهُ جَهْرُ
فَقُلْ لِلْحَيَارَى: « قَدْ بَدَا عَلَمُ الْهُدَى » وَلِلطَّامِعِ الْمَغْرُورِ: « قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ[1] »

***

« أَبَا الحَزْمِ » قَدْ ذَابَتْ عَلَيْكَ — مِنَ الْأَسَى — قُلُوبٌ مُنَاهَا الصَّبْرُ، لَوْ سَاعَدَ الصَّبْرُ
دَعِ الدَّهْرَ يَفْجَعْ بِالذَّخَائِرِ أَهْلَهُ فَمَا لِنَفِيسٍ — مُذْ طَوَاكَ الرَّدَى — قَدْرُ
تَهُونُ الرَّزَايَا بَعْدُ — وَهْيَ جَلِيلَةٌ — وَيُعْرَفُ — مُذْ فَارَقْتَنَا — الحَادِثُ النُّكْرُ
فَقَدْنَاكَ فَقْدَانَ السَّحَابَةِ لَمْ يَزَلْ لَهَا أَثَرٌ يُثْنِي بِهِ السَّهْلُ وَالْوَعْرُ
مَسَاعِيكَ حَلْيٌ لِلْيَالِي مُرَصَّعٌ وَذِكْرُكَ — فِي أَرْدَانِ أَيَّامِهَا — عِطْرُ
فَلاَ تَبْعَدَنْ إِنَّ الْمَنِيَّةَ غَايَةٌ إِلَيْهَا التَّنَاهِي طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمْرُ

***

عَزَاءً — فَدَتْكَ النَّفْسُ عَنْهُ — فَإِنْ ثَوَى فَإِنَّكَ لاَ الْوَانِي وَلاَ الضَّرَعُ الْغُمْرُ
وَمَا الرُّزْءُ فِي أَنْ يُودَعَ التُّرْبَ هَالِكٌ بَلِ الرُّزْءُ كُلُّ الرُّزْءِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ
أَمَامَكَ — مِنْ حِفْظِ الْإِلٰهِ — طَلِيعَةٌ وَحَوْلَكَ — مِنْ آلاَئِهِ — عَسْكَرٌ مَجْرُ
وَمَا بِكَ مِنْ فَقْرٍ إِلَى نَصْرِ نَاصِرٍ كَفَتْكَ — مِنَ اللهِ — الْكَلاَءَةُ[2] وَالنَّصْرُ

***

لَكَ الْخَيْرُ، إِنِّي وَاثِقٌ بِكَ شَاكِرٌ لِمَثْنَى أَيَادِيكَ الَّتِي كُفْرُهَا الْكُفْرُ
تَحَامَى الْعِدَا — لَمَّا اعْتَلَقْتُكَ — جَانِبِي وَقَالَ الْمُنَاوِي: شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو[3]

---

(١) قريب من هذا قول ابن هانئ الأندلسي :

تقول بنو العباس : « هل فتحت مصر ؟ » فقل لبني العباس : « قد قضي الأمر »

(٢) الرعاية والحفظ (٣) ارجع إلى تفسير هذا المثل في (ص ١٤٥) من هذا الكتاب

يَلِينُ كَلاَمٌ كَانَ يَخْشُنُ مِنْهُمُ ... وَيَفْتَرُّ نَحْوِى ذٰلِكَ النَّظَرُ الشَّزْرُ

***

فصَــــدِّقْ ظُنُونًا لِى وَفِىٍّ ، فَإِنَّنِى ... لَأَهْلُ اليَدِ الْبَيْضَاء مِنْكَ وَلاَ فَخْرُ

وَمَنْ يَكُ ـ لِلدُّنْيَا وَلِلْوَفرِ ـ سَعْيُهُ ... فَتَقْرِيبُكَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالُكَ الْوَفْرُ [1]

هــــدية عنب

« وأهدى إلى الوزير الفقيه صاحب الأحكام أبى بكر محمد بن محمد بن إبراهيم جدّه لأمّه عنبا عذارى وكتب معه . »

أَتَاكَ مُحَيِّيًا عَــــنِّى اُعْتِذَارَا ... عَذَارَى دُونَهُ رِيقُ الْعَذَارَى [2]

تَخَالُ الشَّهْدَ مِنْهُ مُسْتَمَدًّا ... وَنَفْحَ الْمِسْكِ مِنْهُ مُسْتَعَارَا

يَرُوقُ الْعَيْنَ مِنْهُ جِسْمُ مَاءٍ ... غَدَا ثَوْبُ الْهَوَاءِ لَهُ شِعَارَا

وَلَوْلاَ أَنَّنِى قَدْ نِلْتُ مِنْهُ ... ـ وَلَمْ أُسْكَرْ ـ خَلَلْتُ بِهِ عُقَارَا

بَعَثْتُ بِهِ وَلَوْ أَهْدَيْتُ نَفْسِى ... إِلَيْكَ ، لَكَانَ مِنْ بِرِّى اُقْتِصَارَا

فَأَنْعِمْ بِالْقَبُولِ فَرُبَّ نُعْمَى ... أَعَدْتَ بِهَا دُجَى لَيْلِى نَهَارَا

---

(١) يقول : إن من كانت غايته من الدنيا أن تقبل عليه وأن ينال الغنى فانه يظفر بهما جميعا حين تدنيه منك وتقبل عليه .

(٢) العذارى : صنف من العنب يشبه بأصابع العذارى لطوله ، يقول : أتاك يحمل تحية معتذراً إليك « عنب عذارى » ، حلو دونه فى الحلاوة ريق العذارى .

رثاء ابن ذكوان

« قال يرثى القاضى أبا بكر بن ذكوان . »

اعْجَبْ لِحَالِ السَّرْوِ كَيْفَ تُحَالُ   وَلِدَوْلَةِ الْعَلْيَاءِ كَيْفَ تُدَالُ (١)

لاَ تَفْسَحَنْ لِلنَّفْسِ فى شَأْوِ الْمُنَى   إِنَّ اغْتِرَارَكَ - بِالْمُنَى - لَضَلاَلُ

مَا أَمْتَعَ الآمَالَ لَوْلاَ أَنَّهَا   تَعْتَاقُ - دُونَ بُلُوغِهَا - الآجَالُ (٢)

مَنْ سُرَّ - لَمَّا عَاشَ - قَلَّ مَتَاعُهُ   فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالسُّرُورُ خَيَالُ (٣)

* * *

فى كُلِّ يَوْمٍ تُنْتَحَى بِرَزِيَّةٍ   لِلأَرْضِ - مِنْ بُرَحَائِهَا - زِلْزَالُ (٤)

إِنْ يَنْكَدِرْ - بِالأَمْسِ - نَجْمٌ ثَاقِبٌ   فَالْيَوْمَ أَقْلَعَ عَارِضٌ هَطَّالُ (٥)

إِنَّ النَّعِيَّ « لِجَهْوَرٍ » وَ « مُحَمَّدٍ »   أَبْكَى الْغَمَامَ ، فَدَمْعُهُ مُنْثَالُ (٦)

شَكْلاَنِ - إِنْ حُمَّ الْحِمَامُ - تَجَاذَبَا   لاَغَرْوَ أَنْ تَتَجَاذَبَ الأَشْكَالُ (٧)

---

(١) السرو : الشرف والسيادة ، يقول : أعجب لهذا المجد كيف حال عن عهده وتحول ، واعجب لدولة العلياء كيف دالت وتبدلت . (٢) يقول : إن أحسن شىء تتمتع به النفس الآمال ، لولا أن الآجال ، تعوق دون بلوغ الآمال .

(٣) من سره العيش فى هذه الحياة الدنيا فليعلم أن متاعها قليل ، وأن الناس فيها نيام لا انتباه لهم ولا يقظة إلا بعد الموت إذن فسرورها خيال ، وغرورها باطل .

(٤) منتحى : مقصد ، يقال انتحاه إذا قصد ناحيته ، والبرحاء : الشدة .

(٥) ينكدر : ينقض ويسقط ، قال تعالى « وإذا النجوم انكدرت » أى تناثرت ، والعارض : السحاب ، يقول : إن موت أبى بكر القاضى جاء عقب موت اثنين من آل جهور سيذكرهما فى البيت التالى لهذا البيت .

(٦) النعى : كغنى الناعى ، من نعى الميت ينعاه إذا أخبر بموته ، ومنثال : من ثال الدمع وغيره استخرجه.

(٧) حم : قدر ، والحمام : الموت ، يقول : « جهور » و « محمد » شكلان متجانسان حم الموت على أحدهما فانجذب إليه شكله ، وكذلك الأشكال تتجاذب .

***

وَلَّى « أَبُو بَكْرٍ » فَرَاعَ لَهُ الْوَرَى   هَوْلٌ تَقَاصَرُ ـ دُونَهُ ـ الْأَهْوَالُ

قَرْمٌ هَوَى فِي التُّرْبِ ـ تُحْثَى فَوْقَهُ ـ   لِلّهِ مَا حَازَ الثَّرَى الْمُنْهَالُ (١)

قَدْ قُلْتُ ـ إِذْ قِيلَ السَّرِيرُ يُقِلُّهُ ـ   هَلْ لِلسَّرِيرِ بِقَدْرِهِ اسْتِقْلَالُ ؟

الْآنَ بَيَّنَ لِلْعُقُولِ زَوَالُهُ   أَنَّ الْجِبَالَ قُصَارُهُنَّ زَوَالُ

مَا أَقْبَحَ الدُّنْيَا ! خِلَافَ مُوَدِّعٍ   غَنِيَتْ بِهِ فِي حُسْنِهَا تَخْتَالُ (٢)

***

يَا قَبْرَهُ الْعَطِرَ الثَّرَى لَا يَبْعَدَنْ   حُلْوٌ مِنَ الْفِتْيَانِ فِيكَ حَلَالُ (٣)

مَا أَنْتَ إِلَّا الْجَفْنُ أَصْبَحَ طَيَّهُ   نَصْلٌ عَلَيْهِ ـ مِنَ الشَّبَابِ ـ صِقَالُ (٤)

فَهُنَاكَ نَفَّاحُ الشَّمَائِلِ مِثْلَ مَا   طَرَقَتْ بِأَنْفَاسِ الرِّيَاضِ شَمَالُ (٥)

---

(١) تحثى : تهال فوقه ، والثرى : التراب الندى .

(٢) خلاف مودع : أى بعده ، يقال جاء فلان خلاف فلان أى بعده ، قال تعالى « وإذن لايلبثون خلافك إلا قليلا » أى خلفك كما فى القراءة الثانية ، والمعنى : ما أقبح الدنيا بعد هذا الراحل المودع الذى كانت الدنيا به تختال كالعروس المتحلية بحلاها من الزينة ثم أصبحت بعده قبيحة دميمة .

(٣) الحلو الحلال : من الفتيان هو الفتى الذى لاريبة فيه الموثوق به ، قال الشاعر :

« ألا ذهب الحلو الحلال الحلاحل   ومن قوله حكم وعدل ونائل . »

وقال الآخر :

« رأيت رباطا حين تم شبابه   وولى شبابى ليس فى بره عتب

إذا كان أولاد الرجل حزازة   فأنت الحلال الحلو والبارد العذب . »

والمعنى : يا قبره الندى العطر ثراه لايبعدن فيك من الفتيان ذلك الفتى الحلو الحلال أى الذى لاشك ولا ريبة فى رجولته وفتوته .

(٤) ما أنت أيها القبر إلا جفن طوى فيه فتى كنصل السيف صقل بصقال الشباب .

(٥) هناك أى فى ذلك القبر ثوى فتى شمائله وطباعه تنفح بأنواع العطر مثل ما هبت بأنفاس الرياض

دَانٍ مِنَ الخُلُقِ المُزَيِّنِ ، نَازِحٌ   عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْهِ مَقَالُ (١)

شِيَمٌ يُنَافِسُ حُسْنَهَا إِحْسَانُهَا   كَالرَّاحِ نَافَسَ طَعْمَهَا الجِرْيَالُ (٢)

* * *

يَا مَنْ شَأَى الأَمْثَالَ ، مِنْهُ وَاحِدٌ   ضُرِبَتْ بِهِ فِي السُّودَدِ الأَمْثَالُ (٣)

نَقَصَتْ حَيَاتُكَ حِينَ فَضْلُكَ كَامِلٌ   هَلَّا أُسْتُضِيفَ ـ إِلَى الْكَمَالِ ـ كَمَالُ (٤)

وُدِّعْتَ عَنْ عُمُرٍ عَمَرْتَ قَصِيرِهِ   بِمَكَارِمٍ أَعْمَارُهُنَّ طِوَالُ

مَنْ لِلنَّدِيِّ إِذَا تَنَازَعَ أَهْلُهُ   فَاسْتَجْهَلَتْ حُلَمَاءَهُ الجُهَّالُ (٥)

لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ لَقَلَّ مِرَاؤُهُمْ   لِأَغَرَّ فِيهِ ـ مَعَ الْفَتَاءِ ـ جَلَالُ (٦)

---

(١) دان : قريب من كل خلق حميد يزينه ، نازح : بعيد عن كل ما فيه عليه لوم ومؤاخذة وعيب ، ولعله كلفظ قول الشاعر :

« إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى   إلى بعض ما فيــه عليك مقال . »

(٢) جريال الخمر : حمرتها الشديدة ، قال الأعشى :

« وسبيئة مما تعتق بابل   كدم الذبيح سلبتها جريالها . »

ومعنى سلبتها جريالها ـ أى لونها وحمرتها ـ أن لونها ظهر على وجهــه حين شربها ولــكنها حين خرجت منه عند البول خرجت بيضاء ، ويطلق الجريال والجريالة على الخمر نفسها ، قال ذو الرمة :

« كأنى أخو جريالة بابلية   كميت تمشت فى العظام شمولها . »

وقالوا فى السلاف ـ وهو أول ما يجرى من ماء العنب من غير عصر ولونه أصــفر ـ إنه أجود من الجريال. قال المتنبى :

« ولقد خبأت من الكلام سلافه   وسقيت من نادمت من جرياله . »

ومعنى البيت الذى نحن بصــدده : نافس إحسان شيمك وخلالك حسنها كما نافس لون الراح طعمها ، حين جمعت إلى لذة الطعم حسن اللون .

(٣) وفى الأصل : « يامن شاه . »

(٤) عاجلتك المنية فى الوقت الذى كمل فيه فضلك ، فهلا نسىء فى عمرك حتى تستضيف كمالا إلى كمالك .

(٥) الندى : المجلس ، واستجهله نسبتهم إلى الجهل ، والحلماء : أصحاب الأحلام أى العقول .

(٦) لو كنت حاضر مجلسهم لاحتشموك فلم يماروك ويجادلوك إذ كانا لأغر فيه مع فتاء السن وقار وهيبة .

***

مَنْ لِلْعُلُومِ؟ فَقَدْ هَوَى الْعَلَمُ الَّذِى ... وُسِمَتْ بِهِ أَنْوَاعُهَا الْأَغْفَالُ (١)

مَنْ لِلْقَضَاءِ يَعِزُّ (٢) ـ فى أَثْنَائِهِ ـ ... إِيضَاحُ مُظْلِمَةٍ لَهَا إِشْكَالُ؟

مَنْ لِلْيَتِيمِ تَتَابَعَتْ أَرْزَاؤُهُ؟ ... هَلَكَ الْأَبُ الْحَانِى وَضَاعَ الْمَالُ!

أَعْزِزْ بِأَنْ يَنْعَاكَ نَعْىَ شَمَاتَةٍ ... لِلْأَوْلِيَاءِ الْمَعْشَرُ الْأَقْتَالُ (٣)

فُجِعَتْ رَحَى الْإِسْلَامِ مِنْكَ بِقُطْبِهَا ... لَيْتَ الْحَسُودَ فِدَاكَ فَهْوَ ثِفَالُ (٤)

***

زُرْنَاكَ لَمْ تَأْذَنْ كَأَنَّكَ غَافِلٌ ... مَا كَانَ مِنْكَ لِوَاجِبٍ إِغْفَالُ

أَيْنَ الْحَفَاوَةُ رَوْضُهَا غَضُّ الْجَنَى ... أَيْنَ الطَّلَاقَةُ بِشْرُهَا سَلْسَالُ

أَيَّامَ مَنْ يَعْرِضْ عَلَيْكَ وِدَادَهُ ... يَكُنِ الْقَبُولُ بَشِيرُهُ الْإِقْبَالُ

مَهْمَا نُغِبُّكَ لَا نُرِبْكَ وَإِنْ نَزُرْ ... رِفْهًا فَمَا لِزِيَارَةٍ إِمْلَالُ (٥)

هَيْهَاتَ لَا عَهْدٌ ـ كَعَهْدِكَ ـ عَائِدٌ ... إِذْ أَنْتَ فى وَجْهِ الزَّمَانِ جَمَالُ

---

(١) العلوم المتروكة لصعوبة الخوض فيها إلا على أمثاله من الباحثين .

(٢) يقل ويمتنع فلا يوجد لاشكالها حل .

(٣) أعزز : أعظم على نفسى منعاك نعى شماتة أى يعز علىّ ويشق علىّ نفسى أن ينعاك الأقتال أى الأعداء نعى شماتة لأوليائك وأصفيائك .

(٤) قطب الرحى : الحديدة القائمة فى وسط الرحى السفلى ، وهو الذى يدور عليه طبق الرحى العليا ، جعل للاسلام رحى هو قطبها الذى تدور عليه ، يعنى أن عليه نظام الاسلام ، ومدار الأحكام ، والثفال ما يوضع تحت الرحى من جلد ونحوه ليقى ما يسقط عند الطحن من التراب ، وهذا لا يكون إلا فى رحى اليد ، قال زهير . « فتعرككم عرك الرحى بثفالها » ، والمعنى فجع الاسلام بقطب العلماء ورئيسهم ، وليت الحسود كان فداء لك معركة الموت عرك الرحى فوق ثفالها أى ليت رحى الموت دارت على حاسدك وشانئك .

(٥) نغبك : الاغباب أن تزوره يوما وتغبه أى تنقطع عنه يوما أو أياما ، ورفها : هو من ورود الابل رفها وهو أن ترد الماء كلما شاءت الورود ، والمعنى : مهما انقطعنا عن زيارتك لم ترتب فى ودنا ، وإن زرناك رفها وفى كل وقت لم تسأم ولم تمل الزيارة .

فَاذْهَبْ ذَهَابَ الْبُرْءِ أَعْقَبَهُ الضَّنَى ... وَالْأَمْنِ وَافَتْ بَعْدَهُ الآجَالُ (١)

لَكَ صَالِحُ الْأَعْمَالِ إِذْ شَيَّعْتَهَا ... بِالْبِرِّ سَاعَةَ تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ

*

حَيَّا الحَيَا مَثْوَاكَ ، وَامْتَدَّتْ عَلَى ... ضَاحِي ثَرَاكَ – مِنَ النَّعِيمِ – ظِلَالُ (٢)

وَإِذَا النَّسِيمُ اعْتَلَّ فَاعْتَامَتْ بِهِ ... سَاحَاتِكَ الْغَدَوَاتُ وَالآصَالُ (٣)

وَلَئِنْ أَذَالَكَ – بَعْدَ طُولِ صِيَانَةٍ – ... قَدَرٌ ، فَكُلُّ مَصُونِهِ سَيُذَالُ (٤)

سَيَحُوطُ مَنْ خَلَّفْتَهُ مُسْتَبْصِرٌ ... فِي حِفْظِ مَا اسْتَحْفَظْتَهُ لَا يَالُو

كَفَلَ الْوَزِيرُ «أَبُو الْوَلِيدِ» بِجَبْرِهِمْ ... إِنَّ الْوَزِيرَ – لِمِثْلِهَا – فَعَّالُ

مَلِكٌ سَجِيَّتُهُ الْوَفَاءُ فَمَالَهُ ... بِالْعَهْدِ – فِي ذِي خُلَّةٍ – إِخْلَالُ

حَتْمٌ عَلَيْهِ لَعاً (٥) لِعَثْرَةِ حَالِهِمْ ... قَدْ تَعْثُرُ الحَالَاتُ ثُمَّ تُقَالُ

*

إِيهاً : بَنِي ذَكْوَانَ – إِنْ غَلَبَ الأَسَى – ... فَلَكُمْ إِلَى الصَّبْرِ الجَمِيلِ مَآلُ

إِنْ كَانَ غَابَ الْبَدْرُ عَنْ سَاهُورِهِ ... مِنْكُمْ وَفَارَقَ غَابَهُ الرِّئْبَالُ (٦)

---

(١) اذهب على رغم منا ذهاب العافية جاء عقبها المرض ، والأمن وافى بعده الأجل .

(٢) الحيا : المطر ، والمثوى ، القبر ، وضاحى ثراك : أى ثراك الضاحى أى البارز للشمس .

(٣) اعتامت : اختارت ، ومنه قول طرفه :

« أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتشدّد . »

والمعنى : اعتامت أى اختارت الغدوات والآصال ساحات القبر وآثرتها بمرور النسيم العليل .

(٤) أذالك : أهانك ، أى لئن امتهنك القدر بعد طول صيانه ، فكل مصون لم تمتد إليه يد القدر سيذال ويهان يوما من الأيام .

(٥) دعاء للعاثر أن يقيمه الله من عثرته ، وإذا قيل « لا لعا للعاثر » فمعناه لا أقاله الله من عثرته .

قال ابن دريد :

« فإن عثرت بعدها – إن وألت ... نفسى من هاتا – فقولا : « لا لعا »

وإن تكن مدتها موصولة ... بالحتف ، سلطت الأسى على الأسى . »

وقال الأخطل :

« فلا هدى الله قيسا – من ضلالتهم – ... ولا لعا لبنى ذكوان إذ عثروا . »

(٦) الساهور : دارة القمر ، والرئبال : الأسد ..

فى مدح المعتضـــــد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

أَعَرْفُكِ رَاحَ فى عُرْفِ الرِّيَاحِ ؟   فَهَزَّ مِنَ الْهوَى عِطْفَ ارْتِيَاحِي (١)

وَذِكْرُكِ مَا تَعَرَّضَ أَمْ عَذَابٌ ؟   غَصِصْتُ عَلَيْهِ بِالْعَذْبِ الْقَرَاحِ (٢)

وَهَلْ أَنَا مِنْكِ فى نَشَوَاتِ شَوْقٍ   ـ هَفَتْ بِالْعَقْلِ ـ أَوْ نَشَوَاتِ رَاحِ (٣)

لَعَمْرُ هَوَاكِ مَا وَرِيَتْ زِنَادٌ   لِوَصْلٍ مِنْكِ طَالَ لَهَا اقْتِدَاحِي (٤)

وَكَمْ أَسْقَمْتِ ـ مِنْ قَلْبٍ صَحِيحٍ ـ   بِسُقْمِ جُفُونِكِ الْمَرْضَى الصِّحَاحِ

***

مَتَى أُخْفِ الْغَرَامَ يَصِــفْهُ جِسْمِي   بِأَلْسِنَةِ الضَّنَى الْخُرْسِ الْفِصَاحِ (٥)

فَلَوْ أَنَّ الثِّيَابَ فُحِصْنَ عَــنِّى   خَفِيتُ خَفَاءَ خَصْرِكِ فى الْوِشَاحِ

---

(١) العرف : بالفتح الرائحة الطيبـة ، والعرف : بالضم واحـد أعراف الرياح وهى أوائلها وأعاليها ، والعطف : الجانب وماتثنيـه إذا عطفت على شىء حنوا وإشـفاقا ، وتحركه إذا هزتك أريحية ، والمعنى : أعرفك وطيبك سرى إلى أوائل الرياح التى هبت مائحة من ناحيتك ، فشتى نحوك بعاطفة الهوى والارتياح .

(٢) غصصت : كشرقت بالماء وزنا ومعنى ، أو وقف فى حلقه فلم يسغه ، والقراح : الماء الذى لم يخالطه غيره ، يقول : وهل مالعرض ذكرك أم عذاب شرقت لأجله بالماء العذب الذى لم تشبه شائبة فلم أسغه ، وفى الأصل « وذكرك مالعرض أم عداد »

(٣) نشوات : واحدها نشوه ، والنشوة تكون من الريح ومن السكر وهى من السكر أوائله ومقدماته، وهفت بالعقل : ذهبت به ، يقال : هفت الريح بالشىء تهفو أى ذهبت به ، والمعنى . هل أنا من أجل هواك، وبسبب ذكراك ، فى نشوات من ريح الشوق أو نشوات من سكر الراح أطارت عقلى وأذهبت لبى .

(٤) أقسم بهواك إن طول اقتداحى لزناد الوصل لم يور ناراً .

(٥) فى الوقت الذى أخفى فيه غرامى عن العاذلين ينم على نحول جسمى بألسنة المرض الخرساء المفصحه .

لَقِينَا مِنَ الْوَاشِينَ حَتَّى　　رَضِينَا الرُّسْلَ أَنْفَاسَ الرِّيَاحِ (١)

وَرُبَّ ظَلَامِ لَيْلٍ جَنَّ فَوْقِي　　فَبُتُّ عَنِ الصَّبَاحِ إِلَى الصَّبَاحِ (٢)

فَهَلْ عَدَتِ العَفَافَ هُنَاكَ نَفْسِي　　ـ فَدَيْتُكِ ـ أَوْجَنَحْتُ إِلَى الجُنَاحِ (٣)

***

وَكَيْفَ أَلِجُّ لَا يَثْنِي عِنَانِي　　رَشَادُ الْعَزْمِ عَنْ غَيِّ اُلْجِمَاحِ (٤)

وَمِنْ سِرِّ ابْنِ « عَبَّادٍ » دَلِيلٌ　　بِهِ بَانَ الْفَسَادُ مِنَ الصَّلَاحِ

هُوَ المَلِكُ الَّذِي بَرَّتْ فَسَرَّتْ　　خِلَالٌ مِنْهُ طَاهِرَةُ النَّوَاحِي

هُمَامٌ خَطَّ ـ بِالْهِمَمِ السَّوَامِي ـ　　مِنَ الْعَلْيَاءِ فِي الْخِطَطِ الْفِسَاحِ (٥)

أَغَرُّ إِذَا تَجَهَّمَ وَجْهُ دَهْرٍ　　تَبَلَّجَ فِيهِ كَالْقَمَرِ اللِّيَاحِ (٦)

---

(١) لقد لعلما من الواشين حيلهم ى الوقوف على مكتوم أسرارنا ، حتى أصبحنا نقنع بأن تكون أنفاس الرياح بريداً يحمل عنا رسائل الحب والغرام ، وقد أبدع ابن الرومى حيث يقول :

« أحباى كم لى نحوكم من تحية　　أحملها هبات كل جنوب

فلا تتركوا رد السلام إذا جرت　　شمال على نائى المحل غريب . »

(٢) كثيراً ما أرخى الليل علينا سدوله ، فبت فى ظلامه من الصباح إلى أن أسفر الصباح وقريب من هذا قول أبى تمام :

« رحن والليل قد أقام رواقا　　فأقمن الصباح فيه عموداً . »

(٣) لم تتعد نفسى فى تلك الليلة التى نعمت فيها بالحبيب حدود العفاف ، ولم تمل إلى ارتكاب ما يخالف طبيعة الحب البرىء مما فيه إثم علينا وجناح ، وفى هذا المعنى يقول ابن المعتز :

« كم قد خلوت بها وثالثنا التقى　　يحمى على العطشان برد المورد. »

(٤) فى هذا البيت والذى بعده تخلص من النسيب إلى المدح حيث يقول : كيف ألج فى الهوى ، وأتمادى فى الغى ، ولا يثنى عنان جماحى اعتزامى الرشد ، فى حال أن لى من سر « ابن عباد » وقوة نفسه دليل عرفت به الرشد من الغى ، والصلاح من الفساد .

(٥) خط : اختط الأرض وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها ليبنيها ، والخطط : جمع خطة بكسر أولها ، وهى الأرض التى يختطها لنفسه ليبنى عليها .

(٦) اللياح : بكسر وفتح أوله الأبيض المتلألئ .

سَمِيعُ النَّصْرِ لِأُسْتِعْدَاءِ جَارٍ ... أَصَمُّ الْجُودِ عَنْ تَفْنِيدِ لَاحِ (١)

ضَرَائِبُ جَهْمَةٌ - فِي الْعَتْبِ - تُتْلَى ... بِأَخْلَاقٍ لَدَى الْعُتْبَى مِلَاحِ (٢)

إِذَا أَرِجَ الثَّنَاءُ الرَّوْعُ مِنْهَا ... فَكَمْ لِلْمِسْكِ عَنْهُ مِنَ افْتِضَاحِ

هُوَ الْمُبْقِي مُلُوكَ الْأَرْضِ تَدْمَى ... قُلُوبُهُمُ كَأَفْوَاهِ الْجِرَاحِ

وَآهُ اللهُ أَجْوَدَ بِالْعَطَايَا ... وَأَطْعَنَ بِالْمَكَايِدِ وَالرِّمَاحِ

وَأَفْرَسَ لِلْمَنَابِرِ وَالْمَذَاكِي ... وَأَبْهَى فِي الْبُرُودِ وَفِي السِّلَاحِ (٣)

وَأَمْنَعَهُمْ حِمَى عِرْضٍ مَصُونٍ ... وَأَوْسَعَهُمْ ذُرَا مَالٍ مُبَاحِ

فَرَاضَ لَهُ الْوَرَى حَتَّى تَأَدَّتْ ... إِلَيْهِ إِتَاوَةُ الْحَيِّ اللَّقَاحِ (٤)

« لِمُعْتَضِدٍ » بِهِ أَرْضَاهُ سَعْياً ... فَأَقْبَلَ وَجْهَهُ وَجْهَ الْفَلَاحِ (٥)

فَمَنْ قَاسَ الْمُلُوكَ إِلَيْهِ جَهْلاً ... كَمَنْ قَاسَ النُّجُومَ إِلَى بَرَاحِ (٦)

---

(١) الاستعداء : الاستعانة وطلب النصرة ، والتفنيد : اللوم وتضعيف الرأى ، ولاح : اسم فاعل من لحاه يلحاه إذا لامه وعذله .

(٢) ضرائب : سجايا وطبائع جمع ضريبة ، وجهمة : عابسة من جهمه إذا استقبله بوجه كريه ، والعتبى : الرجوع إلى مايرضى العاتب . وفى المثل « لك العتبى ولا أعود » أى لك منى أن أعتبك أى أرضيك ولا أعود إلى ما يسخطك .

(٣) أفرس : أفعل تفضيل من الفراســة بالفتح والفروسة والفروســية وهى الحذق بركوب الخيل ، وفى المثل : أفرس من ملاعب الأسنة ، وأفرس من عامر ، وأفرس من بسطام ، والمذاكى : الخيل التى أتى عليها بعد تمام السن أى ـ بلوغها النهاية فى الشباب ـ سنة أو سنتان ، والمعنى أنه أحذق الملوك باعتلاء المنابر وركوب الخيل وأبهاهم لباسا ولبوسا فى السلم والحرب .

(٤) الاتاوة : الخراج وكل ما أخذ بكره أو قرض من أموال الجباية ، والحى اللقاح : فى اللسان قوم لقاح وحى لقاح لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سباء أنشد ابن الأعرابى :

« لعمر أبيك والأنباء تنمى ... لنعم الحى فى الجلى رياح

أبوا دين الملوك فهم لقاح ... إذا هيجوا إلى حرب أشاحوا . »

(٥) أقبل وجهه : من قولهم أقبلته الشىء أى جعلته يلى قبالته وجهته والمعنى أن سكان الحواضر والبوادى دانوا بالطاعة « لمتعضــد » بالله أرضت مولاه مساعيه فأقبل الله وجهه وجه الفلاح أى جعل وجهه يستقبل جهة الفلاح : (٦) إلى أرض ظاهرة

وَمُعْتَقِدُ الرِّيَاسَـــةِ فِي سِوَاهُ   كَمُعْتَقِدِ النُّبُوَّةِ فِي سَجَاحِ (١)

(١) هي « سجاح » بنت الحرث بن سويد بن عقفان التميمية ، وكانت تسكن الجزيرة في اخوالها من بني تغلب ، فادعت النبوة وخرجت تريد غزو المدينـة في عهد « أبي بكر » رضي الله عنه ، وجرت بينها وبين مسلمي قومها — من بني تميم — حروب انتهت بعجزها عما اعتزمته من الذهاب إلى المدينة لغزوها ، فانقلبت إلى اليمامة وتقابلت مع مسـيلمة ، ثم رجعت إلى موطنها من بلاد الجزيرة وبقيت في أخوالها — من بني تغلب — إلى أن نقلهم «معاوية» عام المجاعة : وجاءت معهم فاسلموا وأسلمت وحسن إسلامهم .

حروب الردة وقصة سجاح ومسيلمة

وقد كتب المؤرخ « دوري » كلمة ممتعة عن «سجاح» و «مسيلمة»وعن حروب الردة في كتابه القيم : «تاريخ الاسلام» وقد نشرنا بعض فصوله في كتاب « مختارات كامل كيلاني » ، ونحن نجتزئ منه بما يلي :

كان الوقت عصيبا ، وكانت الظروف غاية في الحرج ، فقد كان موت النبي — صلى الله عليه وسلم — الذي كانت تترقبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصـبر مؤذناً بالثورة في كل مكان ، ولقـد كنت ترى الثائرين — في حيثما ذهبت — رافعين علم الثورة والتمرّد ، وقـد رجحت كفتهم أيما رجحان حتى لقـد طردوا ولاتهم من بلادهم ، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجأ إلا المدينة ، فتقاطروا عليها من كل فج يحتمون فيها من أذاهم .

وكان لايمر يوم حتى يفد على المدينـة بعض الولاة والعمال المطرودين ، وأعـدت القبائل المجاورة للمدينـة عدتها لحصارها .

فكيف يقاومهم « أبو بكر » وليس لديه جيش يحاربهم به بعـد أن أرسل جيشـه إلى سوريا ليفتحها تنفيذاً لأمر النبي — صلى الله عليه وسلم — برغم صيحة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال ، فقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة الفتح حينئذ ، فقال لهم — : « لن أخالف ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ولو أصبحت المدينة نفسها نهباً للثائرين والمتمردين ولابد لي من تحقيق مشيئته ! »

ومن ثم ترى الخطر المعظم باديا . على أنه — في الحقيقة — خطر أقل مما تدل عليـه ظواهره ، فان قوة الخصم الحقيقية لاتقاس بما لديه من عدّة ورجال بل بما عـنـده من قوّة معنوية ، وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطلع إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها باذلا في سبيلها النفس والنفيس .

فما هي الغاية التي يسعى إليها الثائرون ؟ وأي حافز يدفعهم إلى إضرام هذه الحرب ؟

أهو إيمان وثيق متوشج في أعماق قلوبهم كإيمانهم القديم الذي كانوا عليه قبل البعثة ؟ لو كان ذلك لما كان ثمة شك في انتصارهم الحاسم !

ولـكن شيئا من ذلك لم يكن ، فانهم لايحاربون الآن لينصروا دينهم القديم ويؤيدوه ، بل هم يثورون على دينهم الجديد لأنهم لايطيقون احتماله .

وليس هذا بالسبب القوي الذي يلهب حماستهم ويحفزهم إلى الاتيان بجلائل الأعمال ، ولا هو بالسبب الذي يخلق البطولة والأبطال ، فقـد كان رؤساء القبائل المتردّدة أنفسهم شاعرين كل الشـعور بضعف قوّتهم المعنوية ، فلجأ بعضهم إلى فكرة سـخيفة حسبوا أنها تعيد إليهم تلك القوّة ، فادعوا النبوّة ! وخيل إليهم أن محمداً — صلى الله عليه وسلم — لم ينجح إلا بهذه الفـكرة فأرادوا تقليده .

ولـكنهم نسـوا أمراً واحداً — هو سر نجاحه في بث دعوته — ذلك أنه كان مؤمنا بما يدعو إليه إيمان المستيقن الجازم . وهذا هو الذي يعوزهم وبغيره لايتم نجاح .

أبَحْرَ الجودِ ـ فى يَوْمِ الْعَطَايَا ـ وَلَيْثَ الْبَأْسِ فى يَوْمِ الْكِفَاحِ

وكانت تلك الثورة الهائلة وتلك الحرب الشعواء ـ على ما أريق فيهما من دماء غزيرة إذا قورنت بما أتاه المسلمون فى غزواتهم التى عز بها الاسلام ـ ظاهرة سخيفة مضحكة ، يتمثل فيها الانسان ـ غير قصد ـ كيف قلبوا تمثيل هذه الرواية الجدية ـ التى مثلها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ـ مهزلة وعبثا !

ألا ترى إلى مسيلمة لدى مثل دور النبى صلى الله عليه وسلم فى اليمامة ؟

ألا ترى إلى ذلك الدجال السوقى التعس ، ذلك المشعوذ السمج الذى لا يصلح لغير التدجيل وإدخال بيضة فى زجاجة ضيقة الفوهة ؟ ألا ترى إليه ينشىء قرآنا سخيفا يقلد به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يرخص لأتباعه فى شرب الخمور أنى شاءوا ، ولا يكاد ينشر دعوته حتى يصادفه سوء الحظ فتحاصره « سجاح » وتنازعه النبوة ؟

⁂

أما « سجاح » هذه فقد كانت مسيحية نشأت فى « بلاد النهرين » وجاءت تبث الدعوة لنفسها ـ على رأس جيش عظيم فماذا يصنع مسيلمة ؟

ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى طريق المسالمة ـ وقد فعل ـ فأرسل إليها هدايا فاخرة ودعاها إلى محادثته ، وطال بينهما الحوار .

ولما عادت « سجاح » إلى قومها سألوها عن رأيها فى «مسيلمة» فقالت لهم ـ :

« لقد رأيته نبيا حقا فتزوجت منه ! »

فسألها التميميون ـ : «هل أهدى إلينا شيئاً من مهر الزواج ؟ » فقالت : «لا » فقالوا لها ـ :

« عار علينا أن نزوج نبيتنا بلا مهر ! ولن نقبل ذلك بحال ما ! »

فأرسلت إليه بذلك ـ وكان « مسيلمة » جالسا متحصنا ـ فلما جاءه الرسول لم يأذن له حتى عرف الغرض الذى جاء من أجله فاطمأن إليه وقال له :

« عد إلى قومك فأخبرهم أن «مسيلمة بن حبيب» رسول الله قد رفع عن التميميين ـ من الصلوات الخمس ـ صلاة الصبح والعشاء »

ولقد فرح التميميون بذلك وظلوا يتبعونه حتى بعد أن عادوا إلى الاسلام من جديد .

⁂

ومن ثم ترى أن هؤلاء الثائرين ليس لهم عقيدة جدية يدافعون عنها ، فلا غرو إذا قهرهم رجل كأبى بكر وثيق الايمان قوى الارادة صلب العزيمة لا يعرف هوادة فى إرغام أنوفهم ولا رحمة !

ولو شاء أبو بكر أن يهادنهم لتنازل لهم عن قليل من مطالبه فكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل ـ أو ضمن حيادهم على الأقل ـ فقد وعدوه بالمواظبة على إقامة الصلاة المفروضة عليهم على شريطة أن يعفيهم من إيتاء الزكاة ، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم فرفض رأيهم بإباء شديد ، وقال لهم :

« إن الاسلام قانون واحد لا يتجزأ ، وليس لأحد أن يأخذ بعضه ويرفض البعض الآخر . »

وقد كان هذا الاصرار الحازم وذلك الحقد الشديد ـ على أهل الردة ـ سبباً فى منحه قوة أكثر مما نتصور .

⁂

ولم يكد ينتهي من إخضاع القبائل المجاورة له حتى بدأ يواجه «طليحة» الذى كان بطلا من قبل وقد جاء [illegible] عن دخول المعركة فظل يرقب الحرب ـ وهو بعيد عن الميدان ـ مدثرا فى عباءته

لَقَدْ سَفَرَتْ بِعِلَّتِكَ اللَّيَالِى   لَنَا عَنْ وَجْهِ حَادِثَةٍ وَقَاحِ (١)

كأنما يؤمل أن ينزل وحى من السماء أو تحدث معجزة خارقة ، وقد لبث زمناً طويلا ثم وقعت المعجزة — إذ بدأت تنهزم قبيلته أشنع انهزام — وحينئذ صاح فى جنده « احتذوا حذوى إن استطعتم . »
ثم امتطى جواده وأطلق له العنان وأمعن فى فراره .

⁂

وكانت تلك المعركة التى اصطلاها المسلمون معركة مروعة هائلة ، وفى الحق أن الدماء التى أريقت فى هذه الحرب كانت أكثر مما أريق فى تلك الحروب الطاحنة التى نشبت — فيما بعد — بين المسلمين والفرس ، ثم بين المسلمين والامبراطورية الرومانية ، وقد اقترف العرب من الفظائع فى هذه الحرب «حرب الردة» شنعاً لم يعرفها الاسلام قط . فكانوا إذا انهزم العدوّ تعقبوه ونكلوا به . لأن الردة جزاؤها القتل ، لا هوادة فى ذلك ولا رحمة ، وقد بعث أبو بكر إلى خالد يأمره بقوله — :

« عليك بإبادة الكفر بالحديد والنار ، ولا تأخذك رحمة فيهم قط »

⁂

ولقد انهزم أصحاب « مسيلمة » — وكان عددهم زهاء عشرة آلاف مقاتل — ومزّقهم المسلمون شرّ ممزّق ، وغرقت بلاد العرب كلها فى الدماء !

ولكن الاسلام قد خرج من تلك المعارك — الناشبة فى كل مكان — مؤيدا منصورا ، ودان به العرب بعد ذلك — طوعا أو كرها — فقد أقنعهم خذلانهم بوجوب الاعتراف بالدين الاسلامى ، إن لم يكن اعتراف المستيقن المؤمن فاعتراف الخائف الذى يعرف قوّة هذا الدين العظيمة التى لا تجدى معها أية مقاومة .

بعد النصر

ولم يكد يتم انتصار أبى بكر حتى وجه هؤلاء البدو الظامئين إلى الدماء ، إلى مهاجمة فارس والامبراطورية الرومانية ، وهذا العمل — عند من ينظر إلى ظواهر الأمور وحدها — جرأة وتهور ، ولكنه — على الحقيقة — رزانة وتعقل .

وإنما سار أبو بكر فى هذا على خطة النبى صلى الله عليه وسلم التى كان يتبعها ، وهى أن يشغل العرب عن التفكير فى خصومهم ولا يدع لهم وقتاً كافياً لذلك ، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالاسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية وما يجره ذلك من الغنائم .

⁂

وهكذا انتهت حروب الردة ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة ، فقد كان عقاب الردة القتل ، ومن هنا تظاهر الناس بالاسلام ووقفوا عند هذا الحد .

ونحن — إذا استثنينا صفوة المسلمين ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتون إليهم بسبب — لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عددا غاية فى القلة . أما العرب الذين استوطنوا أفريقيا فقد ظلوا — حتى بعد مضى قرن من الهجرة — لا يعرفون من الاسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر .

أما أولئك الذين استوطنوا مصر فانهم ما تحدثوا عن الاسلام أو شغلوا به أنفسهم قط . وكانوا لا يذكرون إلا أيام الوثنية وعهودها الطيبة بالثناء والحنين . »

(١) وقاح : صلبة الوجه لاحياء فيها ، يقال رجل وقيح الوجه ووقاح الوجه صلبه لاحياء فيه ، والأنثى وقاح بغير هاء

أَلَسْتَ مُصِحَّهَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ ؟ ‏ وَمُبْدِيَ حُسْنِ أَوْجُهِهَا الصِّبَاحِ
وَلَوْ كَشَفَتْ عَنِ الصَّفَحَاتِ شَامَتْ ‏ بُرُوقَ الْمَوْتِ مِنْ بِيضِ الصِّفَاحِ (١)

* * *

وَقَاكَ اللهُ مَا تَخْشَى وَوَالَى ‏ عَلَيْكَ بِصُنْعِهِ الْمُغْدَى الْمُرَاحِ (٢)
فَلَوْ أَنَّ السَّعَادَةَ سَوَّغَتْنَا ‏ تِجَارَتَهَا الْمُلِثَّةَ بِالرِّبَاحِ
تَجَافَيْنَا عَبِيدَكَ عَنْ نُفُوسٍ ‏ عَلَيْكَ مِنَ الضَّنَى حَرَّى شِحَاحِ (٣)
تُهَنَّأُ فِيكَ بِالْبُرْءِ الْمُوَفَّى ‏ وَتُبْهِجُ مِنْكَ بِالْأَلَمِ الْمُزَاحِ

* * *

فَدَيْتُكَ كَمْ لِعَيْنِي مِنْ سُمُوٍّ ‏ لَدَيْكَ وَكَمْ لِنَفْسِي مِنْ طِمَاحِ
أَلَا هَلْ جَاءَ مَنْ فَارَقْتُ أَنِّي ‏ بِسَاحَاتِ الْمُنَى رَفْلُ الْمَرَاحِ (٤)
وَأَنِّي مِنْ ظِلَالِكَ فِي زَمَانٍ ‏ نَدِي الْآصَالِ رَقْرَاقِ الضَّوَاحِي
تُحَيِّينِي بِرَيْحَانِ التَّحَفِّي ‏ وَتُصْبِحُنِي مُعَتَّقَةُ السَّمَاحِ (٥)
فَهَا أَنَا قَدْ ثَمِلْتُ مِنَ الْأَيَادِي ‏ إِذِ اتَّصَلَ اغْتِبَاقِي فِي اصْطِبَاحِي

---

(١) لو كشفت هذه الليالى ، وأبدت عن صفحة الشر والعداء لشامت سيوف بأس الممدوح تلمع ببروق موت وهلاك تلك الليالى التى فاجأتنا بمرضه ، بعد أن أصحها من كل داء وخلع عليها من الرواء والحسن أبهى رداء .

(٢) وقاك الله ماتخشى من طارق المرض وعصمك من كل محذور ومخوف ، وتعهدك بجميل صنعه المغدى المراح أى الذى يجعله يغدو عليك فى أول النهار ، ويروح فى آخره ، فلا ينقطع صنيعه ، ولا يتخلف عنك إحسانه .

(٣) الضنى : السقم ، وحرى : عطشى ، وشحاح : جمع شحيحه من الشح وهو البخل .

(٤) الرفل : جر الذيل وركضه بالرجل ، يقول : ألا هل أتى من فارقت من فتيان « قرطبة » أنى أجر ذيل مرح وأرفل فى ثياب النعمة ، غضارة العيش

(٥) التحفى : الحفاوة ، وال

فَإِنْ أَعْجِزْ فَإِنَّ النُّصْحَ ثَقْفٌ ... وَإِنْ أَشْكُرْ فَإِنَّ الشُّكْرَ صَاحِ
لِمَا أَكْسَبْتَ قَدْرِى مِنْ سَنَاءِ ... وَمَا لَقَّيْتَ سَعْيِى مِنْ نَجَاحِ

***

لَقَدْ أَنْفَذْتَ ـ فى الآمَالِ ـ حُكْمِى ... وَأَجْرَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى اقْتِرَاحِى
وَهَلْ أَخْشَى وُقُوعًا ـ دُونَ حَظٍّ ـ ... إِذَا مَا أَثَّ رِيشُكَ مِنْ جَنَاحِى
فَمَا اسْتَسْقَيْتُ مِنْ غَيْمٍ جَهَامٍ ... وَلاَ اسْتَرْوَيْتُ مِنْ زَنْدٍ شِحَاحِ
وَوَاصَلَنِى جَمِيلُكَ ـ فى مَغِيبِى ـ ... وَطَالَعَنِى نَدَاكَ مَعَ انْتِزَاحِى
وَلَمْ أَنْفَكَّ ـ إِذْ عَدَتِ الْعَوَادِى ـ ... إِلَيْكَ رَهِينَ شَوْقٍ وَالْتِيَاحِ
فَحَسْبِى أَنْتَ ـ مِنْ مُسْدٍ لِنُعْمَى ـ ... وَحَسْبُكَ بِى بِشُكْرٍ وَامْتِدَاحِ

هدية تفاح

« وأهدى إليه تفاحا وأراد أن يكتب معه قطعة ، فبدأ بها ثم عرض له غيرها فتركها . »

دُونَكَ الرَّاحَ جَامِدَهْ ... وَفَدَتْ خَيْرَ وَافِدَهْ
وَجَدَتْ سُوقَ ذَوْبِهَا ... ـ عِنْدَ تَقْوَاكَ ـ كَاسِدَهْ
فَاسْتَحَالَتْ إِلَى الجُمُو ... دِ وَجَاءَتْ مُكَايِدَهْ

والقطعة التى بعثت هى هذه

جَاءَتْكَ وَافِدَةُ الشَّمُولْ ... فى الْمَنْظَرِ الحَسَنِ الجَمِيلْ
لَمْ تَحْظَ ذَائِبَةً لَدَيْكَ وَلَمْ تَنَلْ حَظَّ الْقَبُولْ

فَتَجَامَدَتْ مُحْتَــالَةً   وَالمَرْءُ يَعْجِزُ لاَالْحَوِيلْ[١]

لَوْلاَ انْقِلاَبُ الْعَيْنِ سُــدَّتْ دُونَ بُغْيَتِهَا السَّبِيلْ[٢]

لَهَجَرْتَهَا صَــفْرَاءَ فِى   بَيْضَاءَ هَاجِرُهَا قَلِيلْ

الْكَأْسُ مِنْ رَأْدِ الضُّحٰى   وَالرَّاحُ مِنْ طَفَلِ الأَصِيلْ

آثَرْتَ عَائِدَةَ التُّــقَى   وَرَغِبْتَ فِى الأَجْرِ الجَزِيلْ

⁂

يٰأَيُّهَــا الْمَلِكُ الَّذِى   مَا فِى الْمُلُوكِ لَهُ عَدِيلْ

يَا مَاءَ مُزْنٍ ، يَا شِــهَا   بَ دُجُنَّةٍ[٣] ، يَالَيْثَ غِيلْ

يَا مَنْ عَجِبْنَا أَنْ يَجُو   دَ بِمِثْلِهِ الزَّمَنُ الْبَخِيلْ

بُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّــةٌ   فِى ظِلِّ إِقْبَالٍ ظَلِيلْ

رَقَّتْ كَمَا سَالَ الْعِذَا   رُ بِجَانِبِ الخَدِّ الأَسِيلْ

وَتَأَوَّدَتْ كَالْغُصْنِ قَا   بَلَ عِطْفَهُ نَفَسُ الْقَبُولْ[٤]

يُصْــبِى مُقَبَّلُهَا الشَّهِىُّ   وَلَحْظُهَا السَّاجِى الْعَلِيلْ

فَتَمَلَّهَا[٥] فِى الْعِزَّةِ الْــقَعْسَاءِ وَالْعُمُرِ الطَّوِيلْ

---

(١) الحويل : الحيلة ، يقال : احتال احتيالا وحولا وحيلة وحويلا ومحالة ، قال دؤاد يعاتب زوجه :

« حاولت — حين صرمتني —   والمرء يعجز لا المحالة

والدهر يلعب بالفتى   والدهر أروغ من ثعالة

والمرء يكسب ماله   بالشح ، يورثه الكلالة . »

وفى المثل المشهور : « المرء يعجز لا المحالة » أو « لا محالة » فى رواية أخرى ، أى لاتضيق مخارج الأمور إلا على العاجز الذى لايعرف وجوه الحيل . ويقال : احتال وتحيل وتحوّل ، قال أبو العلاء :

« لا يعجبنك خطيب — قام فى ملأ   بخطبة زان معناها وطولها

فما العظات — وإن راعت — سوى حيل   من ذى مقال على ناس تحولها . »

(٢) يقول : لولا انقلاب عينها من ذائبة إلى جامدة لسدت دون ما تبغيه من إهداء نفسها إليك السبيل لأنك لا تبيح لها أن تزور مجلسك وهى ذائبة .   (٣) يقال يوم دجنة ، والدجنة : الظلمة والغيم المطبق الريان المظلم لا مطر فيه . يقول : إنك نور تبدد الدياجى والظلمات .

(٤) القبول : ريح الصبا ، قالوا وذلك لأنها تقابل الدبور .   (٥) إنعم بها .

شـــكر على زيارة

« قال يشكر المعتمد على الله أبا القاسم محمد
ابن المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد ، وقد
شرفه بالعيادة فى بعض علله . »

لَسْتُ بِالجَاحِدِ آلاءَ المِلَلْ ... كَمْ لَهَا مِنْ أَلَمٍ يُدْنِى الأَمَلْ
أَجْتَلِى ـ مِنْ أَجْلِهَا ـ بَدْرَ العُلاَ ... مُشْرِقًا فى مَنْزِلِى حِينَ كَمَلْ
حُـــلَّةٌ أَلْبَسَ عَيْنِى فَخْـــرَهَا ... فَاغْتَدَتْ تَرْفُلُ فى أَبْهَى الحُلَلْ
رَفَّ بِشْرُ الأُفْقِ فى عَيْنِى لَهَا ... لاَ لِأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ فى الحَمَلْ (١)
مَا أُبَالِى مِنْ زَمَانٍ بَعْدَهَا ... ـ إِذْ أَصَحَّ النَّفْسَ ـ إِنْ جِسْمِى أَعَلّ (٢)

☼

أَيُّهَا المَـــوْلَى لَقَدْ حُمِّلْتُ مَا ... لَمْ يَدَعْ فِى وُسْعِ عَبْدٍ مُحْتَمَلْ
وَضَحَ الطَّوْقُ الَّذِى حَلَّيْتَنِى ... فَتَرَاءَتْهُ نُفُوسٌ لاَ مُقَلْ (٣)
أَنَا لَوْ طُوِّقْتُ مِنْـــهُ بَدَلاً ... أَنْجُمَ الجَوْزَاءِ لَمْ أَرْضَ البَدَلْ
كَمْ مَرَادٍ لِىَ ـ مِنْ نَعْمَائِكُمْ ـ ... وَارِفِ الظِّلِّ وَكَمْ وِرْدٍ عَلَلْ (٤)
لاَ تَزَلْ دَوْلَتُـكُمْ مَبْسُوطَةً ... بَسْطَةً فِى طَيِّهَا قَبْضُ الدُّوَلْ
وَرَأَى المُعْتَضِـــدُ المَنْصُورُ مَا ... أَنْبَأَتْهُ فِيكَ لَيْتٌ أَوْ لَعَلْ
فَسَـــتَلْقَاهُ اللَّيَالِى طَلْقَةً ... بِتَفَارِيقِ أَمَانِيهِ جُمَـــلْ (٥)

---

(١) الحمل : برج فى السماء من البروج الربيعيـة ، يقول إن الأفق أشرق بنوره وازدان بهائه لا ببهاء الشمس التى حلت فى برج الحمل .

(٢) يقول : لا أبالى بعد أن صحت نفسى بزيارته وتشريفه منزلى إن أمرض الدهر جسمى .

(٣) يقول : إن إحسانك الذى طوّقت به عنقى قد وضح للنفوس لا للعيون . وفى الأصل : تماءته من مأى فى الشىء يمأى مأيا بالغ وتمأى الجلد إذا مددته، وقد سبق له هذا المعنى فى قوله :

« يا هلالا تتراءا ه نفوس لاعيون . » انظر صفحة ٣٩ .

(٤) العلل : الشرب الثانى ويقال علل بعد نهل أى شرب ثان بعد شرب أول أى إنه يورد حياض كرمه مرة بعد أخرى .

(٥) أى سينيله الدهر جلة أمانيه المتفرقة فلا يدع منها شيئا إلا حققه له .

تهنئـــة

« وقال يهنيه أيده الله بقدوم وإبلال » .

اِقْدَمْ كَمَا قَدِمَ الرَّبِيعُ الْبَاكِرُ ... وَاُطْلُعْ كَمَا طَلَعَ الصَّبَاحُ الزَّاهِرُ

قَسَمًا لَقَدْ وَفَّى الْمُنَى وَنَفَى الأَسَى ... مَنْ أَقْدَمَ الْبُشْرَى بِأَنَّكَ صَادِرُ

لِيُسَرَّ مُكْتَئِبٌ وَيُغْفِيَ سَاهِرٌ ... وَيَرَاحَ مُرْتَقِبٌ وَيُوفِيَ نَاذِرُ

قَفَلٌ وَإِبْلَالٌ – عَقِيبَ مُطِيفَةٍ – ... غَشِيَتْ كَمَا غَشِيَ السَّبِيلَ الْعَابِرُ (١)

إِنْ أَعْنَتَ الْجِسْمَ الْمُكَرَّمَ وَعْكُهَا ... فَلَرُبَّمَا وُعِكَ الْهِزَبْرُ الْخَادِرُ (٢)

مَا كَانَ إِلَّا كَانْجِلَاءِ غَيَابَةٍ ... لَبِسَ الْفِرِنْدَ بِهَا الْحُسَامُ الْبَاتِرُ (٣)

فَلْتَغْدُ أَلْسِنَةُ الْأَنَامِ وَدَأْبُهَا ... شُكْرٌ يُجَاذِبُهُ الْخَطِيبَ الشَّاعِرُ

إِنْ كَانَ أَسْعَدَ مِنْ وُصُولِكَ طَالِعٌ ... فَكَذَاكَ أَيْمَنَ مِنْ قُفُولِكَ (٤) طَائِرُ

أَضْحَى الزَّمَانُ نَهَارُهُ كَافُورَةٌ ... وَاللَّيْلُ مِسْكٌ مِنْ خِلَالِكَ عَاطِرُ

قَدْ كَانَ هَجْرِي الشِّعْرَ قَبْلُ صَرِيمَةً (٥) ... حَذَرِي لِذَاكَ النَّقْدِ فِيهَا عَاذِرُ

حَتَّى إِذَا آنَسْتُ أَوْبَكَ بَارِئًا ... صَفَتِ الْقَرِيحَةُ وَاسْتَنَارَ الْخَاطِرُ (٦)

عَيٌّ قَلَبْتَ إِلَى الْبَلَاغَةِ عِيَّهُ ... لَوْلَا تُقَاكَ لَقُلْتُ: إِنَّكَ سَاحِرُ (٧)

لَقَّحْتَ ذِهْنِي، فَاجْنِ غَضَّ ثِمَارِهِ ... فَالنَّخْلُ يُحْرِزُ مُجْتَنَاهُ الْآبِرُ (٨)

---

(١) يقول : قدوم من السفر ، وإبلال من المرض عقيب علة أطافت بك وغشيتك غشيان عابر سبيل .

(٢) الوعك : الحمى أو ألمها والموعوك المحموم ، والخادر : الفاتر الكسلان ، والأسد الخادر : المقيم في خدره أي الذي لزم عرينه . (٣) يقول : لم يكن المرض إلا فترة عاد بعدها الحسام إلى حلائه وورنقه .

(٤) رجوعك . (٥) الصريمة : العزيمة ، يقال : « هو رجل ذو صريمة وصرائم » أي ذو عزيمة ، يقول : إني هجرت قبل قدومك الشعر هجرا صارما قاطعا ، وعذري في ذلك واضح وهو ما كنت أحذره من ذلك النقد الذي يتعرض له شعري ، أما الآن فقد صفت القريحة لأوبتك بارئا. (٦) يقول كنت اعتزمت هجراً بشعر حتى إذ آنس خاطري إيابك من سفرك صفت قريحتي وشحذ فكري فتفتحت أمامي طرق الشعر .

(٧) يقول إنك ألهمت العيي بالبيان فعاد بليغا ولولا أنك تقي لاتهمتك بالسحر في ذلك . وفي الأصل : « عي رددت إلى البلاغة عيه . »

(٨) يقال لقح النخلة وألقحها وألقح الفحل الناقة أحبلها ، وألقحت الريح الشجر والسحاب أحلتها ، واللواقح من الرياح : التي تحمل الندى ثم تمجه في السحاب فإذا اجتمع في السحاب صار مطراً ، يقول إنك : لقحت ذهني – كما يلقح الزارع النخلة – فأتى بأحسن الثمر وأشهاه، فأنت أحق باجتناء الثمر لأنك غارسه ومتعهده.

كَمْ قَدْ شَكَرْتُكَ ـ غِبَّ ذِكْرِكَ ـ فَانْتَشَى مُتَذَكِّرٌ مِنِّى وَغَرَّدَ شَاكِرُ (١)

***

يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى عَلْيَاؤُهُ مَثَلٌ ـ تَنَاقَلُهُ اللَّيَالِى ـ سَائِرُ

يَا مَنْ لِبَرْقِ الْبِشْرِ مِنْهُ تَهَلُّلٌ مَا شِيمَ إِلَّا أَنْهَلَّ جُودٌ هَامِرُ

أَنْتَ ابْنُ مَنْ مَجَدَ الْمُلُوكَ ، فَإِنْ يَكُنْ لِلْمَجْدِ عَيْنٌ فَهُوَ مِنْهَا نَاظِرُ

مَلِكٌ أَغَرُّ أَزْدَانَتِ الدُّنْيَا بِهِ وَأَعَزَّ دِينَ اللهِ مِنْهُ نَاصِرُ

أَبْنَاكَ فِى ثَبَجِ الْمَجَرَّةِ قُبَّةً فَهَنَاكَ أَنَّكَ لِلنُّجُومِ مُخَاصِرُ (٢)

وَتَلَقَّ ـ مِنْ سِمَتَيْكَ ـ صِدْقَ تَفَاؤُلِى فَهُمَا « الْمُؤَيَّدُ » بِالْإِلَهِ « الظَّافِرُ » (٣)

ابتداء قصيد

« وقال ابتداء قصيد اعتقد إنفاذه إليه وقد طالت غيبته فى بعض أسفاره ولم يكلمه . »

سَأُهْدِى النَّفْسَ فى نَفَسِ الشَّمَالِ فَقَدْ لَقِحَ التَّشَوُّقُ عَنْ خِيَالِ

إِلَى الشَّثْنِ الْعَزَائِمِ ـ إِنْ أُثِيرَتْ حَفِيظَتُهُ ـ إِلَى اللَّدْنِ الْخِلَالِ (٤)

إِلَى الْوَضَّاحِ آثَارَ الْمَسَاعِى ، إِلَى النَّفَّاحِ أَخْبَارَ الْمَعَالِى

إِلَى مَلِكٍ هُوَ الْمَعْنَى الْمُجَلَّى بِهِ الْإِشْكَالُ مِنْ لَفْظِ الْكَمَالِ

إِلَى مَنْ لَا مَثِيلَ لَهُ إِذَا مَا بَدَا فِى السَّرْجِ أَوْ فَوْقَ الْمِثَالِ

هَدِيَّةُ مَنْ ـ لَوَ انَّ الدَّهْرَ سَنَّى مُنَاهُ ـ هَدَى إِلَيْكَ سُرَى الْخَيَالِ

فَكَمْ بَوَّأْتَنِى سَاحَاتِ نُعْمَى عِذَابِ الْوِرْدِ وَارِفَةِ الظِّلَالِ

---

(١) يقول ما شكرتك عقب ذكراك إلا ثملت من نشوة الفرح وغردت بالثناء عليك . وفى الأصل : « وعربد شاكر . »

(٢) ثبج المجرة وسطها أو أعلا مكان فيها ، وتخاصر : أى تمشى إلى جنبها ، يقول: « لقد بنى لك أبوك قبة فى ذروة المجرة فهنيئا لك هذا المقام الرفيع الذى تخاصر فيه النجوم فى عليائها . »

(٣) يقول : ثق بتفاؤلى بك فسيحقق الله صدق لقبيك وهما المؤيد والمنصور فيؤيدك وينصرك على أعدائك.

(٤) إلى ذى العزيمة القوية إن هاجه مثير والخلال المرضية السمحة إذا لاينه سالم ، وقريب من هذا قول ابن دريد :

« سهل إذا لوينت لدن معطفى ألوى ـ إذا خوشنت ـ مرهوب الشذا . »

إلى أبى القاسم

« كتب إلى أبى القاسم بن رفق »

عِذَرِى[١] - إنْ عَذَلْتَ فى خَلْعِ عُذْرِى[٢] - غُصُنٌ أَثْمَرَتْ ذُرَاهُ بِبَدْرِ[٣]
هَزَّ مِنْهُ الصَّبَا فَقَوَّمَ شَطْراً وَتَجَافَى - عَنِ الْوِشَاحِ - بِشَطْرِ
وَرَشاً أَقْصَدَ[٤] الجَوَانِحَ قَصْدًا عَنْ جُفُونٍ كُحِلْنَ - عَمْدًا - بِسِحْرِ
كُسِيَ الحُسْنَ فَهْوَ يَفْتَنُّ فِيهِ سَاحِباً ذَيْلَ بُرْدِهِ المُسْبَكِرِّ[٥]
تَحْتَ ظِلٍّ - مِنَ الْغَرَارَةِ - فَيْنَا نَ وَوُرْقٍ[٦] مِنَ الشَّبِيبَةِ نُضْرِ
أَبْرَزَ الْجِيدَ فى غَلَائِلَ بِيضٍ وَجَلَا الخَدَّ فى مَجَاسِدَ حُمْرِ[٧]
وَتَثَنَّتْ بِعِطْفِهِ - إذْ تَهَادَى - خَطْرَةٌ تَمْزِجُ الدَّلَالَ بِكِبْرِ
زَارَنِى - بَعْدَ هَجْعَةٍ - وَالثُّرَيَّا رَاحَةٌ تَقْدِرُ[٨] الظَّلَامَ بِشِبْرِ
وَالدُّجَا - مِنْ نُجُومِهِ - فى عُقُودٍ يَتَلَأْلَأْنَ مِنْ سِمَاكٍ وَنَسْرِ
تَحْسَبُ الْأُفْقَ بَيْنَهَا لَازَوَرْدًا نُثِرَتْ - فَوْقَهُ - دَنَانِيرُ تِبْرِ
فَرَشَفْتُ الرُّضَابَ أَعْذَبَ رَشْفٍ وَهَصَرْتُ الْقَضِيبَ أَلْطَفَ هَصْرِ

---

(١) عذر – جمع عذرة بالكسر – أى معاذير . (٢) عذر : بضم أوله وثانيه جمع عذار وهو الحياء ، وخلع العذار أى ترك الحياء .

(٣) يقول إنى إذا خلعت عذارى فى الهوى فإن معاذيرى واضحة فقد فتنى قوامه المياد الذى يشبه الغصن ووجهه المضىء كالبدر . (٤) يقال أقصد فلانا : طعنه فلم يخطئه .

(٥) المسبكر : المسترسل ، والمسبكر كل شىء امتدّ وطال .

(٦) الورق الحمائم التى يضرب لونها إلى خضرة ، قال جران العود :

« وكان فؤادى قد صحا ، ثم هاجنى حمائم ورق بالمدينة هتف . »

(٧) المجاسد – جمع مجسد – وهو القميص الذى يلى البدن ، قال ابن الأعرابى : « ولا تخرجنّ إلى المساجد بالمجاسد » (٨) تقيس .

وَنَعِمْنَا بِلَفِّ جِسْمٍ بِجِسْمٍ ـ لِلتَّصَافِى ـ وَقَرْعِ ثَغْرٍ بِثَغْرِ

يَالَهَا ! لَيْلَةً تَجَلَّى دُجَاهَا ـ مِنْ سَنَا وَجْنَتَيْهِ ـ عَنْ ضَوْءِ فَجْرِ

قَصَّرَ الْوَصْلُ عُمْرَهَا، وَبِوُدِّى أَنْ يَطُولَ الْقَصِيرُ مِنْهَا بِعُمْرِى

***

مَنْ عَذِيرِى مِنْ رَيْبِ دَهْرٍ خَئُونٍ ـ كُلَّ يَوْمٍ ـ أُرَاعُ مِنْهُ بِغَدْرِ

كُلَّمَا قُلْتُ : « حَاكَ فِيهِ مَلاَمِى » نَهَسَتْنِى مِنْهُ عَقَارِبُ تَسْرِى (١)

وَتَرَتْنِى خُطُوبُهُ فِى صَفِىٍّ فَاضِلٍ نَابِهٍ ـ مِنَ الدَّهْرِ ـ وِتْرِ (٢)

بَانَ عَنِّى ـ وَكَانَ رَوْضَةَ عَيْنِى ـ فَغَدَا الْيَوْمَ وَهْوَ رَوْضَةُ فِكْرِى (٣)

فَكِهٌ يُبْهِجُ الْجَلِيلَ بِوَجْهٍ تَرِدُ الْعَيْنُ مِنْهُ يَنْبُوعَ بِشْرِ

لَوْذَعِىٌّ ـ إِنْ يَبْلُهُ الْخُبْرُ يَوْمًا ـ أَخْجَلَ الْوَرْدَ عَنْ خَلاَئِقَ زُهْرِ

وَإِذَا غَازَلَتْهُ مُقْلَةُ طَرْفٍ كَادَ ـ مِنْ رِقَّةٍ ـ يَذُوبُ ـ فَيَجْرِى (٤)

***

يَا «أَبَا الْقَاسِمِ» الَّذِى كَانَ رِدْئى وَظَهِيرِى ـ عَلَى الزَّمَانِ ـ وَذُخْرِى

---

(١) حاك : رسخ أو أثر فيه ، ونهستنى : عضتنى، يقول : « كلما قلت إن زمانى قد ارعوى وأثر فيه عتابى ظهر لى خطئى فى ظنى وعضتنى عقارب لوم تدب إلى وتسرى فى الظلام من عقارب دهرى » ولله در أبو العلاء إذ يقول فى الزمن :

« وغيظ بنوه منه ، وغيظ منهم فعتب ساكنيه وعتبوه

وما يخشى الوعيد فيوعدوه ولا يرعى العتاب فيعتبوه

أساء ـ بجهله ـ أدبا عليهم فهل من حيلة فيؤدبوه . »

(٢) وتر : فذ . (٣) كنت أراه أمامى فتنعم به عيناى واليوم لا أراه ـ بعد نأيه ـ فأصبح ينعم خاطرى بذكراه .

(٤) يقول إنه كاد من رقته يسيل . وقريب من هذا المعنى قول ابن الرومى :

« أيضيمنى خنث الشمائل ـ لو نضا عنه غلالته ـ حساه الحاسى . »

يَا أَحَقَّ الْوَرَى بِمَمْحُوضِ إِخْلاَ   صِي وَأَوْلاَهُمُ بِغَايَةِ شُكْرِي
طَرَقَ الدَّهْرُ سَاحَتِي — مِنْ تَنَائِـــيكَ — بِجَهْمٍ مِنَ الْحَوَادِثِ نُــكْرِ

* * *

لَيْتَ شِعْرِي ! وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنْ لَيْـــسَ بِمُجْدٍ عَلَى الْفَتَى : « لَيْتَ شِعْرِي » (١)
هَلْ لِخَالِي زَمَانِنَا مِنْ رُجُوعٍ ؟   أَمْ لِمَاضِي زَمَانِنَا مِنْ مَكَرٍّ ؟

* * *

أَيْنَ أَيَّامُنَا وَأَيْنَ لَيَالٍ   كَرِيَاضٍ لَبِسْنَ أَفْوَافَ زَهْرِ
وَزَمَانٌ كَأَنَّمَا دَبَّ فِيـــهِ   وَسَنٌ أَوْ هَفَا بِهِ فَرْطُ سُكْرِ
حِينَ نَغْدُو إِلَى جَدَاوِلَ زُرْقٍ   يَتَغَلْغَلْنَ فِي حَـــدَائِقَ خُضْرِ
فِي هِضَابٍ — مَجْلُوَّةِ الْحُسْنِ — حُمْرٍ   وَبَوَادٍ — مَصْقُولَةِ النَّبْتِ — عُفْرِ
نَتَعَاطَى الشَّمُولَ — مُذْهِبَةَ السِّرْ   بَالِ — وَالْجَوُّ فِي مَطَارِفَ (٢) غُبْرِ
فِي فُتُوٍّ (٣) تَوَشَّـــحُوا بِالْمَعَالِي   وَتَرَدَّوْا بِكُلِّ مَجْدٍ وَفَخْـــرِ
وُضَّحٌ تَنْجَـــلِي الْغَيَاهِبُ مِنْهُمْ   عَنْ وُجُوهٍ — مِثْلِ الْمَصَابِيحِ — غُرٍّ
كُلُّ خِرْقٍ يَكَادُ يَنْهَلُّ طَرْفًا   زَانَ مَرْآىً بِهِ بِأَكْرَمِ خُبْرِ (٤)

---

(١) يقول «ليت شعرى ، وإن كنت أعلم أنها غير مجدية ، قال ابن الرومى :

« يا ليت شعرى وليت غير مجدية   إلا استراحة قلب وهو اسوان . »

وقال الشاعر :

« ليت وهل ينفع شيئا « ليت »   ليت شبابا بيع فاشتريت . »

(٢) مطارف — جمع مطرف بضم الميم وكسرها — مع فتح الراء فى كليهما — : رداء مربع من خز ذو أعلام . (٣) فتو — جمع فتى وهو يجمع على فتيان وفتو وفتى بتشديد الواو والياء .

(٤) الخرق : من الفتيان الظريف فى سماحة ونجدة ، وينهل : يريد يكاد يسيل رقة وظرفا ، وقد جاء بعد هذا البيت قوله :

« . . . . محض حالى   نفح المسك عرفها طيب نشر . »

وقد أثبتناه كما ورد ناقصاً بالأصل .

وَسَجَايَا كَأَنَّهُنَّ كُئُوسٌ ... أَوْ رِيَاضٌ قَدْ جَادَهَا صَوْبُ قَطْرِ

يَتَلَقَّى الْقَبُولَ مِنِّى قَبُولٌ ... كُلَّمَا رَاحَ نَفْحُهَا ارْتَاحَ صَدْرِى

فَهْوَ يَسْرِى مُحَمَّلاً ـ مِنْ سَجَايَا ... كَ ـ نَسِيمًا يُزْهَى بِأَفْوَحِ عِطْرِ

***

يَا خَلِيلِى وَوَاحِدِى وَالْمُعَلَّى ... مِنْ قِدَاحِى (١) وَالْمُسْتَبِدُّ بِبِرِّى

لاَ يَضَعْ وُدِّىَ الصَّرِيحُ الَّذِى أَرْ ... ضَاكَ مِنْهُ اسْتِوَاءُ سِرِّى وَجَهْرِى

وَتَوَالِى أَذِمَّةٍ نَظَمَتْنَا ... نَظْمَ عِقْدِ الْجُمَانِ فِى نَحْرِ بِكْرِ

لاَ يَكُنْ قَصْرُكَ الْجَفَاءَ ، فَإِنَّ الْـ ... وُدَّ ـ إِنْ سَاعَدَتْ حَيَاتِى ـ قَصْرِى (٢)

وَأَعِدْ ـ بِالْجَوَابِ ـ دَوْلَةَ أُنْسٍ ... قَدْ تَقَضَّتْ إِلاَّ عُلاَلَةَ ذِكْرِ (٣)

وَاكْسُ مَتْنَ الْقِرْطَاسِ دِيبَاجَ لَفْظٍ ... يَبْهَرُ الْفِكْرَ مِنْ نَظِيمٍ وَنَثْرِ

غُرَرٌ مِنْ بَدَائِعٍ لاَ يَشُكُّ ... الدَّهْرُ فِى أَنَّهَا قَلاَئِدُ دُرِّ

تَتَوَالَى عَلَى النُّفُوسِ دِرَاكًا ... عَنْ فَتًى مُوسِرٍ ـ مِنَ الطَّبْعِ ـ مُثْرِ

شَدَّ فِى حَلْبَةِ الْبَلاَغَةِ حَتَّى ... بَانَ فِيهَا عَنْ شَأْوِ سَهْلٍ وَعَمْرِو

وَإِذَا أَنْتَ لَمْ تُعَجِّلْ جَوَابِى ... كَانَ هٰذَا الْكِتَابُ بَيْضَةَ عُقْرِ (٤)

فَابْقَ ـ فِى ذِمَّةِ السَّلاَمَةِ ـ مَا انْجَا ... بَ عَنِ الْأُفْقِ عَارِضٌ مُتَسَرِّ

وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ مَا غَنَّتِ الْوُرْ ... قُ وَمَالَتْ بِهَا ذَوَائِبُ سِدْرِ (٥)

---

(١) أى القدح المعلى . (٢) يقول : لا يكن قصاراك الجفاء فان قصاراى الوداد أى لا تكن غايتك تطيعق مان غايتى وصلك .

(٣) يقول : أعد عهد الأنس الذى مضى ولم يترك لنا إلا ذكريات نتعلل بها .

(٤) إذا لم تعجل بارسال الرد على كتابى كان هذا آخر كتاب أبعث به إليك .

(٥) السدر : شجر النبق يقول : « تحيتى إليك كلما غنت الحمائم ومالت بها أغصان الشجر . »

مدح ابن جهور ورثاء أمه

« كرّر ابن زيدون في هذه القصيدة أكثر
الابيات السابقة التي ذكرناها في ص«١٤٠»
من هذا الديوان . »

هوَ الدّهرُ فاصْبِرْ للّذِي أحْدَثَ الدّهرُ ... فمِنْ شِيَمِ الأبْرارِ ـ في مِثْلِها ـ الصّبْرُ
ستَصْبِرُ صَبْرَ اليَأْسِ أوْ صَبْرَ حِسْبَةٍ ... فلاَ ترْضَ بالصّبْرِ الّذِي مَعَهُ وِزْرُ
حِذارَكَ مِنْ أنْ يُعْقِبَ الرُّزْءُ فِتْنَةً ... يَضِيقُ لَهَا ـ عَنْ مِثْلِ أخْلاقِكَ ـ العُذْرُ
إذَا أسِفَ الثُّكْلَ اللّبِيبُ فشَفّهُ ... رَأى أبْرَحَ الثُّكْلَيْنِ أنْ يُحْبَطَ الأجْرُ
مُصَابُ الّذِي يَأْسَى بمَيْتِ ثوَابِهِ ... هُوَ البَرْحُ لاَ المَيْتُ الّذِي أحْرَزَ القَبْرُ

***

حَيَاةُ الوَرَى نَهْجٌ إلَى المَوْتِ مَهْيَعٌ ... لَهُمْ فِيهِ إيضَاعٌ كمَا يُوضِعُ السَّفْرُ
فيَاهَادِيَ المِنْهَاجِ جُرْتَ فإنّمَا ... هُوَ الفَجْرُ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ أوِ البَجْرُ
لَنَا ـ فِي سِوَانَا ـ عِبْرَةٌ غَيْرَ أنّنَا ... نُغَرُّ بأطْمَاعِ الأمَانِي فنَغْتَرُّ
إذَا المَوْتُ أضْحَى قَصْرَ كُلِّ مُعَمَّرٍ ... فإنّ سَوَاءً طالَ أوْ قَصُرَ العُمْرُ

***

ألَمْ تَرَ أنّ الدِّينَ رِيعَ ذِمَارُهُ ... فلَمْ يُغْنِ أنْصَارٌ عَدِيدٌ ولاَ وَفْرُ
بحَيْثُ اسْتَقَلّ المُلْكُ ثَانِيَ عِطْفِهِ ... وجَرَّرَ مِنْ أذْيَالِهِ العَسْكَرُ المَجْرُ
هُوَ الضّيْمُ لَوْ غَيْرُ القَضَاءِ يَرُومُهُ ... شَآهُ المَرَامُ الصّعْبُ والمَسْلَكُ الوَعْرُ

إِذَا عَثَرَتْ جُرْدُ السَّوَابِحِ فِى الْقَنَا بِلَيْلٍ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُ
لَقَدْ بَكَرَ النَّاعِى عَلَيْنَا بِدَعْوَةٍ عَوَانٍ أَمَضَّتْنَا لَهَا لَوْعَةٌ بِكْرُ

* * *

أَأَنفَسُ نَفْسٍ ـ فِى الْوَرَى ـ أَقْصَدَ الرَّدَى؟ وَأَخْطَرُ عِلْقٍ ـ لِلْهُدَى ـ أَهْلَكَ الدَّهْرُ؟
هَنِيئًا لِبَطْنِ الْأَرْضِ أُنْسٌ مُجَدَّدٌ بِثَاوِيَةٍ حَلَّتْهُ فَاسْتَوْحَشَ الظَّهْرُ
بِطَاهِرَةِ الْأَثْوَابِ ، قَانِتَةِ الضُّحَى مُسَبِّحَةِ الآنَاءِ ، مِحْرَابُهَا الْخِدْرُ
فَإِنْ أُنْثِيَتْ فَالنَّفْسُ أَنْأَى نَفِيسَةٍ إِذِ الْجِسْمُ لَا يَسْمُو لِتَذْكِيرِهِ ذِكْرُ
حَصَانٌ ـ إِنِ التَّقْوَى اسْتَبَدَّتْ بِسِرِّهَا ـ فَمِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ يُسْتَوْضَحُ الْجَهْرُ
يُطَأْطَأُ سِتْرُ الصَّوْنِ دُونَ حِجَابِهَا فَيُرْفَعُ ـ عَنْ مَثْنَى نَوَافِلِهَا ـ السِّتْرُ

* * *

لَعَمْرُ الْبُرُودِ الْبِيضِ فِى ذَلِكَ الثَّرَى لَقَدْ أُدْرِجَتْ ـ أَثْنَاءَهَا ـ النِّعَمُ الْخُضْرُ
عَلَيْهَا سَلَامُ اللهِ تَتْرَى تَحِيَّةً يُنَسِّمُهَا الْغُفْرَانُ رَيْحَانُهَا النَّضْرُ
وَعَاهَدَ تِلْكَ الْأَرْضَ عَهْدُ غَمَامَةٍ إِذَا اسْتَعْبَرَتْ فِى تُرْبِهَا ابْتَسَمَ الزَّهْرُ

* * *

فَدَيْنَاكَ ، إِنَّ الرُّزْءَ كَانَ غَمَامَةً طَلَعْتَ لَنَا فِيهَا كَمَا يَطْلُعُ الْبَدْرُ
أَلَسْتَ الَّذِى ـ إِنْ ضَاقَ ذَرْعٌ بِحَادِثٍ ـ تَبَلَّجَ مِنْهُ الْوَجْهُ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ
تَعَزَّ بِحَوَّاءَ ـ الَّتِى الْخَلْقُ نَسْلُهَا ـ فَمَنْ دُونَهَا فِى الْعَصْرِ يَتْبَعُهُ الْعَصْرُ
نِسَاءُ النَّبِىِّ الْمُصْطَفَى أُمَّهَاتُنَا ثَوَيْنَ فَغُنْنَاهُنَّ ـ مُذْ حُقُبٍ ـ قَفْرُ
وَجَارَتُهَا الْحُسْنَى ، فَأُمٌّ شَفِيقَةٌ تَحَفَّى بِهَا ابْنٌ كُلُّ أَفْعَالِهِ بِرُّ

تَمَنَّتْ وَفَاةَ ـ فى حَيَاتِكَ ـ بَعْدَ مَا تَوَالَتْ ـ كَنَظْمِ الْعِقْدِ ـ آمَالُهَا النَّثْرُ
كَأَنَّ الرَّدَى نَذْرٌ عَلَيْهَا مُؤَكَّدٌ فَإِنْ أُسْعِفَتْ بِالْحَظِّ فِيكَ وَفَى النَّذْرُ
تَوَلَّتْ فَأَبْقَتْ ـ مِنْ مُجَابِ دُعَائِهَا ـ نَفَائِسَ ذُخْرٍ مَا يُقَاسُ بِهِ ذُخْرُ
تَتِمُّ بِهِ النُّعْمَى، وَتَتَّسِقُ الْمُنَى، وَتُسْتَدْفَعُ الْبَلْوَى، وَيُسْتَقْبَلُ الصَّبْرُ
فَلاَ تَهِضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهَا فَمِنْكَ ـ لِمَنْ هَاضَتْ نَوَائِبُهَا ـ جَبْرُ
وَلاَ زِلْتَ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقُرَّةٍ لِعَيْنَيْكَ مَشْدُودٍ بِهِمْ ذَلِكَ الْأَزْرُ

* * *

بَنِى «جَهْوَرٍ» أَنْتُمْ سَمَاءُ رِيَاسَةٍ لِعَافِيكُمُ ـ فى أُفْقِهَا ـ أَنْجُمٌ زُهْرُ
تَرَى الدَّهْرَ ـ إِنْ يَبْطِشْ ـ فَمِنْكُمْ يَمِينُهُ وَإِنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا فَأَنْتُمْ لَهَا ثَغْرُ
لَكُمْ كُلُّ رَقْرَاقِ السَّمَاحِ كَأَنَّهُ حُسَامٌ عَلَيْهِ ـ مِنْ طَلاَقَتِهِ ـ أَثْرُ
سَحَائِبُ نُعْمَى أَبْرَقَتْ وَتَدَفَّقَتْ فَصَيِّبُهَا الْجَدْوَى، وَبَارِقُهَا الْبِشْرُ
إِذَا مَاذُكِرْتُمْ، وَاسْتُشِفَّتْ خِلاَلُكُمْ تَضَوَّعَتِ الْأَخْبَارُ، وَاسْتُمْجِدَ الْخُبْرُ
طَرِيقَتُكُمْ مُثْلَى، وَهَدْيُكُمُ رِضًى وَنَائِلُكُمْ غَمْرٌ، وَمَذْهَبُكُمْ قَصْرُ
وَكَمْ سَائِلٍ ـ بِالْغَيْبِ عَنْكُمْ ـ أَجَبْتُهُ هُنَاكَ الْأَيَادِى الشَّفْعُ وَالسُّودَدُ الْوِتْرُ
عَطَاءٌ وَلاَ مَنٌّ، وَحُكْمٌ وَلاَ هَوًى وَحِلْمٌ وَلاَ عَجْزٌ، وَعِزٌّ وَلاَ كِبْرُ
قَدِ اسْتَوْفَتِ النَّعْمَاءُ فِيكُمْ تَمَامَهَا عَلَيْنَا، فَمِنَّا الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَالشُّكْرُ

فى مدح ابن جهــــور

« قال يمدح أبا الحزم بن جهور . »

أَجَلْ ، إِنَّ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاؤُهَا الأَسْدُ ‏ ‏ مَهَاةٌ حَمَتْهَا ــ فى مَرَاتِعِهَا ــ أُسْدُ (١)

يَمَــانِيَةٌ تَدْنُو وَيَنْأَى مَزَارُهَا ‏ ‏ فَسِيَّانِ مِنْهَا فى الْهَوَى الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ (٢)

إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهَا تَمَرَّدَ « مَارِدٌ » ‏ ‏ وَعَزَّ ــ فَلَمْ نَظْفَرْ بِهِ ــ « الأَبْلَقُ الْفَرْدُ » (٣)

تَحُولُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ اعْتِيَادِهَا ‏ ‏ وَخَيْلٌ تَمَطَّى نَحْوَ غَايَاتِهَا جُرْدُ

لِحَيٍّ لَقَاحٍ تَأْنَفُ الضَّيْمَ مِنْهُمُ ‏ ‏ جَحَاجِحَةٌ شِيبٌ وَصُيَّابَةٌ مُرْدُ (٤)

أَبٌ ذُو اعْتِزَامٍ ، أَوْ أَخٌ ذُو تَسَرُّعٍ ‏ ‏ فَشَيْحَانُ مَاضِى الْهَمِّ ، أَوْ فَاتِكٌ جَلْدُ

فَمَا شِيمَ مِنْ ذِى الْهَبَّةِ الصَّارِمِ الشَّبَا ‏ ‏ وَلاَ حُطَّ عَنْ ذِى الْمَيْعَةِ السَّابِحِ اللِّبْدُ

***

وَفِى الْكِلَّةِ الْحَمْرَاءِ وَسْطَ قِبَابِهِمْ ‏ ‏ فَتَاةٌ كَمِثْلِ الْبَدْرِ قَابَلَهُ السَّعْدُ

---

(١) الأسد : لغة فى الأزد ، والأسد : الأسود ، يقول : نعم إن ليلى من قبيلة الأزد وهى ظبية تحميها الأسود وتذود عنها .

(٢) يقول إن قربها وبعدها سيان لان وصلها ــ على القرب ، والبعد ــ بعيد المنال ، وما أجمل قول المعرى :

« فيادارها بالخيف ، إن مزارها ‏ ‏ قريب ولكن دون ذلك أهوال. »

(٣) الأبلق الفرد : حصن السموءل بن عاديا بناه أبوه . قالوا بل بناه سليمان ــ عليه السلام ــ بأرض تيماء ، وقصدته الزباء فعجزت عنه وعن مارد ، فقالوا : « تمرد مارد ، وعز الأبلق . » وفى هذا الحصن يقول السموءل ــ من لاميته الرائعة المشهورة :

« لنا جبل يحتله من نجيره ‏ ‏ منيع ، يرد الطرف وهو كليل

هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره ‏ ‏ يعز ــ على من رامه ــ ويطول. »

(٤) الحى اللقاح : هم الذين لايدينون للملوك ولا يؤدون لهم الاتاوة، والجحاجحة : جمع جحجح ، وهو السيد السمح أو هو الكريم وهو وصف خاص بالرجال ، قال الشاعر : « بيض فطارفة غلب جحاجحة . » ويجمع أيضاً على جحاجح ، قال ابن الزبعرى :

« ماذا ببدر فالعقنقل من مرازبة جحاجح . »

صيابة القوم وصوابتهم : لبابهم .

عَقِيـــلَةُ سِربٍ لاَ الأَرَاكُ مَرَادُهُ ... وَلاَ قِمَنٌ مِنْهُ الْبَرِيرُ وَلاَ الْمَرْدُ (١)

تَهَادَى فَيُضْنِيهَا الْوِشَاحُ غَرِيرَةٌ ... تَأَوَّهُ مَهْمَا نَاسَ (٢) فِى جِيدِهَا الْعِقْدُ

إِذَا اُسْتُحْفِظَتْ سِرَّ السُّرَى جُنْحَ لَيْلِهَا ... تَنَاسَى النَّمُومَانِ : الْأَلُوَّةُ ، وَالنَّدُّ (٣)

لَهَا عِدَةٌ بِالْوَصْلِ ، يُوعِدُ غِبَّهَا ... مَصَالِيتُ ، يُنْسَى ـ فِى وَعِيدِهِمِ ـ الْوَعْدُ

عَزِيزٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعُودَ خَيَالُهَا ... فَيُسْعِفَ مِنْهَا نَائِلٌ فِى الْكَرَى ثَمْدُ (٤)

كَفَى لَوْعَةً أَنَّ الْوِصَالَ نَسِيئَةٌ ... يُطِيلُ عَنَاءَ الْمُقْتَضِى وَالْهَوَى نَقْدُ (٥)

سَتُبْلِغُهَا عَنَّا الشَّمَالُ تَحِيَّةً ... نَوَافِحُ أَنْفَاسِ الْجَنُوبِ لَهَا رَدُّ (٦)

فَمَا نُسِيَ الْإِلْفُ الَّذِى كَانَ بَيْنَنَا ... ـ لِطُولِ تَنَائِينَا ـ وَلاَ ضُيِّعَ الْعَهْدُ

***

لَئِنْ قِيلَ : « فِى الْجِدِّ النَّجَاحُ لِطَالِبٍ » ... لَقَلَّ غَنَاءُ الْجِدِّ مَا لَمْ يَكُنْ جَدُّ (٧)

---

(١) المرد : الغض من ثمر الأراك أو نضيجه . (٢) ناس : الشيء ينوس نوساً ونوساناً تحرك وتذبذب واضطرب متدلياً ، وسمى ذونواس ـ وهو من ملوك ـ اليمن بذلك لذؤابتين كانتا تنوسان على ظهره .

(٣) الألوة : عود هندى يتبخر به ، وقال أعرابى حين مر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يدفن :

« ألا جعلتم رسول الله فى سفط ... من الألوة أحوى ملبساً ذهبا . »

والند : ضرب من الطيب .

(٤) ثمد : قليل ، يقول وهم يستكثرون علينا أن يزورنا خيالها فيسعفنا بالوصال فى فترات الكرى المتقطعة القليلة . (٥) يقول : كفانا ألما أنها لا تمن علينا بالوصال إلا وعوداً مؤجلة يعنينا اقتضاؤها وأداؤها فى مواعيدها مع أننا نعطيها الهوى عاجلا غير متمهلين ولا مؤجلين .

(٦) الشمال : ريح الشمال ، والجنوب : ريح الجنوب ، وفى الأصل نوافح ، والنوافح : السحب الكثيرة المطر ، ويقال نضج الندى القميص أى رشه ونفحت الريح أى جاءت بقوة ، والنوافح ـ جمع نافحة وهى النسيم .

(٧) يقول ابن دريد فى هذا المعنى :

« لا ينفع الجد بلا جد ولا ... يحدك الجهل إذا الجد علا . »

ويقول الشاعر : « عش بجد ولا يضرك نوك »

وقد أكثر الشعراء من الكلام فى الجدود ، ومن أبدع ما قرأناه فى ذلك قول ابن الرومى :

« إن للحظ كيمياء إذا ما ... مس كلبا أحاله إنسانا . »

يَنَالُ الْأَمَانِي بِالْحَظِيرَةِ وَادِعٌ ... كَمَا أَنَّهُ يُكْدِي الَّذِي شَأْنُهُ الْكَدُّ[1]

***

هُوَ الدَّهْرُ مَهْمَا أَحْسَنَ الفِعْلَ مَرَّةً ... فَعَنْ خَطَإٍ ، لَكِنْ إِسَاءَتُهُ عَمْدُ

حِذَارَكَ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهُ بِجَانِبٍ ... فَفِي كُلِّ وَادٍ مِنْ نَوَائِبِهِ « سَعْدُ »[2]

وَلَوْلَا السَّرَاةُ الصِّيدُ مِنْ آلِ «جَهْوَرٍ» ... لَأَعْوَزَ مَنْ يُعْدَى عَلَيْهِ مَتَى يَعْدُو

مُلُوكٌ لَبِسْنَا الدَّهْرَ فِي جَنَبَاتِهِمْ ... رَقِيقَ الحَوَاشِي مِثْلَ مَا فُوِّفَ الْبُرْدُ

بِحَيْثُ مَقِيلُ الْأَمْنِ ضَافٍ ظِلَالُهُ ... وَفِي مَنْهَلِ الْعَيْشِ الْعُذُوبَةُ وَالْبَرْدُ

هُمُ النَّفَرُ الْبِيضُ الَّذِينَ وُجُوهُهُمْ ... تَرُوقُ فَتَسْتَشْفِي بِهَا الْأَعْيُنُ الرُّمْدُ

كِرَامٌ يَمُدُّ الرَّاغِبُونَ أَكُفَّهُمْ ... إِلَى أَبْحُرٍ مِنْهُمْ لَهَا بِاللُّهَا[3] مَدُّ

وقول المتنبي :

« هو الجد حتى تفضل العين أختها ... وحتى يصير اليوم لليوم سيدا . »

وقول المعرى :

« والجد يدرك أقواما فيرفعهم ... وقد ينال الى أن يعبد الحجرا

وشرفت ذات أنواط قبائلها ... ولم تباين على علاتها الشجرا . »

وقد ذكرنا طرفا من أقوال الشعراء فى هذا المعنى فى رسالة الغفران « ح٢ص٩٨ » فليرجع إليها من شاء .

(١) الحظيرة : عنى بها هنا الأموال المحظورة يقال : احتظر الرجل وحظر اتخذ حظيرة حبس فيها أمواله من تضييق ، ويقال للرجل القليل الخير « إنه لنكد الحظيرة » وسميت أمواله حظيرة لأنه حظرها ومنعها عنده ، والوادع : الذى ينال حظه من العيش من غير كلفة ولا مشقة . يقول: « كثيراً ماينال الوادع الذى هو فى خفض ودعة من العيش أمانيه بأمواله المحظورة عنده كما أنه كثيراً مايحنق ذو السعى والكد فلا يحصل من تعبه وكده على طائل » ، ولعل أبرع ما قرأناه فى هذا المعنى قول ابن الرومى :

« إذا كان يجرى كوكب سمت هالة ... علاها وإلا اعتاص ذلك مطلبا . »

وقول الآخر :

« سبحان ربى يعطى ذا ويحرم ذا ... هذا يصيد ، وهذا يأكل السمك . »

(٢) يقال « بكل واد سعد» أو «بكل واد بنو سعد» يريدون بذلك أن فى كل جهة كفاءها من الشر والأذى. قالوا وأصل المثل أن الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة — رأى من أهله وقومه أمورا كرهها ففارقهم متنقلا فى القبائل فرأى من غيرهم مثل ما رأى منهم فقال: «فى كل أرض سعد بن زيد.»

(٣) الأعطيات والهبات .

فَلاَ يُنْعَ مِنْهُمْ هَالِكٌ فَهْوَ خَالِدٌ   بِآثَارِهِ ، إِنَّ الثَّنَاءَ هُوَ الْخُـــلْدُ

«أَقِلُّوا عَلَيْهِــــــمْ لاَ أَبَا لِأَبِيكُمُ   مِنَ اللَّوْمِ ، أَوْسُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِى سَدُّوا[1]»

أُولَئِكَ إِنْ نِمْنَا سَرَى فِى صَلاَحِنَا   سِجَاحٌ عَلَيْنَا كُحْلُ أَجْفَانِهِمْ سُهْدُ

* * *

أَلَيْسَ «أَبُو الحَزْمِ» الَّذِى غِبَّ سَعْيِهِ   تَبَصَّرَ غَاوِينَا فَبَانَ لَهُ الرُّشْدُ

أَغَرُّ تَمَهَّدْنَا بِهِ الخَفْضَ[2] بعْدَمَا   أَقَضَّ عَلَيْنَا مَضْجَعٌ وَنَبَا مَهْدُ[3]

لَشَمَّرَ حَــتَّى انْجَابَ عَارِضُ فِتْنَةٍ   تَأَلَّقَ مِنْهَا الْبَرْقُ وَاصْطَخَبَ الرَّعْدُ

فَسَالَمَ مَنْ كَانَتْ لَهُ الحَرْبُ عَادَةً   وَوَافَقَ مَنْ لاشَكَّ فِى أَنَّهُ ضِدُّ[4]

هُوَ الْأَثَرُ المَحْمُودُ إِنْ عَادَ ذِكْرُهُ   تَطَلَّعَتِ الْعَلْيَاءُ وَاسْتَشْرَفَ المَجْدُ

تَوَلَّى فَلَوْلاَ أَنْ تَلاَهُ «مُحَمَّدٌ»   لَأَوْطَأَ خَدَّ الحُرِّ أَخْمَصَهُ الْعَبْدُ[5]

* * *

مَلِيكٌ يَسُوسُ الْمُلْكَ مِنْهُ مُقَلَّــدٌ   رَوَى عَنْ أَبِيهِ فِيهِ مَا سَــنَّهُ الْجَدُّ

سَجِيَّتُهُ الْحُسْنَى ، وَشِيــمَتُهُ الرِّضَى ،   وَسِيــرَتُهُ الْمُثْلَى ، وَمَذْهَبُهُ الْقَصْدُ

---

(١) ورد هذا البيت فى الأصل :

« . . . . عليهم ، لا أبا لأبيكم   من اللوم ، أوسدوا المكان الذى سدوا . »

وليس هذا البيت لابن زيدون بل هو اقتباس ، وأصل البيت كما أثبتناه ، وهو من القصيدة المشهورة التى يقول فيها الشاعر :

« وتعذلنى أفناء سعد عليهم   وما قلت إلا بالذى علمت سعد . »

(٢) الخفض : الدعة .   (٣) يقول إنه بدلنا من خوف أمنا ومن سهاد رقادا .

(٤) يقول : وقد سالمه أشد الأعداء ولوعا بالحرب ووافقه من لاشك فى خصومته ولدده بعد ما رأوا من شدة بأسه وقوته .

(٥) يقول : لولا أن محمدا قد خلف أبا الحزم لساءت العاقبة ولسادت دولة العبيد على دولة الأحرار فأذلوهم إذلالا وداسوا خدودهم بأرجل

هُمَامٌ إِذَا زَانَ النَّدِىَّ بِحَبْوَةٍ   تَرَجَّحَ فى أَثْنَائِهَا الحَسَبُ العَدُّ

زَعِيمٌ لِأَبْنَاءِ السِّيَادَةِ بَارِعٌ   عَلَيْهِمْ بِهِ تُثْنَى الخَنَاصِرُ إِنْ عُدُّوا

بَعِيدُ مَنَالِ الحَالِ ، دَانِى جَنَى النَّدَى   إِذَا ذُكِرَتْ أَخْلَاقُهُ خَجِلَ الوَرْدُ

تَهَلَّلَ فَانْهَلَّتْ سَمَاءُ يَمِينِهِ   عَطَايَا تَرَى الآمَالَ مِنْ صَوْبِهَا جَعْدُ (١)

يُمِرُّ لِمَنْ عَادَاهُ إِذْ أَوْلِيَاؤُهُ   يَلَذُّ لَهُمْ كَالمَاءِ شِيبَ بِهِ الشُّهْدُ

إِذَا اعْتَرَفَ الجَانِى عَفَا عَفْوَ قَادِرٍ   عَلَا قَدْرُهُ عَنْ أَنْ يَلِجَّ بِهِ حِقْدُ (٢)

وَمُتَّئِدٌ لَوْ زَاحَمَ الطَّوْدَ حِلْمُهُ   لَحَاجَزَهُ رُكْنٌ مِنَ الطَّوْدِ مُنْهَدُّ

لَهُ عَزْمَةٌ مَطْوِيَّةٌ فى سَكِينَةٍ   كَمَا لَانَ مَتْنُ السَّيْفِ وَاخْشَوْشَنَ الحَدُّ (٣)

يُوَكِّلُ بِالتَّدْبِيرِ خَاطِرَ فِكْرَةٍ   إِنِ اقْتَدَحَتْ فى خَاطِرٍ أَثْقَبَ الزَّنْدُ (٤)

ذِرَاعٌ — لِمَا يَأْتِى بِهِ الدَّهْرُ — وَاسِعٌ   وَبَاعٌ — إِلَى مَا يُحْرِزُ الفَخْرَ — مُمْتَدُّ

إِذَا أَنْهَبَ المُنُونَ فِيهِ شَأَتْهُمُ (٥)   مَرَاتِبُ عُلْيَا كَلَّ عَنْ عَفْوِهَا الجَهْدُ

هُوَ المَلِكُ المَشْفُوعُ بِالنُّسْكِ مُلْكُهُ   فَيَا فَضْلَ مَا يُخْفِى وَيَا سَرْوَ مَا يُبْدُو (٦)

إِلَى اللهِ أَوَّابٌ ، وَلِلَّهِ خَائِفٌ   وَبِاللهِ مُعْتَدٌّ ، وَفى اللهِ مُشْتَدُّ

---

(١) جعد : ندى .

(٢) قريب من هذا قول عنترة :

« لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب   ولا ينال العلا من طبعه الغضب . »

(٣) فى هذا المعنى يقول الشاعر :

« وكالسيف — إن لاينته — لان متنه   وحداه — إن خاشنته — خشنان. »

(٤) أثقب الزند : أورى .   (٥) شأتهم : فاتتهم وقصروا فيها عن الغاية .

(٦) يقول هو الملك الذى يجمع إلى سطوة الملك نسك الورعين فما أفضل مايسره فى نفسه وما أنبل وأشرف مايعلنه ، يعنى أن سره وإعلانه غاية فى النبل والفضل

***

لَقَدْ أَوْسَعَ الْإِسْلَامَ بِالْأَمْسِ حِسْبَةً ... نَحَتْ غَرَضَ الْأَجْرِ الْجَزِيلِ فَلَمْ تَعْدُ

أَبَاحَ حِمَى الْخَمْرِ الْخَبِيثَةِ ، حَائِطًا ... حِمَى الدِّينِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ لَهُ حَدُّ

فَطَوَّقَ بِاسْتِئْصَالِهَا الْمِصْرَ مِنَّةً ... يَكَادُ يُؤَدِّى شُكْرَهَا الْحَجَرُ الصَّلْدُ

هِيَ الرِّجْسُ إِنْ يُذْهِبْهُ عَنْهُ فَمُحْسِنٌ ... شَهِيرُ الْأَيَادِى مَا لِآلَائِهِ جَحْدُ

مَظِنَّـــةُ آثَامٍ ، وَأُمُّ كَبَائِرٍ ... يُقَصِّرُ عَنْ أَدْنَى مَعَايِبِهَا الْعَدُّ

رَأَى نَقْصَ مَا يَجْبِيـــهِ مِنْهَا زِيَادَةً ... إِذِ الْعِوَضُ الْمَرْضِيُّ إِلَّا يَرُحْ يَغْدُو

***

غَـــنِيٌّ ، فَحُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ مَالُهُ ... عَزِيزٌ ، فَصُنْعُ اللهِ مِنْ حَوْلِهِ جُنْدُ

لَنِعْمَ حَدِيثُ الْبِرِّ تُودِعُهُ الصَّبَا ... تَبُثُّ نَثَاهُ حَيْثُ لَا تُوضِعُ الْبُرْدُ (١)

تَغَلْغَلَ فِى سَمْعِ الرَّبَابِ وَطَالَعَتْ ... لَهُ صُورَةً لَمْ يَعْمَ ـ عَنْ حُسْنِهَا ـ الْخُلْدُ

مَسَاعٍ أَجَدَّتْ زِينَةَ الْأَرْضِ ، فَالْحَصَى ... لَآلِئُ نَثْرٌ ، وَالثَّرَى عَنْـــبَرٌ وَرْدُ

لَدَى زَهَرَاتِ الرَّوْضِ ـ عَنْهَا ـ بِشَارَةٌ ... وَفِى نَفَحَاتِ الْمِسْكِ ـ مِنْ طِيبِهَا ـ وَفْدُ

***

فَدَيْتُكَ ، إِنِّى قَائِلٌ فَمُرَضٌ ... بِأَوْطَارِ نَفْسٍ مِنْكَ لَمْ تَقْضِهَا بَعْدُ

مُنًى كَالشَّجَا دُونَ اللَّهَاةِ (٢) تَعَرَّضَتْ ... فَلَمْ يَكُ لِلْمَصْدُورِ ـ مِنْ نَفْثِهَا ـ بُدُّ

---

(١) يقول : أمم حديث البر أودعته ريح الصبا فحملته وبثت خبره فى الجهات النائية حيث لا توضع البرد أى حيث لاتعدو خيل البريد اليها ولا تصلها الأخبار لبعدها ، وفى الأصل : « توضعه »

(٢) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق ، أو مابين منقطع أصـل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم ، وجمعها لهوات ولهيات ولهى . قال ابن دريد :

« والناس كالنبت ، فمنه رائق ... غض نضير عوده من الجـنى

ومنه ما تقتحم العين ، فان ... ذقت جناه انساغ عذبا فى اللهى . »

أَمِثْلِيَ غُفْلٌ خَامِلُ الذِّكْرِ ضَائِعٌ ... ضَيَاعَ الحُسَامِ العَضْبِ أَصْدَأَهُ الغِمْدُ

أَبَى ذَاكَ أَنَّ الدَّهْرَ قَدْ ذَلَّ صَعْبُهُ ... فَسُنِّيَ مِنْهُ ـ بِالَّذِي نَشْتَهِي ـ العَقْدُ (١)

***

أَنَا السَّيْفُ لَا يَنْبُو مَعَ الهَزِّ غَرْبُهُ ... إِذَا مَا نَبَا السَّيْفُ الَّذِي تَطْبَعُ الهِنْدُ

بَدَأْتَ بِنُعْمَى غَضَّةٍ إِنْ تُوَالِهَا ... فَحُسْنُ الأَلَى (٢) فِي أَنْ يُوَالِيهَا سَرْدُ

لَعَمْرُكَ مَا لِلْمَالِ أَسْعَى فَإِنَّمَا ... يَرَى المَالَ أَسْنَى حَظِّهِ الطَّبِعُ الوَغْدُ (٣)

وَلَـكِنْ لِحَالٍ ـ إِنْ لَبِسْتُ جَمَالَهَا ـ ... كَسَوْتُكَ ثَوْبَ النُّصْحِ أَعْلَامُهُ الحَمْدُ

***

أَتَتْكَ القَوَافِي شَاهِدَاتٍ بِمَا صَفَا ... مِنَ الغَيْبِ فَاقْبَلْهَا فَمَا غَرَّكَ الشُّهْدُ

لِيَحْظَى وَلِيٌّ ـ سِرُّهُ وَفْقُ جَهْرِهِ ـ ... فَظَاهِرُهُ شُكْرٌ، وَبَاطِنُهُ وُدُّ

يُمَيِّزُهُ ـ مِمَّنْ سِوَاهُ ـ وَفَاؤُهُ ... وَإِخْلَاصُهُ، إِذْ كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ (٤)

---

(١) سنى منه العقد ، أى تيسر الصعب وسهل . قال الشاعر :

« وأعلم علما ليس بالظن أنه ... إذا الله سنى عقد أمر تيسرا . »

(٢) الألى : النعمة جمعها آلاء .

(٣) الطبع : يقال رجل طبع طبع (بكسر ثانيهما) متدنس العرض ذو خلق دنىء لايستحي من سوءة ، والوغد : الخفيف الأحمق الضعيف العقل والبذل الدنىء الخسيس النذل .

(٤) كل غانية هند : مثل يضرب عند تساوى القوم فى فساد الباطن

رثاء أم المعتضد

« قال يرثى السيدة الكبرى والدته . »

أَلَا هَلْ دَرَى الدَّاعِي الْمُثَوِّبُ ـ إِذْ دَعَا   بِنَعْيِكِ ـ أَنَّ الدِّينَ مِنْ بَعْضِ مَا نَعَى ؟

وَأَنَّ التُّقَى قَدْ آذَنَتْنَا بِفُرْقَةٍ   وَأَنَّ الْهُدَى قَدْ بَانَ مِنْكِ فَوَدَّعَا ؟

لِرُزْئِكِ تَنْهَلُّ الدُّمُوعُ ، فِمْثْلُهُ   ـ إِذَا حَلَّ ـ وَدَّ الْقَلْبُ لَوْ كَانَ مَدْمَعَا

لَقَدْ أَجْهَشَ الْإِخْلَاصُ بِالْأَمْسِ بَاكِيًا   عَلَيْكِ ، كَمَا حَنَّ الْيَقِينُ فَرَجَّعَا

***

وَدُنْيَا وَجَدْنَا الْعَيْشَ فِى غَفَلَاتِهَا   طَرِيقًا ـ إِلَى وِرْدِ الْمَنِيَّةِ ـ مَهْيَعَا (١)

نُعَلَّلُ فِيهَا بِالْمُنَى فَتَغُرُّنَا   بَوَارِقُ لَيْسَ الْآلُ مِنْهَا بِأَخْدَعَا (٢)

***

أُصِبْنَا بِمَا لَوْ أَنَّ هَضْبَ مَتَالِعٍ   أُصِيبَ بِهِ لَانْهَدَّ أَوْ لَتَضَعْضَعَا

مَنَارٌ ـ مِنَ الْإِيمَانِ ـ لَمْ يَعْدُ أَنْ هَوَى ،   وَحَبْلٌ ـ مِنَ التَّقْوَى ـ وَهَى فَتَقَطَّعَا

وَشَمْسُ هُدًى أَمْسَى لَهَا التُّرْبُ مَغْرِبًا   وَكَانَ لَهَا الْمِحْرَابُ ـ فِى الْخِدْرِ ـ مَطْلَعَا (٣)

***

لَئِنْ أُتْبِعَتْ مِنَّا غَمَامَةَ رَحْمَةٍ   لَقَدْ ظَلَّلَتْ ذَاكَ السَّرِيرَ الْمُرَفَّعَا

---

(١) المهيع : الطريق الواسع الواضح البين .

(٢) الآل : السراب ، يقول إن الأمانى تغرنا وتخدعنا كما يخدع السراب . ولله درّ مهيار إذ يقول :

« شد ماسى غرورا بعسه   تاجر الآمال فى أن يربحا . »

وقوله : « وربما يغمر بالظن الكذوب . » ، وفى هذا المعنى يقول ابن نباته السعدى :

« وأقسم ما الدنيا بدار إقامة   ولا هى إلا مثل بعض المنازل

نسير إلى الآجال حول رحابها   ونطوى بها الأيام طى المراحل . »

(٣) يقول : إنها شمس أشرقت فى خدرها ثم غربت فى قبرها

سَرِيرٌ بِأَمْلاَكٍ وَزُهْرِ مَلاَئِكٍ ... - إِلَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ - رَاحَ مُشَيَّعَا
لِتَبْكِ الْأَيَامَى وَالْيَتَامَى فَقِيـــدَةً ... هِيَ الْمُزْنُ أَحْيَا صَوْبُهُ ثُمَّ أَقْشَعَا
أَضَلَّهُـــمُ فِقْدَانُهَا ، فَـكَأَنَّمَا ... أَضَلَّتْ سَوَامُ الْوَحْشِ فِي الْجَدْبِ مَرْتَعَا
مُسَـــبِّحَةَ الْآنَاءِ ، قَانِتَةَ الضُّحَى ... ثَوَتْ فَثَوَى مَغْــنَى التَّأَوُّهِ بَلْقَعَا
تَبِيتُ مَعَ الْإِخْبَاتِ [١] مُسْعَرَةَ الْحَشَا ... تَقِيَّةَ مَنْ يَخْشَى إِلَى اللهِ مَرْجِعَا
إِذَا مَا هِيَ اسْتَوْفَتْ مِنَ الْبِرِّ غَايَةً ... تَأَنَّتْ لِأُخْرَى لاَ تَرَى تِلْكَ مَقْنَعَا
كَأَنَّ قَضَاءَ الْوَاجِبَاتِ مُحَـــرَّجٌ ... تَقَبُّلُهُ إِلاَّ بِأَنْ تَتَطَوَّعَا [٢]

⁂

أَصَرْفَ الرَّدَى ! لَوْ أَنَّ لِلسَّيْفِ مَضْرَبًا ... لَمَا رُعْتَنَا ، أَوْ أَنَّ فِي الْقَوْسِ مَنْزَعَا
فَلَوْ كُنْتَ - إِذْ سَاوَرْتَ - رَامَ مُجَاهِرٌ ... ذِمَارَ الْهُدَى كَانَ الْمَحُوطَ الْمُمَنَّعَا
إِذَا لَثَنَاهُ الْجَيْشُ مِنْ كُلِّ أَلْيَسٍ [٣] ... يُشَايِـــعُ قَلْبًا فِي الْحِفَاظِ مُشَيَّعَا
« وَمُعْتَضِدٌ بِاللهِ » يَحْمِي ذِمَارَهُ ... فَلاَ سِرْبَ يُلْفَى - فِي حِمَاهُ - مُرَوَّعَا
وَلَـكِنْ عَرَرْتَ الْمُلْكَ - مِنْ حَيْثُ لاَ يُرَى - ... فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِلْحَادِثِ الْحَتْمِ مَدْفَعَا [٤]

---

(١) الاخبات : التقوى والخشـوع والقنوت ، يقول : هى البقية الباقية من النساء الصالحات تبيت من خشية الله مصلية داعية مسعرة الحشا خوفاً من لقاء الله ، ودرقا من هول يوم المرجع والمآب .

(٢) يقول : أنها لحرصها على التطوّع وضم النوافل إلى الفرائض كأنها لتعتقد أن فى أداء الفرائض وحدها غير مشـفوعة بالتطوع حرجاً وإنما لايحمل عادتها متقبلة وعملها مثاباً عليـه إلا أن تتطوّع ، وهى لذلك تبيت ليلها قائمة متهجدة .

(٣) الأليس : الشجاع الذى لايبالى الحرب ولا يروعه القتال والجمع ليس ، قال الشاعر :

« تخال نديهم مرضى حياء وتلقاهم غداة الروع ليسا . »

(٤) عررت : وطئت ونزلت ، على غير هدى وعلم وبلا تمييز ، وهو من قول الله عزّ وجلّ : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم . » ، وقال عمر رضى الله عنه : « اللهمّ إنى أعوذ بك من معرة الجيش » تبرأ رضى الله عنه من وطأة جيش المسلمين من مروا به بلا تمييز بين مسلم ومعاهد وكافر وإصابتهم إياهم فى حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيـه من قبل الشرع . يقول : لوكان صرف الدهر شخصاً يواجه مجاهرة لصد عن غرضه ولثناه المعتضد الشجاع وجيشه الباسل ولـكن صرف الدهر يأتى على غرة فلا يستطيع أحد أن يواجهه ويدفع غائلته ، ولله در القائل :

يَغِيظُ الْعِتَاقَ الْجُرْدَ أَلاَّ تَرَى لَهَا　　مَجَالاً ، فَتَعْدُو فِي الْمَرَابِطِ خُشَّمَا
وَتَأْسَفُ بِيضُ الْهِنْدِ أَنْ لَيْسَ تَنْتَضِي،　　وَسُمْـــرُ الْقَنَا أَلاَّ تُهَزَّ وَتُشْرَعَا

* * *

لَئِنْ سَاءَكَ الدَّهْرُ الْمُسِيءُ فَلَمْ يَكُنْ　　بِأَوَّلِ عَهْدٍ وَاجِبِ الْحِفْظِ ضَـيَّعَا
شَهِدْنَا : لَقَـدْ طَرَّزْتَ بُرْدَ جَمَالِهِ　　وَقَلَّدْتَهُ عِقْدَ الْبَهَاءِ مُرَصَّـعَا
وَمَا فَخْـرُهُ إِلاَّ بِأَنْ كَانَ مُصْغِياً　　لِأَمْرِكَ ، إِنْ نَادَيْتَ لَبَّى فَأَسْرَعَا
أَتَى الْعَثْرَةَ الْعُظْمَى ، فَهَلْ أَنْتَ قَائِلٌ　　لَهُ حِينَ أَشْفَى مِنْ كَآبَتِهِ : «لَعَا» ؟(١)
وَهَا هُوَ مُنْقَادٌ لِحُكْمِكَ ، فَاحْتَكِمْ　　لِتَبْلُغَ مَا تَهْوَى ، وَمُرْهُ لِيَصْدَعَا
لَعَمْرُ الَّتِي وَدَّعْتَ أَمْسِ ـ مُفَارِقاً ـ　　لَقَدْ وَرَدَتْ حَوْضَ السَّعَادَةِ مَشْرَعَا(٢)
تَمَنَّتْ وَفَاةً ـ فِي حَيَاتِكَ ـ بَعْدَ مَا　　حَشَدْتَ لَهَا الْآمَالَ : مَرْأًى، وَمَسْمَعَا
فَوَفَّيْتَهَا مَا لَمْ يَدَعْ لِضَـمِيرِهَا　　إِلَى غَايَةٍ مِـنْ بَعْـدِهِ مُتَطَلَّعَا
خَفَضْتَ جَنَاحَ الذُّلِّ فِي الْعِزِّ رَحْمَةً　　لَهَا ، وَعَزِيزٌ أَنْ تَذِلَّ وَتَخْضَعَا(٣)
تَرُوحُ أَمِيراً فِي الْبِلَادِ مُحَكَّماً　　وَتَغْدُو شَفِيعاً فِي الذُّنُوبِ مُشَفَّعَا
عَزَاءً فَدَتْكَ النَّفْسُ ، عَزْمَ مُسَـلِّمٍ　　لِمُرْتَفِعِ أَمْرٍ لَمْ يَزَلْ مُتَوَقَّعَا

« اليوم يبنى لدويد بيته　　يا رب وحه حسن رأيته
ومعصم ـ ذى برة ـ لويته　　لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرنى واحدا كفيته . »

(١) أشفى : من قولهم أشفى على الهلاك وأشفى على الموت إذا أشرف عليه ، والكآبة : الحزن ، ولعا : كلمة تقال للعاثر وهى فى الانبات دعاء له ، وإذا قيل : لا لعا للعاثر ، فمعناه لا أقال الله عثرته ، يقول : لقد أساء إليك الدهر فى هذا الحدث فهل أنت صافح عنه ومقيله من عثرته .

(٢) المشرع : كالمشرعة والشريعة المكان الذى ينحدر منه الناس والدواب إلى الماء لوروده .

(٣) يشير إلى قوله تعالى فى بر الوالدين :
« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »

مَــتَى ظَنَّتِ الْأَيَّامُ أَنَّكَ جَزِعٌ ... أَوِ اُسْتَشْعَرَتْ فى فَلِّ صَبْرِكَ مَطْمَعَا

فَمَا ازْبَدَّ وَجْهُ الخَطْبِ إِلاَّ لَقِيتَهُ ... بِصَفْحَةِ طَلْقِ الْوَجْهِ أَبْلَجَ أَرْوَعَا

وَمَا كُنْتَ أَهْلاً أَنْ يُصِيبَكَ حَادِثٌ ... فَتُصْبِحَ عَنْهُ مُقْصَدَ الْقَلْبِ مُوجَعَا

فَلَوْلاَكَ لَمْ يَسْمَحْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ ... وَلاَ اهْتَزَّ أَعْطَافاً ، وَلاَ لاَنَ أَخْدَعَا

فَأَنْتَ الَّذِى لَمْ يَنْتَقِمْ غِبَّ قُدْرَةٍ ... وَلَمْ يُؤْثِرِ المَعْرُوفَ إِلاَّ لِيَشْــفَعَا

مَتَى تُسْدِ نُعْمَى — قِيلَ أَنْعَمَ مِثْلَهَا — ... يُقَلْ جَلَلٌ حَتَّى إِذَا قِيلَ أَبْدَعَا (١)

وَإِنْ يَسَلِ الْعَافُونَ جَدْوَاكَ يُعْطِهِمْ ... جَــوَادٌ إِذَا لَمْ يَسْأَلُوهُ تَبَرَّعَا

وَيُغْرَى بِتَوْكِيدِ الإِسَاءَةِ مُذْنِبٌ ... فَيَلْفَاكَ بِالْإِحْسَانِ أَغْرَى وَأَوْلَعَا (٢)

خَلاَئِقُ تُمْهَاةُ الْفِرِنْدِ كَأَنَّهَــا ... حَدَائِقُ رَوْضِ الحَزْنِ جِيدَ فَأَيْنَعَا

تُنَافِحُهَا مِنْهَا أَحَادِيثُ سُــودَدٍ ... تَخَالُ فَتِيتَ الْمِسْكِ عَنْهَا تَضَوَّعَا

تَغَلْغَلُ فِى الآفَاقِ أَسْرَى مِنَ الصَّبَا ... وَأَشْهَرَ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ وَأَسْرَعَا

فَلَوْ صَرَفَتْ صَرْفَ الْمَنُونِ جَلاَلَةٌ ... لَـكُنْتَ مُحَيًّا مَنْ تَوَدُّ مُمَتَّعَا

فَلاَ زِلْتَ مَمْنُوعَ الْحِمَى مُسْعَفَ الْمُنَى ... إِذَا كَانَ شَانِيكَ الْمُصَابَ الْمُفَجَّعَا (٣)

وَدُمْتَ مُلَقَّى أَنْجُمِ السَّــعْدِ بَاقِياً ... لِدِينٍ وَدُنْيَا أَنْتَ فَخْــرُهُمَا مَعَا

---

(١) يقول كلما أسديت جميلا قال الناس : كم لهذا الجميل من أشباه ونظائر فهو — على عظمه — تافه عندهم لكثرة ما ألفوه من صنائعك ، ولو أبدعت لم يستغرق انظارهم إبداعك لطول ما ألفوا من روائعك وبدائعك .

(٢) يقول : ان المسيء يطمعه عفوك عن زلته فهو إذا أولع بتوكيد إساءته وجدك أشدّ ولوعا بتوكيد إحسانك وعفوك عنه .

(٣) يقول : لا زال الزمن يعزّ من حماك ويسعفك بأمانيك على حين يصيب عدوك ويفجعه فيما يحب

قل للبغاة

« وقال ذو الوزارتين رحمه الله »

الدَّهْرُ - إنْ أَمْــلَى - فَصِيحٌ أَعْجَمُ ... يُعْطِى اعْتِبَارِى مَا جَهِلتُ فَأَعْلَمُ (١)

إنَّ الَّذِى قَدَرَ الحَوَادِثَ قَدْرَهَا ... سَاوَى لَدَيْهِ الشَّهْدَ مِنْهَا الْعَلْقَمُ (٢)

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَلاَ اغْتِرَابٌ يَقْتَضِى ... كَدَرَ الْمَآلِ وَلاَ تَوَقٍّ يَعْصِمُ

كَمْ قَاعِدٍ يَحْظَى فَتُعْجِبُ حَالُهُ ... مِنْ جَاهِدٍ يَصِلُ الدُّءُوبَ فَيُحْرَمُ

وَأَرَى الْمَسَاعِىَ كَالسُّيُوفِ تَبَادَرَتْ ... شَــأْوَ الْمَضَاءِ فَمُنْثَنٍ وَمُصَمِّمُ

وَلَكَمْ تَسَامَى بِالرَّفِيعِ نِصَابُهُ ... خَطَرٌ فَنَاصَبَهُ الْوَضِيعُ الأَلأَمُ (٣)

وَأَشَدُّ فَاجِعَةِ الدَّوَاهِى مُحْسِنٌ ... يَسْعَى لِيُعْلِقَهُ الْجَرِيمَةَ مُجْرِمُ (٤)

تَلْقَى الْحَسُودَ أَصَمَّ عَنْ جَرْسِ الْوَفَا ... وَلَقَدْ يُصِيخُ - إِلَى الرُّقَاةِ - الأَرْقَمُ (٥)

* * *

قُلْ لِلْبُغَاةِ الْمُبْغِضِينَ قِسِــيَّهُمْ ... سَتَرَوْنَ مَنْ تُصْمِيهِ تِلْكَ الأَسْهُمُ

أَسْرَرْتُمُ فَرَأَى نَجِيَّ عُيُوبِكُمْ ... شَيْحَانُ مَدْلُولٌ عَلَيْهَا مُلْهَمُ

---

(١) يقول إن الدهر إن أملى ملسان الحوادث الفصيح الأعجم يكسب اعتبارى وقياسى الحوادث والعبر بعضها ببعض علم ماجهلت .   (٢) إن الذى قاس الحوادث بمقياس صحيح استوى لديه حلو الحياة ومرها .

(٣) وكثيرا ما يتسامى بالذى ارتفع منصبه خطره وشرفه فيناصبه العداء وضيع لئيم حسدا منه وبغيا .

(٤) وأشد مايفجع الانسان من الدواهى محسن يسعى مجرم ليلصق به إساءة وجريمة .

(٥) يصيخ مضارع أصاخ له استمع ، والرقاة جمع راق من الرقية وهى ماينفث فيه من العوذ ، والأرقم ذكر الحيات وهو أخبثها وأطلبها للناس ، أو هو مافيه بياض وسواد ، يقول : إن الحسود أصم عن سماع صوت الوفاء فى حين أن الأرقم وهو أخبث الحيات وأشدها عداوة للناس يصيخ بسمعه للراقى الذى يتلو وينفث فى العوذ ، وفى الأصل «ولقد يصيخ إلى الرقاة الأرقم»

وَعَبَأْتُمُ لِلْفِسْقِ ظُفْرَ سِعَايَةٍ ... لَمْ يَعْدُكُمْ أَنْ رُدَّ وَهْوَ مُقَلَّمُ

وَنَبَذْتُمُ التَّقْوَى وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ... فَغَدَا بَغِيضَكُمُ التَّقِيُّ الْأَكْرَمُ

مَا كَانَ حِلْمُ « مُحَمَّدٍ » لِيُحِيلَهُ ... عَنْ عَهْدِهِ دَغَلُ الضَّمِيرِ[1] مُذَمَّمُ

مَلِكٌ تَطَلَّعَ لِلنَّوَاظِرِ غُرَّةً ... زَهْرَاءَ يُبْدِيهَا الزَّمَانُ الْأَدْهَمُ

يَغْشَى النَّوَاظِرَ مِنْ جَهِيرِ رُوَائِهِ ... خَلْقٌ ـ يُرَى مِلْءَ الصُّدُورِ ـ مُطَهَّمُ[2]

وَسَنَا جَبِينٍ يَسْتَطِيرُ شُعَاعُهُ ... يُغْنِي ـ عَنِ الْقَمَرَيْنِ ـ مَنْ يَتَوَسَّمُ[3]

صَلْتٌ تَوَدُّ الشَّمْسُ لَوْ صِيغَتْ لَهُ ... تَاجًا تُرَصِّعُ جَانِبَيْهِ الْأَنْجُمُ[4]

فَضَحَتْ مَحَاسِنُهُ الرِّيَاضَ بَكَى الْحَيَا ... ـ وَهْنًا عَلَيْهَا ـ فَاغْتَدَتْ تَتَبَسَّمُ

بِالْقَدْرِ يَبْعُدُ وَالتَّوَاضُعِ يَدْنُ ... وَالشَّرُّ يَشْمُسُ وَالنَّدَى يَتَغَيَّمُ[5]

جَذْلَانُ ـ فِي يَوْمِ الْوَغَى ـ مُتَطَلِّقٌ ... وَجْهًا إِلَيْهَا وَالرَّدَى مُتَجَهِّمُ[6]

بَأْسٌ ـ كَمَا صَالَ الْهِزَبْرُ ـ إِزَاءَهُ ... جُودٌ كَمَا جَاشَ الْخِضَمُّ الْخِضْرِمُ[7]

---

(١) سميره حقد مكتم . (٢) الرواء : الحسن ، وحلق مطهم : تام بارع الجمال .

(٣) يستطير : ينتشر ، من القمرين : الشمس والقمر ، والذى أجاز التثنية مع اختلاف لفظ المفرد التغليب كما هو معروف فى كتب النحو ، ويتوسم : ينظر إلى وسامة ذلك الجبين المضىء وحسنه .

(٤) الصلت : صفة الجبين ومعناه الواضح البارز المستوى ، أى تود الشمس لو أنها صيغت تاجا مرصعاً بلآلئ النجوم ، ووضعت فوق جبين الممدوح : (٥) فى الأصل :

« بالقدر يبعد والتواضع يدنى والبشر شمس والندى يتغيم. »

والذى أثبتناه هنا هو مايعطيه المعنى .

(٦) يقول : أنه يرى يوم الحرب جذلان فرحا طلق الوجه باشاً إلى الحرب والردى متجهم عابس الوجه كريه المنظر ، وفى الأصل : « والروا متجهم »

(٧) البحر الغطمطم العظيم .

❁

نَفْسِي فِدَاؤُكَ أَيُّهَا المَلِكُ الذِي ... كُلُّ المُلُوكِ لَهُ العَلَاءَ تُسَلِّمُ

سُدْتَ الجَمِيعَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ مُنْكِرٌ ... أَنْ صِرْتَ فَذَّهُمُ الَّذِي لَا يُتْأَمُ (١)

لَا غَرْوَ أُمُّ المَجْدِ فِي بِكْرِ الحِجَا ... مِنْ أَنْ يُضَافَ إِلَيْكَ صِنْوٌ أَعْقَمُ (٢)

فَاحْسِمْ دَوَاعِيَ كُلِّ شَرٍّ دُونَهُ ... فَالدَّاءُ يَسْرِي إِنْ عَدَا لَا يُحْسَمُ

كَمْ سِقْطُ زَنْدٍ قَدْ نَمَا حَتَّى غَدَا ... بُرْكَانَ نَارٍ كُلُّ شَيْءٍ تَحْطِمُ

وَكَذَلِكَ السَّيْلُ الجُحَافُ فَإِنَّمَا ... أُولَاهُ طَلٌّ ثُمَّ وَبْلٌ يَثْجُمُ (٣)

وَالمَالُ يُخْرِجُ أَهْلَهُ عَنْ حَدِّهِمْ ... وَافْهَمْ فَإِنَّكَ بِالبَوَاطِنِ أَفْهَمُ

وَاذْكُرْ صَنِيعَ أَبِيكَ أَوَّلَ أَمْرِهِ ... فِي كُلِّ مُتَّهَمٍ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ

لَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّعَ شَرَّهُ ... فَصَفَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَلَذَّ المَطْعَمُ

فَعَلَامَ تَنْكُلُ عَنْ صَنِيعٍ مِثْلِهِ ... وَلَأَنْتَ أَمْضَى فِي الخُطُوبِ وَأَشْهَمُ

وَجَنَابُكَ المَتْنُ الذِي لَا يَنْثَنِي ... وَحُسَامُكَ العَضْبُ الذِي لَا يَكْهَمُ

وَالحَالُ أَوْسَعُ وَالمَوَالِي جَمَّةٌ ... وَالمَجْدُ أَشْمَخُ وَالصَّرِيمَةُ أَصْرَمُ (٤)

❁

لَا تَتْرُكَنَّ لِلنَّاسِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ ... وَاحْزِمْ، فَمِثْلُكَ فِي العَظَائِمِ أَحْزَمُ

قَدْ قَالَ شَاعِرُ كِنْدَةٍ فِيمَا مَضَى ... بَيْتًا عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي يُعْلَمُ

---

(١) الذى لايكون له توءم ونظير من الملوك .

(٢) لاغرو فان أم المجد عقيم فى بكرها الموسوم بالحجا والعقل قد يئست من أن تضيف إليه صنوا .

(٣) الجحاف : كعراب الذى يذهب بكل شىء .

(٤) الصريمة : العزيمة وأصرم أى أقطع ، وفى الأصل : « والصريمة ضيغم . »

« لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى   حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ[١] »

***

فِرَقٌ عَوَتْ ، فَزَأَرْتَ زَأْرَةَ زَاجِرٍ   رَاعَ الكُلَيْبَ بِهَا السَّبَنْتَى الضَّيْغَمُ[٢]

يَا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ يَعُودُ سَفِيهُهُمْ   أَمْ قَدْ حَمَاهُ النَّبْحُ ذَاكَ المُكْعَمُ ؟

لِى مِنْكَ فَلْيَذُبِ الحَسُودُ تَلَظِّيًا   لُطْفُ المَكَانَةِ وَالمَحَلُّ الأَكْرَمُ

وَشُفُوفُ حَظٍّ لَيْسَ يَفْتَأُ يُجْتَلَى   غَضَّ الشَّبَابِ وَكُلُّ حَظٍّ يَهْرَمُ

لَمْ تُلْفَ صَاغِيَتِى[٣] لَدَيْكَ مُضَاعَةً   كَلَّا وَلَا خَفِىَ اصْطِنَاعِى الأَقْدَمُ

بَلْ أَوْسَعَتْ حِفْظًا وَصِدْقَ رِعَايَةٍ   ذِمَمٌ مُوَثَّقَةُ العُرَا لَا تُفْصَمُ

فَلْيَخْرِقَنَّ الأَرْضَ شُكْرٌ مُنْجِدٌ   مِنِّى تَنَاقَلُهُ المَحَافِلُ مُتْهِمُ

عَطِرٌ ـ هُوَ المِسْكُ السَّطُوعُ ـ يَطِيبُ فِى   شَمِّ العُقُولِ أَرِيجُهُ المُتَنَسَّمُ

وَإِذَا غُصُونُ المَكْرُمَاتِ تَهَدَّلَتْ   كَانَ الثَّنَاءُ هَدِيلَهَا المُتَرَنِّمُ

الفَخْرُ ثَغْرٌ ـ عَنْ حِفَاظِكَ ـ بَاسِمٌ   وَالمَجْدُ بُرْدٌ ـ مِنْ وَفَائِكَ ـ مُعْلَمُ

فَاسْلَمْ مَدَى الدُّنْيَا فَأَنْتَ جَمَالُهَا   وَتَسَوَّغِ النُّعْمَى فَإِنَّكَ مُنْعِمُ

---

(١) هذا البيت لـ تنلى وقد اقتبسه ابن زيدون فى هذه القصيدة .

(٢) السبنتى والضيغم من أسماء الأسد .

(٣) صاغية الرجل خاصته : الذين يغشون مجلسه

موشح

ذكرى قرطبة

سَقَى اللّٰهُ أَطْلَالَ الأَحِبَّةِ بِالْحِمَى
وَحَاكَ عَلَيْهَا ثَوْبَ وَشْيٍ مُنَمْنَمَا
وَأَطْلَعَ فِيهَا لِلأَزَاهِيرِ أَنْجُمَا
فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الخَرَائِدُ كَالدُّمَى[1] إِذِ العَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غُلَامُ

* * *

أَهِيمُ بِجَبَّارٍ يَعِزُّ وَأَخْضَعُ[2]
شَذَا المِسْكِ - مِنْ أَرْدَانِهِ - يَتَضَوَّعُ
إِذَا جِئْتُ أَشْكُوهُ الجَوَى - لَيْسَ يَسْمَعُ
فَمَا أَنَا - فِي شَيْءٍ مِنَ الوَصْلِ - أَطْمَعُ وَلَا أَنْ يَزُورَ المُقْلَتَيْنِ مَنَامُ

* * *

قَضِيبٌ - مِنَ الرَّيْحَانِ - أَثْمَرَ بِالْبَدْرِ
لَوَاحِظُ عَيْنَيْهِ مُلِئْنَ مِنَ السِّحْرِ
وَدِيبَاجُ خَدَّيْهِ حَكَى رَوْنَقَ الخَمْرِ
وَأَلْفَاظُهُ - فِي النُّطْقِ - كَاللُّؤْلُؤِ النَّثْرِ وَرِيقَتُهُ - فِي الارْتِشَافِ - مُدَامُ

---

(١) رفل : جر ذيله وتبختر ، قال الشاعر : «يرفل فى سرق الحرير وقزه» الخرائد - جمع خريدة - وهى المرأة الحيية ، وهى أيضاً اللؤلؤة التى لم تثقب ، قالوا : وكل عذراء خريدة ، والدمى - جمع دمية - وهى الصورة المنقشة المزينة فيها حمرة كالدم ، وقيل : هى من الرخام ، وقيل : هى من العاج ، وهى تضرب مثلا فى الحسن ، يقال «أحسن من الدمية»

(٢) قال الشريف :

«لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعى .»

سَقَى جَنَبَاتِ الْقَصْرِ صَوْبُ الْغَمَائِمِ
وَغَنَّى عَلَى الْأَغْصَانِ وُرْقُ الْحَمَائِمِ
« بِقُرْطُبَةَ » الْغَرَّاءِ دَارِ الْأَكَارِمِ
بِلَادٌ بِهَا شَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي (1)   وَأَنْجَبَنِي قَوْمٌ ـ هُنَاكَ ـ كِرَامُ

*

فَكَمْ لِيَ فِيهَا مِنْ مَسَاءٍ وَإِصْبَاحِ
بِكُلِّ غَزَالٍ مُشْرِقِ الْوَجْهِ وَضَّاحِ
يُفَدِّمُ (2) أَفْوَاهَ الْكُؤُوسِ بِتُفَّاحِ
إِذَا طَلَعَتْ ـ فِي رَاحِهِ ـ أَنْجُمُ الرَّاحِ   فَإِنَّا ـ لِإِعْظَامِ الْمُدَامِ ـ قِيَامُ

*

وَيَوْمٍ لَدَى « النَّبْتِيِّ » فِي شَاطِئِ النَّهْرِ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي فِتْيَةٍ زُهْرِ (3)
وَلَيْسَ لَنَا فَرْشٌ سِوَى يَانِعِ الزَّهْرِ
يَدُورُ بِهَا عَذْبُ اللَّمَا أَهْيَفُ الْخَصْرِ   بِفِيهِ ـ مِنَ الثَّغْرِ الشَّنِيبِ ـ نِظَامُ (4)

---

(1) التمائم ـ جمع تميمة ـ وهى عوذة تعلق على الأطفال مخافة العين ، ومنه قول القائل : « من علق تميمة فلا أتم الله له » وقول الشاعر :

« وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع . »

(2) فدّم فم الآنية وأفدمها جعل عليها الفدام أى الغطاء .

(3) زهر : مشرق الوجوه ، وقريب من هذا ـ فى باب الخمريات ـ قول أبى نواس :

« ودار ندامى عطلوها وأدلجوا   بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى   وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صحبي فجددت عهدهم   وإنى على أمثال تلك لحابس
ولم أدر منهم غير ما شهدت به   ـ بشرقى ساباط ـ الديار البسابس
أقمنا بها يوما ويوما وثالثا   ويوما له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح فى عسجدية   حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها   مها تدريها بالقسى الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها   وللماء ما دارت عليه القلانس » .

(4) الشنيب ـ من الشنب ـ وهو رقة أو هو عذوبة فى الأسنان ، وقيل نقط بيض فيها .

وَيَوْمٍ «بِجُوفِ الرُّصَافَةِ» مُبْهِجِ

مَرَرْنَا بِرَوْضِ الْأُقْحُوَانِ الْمُدَبَّجِ

وَقَابَلَنَا فِيــهِ نَسِيمُ الْبَنَفْسَجِ

وَلَاحَ لَنَا وَرْدٌ[1] كَخَدٍّ مُضَرَّجٍ   نَرَاهُ أَمَامَ النَّوْرِ وَهْوَ إِمَامُ

⁂

وَأَكْرِمْ بِأَيَّامِ «الْعُقَابِ» السَّوَالِفِ[2]

وَلَهْوٍ أَثَرْنَاهُ بِتِلْكَ الْمَعَاطِفِ

بِسُودِ أَثِيثِ الشَّعْرِ بِيضِ السَّوَالِفِ

إِذَا رَفَلُوا فِي وَشْيِ تِلْكَ الْمَطَارِفِ[3]   فَلَيْسَ — عَلَى خَلْعِ الْعِذَارِ — مَلَامُ

⁂

وَكَمْ مَشْهَدٍ عِنْدَ «الْعَقِيقِ» وَجِسْرِهِ

قَعَدْنَا عَلَى حُمْرِ النَّبَاتِ وَصُــفْرِهِ

وَظَــبْيٍ يُسَقِّينَا سُــلَافَةَ خَمْرِهِ

حَكَى جَسَدِي — فِي السُّقْمِ — رِقَّةَ خَصْرِهِ   لَوَاحِظُهُ — عِنْدَ الرُّنُوِّ — سِهَامُ

⁂

فَقُلْ لِزَمَانٍ قَدْ تَوَلَّى نَعِيمُهُ

وَرَثَّتْ — عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي — رُسُومُهُ

وَكَمْ رَقَّ فِيــهِ — بِالْعَشِيِّ — نَسِيمُهُ

وَلَاحَتْ لِسَارِي اللَّيْلِ فِيهِ نُجُومُهُ:   «عَلَيْكَ مِنَ الصَّبِّ الْمَشُوقِ سَلَامُ»

---

(١) فى الأصل : «مجد»

(٢) السوالف — جمع سالفة — وهى صفحة العنق ، وقيل : ناحية مقدمهامن لدن معلق القرط إلى الترقوة. وقد تقدم فى ص (٥٤) وما يليها شرح أمكنة ومعاهد بقرطبة منها (جوف الرصافة) و(العقاب) فارجع إليها إن شئت .   (٣) المطارف — جمع مطرف — وهو رداء من خز مربع ذو أعلام .

ســــلوى المضطر

لَئِنْ قَصَّرَ الْيَأْسُ مِنْكِ الْأَمَلْ ... وَحَالَ تَجَنِّيــكِ دُونَ الْحِيَلْ

وَنَاجَاكِ ـ بِالْإِفْكِ ـ فِيَّ الْحَسُودُ ... فَأَعْطَيْتِهِ ـ جَهْرَةً ـ مَا سَأَلْ

وَرَاقَكِ سِحْرُ الْعِدَا الْمُفْتَرَى ... وَغَرَّكِ زُورُهُمُ الْمُفْتَعَلْ

وَأَقْبَلْتِهِمْ فِيَّ وَجْــهَ الْقَبُولِ ... وَقَابَلَهُــمْ بِشْرُكِ الْمُقْتَبَلْ

فَإِنَّ ذِمَامَ الْهَوَى لَمْ أَزَلْ ... أُبَقِّيهِ[1] حِفْظاً كَمَا لَمْ أَزَلْ

***

فَدَيْتُكِ ـ إِنْ تَعْجَلِي ـ بِالْجَفَا ... فَقَدْ يَهَبُ الرَّيْثَ بَعْضُ الْعَجَلْ[2]

عَلَامَ أَطَبَّتْكِ[3] دَوَاعِي الْقِلَى ؟ ... وَفِيمَ ثَنَتْكِ نَوَاهِي الْعَذَلْ ؟

أَلَمْ أَلْزَمِ الصَّبْرَ كَيْمَا أَخِفَّ ؟ ... أَلَمْ أُكْثِرِ الْهَجْرَ كَيْ لَا أُمَلْ

أَلَمْ أَرْضَ مِنْكِ بِغَيْرِ الرِّضَى ... وَأُبْدِي السُّرُورَ بِمَا لَمْ أَنَلْ ؟

أَلَمْ أَغْتَفِرْ مُوبِقَاتِ الذُّنُو ... بِ عَمْداً أَتَيْتِ بِهَا أَمْ زَلَلْ ؟

---

(١) فى الأصل : « أبكيه »

(٢) فى هذا تضمين للمثل المشهور : « رب عجلة تهب ريثا » ، قالوا : وأصل المثل فيما حكاه المفضل الضبي أن مالك بن عوف بن أبى عمرو بن عوف بن محلم شام غيما فأراد أن يرحل بامرأته حاجة بنت عوف بن أبى عمرو ، فقال له مالك : أين تظعن يا أخى ؟ قال : أطلب موقع هــذه السحابة ، قال : لا تفعل فانه ربما خيلت وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك ، قال : لــكنى لست أخاف نفسى ، وعرض له عبسى فأعجله عن امرأته وجعلها بين نسائه ولم يكشف لها سترا ، فقال مالك بن سنان : مادملت أحق ، قال : مفتى عنها الرماح فقال مالك : رب عجلة تهب ريثا ، وفروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا .

(٣) اطبتك : أعجبتك وراقتك . قال ابن دريد :

« ولا اطبي عينى ـــ مذ فارقتهم ـــ • شىء يروق العين من هذا الورى

وَمَا ساءَ ظَـــنِّيَ فِي أَنْ يُسِيءَ   بِيَ الفِعْلَ حُسْنُكِ حَتَّى فَعَلْ
عَلَى حِينِ أَصْبَحْتِ حَسْبَ الضَّمِيرِ   وَلَمْ تَبْغِ مِنْكِ الْأَمَانِي بَدَلْ
وَصَانَكِ مِـــنِّي وَفِيٌّ أَبِيٌّ   لِعِلْقِ الْعَلَاقَةِ أَنْ يُبْتَذَلْ

***

سَعَيْتِ لِتَكْدِيرِ عَهْدٍ صَفَا ،   وَحَاوَلْتِ نَقْصَ وِدَادٍ كَمَلْ
فَمَا عُوفِيَتْ مِقَتِي [1] مِنْ أَذَى   وَلَا أُعْفِيَتْ ثِقَتِي مِنْ خَجَلْ
وَمَهْمَا هَزَزْتُ إِلَيْكِ الْعِتَا   بَ ظَاهَرْتِ بَيْنَ ضُرُوبِ الْعِلَلْ
كَأَنَّكِ نَاظَرْتِ أَهْلَ الْكَلَامِ   وَأُوتِيتِ فَهْمًا بِعِلْمِ الْجَدَلْ
وَلَوْ شِئْتِ رَاجَعْتِ حُرَّ الْفَعَالِ   وَعُدْتِ لِتِلْكَ السَّجَايَا الْأُوَلْ
فَلَمْ يَكُ حَظِّيَ مِنْكِ الْأَخَسَّ   وَلَا عُدَّ سَهْمِيَ فِيكِ الْأَقَلّ

***

عَلَيْكِ السَّلَامُ سَلَامَ الْوَدَاعِ   وَدَاعَ هَوًى مَاتَ قَبْلَ الْأَجَلْ
وَمَا بِاخْتِيَارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكِ ،   وَلٰكِنَّنِي : مُكْرَهٌ لَا بَطَلْ [2]
وَلَمْ يَدْرِ قَلْبِيَ كَيْفَ النُّزُوعُ   إِلَى أَنْ رَأَى سِيرَةً فَامْتَثَلْ
وَلَيْتَ الَّذِي قَادَ عَفْوًا إِلَيْكِ   أَبِيَّ الْهَوَى فِي عِنَانِ الْغَزَلْ
يُحِيـــلُ عُذُوبَةَ ذَاكَ اللَّمَا   وَيَشْفِي مِنَ السُّقْمِ تِلْكَ الْمُقَلْ .

---

(١) مقتى : حبي .

(٢) يقول : إني مرغم على السلو وليس لي فيه اختيار وفي المثل « مكره أخوك لا بطل » يضرب لمن يحمل على ما ليس من شأنه ، ولا هو داخل في حدود استطاعته.

في مدح المعتضـــد

« وقال أيضا يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

لِلْحُبِّ ـ فى تِلْكَ الْقِبَابِ ـ مَرَادُ (١)　　لَوْ ساعَفَ الْكَلِفَ الْمَشُوقَ مُرَادُ

لِيَغُرْ هَوَاكَ فَقَدْ أَجَدَّ حِمَايَةً　　لِفَتَاةِ نَجْــدٍ فِتْيَةٌ أَنْجَادُ (٢)

كَمْ ذَا التَّجَلُّدُ ؟ لَنْ يُسَاعِفَكَ الْهَوَى　　بِالْوَصْلِ إِلاَّ أَنْ يَطُولَ نِجَادُ (٣)

أَعَقِيلَةَ السِّرْبِ ! الْمُبَاحُ لِوِرْدِهَا　　صَفْوُ الْهَوَى إِذْ حُلِّئَ الْوُرَّادُ (٤)

مَا لِلْمَصَايِدِ لَمْ تَنَلْكِ بِحِيلَةٍ ؟　　إِنَّ الظِّبَاءَ لَتُدَّرَى (٥) فَتُصَادُ

إِنْ يَعْدُ ـ عَنْ سَمُرَاتِ جِزْعِكِ ـ سَامِرٌ　　فِى كُلِّ مُطَّلَعٍ لَهُمْ إِرْعَادُ (٦)

---

(١) مكان ارتياد . (٢) ليغر : لينحدر إلى الغور ، والانجاد : جمع نجيد وهو الشجاع ذو النجدة والبأس . (٣) يقول : ما هـذا التجلد والصبر ؟ إنه لن يسعدك الهوى بالوصل ما لم تكن شجاعا طويل النجاد بحيث يهابك الأعداء ، وتستطيع زيارة هذه الحبيبة فى حى قومها رغم رئيرهم ووعيدهم.

(٤) العقيلة : الكريمة من النساء المخدرة ، وحلئ الوراد : منعوا من ورود الهوى صفوا ، أى يا عقيلة بين سرب من النساء مباح لها ورد الهوى صافيا ممنوع غيرها من ورده ، وجواب النداء فى البيت بعده .

(٥) المصايد : بلا همز جمع مصيدة كمعيشة ومعايش ، وتدرى : تفتعل من ادرى الصائد الصيد إذا ختله واحتال له ليصيده ، قال الشاعر :

« وماذا يدرى الشعراء منى　　وقد جاوزت حد الأربعين . »

وقال أبو نواس فى وصف كأس :

« قرارتها « كسرى » وفى جنباتها　　مها تدريها ـ بالقسى ـ الفوارس . »

(٦) سمرات : جمع سمرة (بفتح فضم) ضرب من الشجر . قال امرؤ القيس :

« كأنى غداة البين ـ يوم ترحلوا ـ　　لدى سمرات الحى ناقف حنظل . »

وجزعك : أراد به جزع الوادى أى منقطعه الذى يقطعه عرضا إذا أراد زيارتها ، والسامر : مجلس السمر يقول : إن يعدنى ويمنعنى عن سمرات جزع واديك سمار من قومك لهم فى كل ثنية ومطلع إرعاد وإبراق وزجر وتخويف ، وجواب الشرط فى البيت بعده .

فَبِماَ تَرَقْرَقَ لِلْمُتَيَّمِ بَيْنَهاَ غَلَلٌ شَفَى حَرَّ الْغَلِيلِ بُرَادُ (١)

أَناَ حِينَ أُطْرِقُ لَيْسَ يَفْتَأُ طَارِقِى شَوْقٌ كَماَ طَرَقَ السَّلِيمَ عِدَادُ (٢)

يَنْهَى جَفَاؤُكِ عَنْ زِيَارَتِى الْكَرَى كَيْلاَ يَزُورَ خَيَالُكِ الْمُعْتَادُ

لاَ تَقْطَعِى صِلَةَ الْخَيَالِ تَجَنُّباً إِذْ فِيهِ مِنْ عَوَزِ الْوِصَالِ سِدَادُ (٣)

مَا ضَرَّ أَنَّكِ بِالسَّلاَمِ ضَنِينَةٌ أَيَّامَ طَيْفُكِ بِالْعِنَاقِ جَوَادُ

هَلاَّ حَمَلْتِ السُّقْمَ عَنْ جِسْمٍ لَهُ فِى كُلِّ زَوْرَةٍ عَلَيْكِ فُؤَادُ

أَوْ عُذْتِ مِنْ سَقَمِ الْهَوَى، إِنَّ الْهَوَى مِمَّا يُطِيلُ ضَنَى الْفَتَى فَيُعَادُ

إِيهاً ! فَلَوْلاَ أَنْ أَرُوعَكِ بِالسُّرَى لَدَناَ وِسَادٌ أَوْ لَطَالَ سِوَادُ (٤)

---

(١) ترقرق: تحرك وجاء وذهب كما يرى فى ترقرق السراب والماء وفرند السيف، والضمير فى «بينها» عائد على السمرات، والغلل: الماء الذى يتخلل بين الشجر، والغليل: العطش، والبراد: البارد، يقول: إن يمنعنى قومك من الوصول إليك فمسيل الوادى الذى يتخلل ماؤه بين سمرات الحى ما يشفى غليلى ويبرد غلتى، يريد أن الوصول إلى هذا المكان يطفئ حرارة الشوق عنده، وقد ورد هذا البيت والذى قبله فى الأصل على هذه الصورة:

«إن يمنعن ثمرات حرتك سامر فى كل مطلع لهم إرصاد
فبما ترقرق للمتيم بينها غلل لى جر الغليل براد .»

(٢) السليم: الملدوغ، وعداد السليم: اهتياج الوجع عنده، وذلك إذا تمت له سنة من يوم لدغ هاج به الألم، أو عداده أن تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء، يقول: أنا حين أطرق برأسى مفكرا يطرقنى من ألم الشوق ما يطرق اللديغ هاج به الألم المعاود.

(٣) سداد: بالكسر هو كل شىء سددت به خللا، ومنه سداد القارورة وهو صمامها الذى يسد به رأسها، ويقال: سداد من عوز وسداد من عيش وهو ما تسد به الحاجة.

(٤) الوساد: المخدة والسواد: السرار مصدر ساودها مساودة وسوادا أى سارها مسارة وسرارا فأدنى سواده من سوادها، وقيل لابنة الخس: «لم زنيت وأنت سيدة قومك»؟ فقالت: «قرب الوساد، وطول السواد.» وأرادت بطول السواد كثرة المسارة عند النوم لأن المسارة يلزمها قرب السواد من السواد، أى دنو شخصها من شخصه، وهو مثل يضرب للأمر يلقى صاحبه فيما يكره.

لَغَشِيتُ سَجْفَكَ فِي مُلاَءَةِ نَثْرَةٍ   فُضُلٍ سِوَى أَنَّ الْعِطَافَ نِجَادُ (١)

لِأَمِيلَ فِي سُكْرِ اللَّمَا فَيَبِيتَ لِي   - مِمَّا حَوَى ذَاكَ السِّوَارُ - وِسَادُ

فَمِدِي الْمُنَى، فَوَعِيدُ قَوْمِكِ لَمْ يَكُنْ   لِيَعُوقَ عَنْ أَنْ يُقْتَضَى الْمِيعَادُ

***

أَصْبُو إِلَى وَرْدِ الْخُدُودِ إِذَا عَدَتْ   جُرْدٌ - تُبَلِّغُنِي جَنَاهُ - وِرَادُ

وَأَرَاحُ لِلْعِطْرِ السَّطُوعِ أَرِيجُهُ   إِنْ شِيبَ بِالْجَسَدِ الْعَطِيرِ جِسَادُ (٢)

عَزْمٌ إِذَا قَصَدَ الْحِمَى لَمْ يَثْنِهِ   أَنَّ الْقَنَا - مِنْ دُونِهَا - أَقْصَادُ (٣)

مَنْ كَانَ يَجْهَلُ مَا الْبَلِيدُ، فَإِنَّهُ   مَنْ تَطَّبِيهِ - عَنِ الْحُظُوظِ - بِلاَدُ (٤)

وَفَتَى الشَّهَامَةِ مَنْ - إِذَا أَمَلٌ سَمَا -   نَفَذَتْ بِهِ شُورَى أَوِ اسْتِبْدَادُ (٥)

***

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْأَحِبَّـــةَ إِذْ أَبَتْ   ذِكْرَاهُمُ أَنْ يَطْمَئِنَّ مِهَادُ

لاَ يَأْسَ، رُبَّ دُنُوِّ دَارٍ جَامِعٍ   لِلشَّمْلِ قَدْ أَدَّى إِلَيْهِ بِعَادُ (٦)

---

(١) السجف : الستر ، قالوا : أو هو الستران المقرونان بينهما فرجة ، أو هو كلّ باب ستر بسترين مقرونين ، فكلّ شق سجف وسجاف ، ويقال : اسجف الستر أى أرسله ، والملاءة : الريطة ، والنثرة الدرع السلسلة الملبس أو الواسعة ، والفضل ـ كالفضلة ـ : الثياب التى تبتذل للنوم ، وثوب فضل أى واحد أو هو أن يخالف بين طرفيه فيجعلهما على عاتقه ويتوشح به ، والنجاد : حمائل السيف وضعها على عاتقه فكانت بدل العطاف ، يقول : لغشيت سجفك ، ودخلت عليك سترك فى درع واسعة كالملاءة ، فضل أى خالفت بين طرفيها فجعلتهما على عاتقى حين توشحت بها ، أو فضل أى واحدة ليس على غيرها سوى ما وضعته على عاتقى كالعطاف من نجاد السيف أى حمائله .

(٢) الجسد : الثوب المصبوغ بالزعفران أو العصفر ، والجساد : الزعفران ، قالوا : «والجسد والجساد : الزعفران » ويقال : أجسد ثوب فلان إجساداً فهو مجسد . يقول : إنى أرتاح وأنعم بعطرك الساطع إذا امتزج طيب الزعفران بثوبك الأحمر المصبوغ بالزعفران أو الأصفر المصبوغ بالعصفر .

(٣) أقصاد : يقال تقصدت الرماح تكسرت ورمح أقصاد منكسر ، ورماح أقصاد متكسرة يوصف به الواحد والجمع ، يقول : إذا اعتزمت زيارتها ، وقصدت حماها لم يصرفنى عن عزمى أن الرماح تتكسر دون الوصول إليها ، وفى الأصل : « القنى . »

(٤) اطباه : ازدهاه ، وشاقه وأعجبه .

(٥) وفى الأصل : « نفذت به شورى أو استبداد »

(٦) وفى الأصل : « لابأس

إنْ أغْتَرِبْ فَمَوَاقِعَ الْـكَرَمِ ـ الَّذِي ... فِي الْغَرْبِ شِمْتُ بُرُوقَهُ ـ أَرْتَادُ

أَوْ أَنأَ ـ عَنْ صِيدِ الْمُلُوكِ بِجَانِبِي ـ ... فَهُمُ الْعَبِيدُ مَلِيكُهُمْ « عَبَّادُ » (١)

الْمَجْدُ عُذْرٌ فِي الْفِرَاقِ لِمَنْ نَأَى ... لِيَرَى الْمَصَانِعَ مِنْهُ كَيْفَ تُشَادُ (٢)

يَا هَلْ أَتَى مَنْ ظَنَّ بِي ـ فَظُنُونُهُ ... شَـــتَّى تَرَجَّحُ بَيْنَهَا الْأَضْدَادُ ـ

أَنِّي رَأَيْتُ « الْمُنْذِرَيْنِ » كِلَيْهِمَا ... فِي كَوْنِ مُلْكٍ لَمْ يُحِلْهُ فَسَادُ

وَبَصُرْتُ بِالْبُرْدَيْنِ إِرْثِ « مُحَرِّقٍ » (٣) ... ـ لَمْ تَخْلُقَا ـ إِذْ تَخْلُقُ الْأَبْرَادُ

---

(١) وفى الأصل :

« أو أماه عن صيد الملوك بجانبى ... فهم العبيد ملوكهم عباد . »

(٢) وفى الاصل : « المجد عذر فى الفراق لمن نأى »

(٣) محرق

هو ـ كما فى شرح العيون ـ « عمرو بن المنذر بن ماء السماء » وهو « عمرو بن هند » وكان يعرف بأمه هند بنت الحرث بن حجر آكل المرار الكندى ، وكان يقال لعمرو مضرط الحجارة لشدّة بأسه ، وسمى محرقا لقصة استوفى أبو الفرج شرحها فى كتاب الأغانى ، فقال : كان قد عاقد حياطئ على ألا ينازعوا ، ولايفاخروا ، ولايغزوا ، ثم أنه غزا اليمامة ورجع منتبطاً ومرنطىّ ، فقال له زرارة بن عدس التميمى ، وكان من خواصه أبيت اللعن أصبّ من هذا الحى شيئاً ، فقال ويلك إن لهم عقداً . قال وإن كان لهم ، فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأدواداً ، فقال فى ذلك قيس بن وجرة الطائى :

« أراك ابن هند لم تفك أمانة ... وما المرء إلا عهده ومواثقه

فأقسمت جهدى بالأباطح من منى ... وما حب فى بطحائهنّ درادقه

لئن لم تعير بعض ما قد فعلته ... لانتحين للعظم ذو أنت عارقه . »

سمى عارقا بهذا البيت وبلغ الشعر عمرو بن هند ، فقال له زرارة بن عدس أبيت اللعن أيتوعدك ؟ فقال عمرو لرميلة بن شعار الطائى أيهجونى ابن عمك ويتوعدنى . قال لا والله ماهجاك ، ولكنه قال :

« والله لو كان ابن جفنة جاركم ... ما إن كسا كم صيغة وهوانا . »

وأراد رميلة أن يسل سخيمته ، فقال والله لأقتله ، فبلغ ذلك عارقا ، فقال منشداً :

« أيوعدنى والرمل بينى وبينه ... تبين رويداً ما امامة من هنـد

غدرت بعهد كنت أنت أخذتنا ... عليه وشر الشـيمة الغدر بالعهد

وقد يترك الغدر الفتى وطعامه ... إذا هو أمسى حلوس دم الفصد . »

فبلغ عمرو بن هند قوله فغزا طيأ فاسراً سرى من بنى عدى بن أخزم رهط حاتم ، فوفد حاتم عليه وسأله فى الأسرى فأطلقهمْ له ، وكان المنذرين ماء السماء أبو عمرو قد وضع ابناً له صغيراً يقال له مالك عنـد زرارة

. . . .

ابن عدس ، وأن مالكا خرج وما يتصيد فأحفق ولم يجد شيئاً ، فرجع فمرّ بابل لرجل من بنى عبدالله بن دارم يقال له سويد ، وكان عند سويد ابنة زرارة ، فولدت له سبعة غلمة ، فأمر مالك بن المنذر بناقة سمينة منها فنحرها ، ثم اشتوى وسويد نائم ، فلما انتبه شدّ على مالك بعصا فضربه فأمته ، فمات وخرج سويد هاربا حتى لحق بمكة ، وكانت طى تطلب عنزة بن زرارة وبنى أبيه حتى بلغهم ماصنعوا بأخى الملك ، فقال ثعلبة بن عمرو الطائى :

« من مبلغ عمرواً بأن المرء لم يخلق صباره
وحوادث الأيام لا تبقى لها إلا الحجاره
أن ابن عمرو أمته بالسفح أسفل من أواره
تسفى الرياح خلال كشحيه وقد سلبوا ازاره
فاقتل زرارة لا أرى فى القوم أوفى من زراره .»

فلما بلغ هذا الشعر عمرو بن هند بكى وفاضت عيناه ، وبلغ الخبر زرارة فهرب وركب عمرو فى طلبه فلم يقدر عليه ، فأخذ امرأته وهى حبلى ، فقال أذكر فى بطنك أم أنثى ؟ قالت لا علم لى بذلك فبقر بطنها ، فقال قوم زرارة لزرارة والله ماقتلت أخا الملك فأته فأصدقه الخبر ، فأتاه فتنصل إليه ، فقال علىّ بسويد ، فقال إنه لحق بمكة ، قال فعلىّ بنيه ، فأتاه بنيه السبعة وأمهم بنت زرارة غلمة بعضهم فوق بعض ، فأمر بقتلهم ، فتناولوا أحدهم فضربوا عنقه وتعلق بزرارة الآخرون ، فقال زرارة : ياصغى ، فذهبت مثلا وقتلوا وآلى عمرو بن هند ألية ليحرقنّ من بنى حنظلة مائة رجل ، فخرج يريدهم وبعث على مقدمته عمرو بن ثعلبة الطائى فوجد القوم قد أنذروا فأخذ منهم ثمانية وتسعين رجلا بناحية البحرين فحبسهم ولحقه ابن هند فضربت قبته وأمر لهم بأخدود ثم أضرم فيه ناراً ، فلما احتدمت وتلظت قذف بهم فيه فاحترقوا فأقبل راكب من البراجم وهم بطن من بنى حنظلة لا يدرى بشىء مما كان يصنع بعيره فأخذ وألقى فى النار وأقام عمرو بن هند لايرى أحداً ، فقيل له لو تحللت بامرأة منهم فقد أحرقت تسعة وتسعين رجلا ، فدعا بامرأة من بنى حنظلة ، فقال لها من أنت ؟ قالت الحمراء بنت ضمرة ، فقال إنى لأظنك أعجمية ؟ فقالت : ما أنا بأعجمية ولا ولدتنى العجم :

« إنى لبنت ضمرة بن جابر ساد معدا كابرا عن كابر .»

فقال عمرو : أما والله لولا مخافتى أن تلد مثلك لصرفتك عن النار ، فقالت : «أما والذى أسأله أن يضع وسادك ويخفض عمادك ، ماتقتل الا نساء أعاليها ثدىّ ، وأسافلها دمى .» قال اقذفوها فى النار فالتفتت وقالت : ألا فتى يكون مكان عجوز ، فلما أبطئوا عليها قالت : هيهات صار الفتيان حمماً وسمى من ذلك اليوم محرقاً ، ومن ملوك جفنة أيضاً المحرق لكنه غير صاحب البردين — فأما أمر البردين فحكى أن الوفود اجتمعت عند محرق فأخرج بردين من لباسه بملو الوفود وقال ليقم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما ، فقام عامر بن أحيمر فأخذهما فأتزر بالواحد وارتدى بالآخر ، فقال له أنت أعزّ العرب قبيلة ؟ قال العز كله فى معد والعدد فى معد ، ثم فى نزار ، ثم فى مضر ، ثم فى خندف ، ثم فى تميم ، ثم فى سعد ، ثم فى كعب ، ثم فى بهدلة فمن أنكر هذا فلينا فرنى فسكت الناس ، فقال هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى نفسك وأهل بيتك ؟ قال أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة ، وخال عشرة ، وها أنا فى نفسى وشاهد العز شاهدى ، ثم وضع قدمه على الأرض وقال من أزالها من مكانها فله عشرة من الابل فلم يقم إليه أحداً ، وخرج بالبردين فضربت العرب بهذه المثل وببرديه

وَعَرَفْتُ مِنْ ذِي الطَّوْقِ عَمْرٍو(١) ثَأْرَهُ لِجَذِيمَةَ الْوَضَّاحِ(٢) حِينَ يُكَادُ

(١) عمرو « ذو الطوق »

انظر ص « ١٤٥ » من هذا الديوان .

(٢) جذيمة الوضاح أو الأبرص

هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخى ، وقيل الأزدى أوّل من قاد العرب وملك على قضاعة ، وكانت منازله الحيرة والانبار وولايته من قبل اردشير بن بابك ، وكان أبرص فعدل عن هذا الاسم ، فقيل الأبرش والوضاح ، وزعم بعضهم أنه كان يأنف من اسم الأبرص ، ولذلك كنى عنه بالأبرش ، وفى العرب من يفتخر بذلك . قال الراجز يمدح أبرص :

« أبرص فياض اليدين أكلف والبرص أندى باللها وأعرف . »

وهو أوّل من صنع له الشمع وأدلج من الملوك ، وكان ذا رأى وهمة وتيه مفرط ، ويقال له نديم الفرقدين كان إذا شرب قدحاً صب لهما قدحين ولا ينادم غيرهما ، وكان سبب ذلك فيما زعموا أنه كان تكهن واتخذ صنمين يقال لهما الضيزنان يستسقى بهما وينتصر على أعدائه ، وكانت اياد قد خرج قوم منهم من الحجاز وانتشروا فيما بين البصرة والكوفة وتمكنوا على ما يلى الحيرة وكثروا بعين أباغ ، فخرج جذيمة غازياً ، وكان فى اياد رجل يقال له عدىّ بن نصر ، وكان له ظرف وجمال ، وإليه تنسب الملوك من آل نصر ، فنزل جذيمة ساحتهم ، وبعث اياد قوماً منهم إلى صنمى جذيمة فسقوا سدنتهم الخمر وسرقوهما فأصبحوا بهما فى اياد ، فبعث اياد إلى جذيمة تقول : إن صنميك قد أصبحا عندنا زهداً فيك ورغبة فينا ، فان عاهدتنا على أن لا تغزونا رددناهما إليك ، فقال جذيمة وتعطونى أيضاً عدىّ بن نصر يكون عندى ففعلوا وانصرف عنهم ، وضم عديا إلى نفسه وولاه شرابه وأمر مجلسه ، وكان لجذيمة أخت تسمى رقاش وهى بكر ، فأحبت عديا وأحبها ، فسألته أن يخطبها من جذيمة إذا سكر ففعل ذلك وزوجه بها وأشهد عليه من حضر ، فلما أصبح دخل عليه بثياب العرس ، وكان قد دخل بها تلك الليلة ، فقال جذيمة ما هذه الآثار ياعدىّ ؟ فقال آثار عرس رقاش ، فقال من زوّجكها ويحك ؟ قال الملك ، فأكبّ على الأرض متفكراً وهرب عدىّ فلم يعرف له أثر ولا خبر ، وأرسل جذيمة إلى أخته يقول :

« خبرينى رقاش لا تكذبينى أبحر زنيت أم بهجين
أم بعبد فأنت أهل لعبد أم بدون فأنت أهل لدون . »

قالت بل أنت زوّجتنى امرأ عربياً ولم تشاورنى فى نفسى ، فكفّ عنها وآلى أن لاينادم إلا الفرقدين وحملت رقاش غلاماً وسمته عمرا ، فلما ترعرع ألبسته وعطرته ودخلت به على خاله ، فلما رآه أحبه وحمله مع ولده وخرج جذيمة متبديا بأهله فى سنة خصبة ، فأقام فى روضة ذات زهر ونهر ، فخرج ولده وعمرو معهم يجتنون الكمأة ، فكانوا إذا أصابوا كمأة جيدة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو خبأها وانصرفوا إلى جذيمة يتعادون وعمرو يقول : هذا جناى وخياره فيه ، إذ كلّ جانٍ يده إلى فيه ، فضمه جذيمة إلى صدره وسرّ بقوله وحلاه بطوق من ذهب ، فكان أوّل عربى لبس الطوق ، ثم إن الجن استطارته فطلبه جذيمة فى الآفاق زماناً فلم يقدر عليه ، ثم أقبل رجلان من قضاعة يقال لهما مالك وعقيل ابنا فارج من الشام يريدان جذيمة وأهديا له طرفا ، فبينما هما يأكلان إذ أقبل فتى عريان قد تلبد شعره وطالت أظفاره فنهضا وغسلا

وَأَتَى بِيَ النُّعْمَانَ(١) - يَوْمَ نَعِيمِهِ - نَجْمٌ تَلَقَّى سَعْدَهُ الْمِيلَادُ
قَدْ أُلِّفَتْ أَشْتَاتُهُمْ فِي وَاحِدٍ إِلَّا يَكُنْهُمْ أُمَّةً فَيَكَادُ (٢)

رأسه وأصلحا أمره وألبساه ثياباً ، وقالا ما كنا لنهدى جذيمة أنفس من ابن أخته ، وخرجا به إلى جذيمة فسرّ به ورأى الطوق ، فقال شب عمرو عن الطوق فذهبت مثلا ، وقال لمالك وعقيل حكمكما قالا منادمتك ما بقينا وبقيت فمكنهما من ذلك وهما نديما جذيمة اللذان يضرب بهما المثل وإياهما عنى متمم بن نويرة بقوله فى رثاء أخيه :

« وكنا كندمانى جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا . »

وقيل إنما عنى الفرقدين، ويحكى أن جذيمة سكر مرّة أخرى فقتلهما، فلما أصبح ندم ، وبنى عليهما الغريين ونادم الفرقدين وقيل إن صاحب الغريين المنذر الأكبر ، ثم إن جذيمة أرسل يخطب الزباء ملكة الحضر الحاجز بين الفرس والروم، وكاتبها وترصده فأجابته واستدعته إليها، فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمضى فخالفهم قصير ابن سعد ، وكان لبيباً ، وقال : إنّ النساء يهدين إلى الأرواج فعصاه وسار حتى إذا كان بمكان يدعي بقة استشارهم فأشاروا عليه لما يعلمون من رأيه فيها ، فقال قصير انصرف ودمك فى وجهك فأبى ، وظعن جذيمة حتى إذا عاين الكتائب قد استقبلته . قال لقصير ما الرأى ؟ قال تركت الرأى ببقة ، ثم ركب قصير فرساً لجذيمة تسمى العصا فنجا وأخذ جذيمة ، فلما أدخل على الزباء أمرت برواهشه فقطعت والرواهش عروق اليد واستنزفته حتى مات فى خبر طويل مشهور ، وكانت مدّة ملكه ستين سنة ، وله أشعار حسنة مشهورة فمنها :

« أضحى جذيمة فى يبرين منزله قد حاز ما جمعت من قبله عاد
مستعمل الخير لا تفنى زيادته فى كل يوم وأهل الخير تزداد . »

(١) النعمان

قالوا إن النعمان كان له نديمان فغضب عليهما فقتلهما ، فلما أصبح ندم على ذلك أشدّ الندم ، فبنى على قبريهما ضريحين ، وجعل لنفسه يومين فى كلّ عام يجلس فيهما بجوار القبرين أحدهما يوم نعيم ، والآخر يوم بؤس . فأوّل من يطلع عليه فى يوم النعيم يعطيه مائة من الابل ، وأوّل من يطلع عليه فى يوم بؤسه يقتله ويطلى بدمه ضريحى نديميه .

وقد ذكروا مثل ذلك عن المنذر بن ماء السماء ، وقالوا إنه لقى «عبيد بن الأبرص» فى يوم بؤسه فقتله . فقال له جلته التى صارت مثلا فيما بعد وهى قوله : « حال الجريض دون القريض » .

(٢) يقول : قد اجتمع هؤلاء الأعلام الذين ازدانت بهم السير فى شخص واحد هو الممدوح ، فاذا لم يكن أمة مجتمعة فيه صفاتهم ومزاياهم فهو يكاد أن يكون .

وقديماً قال القائل :

« ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد . »

فَــكَأَنَّنِي طَالَعْتُهُمْ بِوِفَادَةٍ   لَمْ يَسْتَطِعْهَا « عُرْوَةُ » الْوَفَّادُ (١)

(١) عروة الوفاد

نلخص هنا طرفا من أخباره عن كتاب الأغانى فنقول :
هو عروة بن الورد بن زيد ، وقيل : ابن عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هرم بن لديم بن عود بن غالب بن قطيعه بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ، شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وجواد من أجوادها المقدمين ، وكان يجمع الصعاليك ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ولم يصيبوا معاشا ، ولذلك سمى عروة الصعاليك

ورووا عن عبد الملك بن مروان أنه قال : ما يسرنى أن أحدا من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة ابن الورد لقوله :

« إنى امرؤ عافى إنائى شركة   وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى   بجسمى مس الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة   وأحسو قراح الماء والماء بارد . »

ويقال أيضا : إن عبد الملك قال : من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . قالوا : وكان إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع هؤلاء وأشباههم ثم يحفر لهم الأسراب ، ويتخذ لهم حظائر يكنفها عليهم ويؤويهم إليها ، ومن قوى منهم بأن برئ من مرضه أو ثابت إليه قوته خرج به معه فأغار ، وجعل لأهل الضعف من أصحابه الباقين نصيبا . وعن ابن الأعرابى قال : أجدب ناس من بنى عبس فى سنة أصابتهم فأهلكت أموالهم وأصابهم جوع شديد وبؤس ، فأتوا عروة بن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغثنا ، فرق لهم وخرج ليغزو بهم ويصيب معاشا فنهته امرأته عن ذلك لخوفها عليه من الهلاك ، فعصاها وخرج غازيا ، فمر بمالك بن حمار الفزارى فنحر له جزورا فأكل منها هو وأصحابه ، وأشار عليه مالك أن يرجع فعصاه ، ومضى حتى انتهى إلى بلاد القين فأغار عليهم فأصاب هجمة عاد بها على نفسه وأصحابه

وقال فى ذلك :

« أرى أم حسان الغداة تلومنى   تخوفنى الأعداء والنفس أخوف
تقول سليمى لو أقمت لسرنا   ولم تدر أنى للمقام أطوف
لعل الذى خوفتنا من أمامنا   يصادفه فى أهله المتخلف . »

وقال فى ذلك أيضا :

« أليس ورائى أن أدب على العصا   فيشمت أعدائى ويسأمنى أهلى
رهينة قعر البيت كل عشية   يطيف بى الولدان أهدج كالرأل
أقيموا بنى أمى صدور ركابكم   فكل منايا النفس خير من الهزل
فإنكموا لن تبلغوا كل همتى   ولا أربى حتى تروا منبت الأثل
لعل ارتيادى فى البلاد وبغيتى   وشدى حيازيم المطية بالرحل
سيدفعنى يوما إلى رب هجمة   يدافع عنها بالعقوق وبالبخل . »

فى قَصْرٍ مَلْكٍ كَالسَّدِيرِ(١) أَوِ الَّذِى   نَاطَتْ بِهِ شُرُفَاتِهَا سِنْدَادُ(٢)

---

(١) السـدير

« السـدير » قصر — وهو معرب — قالوا « وأصله بالفارسية « سه دل » أى قبة فيها ثلاث قباب متداخلة » فعربته العرب ، فقالوا : « سـدير » قالوا : « وهو موضع معروف بالحيرة » وقالوا : « هو قصر قريب من « الخورنق » كان النعمان الأكبر اتخذه لبعض ملوك العجم .

وسيأتى ذكره فى شعر الأسود بن يعفر عند الكلام على « سنداد » فى شرح هذه القصيدة .

وقد ذكره « عبـد المسيح بن عمرو » عند غلبة « خالد بن الوليد » والمسلمين على « الحيرة » فى خلافة أبى بكر فقال :

« أبعد المنذرين أرى سواما   تروّح بالخورنق والسـدير
تحاماه فوارس كل حى   مخافة أغلب عالى الزئـير
فصرنا بعدهلك « أبى قبيس »   كمثل الشاء فى اليوم المطـير
تقسمنا القبائل من « معد »   كأنا بعض أعضاء الجزور »

وقال المخبل فى قصيدته المشهورة :

« فإذا سكرت ، فاننى   رب الخورنق والسـدير
وإذا صحوت ، فاننى   ربّ الشويهة والبعير . »

(٢) سـنداد

« سنداد » قصر بالعذيب وهو المقصود هنا ، وسنداد — فى رواية أبى الحسـين الأدبى : نهر ، وقد استدلّ على ذلك بقول أبى دؤاد الايادى :

« أقفر الدير فالأجارع من قو   م ، فروق ، فرامح ، فخفيه
فتلاع الملا إلى جرف سـندا   د ، فقوّ ، إلى لصاف طميه
موحشاتـ من الأنيس ـ بها الوحـ   ش خناطيل موطن أو بنيه . »

قالوا : وسئل عنـه « أبو عمرو » أهو بفتح السين أو كسرها ، فقال : « بفتح السين » وعن صاحب التكملة : بفتح السين وسماعى بالـكسر .

وفى رواية « السكونى » : « سنداد منازل لاياد نزلتها لما قاربت الريف ، بعد لصاف وفرج وناظرة ، وهو أسفل سواد الـكوفة ، وراء نجران الـكوفة .

قال حمزة فى تاريخه : « وكان قد تملك فى القديم من الفرس على مواضع متفرقة من أرض العرب سـتة عشر مرزبانا ، وقد ذكرهم صاحب معجم البلدان « ج ٥ ص ١٥٠ » إلى أن قال : « ثم تملك سنداد على عمل سحت ، وطال مكثه فى الريف حتى بنى فيه أبنية : وهو صاحب القصر ذى الشرفات من « سنداد » الذى يقول فيه « الأسود بن يعفر » « والقصر ذى الشرفات من سنداد »

تَتَوَهمُ الشَّهباءَ فيـــهِ كَتيبةً ... بِفِناء ، اليَحْمُومُ فيـــهِ جَوَاد
يَخْتَالُ مِنْ سَيْرِ الْأَشَاهِبِ وَسْطَهُ ... بِيضٌ كَمُرْهَفَةِ السُّيُوفِ جِعَادُ (١)

* * *

فى «آلِ عَبّادٍ» حَطَطْتُ فَأَعْصَمَتْ ... هِمَمِي بِحَيْثُ أَنَافَتِ الْأَطْوَادُ
أَهْلُ الْمَنَاذِرَةِ الَّذِينَ هُمُ الرُّبَا ... فَوْقَ الْمُلُوكِ إِذِ الْمُلُوكُ وِهَادُ (٢)
قَوْمٌ إِذَا عَدَّتْ مَعَدٌّ عَقِيلَةً ... مَاءَ السَّمَاءِ ، فَهُمْ لَهَا أَوْلَادُ
بَيْتٌ تَوَدُّ الشُّهْبُ فى أَفْلَاكِهَا ... لَوْ أَنَّهـــا - لِبِنَائِهِ - أَوْتَادُ

قال ابن الكلبى :

وكانت « إياد » تنزل سنداد — وهو نهر فيما بين « الحيرة » إلى « الابلة » وكان عليه قصر تحج العرب إليه ، وهو القصر الذى ذكره الأسود بن يعفر .

قالوا : ومرّ « عمر بن عبد العزيز » بقصر لآل جفنة فتمثل « مزاحم » مولاه بقول « الأسود ابن يعفر النهشلى » :

«ومن الحوادث — لاأبالك — أننى ... ضربت على الأرض بالأسداد
لا أهتدى فيها لموضع تلعة ... بين العراق وبين أرض مراد
ماذا أؤمل — بعد آل محرّق — ... تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر — ذى الشرفات — من سنداد
حلوا بأنقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجئ من أطواد
أرض تخيرها — لطيب مقيلها — ... كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على عراص ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأفضل عيشة ... فى ظل ملك ثابت الأوتاد
فاذا النعيم وكل ما يلهى به ... يوماً يصير الى بلى ونفاد .»

فقال له عمر : ألا قرأت : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين »

(١) يقول يختال القصر من سير الجداول وسطه متجعدة كبيض السيوف المرهفة ، وفى الأصل :

«يختال من سر الأشاهب وسطه ... بيض كرهفه السيوف جعاد .»

(٢) قريب من هذا المعنى قول ابن دريد :

« هم الهضاب الميفات الذرى ... والناس ضحضاح ثغاب وأضى . »

مَمْدُودَةٌ بِلُهَى (١) النَّدَى أَطْنَابُهُ ... مَرْفُوعَةٌ ـ بِالْبِيضِ ـ مِنْهُ عِمَادُ

مُتَقَادِمٌ إِلاَّ تَكُنْ شَمْسُ الضُّحَا ... لِدَةٌ لَهُ ، فَنُجُومُهَا أَرْآدُ (٢)

نِيطَتْ «بِعَبَّادٍ» لآلِئُ مَجْـدِهِمْ ... فَتَلأْلأَتْ ـ فِى تُومِهَا (٣) ـ الأَفْرَادُ

مَلِكٌ إِذَا افْتَنَّتْ صِفَاتُ جَلاَلِهِ ... فَتَقَاصَرَتْ عَنْ بَعْضِهَا الأَعْدَادُ

نَسِيَتْ زَبِيدٌ (٤) عَمْرَهَا بَلْ أَعْرَضَتْ ... .

---

(١) اللهى : العطايا :

(٢) أرآد ـ جمع رأد ـ يقال رأد الضحى : أى ارتفاعه ورأد الأرض : خلاؤها ، قال الطغرائى :

« مجدي أخيرا ومجدى أولا شرع ... والشمس راد الضحى كالشمس فى الطفل. »

(٣) التوم : جمع تومة وهى اللؤلؤة ، وسميت تومة لانها توءمة لطيرتها فى العقد أو فى الأذن ، والافراد : جمع فرد وهو ما لا نظير له فى العقد يقال: فرد وفريد ، ويقال : تاءم أخاه أى ولد معه ، فهو تئمة ، وتوءمه.

(٤) عمرو بن معديكرب الزبيدى

ويضرب المثل باقدامه وشجاعته .

اقـــدام عمر فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس. »

هو ـ كما فى سرح العيون ـ عمرو بن معديكرب بن عبد الله الزبيـــدى ، وكنيته « أبو ثور » الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع المذكورة فى الجاهلية والاسلام ، وفد على رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى السنة العاشرة من الهجرة .

قال عمرو :

قدمت المدينة ، فرأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قافلا من « تبوك » فأردت أن أدنو إليـــه ، فمنعنى من حوله .

فقال : « دعوه » فدنوت منه ، فقلت :

« أنعم صباحا أبيت اللعن »

فقال : « ياعمرو أسلم تسلم ويؤمنك الله من الفزع الأكبر » فأسلمت

وعاش « عمرو » إلى أيام عثمان ، وأبلى فى وقائع الاسلام بلاء حسنا مثل وقعة القادسية ، وهو الذى ضرب خطم الفيل بالســـيف فانهزم وانهزمت الأعاجم ، وكان سبب الفتح ومثل وقعة اليرموك وغيرها ، قال الخثعمى مارأيت أشرف من رجل يوم اليرموك خرج له علج فقتله ، ثم آخر فقتله ثم انهزموا فتبعهم وتبعته ، ثم انصرف إلى خباء له أسود فنزل فدعا بالجفان ودعا من حوله ، قلت من هذا ؟ قالوا عمرو بن معديكرب ، وحدث بن أبى حاتم . قال مررنا يوم القادسية بعمرو بن معديكرب وهو يحضّ الناس بين الصفين ويقول : أيها الناس كونوا أشد مناشا إنّ هذا الرجل من الأعاجم إذا لقى مزراقا فانما هو تيس ، فبينما هو كذلك يحرضنا إذ خرج رجل من الأعاجم فوقف بين الصفين فرماه بنشابة ، فما أخطأت سية قوس كان متنكبها فالتفت ، ثم حمل عليه فاعتنقه ، ثم أخذ بمنطقته فاحتمله فوضعه بين يديه وجاء حتى إذا دنا منا كسر عنقه ،

. . . .

ثم أمر الصمصامة على حلقه فذبحه ونزع سواريه ومنطقته وألقاه، وقال: « هكذا فاصنعوا بهم » فقلنا: « ومن يستطيع يا أبا ثور أن يصنع كما تصنع ؟ » وحكى أبو عبيدة قال: لما كان فتح القادسية أصاب المسلمون أموالا عظيمة فعزل سعد بن أبي وقاص الخمس ثم قسم البقية فأصاب الفارس ستة آلاف وبقي مال دثر، فكتب إلى عمر بما فعل فكتب إليه أن رد على المسلمين الخمس وأعط من لحق بك ممن لم يشهد الوقعة ففعل ذلك، ثم كتب إليه أن أعط ما بقي حملة القرآن، فأتاه عمرو بن معديكرب، فقال ما معك من حفظ القرآن ؟ قال: إني أسلمت، ثم شغلت بالغزو عن حفظ القرآن، وقيل أتاه بشر بن ربيعة، فقال له ما معك من حفظ القرآن ؟ قال معي بسم الله الرحمن الرحيم، فضحك القوم، فقال سعد مالك في هذا المال من شيء ولا من نصيب ؟ فقال عمرو منشداً :

« إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد   قالت قريش ألا تلك المقادير

نعطى السوية من طعن له نفذ   ولا سوية إذ تعطى الدنانير. »

وقال بشر أبياتاً، وكتب سعد إلى عمر بما قالا، فكتب إليه: « أعطهما على بلائهما » فأعطاهما أربعة آلاف درهم، وحكى المدائني قال: كان عمرو بن معديكرب في سرية أميرها سلمان بن ربيعة فعرض الخيل، فمر عمرو على فرس له، فقال هذا هجين، فقال عمرو عتيق. قال فأمر به فعطش، ثم دعا بترس، فقلب فيه ماء فدعا بخيل عتاق فشربت فجاء فرس عمرو، فثنى يديه وشرب وهكذا يصنع الهجين، فقال له ألا ترى ؟ فقال عمرو أجل الهجين يعرف الهجين، فبلغ عمر، فكتب إليه قد بلغني ما قلت لأميرك، وبلغني أن لك سيفاً تسميه الصمصامة وعندي سيف مصمم فالله لئن وضعته على هامتك لا أقلع حتى أبلغ به شراسيفك فإن سرّك أن تعلم أحق ما أقول فعد، ويروى أن عمر رضى الله عنه سأله يوماً، فقال ماتقول في الحرب ؟ قال مرّة المذاق إذا كشفت عن ساق، فمن صبر عرف، ومن ضعف تلف. قال فما تقول في الرمح ؟ قال حليفك وربما خانك. قال فالنبل ؟ قال منايا تخطئ وتصيب. قال فالترس ؟ قال عليه تدور الدوائر. قال فالسيف ؟ قال عنده ثكلتك أمك. قال عمر بل أمك، فقال الحمى أصرعتني، فأغلظ له عمر في الكلام، فقال :

« أتوعدني كأنك ذو رعين   بأنعم عيشة أو ذو نواس

فلا تفخر بملكك كل ملك   يصير لذلة بعد الشماس. »

فقال عمر صدقت فاقتص مني قال يا أمير المؤمنين لولا آية سمعتها منك لحلقتك بالسيف أحسد منك أم ترك، قال وما هي ؟ قال سمعتك تقرأ أنه من يأت ربه مجرماً فإنّ له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، والله لو علمت أني إذا دخلتها مت لفعلت، وحكى أنّ عيينة بن حصن لما قدم الكوفة أقام أياماً، ثم قال: والله مالي بأبي ثور عهد، ثم ركب فرساً وسأل عن محلة بني زبيد فأرشد إليها وسأل عن عمرو فوقف ببابه، ثم قال: يا أبا ثور اخرج إلينا فخرج مؤتزراً كأنما كسر وجبر، فقال له انعم صباحاً أبا مالك ؟ فقال أوليس قد بدلنا الله تعالى بهذا السلام عليكم، فقال دعنا مما لانعرف انزل فإنّ عندي كبشاً سميناً فنزل فعمد إلى الكبش فذبحه ثم ألقاه في قدر وطبخه، وجلس يتحدّث إلى أن أدرك فثرد في جفنة عظيمة وألقى القدر عليها وقعدا فأكلاها ثم قال: أي الشراب أحبّ إليك اللبن أم ما كنا نتنادم عليه في الجاهلية، فقال أو ليس حرمها الله تعالى في

. . . .

الاسلام ، فقال: أنت أقدم إسلاما أم أنا ؟ قال: أنت ، قال: فانى قد سمعت ما بين دفتى المصحف فوالله ماوجدت لها تحريماً إلا انه قال : فهل أنتم منتهون. فقلت: «لا» ثم جاء بنبيذ وجلسا يشربان ويتحدثان ويذكران أيام الجاهلية حتى أمسيا ، فلما أراد عيينة الانصراف . قال عمرو إن انصرف أبو مالك بغير حباء إنها لوصمة فأمر له بناقة أرحبية وحمله عليها ثم أتى ببرود فيه أربعة آلاف درهم فوضعه بين يديه ، فقال أما المال فوالله لا آخذه ولا ألمسه ، فانصرف وهو يقول :

« حريت أبا ثور جزاء كرامة فنعم الفتى أنت المزور المضيف . »

وقيل انه لم يكن فى عمرو خصلة رديئة إلا الكذب ، حكى أبو عمرو بن العلاء ، قال: وقف عمرو يوماً بالمربد يتحدث — على عادتهم — فقال : « غزوت فى الجاهليـة على بنى مالك فخرجوا مستـدعين بخالد بن الصقعب فحملت عليه بالصمصامة فأحدرت رأسه» وكان خالد بن الصقعب حاضراً، فقال من الجماعة : «مهلا أبا ثور قتيلك يسمع كلامك » وأشار إليه ، فقال اسكت إنما أنت محدث فاسمع أو قم ، ثم التفت إلى خالد وقال : « إنما نرهب هده المدية بهده الأحرار » ومضى فى حديثه فلم يقطعه ، فقال له رجل : « انك لشجاع فى الحرب والكذب» فقال : « إنى كذلك » وحكى أبو عمرو بن العلاء قال : جاء رجل إلى عمرو وهو واقف بالمربد على فرس له وقد أسن فقال لانظرن ما بقى من قوة أبى ثور فأدخل يده بين ساقه وحب الفرس ففطن عمرو لذلك فضم رجله وحرك الفرس فجعل الرجل يعدو مع الفرس لايقدر أن ينزع يده حتى إذا بلغ منـه صاح به فقال : « يا ابن أخى مالك ؟ » قال : « يدى تحت ساقك » فخلى عنه وقال : « إن فى عمك بقية بعد » ومن كلامه حكى أنه أتى مجاشع بن مسعود فقال : أسألك حملان مثلى وسلاح مثلى فأمر له بفرس جواد وسيف صارم وعشرين ألف درهم فمر ببنى حنظلة فقالوا: « يا أبا ثور كيف رأيت صاحبك ؟ »فقال: «لله بنومجاشع ما أشـد فى الحروب لقاءها ، وأجزل فى الزبات عطاءها ،وأحسن فى المكرمات بناءها ، والله لقد قاتلتها فما أجبنتها وسألتها فما أبخلتها ، وهاجيتها فما أفحمتها » ومن جيد شعره :

« ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول ماء أرسلت فاسبطرت
فجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروهها فاستقرت
ظللت كأنى للرماح دريئـــة أقاتل عن أحساب جرم وفرت
ولو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت . »

قوله أقاتل عن أحساب جرم من الهجاء الممض ، وذلك أنه ذكر أن قوما فروا وليس هو منهم غير أنه يقاتل غضباً لهم وعصبية ، وقوله ولو أن قومى أنطقتنى ، يعنى لو قاتلوا وطاعنوا نطقت بمدحهم ، ولكنهم فروا ، فأسكتونى عن المدح ، والأصل فى الاجرار أن الفصيل إذا أرادوا فطامه شقوا لسانه فلم يقدر على الرضاع وفى القصيدة التى أولها : « أمن ريحانة الداعي السميع »
يقول :

« وقد عجبت أمامة أن رأتنى تفرع لمتى شـيب فظيع
أشاب الرأس أيام طوال وهم ما تبلغه الضـلوع
وزحف كتيبة للقاء أخرى كأن زهاءها رأس صليع

. . . .

وإسناد الأسنة نحو نحرى وهزّ المشرفية والوزع
فإن تنف النوائب آل عصم تجد حكماءهم فيها رموع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
وصله بالنزوع فكل شىء سما لك أو سموت له نزوع »

وقوله أيضاً :

« يا بنى المتانشا جهلا ساوولدت عبدا
ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا
إنّ الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سا بغة وعداء علندى
نهدا وذا شطب يقد البيض والأبدان قدا
كل امرئ يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

⁂

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا
وبدت محاسنها التى تخفى ، وكان الأمر جدا
نازلت كبشهم ، ولم أر من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دمى وأنـ ـذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لى صالح بوأته بيدىّ لحدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا . »

قلت : « لو لم يكن له إلا هذه القصيدة لاستحقّ بها التقدم على شر كثير » وأما الصمصامة فهى سيفه المشهور . قال عبد الملك بن عمير أهدت بلقيس إلى سليمان خمسة أسياف ، وهى : ذو الفقار ، وذو النون ، ومخذوم ، ورسوب ، والصمصامة . وأما ذو الفقار : فكان لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخذه من منبه بن الحجاج يوم بدر ، ومخذوم ورسوب : للحرث بن جبلة الغسانى ، وذو النون والصمصامة : لعمرو بن معديكرب ، وحكى أن عمر بن الخطاب قال لعمرو : ابعث لى الصمصامة ، فبعث به إليه فلم يره كما بلغه ، فقال له فى ذلك ؟ فقال إنى بعثت إليك الصمصامة ولم أبعث لك باليد التى تضرب به ، وحكى أبو عبيدة أن الصمصامة انتقلت إلى سعيد بن العاص ، وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بنى زبيد ، وكان خالد بن سعيد من جملة أمرائه أوقع بهم وأسر ريحانة أخت عمرو بن معديكرب ففداها خالد وأثابه عمرو الصمصامة ، ثم فقد يوم الدار فى مقتل عثمان ووجد ، ولم يزل إلى أن صعد المهدى البصرة ، فلما كان بواسط أرسل إلى بنى العاص يطلب الصمصامة ، فقالوا إنه فى السبيل حبساً ، فقال خمسون سيفاً قاطعاً فى السبيل أغنى من سيف واحد وأعطاهم خمسين سيفا وأخذه ، فلما صار إلى الهادى أحضره وأمر الشعراء بوصفه ، فقال بعضهم من أبيات :

« حاز صمصامة الزبيدى عمرو من جميع الأنام موسى الأمين
ما يبالى من انتضاه لضرب أشمال سطت به أم يمين . »

ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى غلامه «باغر» التركي فقتله به ، ومن بعد «باغر» انقطع خبره .

. . . . عَنْ وَصْفِ «كَعْبٍ»(١) بِالسَّمَاحِ إِيَادُ

فَضَحَ الدُّهَاةَ فَلَوْ تَقَدَّمَ عَهْدُهُ لَعَنَا «الْمُغِيرَةُ» أَوْ أَقَرَّ «زِيَادُ»(٢)

---

(١) كعب بن مامه

هو كعب بن مامة الايادى ، وكان أحد أجواد العرب يضرب به المثل فى الوفاء ، آثر على نفسه وكان مسافراً مع رفيقه فقل عليهما الماء فتصافناه ، والتصافن أن يوضع فى الماء مقلة أى حجر صغير يغمر بالماء لئلا يتغابنوا فى القسمة ، فجعل رفيقه يشرب نصيبه ، فاذا جاء دور كعب . قال له رفيقه وقد جهده العطش : « أسق أخاك » فيؤثره على نفسه حتى جهد كعب من العطش وأشرف على الهلاك ، ورفعت له أعلام الماء ، وقيل له رد كعب ولا ورود به فمات عطشاً ، وفى ذلك يقول أبو دواد الايادى :

« أوفى على الماء كعب ثم قيل له رد كعب إنك وراد فما وردا . »

ارجع إلى الكامل للمبرد « ص ١٣٦ »

(٢) زياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة

كانا من أفذاذ العرب وساستهم ودهاتهم وأخبارهما مستفيضة فى كتب التاريخ ، ولكنا نجتزئ القول اجتزاء فيما يلى :

قالوا :

وسمى « زياد ابن أبيه » أو « زياد بن سمية » لأن أمه كانت جارية الحارث بن كلدة الثقفى ، فزوجها بعبد له رومى يقال له : «عبيد» فولدت «سمية» زيادا على فراشه ، فهو ولد «عبيد» شرعاً.

قالوا : وكان « أبو سفيان » قد سار فى الجاهلية إلى « الطائف » فنزل على بائع خمر يقال له : « أبو مريم » — وقد أسلم فيما بعد — فقال له « أبو سفيان » : « قد اشتهيت النساء » فقال أبو مريم : « هل لك فى سمية ؟ »

فقال أبو سفيان :

« هاتها على طول ثدييها وذفر بطنها »

فأتاه بها ، فوقع عليها ، فيقال إنها علقت منه بزياد ، ثم وضعته فى السنة التى هاجر فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونشأ « زياد » فصيحا .

وحضر « زياد » يوما بمحضر جماعة من الصحابة فى خلافة « عمر » فقال « عمرو بن العاص لو كان أبو هذا الغلام من قريش ، لساق العرب بعصاه . »

فقال أبو سفيان لعلى بن أبى طالب :

« إنى لأعرف من وضعه فى رحم أمه »

فقال علىّ :

« فما يمنعك من استلحاقه »

قال :

« أخاف الأصلع (يعنى عمر) أن يقطع إهابى بالدرة »

لَا يَأْمَنُ الْأَعْدَاءُ رَجْمَ ظُنُونِهِ ... إِنَّ الْغُيُوبَ وَرَاءَهَا إِمْدَادُ

مَلِكٌ - إِذَا مَا اخْتَالَ - غُرَّةُ فَيْلَقٍ ... قَدْ أُمْطِيَتْ عِقْبَانَهُ الْآسَادُ [1]

أُسُدٌ، فَرَائِسُهَا الْفَوَارِسُ فِي الْوَغَى، ... لَكِنْ بَرَاثِنُهَا - هُنَاكَ - صِعَادُ [2]

فلما كانت قضية شهادة الشهود على المغيرة بالزنا وجلدهم لعدم ثبوت الزنا عليه — ومنهم أبو بكرة أخو زياد لأمه — وامتناع « زياد » حين كان يؤدى الشهادة عن التصريح ، وكان أحد الأربعة الذين شهدوا عليه — اتخذ المغيرة لذلك لزياد يدا .

ثم لما ولى « على بن أبى طالب » الخلافة ، استعمل «زيادا» على فارس ، فقام بولايتها أحسن قيام ، ولما سلم « الحسن » الأمر إلى « معاوية » امتنع « زياد » بفارس ، ولم يدخل فى طاعة « معاوية » ، واهتم معاوية للأمر ، وخاف أن يدعو إلى أحد من بنى هاشم ويعيد الحرب ، وكان معاوية قد ولى « المغيرة بن شعبة » الكوفة ، فقدم « المغيرة » على « معاوية » سنة ٤٢ هـ فشكا إليه « معاوية » امتناع « زياد » بفارس ، فقال « المغيرة » :

« أتأذن لى فى المسير إليه ؟ »

فأذن له ، فكتب « معاوية » لزياد أمانا ، فتوجه « المغيرة » إليه — لما بينهما من المودة — ومازال به حتى أحضره إلى « معاوية » وبايعه .

وفى سنة ٤٤ هـ استلحق « معاوية » « زيادا » فأحضر الناس ، وحضر من يشهد لزياد بالنسب ، وكان ممن حضر لذلك « أبو مريم » بائع الخمر الذى أسلفنا ذكره — وهو الذى أحضر « سمية » أم « زياد » إلى « أبى سفيان » بالطائف — فشهد بنسب « زياد » من « أبى سفيان » .

قالوا : « فاستلحقه معاوية » وقد أعظم الناس ذلك وأنكروه لاسيما بنو أمية لأن زيادا ابن عبيد الرومى قد ألحق نسبه ببنى أمية بن عبد شمس ، وقد قال « عبد الرحمن الحكم » أخو « مروان » فى ذلك :

« ألا أبلغ «معاوية بن صخر» : ... « لقد ضاقت بما تأتى اليدان »

أتغضب أن يقال : « أبوك عف ؟ » ... وترضى أن يقال : « أبوك زانى ؟ »

وأشهد أن رحمك — من زياد — ... كرحم الفيل من ولد الأتان . »

ثم ولى « معاوية » « زيادا » البصرة ، وأضاف إليه « خراسان » و « سجستان » ثم جمع له الهند والبحرين وعمان

(١) عقبان — جمع عقاب — وهو من سباع الطير التى تصيد . قال المتنبى :

« شكوى الجريح إلى العقبان والرخم »

وقال البحترى :

« ضاقت بسعد أرضها لما رمى ... ساحاتها بالخيـــل والفرسان

فوارس — مثل الصقور — وضمر ... مجدولة ، ككواسر العقبان . »

(٢) صعاد — جمع صعدة — وهى القناة التى تنبت مستقيمة لا تحتاج إلى التثقيف ، والصعدة — من النساء — المستقيمة القامة — على التشبيه — قال « كعب بن جعيل » يصف امرأة شبه قدها بالقناة :

« فإذا قامت إلى جاراتها ... لاحت الساق بخلخال زجل

صعدة نابتة فى حائر ... أينما الريح تميلها تمل . »

خِلْتَ اللِّوَاءَ غَمَامَةً فِي ظِلِّهَا ... قَمَرٌ ، بِغُرَّتِهِ السَّنَا الْوَقَّادُ

* * *

شَيْحَانُ مُنْغَمِسُ السِّنَانِ مِنَ الْعِدَا ... ـ فِي النَّقْعِ ـ حَيْثُ تَغَلْغَلَ الْأَحْقَادُ

تَشْكُو إِلَيْهِ الشَّمْسُ نَقْعَ كَتِيبَةٍ ... مَا زَالَ مِنْهُ لِعَيْنِهَا إِرْمَادُ [(1)]

جَيْشٌ ـ إِذَا مَا الْأُفْقُ سَافَرَ طَيْرُهُ ... مَعَهُ ـ فَفِي ذِمَمِ الصَّوَارِمِ زَادُ [(2)]

مُسْتَطْرِفٌ لِلْمَجْدِ لَمْ يَكُ حَسْبُهُ ... مَجْدٌ ـ يَدُورُ مَعَ الزَّمَانِ ـ تِلَادُ [(3)]

مَا كَانَ مِنْهُ إِلَى رَفَاهَةِ رَاحَةٍ ... حَتَّى يُخَلَّدَ مِثْلَهُ إِخْلَادُ

أَرِجُ النَّدِيِّ ، مَتَى تَفُزْ بِجِوَارِهِ ... يَطِبِ الْحَدِيثُ وَيَعْبَقِ «الْإِنْشَادُ» [(4)]

لَوْ أَنَّ خَاطِرَهُ الْجَمِيعَ مُفَرَّقٌ ... فِي الْخَلْقِ أَوْشَكَ أَنْ يُحِسَّ جَمَادُ

* * *

نَفْسِي فِدَاؤُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي ... زُهْرُ النُّجُومِ ـ لِوَجْهِهِ ـ حُسَّادُ

تَبْدُو عَلَيْكَ ـ مِنَ الْوَسَامَةِ ـ حُلَّةٌ ... يَهْفُو إِلَيْهَا ـ بِالنُّفُوسِ ـ وِدَادُ

لَمْ يَشْفِ مِنْكَ الْعَيْنَ أَوَّلُ نَظْرَةٍ ... لَوْلَا الْمَهَابَةُ رَاجَعَتْ تَزْدَادُ

---

(١) النقع : الغبار ، والكتيبة : الجيش ، يقول : «تشكو إليه الشمس سطوع الغبار ، والنقع المثار لأنه أرمد عينها فأعمتها ولم تبصر . »

(٢) يقول : إن هذا الجيش إذا سايرته فى الأفق عقبان الجو وجوارح الطير ، فى ذمة الصوارم من السيوف أن تضمن لها الزاد من قتلى الأعداء .

(٣) مستطرف : أى مستحدث لنفسه مجدا طريفا أى جديداً مكسوبا غير موروث ، والحسب : محركة وقد يسكن كما هنا مايعده الانسان من مفاخره ، والتلاد : القديم الموروث عن الآباء .

(٤) الندى : المجلس ، يقول : هو أرج الندى أى عطر ماينبعث عن مجلسه من طيب القول وعاطر الثناء ، إذا فزت بقربه ودنوت من مجلسه ، يطيب الحديث ، ويعبق فى أرجاء المجلس عبير الانشاد ، وقد ورد هذا البيت فى الأصل هكذا :

« أرج الندى ، متى تفز بجواره ... يطب الحديث ويعبق . . . .

والتكملة يعطيها السياق

مَا كَانَ مِنْ خَلَلٍ فَأَنْتَ سِدَادُهُ ـفِي الدَّهْرِ ـ أَوْ أَوَدٍ فَأَنْتَ سَدَادُ[1]

الدِّينُ وَجْهٌ أَنْتَ فِيـــهِ غُرَّةٌ وَالْمُلْكُ جَفْنٌ أَنْتَ فِيـــهِ سَوَادُ

لِلّٰهِ مِنْكَ يَدٌ عَلَتْ ، تُولِي بِهَا صَفَداً فَيُحْمَدُ ، أَوْ يُفَكُّ صِفَادُ[2]

لَوْ أَنَّ أَفْوَاهَ الْمُلُوكِ تَوَافَقَتْ فِيهَا لَوَافَقَ حَظَّهَا الْإِسْــعَادُ

نَقَعَ الْعُدَاةَ الْيَأْسُ[3] مِنْكَ ، لِأَنَّهُ بَرَدَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمُ الْأَكْبَادُ

يَنْصَاعُ مَنْ جَارَاكَ مَقْبُوضَ الْخُطَا فَــكَأَنَّمَا عَضَّتْ بِهِ الْأَقْيَادُ[4]

❀

قَدْ قُلْتُ لِلتَّالِي ثَنَاءَكَ سُورَةً مَا لِلْوَرَى فِي نَصِّهَا إِلْحَادُ :

« أَعِدِ الْحَدِيثَ عَنِ السِّيَادَةِ ، إِنَّهُ لَيْسَ الْحَدِيثُ يُمَلُّ حِينَ يُعَادُ . »

كَرَمٌ كَمَاءِ الْمُزْنِ رَاقَ خِلَالَهُ أَدَبٌ كَرَوْضِ الْحَزْنِ بَاتَ يُجَادُ[5]

وَمَحَاسِنٌ زَهَرَ الزَّمَانُ بِزُهْرِهَا فَــكَأَنَّمَا أَيَّامُـــهُ أَعْيَادُ[6]

---

(١) يقول : ما كان من خلل فى الزمان فأنت سداده الذى يسد به ، أو كان من أود فيه واعوجاج فأنت سداد ، أى ملك سداده وصلاحه وتقويمه .

(٢) الصفد العطاء ، والصفاد : مايوثق به المقيد من قيد ونحوه ، يقول : لله منك يد تولى الجميل وتهب العطاء ، لانزال نحمدها ونشكرها لك إلى أن يفك ماقيدتنا به من أصفاد النعم ، وقد جانس بين الصفد بمعنى العطاء ، والصفاد بمعنى القيد ، وجعل الاحسان صفادا وقيداً مستفيض فى كلام الشعراء ، قال الشاعر :

« ومن وجد الاحسان قيد تقيداً . » ، وقال ابن الرومى :

« ما على الأحرار من رق إذا عقدوا شكرهم مولى أيادى
إنما النعمى صفــاد فاذا لقيت شكراً فليست بصفاد . »

وقال ابن حيوس :

« عقلتهم بالجميل فانعقلوا رب عطاة أصفادها الصفد . »

أى قيودها العطاء ، وفى الأصل : « تولى بها ✽ صفد . »

(٣) فى الأصل : « البأس »

(٤) يقول : ينصاع ويرجع عن مجارته فى الحد كل من جاراه ، ويقف حيث ابتدأ مقبوض الخطا كأنما عضت بسيقانه القيود فمنعته من المضى .

(٥) المزن : السحاب ويجاد يمطر بالجود (بفتح فسكون) وهو المطر الغزير .

(٦) يقول : ويضاف إلى هذا الكرم الذى وصفه فى البيت السابق محاسن أضاء الزمان بزهر نجومها ، فكأنما كل يوم مِنْ أيامها عيد

*
* *

يٰأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى ـ فِى ظِلِّهِ ـ ... رِيضَ الزَّمَانُ فَذَلَّ مِنْهُ قِيَادُ

يَا خَيْرَ «مُعْتَضِدٍ» بِمَنْ أَقْدَارُهُ ... ـ فِى كُلِّ مُعْضِلَةٍ ـ لَهُ أَعْضَادُ

لَمَّا وَرَدْتُ ـ بِوِرْدِ حَضْرَتِكَ ـ الْمُنَى ... فَهَمَتْ لَدَىَّ جِمَامُهَا الْأَعْدَادُ (١)

فَاسْتَقْبَلَتْنِى الشَّمْسُ تَبْسُطُ رَاحَةً ... لِلْبَحْرِ ـ مِنْ نَفَحَاتِهَا ـ اسْتِمْدَادُ

فَلَئِنْ فَخَرْتُ ـ بِمَا بَلَغْتُ ـ لَقَلَّ لِى ... أَلَّا يَكُونَ مِنَ النُّجُومِ عِتَادُ

مَهْمَا امْتَدَحْتُ سِوَاكَ ـ قَبْلُ ـ فَإِنَّمَا ... مَدْحِى ـ إِلَى مَدْحِى ـ لَكَ اسْتِطْرَادُ

يَغْشَى الْمَيَادِينَ الْفَوَارِسُ ـ حِقْبَةً ـ ... كَيْمَا يُعَلِّمَهَا النِّزَالَ طِرَادُ (٢)

فَلَأَسْحَبَنْ ذَيْلَ الْمُنَى فِى سَاحَةٍ ... ـ إِلَّا أُوَفَّ بِهَا الْمُنَى ـ فَأُزَادُ (٣)

وَلَيَسْتَفِيدَنَّ السَّنَاءَ مَعَ الْغِنَى ... عَبْدٌ يُفِيدُ النُّصْحَ حِينَ يُفَادُ

وَلَأَنْتَ أَنْفَسُ شِيمَةً مِنْ أَنْ يُرَى ... ـ لِنَفِيسِ أَعْلَاقِى لَدَيْكَ ـ كَسَادُ

هَيْهَاتَ قَدْ ضَمِنَ الصَّبَاحُ لِمَنْ سَرَى ... أَنْ يَسْتَتِبَّ لِسَعْيِهِ الْإِحْمَادُ (٤)

لَا تَعْدَمَنَّ ـ مِنَ الْحُظُوظِ ـ ذَخِيرَةً ... تَبْقَى فَلَا يَتْلُو الْبَقَاءَ نَفَادُ

---

(١) فهمت : جواب لما أى سالت ، وجامها : جمع جم (بالفتح) وجمة (بالضم) وهو الماء الكثير والأعداد : جمع عد (بالكسر) ، وهو الماء الدائم الذى له مادة لا انقطاع لها كماء العيون ، يقول : حين وردت فى حضرتك ورد المنى ، همت جمامها ، وسال مياهها الأعداد ، يريد أنه رأى فيض المنى ينبثق من راحتيه ، وفى الأصل :

« لما وردت بورد حضرتك المنا ... همت لدى جامها الأعداد . »

(٢) هو مطاردة الفرسان بعضهم بعضا للمران على الحرب .

(٣) فلأسحبن من المنى ذيلها فى ساحة جواد إن لم أوف بها ما تطمح إليه نفسى من الأمانى فأنا سأزاد عليها ، يقول : إن أمره دائر بين أن يفى له بما تسمو إليه نفسه من الأمانى ، أو يزيده عليها فوق ما يريد ويتمنى .

(٤) يشير إلى المثل المشهور : « عند الصباح يحمد القوم السرى . » وسيمر بك شرحه فى (٢١٧) من هذا الديوان .

فى مدح المعتضـــــد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد ، ويذكر بعض مواقف له مع خاصته من أصفيائه ، والمناوئين له من أعدائه . »

لِيَهْنِ الْهُدَى إِنْجَاحُ سَعْيِكَ فِى الْعِدَا ... وَأَنْ رَاحَ صُنْعُ اللهِ نَحْوَكَ وَاغْتَدَى (١)

وَنَهْجُكَ سُبْلَ الرُّشْدِ فِى قَمْعِ مَنْ غَوَى ... وَعَدْلُكَ فِى اسْتِئْصَالِ مَنْ جَارَ وَاعْتَدَى (٢)

وَأَنْ بَاتَ مَنْ وَالاكَ فِى نَشْوَةِ الْغِنَى ... وَأَصْبَحَ مَنْ عَادَاكَ فِى غَمْرَةِ الرَّدَى (٣)

وَبُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةُ الْعَهْدِ طَلْقَةٌ ... كَمَا ابْتَسَمَ النُّوَّارُ عَنْ أَدْمُعِ النَّدَى (٤)

وَدَوْلَةُ سَـــعْدٍ لاَ انْتِهَاءَ لِحَدِّهِ ... إِذَا قِيلَ فِيـــهِ قَدْ تَنَاهَى تَوَلَّدَا

دَعَوْتَ ، فَقَالَ النَّصْرُ : لَبَّيْكَ مَاثِلاً ... وَلَمْ تَكُ كَالدَّاعِى يُجَاوِبُهُ الصَّدَى

---

(١) السعى : التصرف فى كل عمل من خير أو شر ، أى أن سبيل الهدى وسبيل المؤمنين جديران بكل تهنئة وبشرى حيث أنجح الله سعيك فى مناجزة أعدائك ولم يزل يتعهدك بجميل صنعه ولطيف إحسانه فى الرواح والغدو ، والصباح والعشى .

(٢) وليهن الهدى أيضا سلوكك مناهج الرشد ، وإجراؤك سنة العدل فى قمع الغاوين المفسدين، واستئصال شأفة الجائرين المعتدين ، واقتلاعهم من أصولهم ، وتطهير المملكة من مفاسدهم وشرورهم .

(٣) والى : الموالاة ضد المعاداة ، وقد طابق فى البيت بين «بات» و «أصبح» و «والى» و «عادى» و «نشوة الغنى» و «غمرة الردى» .

(٤) النوار : بضم أوله وتشديد ثانيه النور ، واحدته نوارة وقد نور الشجر والنبات أى أزهر ، وفى البيت تشبيه النوار بالثغر الباسم عن لؤلؤ الطل

وَأَحْمَدْتَ عُقْبَى الصَّبْرِ فى دَرْكِ الْمُنَى ... كَمَا بَلَغَ السَّارِى الصَّبَاحَ فَأَحْمَدَا [(١)]

٭

« أَعَبَّادُ » يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ بِذِمَّةٍ ... وَأَرْعَاهُمُ عَهْدًا وَأَطْوَلَهُمْ يَدَا

تَبَايَنْتَ فى حَالَيْكَ : غُرْتَ تَوَاضُعًا ... لِتَسْتَوْفِىَ الْعَلْيَا ، وَأَنْجَدْتَ سُودَدَا [(٢)]

---

(١) الدرك : محركا اللحاق والوصول إلى الشىء ، يقال أدركته إدراكا ودركا ومثله الدرك بالسكون . قال جحدر يخاطب الأسد :

« ليث وليث فى مكان ضنك ... كلاهما ذو أنف ومحك

وبطشـــة وصـــولة وفتك ... إن يكشف الله قناع الشـك

بظفر من حاجتى ودرك ... فـــذا أحق منزل بترك

الذئب يعوى والغراب يبكى »

والسارى : اسم فاعل من السرى وهو سير الليل وأصل المثل «عند الصباح يحمد القوم السرى» وأول من قال ذلك كما فى مجمع الأمثال عن «المفضل» الضبى هو «خالد بن الوليد» لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنهما وهو « باليمامة » أن سر إلى « العراق » فأراد سلوك المفازة ، فقال له «رافع» الطائى : قد سلكتها فى الجاهليـــة ، هى خمس للإبل الواردة ، ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء . فاشـترى مائة شارف فعطشها ، ثم سقاها الماء حتى رويت ، ثم كتبها وكعم أفواهها ، ثم سلك المفازة حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيل وخشى أن يذهب ما فى بطون الإبل ، نحر الإبل ،واستخرج مافى بطونها من الماء وسقى الناس والخيل ومضى فلما كان فى الليلة الرابعة ، قال «رافع» : انظروا هل ترون ســدرا عظاما ؟ فان رأيتموها وإلا فهو الهلاك . فنظر الناس فرأوا الســدر فأخـــبروه فكبر وكبر الناس ثم هجموا على الماء ، فقال خالد :

« لله در رافع أنى اهتـــدى ... فوز من قراقر إلى سوى

خمسا إذا سار به الجيش بكى ... ماسارها من قبله إنس يرى

عند الصباح يحمد القوم السرى ... وتنجلى عنهم غيابات الكرى. »

يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة .

(٢) غرت : من غار غوراً فهو غائر إذا أتى الغور وهو ما انحـــدر مسيله ، ويقابله النجد : يقال : غار وأنجد وأغار وأنجد ، قال جرير .

« يا أم حزرة ما رأينا مثلـكم ... فى المنجدين ولا بغور الغائر . »

وقال الأعشى :

« نبى يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا . »

وأنكر الجوهرى أغار ، وقال الأصمعى: أغار وأنجد فى بيت الأعشى بمعنى أسرع وارتفع ، على أن النصف الثانى من البيت روى مخروما هكذا : « غار لعمرى فى البلاد وأنجدا » ، يقول : بين حاليك من التواضع والسمو إلى مراتب السيادة بون شاسع ، فقد انحدرت إلى غور التواضع فكانت عاقبة ذلك أن استوفيت حظك من العلياء وبلغت أسمى مراتب السودد والرفعة

وَلَمَّا اُعْتَضَدْتَ اللهَ كُنْتَ مُؤَهَّلاً ... لَدَيْهِ لِأَنْ تُحْمَى وَتُكْفَى وَتُعْضَدَا

وَجَدْنَاكَ إِنْ أَلْقَحْتَ سَعْيًا تَنَجَّتَهُ ... وَغَيْرُكَ شَاوٍ حِينَ أَنْضَجَ رَمَّدَا [١]

وَكَمْ سَاعَدَ الْأَعْدَاءَ أَوَّلَ مُطْمَعٍ ... رَأَوْكَ بِعُقْبَاهُ أَحَقَّ وَأَسْعَدَا

فَلَا ظَافِرٌ إِلَّا ـ إِلَى سَعْدِكَ ـ اُعْتَزَى ... وَلَا سَائِسٌ إِلَّا بِتَدْبِيرِكَ اقْتَدَى

* * *

ضَلَالًا لِمَفْتُونٍ سَمَوْتَ بِحَالِهِ ... إِلَى أَنْ بَدَتْ ـ بَيْنَ الْفَرَاقِدِ ـ فَرْقَدَا

رَأَى حَطَّهَا أَوْلَى بِهِ ، فَأَحَلَّهَا ... حَضِيضًا بِكُفْرَانِ الصَّنِيعَةِ أَوْهَدَا [٢]

وَمَا زَادَ ـ لَمَّا لَجَّ فِي الْبَغْيِ ـ أَنَّهُ ... سَعَى لِلَّذِي أَصْلَحْتَ مِنْهَا فَأَفْسَدَا

فَزَلَّ وَقَدْ أَمْطَيْتَهُ ثَبَجَ السُّهَا ... وَضَلَّ وَقَدْ لَقَّيْتَهُ قَبَسَ الْهُدَى [٣]

طَوِيلُ عِثَارِ الْجُرْمِ قُلْتَ لَهُ : « لَعًا » [٤] ... بِحِلْمٍ تَلَقَّى جَهْلَهُ فَتَغَمَّدَا [٥]

---

(١) ألقحت من ألقح الفحل الناقة ، ولقحت هى ، قال الحرث بن عباد :

« قربا مربط النعامة منى ... لقحت حرب وائل عن حيال . »

والسعى : التصرف فى الأمور ، وتنجه : من قولهم نتج فلان الناقة إذا ولى نتاجها وهى ماخض حتى تضع ، وفى المثل : « هل تنتج الناقة إلا لمن لقحت له » ، وكتب عليه صاحب مجمع الأمثال ما نصه : يقال نتجت الناقة على ما لم يسم فاعله ، وأنتجتها إذا أعنتها على ذلك ، والناتج للنوق كالقابلة للانسان ، ولقحت تلقح لقحا ولقاحا والناقة لاقح ولقوح ، ومعنى المثل : هل يكون الولد إلا لمن يكون له الماء ؟ يضرب فى التشبيه ، ويروى « لما لقحت له » أى لقاحها أى لقبول رحمها ماء الفحل ، يشير إلى صدق الشبه ، و « ما » مع « لقحت » للمصدر ، وغيرك شاو : أصل المثل « شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد » والترميد إلقاء الشواء فى الرماد ، يضرب ــ كما فى مجمع الأمثال للميدانى ــ لمن يفسد اصطناعه بالمن ، ويردف صلاحه بما يورث سوء الظن ، ويروى عن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه : أنه مرّ بدار رجل عرف بالصلاح فسمع من داره صوت بعض الملاهى فقال : شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد .

(٢) الحضيض : القرار من الأرض المنخفض عن سفح الجبل ، وأوهد : أفعل تفضيل من الوهدة وهى الهوة ، يقول : رأى ذلك المفتون انحطاط حاله أولى به فأنزله الممدوح من مستوى الفراقد إلى أحط قرار من الأرض بسبب كفران النعمة ونكران الجميل .

(٣) ثبج السها : أعلاه ، والسها : نجم صغير فى بنات نعش الكبرى يمتحنون به أبصارهم لخفائه ، وفى المثل « أريها السها وترينى القمر »

(٤) دعوت له بأن يقيمه الله من سقطته . (٥) غطى على جهله وستره .

تَجَنَّى فَأَهْدَيْتَ النَّصِيحَةَ مَحْضَـــةً ،   وَلَجَّ فوَالَيْتَ الْعِقَابَ مُرَدَّدَا [١]

وَلَمْ تَأْلُهُ بُقْيَا عَلَيْهِ تَنَظُّراً   لِفَيْئَةِ مَنْ أَكْرَمْتَهُ فَتَمَرَّدَا

فَمَا آثَرَ الْأُولَى ، وَلاَ قَلَّدَ الْحِجَى ،   وَلاَ شَكَرَ النُّعْمَى ، وَلاَ حَفِظَ الْيَدَا

كَأَنَّكَ أَهْدَيْتَ السَّوَابِحَ ضُمَّراً   لِيَرْكُضَهَا ـ فِيمَا كَرِهْتَ ـ فَيُجْهِدَا [٢]

وَأَجْرَرْتَهُ ذَيْلَ الْحَبِيرِ [٣] تَأَلُّفاً   لِيَخْلُقَ ـ فِيمَا جَرَّ ـ حِقْدًا مُجَدَّدَا [٤]

سَلِ الْخَائِنَ الْمُعْتَرَّ : كَيْفَ احْتِقَابُهُ   ـ مَعَ الدَّهْرِ ـ عَاراً بِالْعِرَارِ مُخَلَّدَا ؟ [٥]

رَأَى أَنَّهُ أَضْحَى هِزَبْراً مُصَـــمِّماً ،   فَلَمْ يَعْدُ أَنْ أَمْسَى ظَلِيمًا مُشَرَّدَا [٦]

دَهَاهُ ـ إِذَا مَاجَنَّهُ اللَّيْلُ ـ أَنَّهُ   أَقَامَ عَلَيْهِ ـ آخِرَ الدَّهْرِ ـ سَرْمَدَا [٧]

---

(١) يقول بدأ يتجى عليك الدنوب ويخلقها خلقا ، وكان جزاؤه منك أن تمحضه النصح خالصا بريئا ، فلما لجّ فى غروره وعصيانه صببت عليه عقابك المتوالى لتزجره ـ على أساءته وتؤدبه .

(٢) كأنما أهديته الجياد الضمر ليحاربك بها ويجهد نفسه فى توخى أعدائك وتطلب ما تكره .
كأن هذا الخائن ظن أنك أهديته الجياد الضمر السوابح ليجهدها ركضا فيما تكره من مناصرة أعدائك .

(٣) أجررته ذيل الحبير : جعلته يجر ذيل النعمة .
وكأنه ظن أنك تتألفــه بما تخلع عليــه من حبير أجررته ذيله ليخلق لك مشاكل ويجــدّد أحقادا بسبب ماجره من جرائر وجرائم . (٤) وفى الأصل : « للحقد مجددا »

(٥) الخائن : الأحمق ، والمعتر الفقير المتعرض المعروف من غير أن يسأل ، والاحتقاب الادخار ، يقال : احتقب الشىء : ادخره ، واحتقب خــيرا أو شرّا واحتقبه : احتمله وجعله خلفه ، واحتقب الاثم : جمعه ، والعرار ـ جمع عرة وهى الخلة القبيحة .

(٦) المصمم : الماضى فى الأمر معتزما ، والظليم : الذكر من النعام ، قال تأبط شرا :

« أنا الذى نكح الغيلان فى بلد   ما طلّ فيــه سماكىّ ولا جادا
فى حيث لايعمت الغادى عمايته   ولا الظليم به يبغى تهبادا
وقد لهوت بمصقول عوارضها   بكر تنازعنى كأساً وعنقادا
ثم انقضى عصرها عنى ، وأعقبه   عصر المشيب ، فقل فى صالح بادا . »

أى نكح الغيلان فى بلد لم يظفر بالطل وهو الرذاذ «المطر الخفيف» ولم يظفر فيه الظليم ـ «فرخ النعام» ـ بالهبيد ـ وهو الحنظل ـ ليأكله ، وقد لها بفتاة من الأبكار مصقولة العارضين تنازعه كئوس الخمر وعناقيد العنب ، ثم انقضى ذلك العصر الصالح وأعقبه عصر المشيب .

(٧) يقول : وقد أصــبح يترقب جزعا أن يكون حينــه مرتبطا بيومه وصار يتوجس الشر خوفا من أن يكون ليله سرمدا إذا قتلته

يُحَاذِرُ أَنْ يُلْفَى قَتِيــلاً مُعَفَّراً ـ إِذَا الصُّبْحُ وَافَى ـ أَوْ أَسِيراً مُقَيَّدَا

***

لَبِئْسَ الْوَفَاءُ اُسْتَنَّ فِي « ابْنِ عَقِيدَةٍ » عَشِيَّةَ لَمْ يُصْدِرْهُ مِنْ حَيْثُ أَوْرَدَا

قَرِينٌ لَهُ أَغْوَاهُ حَتَّى ـ إِذَا هَوَى ـ تَبَرَّأَ يَعْتَدُّ الْبَرَاءَةَ أَرْشَدَا (١)

فَأَصْبَحَ يَبْكِيهِ الْمُصَابُ بِشُــكْلِهِ ، بُكَاءَ « لَبِيدٍ » حِينَ فَارَقَ « أَرْبَدَا »

فِدَاءٌ لِإِسْمَاعِيلَ كُلُّ مُرَشَّحٍ إِذَا جُشِّمَ الْأَمْرَ الْجَسِيمَ تَبَلَّدَا (٢)

***

أَفَادَ مِنَ الْأَمْلَاكِ حِدْثَانَ فَشْلِهِمْ مَوَالِيَ، لَمْ يَشْكُ الصَّدِي مِنْهُمُ الصَّدَا (٣)

أَعَادَ الصَّبَاحَ الطَّلْقَ لَيْلاً عَلَيْهِمُ فَجَاءَ وَأَثْنَى نَاظِرَ الشَّمْسِ أَرْمَدَا

فَحَلَّ هِلَالاً ـ فِي ظَلَامِ عَجَاجَــةٍ ـ تُلَاحِظُهُ الْأَقْمَارُ ـ فِي الْأُفْقِ ـ حُسَّدَا

يُرَاجِمُ مِنْ « صِنْهَاجَةٍ » وَ « زَنَاتَةٍ » ـ بِمِثْلِ نُجُومِ الْقَذْفِ ـ مَثْنَى وَمَوْحَدَا (٤)

---

(١) يقول : أن قرينه زين له الضلال حتى إذا تردى فى سوء عمله تبرأ قرينه من عمله ورأى فى التخلى عنه وسيلة إلى نجاته .

(٢) المرشح : المؤهل .

(٣) يقول : إن توالى الأحداث والخطوب التى أنزلها جيشه بالملوك قد أفادته موالى غاية فى البسالة لايشكو العطشان منهم عطشاً لشدّة ما أوتيه من صبر وجلد .

(٤) راجم عنه : ناضل ، وراجم فى الكلام والحرب بالغ بأشــد مساجلة ، ونجوم القــذف ، أو شهب القذف هى الرجوم ، قال الشاعر :

« كشهاب القذف يرميكم به فارس فى كفه للحرب نار . »

يقول : إنه يساجل بنصرة أهل زناته وصنهاجة ويقذف بهم الأعداء كما يقذف بالشهب ويرجم بها شانئيه ، وقد اشتهرت صنهاجة بتلك المذبحة الكبرى التى حدثت فى القرن الخامس من الهجرة سنــة ٤٥٩ هـ وقد ثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وبينهم الوزير يوسف بن نغرلة اليهودى ، وكان سبب هذه المذبحة أن ذلك الوزير ــ وكان قد استوزره باديس صاحب غرناطة ــ قد وشى بأبى إســحق الفقيه زاهد البيرة فأقصاه السلطان عن بلاده .

قالوا : « وكان ذلك الوزير قد تعرض لتسفيه بعض الآراء الدينية الاسلامية ، وكان عظيم الخطر واسع

النفوذ — فوجد أبو إسحق من ذلك حافزا إلى إنشاء قصيدته البليغة التى دعـه إلى قولها غيظه من عدوه — ذلك الوزير الخطير — فملأها تحريضا وأفعمها حججاً وبراهين، أملح فى التأثير بها على العامة وحملهم على إنفاذ رغباته — وما زال يتعمق فى ضروب الاحتثاث والتهييج حتى اشتعل الجمهور حماسة وهجم على ذلك الوزير فقتله — فى قصر السلطان نفسه — وليس من شك فى أن أبا إسحق بذل كل مواهبه فى الضرب على النعمة الدينية وإظهار العجب الشـديد على ما انتاب الدين من التهاون به وعرف كيف يوالى فيها اطراد الأدلة واتساقها وتدفق المعانى وغزارتها مع دقة عجيبة فى التعبير عن أغراضه وحوالجه بكلام فخم، يتطاير حماسة ويتأجج ناراً، وشعر صارخ

« خارج من قلب قائله مثلما يزفر بركان . »

وبهذا استطاع أن يوهم سامعيها أن قتل أولئك اليهود — أحصابه — فرض لا مناص من أدائه وواجب حتم لايصح السكوت عـنه وأنهم — إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى — فهم خليقون أن يتداركوه فى الحال، حتى لا تصبّ عليهم لعنة الله، أو يحيق بهم غضبه، فيخسف بهم الأرض، أو ينزل عليهم السماء، وكذلك لم يترك خاطرا وسـيلة من الوسائل التى تستثير أحمى العواطف الدينية الـكامنة إلا استخدمها، ولا سمة من سمات متعصب للعقيدة الدينيـة إلا ضرب على وترياتها . كل ذلك بأسلوب سهل وشـيق كاد يصل — لسهولته — إلى حدّ الركاكة فى بعض الأبيات مع أنه من أجل الشعر وأبدعه، وإن شئت فقل وأروعه، وإليكم هذه القصيدة الفريدة فى بابها :

« ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذى مقة مشـــفق يعد النصيحة زلفى ودين
لقد دلّ ســـيدكم ذلة تقرّ بها أعين الشامتين
تخـــير كاتبه كافرا ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا وتاهوا، وكانوا من الأرذلين »

ومنها :

« فـكم مسلم راغب راهب لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ولـكن منا يقوم المعين
فهلا اقتـــدى فيهم بالألى من القادة الخيرة المتقين

فى هذا البيت شىء كثير من الركاكة فى قوله « بالألى من القادة الخيرة المتقين » ولـكنا نغفرها لما فى ليبه من نغمة تلك الصورة الشعرية المتدفقة البديعة .

وأنزلهم حيث يسـتأهلون وردهم أســفل السافلين
فلم يســـتخفوا بأعلامنا ولم يستطيلوا على الصالحين »

ومنها يخاطب السلطان باديس :

« أباديس ! أنت امرؤ حاذق تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف خفى عنك ما يعبثون وفى الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا وقد بغضوك إلى العالمين

لَهُمْ كُلُّ مَيْمُونِ النَّقِيبَةِ بَازِلٍ[1] ... كَفِيلٍ بِأَنْ يَسْتَهْزِمَ الجَمْعَ مُفْرَدَا
يَسُرُّكَ فِي الْهَيْجَا إِذَا جَرَّ لَامَةً ... وَيُرْضِيكَ فِي النَّادِي إِذَا اعْتَمَّ وَارْتَدَى[2]

***

كَرِهْتَ — لِسَيْفِ الْمُلْكِ — أُلْفَةَ غِمْدِهِ ... وَقَلَّ غَنَاءُ السَّيْفِ مَا كَانَ مُغْمَدَا
وَلَمْ تَرَ لِلشِّبْلِ الْإِقَامَةَ فِي الشَّرَى ... فَجَدَّ افْتِرَاساً حِينَ أَصْحَرَ لِلْعِدَا
هُمَامٌ — إِذَا حَارَبْتَ — فَارْفَعْ لِوَاءَهُ ، ... فَمَا زَالَ مَنْصُورَ اللِّوَاءِ مُؤَيَّدَا
وَيَأْنَفُ مِنْ لِينِ الْمِهَادِ تَعَوُّضاً ... بِصَهْوَةِ طَيَّارٍ — إِلَى الرَّوْعِ — أَجْرَدَا
وَقِدْمًا شَكَا حَبْلَ التَّمَائِمِ يَافِعًا ... لِيَحْمِلَ رَقْرَاقَ الْفِرِنْدِ مُهَنَّدَا
وَلَمْ تَرَ سَيْفًا — بَاتِكَ[3] الحَدِّ قَبْلَهُ — ... تَنَاوَلَ سَيْفًا — دُونَهُ — فَتَقَلَّدَا

وكيف يتم لك المرتقى ... إذا كنت تدى وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق ... وقارنته وهو بئس القرين ؟ »

ومنها :

« وإنى حللت بغرناطة ... فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها ... فمنهم بكل مكان لعين »

ومنها :

« وهم أمناكم على سركم ... وكيف يكون أمينا خؤون ؟
ويأكل غيرهم درهما ... فيقصى ويدنون إذ يأكلون
وقد نهضوكم إلى ربكم ... فما يمنعون وما يكرون »

ومنها :

« ورحم قردهم داره ... وأجرى إليها نمير العيون
وصارت حوائجنا عنده ... ونحن — على بابه — قائمون
ويضحك منا ومن ديننا ... فإنا إلى ربنا راجعون »

(١) البازل : الرجل الكامل ، والبازل أيضا الناقة فى عامها التاسع ، قال الشاعر :

«عذرت البزل إن هى خاطرتنى ... فما بالى وبال ابنى لبون »

(٢) أى يعجب بشجاعته إذا لبس لامة الحرب كما تعجب بسماحته التحف رداءه ولبس عمامته فى السلم .

(٣) باتك الحد : قاطعة مرهفة .

***

لَئِنْ أَنْجَزَتْ مِنْهُ الشَّمَائِلُ آخِراً ... لَقَدْ قَدَّمَتْ مِنْهُ المَخَايِلُ[1] مَوْعِدَا

قَرَرْتَ بِهِ عَيْناً، فَكَمْ سَادَ عِتْرَةً ... وَكَمْ سَاسَ سُلْطَاناً، وَكَمْ زَانَ مَشْهَدَا

وَأُعْطِيتُماَ - فِيما تُرِيغَانِهِ[2] - الرِّضَى، ... وَبُلِّغْتُماَ - مِمَّا تُرِيدَانِهِ - المَدَى

دولة عباد

كَمْ لِرِيحِ الغَرْبِ مِنْ عَرْفِ نَدِيّ ... كَالشَّرَابِ العَذْبِ فِي نَفْسِ الصَّدِيّ[3]

حَيْثُ «عَبَّادٌ» فَتَى المَجْـــدِ الَّذِي ... نَصَّتِ الدُّنْيَا بِهِ نَصَّ الهَدِيّ

مَلِكٌ رَاحَتُـــهُ بَحْرُ النَّـــدَى ... مِثْلَمَا غُرَّتُهُ بَدْرُ النَّـــدِيّ

أَصْـــبَحَتْ دَوْلَتُهُ فِي عَصْرِنَا ... كَفِرِنْدٍ عَادَ فِي سَيْفٍ صَدِيّ[4]

إلى حبيب

يَا ظَبْيَةً لَطُفَتْ مِـــنِّي مَنَازِلُهَا ... فَالقَلْبُ مِنْهُنَّ وَالأَحْدَاقُ وَالـكَبِدُ

حُبِّي لَكِ النَّاسُ طُرًّا يَشْهَدُونَ بِهِ ... وَأَنْتِ شَاهِدَةٌ إِنْ يَثْنِهِمْ حَسَدُ

لَمْ يَعْزُبِ الوَصْـــلُ فِيمَا بَيْنَنَا أَبَداً ... لَوْ كُنْتِ وَاجِدَةً مِثْلَ الَّذِي أَجِدُ

---

(١) المخايل من السحب : المدرة بالمطر . قال مروان ابن أبى حفصية :

« إن أحلف الغيث لم تخلف مخايله »

وهي هنا بمعنى الدلائل التي تتوسم بها الشيء والشمائل : الصفات ، قال أبو تمام يرثى طفلين :

« لهفى على تلك المخايل منهما ... لو أمهلت حتى تكون شمائلا

لعدا سكونهما حجا ، وصباهما ... عزما ، وتلك الأريحية نائلا . »

(٢) تريغانه : تطلبانه ، تقول : أراغ الشيء أى أراده وطلبه ، وقد جاء فى الأصل :

« وأعطيتما — فيما تريقانه — الرضى » .

(٣) الصدى : الظمآن .

(٤) أعادت دولته إلى زماننا رونقه وبهاءه فصار كالسيف عاوده الصقل والرونق بعد أن علاه الصدأ .

فى مدح أبى المظفر

« وقال يمدح أبا المظفر سيف الدولة أبا بكر محمد
ابن مسلم صاحب بطليوس . »

هِيَ الشَّمْسُ مَغْرِبُهَا فِي الْكِلَلْ ... وَمَطْلَعُهَا مِنْ جُيُوبِ الْحُلَلْ (١)

وَغُصْنٌ تَرَشَّفَ مَاءَ الشَّبَابِ ... ثَرَاهُ الْهَوَى وَجَنَاهُ الْأَمَلْ (٢)

تَهَادَى لَطِيفَةَ طَيِّ الْوِشَاحِ ... وَتَرْنُو ضَعِيفَةَ كَرِّ الْمُقَلْ (٣)

وَتَبْرُزُ خَلْفَ حِجَابِ الْعَفَافِ ... وَتَسْفِرُ تَحْتَ نِقَابِ الْخَجَلْ (٤)

بَدَتْ فِي لِدَاتٍ ـ كَزُهْرِ النُّجُومِ ـ ... حِسَانِ التَّحَلِّي مِلَاحِ الْعَطَلْ

مَشَيْنَ يُهَادِينَ رَوْضَ الرُّبَا ... بِيَانِعِ رَوْضِ الصِّبَا الْمُقْتَبَلْ

فَمِنْ قُضُبٍ تَتَثَنَّى بِرِيحٍ ... وَمِنْ قُضُبٍ تَتَثَنَّى بِدَلّْ

وَمِنْ زَهَرَاتٍ تُنَدَّى بِمِسْكٍ ... وَمِنْ زَهَرَاتٍ تُنَدَّى بِطَلّْ

تَعَاهَدَ صَوْبُ الْعِهَادِ الْحِمَى ... وَلَا زَالَ مَرْبَعُهَا فِي مَلَلْ (٥)

---

(١) الكلل : جمع كلة ، وهى ستر رقيق مربع يتوقى به من البعوض ونحوه ، والجيوب : جمع جيب ، وهو من القميص طوقه ، والحلل : جمع حلة بالضم وهى إزار ورداء (برد أو غيره) ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة ، والمعنى أن هذه الحسناء شمس تغرب فى الكلل كما تغيب الشمس فى مغربها ، وتشرق من جيوب الحلل كما تطلع الشمس من مشرقها .

(٢) وهى غصن غرس فى أرض الهوى وارتوى بماء الشباب لاماء السحاب فأجنانا ثمرة الأمل .

(٣) تهادى : تمشى مشية فى مهل وتثاقل ، وترنو : تنظر بمؤخر عينها ، يعنى أنها تتهادى بين أترابها يكاد ينعدم ما انطوى عليه الوشاح من الحصر ، وتكر بسيف لحظها من جفون فاترة مريضة .

(٤) تسفر : مضارع سفرت المرأة سفورا كشفت النقاب عن وجهها ، يقول : إذا برزت للرجال برزت وراء حجاب يصونها من عفتها وإذا بدت لهم سافرة ستر وجهها نقاب من الحياء والخجل .

(٥) العهاد : المطر ، وصوبه نزوله ، والمربع : الموضع الذى ينزلون فيه أيام الربيع ، ولا زال مربعها فى ملل : أى ولا زال المطر يصوب فى مربعها حتى يمل لكثرة نزوله ، وفى الأصل : « ولا مل مربعها فى ملل » وجاء فى ابن الأثير : فى حديث الاستسقاء فألف الله السحاب وملتنا ، كذا فى رواية مسلم ، قيل هى من الملل أى كثر مطرها حتى ملناها . انظر ج ٤ ص ١٠٩ من النهاية لابن الأثير .

مَرَادٌ ـ مِنَ الْحُبِّ ـ غَضُّ الْجَنَى ، ... لَدَيْهِ ـ مِنَ الْوَصْلِ ـ وِرْدٌ عَلَلْ

لَيَالِيَ مَا أَنفَكَّ يُهْدِي السُّرُورَ ... حَبِيبٌ سَرَى ، وَرَقِيبٌ غَفَلْ

زَمَانٌ كَأَنَّ الْفَتَى الْمَسْلَمِيَّ ... تَكَنَّفَهُ عَدْلُهُ فَاعْتَدَلْ

تَدَارَكَ[1] مِنْ حُكْمِهِ أَنْ يُعِيدَ ... بِهِ عِزَّةَ الدِّينِ أَيَّامَ ذَلّْ

وَيُوضِحَ رَسْمَ التُّقَى ـ إِذْ عَفَا ـ ... وَيُطْلِعَ نَجْمَ الْهُدَى إِذْ أَفَلْ

*

حَمِدْنَا « الْمظَفَّرَ » لَمَّا رَأَى ... « لِمَنْصُورِنَا » سِيرَةً فَامْتَثَلْ

مَلِيكٌ تَجَلَّى لَهُ غُرَّةً ... تَأَمَّلَهَا غِرَّةً تُهْتَبَلْ

أَشَفُّ الْوَرَى ـ فِي النُّهَى ـ رُتْبَةً ، ... وَأَشْهَرُهُمْ ـ فِي الْمَعَالِي ـ مَثَلْ[2]

وَأَحْرَى الْأَنَامِ بِأَمْرٍ وَنَهْيٍ ... وَأَدْرَى الْمُلُوكِ بِعَقْدٍ وَحَلّْ

يَمَانٍ لَهُ التَّاجُ مِنْ يَنْيَمٍ ... بِمَا أَوْرَثَ التُّبَّعُونَ الْأُوَلْ

سَنَامٌ ـ مِنَ الْمَجْدِ ـ عَالِي الذُّرَا ... يَظَلُّ الْعِدَا مِنْهُ تَحْتَ الْأَظَلّْ[3]

تَقَيَّلَ ـ فِي الْمَهْدِ ـ ظِلَّ اللِّوَاءِ ... وَسِيمَ النُّهُوضَ بِهِ فَاسْتَقَلّْ[4]

وَنِيطَتْ حَمَائِلُهُ الْوَافِيَاتُ ... ـ مَكَانَ تَمَائِمِهِ ـ فَاحْتَمَلْ

وَمَا بَلَّتِ الْبُرْدَ تِلْكَ الدُّمُو ... عِ إِلاَّ وَفِي الْبُرْدِ لَيْثٌ أَبَلّْ[5]

---

(١) في الأصل : « تبارك » .

(٢) وقف على « مثل » بالسكون مع أنه منصوب لوقوعه تمييزا ، وربيعة يجرون المنصوب في الوقف مجرى المرفوع والمجرور فيقفون عليه بالسكون ، وقد اضطرته القافية ـ في غير ما موضع ـ أن يترك الاستعمال الفاشي من لغة العرب ويلجأ إلى هذه اللغة القليلة .

(٣) باطن منسم البعير .

(٤) تقيل : استظل ، وسيم : كلف ، بالغ إلى حد الإغراق بجعل الممدوح وهو في المهد يقود الجيوش ويحمل ظل اللواء ويكلف النهوض بهذا العبء فيستقل بحمل اللواء وحده .

(٥) الليث الأبل : الألد الشديد الخصومة .

عَهِدْنَا الْمَكَارِمَ فِيـــهِ مَعَانِي   تُبَشِّرُنَا فِيـــهِ مِنْهَا الْجُمَلْ

تُرَى بَعْدَ بِشْرٍ يُرِيكَ الْغَمَامَ   تَهَلَّلَ بَارِقُهُ فَاسْـــتَهَلّْ

يُصَـــدِّق مَا حَدَّثَتْنَا «عَسَى»   بِهِ عَنْـــهُ، أَوْ أَنْبَأَتْنَا «لعلّْ»

فَمَا وَعَدَ الظَّنُّ إِلاَّ وَفَى   وَلاَ قَالَتِ النَّفْسُ إِلاَّ فَعَلْ

فَلَـــقَّى مُنَاوِئَهُ مَا اتَّقَى   وَأَعْطَى مُؤَمِّـــلَهُ مَا سَأَلْ

❋

كَمِ اسْتَوْفَتِ الشُّكْرَ نَعْمَاؤُهُ   فَأَقْبَلَ يُنْعِمُ مِنْ ذِي قِبَلْ[1]

غَمَامٌ يُظِلُّ، وَشَمْسٌ تُنِيرُ،   وَبَحْرٌ يَفِيضُ، وَسَيْفٌ يُسَلّْ

قَسِـــيمُ الْمُحَيَّا، ضَحُوكُ السَّمَاحِ،   لَطِيفُ الْحِوَارِ، أَدِيبُ الْجَدَلْ

تُوَشِّي الْبَلاَغَـــةَ أَقْلاَمُهُ   إِذَا مَا الضَّمِيرُ عَلَيْهَا أَمَلّْ[2]

بَيَانٌ يُبَـــيِّنُ ـ لِلسَّامِعِيـــنَ ـ أَنَّ مِنَ السِّحْرِ مَا يُسْتَحَلّْ[3]

أَلاَ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى الْعَيْبِ فِيـــهِ   فَكَمْ عِينَ ـ مِنْ قَبْلِهِ ـ مَنْ كَمَلْ[4]

---

(١) يقال: لقيته من ذى قبل (بضمتين وبكسر وفتح) أى فيما يستقبل.

(٢) يقال أمل عليه الكتاب أى أملاه ليكتبه، وفى الكتاب العزيز: (فليكتب وليملل الذى عليه الحق) وفيه أيضا: (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه)

(٣) السحر الذى يستحل هو سحر البيان، وفيه الاشارة إلى المثل المشهور: إن من البيان لسحرا، قاله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين وفد عليه، عمرو بن الأهتم، والزبرقان بن بدر، وقيس ابن عاصم، فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الاهتم عن الزبرقان. فقال عمرو: «مطاع فى أدنيه، شديد المعارضة، مانع لما وراء ظهره». فقال الزبرقان: «يا رسول الله! إنه ليعلم منى أكثر من هذا، ولكنه حسدنى». فقال عمرو: «أما والله! إنه لزمن المروءة، ضيق العطن، أحمق الوالد، لئيم الخال، والله يارسول الله ما كذبت فى الأولى، ولقد صدقت فى الأخرى، ولكنى رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت، وسخطت فقلت أقبح ما وجدت». فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن من البيان لسحرا»، إنما سمى البيان سحرا لتأثيره فى سامعه، وسرعة قبول القلب له.

(٤) عين: أصيب بالعين، من عان المحسود بعينه فهو عائن والمحسود معين أصابه بالعين، يقول: هل من سبيل إلى وجود عيب واحد فيه يقيه شر أعين الحاسدين، فكثيرا ما أصيب بالعين الكامل الذى لا نقص فيه ولا عيب. وهذا قريب من قول القائل:

«ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيـــه من العين.»

***

لَئِنْ لَبِسَ الْمُلْكَ رَحْبَ الْمَلَا ... فَاخْتَالَ مِنْهُ بِذَيْلٍ رَفَلْ

فَإِنْ تَزَوَّدَهُ لِلْمَعَالِي ... وَإِنْ تَأَهُّبَهُ لِلْأَجَلْ

فَأَخْبَرُ سُوَّاسِ هَذِي الْأُمُورِ ... وَنَاسِكُ أَرْبَابِ هَذِي الدُّوَلْ

***

وَلِيتَ الثُّغُورَ فَلَمْ تَعْدُ أَنْ ... رَأَبْتَ الثَّأَى (١) وَسَدَدْتَ الْخَلَلْ

سِوَاكَ - إِذَا قُلِّدَ الْأَمْرَ - جَارَ، ... وَغَيْرُكَ - إِنْ مُلِّكَ الْفَيْءَ - غَلّ (٢)

فَلَا يَزَالُ لِمَنْ حَلَّهُ ... أَمَانَانِ: مِنْ عَدَمٍ، أَوْ وَجَلْ (٣)

فَأَنْجُمُ دَهْرِهِمُ سَعْدَةٌ ... وَشَمْسُ زَمَانِهِمُ فِي الْحَمَلْ (٤)

***

« أَبَا بَكْرٍ » اسْمَعْ أَحَادِيثَ لَوْ ... تُبَثُّ بِسَمْعِ عَلِيلٍ أَبَلْ (٥)

سَأَشْكُرُ أَنَّكَ أَعْلَيْتَنِي ... بِأَحْظَى مَكَانٍ وَأَدْنَى مَحَلّ

وَأَنِّيَ إِنْ زُرْتُ لَمْ تَحْتَجِبْ ... وَإِنْ طَالَ بِي مَجْلِسٌ لَمْ تَمَلّ

---

(١) الثأى : الفساد ، ورأبته أصلحته .

(٢) الفيء : ما حصل للمسلمين من أموال الكفار عفوا بلا قتال ، وتقسيمه غير تقسيم الغنائم ، وغل : خان ، وخصه بعضهم بالغلول (أى الخيانة) فى الفيء والمغنم ، وهو من قول الله عز وجل : « وما كان لنبي أن يغل . »

(٣) عدم أو وجل : أى فقراً وخوف .

(٤) سعدة : صفة الأنجم ، يقال : يوم سعد وليلة سعدة ، وفى الأصل : « وأنجم دهرهم أسعد » وأسعد وصف للمذكر ، ولا يصح وصف الأنجم به ، وفى السماء كواكب يقال لكل منها : « سُعد » وسعود النجوم عشرة وهى : « سعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، وسعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ، وسعد الهمام ، وسعد البارع ، وسعد مطر . »

(٥) صح من مرضه

تَبَسَّمْتَ ثُمَّ ثَنَيْتَ الْوِسَادَ   فَحَسْبِيَ مِنْ خَطَرٍ مَا أَجَلّْ (١)
فَلَوْ صَافَحَ التِّبْرَ خَدِّي لَهَانَ   وَلَوْ كَاثَرَ الْقَطْرَ شُكْرِي لَقَلّْ
بِأَمْثَالِهَا يُسْتَرَقُّ الْكَرِيمُ   إِذَا مَطْمَعٌ بِسِوَاهُ أَخَلّْ

***

فَلَا تَعْدَمَنْكَ الْمَسَاعِي الَّتِي   لِأُمِّ الْمُنَاوِيكَ فِيهَا الْهَبَلْ (٢)
فَأَنْتَ الْجَرِيءُ - إِذَا الشِّبْلُ هَابَ -   وَأَنْتَ الدَّلِيلُ، إِذَا النَّجْمُ ضَلّْ
وَمَا أُبْنُكَ إِلَّا جِلَاءُ الْعُيُونِ   إِذَا نَاظِرٌ - بِسِوَاهُ - اكْتَحَلْ
رَبِيبُ السِّيَادَةِ - فِي حِجْرِهَا -   تُدِرُّ لَهُ ثَدْيَهَا إِذْ حَفَلْ (٣)
تَمَكَّنَ يَتْلُوكَ - فِي الصَّالِحَاتِ -   فَلَمَّا تَفُتْهُ ، وَلَمَّا يَنَلْ

---

(١) ثنيت الوساد : الوساد المتكأ ، وثنيته أى رددت بعضه على بعض ، وذلك لينه ، أو ثنيته جعلت له ثانيا وضعته عليه ليحصل الارتفاق ، والاتكاء عليه عند الجلوس ، ومقصد الحفاوة إما أن تكون حصلت بعمل مباشر من الملك تواضعا منه ومبالغة فى إكرام ذى الوزارتين (ابن زيدون) ، وإما أن تكون حصلت من الخدم والاتباع بناء على أمر الملك ، يقول فى هذا البيت والبيتين قبله : سأشكر لك إنك أعليت مكانى ، وأدنيت محلى ، وإنى إن زرتك لم تحتجب وإن طال بى الجلوس فى مجلسك لم تسأم ولم تمل ، وأنى إن جئتك زائرا تبسمت وثنيت الوساد احتفاء بى ، فحسبي هذا من خطر عظيم وشرف ما أجله وما أعظمه .

(٢) يقال : هبلته أمه ثكلته ، ولأمه الهبل أى الثكل . قال الشاعر :

« والناس من يلق خيرا ، قائلون له   مايشتهى ، ولأم المخطئ الهبل . »

وقال البحترى :

« ولاكم البدى ، ثم انساب نحوكم   بالمشرفية فيها الثكل والهبل . »

وقال المعرى :

« دع آدما - لاشفاه الله من هبل -   يبكى على ولده المقتول هابيلا . »

(٣) حفل : امتلأ ، حفل اللبن فى الضرع يحفل حفلا وحفولا ، وتحفل واحتفل : اجتمع وهنا ضرع حفيل أى مملوء لبناً

موشح

ذكرى قرطبة وايام الصبا

تَنَشَّقَ — مِنْ عَرْفِ الصَّبَا (١) — مَا تَنَشَّقَا

وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصِّبَا فَتَشَوَّقَا

وَمَا زَالَ لَمْعُ الْبَرْقِ — لَمَّا تَأَلَّقَا —

يُهِيبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدَفَّقَا ، وَهَلْ يَمْلِكُ الدَّمْعَ الْمَشُوقُ الْمُصَبَّأُ ؟ (٢)

* * *

خَلِيلَيَّ — إِنْ أَجْزَعْ — فَقَدْ وَضَحَ الْعُذْرُ

وَإِنْ أَسْتَطِعْ صَبْرًا فَمِنْ شِيمَتِي الصَّبْرُ

وَإِنْ يَكُ رُزْءًا مَا أَصَابَ بِهِ الدَّهْرُ

فَفِي يَوْمِنَا خَمْرٌ ، وَفِي غَدِهِ أَمْرُ (٣) وَلاَ عَجَبٌ ، إِنَّ الْكَرِيمَ مُرَزَّأُ

---

(١) الصبا : ريح الصبا أى ريح الشمال . والعرف : الطيب .

(٢) يهيب : مضارع أهاب بصاحبه دعاه ، أى يدعو الدمع ليتدفق ، والمصبأ : دو الصبوة ، والصبوة جهلة الفتوة يقال صبا صبوا وصبا وصباء . وصبي إليها — كرضي — حن ، وأصبته المرأة وتصبته : شاقته ودعته إلى الصبا فحن إليها .

(٣) فى المثل : « اليوم خمر وغدا أمر » وقد قاله امرؤ القيس حين بلغه قتل أبيه ، ومعناه : اليوم نلهو ونتنعم تاركين إلى الغد أداء ما علينا من الواجبات والفروض . ويروى ، وهو أيضاً لامرىء القيس : « اليوم قحاف ، وغدا ثقاف » والقحاف جمع قحف ، وهو إناء يشرب فيه ، والثقاف فى الناقة من ثقف الهامة شقها عن الدماغ .

***

رَمَتْنِي اللَّيَالِي عَنْ قِسِيِّ النَّوَائِبِ

فَمَا أَخْطَأَتْنِي مُرْسَلَاتُ الْمَصَائِبِ

أُقَضِّي نَهَارِي بِالْأَمَانِي الْكَوَاذِبِ

وَآوِي إِلَى لَيْلٍ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ[1]   وَأَبْطَأُ سَارٍ كَوْكَبٌ بَاتَ يُكْلَأُ

***

أَقُرْطُبَةَ الْغَرَّاءَ! هَلْ فِيكِ مَطْمَعُ؟

وَهَلْ كَبِدٌ حَرَّى لِبَيْنِكِ تَنْقَعُ؟

وَهَلْ لِلَيَالِيكِ الْحَمِيدَةِ مَرْجِعُ؟

إِذِ الْحُسْنُ مَرْأًى فِيكِ وَاللَّهْوُ مَسْمَعُ   وَإِذْ كَنَفُ الدُّنْيَا لَدَيْكِ مُوَطَّأُ[2]

---

(١) إشارة إلى البيت المشهور فى قصيدة النابغة الذبيانى :

« كليني لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطىء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض   وليس الذى يرعى النجوم بآئب

وصدر أراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب . »

جعل صدره مألفاً للهموم وجعل الهموم كالإبل العازبة بالنهار حتى إذا أتى الليل أراحتها الرعاة فى أماكنها والنابغة أوّل من جعل الهموم تعزب بالنهار وتتزايد بالليل ، وتبعه الشعراء فى ذلك ، فقال مجنون ليلى :

« يضم إلى الليل أطفال حبكم   كما ضم أزرار القميص البنائق . »

وقال ابن الدمينة :

« نهارى نهار الناس حتى إذا بدا   لى الليل هزتنى إليك المضاجع

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى   ويجمعنى والهم بالليل جامع . »

ولهذا السبب تبرم الشعراء بطول الليل فقال :

« كواكب ليلة طالت وغمت   فهذا الصبح راغمة فغورى »

وقال امرؤ القيس :

« فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل »

وقد أكثر الشعراء من أمثال هذه المعانى فليجتزئ بهذه الأبيات .

(٢) موطأ : ميسر مذلل .

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ تَشُطَّ النَّوَى بِكِ

فَأَحْيَا كَأَنْ لَمْ أَنْسَ نَفْحَ جَنَابِكِ

وَلَمْ يَلْتَثِمْ شَغْبِي خِلَالَ شِعَابِكِ

وَلَمْ يَكُ خَلْقِي بَدْؤُهُ مِنْ تُرَابِكِ   وَلَمْ يَكْتَنِفْنِي - مِنْ نَوَاحِيكِ - مَنْشَأُ

⁂

نَهَارُكِ وَضَّاحٌ ، وَلَيْلُكِ ضَحْيَانُ

وَتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ ، وَغُصْنُكِ نَشْوَانُ

وَأَرْضُكِ تُكْسَى ، حِينَ جَوُّكِ عُرْيَانُ

ورَيَّاكِ رَوْحٌ - لِلنُّفُوسِ - وَرَيْحَانُ   وَحَسْبُ الْأَمَانِي ظِلُّكِ الْمُتَفَيَّأُ (١)

⁂

أَأَنْسَى زَمَاناً « بِالْعُقَابِ » مُرَفَّلَا

وَعَيْشاً بِأَكْنَافِ « الرُّصَافَةِ » دَغْفَلَا (٢)

وَمَغْنًى - إِزَاءَ « الْجَعْفَرِيَّةِ » - أَقْبَلَا

لَنِعْمَ مَرَادُ النَّفْسِ رَوْضاً وَجَدْوَلَا   وَنِعْمَ مَحَلُّ الصَّبْوَةِ الْمُتَبَوَّأُ

⁂

وَيَارُبَّ مَلْهًى « بِالْعَقِيقِ » وَمَجْلِسِ

لَدَى نُزْعَةٍ ، تَرْنُو بِأَحْدَاقِ نَرْجِسِ

بِطَاحُ هَوَاهُ مُطْمِعِ الْحَالِ مُؤْيِسِ

مَغِيمٍ وَلَكِنْ - مِنْ سَنَا الرَّاحِ - مُشْمِسِ   إِذَا مَا بَدَتْ - فِي كَأْسِهَا - تَتَلَأْلَأُ

---

(١) ضحيان : أي بارز ظاهر لا يستره ظلام ، وذلك لكثرة ما يضاء في قرطبة من المصابيح والسرج بالليل ، وعريان : صحو يريد أن أرضها مكسوة بالنبات وجوها صحو صافي الأديم ، المتفيأ : الذي يستظل به ويستريح فيه المقيل . (٢) الدغفل : العيش الواسع الخصب .

وَقَدْ ضَمَّنَا ـ مِنْ « عَيْنِ شُهْدَةَ » ـ مَشْهَدُ
بَدَأْنَا وَعُدْنَا فِيـــهِ ، وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
يَزُفُّ عَرُوسَ اللَّهْوِ أَحْوَرُ أَغْيَدُ
لَهُ مَبْسِمٌ عَذْبٌ ، وَخَدٌّ مُوَرَّدُ ، وَكَفٌّ ـ بِحِنَّاءِ الْمُدَامِ ـ تُقَنَّأُ [1]

* * *

وَكَائِنْ عَدَوْنَا ـ مُصْعِدِينَ ـ عَلَى الْجِسْرِ [2]
إِلَى الْجَوْسَقِ [3] النَّصْرِيِّ بَيْنَ الرُّبَا الْعُفْرِ
وَرُحْنَا إِلَى الْوَعْسَاءِ [4] مِنْ شَاطِيءِ النَّهْرِ
بِحَيْثُ هُبُوبُ الرِّيحِ عَاطِرَةِ النَّشْرِ عَلاَ قُضُبَ النُّوَّارِ ، فَهْيَ تُـكَفَّأُ

* * *

وَأَحْسِنْ بِأَيَّامٍ ـ خَلَوْنَ ـ صَوَالِحِ
بِعَضْيَمَةِ الدُّولاَبِ ، أَوْ قَصْرِ نَاصِحِ
تَهُزُّ الصَّبَا ـ أَثْنَاءَ تِلْكَ الأَبَاطِحِ ـ
صَفِيحَةَ سَلْسَالِ الْمَوَارِدِ سَائِحِ تَرَى الشَّمْسَ تَجْلُو نَصْلَهَا حِينَ يَصْدَأُ [5]

---

(١) تقنأ : تصبغ باللون الاحمر القانى ، وذلك حين تمسك بالكأس فينعكس عليها من لون الراح مايشبه الخضاب بالحناء . (٢) وكم جرينا صاعدين على الجسر .

(٣) الجوسق : القصر ، والربا : جمع ربوة ، وهى ما ارتفع من الأرض والعفر جمع عفراء ـ وهى أرض بيضاء لم توطأ .

(٤) الوعساء : رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول .

(٥) يقول : إن ريح الصبا تهز خلال تلك الأباطح صفيحة جدول سلسال الموارد سائح فى الأباطح ، والشمس تجلو لنصل هذا الجدول الشبيه بصفيحة السيف حين يصدأ من الظل .

***

وَيَا حَبَّذَا « الزَّهْرَاءُ » بَهْجَةَ مَنْظَرِ

وَرِقَّةَ أَنْفَاسٍ ، وَصِحَّـــةَ جَوْهَرِ

وَنَاهِيكَ مِنْ مَبْدَا جَمَالٍ وَمَحْضَرِ

وَجَنَّةِ عَدْنٍ تَطَّبِيكَ وَكَوْثَرِ بِمَرْأَى يَزِيدُ الْعُمْرَ - طِيباً - وَيَنْسَأُ [1]

***

مَعَاهِدُ - أَبْكِيهَا - لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا [2]

أَغَضَّ - مِنَ الْوَرْدِ الْجَنِيِّ - وَأَنْعَمَا

لَبِسْنَا الصِّـــبَا فِيهَا حَبِيراً مُنَمْنَمَا [3]

وَقُدْنَا - إِلَى اللَّذَّاتِ - جَيْشاً عَرَمْرَمَا لَهُ الْأَمْنُ رِدْءٌ [4] وَالْغَدَاوَةُ مَرْبَأُ

***

كَسَاهَا الرَّبِيعُ الطَّلْقُ وَشْيَ الْخَمَائِلِ [5]

وَرَاحَتْ لَهَا مَرْضَى الرِّيَاحِ الْبَلَائِلِ

وَغَادَى بَنُوهَا الْعَيْشَ حُلْوَ الشَّمَائِلِ

وَلَا زَالَ مِنَّا بِالضُّحَا وَالْأَصَائِلِ سَلَامٌ - عَلَى تِلْكَ الْمَيَادِينِ - يُقْرَأُ

---

(١) تطبيك : تعجبك وتزدهيك ، ينسأ : يؤخر ، أى يطيل العمر ، وقد مرّ التعريف بالزهراء وغيرها من آثار « قرطبة » فى الحاشية ص (٥٤ ـ ٥٦) فارجع إليها إن شئت

(٢) تصرم : انقضى وفات :

(٣) الحبير : الناعم الجديد ، وضرب من برود اليمن والمنمنم : المنقوش الموشى

(٤) ردء : ظهير أومعين .

(٥) الخمائل - جمع خميلة - وهى الموضع الكثير الشجر

أَإِخْوَانَنَا ! لِلْوَارِدِينَ مَصَادِرُ
وَلاَ أَوَّلٌ إِلاَّ سَـيَتْلُوهُ آخِرُ
وَإِنِّى - لِإِعْتَابِ (١) الزَّمَانِ - لَنَاظِرُ
فَقَدْ يَسْتَقِيلُ الجَدُّ - وَالجَدُّ عَاثِرُ - وَتُحْمَدُ عُقْبَى الْأَمْرِ مَازَالَ يُشْنَأُ (٢)

* * *

ظَعَنْتُ ، فَكَانَ الحُرُّ يُجْفَى فَيَظْعَنُ (٣)
وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالْأَسَى (٤) حِينَ أَحْزَنُ
وَقَرَّ - عَلَى الْيَأْسِ - الْفُؤَادُ الْمُوَطَّنُ
وَإِنَّ بِلاَدًا - هُنْتُ فِيهَا - لَأَهْوَنُ وَمَنْ رَامَ مِثْلِى بِالْدَّنِيَّةِ أَدْنَأُ

* * *

وَلاَ يَغْبِطُ الْأَعْدَاءُ كَوْنِىَ فِى السِّجْنِ
فَإِنِّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ تُحْصَنُ بِالدَّجْنِ (٥)
وَمَا كُنْتُ إِلاَّ الصَّارِمَ الْعَضْبَ فِى جَفْنِ (٦)
أَوِ اللَّيْثَ فِى غَابٍ، أَوِ الصَّقْرَ فِى وَكْنِ (٧) أَوِ الْعِلْقَ يُخْفَى - فِى الصِّوَارِ - وَيُخْبَأُ (٨)

---

(١) الاعتاب : إرضاء العاتب .

(٢) يستقيل : ينهض ، والجد : الحظ . ويشأ : يبغض .

(٣) أى رحلت فكان رحيلى هذا لأنى اتقيت جفاه فترحلت عن مكان الجفوة والحر إذا نبت به أرض هاجر إلى غيرها .

(٤) الأسى : جمع أسوة ، وهى التأسى والتجمل، قال ابن دريد :

« فان عثرت بعدها - إن وألت نفسى من هاتا - فقولا : لالعا .
وإن تكن مدتها موصولة بالحتف سلطت الأسى على الأسى .»

أى سلطت الصبر والتجمل على الحزن .

(٥) الدجن : الغيم . (٦) جفن : غمد (٧) الوكن : عش الطائر ، لو كنة مثلة .

(٨) الصوار : وعاء المسك .

***

يَضِيقُ ـ بِأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ ـ مَذْهَبِي

إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ ـ مِنْكُمْ ـ مُهَذَّبِ

مُفَضَّضِ لَأْلَاءِ الْأَسَارِيرِ مُذْهَبِ (١)

يُنَافِسُ ـ مِنْهُ الْبَدْرُ ـ غُرَّةَ كَوْكَبِ　　دَرَى أَنَّهَا أَبْهَى سَنَاءً وَأَضْوَأُ

***

أَسِفْتُ، فَمَا أَرْتَاحُ ـ وَالرَّاحُ تُشْمِلُ ـ

وَلاَ أُسْعِفُ الْأَوْتَارَ ـ وَهِيَ تَرَسَّلُ ـ

وَلاَ أَرْعَوِي عَنْ زَفْرَةٍ ـ حِينَ أُعْذَلُ ـ

وَلاَ لِيَ ـ مُذْ فَارَقْتُكُمْ ـ مُتَعَلَّلُ　　سِوَى خَبَرٍ مِنْكُمْ ـ عَلَى النَّأْيِ ـ يَطْرَأُ

***

حَمِدْتُمْ ـ مِنَ الْأَيَّامِ ـ لِينَ خِلاَلِهَا

وَسَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا بِحُسْنِ دَلاَلِهَا

مُؤَمَّنَةً مِنْ عَتْبِهَا وَمَلاَلِهَا

وَلاَزَالَ مِنْكُمْ لاَبِسٌ مِنْ ظِلاَلِهَا　　يُسَوَّغُ أَبْكَارَ الْمُنَى وَيُهَنَّأُ

---

(١) أسارير الوجه : محاسنه، والأسارير ـ جمع أسرار والأسرار جمع سرار وهي خطوط الكف .

إلى ابن عبدوس (١)

« وكتب إلى الوزير الكاتب أبي عليّ
ابن عبدوس معاتبا . »

---

(١) كان بين ابن زيدون وابن عبدوس عداوة أصيلة — بعد صداقة أكيدة — وكان من أكبر أسباب تلك العداوة تنازعهما على «ولادة بنت المستكفي» وقد كانت هـذه العداوة حافزا لابن زيدون على إنشاء هذه القصيدة ، كما كانت حافزا له على إنشاء رسالته الهزلية المشهورة التي ستمر بك في هذا الكتاب . وقد كتب ابن نباته في مقدمة الرسالة كلمة تمهيدية علل بها أسباب هذه العداوة كما كتب صاحب نفح الطيب وغيره ونحن نجتزئ بما يلي :

كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء العرب الأمويين المنسوبين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالداخل — من بني عبد الملك بن مروان تسمى : «ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن المستظهر بالله عبد الرحمن» ابتذل حجابها — بعد نكبة أبيها وقتله وتغلب ملوك الطوائف — في خبر طويل — ثم صارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتحاضرهم ويتعشقها الكبراء منهم ، وكانت ذات خلق جميل وأدب غض ونوادر عجيبة ، ونظم جيد فمن ذلك ما كتبت به لابن زيدون وهي راضية عنه تقول :

«ترقب — إذا جن الظلام — زيارتي ... فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر لم يلح ، ... وبالليل لم يظلم ، وبالنجم لم يسر . »

وقولها فيه وهي عليه عضبى :

«إن ابن زيدون — على فضله — ... يغتابني ظلما ولا ذنب لي
يلحظني شزرا إذا جئته ... كأنما جئت لأخصي علي . »

تعني غلاما له يسمى عليا . وكان سبب قولها فيه هذا الشعر أنه اتهمها بمواصلة الوزير «أبي عامر بن عبدوس» وكان يلقب بالفار ، فقال فيه وفيها :

« عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا ... — فيمن نحب — وما في ذاك من عار
أكل شهيّ ، أصبنا من أطايبه ... بعضا ، وبعضا صفحنا عنه للفار .»

ومن شعرها ما كتبت به على كمها وقيل : على تاجها :

« أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيها
وأمكن عاشقي من لثم ثغري ... وأعطي قبلتي من يشتهيها . »

ومما ينسب إليها وهو عندي كثير على شعر امرأة :

« لحاظكم تجرحنا في الحشى ... ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح ، فاجعلوا ذا بذا ... فما الذي أوجب جرح الصدود . »

وكان ابن زيدون كثير الشغف بها ، والميل إليها ، وأكثر غزل شعره فيها وفي اسمها ، ثم إن الوزير «أبا عامر بن عبدوس» أيضاً هام بها وكلف بعشرتها ، وكان تصدم الطرف والأدب ، وكانت «ولادة» كثيرة العبث به ، ولها معه نوادر ظريفة ، ومن نوادرها الظريفة أنها مرت يوما بدار «ابن عبدوس» وهو جالس بالباب وحوله جماعة من أصحابه — وأمامه بركة تتولد من مراحيض وأقذار — فوقفت عليه وقالت يا أبا عامر :

«أنت الخصيب وهذه مصر ... فتدفقا فكلاكما بحر . »

أَثَرْتَ هِزَبْرَ الشَّرَى إِذْ رَبَضْ ... وَنَبَّهْتَهُ إِذْ هَدَا فَاغْتَمَضْ (١)

وَمَازِلْتَ تَبْسُطُ (٢) مُسْتَرْسِلاً ... إِلَيْهِ يَدَ الْبَغْيِ لَمَّا انْقَبَضْ

* * *

حَذَارِ حَذَارِ فَإِنَّ الْكَرِيمَ ... إِذَا سِيمَ خَسْفاً أَبَى فَامْتَعَضْ

فَإِنَّ سُكُونَ الشُّجَاعِ النَّهُوسِ (٣) ... لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يَعَضّ

وَإِنَّ الْكَوَاكِبَ لاَ تُسْتَزَلُّ ... وَإِنَّ الْمَقَادِيرَ لاَ تُعْتَرَضْ

إِذَا رِيعَ فَلْيَقْتَصِدْ مُسْرِفٌ ... مَسَاعٍ يُقَصِّرُ عَنْهَا الْحَفَضْ (٤)

وَهَلْ وَارِدُ الْغَمْرِ مِنْ عِدِّهِ ... يُقَاسُ بِهِ مُسْتَشِفُّ الْبَرَضْ (٥)

فلم يحر جوابا، فصمت وحفظت هذه النادرة، واشتغل بها الناس، وهذا البيت لأبي نواس تمثلت به ونقلته هذا النقل الحسن من — المدح إلى الهجاء — وكان كثيرا ما يحدثها ويبغي التفرد بها ، وفي ذلك يقول ابن زيدون:

« وغرك من عهد ولادة ... سراب تراءى وبرق ومض

هى الماء يأبى على قابض ... ويمنع زبدته من مخض . »

وكان أول أمرها معه والباعث لابن زيدون على إنشاء هذه الرسالة : أن «ابن عبدوس» لما سمع بها أرسل إليها امرأة من جهته تستميلها إليه وتذكر لها محاسنه ومناقبه وترغبها في التفرّد بمواصلته ، فبلغ ابن زيدون ذلك ، فكتب هذه الرسالة البديعة جوابا له عن لسانها تتضمن هذه الغرائب من سب أبي عامر والتهكم له والهجاء له وجعلها جوابا له على لسان ولادة ، وأرسلها إليه عقيب رجوع المرأة فبلغت منه كل مبلغ، واشتهر ذكرها في الآفاق، وأمسك «ابن عبدوس» عن التعرّض لولادة إلى أن انتقل «ابن زيدون» إلى «اشبيلية» وتوفي بها تغمده الله برحمته ، وغفر لنا ولهم بمنه وكرمه. هذا معنى ما ذكره ابن حيان وابن بسام وغيرهما من المؤرخين .

(١) أثرت : هجت ، والهزبر : من أسماء الأسد ، والشرى : موضع تكثر فيه الأسود ، وربض : آوى إلى عرينه ، وهدأ : نام .

(٢) يقول : وما زلت تبسط يد البطش والبغي على ذلك الأسد الرابض في مجثمه على حين أمست يده المنقبضة عنك .

(٣) النهوس : العضوض ، والشجاع الذكر من الحيات ، قال القائل :

« أتيح له — وكان أخا عيال — ... شجاع — في الحماطة — مستكن . »

(٤) الحفض : الجمل الضعيف .

(٥) العد : أراد به هنا معين الماء الذي له مادة لا تنقطع ، يقال ماء عد أي كثير دائم لا ينقطع ، البرض : القليل . قال ابن دريد :

« أرمق العيش على برض فإن ... رمت ارتشافا رمت صعب المنتسى.»

يقال ماء برض (بالسكون) أي قليل وهو خلاف الغمر، والمستشف : الذي يأتي على آخر ما في الإناء عند العرب.

إذا الشَّمْسُ قَابَلْتَهَا ـ أَرْمَدًا ـ فَحَظُّ جُفُونِكَ فِي أَنْ تُغَضّ [١]

* * *

أَرَى كُلَّ مُجْرٍ « أَبَا عَامِرٍ » يُسَرُّ إِذَا فِي خَــلَاءٍ رَكَضْ

أُعِيذُكَ مِنْ أَنْ تَرَى مِنْزَعِي [٢] إِذَا وَتَرِي بِالْمَنَايَا انْقَبَضْ

فَإِنِّي أَلِينُ لِمَنْ لَانَ لِي وَأَتْرُكُ مَنْ رَامَ قَسْرِي حَرَضْ [٣]

وَكَمْ حَرَّكَ الْعُجْبُ مِنْ حَائِنٍ فَغَادَرْتَهُ ، مَابِهِ مِنْ حَبَضْ [٤]

* * *

« أَبَا عَامِرٍ » أَيْنَ ذَاكَ الْوَفَاءُ إِذِ الدَّهْرُ وَسْنَانُ، وَالْعَيْشُ غَضّ؟

وَأَيْنَ الَّذِي كُنْتَ تَعْتَدُّ مِنْ مُصَادَقَتِي الْوَاجِبَ الْمُفْتَرَضْ؟

تَشُوبُ وَأَمْحَضُ [٥] مُسْتَبْقِيًا وَهَيْهَاتَ مَنْ شَابَ مِمَّنْ مَحَضْ!

* * *

أَبِنْ لِي، أَلَمْ أَضْطَلِعْ نَاهِضًا [٦] بِأَعْبَاءِ بِرِّكَ، فِيمَنْ نَهَضْ؟

أَلَمْ تَنْشَ مِنْ أَدَبِي نَفْحَةً حَسِبْتَ بِهَا الْمِسْكَ طِيبًا يُفَضّ؟

---

(١) قال المتنبي :

« قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويكر الفم طعم الماء من سقم . »

(٢) المنزع : السهم الذي يرمى به أبعد ما يقدر عليه لتقدر به الغلوة قال الأعشى :

فهو كالمنزع المريش من الشو حط غالت به يمين المغالي

(٣) حرض : ساقط لايقوى على النهوض .

(٤) الحبض : التحرك والصوت ، والقوة وبقية الحياة ، يقول : كم دفع الغرور من قرب حينه إلى ما وأتى فتركته ميتا لاحراك به .

(٥) أى تمزج الصافي بالكدر وأصفيك الهوى خالصاً من كل شائبة

(٦) وفي رواية « : هاديا »

أَلَمْ تَكُ مِنْ شِيمَتِي غَادِيًا ... إِلَى تُرَعٍ ضَاحَكَتْهَا فُرَضْ[١] ؟

وَلَوْلَا اُخْتِصَاصُكِ لَمْ أَلْتَفِتْ ... لِحَالَيْكَ مِنْ صِحَّةٍ أَوْ مَرَضْ

وَلَا عَادَنِي — مِنْ وَفَاءٍ — سُرُورٌ ... وَلَا نَالَنِي — لِجَفَاءٍ — مَضَضْ

يَعِزُّ اُعْتِصَارُ الْفَتَى وَارِدًا ... إِذَا الْبَارِدُ الْعَذْبُ أَهْدَى الْجَرَضْ[٢]

***

عَمَدْتَ لِشِعْرِي وَلَمْ تَنْدَّبْ[٣] ... تُعَارِضُ جَوْهَرَهُ بِالْعَرَضْ

أَضَاقَتْ أَسَالِيبُ هٰذَا الْقَرِيضِ ؟ أَمْ قَدْ عَفَا رَسْمُهُ فَانْقَرَضْ ؟

***

لَعَمْرِي لَفَوَّقْتَ سَهْمَ النِّضَالِ ... وَأَرْسَلْتَهُ، لَوْ أَصَبْتَ الْغَرَضْ[٤]

وَشَمَّرْتَ لِلْخَوْضِ فِي لُجَّةٍ ... — هِيَ الْبَحْرُ — سَاحِلُهَا لَمْ يُخَضْ

وَغَرَّكَ مِنْ عَهْدِ « وَلَّادَةٍ »[٥] ... سَرَابٌ تَرَاءَى وَبَرْقٌ وَمَضْ

تَظُنُّ الْوَفَاءَ بِهَا وَالظُّنُو ... نُ فِيهَا تَقُولُ عَلَى مَنْ فَرَضْ :

« هِيَ الْمَاءُ يَأْبَى عَلَى قَابِضٍ[٦] ... وَيَمْنَعُ زُبْدَتَهُ مَنْ مَخَضْ »

---

(١) الفرض — جمع فرضة ، والفرضة من النهر ثلمة يستقى منها ومن البحر محط السفن .

(٢) وفى الأصل : « ولكن يعز اغتصار الفتى واردا » ، والجرض معناه الغصص بالريق ، يقال جرض بريقه : ابتلعه بالجهد . والاعتصار : أن يغص الانسان بالطعام فيعتصر بالماء ، وهو أن يشربه قليلا قليلا ، قال عدى بن زيد :

« لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى . »

(٣) ولم تأل جهدا . (٤) الغرض : الهدف .

(٥) وفى الأصل : « وغرك من عهد معالة » ولكنه فى بقية الروايات : « ولادة »

(٦) وفى رواية : « هى الماء يعز على قابض » .

وَنَبْتُهَا بَعْدِيَ اسْتُخْمِدَتْ بِسِرِّى إِلَيْكَ لِمَعْنًى غَمَضْ

* * *

« أَبَا عَامِرٍ » عَثْرَةً فَاسْتَقِلْ لِتُبْرِمَ مِنْ وُدِّنَا مَا انْتَقَضْ

وَلاَ تَعْتَصِمْ ضَلَّةً بِالْحِجَاجِ (١) وَسَيِّمْ فَرُبَّ احْتِجَاجٍ دُحِضْ

وَإِلاَّ انْتَحَتْكَ جُيُوشُ الْعِتَابِ مُنَاجِزَةً فِى قَضِيضٍ وَقَضّْ

* * *

وَأَنْذِرْ خَلِيلَكَ مِنْ مَاهِرٍ بِطِبِّ الْجُنُونِ إِذَا مَا عَرَضْ

كَفِيلٌ بِبَطِّ خِرَاجٍ قَسَا (٢) جَرِىءٌ عَلَى شَقِّ عِرْقٍ نَبَضْ

يُبَادِرُ بِالْكَىِّ قَبْلَ الضِّمَادِ وَيُسْعِطُ بِالسِّمِّ لاَ بِالْحُضَضْ

وَأَشْعِرْهُ أَنِّى انْتَخَبْتُ الْبَدِيلَ وَأَعْلِمْهُ أَنِّى اسْتَجَدْتُ الْعِوَضْ

فَلاَ مَشْرَبِى ـ لِقِلاَهُ ـ أَمَرّْ وَلاَ مَضْجَعِى ـ لِنَوَاهُ ـ أَقَضّْ

وَإِنَّ يَدَ الْبَيْنِ مَشْكُورَةٌ لِعَارٍ أَمَاطَ وَوَضْمٍ رَحَضْ (٣)

وَحَسْبِىَ أَنِّى أَطَبْتُ الْجَنَى لِإِبَّانِهِ ، وَأَبَحْتُ النَّفَضْ (٤)

وَيَهْنِيكَ أَنَّكَ يَا سَيِّدِى غَدَوْتَ مُقَارِنَ ذَاكَ الرَّبَضْ (٥)

---

(١) الحجاج : المحاجة والجدل .

(٢) وفى الأصل : « خراج حرى . »

(٣) رحض : غسل .

(٤) النفض : ماسقط من الورق والثمر وحب العنب حين يوجد بعضه فى بعض .

(٥) الرَّبَض : الأمعاء أو ما فى البطن سوى القلب ، ومأوى الغنم ، وقوتك الذى يكفيك من اللبن .

مدح ابن جهور وشكر باديس (١)

« وقال من قصيدة طويلة يمدح بها الوزير
الأجل محمد بن جهور . »

سَلِ المَعْشَرَ الأَعْدَاءَ ـ إِنْ رُمْتَ صَرْفَهُمْ ـ عَنِ القَصْدِ إِنْ أَعْيَاكَ مِنْهُ مَرَامُ
أَتَوْكَ كَآسَادِ الشَّرَى فَرَدَدْتَهُمْ كَمَا أَجْفَلَتْ وَسْطَ الفَلَاةِ نَعَامُ
مضَوْا يَسْأَلُونَ النَّاسَ عَمَّا وَرَاءَهُمْ فَيُخْبِرُهُمْ ـ بِالمُبْكِيَاتِ ـ عِصَامُ (٢)

---

(١) سبق الكلام عن « باديس » وعن « صنهاجة » فى ص (٢٢٠ و ٢٢١) من هذا الديوان ، فليرجع إليهما من شاء .

(٢) يقول المثل : « ما وراءك يا عصام ؟ » وجاء فى مجمع الأمثال عن المفضل الضبي أن أول من قال ذلك الحرث بن عمرو ملك كندة ، وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم الشيباني وكمالها وقوة عقلها ، دعا امرأة من كندة يقال لها « عصام » ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لى علم ابنة عوف ، فمضت حتى انتهت إلى أمها ، وهى « أمامة » بنت الحرث ، فأعلمتها ما قدمت له ، فأرسلت « أمامة » إلى ابنتها وقالت : أى بنية ! هذه خالتك أتت لتنظر إليك فلا تستري عنها شيئا إن أرادت النظر ، من وجه أو خلق ، وناطقيها إن استنطقتك ، فدخلت إليها ، فنظرت إلى مالم تر قط مثله ، فخرجت من عندها وهى تقول : « ترك الخداع ، من كشف القناع . » فأرسلتها مثلا ، ثم انطلقت إلى الحرث فلما رآها مقبلة ، قال لها : « ما وراءك يا عصام . » قالت : « صرح المحض عن الزبد . » رأيت جبهة كالمرآة المصقولة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل ، وحاجبين كأنما خطا بقلم ، أو سودا بحمم ، تقوسا على مثل عين ظبية عبهرة ، بينهما أنف كحد السيف الصنيع ، حفت به وجنتان ، كالأرجوان ، فى بياض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ذات أشر ، تقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، بعقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى فيه شفتان حمراوان ، فى رقبة بيضاء كالفضة ، ركبت فى صدر كصدر تمثال دمية ، وعضدان مدمجان ، يتصل بهما ذراعان ، ليس فيهما عظم يمس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما ، لين عصبهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل ، نتأ فى ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طوى طى القباطى المدمجة ، كسر عكنا كالقراطيس المدرجة ، تحيط بتلك العكن سرة كالمدهن المجلو ، خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ، ينتهى إلى خصر لولا رحمة الله لانبتر ، لها كفل يقعدها إذا نهضت ، وينهضها إذا قعدت ، كأنه دعص الرمل ، لبده سقوط الطل ، يحمله فخذان لفاوان ، تحتهما ساقان خدلجتان ،

وَمَا ضَاقَ عَنْهُمْ جَانِبُ الْعُذْرِ إِنَّهُمْ　　كَمِثْلِ الْقَطَا لَوْ يُتْرَكُونَ لَنَامُوا (١)

يحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، فتبارك الله مع صغرها ، كيف تطيقان حمل ما فوقهما ؟ . فأرسل الملك إلى أبيها لخطبها فزوجها إياه وبعث بصداقها لجهزها إليه ، فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها : أى بنية ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب لتركت ذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها ، لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال ، أى بنية ! إنك إن فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبدا وشيكا ، الى آخر ما جاء فى هذا الخبر ، قال فى مجمع الأمثال بعد سياقة هذا الخبر : وروى أبو عبيد ، ما وراءك على التذكير ، وقال : يقال إن المتكلم به النابغة الذبيانى قاله لعصام بن شهبر حاجب النعمان وكان النعمان مريضاً ، وقد أرجف بموته ، فسأله النابغة عن حال النعمان ، فقال : « ما وراءك يا عصام . » ومعناه ماخلفت من أمر العليل ، أو ما أمامك من حاله ، ووراء من الأضداد .

(١) يشير إلى المثل المشهور : « لو ترك القطا ليلا لنام » يضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته . وقد تمثل به الحسين بن على (رضى الله عنه) فى الليلة الأخيرة التى تلاها مصرعه ، قال علىّ ابنه :

إنى لجالس فى تلك العشية — التى قتل أبى فى صبيحتها — وعمتى « زينب » عندى تمرضنى ، إذ اعتزل أبى بأصحابه — فى خباء له — وعنده « حوىّ » مولى « أبى ذر » — وهو يعالج سيفه ويصلحه — وأبى يقول :

« يادهر : أف لك من خليل
كم لك — بالاشراق والأصيل —
من صاحب ، أو طالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل
وكل حىّ سالك السبيل . »

قال علىّ بن الحسين :

فأعادها أبى مرتين أو ثلاثاً — حتى فهمتها — فعرفت ما أراد ، فخنقتنى عبرتى ، فرددت دمعى ولزمت السكوت ، وعلمت أن البلاء قد نزل ، فأما عمتى فإنها سمعت ما سمعت — وهى امرأة ، وفى النساء الرقة والجزع — فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها — وإنها لحاسرة — حتى انتهت إليه ، فقالت :

« واثكلاه ! ليت اليوم أعدمنى الحياة ! اليوم ماتت « فاطمة » أمى و « علىّ » أبى و « حسن » أخى . ياخليفة الماضى ، وثمال الباقى . » فنظر الحسين ، فقال :

« يا أخيه ! لايذهبن حلمك الشيطان ! »

قالت : « بأبى أنت وأمى ، يا أبا عبد الله استقتلت ، نفسى فداك ! » فردّ غصته ، وترقرقت عيناه ، وقال :

« لو ترك القطا ليلا لنام !

***

فِدَاءٌ « لِبَادِيسَ » النُّفُوسُ ، وَجَادَهُ مِنَ الشُّكْرِ - فِى أُفْقِ الْوَفَاءِ - غَمَامُ
فَمَا لَحِقَتْ تِلْكَ الْعُهُودَ مَلاَمَةٌ وَلاَ ذُمَّ - مِنْ ذَاكَ الْحِفَاظِ - ذِمَامُ [1]
وَمِثْلُكَ وَالَى مِثْلَهُ فَتَصَافَيَا كَمَا صَافَتِ - الْمَاءَ الْقَرَاحَ - مُدَامُ
رَسِيلُكَ - فِى شَأْوِ الْمَعَالِى - كِلاَ كُمَا بَعِيدُ الْمَدَى صَعْبُ الْهُمُومِ هُمَامُ

***

لَعَمْرِى لَقَدْ أَحْظَيْتَهُ بِوِفَادَةٍ لِأَسْنَى كَرِيمٍ أَنْجَبَتْهُ كِرَامُ
فَمَا أَنْتَ إِلاَّ عَدْلَ نَفْسِكَ إِنْ يَسِرْ فَلِلْجِسْمِ لاَ لِلنَّفْسِ مِنْكَ مُقَامُ [2]
حُسَامُكَ مَهْمَا تَخْتَرِطْهُ لِمِثْلِهَا فَقَلَّ غَنَاءُ السَّيْفِ حِينَ يُشَامُ

اسم من أحب

« وقال فى معشوقة يؤخذ اسمها بالتوالى من أرض
وسماء وماء ، فيتكوّن من مجموعها « أسماء » . »

إِنَّ لِلأرْضِ وَالسَّمَاءِ وَلِلْمَا ءِ عَلَيْنَا أَذِمَّةً لاَ تُذَمُّ
هِىَ بَعْضُ اسْمِ مَنْ أُحِبُّ وِلاَءً وَبِتَكْرِيرِ بَعْضِهَا يَسْتَتِمُّ

قالت :
« يا ويلتا ! أفتصب نفسك اغتصاباً ؟ فذلك أفرح لقلبي ، وأشد على نفسى ! » ولطمت وجهها ، وأهوت إلى جيبها وشقته ، وخرت مغشياً عليها .
فقام إليها الحسين فصبّ على وجهها الماء ، وعزّاها بكلام طويل يرجع إليه القارئ - إذا شاء فى كتابنا « مصارع الأعيان » من ص « ٢٥ إلى ٥٦ »

(١) عهد . (٢) وفى الأصل :
« فما ابنك إلا بعدل نفسك ، إن يسر ، بالجسم - لا النفس منك - مقام . »

وقال

« كان أبو المطاف بن حي إذ ورد إشبيلية رسولا قد سأله أن يريه من شعره ، فمطله حتى كتب إليه شعرا يستمطه فيه ، فجاوبه عليه في عروضه وقافيته . »

أَفَدْتَنِي مِنْ نَفَائِسِ الدُّرَرِ مَا أَبْرَزَتْهُ غَرَائِزُ الْفِكَرِ (١)

مِنْ لَفْظَةٍ قَارَنَتْ نَظِيرَتَهَا قِرَانَ سُقْمِ الْجُفُونِ لِلْحَوَرِ (٢)

أَبْدَعَهَا خَاطِرٌ ، بَدَائِعُهُ ـ فِي النَّظْمِ ـ حَازَتْ جَلَالَةَ الْخَطَرِ

الْعِطْرُ مِنْهَا سَرَى لَهُ نَفَسٌ ، مِنْ نَفَسِ الرَّوْضِ رَقَّ فِي السَّحَرِ (٣)

***

يَا رَاقِمَ الْوَشْيِ ـ زَانَهُ ذَهَبٌ ـ رَقْرَقَ إِذْ رَفَّ مِنْهُ فِي الطُّرَرِ (٤)

---

(١) يقول : أفدتني من نفائس كلمك الشبيهة بالدر انشقت عنه الأصداف ما أبرزته غرائز فكرك من مكنون روائع الكلم ، وبدائع الحكم .

(٢) سقم الجفون : فتورها ، والحور : في العين شدة سواد المقلة في شدة بياضها في شدة بياض لون الجسد ، وقيل الحور أن تسود العين كلها كما في أعين الظباء والبقر ، وهذا ليس بموجود في الآدميين ، يقول : أكسبتني من نفائس دررك كل لفظة وافقت قرينتها ، وقارنت نظيرتها ، قران سقم الجفون لحور العيون .

(٣) يقول : العطر من هذه الكلم البديعة التي أبدعها خاطرك سرى له نفس يحكي في الأريج والرقة نفس الروض العطر ، سرى به النسيم وقت السحر ، وفي الأصل : « أعطر مهما سرى له نفس . » ، وما أثبتناه هنا هو ما يرشد إليه السياق .

(٤) الوشي : النقش ، ورقرق : تحرك ولمع وصار له بصيص وتلألؤ ، ورف يقال : رف اللون والذهب والبرق يرف (بالكسر) رفيفا برق وتلألأ ، ورفت الأسنان كذلك ، وفي الحديث أن « النابغة » الجعدي أنشد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا . »

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا يفضض الله فاك . » فبقيت أسنانه ترف حتى مات ، يقول : يا كاتبا يرقم في الكتاب ما يحكي البرد الموشى المذهب الطرر والحواشي ، والذي لونه رقراق وبصيص ، وفي الأصل « رقراق » وقد وضعنا بدلها « رقرق » ليستقيم المعنى والوزن .

وَنَاظِمَ الْعِقْدِ ـ نَظْمَ مُقْتَدِرٍ ـ   يَفْصِلُ بَيْنَ الْعُيُونِ بِالْغُرَرِ (١)

لِى بِالنِّضَالِ الَّذِى نَشِطْتَ لَهُ   عَهْدٌ قَدِيمٌ مُعَجَّمُ الْأَثَرِ (٢)

هَلْ أُنْصِلَ السَّهْمَ فى الجَفِيرِ وَقَدْ   تَعَطَّلَتْ فُوقُهُ مِنَ الْوَتَرِ ؟ (٣)

***

مَا الشِّعْرُ إلاَّ لِمَنْ قَرِيحَتُهُ   غَرِيضَةُ النَّوْرِ غَضَّةُ الثَّمَرِ (٤)

تَبْسِمُ عَنْ كُلِّ زَاهِرٍ أَرِجٍ   مِثْلَ الْكِمَامِ ابْتَسَمْنَ عَنْ زَهَرِ

إِنَّ الشَّفِيعَ الْهُمَامَ سَوَّغَهُ   اللهُ اتِّصَالَ التَّأْيِيـــدِ بِالظَّفَرِ

الْفَاضِلُ الْخُبْرِ فى الْمُلُوكِ إِذَا   أَقْصَرَ خُبْرٌ عَنْ غَايَةِ الْخَبَرِ (٥)

نُجِلُّ الَّذِى نُصْحُهُ وَطَاعَتُهُ   كَالْحَجِّ تَتْلُوهُ بَرَّةُ الْعُمَرِ (٦)

---

(١) العيون : الخيار المنتخب من حبات العقد ، والغرر البيض ، يقول : ويا ناظم الشعر نظم قدير يفصل بين أجزائه ، ويؤلف بين مواقع كله ، كما يؤلف ناظم العقد بين خرزه وحباته ،ويفصل بين الخيارالمنتخب منها بدرر اللآلئ .

(٢) النضال : المراماة بالسهام وأراد به هنا المساجلة والمسابقة فى مجال القول ، ومعجم الأثر : مبهم مشكل قد انطمست معالمه وآثاره ، يقول : بعثت إلىّ بهذه الكلم الثمينة ، والنظم الرائع تريد بذلك أن تجدد عهد النضال الذى نشطت له أنت الآن بعد أن طال بى عهده ، وأبهم على أمره ، واستعجم أثره .

(٣) أنصل . مضارع أنصل السهم جعل له نصلا ، والجفير : جعبة السهام ، والفوق : موضع الوتر من السهم ، يقول : هل أجعل للسهم الذى فى الجفير نصلا ، وقد تعطلت فوقه أى مشق رأسه فلم تعد صالحة لأن يوضع الوتر فى موضعه منها ، يريد أن آلة النضال بطلت عنده وتعطلت أسبابها لطول العهد .

(٤) غريضة النور : الغريض ، والغض : كلاهما اللين الطرى الناضر من الزهر والنبات وغيرهما .

(٥) الخبر : (بضم وكسر أوله وسكون ثانيــه) العلم بالشىء عن عيان وخـبرة ، والخبر : النبأ الذى يأتيك عن طريق السماع ، يقول : هو الملك الذى يفضل ويزيد الخبر والعلم بصفاته وأحواله عن الخبر الذى يبلغك عنه فى حين أن غيره من الملوك يقصر الخبر والعلم بأحوالهم عن الخبر الذى يأتيك عنهم .

(٦) برة العمر : أى العمر المبرورة المقبولة جمع عمرة ، وهى فى الأصــل الزيارة ، وتتحقق شرعا بالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ، والفرق بينها وبين الحج أن العمرة تطوع وأنه يجوز للانسان أن يعتمر فى السـنة كلها بخلاف الحج فانه لايجوز الاحرام به وأداء مناسكه إلا فى أشهر الحج المعلومة وهى شوال ، وذو القعدة ، وعشر ذى الحجة ، يعنى أن نصحه وطاعته من أعمال البر التى تقابل من الله بالثواب ، وهى لكونها من الطاعة والبر بمثابة الحج الذى تتلوه العمر المبرورة .

شَاهِدُ عَهْدِي لَكَ الصَّحِيحُ بِإِخْـــلَاصٍ نَأَى صَفْوُهُ عَنِ الْكَدَرِ

***

مَشَيْتُ فِي عَذْلِيَ الْبَرَازَ لِمَنْ   لَمْ يَرْضَ فِي الْعُذْرِ مِشْيَةَ الْخَمَرِ (١)

وَقُلْتُ: مَطْلُ الْغَنِيِّ وِرْدٌ مِنَ الظُّـــلْمِ، يُلَقِّي مَلَاوِمَ الصَّـــدَرِ (٢)

وَلِي مَعَاذِيرُ لَوْ تَطَلَّعُ فِي   لَيْلِ سِرَارٍ أَغْنَتْ عَنِ الْقَمَرِ

مِنْهَا اتِّقَائِي لِأَنْ أَكُونَ أَنَا الْـــجَالِبَ مَا قُلْتُهُ إِلَى هَجَرِ (٣)

لَـكِنْ سَـــيَأْتِيكَ مَا يُجَوِّزُهُ   سَرْوُكَ دَأْبَ الْمُسَامِحِ الْيَسَرِ

فَاكْتَفِ مِنْهُ بِنَظْرَةٍ عَنَنٍ (٤)   لَا حَظَّ فِيـــهِ لِكَرَّةِ النَّظَرِ

---

(١) البراز: من الأرض الفضاء الواسع الذي ليس به خمر يستره من شجر أو غيره، والخمر: ما يستر الماشي ويواري الصيد من شجر أو جرف أو حبل من حبال الرمل أو غير ذلك، يقول: عذلتك ولمتك لوما صريحا لا مواربة فيه، فكنت فيه كمن يمشي البراز لا يواريه خمر، ولا يستره ساتر من مرتفع أو شجر، وهو عذل أعلنه لمن لم يرض قول عذر أستتر وراءه تحرجا من مجاراته، وأخفى في التماسه صفحا عن مباراته وفي المثل: «مشى إليه البراز» و «مشى إليه الملا والبراح» أي مشى إليه ظاهراً غير مستتر، وجاء في ضد هذا المثل مثل آخر وهو: «مشى إليه الخمر، ودب له الضراء.»

(٢) المطل: المد يقال مطل الحبل وغيره يمطله مطلا، وفي الحديث: «مطل الغني ظلم.» والملاوم: جمع الملامة، والصدر: الانصراف والرجوع عن الشيء.

(٣) في المثل: «كمستبضع التمر إلى هجر.» و «ناقل التمر إلى هجر» وهو مثل قديم متداول: يضرب في الخطأ لأن ناقل الشيء إلى معدنه مخطئ ويقال أيضا كمستبضع التمر إلى خيبر. قال النابغة الجعدي:

«وإن امرأ أهدى إليك قصيدة   كمستبضع تمرا إلى أرض خيبرا.»

وقد ورد هذا المثل في كتاب لسيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه بعث به جوابا إلى معاوية رضي الله عنه وهو من محاسن كتبه، وذلك حيث يقول عليه السلام في صدر هذا الكتاب: —

«أما بعد» فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمدا صلى الله عليه وآله لدينه، وتأييده إياه بمن أيده من أصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجبا إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله عندنا ونعمته علينا في نبينا، فكنت في ذلك: «كناقل التمر إلى هجر، أو داعي مسدده إلى النضال.» إلى آخر ما جاء في هذا الكتاب الممتع، فارجع إليه في نهج البلاغة إن شئت.

(٤) أي تعترض لك من غير تعمل ولا قصد، يقول: سيأتيك لطي هذا الذي يجيزه سروك وإغضاؤك عما فيه إغضاء المسامح المتسهل، فاكتف منه بنظرة عجلى، فإنه لاحظ فيه لمعاودة النظر كرة بعد كرة.

بين ابن زيدون والمعتمد

« وكتب إليه المعتمد على الله المؤيد بنصر الله وهو جالس فى فصيل من القصر تحت غرفة لزومه :

أيها المنحط عنى مجلسا ... وله فى القلب أعلى مجلس
بفؤادى لك حب يقتضى ... أن ترى تحمل فوق الأرؤس

فجاوبه ابن زيدون . »

أَسَقِيطُ الطَّلِّ فَوْقَ النَّرْجِسِ ... أَمْ نَسِيمُ الرَّوْضِ تَحْتَ الْحِنْدِسِ
أَمْ نِظَامٌ لِلآلٍ نَسَقٍ ... جَامِعٍ كُلَّ خَطِيرٍ مُنْفِسِ [1]
أَمْ قَرِيضٌ جَاءَنِي عَنْ مَلِكٍ ... مَالِكٍ بِالْبِرِّ رِقَّ الْأَنْفُسِ
دَلَّهَتْ فِكْرِيَ مِنْ إِبْدَاعِهِ ... حَيْرَةٌ فِي مَنْطِقٍ لِي مُخْرِسِ
بِتُّ مِنْهُ بَيْنَ سَهْلٍ مُطْمِعٍ ... خَادِعٍ يُتْلَى بِحَزْنٍ مُؤْيِسِ

***

يَا نَدَى يُمْنَى « أَبِي الْقَاسِمِ » غِمْ ... يَا سَنَا شَمْسِ الْمُحَيَّا أَشْمِسِ
يَا بَهِيجَ الْخُلُقِ الْعَذْبِ ابْتَسِمْ ... يَا مُهِيجَ الْأَنْفِ الصَّعْبِ اعْبِسِ
يَا جَمَالَ الْمَوْكِبِ الْغَادِي ـ إِذَا ... سَارَ فِيهِ ـ يَا بَهَاءَ الْمَجْلِسِ
أَنْتَ لَمْ يُقْنِعْكَ أَنْ أَلْبَسْتَنِي ... نِعْمَةً تُذْكِرُ عَهْدَ السُّنْدُسِ
فَتَلَطَّفْتَ لِأَنْ حَلَّيْتَنِي ... مُولِيًا طَوْلَى مُحَلَّى مَلْبَسِ

(١) يقول : أم هى لآلئ منسقة فى نظام جامع أنفس الأعلاق وأجلها خطرا

ذَاكَ تَنْوِيهٌ ثَنَانِي فَخْـــرُهُ ... سَامِيَ اللَّحْظِ أَشَمَّ المَعْطِسِ

شَرَّفَتْ بِكْرَ المَعَالِي خِطْبَةٌ ... مِنْكَ، فَانْعَمْ بِسُرُورِ المُعْرِسِ

تُمْنَحِ التَّأْيِيدَ يُجْلَى لَكَ عَنْ ... ظَفَرٍ حُـــلْوٍ وَعِزٍّ أَقْعَسِ

وَارْتَشِفْ مَعْسُولَ نَصْرٍ أَشْنَبٍ ... تَجْتَنِيهِ مِنْ مُجَاجِ الْعَسِ

وَارْتَفِقْ بِالسَّعْدِ فِي دَسْتِ الْمُنَى ... تُصْبِحِ الصُّنْعَ دِهَاقَ الْأَكْؤُسِ

فَاعْتِرَاضُ الدَّهْرِ ـ فِيمَا شِئْتَهُ ـ ... مُرْتَقًى فِي صَدْرِهِ لَمْ يَهْجِسِ

وقال

« وقد أمره بدخول حمام القصر وبعث إليه بخور وطيب . »

رِضَاكَ لَنَا ـ قَبْلَ الطَّهُورِ ـ مُطَهِّرٌ ... وَقُرْبُكَ ـ مِنْ دُونِ الْبَخُورِ ـ مُعَطِّرُ

فَلَوْ عَزَّ حَمَّامٌ لَأَدْفَأَنَا ذَرًى ... يَفِيضُ بِهِ مَاءُ النَّدَى الْمُتَفَجِّرُ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ طِيبٌ لَأَغْنَتْ حَفَاوَةٌ ... تُمَسِّكُ مِنْهَا حَالَنَا وَتُعَنْبِرُ (١)

فَلَا فَارَقَ الدُّنْيَا سَـــنَاءٌ مُقَدَّسٌ ... بِمَيْشِكَ فِيهَا أَوْ ثَنَاءٌ مُجَمَّرُ (٢)

وَدُمْتَ مُلَقًّى ـ كُلَّ يَوْمٍ ـ صَبِيحَةً ... يُغَادِيكَ فِيهَا ـ بِالْفُتُوحِ ـ مُبَشِّرُ

وقال

« مجاوبا له عن شعر خاطبه به . »

أَمَوْلَايَ بُلِّغْتَ أَقْصَى الْأَمَلْ ... وَسُوِّغْتَ دَأْبًا انْسَاءَ الْأَجَلْ (٣)

---

(١) لو لم نجد الطيب لأغنتنا عنه حفاوتك التي تعطرنا بالمسك والعنبر .

(٢) السناء : الرفعة ، والثناء : المدح ، والمجمر المبق ، يقال : جمر ثوبه : بخره ، وجمر النار : هيأها .

(٣) نساء الأجل : طوله

وَعُمِّرْتَ مَاشِئْتَ فِى دَوْلَةٍ   تُقَصِّرُ عَنْهَا طِوَالُ الدُّوَلْ

فَأَنْتَ الَّذِى غُرُّ أَفْعَالِهِ   تَحَلَّى بِهَا الدَّهْرُ بَعْدَ الْعَطَلْ

يُشَرِّفُ مَمْلُوكَكَ الْمُسْـ   ـتَرَقَّ نَظْمٌ مِنَ الْكَلِمِ الْمُنْتَخَلْ [1]

وَرَاحٌ تُعِيدُ إِلَى مَنْ أَسَـ   ـنَّ طِيبَ زَمَانِ الصِّبَا الْمُقْتَبَلْ [2]

فَأَخْجَلَنِى الْبِرُّ مِنْ فَرْطِهِ   وَإِنَّ الْجَوَابَ لَيُبْدِى الْخَجَلْ

وَقَدْ يَقْبَلُ الدَّهْرَ مَوْلَى الْأَنَا   مِ جُهْدَ الْعَبِيدِ إِذَا مَا أَقَلّْ

سَعِدْتَ كَمَا سَعِدَ الْمُشْتَرِى   وَنِلْتَ عُلاً لَمْ يَنَلْهَا زُحَلْ [3]

جـــواب

« وقال مجاوبا له أيضا . »

هَلْ يَشْكُرَنَّ «أَبُو الْوَلِيدْ» [4]   إِدْنَاءَكَ الْأَمَلَ الْبَعِيدْ

أَوْ أَنْ تُسَوِّغَ نِعْمَةً   لِلدَّهْرِ أَسْهَرَتِ الْحَسُودْ

إِنْ لَمْ يَدِنْ بِنَصِيحَةٍ   تُرْضِيكَ فَهْوَ مِنَ الْيَهُودْ

لَا زِلْتَ رَافِعَ رَايَةٍ   تُضْحِى السُّعُودُ لَهَا جُنُودْ

وقال يستهديه خمرا

يَا بَانِيًا كُلَّ مَجْدِ   وَهَادِمًا كُلَّ وُجْدِ

جِسْمُ السُّرُورِ سَوِىٌّ   مِنْ صَوْغِ نُعْمَاكَ عِنْدِى

فَهَبْ لَهُ رُوحَ رَاحٍ   يَنْطِقْ بِأَحْفَلِ حَمْدِ

---

(١) المنتخل : المدق المتحير .   (٢) وقد جاء بعد هذا البيت قوله :

« أنت مع امراء ما يقتدى   وأغرب با كورة تلتقل . »

(٣) المشترى وزحل كوكبان معروفان . قال أبو العلاء :

« زحل أشرف الكواكب دارا   من لقاء الردى على ميعاد .

(٤) يعنى نفسه .

وقال مجاوباً المعتمد

أَفَاضَ سَمَاحُكَ بَحْرَ النَّدَى ... وَأَقْبَسَ هَدْيُكَ نُورَ الْهُدَى

وَرَدَّ الشَّبَابَ اعْتِلَاقُكَ بَعْدَ ... مُفَارَقَتِي ظِلَّهُ الْأَبْرَدَا [1]

وَمَا زَالَ رَأْيُكَ فِيَّ الْجَمِيلُ ... يُفَتِّحُ لِي الْأَمَلَ الْمُوصَدَا [2]

وَحَسْبِيَ مِنْ خَالِدِ الْفَخْرِ أَنْ ... رَضِيتَ قَبُولِيَ مُسْتَعْبَدَا [3]

وَيَا فَرْطَ مَابِي [4] إِذَا مَاطَلَمْتَ ... فَقُمْتُ أُقَبِّلُ تِلْكَ الْيَدَا

وَرَدَّدْتُ لَحْظِيَ فِي غُرَّةٍ ... إِذَا اجْتُلِيَتْ شَفَتِ الْأَرْمَدَا

وَطَاعَةُ أَمْرِكَ فَرْضٌ أَرَا ... هُ مِنْ كُلِّ مُفْتَرَضٍ أَوْكَدَا

هِيَ الشَّرْعُ أَصْبَحَ دِينَ الضَّمِيرِ ... فَلَوْ قَدْ عَصَاكَ لَقَدْ أَلْحَدَا

وَحَاشَايَ مِنْ أَنْ أَضِلَّ الصِّرَاطَ ... فَيُعْدُونِيَ الْكُفْرُ مِمَّا بَدَا [5]

وَأُخْلِفَ مَوْعِدَ مَنْ لَا أَرَى ... لِدَهْرِيَ إِلَّا بِهِ مَوْعِدَا [6]

---

(١) يقول : رد على شبابي بعد أن فارقت ظله الأبرد اعتلاقي بأسبابك والمعالي بدولتك .

(٢) وما زال جميل رأيك فيّ يفتح لي من الآمال كل باب مغلق .

(٣) وكفاني فخرا خالداً أنك رضيت قبولي ضمن من استعبدتهم بإحسانك ، ومددت عليهم ظلّ نعمتك الوارف . (٤) في الأصل : « يا فرط ناوى . »

(٥) يقول : حشاي أن أضلّ الصراط وأرفض أوّل فرض عليّ من طاعتك التي هي الشرع ، ومعتقد الضمير ، فيعدنى الكفر عما بدا لي من صحة الإيمان .

(٦) في الأصل : « وأخلف بالوعد » وهو لا يتعدى بالباء ، فأبدلناه بالموعد ليصح اللفظ ، والسبب في أنه يتنصل هنا من خلف الموعد أن « المعتمد » كان قد عرض له سفر فجأة فكتب إلى « ابن زيدون » :

« العين بعدك تقذى ... بكلّ شيء تراه

فليحل شخصك عنها ... ما بالمغيب جلاه . »

فعاقت « ابن زيدون » عن الجواب أشغال توالت عليه ، ثم استبطأه « المعتمد » فبعث إليه بالقصيدة التالية معاتباً :

وعدت وأخلفتني الموعدا ... وخالفتَ بالمنتهى المبتدا

أَتَانِي عِتَابٌ مَتَى أَذَّكِرْ ‏ ‏ هُ فِي نَشَوَاتِ الْكَرَى أَسْهَدَا (١)

وَإِنْ كَانَ أَعْقَبَـــهُ مَا اقْتَضَى ‏ ‏ شِفَاءَ السَّقَامِ وَنَقْعَ الصَّدَى (٢)

ثَنَاءٌ ثَنَى فِي سَنَـــاءِ الْمَحَـــلِّ ‏ ‏ زُهْرَ الْكَوَاكِبِ لِي حُسَّدَا (٣)

قَرِيضٌ مَتَى أَبْغِ لِلْقَرْضِ مِنْهُ ‏ ‏ أَدَاءً أَجِدْ شَـــأْوَهُ أَبْعَدَا

لَوِ الشَّمْسُ مِنْ نَظْمِهِ حُلِّيَتْ ‏ ‏ أَوِ الْبَدْرُ قَامَ لَهُ مُنْشِـــدَا

لَضَاعَفَ مِنْ شَرَفِ النَّيِّرَيْـــنِ ‏ ‏ حَظًّا بِهِ قَارَنَ الْأَسْعَدَا

وأطمعتني ثم أيأستني ‏ ‏ ويمنعني الود أن أحقدا

وأضمرت بالمطل حبل الرجاء ‏ ‏ فرثّ وأعهده محصدا

وعاد سناء ارتقابي ظلاما ‏ ‏ وأصبح مصباحه أرمدا

وكان فعالك قبل المقال ‏ ‏ فماذا عدا الآن فيما بدا

وقد كان ظني فيما رأيت ‏ ‏ به أنه الشيء بلّ اليـدا

وكم قد توكفتها روضة ‏ ‏ تقرب لي الأمل الأبعدا

يفوّر علمك أرجاءها ‏ ‏ ويقطر طعمك فيها ندا

توكفها زمنا ناظري ‏ ‏ إذا مر يوم تمادى غدا

على ذاك أعديك من ماجد ‏ ‏ تشبث بالطرف فيه الهدى

فحيناً أزور به روضـة ‏ ‏ وحينا أحيي به مسـجدا

لك العلم مهما أرد بحره ‏ ‏ لأروى به أجد الموردا

وفيـك تجمعت المأثرا ‏ ‏ ت طرا فصرت بها مفردا

شمائل تمنع شمل الهمو ‏ ‏ م تترك بالرأي شمل العدا

فمتعني الله بالحظ منك ‏ ‏ ولا زلت لي مؤنسا سرمدا

ودمت ودمت على حالنا ‏ ‏ كما يصحب الفرقد الفرقدا

فلولاك كانت ربوع السرو ‏ ‏ ر مني تجاوب فيها الصدى

(١) أتاني من قبل الممدوح عتاب تسبب لي ذكراه الأرق والسهد كلما رعتني نشوات الكرى وغشيتني أوائل النوم .

(٢) يقول : أسهدني وأرقني ادكار هـذا العتاب ، وإن كان أعقبه ما اقتضى شفاء القلوب ، وإطفاء وحر الصدور .

(٣) ثناء ومديح رفعت به شأني ، فأتتني زهر النجوم تحسدني عليه .

فَدَيْتُكَ مَوْلًى: إِذَا مَا عَثَرْتُ ... أَقَالَ ، وَمَهْمَا أَزِغْ أَرْشَدَا

وَكَنْتُ[١] إِلَى كَرَمِ الصَّفْحِ مِنْهُ ... فَآمَنَنِي ذَاكَ أَنْ يَحْقِدَا

وَآنَسْتُ سُوقَ احْتِمَالٍ أَبَى ... لِمُسْتَبْضِعِ الْعُذْرِ أَنْ يَكْسَدَا[٢]

شَفِيعِي إِلَيْهِ هَوَى مُخْلِصٍ ... كَمَا أَخْلَصَ السَّابِكُ الْعَسْجَدَا

وَمِنْ وُصَلِي هِجْرَةٌ لاَ أَعُدُّ ... لِحَالِي سِوَى يَوْمِهَا مَوْلِدَا[٣]

وَنُعْمَى تَفَيَّأْتُهَا أَيْكَةً ... فَشُكْرِي حَمَامٌ بِهَا غَرَّدَا

تَبَارَكَ مَنْ جَمَعَ الْخَيْرَ فِيكَ ... وَأَشْعَرَكَ الْخُلُقَ الْأَمْجَدَا

مَضَاءَ الْجَنَانِ وَظَرْفَ اللِّسَانِ ... وَجُودُ الْبَنَانِ بِسَكْبِ الْجَدَا

رَأَى شِيمَتَيْكَ لِمَا تَسْتَحِقُّ ... وَفَّى فَأَظْفَرَ إِذْ أَيَّدَا

لِيَهْنِكَ أَنَّكَ أَزْكَى الْمُلُوكِ ... بِنَفْسٍ وَأَشْرَفُهُمْ سُودَدَا

سِوَى نَاجِلٍ لَكَ سَامِي الْهُمُو ... مِ دَانِي الْفَوَاضِلِ نَائِي الْمَدَى[٤]

هُمَامٌ أَغَرُّ رَوَيْتَ الْفَخَارَ ... حَدِيثًا إِلَى سَرْوِهِ مُسْنَدَا[٥]

---

(١) فى الأصل « وكنت » وقد وضعنا بدلها « ركنت » التى هى كصورتها فى الخط ليستقيم المعنى .

(٢) المستبضع : اسم فاعل من استبضع الشىء جعله بضاعة ، والبضاعة طائفة من المال ترسل إلى الأسواق للتجارة ، يقول : إن احتماله وإغضاءه عن الهفوات بمثابة سوق تأبى لمن استبضع إليها الأعذار أن تكسد بضاعته ، وهو مأخوذ من المثل : « كمستبضع التمر إلى هجر . »

(٣) الوصل : جمع وصلة بمعنى الاتصال والاسباب والذرائع ، يقول : ومن أسباب اتصالى به وذرائعى إليه هجرة فارقت فيها موطنى ، واتصلت على أثرها بدولته ، واعتلقت بحبله وذمته ، تلك الهجرة التى لا أعد أن حالى استقرت وولدت ، إلا يوم أن حصلت وتمت .

(٤) الناجل : الكريم النجل ، يقول : ليس فى الملوك أزكى منك سوى والدك الذى نجلك وأنجبك .

(٥) يقول : إن أباك همام أغر مشرق الوجه ، رويت عنه الفخار حديثاً مسنداً إلى سروه ومجده ونبله .

سَلَكْتَ إِلَى المَجْدِ مِنْهَاجَهُ ... فَقَدْ طَابَقَ الأَطْرَفُ الأَتْلَدَا [١]

هُوَ اللَّيْثُ قَلَّدَ مِنْكَ النِّجَادَ ... لِيَوْمَ الْوَغَى شِبْلَه الأَنْجَدَا [٢]

يُعِدُّكَ صَارِمَ عَزْمٍ وَرَأْيٍ ... فَتُرْضِيهِ جُرِّدَ أَوْ أُغْمِدَا [٣]

وَمَا اُسْتَبْهَمَ الْقُفْلُ فِى الحَادِثَا ... تِ إِلاَّ رَآكَ لَهُ مِقْلَدَا [٤]

فَأَمْطَاكَ مَنْكِبَ طَرْفِ النُّجُومِ ... وَأَوْطَأَ إِخْمَصَكَ الفَرْقَدَا

فَلاَ زِلْتُمَا يَرْفَعُ الأَوْلِيَا ... ءَ مُلْكُكُمَا وَيَحُطُّ الْعِدَا

وَنَفْسِى لِنَفْسَيْكُمَا الْبَرَّتَيْنِ ... مِنْ كُلِّ مَا يُتَوَقَّى الْفِدَا

فَمَنْ قَالَ : أَنْ لَسْتُمَا أَوْحَدَيْنِ ... فِى الصَّالِحَاتِ فَمَا وَحَّدَا [٥]

وقال

لَعَمْرِى لَئِنْ قَلَّتْ إِلَيْكَ رَسَائِلِى ... لَأَنْتَ الَّذِى نَفْسِى عَلَيْهِ تَذُوبُ

فَلاَ تَحْسَبُوا أَنِّى تَبَدَّلْتُ غَيْرَكُمْ ... وَلاَ أَنَّ قَلْبِى مِنْ هَوَاكَ يَتُوبُ

وقال

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِى هَلْ أُصَادِفُ خَلْوَةً ... لَدَيْكِ ، فَأَشْكُو بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِدُ؟

رَعَى اللهُ يَوْمًا فِيهِ أَشْكُو صَبَابَتِى ... وَأَجْفَانُ عَيْنِى - بِالدُّمُوعِ - شَوَاهِدُ

---

(١) الأطرف : الحديث ، والأتلد : القديم .

(٢) النجاد : حمائل السيف ، والأنجد : الشجاع ذو النجدة والبأس ، يقول : هو أى والدك الملك ليث قلد شبله الأنجد الشجاع السيف ليوم الوغى والحرب .

(٣) يعدك صارم عزم وحزم فى الحرب والسياسة ، فترضيه فى الحالين : جرد السيف ، أو أغمد .

(٤) استبهم : استغلق ، والقفل : مايغلق به الباب ، والمقلد : المفتاح ، يقول : لا تستغلق الحادثات إلا رآك مفتاحاً لأقفالها المغلقة ، وفى الأصل : « النصل » ووضعنا مكانها « القفل » ليناسب الاستبهام والمقلد .

(٥) يقول : أن من ينكر أنكما فى البر والصالحات أو حدين قد بلغ فى الجحد والانكار مبلغ من ينكر التوحيد ولا يقول بوحدانية الله

تهنئـــة

« وقال رحمه الله يهنيه أيده الله بالقدوم من سفر . »

أَيُّهَا الظَّافِرُ أَبْشِرْ بِالظَّفَرْ ... وَاجْتَلِ التَّأْيِيدَ فى أَبْهى الصُّوَرْ

وَتَفَيَّأْ ظِلَّ سَــعْدٍ تَجْتَنِى ... فِيهِ مِنْ غَرْسِ الْمُنَى أَحْلَى الثَّمَرْ

وَرِدِ الصُّبْحَ فَكَمْ مُسْتَوْحِشٍ ... غَرِضٍ[1] مِنْكَ إِلَى أُنْسِ الصَّدَرْ

كَانَ مِنْ قُرْبِكَ فى عَيْشٍ نَدٍ ... عَطِرِ الآصَالِ وَضَّاحِ الْبُكَرْ

كُلَّمَا شَاءَ تَأَتَّى أَنْ يَرَى ... خُلُقَ الْبِرْجِيسِ[2] فى خَلْقِ الْقَمَرْ

---

(١) غرض : وصف من الغرض (محركة) وهو شــدة النزاع نحو الشيء والشوق إليــه يقال : غرض إلى لقائه فهو غرض اشتاق ، ومنه قول الشاعر :

فمن يك لم يغرض فانى وناقتى ... بحجرٍ إلى أهل الحمى غرضان

تحن فتبدى ما بها من صبابة ... وأخفى الذى لولا الأسى لقضانى

وفى الأصل : « عرض » .

(٢) البرجيس

البرجيس : المشترى وهو أحــد الدرارى الخمسة : المشترى ، وزحل ، والمريخ ، وعطارد ، والزهرة ، وهــذه الكواكب الخمسة هى الخنس الكنس المذكورة فى قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس . » قالوا : وإنما وصفت بما ذكر فى الآية لأنها من الكواكب السيارة التى تجرى مع الشمس والقمر ، وخنوسها رجوعها مرهرة بعــد اختفائها فى ضوء الشمس ، ولذلك تسمى الرواجع ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس من كنس الظبى والوحش إذا دخل كناسه ، وفى النهاية لابن الأثير من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، « أن النبى — صلى الله عليه وسلم — سئل عن الكواكب الخنس فقال هى البرجيس وزحل وعطارد وبهرام والزهرة ، البرجيس : المشترى ، وبهرام : المريخ . »

والبرجيس : لفظة فارســية تدلّ على « المشــترى » وهو كوكب معروف تطلق عليــه الفرنجة اسم « جوبيتر » « Jupiter » وهو — فى أساطير قدماء الرومان واليونان ، اله الآلهة ، المهيمن على كلّ الكائنات العلوية والسفلية ، قالوا : « وإنما سمى المشــترى — من الشراء ، وهو الوضوح لضياء لونه وصفائه . » قال الشاعر :

« يا ربّ ليل بت أرعى نجمه ... — حتى الصباح — بزفرة وهو

والمشترى — فى الأفق — يخفق لامعاً ... كفم الحبيب يشير بالتقبيل . »

فَثَوَى دُونَكَ مَثْوَى قَلِقٍ ... يَشْتَكِي مِنْ لَيْلِهِ مَطْلَ السَّحَرْ

قُلْ لِسَاقِينَا : «يَحُزْ أَكْؤُسَهُ» ... وَلِشَادِينَا : «يَصِلْ قَطْعَ الْوَتَرْ»

حَسْبُنَا سُكْرٌ جَنَتْهُ ذِكَرٌ ... دُونَهُ السُّكْرُ الَّذِي يَجْنِي السَّكَرْ (١)

لَمْ يُغَادِرْ لِي سِقَامِي جَلَدًا ... مَعَ أَنِّي لَمْ أَزَلْ ثَبْتَ الْمِرَرْ (٢)

أَيُّهَا الْمَاشِي الْبَرَازَ الْمُنْــبَرِي ... لِزَمَانِي إِنْ مَشَى نَحْوِي الْخَمَرْ (٣)

وَالَّذِي إِنْ سِيمَ مَا فَوْقَ الرِّضَى ... وُجِدَ الْأَلْوَى الْبَعِيدَ الْمُسْتَمَرْ (٤)

وَإِذَا أَعْتَبَ فِي مَعْتَبَةٍ ... لَانَ مِنْهُ جَانِبُ السَّمْحِ الْيَسَرْ

نَظْمِيَ الْمُهْدَى إِلَى أَبْرَعِ مَنْ ... نَظَمَ السِّحْرَ بَيَانًا أَوْ نَثَرْ

---

(١) السكر : النيء غير المطبوخ من ماء التمر المشتد ، والشراب المتخذ من التمر نوعان : ما يسيل من التمر حين يكون رطبا فاذا اشتد سمى سكرا ، وما يفضح أى يشق من التمر ثم يقع فى الماء ليستخرج الماء حلاوته ثم يترك حتى يشتد وتذهب حلاوته ويسمى فضيخا وكلاهما مسكر . وقد ورد ذكر السكر فى قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا . » ، ومعنى هذا البيت والذى قبله : قل لساقينا : نح كؤوسك عنا فقد أغنانا السكر الذى تحدثه الذكر ، عن السكر الذى يجنيه السكر ، وقل لشادينا : صل قطع الوتر والغناء ، فيما حلا فى السمع من ذكراه الكفاية والغناء .

(٢) ثبت : ثابت ، والمرر : جمع مرة (بالكسر) وهى القوة والشدة أى لم يغادر لى السقام جلدا وصبرا مع أنى لم أزل ذا مرة قويا ، وورد هذا البيت فى الأصل هكذا :

لم يبادر لى شفا من جلد ... مع أنى لم أزل ثبت الغرر

وما أثبتناه من الاصلاح هو ما يرشد اليه السياق .

(٣) البراز : المتسع من الأرض الذى ليس به ما يستره من شجر أو غيره ، والخمر : ما يستر الماشى أو الصيد من شجر أو جرف أو حبل رمل أو غير ذلك ، يقول : يا من يدافع عنى إذا رأى زمانى مشى إلى متنكرا يريد ختلى وأخذى على غره . (٤) الألوى : الشديد الخصومة الجدل السليط ، والمستمر : من استمر استحكم مصدر ميمى يعنى أنه بعيد شأو الخصومة ، وفى المثل : « لتجدن فلانا ألوى بعيد المستمر . » وقد جاء هذا المثل فى قول الراجز :

« إذا تخازرت وما بى من خزر ... ثم كسرت الطرف من غير عور

وجدتنى ألوى بعيد المستمر ... أحمل ما حملت من خير وشر . »

أى وجدتنى خصما سليط اللسان بعيد شأو الخصومة .

لِيَ فِيـــهِ الْمَثَلُ السَّائِرُ عَنْ ... جَالِبِ التَّمْرِ إِلَى أَرْضِ هَجَرْ

غَيْرَ أَنَّ الْعُذْرَ رَسْمٌ وَاضِحٌ ... تُنْفَثُ الشَّكْوَى إِذَا الشَّوْقُ صَدَرْ (١)

ثُمَّ قَدْ وُفِّقَ عَبْدٌ عَظُمَتْ ... نِعْمَةُ الْمَوْلَى عَلَيْهِ فَشَكَرْ

لَا عَدَا حَظَّكَ إِقْبَالٌ تُرَى ... قَاضِيًا أَثْنَاءَهُ كُلَّ وَطَرْ

وَاصْطَبِحْ كَأْسَ الرِّضَى مِنْ مَلِكٍ ... سِرْتَ فِي إِرْضَائِهِ أَزْكَى السِّيَرْ

حِينَ صَمَّمْتَ إِلَى أَعْدَائِهِ ... فَأَتَتْحَتْهُمْ مِنْكَ صَمَّاءُ الْغِيَرْ

فَاضَ غَمْرٌ لِلنَّدَى مِنْ فَوْقِهِمْ ... كَانَ يُرْوِي شُرْبَهُمْ مِنْهُ الْغُمَرْ (٢)

سَبَقَ النَّاسَ فَصَلَّى مِنْكَ مَنْ ... إِنْ رَأَى آثَارَهُ الزُّهْرَ اقْتَفَرْ (٣)

زِنْتُمَا الْأَيَّامَ إِذْ مُلِّكْتُمَا ... سَالَ فِي أَوْجُهِهَا سَيْلَ الْغُرَرْ

فَابْقَيَا فِي دَوْلَةٍ قَادِرَةٍ ... بَعْضُ حُرَّاسِ نَوَاحِيهَا الْقَدَرْ

مُسْتَذِلَّيْنِ مَنْ طَغَى مُسْتَأْصِلَيْنْ ... شَأْفَةَ الْبَاغِي مُقِيلَيْنِ مَنْ عَثَرْ

عَلَمَيْ مَنْ ضَلَّ مُزْنَيْ مَنْ شَكَا ... خَلَّةَ الْإِمْحَالِ بَدْرَيْ مَنْ نَظَرْ

تَضْحَكُ الْأَزْمُنُ عَنْ عَلْيَا كُمَا ... ضَحِكَ الرَّوْضَةِ عَنْ ثَغْرِ الزَّهَرْ

---

(١) صدر : أصاب الصدر ، يقال : صدر فلان فلانا يصدره صدرا (من باب نصر) أصاب صدره .

(٢) الغمر : قدح صغير يتصافن به القوم فى السفر إذا قل الماء ولم يكن معهم منه إلا اليسير ، والتصافن أن يلقوا فيه حصاة ثم يصب فيه من الماء قدر ما يغمر الحصاة ، ثم يعطى الاناء كل رجل منهم بحسب دوره وجاء فى شعر أعشى باهلة : —

« يكفيه حزة فلذ إن ألم بها ... من الشواء ويروى شربه الغمر »

(٣) اقتفر — من اقتفر الأثر — اقتفاه وتتبعه ، والمعنى : «سبق أبوك جدك مصلياً وتالياً بعده أنت يامن يقتفى آثار أبيه الزهر

ذكرى ولادة

« كان يكلف بولادة بنت المهدى هذه ويهيم ، ويستضىء بنور تخيلها فى الليل البهيم ، وكانت من الأدب والظرف ، وتتييم المسمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب ، فلما حل بذلك القرب ، وانحل عقد صبره بيد الكرب ، كر إلى الزهراء ليتوارى فى نواحيها ، ويتسلى برؤية مافيها ، فوافاها والربيع قد خلع عليها برده ، ونثر سوسنه ووردة ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها ، فارتاح ارتياح جميل بوادى القرى ، وراح بين روض يانع وريح طيبة السرى ، فتشوق إلى لقاء ولادة وحن ، وخاف تلك النوائب والمحن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده إليها وطلقه ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده [1] : »

إنِّى ذَكَرْتُكِ « بِالزَّهْرَاء » مُشْتَاقَا ... وَالْأُفْقُ طَلْقٌ ، وَمَرْأَى الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا [2]

وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ — فى أَصَائِلِهِ — ... كَأَنَّهُ رَقَّ لِى ، فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا

وَالرَّوْضُ — عَنْ مَائِهِ الْفِضِّىِّ — مُبْتَسِمٌ ، ... كَمَا شَقَقْتَ — عَنِ اللَّبَّاتِ — أَطْوَاقَا [3]

يَوْمٌ ، كَأَيَّامِ لَذَّاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ ، ... بِتْنَا لَهَا — حِينَ نَامَ الدَّهْرُ — سُرَّاقَا

نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهَرٍ ... — جَالَ النَّدَى فِيهِ — حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا

---

(١) قلائد العقيان . (٢) وفى بعض الروايات : « ووجه الأرض قد راقا » .

(٣) اللبات : جمع لبة ، وهى موضع القلادة من الصدر ، والأطواق : جمع طوق ، وأراد به ما يطيف بالعنق من الثوب ، ولاشك أن الهيئة الحاصلة من انسياب الماء الفضى فى الروض تشبه الهيئة الحاصلة من انشقاق طوق الثوب عند ترائب النحر والصدر ، وجاء فى بعض الروايات : « كما حللت عن اللبات أطواقا . »

كَأَنَّ أَعْيُنَهُ ـ إِذْ مَا يَئِسْتُ أَرِقِي ـ بَكَتْ لِمَا بِي ، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقَا

وَرْدٌ تَأَلَّقَ ـ فِي ضَاحِي مَنَابِتِهِ ـ فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى ـ فِي الْعَيْنِ ـ إِشْرَاقَا

سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عَبِقٌ وَسْنَانُ ، نَبَّهَ مِنْهُ الصُّبْحُ أَحْدَاقَا

كُلٌّ يَهِيجُ لَنَا ذِكْرَى تَشَوُّقِنَا إِلَيْكِ ، لَمْ يَعْدُ عَنْهَا الصَّدْرُ إِنْ ضَاقَا

لَا سَكَّنَ اللهُ قَلْبًا ، عَنَّ ذِكْرِكُمُ فَلَمْ يَطِرْ ـ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ ـ خَفَّاقَا

لَوْ شَاءَ حَمْلِي نَسِيمُ الصُّبْحِ ـ حِينَ سَرَى ـ وَافَاكُمُ بِفَتًى أَضْنَاهُ مَا لَاقَى

لَوْ كَانَ وَفَّى الْمُنَى ـ فِي جَمْعِنَا بِكُمُ ـ لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقَا

***

يَا عِلْقِيَ الْأَخْطَرَ الْأَسْنَى الْحَبِيبَ إِلَى نَفْسِي ، إِذَا مَا اقْتَنَى الْأَحْبَابُ أَعْلَاقَا

كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوُدِّ ـ مُذْ زَمَنٍ ـ مَيْدَانَ أُنْسٍ ، جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقَا

فَالْآنَ ـ أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمُ ـ سَلَوْتُمُ ، وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَّاقَا !

إلى ولادة

يَا نَازِحًا ـ وَضَمِيرُ الْقَلْبِ مَثْوَاهُ ـ أَنْسَتْكَ دُنْيَاكَ عَبْدًا أَنْتَ دُنْيَاهُ

أَلْهَتْكَ عَنْهُ فُكَاهَاتٌ تَلَذُّ بِهَا فَلَيْسَ يَجْرِي ـ بِبَالٍ مِنْكَ ـ ذِكْرَاهُ

عَلَّ اللَّيَالِيَ تُبْقِينِي إِلَى أَمَلٍ ، الدَّهْرُ يَعْلَمُ وَالْأَيَّامُ مَعْنَاهُ

إلى أبى حفص بن برد

قُلْ لِأبِى حَفْصٍ ـ وَلَمْ تَـكْذِبِ ـ يَا قَمَرَ الدِّيوَانِ وَالمَوْكِبِ

مَا لِأبِى صَفْوَانَ ـ مَأْلُوفِنَا ـ أَبْرَقَ فِى الأُلْفَةِ عَنْ خُلَّبِ ؟

وَلَمْ يَعُدْ إِلَّا كَمَا يَتَّقِى مُسْتَرِقُ السمعِ مِنَ الْكَوْكَبِ ؟

* * *

عَنِّفْهُ بِاللهِ عَلَى فِعْلِهِ ، وَاشْتِمْ ـ وَإِنْ لَمْ يَسْتَقِمْ ـ فَاضْرِبِ

وَعَاطِهِ صَهْبَاءَ مَشْمُولَةً يَرَى لَهَا الْمَشْرِقَ فِى الْمَغْرِبِ

وَلْيَشْرَبِ الْأَكْثَرَ مِنْ كَأْسِهِ وَاعْمِدْ ـ إِلَى فَضْلَتِهِ ـ فَاشْرَبِ

عُقُوبَةٌ ، أَحْسِنْ بِهَا سُنَّةً ـ فِى مِثْلِهِ ـ مِنْ حَسَنٍ مُذْنِبِ

وَبَاكِرَا الطِّيبَ ، وَرُوحَا لَهُ ، فَأَنْتُمَا فِى زَمَنٍ طَيِّبِ

ليــل انس

« وبات ليلة باحدى جنات اشبيلية فقال : »

وَلَيْلٍ أَدَمْنَا فِيهِ شُرْبَ مُدَامَةٍ إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ ـ فِى اللَّيْلِ ـ تَأْثِيرُ

وَجَاءَتْ نُجُومُ الصُّبْحِ ـ تَضْرِبُ فِى الدُّجَا ـ فَوَلَّتْ نُجُومُ اللَّيْلِ ، وَاللَّيْلُ مَقْهُورُ

فَحُزْنَا مِنَ اللَّذَّاتِ أَطْيَبَ طِيبِهَا ، وَلَمْ يَعْرُنَا هَمٌّ وَلَا عَاقَ تَكْدِيرُ

خَلَا أَنَّهُ ـ لَوْ طَالَ ـ دَامَتْ مَسَرَّتِى ، وَلٰكِنْ لَيَالِى الْوَصْلِ فِيهِنَّ تَقْصِيرُ

دواء

« وقد أهدى دواء »

قَدْ بَعَثْنَاهُ يَنْفَعُ الْأَعْضَاء   حِينَ يَجْلُو ـ بِلُطْفِهِ ـ السَّخْنَاء (١)

جَاء يُزْهَى بِمُسْتَشَفٍّ رَقِيقٍ   يَخْدَعُ الْعَيْنَ رِقَّةً وَصَفَاء (٢)

تَنْفُذُ الْعَيْنُ مِنْهُ فِي ظَرْفِ نُورٍ   مَلَأَتْهُ أَيْدِي الشُّمُوسِ ضِيَاء

أَكْسَبَتْهُ الْأَيَّامُ بَرْدَ هَوَاء   فَهْوَ جِسْمٌ قَدْ صِيغَ نَاراً وَمَاء

مَنْظَرٌ يُبْهِجُ الْقُلُوبَ ، وَطَعْمٌ   تَشْكُرُ النَّفْسُ عَهْدَهُ اسْتِمْرَاء

لَذَّةُ الْوَصْلِ نَالَهُ ـ بَعْدَ يَأْسٍ ـ   كَلِفٌ طَالَمَا تَشَكَّى الْجَفَاء (٣)

يَفْضَحُ الشُّهْدَ طَعْمُهُ ـ كُلَّمَا قِيـ   ـسَ ـ إِلَيْهِ وَيُخْجِلُ الصَّهْبَاء

فَضَلَ السَّابِقَ الْمُقَدَّمَ ـ فِي النُّضْـ   ـجِ ـ فَأَزْرَى بِطَعْمِهِ إِزْرَاء

غَيْرَ أَنِّي بَعَثْتُ هٰذَا غِذَاء   ـ يَشْتَهِيهِ الْفَتَى ـ وَذَاكَ دَوَاء

مُلْطِفٌ يُبْرِدُ الْمِزَاجَ إِذَا جَا   شَ الْتِهَاباً ، وَيَقْمَعُ الصَّفْرَاء

---

(١) بعثناه : أي الدواء المعهود بينه وبين مخاطبه ، ومعلوم أن الطب وعلم الكيمياء وتركيب الأدوية والصيدلة والجراحة تقدمت في الأندلس وخاصة في القرون الوسطى وعند علماء الأندلس كابن رشد ، وأبي القاسم الزهراوي ، وابن زهر ، وأضرابهم من علماء المشرق ببغداد : كابن سينا والرازي ، وعلى ابن العباس أخذ علماء أوربا علومهم الطبية وغيرها ، وقد مرّ بك كثير من قصائد ابن زيدون التي تتعرض لذكر الطب والعلاج ، وأنت إذا تأملت فيما يمر بك من هـذا النوع وأشباهه تقرأ فيه آيات الحضارة ، وتشعر بآثار المدنية . والسخناء : من قولهم : إني لأجد في نفسي سخناء ــ بالمد ــ وسخونة أي حرارة شديدة من وجع أو حمى .

(٢) يقول : إن هذا الدواء قد جاءك يزهى في رقته وسيولته بوعاء رقيق تستشف العين ما في داخله ، ويخدع الناظر فلا يكاد يراه لشدة رقته وصفائه .

(٣) يقول : إن متعاطيه يستمرئه ويجد فيه لذة كلذة الكلف المشوق ، ظفر بوصل الحبيب بعد يأس وطول جفاء .

وَمُمِنٌ لِوَاصِلِ الصَّوْمِ، يَسْرِي بَرْدُهُ فِي الحَشَا فَيُرْوِي الظِّمَاءَ
(فَتَقَبَّلْهُ) شَافِعاً لِأَيَادِيــــكَ الَّتِي بَعْضُهَا يَفُوتُ الثَّنَاءَ (١)

حسبي رضاك

إِلَيْكِ ـ مِنَ الأَنَامِ ـ غَدَا ارْتِيَاحِي، وَأَنْتِ ـ عَلَى الزَّمَانِ ـ مَدَى اقْتِرَاحِي
وَمَا اعْتَرَضَتْ هُمُومُ النَّفْسِ إِلَّا ـ وَمِنْ ذِكْرَاكِ ـ رَيْحَانِي وَرَاحِي
فَدَيْتُكِ : إِنَّ صَبْرِي عَنْكِ صَبْرِي ـ لَدَى عَطَشِي ـ عَلَى المَاءِ القَرَاحِ (٢)
وَلِي أَمَلٌ ـ لَوِ الوَاشُونَ كَفُّوا ـ لَأَطْلَعَ غَرْسُــهُ ثَمَرَ النَّجَاحِ
وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ رِضَاكِ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِ
وَلَمَّا أَنْ جَلَتْكِ لِيَ ـ اخْتِلَاساً ـ أَكُفُّ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ المُتَاحِ (٣)
رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابٍ، وَغُصْنَ البَانِ يَرْفُلُ فِي وِشَاحِ
فَلَوْ أَسْطِيعُ طِرْتُ إِلَيْكِ ـ شَوْقاً ـ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الجَنَاحِ ؟
عَلَى حَالَيْ وِصَالٍ وَاجْتِنَابٍ، وَفِي يَوْمَيْ دُنُوٍّ وَانْتِزَاحِ
وَحَسْــبِيَ أَنْ تُطَالِعَكِ الأَمَانِي بِأُفْقِكِ ـ فِي مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ

---

(١) وجد هذا البيت في الأصل ناقصاً هكذا :

« . . . . . شافعا لأياديــــك التي بعضها يفوت الثناء . »

والتكملة لا يأباها السياق .

(٢) يقول : إن صبري عنك كصبري على الماء القراح لدى عطشي وشدة ظمئي .

(٣) يقول في هذا البيت والذي بعده : ولما أن جلتك وأبرزتك يد الدهر خلسة لحيني وهلاكي الذي أتيح وقدر لي ، طلعت سافرة كما تطلع الشمس من نقاب ، وخطرت مائسة كما يرفل غصن البان في وشاح

وَأَنْ تُهْدِي السَّــلَامَ إِلَيَّ — غِبًّا —   وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيَاحِ (١)

فُؤَادِي — مِنْ أَسًى بِكِ — غَيْرُ خَالٍ   وَقَلْبِي — عَنْ هَوًى لَكِ — غَيْرُ صَاحِ

عودى إلى الوصال

بَاعَدْتِ — بِالْإِعْرَاضِ — غَيْرَ مُبَاعِدٍ   وَزَهِدْتِ فِيمَنْ لَيْسَ فِيكِ بِزَاهِدِ (٢)

وَسَقَيْتِنِي — مِنْ مَاءِ هَجْرِكِ — مَالَهُ   أَصْبَحْتُ أَشْرَقُ بِالزُّلَالِ الْبَارِدِ

هَلَّا جَعَلْتِ — فَدَتْكِ نَفْسِي — غَايَةً   لِلْعَتْبِ ، أَبْلُغُهَا بِجَهْدِ الْجَاهِدِ (٣)

لَا تُفْسِدَنْ — مَا قَدْ تَأَكَّدَ بَيْنَنَا   مِنْ صَالِحٍ — خَطَرَاتُ ظَنٍّ فَاسِدِ

حَاشَاكِ مِنْ تَضْيِيعِ أَلْفِ وَسِيلَةٍ   — شَجِيَ الْعَدُوُّ لَهَا — بِذَنْبٍ وَاحِدِ (٤)

إِنْ أَجْنِــهِ خَطَأً ، فَقَدْ عَاقَبْتِنِي   ظُلْمًا ، بِأَبْلَغَ مِنْ عِقَابِ الْعَامِدِ (٥)

* * *

عُودِي لِمَا أَصْفَيْتِنِيهِ مِنَ الْهَوَى   بَدْءًا ، فَلَسْتُ لِمَا كَرِهْتِ بِعَائِدِ

وَضَعِي قِنَاعَ السُّخْطِ عَنْ وَجْهِ الرِّضَا   كَيْمَا أَخِرَّ إِلَيْهِ أَوَّلَ سَاجِدِ (٦)

---

(١) وحسبي أن تمشي بالسلام غبا أي يوما بعد يوم ولو مع أنفاس الرياح التي تهب من ناحيتك ، وفي الأصل « وأن تبدى » وقد وضعنا بدلها « تهدى » التي هي كصورتها حتى لاتكون نابية في موضعها ، وقد وجد هذا البيت بعد تاليه ، ولكنا آثرنا تقديمه عليه بحكم العطف على قوله :

« وحسبي أن تطالعك الأماني . »

(٢) باعدت فتى غير مباعد وذلك بإعراضك عنه ، وزهدت في محب ليس فيك بزاهد .

(٣) يقول كان ينبغي أن تجعلي بيني وبينك نهاية للعتب وغاية أبلغ فيها رضاك بجهد الجاهد وشق النفس .

(٤) يقول : حاشاك أن تضيعي ألف وسيلة توسلت بها إلى رضاك يراها عدوي كالشجا معترضا في حلقه بذنب واحد .

(٥) إن أجن ذلك الذنب خطأ فقد ظلمتني بأن عاقبتني عليه بأشد من عقوبة من أتى بالذنب عمدا .

(٦) أزيلي عن وجه الرضا ما يستره من قناع السخط كيما أكون أول ساجد على نعمة رضاك عني .

أبو القاسم

« وأمره المعتضد أن يعارض قطعا من أشعار كان يستحسن ألحانها فعارضها رحمه الله بقطع وهى : »

يُقَصِّرُ قُرْبُكَ لَيْلِي (١) الطَّوِيلاَ ... وَيَشْفِى وِصَالُكَ قَلْبِي العَلِيلاَ

وَإِنْ عَصَفَتْ مِنْكَ رِيحُ الصُّدُودِ ... فَقَدْتُ نَسِيمَ الحَيَاةِ البَلِيلاَ

كَمَا أَنَّنِي (٢) إِنْ أَطَلْتُ العِثَارَ ... وَلَمْ يُبْدِ عُذْرِىَ وَجْهاً جَمِيلاَ

وَجَدْتُ « أَبَا القَاسِمِ الظَّافِرَ المُؤَيَّدَ بِاللهِ » مَوْلًى مُقِيلاَ

إِذَا مَا نَدَاهُ هَمَى وَالْحَيَا ... شَآهُ ، وَعَدَّ الجَوَادُ البَخِيلاَ

وَأَقْلاَمُهُ وَفْقُ أَسْيَافِهِ ... يَظَلُّ الصَّرِيرُ يُبَارِى الصَّلِيلاَ

وقال

أَنْتَ المُسَبِّبُ لِلْوُلُوعِ ... وَمُثِيرُ كَامِنَةِ الدُّمُوعْ

يَتَمَنَّيَانِ لَوِ أعْفِيَا ... مَهْمَا طَلَعْتَ مِنَ الطُّلُوعْ

وَالظَّافِرُ المَلِكُ المُؤَيَّدُ ... وَاحِدٌ عَدْلُ الجُمُوعْ

البَدْرُ فِى سُحُبِ البُرُو ... دِ اللَّيْثُ فِى لِبَدِ الدُّرُوعْ

عَنَتِ الأُصُولُ لِأَصْلِهِ ... وَتَقَاصَرَتْ عَنْهُ الفُرُوعْ

---

(١) فى الأصل : « الليل »

(٢) فى الأصل : « إننى »

آلام المحب

مَتَى أُبُثُّكَ[1] مَابِي ؟   يَا رَاحَتِي وَعَذَابِي

مَتَى يَنُوبُ لِسَانِي   فِي شَرْحِهِ عَنْ كِتَابِي ؟

أَللهُ يَعْلَمُ أَنِّي   أَصْبَحْتُ فِيكِ لِمَا بِي

فَلاَ يَطِيبُ[2] مَنَامِي   وَلاَ يَسُوغُ شَرَابِي

* * *

يَا فِتْنَةَ الْمُتَعَزِّى[3]   وَحُجَّةَ الْمُتَصَابِي :

الشَّمْسُ أَنْتِ ، تَوَارَتْ   عَنْ نَاظِرِى بِالْحِجَابِ

* * *

مَا الْبَدْرُ — شَفَّ سَنَاهُ   عَلَى رَقِيقِ السَّحَابِ —

إِلاَّ كَوَجْهِكِ ، لَمَّا   أَضَاءَ تَحْتَ النِّقَابِ

كيف السلو ؟

كَمْ ذَا أُرِيدُ وَلاَ أُرَادُ ؟   يَا سُوءَ مَا لَقِيَ الْفُؤَادُ !

أُصْفِي الْوِدَادَ مُدَلَّلاً ،   لَمْ يَصْفُ لِي مِنْهُ الْوِدَادُ

يَقْضِي عَلَيَّ دَلاَلُهُ   فِي كُلِّ حِينٍ — أَوْ يَكَادُ

كَيْفَ السُّلُوُّ عَنِ الَّذِى   مَثْوَاهُ — مِنْ قَلْبِي — السَّوَادُ ؟

---

(١) وفى بعض الروايات : « متى أنبيك . » .

(٢) وفى بعض الروايات : « لم يلذ منامى »

(٣) وفى الأصل : « يا فتنة المقرى »

مَلَكَ الْقُلُوبَ بِحُسْنِهِ، فَلَهَا - إِذَا أَمَرَ - انْقِيَادُ

❊

يَا هَاجِرِى كَمْ أَسْتَفِيدُ الصَّبْرَ عَنْكَ، فَلاَ أُفَادُ

أَلاَّ (١) رَثَيْتَ لِمَنْ يَبِيتُ وَحَشْوُ مُقْلَتِهِ السُّهَادُ؟

إِنْ أَجْنِ ذَنْباً فِى الْهَوَى - خَطَأً - فَقَدْ يَكْبُو الْجَوَادُ

كَانَ الرِّضَى - وَأُعِيذُهُ - أَنْ يُعْقِبَ الْكَوْنَ الْفَسَادُ

قسمٌ

أَسْتَوْدِعُ اللهَ مَنْ أُصْفِى الْوِدَادَ لَهُ مَحْضاً، وَلاَمَ بِهِ الْوَاشِى فَلَمْ أُطِعِ

إِلْفٌ أَلَذُّ غُرُورَ الْوَعْدِ، يَصْفَحُ لِى عَنْهُ، وَيُقْنِعُنِى التَّعْلِيلُ بِالْخُدَعِ

تَجْلُو الْمُنَى شَخْصَهُ لِى - وَهُوَ مُحْتَجِبٌ عَنِّى - فَمَا شِئْتَ مِنْ مَرْأًى وَمُسْتَمَعِ

يَا بَدْرَ تِمٍّ بَدَا فِى أُفْقِ مَمْلَكَةٍ، فَرَاقَ مُطَّلِعاً مِنْ خَيْرِ مُطَّلَعِ

أَفْدِى بَدَائِعَ شَكْلٍ مِنْكَ مُضْمَرَةً لِقَتْلِ نَفْسِىَ - عَمْداً - أَشْنَعَ الْبِدَعِ

❊

تَاللهِ - أَكْرَمَ مَا أَمْضَى الْيَمِينَ بِهِ مَنْ دَانَ فِى حُبِّهِ بِالصِّدْقِ وَالْوَرَعِ -

مَا لَذَّ لِى قُرْبُ أُنْسٍ أَنْتِ نَازِحَةٌ عَنْهُ، وَلاَ سَاغَ عَيْشٌ لَسْتِ فِيهِ مَعِى

خداع الأمانى

وَلَقَدْ شَكَوْتُكَ بِالضَّمِيرِ إِلَى وَدَعَوْتُ - مِنْ حَنَقٍ - عَلَيْكَ فَأَمَّنَا

مَنَّيْتُ نَفْسِى - مِنْ صَفَائِكَ - ضَلَّةً وَلَقَدْ تَغُرُّ الْمَرْءَ بَارِقَةُ الْمُنَى

---

(١) ألا : هلا .

فى الغزل

« وله يتغزل و يعاتب من يستعطفه و يتنزل . »

يا مُسْتَخِفًّا بِعَاشِقِيهِ　　وَمُسْتَغِشًا لِنَاصِحِيهِ
وَمَنْ أَطَاعَ الْوُشَاةَ فِينَا　　حَتَّى أَطَعْنَا السُّلُوَّ فِيهِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ أَرَانِي　　تَكْذِيبَ مَا كُنْتَ تَدَّعِيهِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهْزَمَ التَّسَلِّي　　وَيَغْلِبَ الشَّوْقُ مَا يَلِيهِ

إلى هاجر

أَأُسْلَبُ مِنْ وِصَالِكِ مَا كُسِبتُ ؟　　وَأُعْزَلُ - عَنْ رِضَاكِ - وَقَدْ وَلِيتُ ؟
وَكَيْفَ - وَفِى سَبِيلِ هَوَاكِ طَوْعًا -　　لَقِيتُ مِنَ الْمَكَارِهِ مَا لَقِيتُ !
أُسِرُّ عَلَيْكِ عَتْبًا لَيْسَ يَبْقَى ،　　وَأُضْمِرُ فِيكِ غَيْظًا لاَ يَبِيتُ
وَمَا رَدِّى عَلَى الْوَاشِينَ ، إِلاَّ :　　«رَضِيتُ بِجَوْرِ مَالِكَتِي رَضِيتُ.»

دعاء محب

أَنَّى أُضَيِّعُ عَهْدَكْ ؟　　أَمْ كَيْفَ أُخْلِفُ وَعْدَكْ
وَقَدْ رَأَتْكَ الْأَمَانِي　　رِضًى ، فَلَمْ تَتَعَدَّكْ

***

يَا لَيْتَ مَالَكَ عِنْدِي !　　- مِنَ الْهَوَى - لِيَ عِنْدَكْ[1]

---

(٢) وفى بعض الروايات :

« يا ليت شعرى ، وعندى　　ما ليس - فى الحب - عندك
هل. طال ليلك بعدى ؟　　كطول ليلى بعدك/ر؟ . »

فَطَالَ لَيْلُكَ بَعْدِي ... كَطُولِ لَيْلِي بَعْدَكْ

سَلْنِي حَيَاتِي أَهَبْهَا ، ... فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكْ

الدَّهْرُ عَبْدِيَ ، لَمَّا ... أَصْبَحْتُ ـ فِي الحُبِّ ـ عَبْدَكْ

أنت حسبي

يَامَنْ غَدَوْتُ بِهِ ـ فِي النَّاسِ ـ مُشْتَهِراً ... قَلْبِي عَلَيْكَ يُقَاسِي الْهَمَّ وَالْفِكَرَا

إِنْ غِبْتَ لَمْ أَلْقَ إِنْسَاناً يُؤَنِّسُنِي (١) ... وَإِنْ حَضَرْتَ ، فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ حَضَرَا

ما الذى أنكروه ؟

قَالَ لِي : « اعْتَلَّ مَنْ هَوِيتَ » حَسُودٌ ... قُلْتُ : « أَنْتَ الْعَلِيلُ وَيْحَكَ لَاهُو »

مَا الَّذِي أَنْكَرُوهُ مِنْ بَثَرَاتٍ (٢) ... ضَاعَفَتْ حُسْنَهُ وَزَادَتْ حُلَاهُ

جِسْمُهُ ـ فِي الصَّفَاءِ وَالرِّقَّةِ ـ الْمَا ... ءُ ، فَلَا غَرْوَ أَنْ حُبَابٌ عَلَاهُ

شوق بعد سلوان

عَاوَدَتْ ذِكْرَى الْهَوَى ـ مِنْ بَعْدِ نِسْيَانِ ... وَاسْتَحْدَثَ الْقَلْبُ شَوْقاً بَعْدَ سُلْوَانِ

مِنْ حُبِّ جَارِيَةٍ ، يَبْدُو بِهَا صَنَمٌ ... مِنَ اللُّجَيْنِ ، عَلَيْهِ تَاجُ عِقْيَانِ

غَرِيرَةٌ ـ لَمْ تُفَارِقْهَا تَمَائِمُهَا ـ ... تَسْبِي الْعُقُولَ بِسَاجِي الطَّرْفِ وَسْنَانِ

لَاسْتَجِدَّنَّ ـ فِي عِشْقِي لَهَا ـ زَمَناً ... يُنْسِي سَوَالِفَ أَيَّامِي وَأَزْمَانِي

حَتَّى تَكُونَ لِمَنْ أَحْبَبْتُ خَاتِمَةً ، ... نَسَخْتُ ـ فِي حُبِّهَا ـ كُفْراً بِإِيمَانِ

---

(١) فى الأصل « يوسى » بإبدال الهمزة واوا وهو إبدال مقيس كما يعلم من علم الصرف ، وهو مضارع أنسى (بالتصحيف) أى أزال وحشق كآنسنى ، وجاء فى كلامهم :

« إذا جاء الليل استأنس كل وحشى ، واستوحش كل إنسى » .

(٢) البثرات : واحدتها بثرة كسجدة وسجدات ، وهى خراج صغار تظهر على الوجه ، فتنطف جلده ، وأغلب ما يكون ذلك فى أوان الشباب ، ولذلك يعرف عند العامة فى بلادنا (بحب الشباب) ، ويعد عله فى البيت التالى تعليلا حسنا ، حيث شبهه بالحباب يطفو على وجه الماء الشبيه ببشرة وجه الحبيب فى الرقة والصفاء .

أسر الهوى

يَا سُؤْلَ نَفْسِيَ - إِنْ أُحَكَّمْ - وَاخْتِيَارِي إِنْ أُخَيَّرْ

كَمْ لَامَنِي فِيكَ الْحَسُو دُ، وَفَنَّدَ الْوَاشِي فَأَكْثَرْ

قَالُوا : « تَغَيَّرَ بِالسُّلُوِّ وَبِالْمَلَامَةِ قَدْ تَغَيَّرْ »

وَتَوَهَّمُوكَ جَنَيْتَ ذَنْـبًا بِالتَّجَنِّي لَيْسَ يُغْفَرْ

وَبِزَعْمِهِمْ أَنْ لَيْسَ مِثْـلِي فِي الرِّضَى بِالدُّونِ يُعْذَرْ

لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْهَوَى رِقٌّ، وَأَنَّ الْحُسْنَ أَحْمَرْ[1]

معـــذرة

إِنْ تَكُنْ نَالَتْكِ - بِالضَّرْبِ يَدِي - وَأَصَابَتْكِ بِمَا لَمْ أُرِدِ

فَلَقَدْ كُنْتُ - لَعَمْرِي - فَادِيًا لَكِ بِالْمَالِ وَبَعْضِ الْوَلَدِ

فَثِقِي مِنِّي بِعَهْدٍ ثَابِتٍ وَضَمِيرٍ خَالِصِ الْمُعْتَقَدِ

وَلَئِنْ سَاءَكِ يَوْمٌ فَاعْلَمِي أَنْ سَيَتْلُوهُ سُرُورٌ بَعْدِ

وصف الكأس

أَنَا ظَرْفٌ لِلَّهْوِ كُلَّ ظَرِيفِ أَنَا مُسْتَوْدَعٌ لِعِلْقٍ شَرِيفِ

أَنَا كَالصَّدْرِ فِي الْإِحَاطَةِ بِالرَّا حِ إِذِ الرَّاحُ كَالضَّمِيرِ اللَّطِيفِ

سَلْ عَنِ الطَّيِّبَاتِ فَهْيَ فُنُونٌ أُلِّفَتْ فِيَّ أَحْسَنَ التَّأْلِيفِ

أَيُّ حُسْنٍ يَفِي بِحُسْنِيَ مَحْوٌ لَا بِكَفِّ وَصِيفَةٍ أَوْ وَصِيفِ

---

(١) من قولهم « الحسن أحمر » أى ذو مشقة وبلاء يريدون أن من تعشق الحسن والجمال تحمل فى سبيله المشقة وصبر على الأذى ، وإنما يقال ذلك لمن يستوته الهوى ، ويغلبه الحسن على أمره فيلقى فى سبيله الموت الأحمر .

غاية المحبين

لَئِنْ كُنْتَ - في السِّنِّ - تِرْبَ الهِلاَلِ، لَقَدْ فُقْتَ - في الحُسْنِ - بَدْرَ الكَمالِ
أَمَا وَالَّذِي نَكَّدَ الحَظَّ فِيَّ دُنُوَّ المَكانِ بِبُعْدِ المَنالِ
لَقَدْ بَلَّغَتْنِي دَوَاعِي هَوَاكَ إِلَى غَايَةٍ مَا جَرَتْ لِي بِبَالِ
فَقُلْ لِلهَوَى: «يَجْرِ مِلْءَ العِنَانِ» فَمَيْدَانُ قَلْبِي رَحِيبُ المَجَالِ

صفح المذنب

يَا قَمَراً مَطْلَعُهُ المَغْرِبُ قَدْ ضَاقَ بِي - في حُبِّكَ - المَذْهَبُ
أَعْتِبُ - مِنْ ظُلْمِكَ لِي - جَاهِداً، وَيَغْلِبُ الشَّوْقُ فَأَسْتَعْتِبُ
أَلْزَمْتَنِي الذَّنْبَ الَّذِي جِئْتَهُ، صَدَقْتَ، فَاصْفَحْ أَيُّهَا المُذْنِبُ

لا يأس

أَيُّهَا البَدْرُ الَّذِي يَمْلأُ عَيْنَيْ مَنْ تَأَمَّلْ
حُمِّلَ القَلْبُ تَبَارِيحَ التَّجَنِّي فَتَحَمَّلْ
لَيْسَ لِي صَبْرٌ جَمِيلٌ، غَيْرَ أَنِّي أَتَجَمَّلْ
ثُمَّ لاَ يَأْسَ، فَكَمْ قَدْ نِيلَ أَمْرٌ لَمْ يُؤَمَّلْ

عتب

أَتَجْفُو - بِلاَ جُرْمٍ - وَأُقْصَى بِلاَ ذَنْبِ، سِوَى أَنَّنِي مَحْضُ الهَوَى صَادِقُ الحُبِّ
أُغَادِيكَ بِالشَّكْوَى، فَأُضْحِي عَلَى القِلَى وَأَرْجُوكَ لِلْعُتْبَى، فَأَظْفَرُ بِالعَتْبِ
فَدَيْتُكَ، مَا لِلْمَاءِ - عَذْباً عَلَى الصَّدَى - وَإِنْ سُمْتَنِي خَسْفاً، مَحَلُّكَ مِنْ قَلْبِي
وَلَوْلاَكَ، مَا ضَاقَتْ حَشَايَ - صَبَابَةً - جَعَلْتُ قِرَاهَا الدَّمْعَ سَكْباً عَلَى سَكْبِ

تجنى الحبيب

ثِقِي بِي - يَا مُعَذِّبَتِي - فَإِنِّي ... سَأَحْفَظُ فِيكِ مَا ضَيَّعْتِ مِنِّي
وَإِنْ أَصْبَحْتِ قَدْ أَرْضَيْتِ قَوْمًا ... بِسُخْطِي، لَمْ يَكُنْ ذَا فِيكِ ظَنِّي
وَهَلْ قَلْبٌ كَقَلْبِكِ فِي ضُلُوعِي، ... فَأَسْلُو عَنْكِ حِينَ سَلَوْتِ عَنِّي
تَمَنَّتْ - أَنْ تَنَالَ رِضَاكِ - نَفْسِي، ... فَكَانَ مَنِيَّةً ذَاكَ التَّمَنِّي
وَلَمْ أَجْنِ[1] الذُّنُوبَ فَتَحْقِدِيهَا، ... وَلَكِنْ عَادَةٌ مِنْكِ التَّجَنِّي .

لا يأس فى الحب

أَنْتِ مَعْنَى الضَّنَى وَسِرُّ الدُّمُوعِ ، ... وَسَبِيلُ الْهَوَى ، وَقَصْدُ الْوَلُوعِ
أَنْتِ وَالشَّمْسُ ضَرَّتَانِ ، وَلَكِنْ ... لَكِ - عِنْدَ الْغُرُوبِ - فَضْلُ الطُّلُوعِ
لَيْسَ بِالْمُؤْيِسِي تَكَلُّفُكِ الْعَتْـ ... ـبَ - دَلَالًا - مِنَ الرِّضَى الْمَطْبُوعِ
إِنَّمَا أَنْتِ - وَالْحَسُودُ مُعَنًى - ... كَوْكَبٌ يَسْتَقِيمُ بَعْدَ الرُّجُوعِ

بقية المسواك

أَهْدِي إِلَيَّ بَقِيَّةَ الْمِسْوَاكِ ... لَا تُظْهِرِي بُخْلًا بِعُودِ أَرَاكِ
فَلَعَلَّ نَفْسِي ، أَنْ يُنَفَّسَ سَاعَةً ... عَنْهَا بِتَقْبِيلِ الْمُقَبَّلِ فَاكِ
يَا كَوْكَبًا - بَارِى سَنَاهُ سَنَاءَهُ - ... تُزْهَى الْقُصُورُ بِهِ عَلَى الْأَفْلَاكِ
قَرَّتْ وَفَازَتْ - بِالْخَطِيرِ مِنَ الْمُنَى - ... عَيْنٌ تُقَلِّبُ لَحْظَهَا فَتَرَاكِ

---

(١) وفى الأصل : « ولم أجز » .

غرور المنى

إنْ سَاءَ فِعْلُكِ بِي ، فَمَا ذَنْبِي أَنَا ؟ حَسْبُ الْمُتَيَّمِ أَنَّهُ قَدْ أَحْسَنَا
لَمْ أَسْلُ حَتَّى كَانَ عُذْرُكِ - فِي الَّذِي أَبْدَيْتِهِ - أَخْفَى ، وَعُذْرِي أَبْيَنَا
وَلَقَدْ شَكَوْتُكِ - بِالضَّمِيرِ - إِلَى الْهَوَى ، وَدَعَوْتُ - مِنْ حَنَقٍ - عَلَيْكِ فَأَمَّنَا
مَنَّيْتُ نَفْسِي - مِنْ وَفَائِكِ - ضِلَّةً ، وَلَقَدْ تَغُرُّ الْمَرْءَ بَارِقَةُ الْمُنَى

صليني

أَغَائِبَةً عَـنِّي ، وَحَاضِرَةً مَعِي ، أُنَادِيكِ - لَمَّا عِيلَ صَبْرِيَ - فَاسْمَعِي
أَفِي الْحَقِّ أَنْ أَشْقَى بِحُبِّكِ ، أَوْ أَرَى حَرِيقًا بِأَنْفَاسِي ، غَرِيقًا بِأَدْمُعِي
أَلَا عَطْفَةٌ تَحْيَا بِهَا نَفْسُ عَاشِقٍ ؟ جَعَلْتِ الرَّدَى مِنْهُ بِمَرْأَى وَمَسْمَعِ
صِلِينِيَ - بَعْضَ الْوَصْلِ - حَتَّى تَبَيَّنِي حَقِيقَةَ حَالِي ، ثُمَّ مَاشِئْتِ فَاصْنَعِي

شكوى ضائعة

سَأُحِبُّ أَعْدَائِي لِأَنَّكَ مِنْهُمُ [1] يَا مَنْ يُصِحُّ - بِمُقْلَتَيْهِ - وَيُسْقِمُ
أَصْبَحْتَ تُسْخِطُنِي فَأَمْنَحُكَ الرِّضَى - مَحْضًا - وَتَظْلِمُنِي فَلَا أَتَظَلَّمُ
يَا مَنْ تَأَلَّفَ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ ، فَالْحُسْنُ بَيْنَهُمَا مُضِيءٌ مُظْلِمُ
قَدْ كَانَ - فِي شَكْوَى الصَّبَابَةِ - رَاحَةٌ ، لَوْ أَنَّنِي أَشْكُو إِلَى مَنْ يَرْحَمُ

وفاء المحب

لَمَّا اتَّصَلْتِ اتِّصَالَ الْحُبِّ [2] بِالْكَبِدِ ثُمَّ امْتَزَجْتِ امْتِزَاجَ الرُّوحِ بِالْجَسَدِ

---

(١) وهذا قريب من قول القائل :

« شابهت أعدائى فصرت أحبهم إذ كان حظى منك حظىْ منهم . »

(٢) وفى الأصل : « الحلب »

سَاءَ الْوُشَاةَ مَكَانِي مِنْكِ، وَاتَّقَدَتْ ـ فِي صَدْرِ كُلِّ عَدُوٍّ ـ جَمْرَةُ الْحَسَدِ
فَلْيَسْخَطِ النَّاسُ لاَ أُهْدِ الرِّضَى لَهُمُ، وَلاَ يَضِيعُ لَكِ عَهْدٌ آخِرَ الأَبَدِ
لَوِ اسْتَطَعْتُ ـ إِذَا مَا كُنْتِ غَائِبَةً ـ غَضَضْتُ طَرْفِي، فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدِ

غدر الحبيب

يَا لَيْلُ طُلْ، لاَ أَشْتَهِي ـ إِلاَّ بِوَصْلٍ ـ قِصَرَكْ
لَوْ بَاتَ عِنْدِي قَمَرِي، مَا بِتُّ أَرْعَى قَمَرَكْ
يَا لَيْلُ خَبِّرْ: أَنَّنِي أَلْتَذُّ عَنْهُ خَبَرَكْ
بِاللهِ قُلْ لِي: هَلْ وَفَا؟ فَقَالَ: «لاَ، بَلْ غَدَرَكْ»

حذر العاشق

لَئِنْ فَاتَنِي مِنْكِ حَظُّ النَّظَرْ لأَكْتَفِيَنْ بِسَمَاعِ الْخَبَرْ
وَإِنْ عَرَضَتْ غَفْلَةٌ لِلرَّقِيبِ، فَحَسْبِيَ تَسْلِيمَةٌ تُخْتَصَرْ
أُحَاذِرُ أَنْ تَتَظَنَّى الْوُشَاةُ، وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرْ
وَأَصْبِرُ مُسْتَيْقِنًا: أَنَّهُ سَيَحْظَى ـ بِنَيْلِ الْمُنَى ـ مَنْ صَبَرْ

قناعة المحب

سَأَقْنَعُ مِنْكِ بِلَحْظِ الْبَصَرْ، وَأَرْضَى بِتَسْلِيمِكِ الْمُخْتَصَرْ
وَلاَ أَتَخَطَّى الْتِمَاسَ الْمُنَى، وَلاَ أَتَعَدَّى اخْتِلاَسَ النَّظَرْ
أَصُونُكِ ـ مِنْ لَحَظَاتِ الظُّنُونِ ـ وَأُعْلِيكِ عَنْ خَطَرَاتِ الْفِكَرْ
وَأَحْذَرُ ـ مِنْ لَحَظَاتِ الرَّقِيبِ ـ وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرْ.

كيف السلو ؟

هَلْ لِدَاعِيكَ مُجِيبُ ؟ أَمْ لِشَاكِيكَ طَبِيبُ ؟
يَا قَرِيبًا - حِينَ يَنْأَى - حَاضِرًا - حِينَ يَغِيبُ - !
كَيْفَ يَسْلُوكَ مُحِبٌّ زَانَهُ مِنْكَ حَبِيبُ ؟
إِنَّمَا أَنْتَ نَسِيمٌ تَتَلَقَّاهُ الْقُلُوبُ
قَدْ عَلِمْنَا عِلْمَ ظَنٍّ ، هُوَ - لَا شَكَّ - مُصِيبُ
أَنَّ سِرَّ الْحُسْنِ مِمَّا أَضْمَرَتْ تِلْكَ الْجُيُوبُ

أنت المنى

أَرْخَصْتِنِي - مِنْ بَعْدِ مَا أَغْلَيْتِنِي - وَحَطَطْتِنِي ، وَلَطَالَمَا أَعْلَيْتِنِي
بَادَرْتِنِي بِالْعَزْلِ عَنْ خُطَطِ الرِّضَى ، وَلَقَدْ مَحَضْتُ النُّصْحَ إِذْ وَلَّيْتِنِي
هَلَّا - وَقَدْ أَعْلَقْتِنِي شَرَكَ الْهَوَى - عَلَّلْتِنِي بِالْوَصْلِ ، أَوْ سَلَّيْتِنِي
الصَّبْرُ شُهْدٌ - عِنْدَ مَا جَرَّعْتِنِي - وَالنَّارُ بَرْدٌ ، عِنْدَ مَا أَصْلَيْتِنِي
كُنْتِ الْمُنَى ، فَأَذَقْتِنِي غُصَصَ الْأَذَى ، يَا لَيْتَنِي مَا فُهْتُ فِيكِ : بِلَيْتَنِي

بقاء على العهد

جَازَيْتَنِي - عَنْ تَمَادِي الْوَصْلِ - هِجْرَانَا وَعَنْ تَمَادِي الْأَسَى وَالشَّوْقِ سُلْوَانَا
بِاللهِ هَلْ كَانَ قَتْلِي فِي الْهَوَى خَطَأً أَمْ جِئْتَهُ عَامِدًا ظُلْمًا وَعُدْوَانَا ؟
عَهْدِي كَعَهْدِكَ ، مَا الدُّنْيَا تُغَيِّرُهُ وَإِنْ تَغَيَّرَ مِنْكَ الْعَهْدُ أَلْوَانَا
مَا صَحَّ وُدِّيَ إِلَّا اعْتَلَّ وُدُّكَ لِي ، وَلَا أَطَعْتُكَ إِلَّا زِدْتَ عِصْيَانَا
يَا أَلْيَنَ النَّاسِ أَعْطَافًا ، وَأَفْتَنَهُمْ لَحْظًا ، وَأَعْطَرَ أَنْفَاسًا وَأَرْدَانَا
حَسُنْتَ خَلْقًا ، فَأَحْسِنْ لَا تَسُؤْ خُلُقًا ، مَا خَيْرُ ذِي الْحُسْنِ إِنْ لَمْ يُولِ إِحْسَانَا ؟

أين وفاؤك ؟

أَشْمَتَّ بِى فِيكَ الْعِدَا … وَبَلَغْتَ ـ مِنْ ظُلْمِى ـ الْمَدَى

لَوْ كَانَ يَمْلِكُ فِدْيَةً … ـ مِنْ حُبِّكَ ـ الْقَلْبُ افْتَدَى

كُنْتَ الْحَيَاةَ لِعَاشِقٍ … ـ مُذْ حُلْتَ ـ أَيْقَنَ بِالرَّدَى

لَمْ يَسْلُ عَنْكَ ، وَلَوْ سَلاَ … لَعَذَرْتُهُ ، فَبِكَ اقْتَدَى

ضَيَّعْتَ عَهْدَ مَحَبَّـــةٍ … كَالْوَرْدِ سَاوَرَهُ النَّدَى

أَيْنَ ادِّعَاؤُكَ لِلْوَفَا … ءِ ، وَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا [١]

صريع الحب

لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُتْ» مَا كَانَ رَدِّىَ «لاَ» … يَاجَائِرَ الحُكْمِ ، أَفْدِيهِ بِمَنْ عَدَلاَ

أَبْدَيْتَ لِى ـ مِنْ أَفَانِينِ الْقِلَى ـ عِبَراً ، … أَرْسَلْتَنِى ـ فِى أَحَادِيثِ الْهَوَى ـ مَثَلاَ

لَمْ تُبْقِ جَارِحَةً بِالْهَجْرِ مِنْ جَسَدِى … إِلاَّ خَلَعْتَ عَلَيْهَا ـ بِالضَّنَى ـ حُلَلاَ

فَلْيُغْنِ كَفَّكَ أَنِّى بَعْضُ مَنْ مَلَكَتْ ، … وَلْيَكْفِ طَرْفَكَ أَنِّى بَعْضُ مَنْ قَتَلاَ

وَلْتَقْضِ مَاشِئْتَ ـ مِنْ هَجْرٍ وَمِنْ صِلَةٍ ـ … لاَ أَقْضِ مَا عِشْتُ سُلْوَانًا وَلاَ مَلَلاَ

سَقْيًا لِعَهْدِكَ وَالأَيَّامُ تُقْبِلُنِى … وَجْهَ السُّرُورِ بِهِ جَذْلاَنَ مُقْتَبِلاَ

إِذِ الزَّمَانُ بَلِيغٌ فِى مُسَاعَدَتِى … يُهْدِى إِلَىَّ ـ تَفَارِيقَ الْمُـــنَى ـ جُمَلاَ

إِنْ كَانَ لِى أَمَلٌ إِلاَّ رِضَاكَ ، فَلاَ … بُلِّغْتُ ـ يَا أَمَلِى ـ مِنْ دَهْرِىَ الأَمَلاَ

---

(١) فى الأصل : « وما عدا دما بدا . » وأصل المثل كما فى مجمع الأمثال للميدانى : « ما عدا مما بدا . » أى ما منعك مما ظهر لك أولا ، قاله على بن أبى طالب للزبير بن العوام رضى الله عنهما يوم الجمل يريد ما الذى صرفك عما كنت عليه من البيعة ، وهذا متصل بقوله : « عرفتنى بالحجاز ، وأنكرتنى بالعراق ، فما عدا مما بدا . »

وفاء المحب

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّيَ الْبَدْرَ الَّذِي كَمُلاَ — فِي مَطْلَعِ الْحُسْنِ — وَالْغُصْنَ الَّذِي اعْتَدَلاَ
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي أَهْدَى مَوَدَّتَهُ — إِلَيَّ مُرْتَهَنٌ شُكْرِي بِمَا فَعَلاَ
أَمَّا الْحَبِيبُ الَّذِي أَبْدَى الْجَفَاءَ لَنَا، — فَمَا رَأَيْنَا قِلاَهُ حَادِثًا جَلَلاَ
وَلَمْ نَرِدْ أَنْ ظَفِرْنَا مِلْءَ أَعْيُنِنَا — بِالْمُشْتَرِي، فَتَجَنَّبْنَا لَهُ زُحَلاَ
أَنْتَ الْحَبِيبُ الَّذِي مَا زِلْتُ أُلْحِفُهُ — ظِلَّ الْهَوَى ، وَأُسْقِيهِ الرِّضَا عَلَلاَ
هٰذِي الْحَقِيقَةُ ، لاَ قَوْلِي مُخَادَعَةً : — لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُتْ» مَا كَانَ رَدِّيَ «لاَ»

انت حسبي

لَمْ يَكُنْ هَجْرِي حَبِيبِي عَنْ قِلَى — لاَ وَلاَ ذَاكَ التَّجَنِّي مَلَلاَ
سَرَّهُ شُكْرِيَ — إِذْ عَافَى — وَلَمْ — يَدْرِ مَا غَايَةُ صَبْرِي فَابْتَلَى
أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي يَرْضَى بِهِ — لِيَ مَنْ لَوْ قَالَ «مُتْ» مَا قُلْتُ: «لاَ»
مَثَلٌ فِي كُلِّ حُسْنٍ مِثْلَ مَا — صَارَ ذُلِّي — فِي هَوَاهُ — مَثَلاَ
يَا فَتِيتَ الْمِسْكِ يَا شَمْسَ الضُّحَا — يَا قَضِيبَ الْبَانِ يَا رِيمَ الْفَلاَ
إِنْ يَكُنْ لِي أَمَلٌ غَيْرَ الرِّضَا — مِنْكَ ، لاَ بُلِّغْتُ ذَاكَ الْأَمَلاَ

إلى هاجر

أَتَهْجُرُنِي وَتَغْصِبُنِي كِتَابِي ؟ — وَمَا فِي الْحَقِّ غَصْبِي وَاجْتِنَابِي
أَيَجْمُلُ أَنْ أُبِيحَكَ مَحْضَ وُدِّي ؟ — وَأَنْتَ تَسُومُنِي سُوءَ الْعَذَابِ
فَدَيْتُكَ، كَمْ تَغُضُّ الطَّرْفَ دُونِي — وَكَمْ أَدْعُوكَ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ
وَكَمْ لِي مِنْ فُؤَادِكَ — بَعْدَ قُرْبٍ — مَكَانَ الشَّيْبِ فِي نَفْسِ الْكَعَابِ

أَعِذْ ـ فى عَبْدِكَ المَظْلومِ ـ رَأْيًا ... تَنَالُ بِهِ الجَزِيلَ مِنَ الثَّوَابِ [1]

وَإِنْ تَبْخَلْ عَلَيْهِ فَرُبَّ دَهْرٍ ... وَهَبْتَ لَهُ ، ضَاكَ بلاَ حسَابِ

لاسبيل إلى السلو

أَذْكَرْتَنِي سَالِفَ الْعَيْشِ الَّذِى طَابَا ... يَا لَيْتَ غَائِبَ ذَاكَ الْعَهْدِ قَدْ آبَا

إِذْ نَحْنُ فى رَوْضَةٍ ـ لِلْوَصْلِ ـ نَعَمُهَا ... مِنَ السُّرُورِ غَمَامٌ فَوْقَهَا صَابَا

إِنِّى لَأَعْجَبُ مِنْ شَوْقٍ يُطَاوِلُنِي ... فَكُلَّمَا قِيلَ فِيهِ: «قَدْ قَضَى»، ثَابَا

كَمْ نَظْرَةٍ لَكَ فى عَيْنِي عَلِمْتَ بِهَا ... ـ يَوْمَ الزِّيَارَةِ ـ أَنَّ الْقَلْبَ قَدْ ذَابَا

قَلْبٌ يُطِيلُ مَقَامَاتِى لِطَاعَتِكُمْ ، ... فَإِنْ أُكَلِّفْهُ عَنْكُمْ سَلْوَةً يَابَى

مَاتَوْبَتِى بِنَصُوحٍ ـ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ ـ ... لاَ عَذَّبَ اللهُ إِلاَّ عَاشِقًا تَابَا

انت الحياة

أَمَّا رِضَاكَ فَعِلْقٌ مَالَهُ ثَمَنُ ... لَوْ كَانَ سَامَحَنِي فى وَصْلِهِ الزَّمَنُ

تَبكِي فِرَاقَكَ عَيْنٌ أَنْتَ نَاظِرُهَا ... قَدْ لَجَّ فى هَجْرِهَا عَنْ هَجْرِكَ الْوَسَنُ

إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِى عَهْدِى بِهِ حَسَنٌ ... قَدْ حَالَ مُذْ غَابَ عَنِّى وَجْهُكَ الحَسَنُ

أَنْتَ الْحَيَاةُ فَإِنْ يُقْدَرْ فِرَاقُكَ لِى ... فَلْيُحْفَرِ الْقَبْرُ أَوْ فَلْيُخْضَرِ الْكَفَنُ

وَاللهِ مَاسَاءَنِى أَنِّى جُفِيتُ ضَنًى ... بَلْ سَاءَنِى أَنَّ سِرِّى ـ بِالضَّنَى ـ عَلَنُ

لَوْ كَانَ أَمْرِىَ ـ فى كَتْمِ الْهَوَى ـ بِيَدِى ... مَا كَانَ يَعْلَمُ ـ مَا فى قَلْبِيَ ـ الْبَدَنُ

ذكرى معاهد قرطبة

عَلَى الثَّغْبِ الشَّهْدِيِّ مِنِّى تَحِيَّةٌ ... زَكَتْ ، وَعَلَى وَادِى الْعَقِيقِ سَلاَمُ

وَلاَ زَالَ نَوْرٌ فى الرُّصَافَةِ ضَاحِكٌ ... بِأَرْجَائِهَا يَبْكِى عَلَيْهِ غَمَامُ

---

(١) قريب من هذا قول البحترى :

« أصعد فى نظرة ، مستثيب ... توخى الأجر أو كره الأثاما »

مَعَاهِدُ لَهْوٍ لَمْ تَزَلْ فِي ظِلَالِهَا تُدَارُ عَلَيْنَا ـ لِلْمُجُونِ ـ مُدَامُ
زَمَانٌ: رِيَاضُ الْعَيْشِ خُضْرٌ نَوَاضِرٌ تَرِفُّ ، وَأَمْوَاهُ السُّرُورِ جِمَامُ
فَإِنْ بَانَ مِنِّي عَهْدُهَا ، فَبِلَوْعَةٍ يَشُبُّ لَهَا ـ بَيْنَ الضُّلُوعِ ـ ضِرَامُ
تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِهَا ، فَتَبَادَرَتْ دُمُوعٌ ، كَمَا خَانَ الْفَرِيدَ نِظَامُ
وَصُحْبَةَ قَوْمٍ كَالْمَصَابِيحِ ، كُلُّهُمْ ـ إِذَا هُزَّ لِلْخَطْبِ الْمُلِمِّ ـ حُسَامُ
إِذَا طَافَ بِالرَّاحِ الْمُدِيرُ عَلَيْهِمُ أَطَافَ بِهِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، كِرَامُ
وَأَحْوَرُ سَاجِي الطَّرْفِ حَشْوُ جُفُونِهِ سَقَامٌ بَرَى الْأَجْسَامَ مِنْهُ سِقَامُ
تَخَالُ قَضِيبَ الْبَانِ ـ فِي طَيِّ بُرْدِهِ ـ إِذَا اهْتَزَّ مِنْهُ مَعْطِفٌ وَقَوَامُ
يُدِيرُ ـ عَلَى رَغْمِ الْعِدَا ـ مِنْ وِدَادِهِ سُلَافًا ، كَأَنَّ الْمِسْكَ مِنْهُ خِتَامُ
فَمِنْ أَجْلِهِ أَدْعُو لِقُرْطُبَةِ الْمُنَى بِسُقْيَا ضَعِيفِ الطَّلِّ وَهْوَ رِهَامُ [1]
مَحَلٌّ غَنِينَا بِالتَّصَابِي خِلَالَهُ فَأَسْعَدَنَا ، وَالْحَادِثَاتُ نِيَامُ
فَمَا لَحِقَتْ تِلْكَ اللَّيَالِي مَلَامَةٌ ، وَلَا ذَمَّ ـ مِنْ ذَاكَ الْحَبِيبِ ـ ذِمَامُ

غدر الحبيب

أَجِدُّ ، وَمَنْ أَهْوَاهُ ـ فِي الْحُبِّ ـ عَابِثُ وَأُوفِي لَهُ بِالْعَهْدِ ، إِذْ هُوَ نَاكِثُ
حَبِيبٌ نَأَى عَنِّي ـ مَعَ الْقُرْبِ وَالْأَسَى ـ مُقِيمٌ لَهُ ـ فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ ـ مَاكِثُ
جَفَانِي بِإِلْطَافِ الْعِدَا ، وَأَزَالَهُ ـ عَنِ الْوَصْلِ ـ رَأْيٌ فِي الْقَطِيعَةِ حَادِثُ
تَغَيَّرْتُ عَنْ عَهْدِي ، وَمَا زِلْتُ وَاثِقًا بِعَهْدِكَ ، لَكِنْ غَيَّرَتْكَ الْحَوَادِثُ
وَمَا كُنْتُ ـ إِذْ مَلَّكْتُكَ الْقَلْبَ ـ عَالِمًا بِأَنِّيَ ـ عَنْ حَتْفِي ـ بِكَفِّيَ بَاحِثُ
فَدَيْتُكَ ، إِنَّ الشَّوْقَ لِي ـ مُذْ هَجَرْتَنِي ـ مُمِيتٌ فَهَلْ لِي ـ مِنْ وِصَالِكَ ـ بَاعِثُ ؟

(١) رهام ـ جمع رهمة ـ وهى المطر الضعيف الدائم

سَتَبْلَى اللَّيَالِي - وَالْوِدَادُ بِحَالِهِ - جَدِيدٌ ، وَتَفْنَى وَهْوَ لِلْأَرْضِ وَارِثُ
وَلَوْ أَنَّنِي أَقْسَمْتُ : أَنَّكَ قَاتِلِي وَأَنِّيَ مَقْتُولٌ ، لَمَا قِيلَ : « حَانِثٌ . »

اصنع ماشئت

يَانَاسِياً لِي - عَلَى عِرْفَانِهِ - تَلَفِي ذِكْرُكَ مِنِّيَ بِالْأَنْفَاسِ مَوْصُولُ
وَقَاطِعاً صِلَتِي - مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبٍ - تَاللهِ : إِنَّكَ - عَنْ رُوحِي - لَمَسْئُولُ
مَاشِئْتَ فَاصْنَعْهُ ،كُلٌّ مِنْكَ مُحْتَمَلٌ ، وَالذَّنْبُ مُغْتَفَرٌ ، وَالْعُذْرُ مَقْبُولُ
لَوْ كُنْتَ حَظِّيَ ، لَمْ أَطْلُبْ بِهِ بَدَلاً ، أَوْ نِلْتُ مِنْكَ الرِّضَا ، لَمْ يَبْقَ مَأْمُولُ

أمنيـــة

يَا قَاطِعاً حَبْلَ وُدِّي وَوَاصِلاً حَبْلَ صَدِّي
وَسَالِياً ، لَيْسَ يَدْرِي بِطُولِ بَثِّي وَوَجْدِي
لَوْ كَانَ عِنْدَكَ مِنِّي مِثْلُ الَّذِي مِنْكَ عِنْدِي
لَبِتَّ - بَعْدِيَ - مِثْلِي ، وَبِتُّ - مِثْلَكَ - بَعْدِي

نفسي فداؤك

لَوْ تُرِكْنَا بِأَنْ نَعُودَكَ عُدْنَا وَقَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا وَزِدْنَا
غَيْرَ أَنَّ الْهَوَى اُسْتَطَارَ حَدِيثاً ، فَاُنْتَحَتْنَا الْعُيُونُ لَمَّا حُسِدْنَا
فَلَوَ أنَّ النُّفُوسَ تُقْبَلُ مِنَّا ، لَسَمَحْنَا بِهَا - فِدَاءً - وَجُدْنَا

دين الحب

يَا غَزَالاً جُمِعَتْ فِيـــهِ - مِنَ الْحُسْنِ - فُنُونُ
أَنْتَ فِي الْقُرْبِ وَفِي الْبُعْـــدِ - مِنَ النَّفْسِ - مَكِينُ
بِهَوَاكَ - الدَّهْرَ - أَلْهُو ، وَبِحُبِّيـــكَ ، أَدِينُ

مُنْيَةَ الصَّبِّ : أَغِثْنِي ،   قَدْ دَنَتْ مِنِّي الْمَنُونُ
وَاحْفَظِ الْعَهْدَ ، فَإِنِّي   لَسْتُ — وَاللهِ — أَخُونُ
وَارْحَمَنْ صَبًّا شَجِيًّا   قَدْ أَذَابَتْهُ الشُّجُونُ
لَيْلُهُ هَمٌّ وَغَمٌّ ،   وَسَــقَامٌ ، وَأَنِينُ
شَفَّهُ الْحُبُّ ، فَأَمْسَى   — سَقَمًا — لاَ يَسْتَبِينُ
صَارَ — لِلْأَشْوَاقِ — نَهْبًا ،   فَنَبَتْ عَنْهُ الْعُيُونُ

وفاء

بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَالَوْ شِئْتَ لَمْ يَضِعِ   سِرٌّ إِذَا ذَاعَتِ الْأَسْرَارُ — لَمْ يَذِعِ
يَابَائِعًا حَظَّهُ مِنِّي ، وَلَوْ بُذِلَتْ   لِيَ الْحَيَاةُ — بِحَظِّي مِنْهُ — لَمْ أَبِــعِ
يَكْفِيكَ أَنَّكَ — إِنْ حَمَّلْتَ قَلْبِي مَا   لَمْ تَسْتَطِعْهُ قُلُوبُ النَّاسِ — يَسْتَطِعِ
تِهْ أَحْتَمِلْ ، وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ ، وَعِزَّ أَهُنْ ،   وَوَلِّ أُقْبِلْ ، وَقُلْ أَسْمَعْ ، وَمُرْ أُطِعِ

فى سبيل الهوى

قَدْ نَالَنِي مِنْكَ مَا حَسْبِي بِهِ وَكَفَى   يَا مَنْ تَنَاهَيْتُ — فِى إِلْطَافِهِ فَجَفَا
عَلَّلْتَنِي بِالْمُنَى — حَتَّى إِذَا عَلِقَتْ   بِالنَّفْسِ — لَمْ أُعْطَ مِنْ أَسْبَابِهَا طَرَفَا
غُيِّرْتَ عَنْ خُلُقٍ — قَدْ لاَنَ لِي زَمَنًا —   لِينَ النَّسِيمِ ، فَلَمَّا لَذَّ لِي عَصَفَا
لاَ يَحْبَطَنْ عَمَلٌ — أَرْضَاكَ صَالِحُهُ —   فَفِي سَبِيلِكَ أَنْفَقْتُ الْهَوَى سَرَفَا

صــلة المحب

سِرِّي وَجَهْرِي أَنِّي هَائِمٌ ،   قَامَ بِكَ الْعُذْرُ ، فَلاَ لاَئِمُ
لاَ يَنَمِ الْوَاشِي الَّذِي غَرَّنِي   هَا أَنَا — فِى ظِلِّ الرِّضَى — نَائِمُ
عُدْتَ إِلَى الْوَصْلِ — كَمَا أَشْتَهِي —   فَالْهَجْرُ بَاكٍ ، وَالرِّضَى بَاسِمُ

حَسْبِي، أَنَا الْمَظْلُومُ فِيمَا جَرَى، وَإِنْ تَشَأْ قُلْتَ: «أَنَا الظَّالِمُ»
يَا سَائِلاً عَمَّا بِنَفْسِي لَهُ - تَجَنِّيًا - وَهْوَ بِهِ عَالِمُ
مَعْنَى الْهَوَى أَنْتَ وَشَخْصُ الْمُنَى، دَعْنِي بِمَا يَزْعُم الزَّاعِمُ

مقيم على العهد

عَذِيرِي مِنْ خَلِيلٍ يَسْتَطِيلُ يَمِيلُ - مَعَ الزَّمَانِ - كَمَا يَمِيلُ
وَيَرْضَى أَنْ تَضِيعَ سُدًى[1] حُقُوقِي، وَبَاعِي فِي الْهَوَى بَاعٌ طَوِيلُ
أَشَمْسًا أَشْرَقَتْ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ! أَمَالَكَ - فِي سِوَى قَلْبِي - أُفُولُ؟
أَمَا يُمْحَى عِتَابُكَ كُلَّ يَوْمٍ؟ أَمَا يُرْجَى - إِلَى وَصْلٍ - وُصُولُ؟
وَلَوْ أَجِدُ السَّبِيلَ لَطِرْتُ وَجْدًا، وَلَكِنْ مَا إِلَى هَذَا سَبِيلُ
كِتَابِي - عَنْ وِدَادِكَ - لَا يَزُولُ، وَعَهْدِي - مِثْلَ عَهْدِكَ - لَا يَحُولُ

آلام المحب

يَا مُعْطِشِي - مِنْ وِصَالٍ كُنْتُ وَارِدَهُ - هَلْ مِنْكَ لِي غُلَّةٌ إِنْ صِحْتُ: «وَاعَطَشِي»
كَسَوْتَنِي - مِنْ ثِيَابِ السُّقْمِ أَسْبَغَهَا - ظُلْمًا - وَصَيَّرْتَ مِنْ لُحُفِ الضَّنَى فُرُشِي
إِنْ بَصُرْتُ الْهَوَى، عَنْ مُقْلَةٍ كُحِلَتْ بِالسِّحْرِ مِنْكَ، وَخَدٍّ بِالْجَمَالِ وُشِي
لَمَّا بَدَا الصُّدْغُ مُسْوَدًّا بِأَحْمَرِهِ أَرَى التَّسَالُمَ بَيْنَ الرُّومِ وَالْحَبَشِ
أَوْفَى إِلَى الْخَدِّ، ثُمَّ انْصَاعَ مُنْعَطِفًا كَالْعَقْرُبَانِ انْثَنَى مِنْ خَوْفِ مُحْتَرِشِ
لَوْ شِئْتَ - زُرْتَ وَسِلْكُ النَّجْمِ مُنْتَظِمٌ، وَالْأُفْقُ يَخْتَالُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْغَبَشِ -
صَبًّا - إِذَا الْتَذَّتِ الْأَجْفَانُ طَعْمَ كَرًى جَفَا الْمَنَامَ، وَصَاحَ اللَّيْلَ: «يَا قُرَشِي»
هَذَا وَإِنْ تَلِفَتْ نَفْسِي، فَلَا عَجَبٌ، قَدْ كَانَ مَوْتِيَ - مِنْ تِلْكَ الْجُفُونِ - خُشِي

(١) وفى الأصل: «كذا».

المعميات والألغاز (١)

إلى المعتمـــــد

أيها الظافرُ لاَ زِلْـــتَ مدَى الدُّنْيَا مُظَفَّرْ

(١) الأحاجى والألغاز والمعميات

افتن كثير من النظامين والكتاب فى طرق الالغاز والتعمية ليمتحنوا بها الذكاء والقـدرة على فك الطلاسم والمعميات ، ويزجوا بها أوقات فراغهـم الطويلة ، وهو عمل شاق مضن لا يقدم عليـه إلا من فرغ باله من مشكلات الحياة وجدها . وأكثر أنواعه تافه لا خطر له ، وسنلم بطائفة كبيرة منها . وثمة أنواع من التعمية تقوم عند الملوك والأمراء إلى ذلك العهد مقام الشفرة ، وتطيير الحمام الزاجل وما إلى ذلك من وسائل المخابرة السرية ، ومن يدرى ؟ فربما كان مادار بين (ابن زيدون) و (المعتمد) من هذا النوع لم يكن يقصـد به قتل الوقت والتسلية أو امتحان الذكاء فحسب ، وإنما كان يقصـد به فوق ذلك المران على بعض ضروب المخابرة السرية التى كانت تمس إليها حاجة الدولة ، ويستعملها أنصارها السياسيون للتعمية على غيرهم من خصومهم . وربما كان للتسلية وحدها وتزجية أوقات الفراغ الطويلة أيضا .

والطريقة التى تبعها المعتمد وابن زيدون هى إحدى هـذه الطرق العديدة ، ولم نعثر عليها — فيما قرأناه من كتب الألغاز على كثرتها — ولم تشر إليها المعاجم العربية ، ولـكننا استنتجناها من الأشعار التى دارت بينهما ، ومن قول « المقرى » صاحب « نفح الطيب » الذى عزز ما ذهبنا إليه .

وخلاصة هـذه الطريقة أن يطير أحد المتراسلين إلى الآخر بيتا شائعا فى قصـيدة أو بيتين ويرمز لـكل حرف من حروفهما باسم طائر بعينه .

قال المقرى :

« وكتب ابن زيدون إلى المعتمد :

« وافاك نظم لى فى طيه معنى معمى اللفظ مستور
مرامه يصعب ما لم يبح بالسر قمرى وشحرور .»

قال : « ثم ذكر أبياتاً ، فيها أسماء طيور ، عمى بها عن بيت طيره فيها ، والبيت المطير هو :

«أنت — إن تنز — ظافر مليطع من يناور . »

ففـكه «المعتمد » وجاوبه :

« جاءتنى الطير التى سرها لطم به قلبى مسرور » . اهـ .

وستمر بك هذه القصيدة فى « ص ٢٩٩ » من هذا الديوان .

ويؤيد هذا الاستنتاج قول المعتمد :

«أرسل طيور الشعر نحوى فقد بث فؤادى شرك الفهم . »

وقول ابن زيدون للمعتمد :

« وافاك الطير سرب لديه سر مكتم . »

ولا تكاد تخلو قصيدة — من هذا النوع — من ذكر الطيور كما يرى القارئ فى القصائد التالية ، وسنثبت القصيدة التى نحن بصددها فى الشرح ونتبعها بجدول نسرد فيه على الترتيب أسماء الطيور التى ذكرها فيها ، ونقرن كل طائر بحرف هجائه ليتسنى للقارئ استخراج البيت المطير بنفسه ، وهاهى الأبيات :

«١ فاسأل الشاهين ، والصقرين ، والعنقاء تخبر

أَنْتَ أَسْنَى ابْنٍ لِأَسْمَى   وَالِدٍ فِي الدَّهْرِ فَافْخَرْ
إِنْ تُرِدْ شَرْحَ مُعَمًّى   هُوَ فِي نَظْمِيَ مُضْمَرْ

ثم رال القفر ، والفـ   ـياد ، والنسر المعمر
ثم بعد الديك عد للنـ   ـسر ، والرال المنفر
ثم عد للنسر والرا   ل ، فكل قد تكرر
والحبارى ، والسمانى   والشقراق المحبر
ثم سائل بعدها البا   زى – إن حل فصرصر
معه الطاوس والديـ   ـك إذا بالصبح بشر
تلوه القمرى مهما   ردد السجع فقرقر
ثم ناد الهيق والرأ   ل ، لعل السر يظهر
وتعيف ما لدى القبـ   ـجين من خاف سيظهر
ثم عد للنسر والرا   ل، هما في الأمر أكثر
وازجر العقعق حتى الزجـ   ـر ، إن الطير يزجر
وليل الرأل سمانى   وشقراق تأخر . »

فليس فيها إلا أسماء طيور بعينها ترمز إلى حروف بعينها ، ونحن مبينها للقارئ لتكون نموذجا – لمن يعنيه حل أمثال هذه المعميات ، والبيت المعمى الذي يستخرج من هذه الأبيات هو :

« صدق لنا فال السمه تظفر على الكلمه . »

وأنت إذا تتبعت ما فيها من أسماء الطيور تجد أن كل طائر في مقابلة حرف من حروف هجاء البيت ونحن نضع حروف البيت وأمام كل حرف طائره الذي يدل عليه في الجدول الآتي ليتبين للقارئ طريقة الحل ، وهذا هو الجدول :

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
ص	شاهين	ا	نسر	ع	هيق
د	صقرين	ل	رأل	ل	رأل
ق	عنقاء	س	حبارى	ى	قبجين
ل	رأل	م	سمانى	ا	نسر
ن	فياد	هـ	شقراق	ل	رأل
ا	نسر	ت	بازى	ك	عقعق
ف	ديك	ظ	طاوس	ل	رأل
ا	نسر	ف	ديك	م	سمانى
ل	رأل	ر	قمرى	هـ	شقراق

فَاسْأَلِ ـ الشَّاهِينَ ، وَالصَّقْرَيْنِ ، وَالْعَنْقَاء ـ تُخْبَرْ
ثُمَّ رَالَ القَفْرِ ، وَالْفَيَّادَ ، وَالنَّسْرَ المُعَمَّرْ

وإلى القارئ معانى هذه الكلمات :

الشاهين : ضرب من الصقور أكدر أبث أى رمادى اللون .

العنقاء : طائر خرافى لاوجود له إلا فى شعر الشعراء .

رأل : ولد النعام ، وسيمر بك فى « ص ٢٨٤ »

الفياد : ذكر البوم .

نسر : النسر طائر عظيم من جوارح الطير سمى بذلك لأنه ينسر الشيء ويقتلعه ويقتنصه والكثير الريش منه يسمى القداف .

ديك ـ الديك : ذكر الدجاج .

رال : ولد النعام .

حبارى ـ الحبارى : طائر فى حجم الديك الهندى كثيرة الريش ، ومنها بيضاء وكدراء .

سمانى : طائر معروف فوق العصفور ، ويجمع على سمانيات .

قالوا : وهو يغوص فى البحر بأحد جناحيه ويقيم الآخر كالقلع للسفينة ، فتدفعه الريح إلى ساحل البحر . وكثيراً ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صوت حسن ومن شأنه أنه يسكت فى الشتاء ، فاذا أقبل الربيع صاح .

شقراق : طائر صغير بقدر الحمام أخضر مشبع الخضرة ، حسن المنظر ، فى جناحيه سواد وعده الجاحظ نوعا من الغربان . يألف الروابى ورءوس الجبال . وله مشتى ومصيف ، قال الجاحظ وهو كثير الاستغاثة ، إذا مر به طائر ضربه بجناحيه وهاج كأنه هو المضروب .

بازى ـ البازى : من الصقور الأزرق الأحوى ، والأرقط القصير الجناحين الغليظ .

طاوس : طائر فى نحو قدر الاوزة ، حسن اللون ، والذكر منه غاية فى الحسن له فى رأسه ذؤابة قائمة كالشربوش ، وفى ذنبه ريش أخضر طويل فى أحسن منظر ، وليس للأنثى مثل ذلك وفى طبعه الزهو بنفسه والاعجاب بريشه ، وفى الخريف يلقى ريشه كما يلقى الشجر ورقه ، فاذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه .

قمرى سيمر بك فى « ص ٣٠٤ »

هيق : ذكر النعام ، قال أبو العلاء على لسان جنى فى رسالة الغفران :

« وأركب الهيق ـ فى الظلماء ـ معتسفا أو لا ، فذب رياد بات ممرورا . »

تبجين : مشى فيج وهو الكروان وسيمر بك فى « ص ٣٠٤ »

عقعق ـ العقعق طائر كالغراب ضخم طويل المنقار يحجل حجلانا ، وهو يدجن ولونه أبلق ببياض وسواد .

شقراق ـ الشقراق : طائر مرقط بخضرة وحمرة وبياض ويكون بأرض الحرم .

ثُمَّ - بَعْدَ الدِّيكِ - عُدْ لِلنَّسْرِ وَالرَّأْلِ الْمُنَفَّرْ

أصل اشتقاق اللغز

وأصل اشتقاق اللغز - كما يروى النويرى - من ألغز اليربوع ولغز ، إذا حفر لنفسه مستقيما ثم أخذ يمنة ويسرة ليوارى بذلك ويعمى على طالبه .

واللغز أسماء ، فنها : المعاياة ، والعويص ، والرمز ، والمحاجاة ، وأبيات المعانى ، والملاحن ، والمرموس ، والتأويل ، والكناية ، والتعريض ، والاشارة ، والتوجيه ، والمعمى ، والممثل ، ومعنى الجميع واحد ، واختلافها بحسب اختلاف وجوه اعتباراته .

فانك إذا اعتبرته من حيث إن واضعه كأنه يعاييك - أى يظهر إعياءك وهو التعب - سميته : «معاياة»

وإذا اعتبرته - من حيث صعوبة فهمه واعتياص استخراجه - سميته : « عويصاً . »

وإذا اعتبرته - من حيث إنه قد عمل على وجوه وأبواب - سميته : « لغزا . » وفعلك له : « إلغازاً.»

وإذا اعتبرته - من حيث إن واضعه لم يفصح عنه - قلت : « رمز » وقريب منه الاشارة .

وإذا اعتبرته - من حيث إن غيرك حاجاك - أى استخرج مقدار عقلك - سميته : « محاجاة . »

وإذا اعتبرته - من حيث إنه استخرج كثرة معانيه - سميته : « أبيات المعانى . »

وإذا اعتبرته - من حيث إن قائله قد يوهمك شيئاً ويريد غيره - سميته : «لحنا» وسميت فعلك : «الملاحن»

وإذا اعتبرته - من حيث إنه ستر عنك ورمس - فهو « المرموس » ، والرمس القبر .

وإذا اعتبرته - من حيث أن معناه يؤول إليك - سميته : « مؤولا . » وسميت فعلك : «تأويلا.»

وإذا اعتبرته - من حيث إن صاحبه لم يصرح بغرضه - سميته « تعريضاً » ، و « كناية . »

وإذا اعتبرته - من حيث إنه ذو وجوه - سميته : « الموجه » وسميت فعلك : « التوجيه . »

وإذا اعتبرته - من حيث إنه معطى عليك - سميته : « معمى . »

طرق التعمية

ومن ضروب التعمية - ما ذكره القلقشندى - وهو أن يصطلح الانسان على إبدال حرف معين بحرف آخر معين - حيث وقع فى القلم المعروف بالمعمى - وهو أن جعلوا مكان كل حرف من حروف العربية حرفاً آخر من حروفها ، فجعلوا الكاف ميما وبالعكس ، والألف واوا وبالعكس ، والدال راء وبالعكس ، والسين عيناً وبالعكس ، والفاء ياء وبالعكس .

فيكتب « محمد » « كطكر » ، و « على » « سهف » ، و « مسعود » « كسار » وقس على ذلك .

وقد نظم بعضهم ذلك في بيت واحد ذكر فيه كل حرف تلو مايبدل به ، وهو :

« كم أوحط صلاله درسع فى بز خش عض ثخ تدنق . »

ومنهم من يعكس حروف الكلمة، فيكتب « محمد » « دمحم » ، و « على » «يلع » . ومنهم من يبدل الحرف الأول من الكلمة بثانيه مطلقا فى سائر الكلام ، فيكتب : « محمد أخو على » : حمدم خاعويل » . إلى غير ذلك من التمييزات

ثُمَّ عُدَّ لِلنَّشْرِ وَالرَّا لِ فَكُلٌّ قَدْ تَكَرَّرْ

ومنهم من يبدل الحروف بأعدادها فى الجمل فيكتب « محمد » « ٤٠ و ٨ و ٤٠ و ٤ » وتعمل التعمية صفة محاسبة .

ومنهم من يكتب — عوض عدد الحروف — حروفا ، وهو أبلغ فى التعمية ، فيكتب « محمد » « لى ، بو ، لى ، اج » لأن اللام والياء بأربعين ، وهى عدد ماللميم الأولى ، والباء والواو بثمانية ، وهى عدد ماللحاء ، واللام والياء أيضا بأربعين ، وهى عدد ما للميم الثانية ، والألف والجيم بأربعة وهى عدد ما للدال ، فكأنه قال : « م ح م د . »

وإن شاء أتى بغير هذه الحروف مما يتضمن غير هذه الأعداد .

ومنهم من يجعل لكل حرف اسم رجل أو غيره . ومنهم من يضع الحروف على منازل القمر الثمانية والعشرين ، على ترتيبها على حروف « أبجد » :

فيجعل الألف للشرطين ، والباء للبطين ، والجيم للثريا ، وهكذا إلى آخرها : فيكون بطن الحوت للعين من « ضظغ » .

وربما اصطلح على الترتيب على أسماء البلدان أو الفواكه أو الأشجار ، أو غير ذلك ، أو صور الطير وغيره من الحيوانات ، إلى غير ذلك من ضروب التعامى التى لا يأخذها حصر .

وأكثر أهل هذا الفن على أن يرسم الحروف أشكالا يخترعها قلما له مقطعة على ترتيب حروف المعجم ، والطريق فى ذلك أن يثبت حروف المعجم ، ثم يرتب تحت كل واحد شكلا لايماثل الآخر ، فكلما جاءه فى الخط ذلك الحرف كتبه بحيث لايقع عليه غلط . ثم يفصل بين كل كلمتين ، إما بخط أو بنقط ، أو بياض ، أو دائرة ، أو غير ذلك .

وأكثر المتقدمين يجعلون الحرف المشدد بحرفين ، والمتأخرون يجعلونه حرفا واحدا .

وقد ذكر القلقشندى — فى ذلك — فصلا طويلا فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ، فليرجع إليه القارئ « من ص ٢٢٩ إلى ٢٤٩ » إذا شاء .

أمثلة من التعمية

ومن الأمثلة التى ذكرها النويرى قول الحكيم أمير الدولة — المعروف بابن التلميذ — ملغزا فى الميزان :

« ما واحد مختلف الأسماء يعدل فى الأرض وفى السماء
يحكم بالقسط بلا رياء أعمى يرى الرشاد كل رائى
أخرس — لا من علة وداء — يغنى عن التصريح بالإيماء
يجيب — إن ناداه ذو امتراء — بالرفع والخفض عن النداء
يفصح إن علق فى الهواء . »

فهو بقوله : « مختلف الأسماء » يعنى : « ميزان » الشمس ، والاصطرلاب ، وسائر آلات الرصد » وهو معنى قوله : « يحكم فى السماء » . وميزان الكلام : « النحو » وميزان الشعر : « العروض » وميزان المعانى : « المنطق » وهذه الميزان والذراع والمكيال .

وقول آخر فى الميزان :

« ما تقولون : فيما نزل من السماء ، وعلق فى الهواء ، له عين عمياء ، وكف شلاء ، ليس له — إن عدل —

ثواب ، ولا عليه — إن جار — عقاب . خلق من ثلاثة أجناس ، تصحفه الأنفاس . جسمه عار من غير لباس ، أخرس اللسان ، في أذنه خرصان ، مكرر الذكر في القرآن ، ينطوي — إذا نام — كالصل ، وفعله المستقبل معتل ، وله في الآخرة أكبر محل . »

وقول ابن الرومي في فتيلة السراج :

« ماحية في رأسها درة تسبح في بحر قليل المدى ؟
إن غيبت كان العمى حاضراً وإن بدت لاح طريق الهدى ! »

وقول السري الرفاء في شبكة الصياد :

« وكثيرة الأحداق ، إلا أنها عمياء ، ما لم تنغمس في ماء
وإذا هي انغمست أفادت ربها ما لا ينال بأعين البصراء . »

وقول آخر في النوم :

« وحامل يحملني وما له شخص يرى !
إذا حصلت فوقه وهو لذيذ المتطى
سريت لا أدري أفي أرض سريت ؟ أم سما ؟ »

وقول المعري في ركابي السرج :

« خليلان نيطا في جوانب مجلس حداراه قدام له ووراء
متى يصح الرحلين ماش عليهما يزل عنه — في وشك — حفا وحفاء . »

قوله : « خليلان » لتشابههما ، والمجلس : « السرج » ، وحداراه : « قربوسه » و « رادفته » والحفا مقصور : « وجع الرجل » وممدود ، من مشى الرجل حافياً بغير نعل .

وقوله في الملح :

« وبيضاء — من سر الملاح — ملكتها فلما قضت إربي حوت بها صحبي
فباتوا بها مستمتعين ، ولم تزل تخمهم — بعد الطعام — على الشرب . »

قوله : سر أي : « خالصة » والملاح : جمع ملح ، والارب : الحاجة . وقول آخر في الحرب .

« ما ذات شوك لها جناح يختطف الناس عن قريب
وهي عقيم ، ترى بنيها من بين مرد ، وبين شيب
يأكل بعض البنين بعضاً طلوع شمس إلى غروب
تصحيفها الداء — غير شك — قد يحسم الداء بالطبيب
والداء معكوسه مكان يصلح للطائر النجيب
يعرفها من يكون طبا بالشعر والنحو والغريب . »

فهذا لغز معمى في الحرب ، وشوكها : « السلاح » ، وجناحاها : « جاباها » ، وعقم لأنها لا تلد ، وبنوها : « رجالها . » وأكلهم : « قتلهم . » ، وتصحيفها : « الجرب » وعكسه : « برج »

وقول آخر في الثدي :

« وما أخوان مشتبهان جدا كما اشتبه الغرابة والغراب

يصـــــمهما على مر الليالى ـ وماالحتما ، ولا افترقا ـ إهاب
لذاك وذا ، دموع هاملات ، ولـكن كل دمعهما شراب
يصونهما عن الأبصار ـ دين ويضرب ـ دون نيلهما ـ حجاب . »

وهما ثديا المرأة ، ويضمهما إهاب ، وهو : « الجلد »
وقول آخر فى الفح :

« وما ميت كفنته ودفنته مقام إلى حى صحيح فأوثقه . »

وقول آخر فى الصدى :

« وساكن يسكن فى الفلاة ليس من الوحش ولا النبات
ولا من الجن ، ولا الحيات ، ولا الحيام الشـــمر والأبيات
ولا بدى جسم ولا حياة كلا ، ولا يدرك بالصـفات
بلى ، له صوت من الأصوات يسمع فى الأحيان والأوقات . »

وقد ذكر النويرى أمثلة كثيرة من هذه الأنواع وأشباهها ، ثم قال :

مسائل العويص

ومما يتصل بهذا الباب مسائل العويص .
فمن ذلك قولهم :
« امرأتان التقتا برجلين ، قالتا لهما : «مرحبا بابنينا وزوجينا ، وابنى زوجينا . »
وذلك أن كل واحد منهما تزوّج بأم الآخر ، فهما ابناهما وزوجاهما وابنا زوجيهما »
وقولهم :
« رجلان كل واحد منهما عم الآخر وابن أخيه . »
وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوّج بأم الآخر ، فرزق كل واحد منهما ولدا ، فـكل من الولدين عم الآخر وابن أخيه .
وقولهم :
« رجلان، كل واحد منهما خال الآخر وابن أخته »
وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوّج بابنة الآخر ، فرزق كل واحد منهما ولدا ، فـكل من ولديهما خال الآخر وابن اخته .
وقولهم :
« رجل وامرأتان ، هو خال إحداهما وهى خالته ، وعم الأخرى وهى عمته . »
وذلك : أن جدته أم أبيه تزوجت بأخيه لأمه ، وأخته لأبيه تزوجت بأب أمه ، فولدتا بنتين ، فبنت أخته خالته ، وهو خالها ، وبنت جدته عمته وهو عمها .
وهذا أصل الأبيات المنظومة فى ذلك :

« ولى خالة وأنا خالها ، ولى عمة وأنا عمها . »

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما ابن خال الآخر وابن عمته »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بأخت الآخر ، فرزق كل منهما ولدا ، فكل من ولديهما ابن خال الآخر وابن عمته .

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما عم والد الآخر . »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوّج بأم أب الآخر ، فكل من أولادهما عم أب الآخر . »

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما عم أم الآخر . »

وذلك : أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة ابن الآخر ، فكل من أولادهما عم أم الآخر .

وقوله :

« رجلان ، كل واحد منهما خال أم الآخر . »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة بنت الآخر فكل من أولادهما خال أم الآخر .

وقوله :

« رجلان أحدهما عم الآخر ، والآخر خاله » وذلك أن رجلين تزوج أحدهما امرأة ، وتزوج الآخر ابنة ابنها ، فولد لكل منهما ولد فابن الأب عم ابن الابن ، وابن الابن من أم امرأة الأب هو أخوها وخال ابنها .

وقوله :

« رجلان ، أحدهما عم الآخر وخاله ، والآخر ابن أخيه وابن أخته »

وذلك : أن رجلا له أخ لأب ، وأخت لأم ، فزوج أخاه لأبيه ، بأخته لأمه ، فأولدها ولدا ، فهما كذلك .

وقد طلب الهمذانى من الخوارزمى — أثناء مناظرته المشهورة — أن يكتب كتابا حاليا من الحروف العواطل ، وآخر أوائل سطوره كلها ميم وآخرها كلها جيم الخ » فسمى الخوارزمى ذلك شعبذة . وصدق فى تسميته كل الصدق .

وما أجدر هذا الوصف بأمثال هذه الألاعيب الكلامية .

ألغاز الحريرى

ومن ألغاز الحريرى الذى اقتفى أثر الخوارزمى فى مقاماته قوله فى المقامة الفرضية — وهى مقامته الخامسة عشرة :

« أيها العالم الفقيه الذى فا ق ذكاء ، فماله من شبيه
أفتنا فى قضية ، حاد عنها كل قاض ، وحار كل فقيه :
رجل مات عن أخ مسلم حرّ تقى من أمه وأبيه
وله زوجة ، لها — أيها الحبــر أخ خالص بلا تمويه
فحوت فرضها ، وحاز أخوها ما تبقى بالارث دون أخيه
فاشفنا بالجواب عما سألنا فهو نص ، لاخلف يوجد فيه . »

ثم حل هذا اللغز بقوله :

« قل لمن يلغز المسائل : إنى كاشف سرّها الذى تخفيه
إن ذا الميت الذى قدم الشر ع أخا عرسه عن ابن أبيه

رجل زوج ابنه — عن رضاه — بحماة له ، ولا غرو فيه
ثم مات ابنه ، وقد علقت منـــه ، فجاءت بابن يسر ذويه
فهو ابن ابنه — بغير مراء — وأخو عرســـه ، بلا تمويه
وابن الابن الصريح أدنى إلى الجـــد ، وأولى بارثه من أخيه
فلذا — حين مات — أوجب للزو جة ، ثمن التراث تستوفيه
وحوى ابن ابنه الذى هو فى الأصل أخوها — من أمها باقيـه
وتخلى الأخ الشـفيق ، من الار ث ، وقلنا : يكفيك أن تبكيه
هاك مى الفتيا التى يحتذيها كل قاض يقضى ، وكل فقيه .»

المقامة الشتوية

وقوله فى المقامة الشتوية .

«عندى أحاجيب أرويها ـ بلا كذب عن العيان ـ فكنونى : أبا العجب
رأيت يا قوم ، أقواما غذاؤهم بول العجوز ، وما أعنى ابنة العنب.»

« بول العجوز » لبن البقرة ، والعجوز أيضاً من أسماء الخمر .

« ومستتين من الأعراب قوتهـم أن يشتووا حرقة تمى من السغب.»

« الحرقة » القطعة من الجراد .

« وقادرين — متى ما ساء صنعهم ، أوقصروا فيه — قالوا: الذنب للحطب.»

« القادر » الطابخ فى القدر والقدير المطبوخ فيها .

« وكاتبين وما خطت أناملهم حرفا ولا قرؤا ماخط فى الـكتب .»

« الـكاتبون » الخارزون يقال كتب السقاء والمزادة إذا خرزهما وكتب البغلة أو الناقة إذا جمع شفريها وخاطهما . قال الشاعر :

« لا تأمنن فراريا حلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار .»

« وناسين عقابا فى مســـيرهم على تكبيهم فى البيض واليلب . »

« العقاب » الراية وكانت راية النبىّ صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب .

« ومنتدين ذوى نـــل بدت لهـــم نبيلة فاشوا منها إلى الهرب . »

« النبيلة » الجيفة ومنه تنبل البعير إذا مات وأروح يعنى نتن .

« وعصبة لم تر البيت العتيق وقد حجت جثيا بلا شكّ على الركب . »

معنى « حجت جثيا » أى غلبت بالحجة مجادلين جاثين على الركب وجثى جمع جاث .

« ونسوة بعـــد ما أدلجن من حلب صبحن كاظمة من غير ما تعب . »

« كاظمة » فى هذا الموضع من كظم الغيظ .

« ومدلجين سروا من أرض كاظمة فأصبحوا حين لاح الصبح فى حلب . »

« فى حلب » أى أصبحوا يحلبون اللبن .

« وبادماً لم يلامس قط غانيـــة شاهدته وله نسل من العقب . »

« النسل » ههنا العدو . قال تعالى « وهم من كل حدب ينسلون » « والعقب » مؤخر القدم

ثُمَّ نَادِ الْهَيْقَ وَالرَّا لَ ، لَعَلَّ السِّرَّ يَظْهَرْ

« وشائبا غير مخف للشيب مدا في البدو وهو فتى السن لم يشب . »

« الشائب » هينا مازج اللبن و « المشيب » اللبن الممزوج ويقال فيه مشيب ومشوب .

« ومرصـعاً بلبات لم يفه فمه رأيته في شـجار بين السبب . »

« الشـجار » المحفة مالم تكن مطلقة ، فان ظلت فهو الهودج ، والسبب ههنا الحبل ، ومنـه قوله تعالى — فليمدد بسبب إلى السماء —

« وزارها ذرة حتى إذا حصـدت صارت غبيراء يهواها أخو الطرب . »

« الغبيراء » السكر المتخذ من الذرة يسمى أيضا السكركة ، وفي الحديث : إياكم والغبيراء فانها خمر العالم .

« وراكباً وهو معلول على فرس قد غل أيضا ومايغلك من خبب . »

« المغلول » ههنا العطشان ، وغل أي عطش .

« وذا يد طلق يقتاد راحـلة ـمستعجلاً ـوهومأسور أخو كرب . »

« المأسور » الذي يجد الأسر وهو احتباس البول .

وجالسا ماشـيا تهوى مطيتـه به ، وما في الذي أوردت من ريب . »

« الجالس » الآتي نجداً والماشي الذي كثرت ماشيته ، وعليه فسر بعضهم قوله تعالى — أن امشـوا كأنه دعاء لهم بكثرة الماشية والنماء والبركة .

« وحائكا أحدم الكفين ذا حرس فان عجبتم فكم في الخلق من عجب . »

« الحائك » هينا الذي إذا مشى حرك منكبيه وفحج بين ركبتيه .

وذا شطاط — كصدر الرمح قامته — صادفته يتشكى من الحدب . »

« الحدب » ما ارتفع من الأرض .

« وساعيا في مسرات الأنام — يرى إمراحهم مأثماً ، كالظلم والكذب . »

« إمراحهم » إثقالهم بالدين ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « لايترك في الاسلام مفرح أي مثقل من الدين أو يقضى عنه دينه » .

« ومعـرما بمناجاة الرجال له وماله في حديث الخلق من أرب . »

« الخلق » هينا الكذب ، ومنه قوله تعالى — إن هذا إلا خلق الأولين .

« وذا ذمام وفت بالعهد ذمته ولاذمام له في مذهب العرب . »

« الذمام » الثاني جمع ذمة ، وهي البئر القليلة الماء وعنى بالمذهب المسلك أي ماله آبار قليلة الماء في البدو .

« وذا قوى ما استبانت قط لينته ولينه مستبين غـير محتجب . »

« اللين » نخيل الدقل ، ومنه قوله تعالى — ما قطعتم من لينة —

« وساجداً فوق فحل غير مكترث بما أتى ، بل يراه أفضل القرب . »

« الفحل » الحصير المتخذ من فحال النخل .

« وعاذرا مؤلما من ظل يعذره — مع التلطف — والمعذور وصحب . »

« العاذر » الخاتن « والمعذور » المختون .

« وبلدة ما بها ماء لمغترف ، والماء يجري عليها جرى منسرب . »

وَتَعِيفُ مَا لَدَى الْقَبَـــحَيْنِ مِنْ خَافٍ سَيَظْهَرُ

« البلدة » الفرجة بين الحاجبين وتسمى أيضاً البلجة .

«وقرية ـ دون أخوص القطا ـ شحنت بديلم عيشهم من خلسة السلب . »

« القرية » بيت النمل « والديلم » النمل الكثير « وخلسة السلب » لحاء الشجر .

« وكوكباً يجوارى عند رؤيته الانسان حتى يرى فى أسمع الحجب . »

« الكوكب » النكتة البيضاء التى تحدث فى العين « والانسان » ههنا إنسان العين .

« وروثة قوّمت مالا ـ له خطر ـ وشر صاحبها بالمال لم تطب . »

« الروثة » مقدّم الأنف .

وصحفة من نضار خالص ، شربت ـ بعد الكاس ـ بقيراط من الذهب . »

« النضار » هاهنا شجر النبع ، ومنه قول بعض التابعين: «لا بأس أن يشرب فى قدح النضار» عنى به هذا .

« ومستحيشاً بخشخاش ليدفع ما أطله من أعاديه فلم يجب . »

« الخشخاش » الجماعة عليهم دروع وأسلحة .

« وطالما مرّ بى كلب وفى فمه ثور ، ولكنه ثور بلا ذنب . »

« الثور » القطعة من الأقط (وهو نوع من الجبن)

« وكم رأى ناظرى فيلا على جمل وقد تورك فوق الرحل والقتب . »

« الفيل » الرجل الفائل الرأى .

« وكم لقيت ـ عرض البيد ـ مشتكيا وما اشتكى قط فى جدّ ولا لعب . »

« المشتكى » المتخذ شكوة وهى القربة الصغيرة .

« وكنت أبصرت كراراً لراعية ـ الدوّ ـ ينطرس حيين كالشهب . »

« الكرّار » كبش يحمل عليه الراعى أداته .

وكم رأت مقلتى عينين ـ ماؤهما يجرى من الغرب ـ والعينان فى حلب . »

« الغرب » مجرى الدمع « والعينان » المقلتان .

« وصادعاً بالقنا من غير أن علقت كفاه يوماً برمح لا ولم ينب . »

« القنا » ارتفاع الأنف وتحدب وسطه « وصدع به » أى كشفه .

« وكم نزلت بأرض ـ لا نخيل بها ـ وبعد يوم رأيت البسر فى القلب . »

« البسر » جمع بسرة وهو الماء الحديث العهد بالمطر « والقلب » جمع قليب .

« وكم رأيت ـ بأقطار الفلا ـ طبقا يطير فى الجوّ منصباً إلى صبب . »

« الطبق » القطعة من الجراد .

« وكم مشايخ ـ فى الدنيا ـ رأيتهم مخلدين ، ومن ينجو من العطب ؟ »

« المخلد » الذى أبطأ شيبه .

« وكم بدا لى وحش ـ يشتكى سغبا ـ بمنطق ذلق أمضى من القضب . »

« الوحش » الرجل الجائع .

« وكم دعانى مستنج لحادثة وما أخلته ـ ولا أخلت ـ بالأدب . »

ثُمَّ عُدْ لِلنَّسْرِ وَالرَّا   لِهُمَا فِي الأَمْرِ أَكْثَرْ

« المستحى » الجالس على نحوة وهو المكان المرتفع .

« وكم أنخت قلوصى - تحت جبنذة -   تظلّ ماشئت من عجم ومن عرب . »

« الجنبذة » القبة « والعرب » جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها من قوله تعالى - عرباً أتراباً -

وكم نظرت إلى من سرّ ساعته   ودمعه مستهلّ القطر كالسحب . »

« سرّ » أى قطع سرره ويسمى ما يبقى بعد القطع السرة .

« وكم رأيت قبيصاً ضرّ صاحبه   حى اشتكى واهى الأعضاء والعصب . »

« القبيص » الدابة الكثيرة القموص وهو الوثوب والقفز .

« وكم إرار لو أن الدهر أتلفه   لحفّ لبد حثيت السير مضطرب . »

« الارار » المرأة ، ومنه قول الشاعر :   * فدى لك من أخى ثقة إرارى *

ثم يقول فى ختام قصيدته :

« هذا وكم من أمانى محنة   عندى ، ومن ملح تلهى ومن نخب

فان نطقتم للحن القول بان لكم   صدق ودلكم طلعى على رطبى

وإن شدهتم ، فان العار - فيه - على   من لايميز بين النبع والغرب . »

المقامة النحرانية

وقوله - فى المقامة النحرانية - فى مروحة الخيش ، وهى ثياب خشنة من الكتان تستعمل فى العراق تكون شبه شراع السفينة ، تعلق فى سقف البيت ، ويعلق لها حبل منها - تجر به - وتبل بالماء ، وترش بماء الورد ، إذا أراد الرجل النوم ، جذب حبلها ، فيهب منها نسيم بارد طيب يذهب أذى الحر ، ويستطاب معها النوم ، وقد ألغز فيها الحريرى بقوله :

« وجارية فى سيرها - مشمعلة   ولكن - على إثر المسير - قفولها

لها سائق - من جنسها - يستحثها ،   على أنه - فى الاحتثاث - رسيلها

ترى - فى أوان القيظ - تنطف بالندى ،   وتبدو - إذا ولى المصيف - قحولها . »

وقوله ملغزا فى حابول النخل ، وهو الحبل الذى يصعد به النخل ، ويتخذ من اللحاء أى ليف النخل .

« ومنتسب إلى أم   تنشأ أصله منها

يعانقها ، وقد كانت   نفته - برهة - عنها

به يتوصل الجانى ،   ولايلحى ، ولاينهى . »

وقوله - ملغزا فى القلم : -

« ومأموم ، به عرف الامام   كما باهت بصحبته الكرام

له - إذ يرتوى - طيشان صاد ،   ويسكن حين يعروه الأوام

ويذرى - حين يستسقى - دموعا   يرق ، كما يروق الابتسام . »

وقوله ملغزا فى المرود الذى يكتحل به :

« وما ناكح أختين جهراً وخفية ،   وليس عليه - فى النكاح - سبيل ؟

متى يغش هذى يغش - فى الحال - هذه ،   وإن مال بعل لم تجده يميل

وقوله ـ ملغزاً فى الدولاب : ـ

«وجاف ، وهو موصول وصـول ليس بالجاف
غريق بارز ، فاعجب له ، من راسب طاف
يسح دموع مهصوم ويهضم هضم متلاف
وتخفى منـه حدته ولـكن قلبه صاف . »

إلى آخر هذه الألغاز التى تراها فى هذه المقامة .

المقامة الملطية

وانظر قوله ـ فى مقامته الملطية :

«ياس ـ إذا ـ أشكل المعمى جلتـه أفكاره الدقيقه
إن قال يوما لك المحاجى : «خذ تلك» مامثله حقيقه.»

وهو يعنى بذلك كلمة : « هاتيك » وها للتنبيه وبمعنى خذ ، وتيك أى تلك .

وقوله : ماذا مثال قولهم : « حمار وحش ربنا . »

يعنى كلمة « فرازين » والفرا حمار الوحش .

وقوله : ما مثل قولك للذى حاجاك : « أنفق تقمع »

يعنى كلمة « مستقم » من : الأمر من مان يمون ، تقم مضارع وقم ، من الوقم وهو الاذلال .

وقوله : مامثل قولك للذى أضحى يحاجى : « غط ملـكى »

ومثله : «صنبور » صن الأمر من الصون ، والبور : الهلـكى

وقوله : ماذا يماثل قولى : « استنش ريح مدامه »

ومثله : « رحراح » رح استنشق الرائحة ، والراح : الخمر .

وقوله : « سار بالليل مدة » أى شىء مثاله ؟

ومثله : « سراحين » سرى سار ليلا ، وحين : مدة .

وقوله : لك البيان ، فبين ، ماءثل : «أحبب فروقه »

ومثله : « مقلاع » من : الأمر من ومق : أى أحب ، والقلاع : الجبان .

وقوله : مامثل قولك « أعط امـ ـريقا يلوح بغير عروة »

ومثله : « أسكوب » أس : الأمر من الأوس ، وهو الاعطاء ، والـكوب : الابريق بغير عروة

وقوله : ما مثل قولك للمحا جى ذى الذكاء : « الثور ملـكى »

ومثله « اللآلى » واللأى : ثور الوحش .

وقوله : ماذا مثال : « صمير حدفلة » بينه تبيانا يتم به .

ومثله « مكاشعة » والمـكاء : الصفير .

وقوله « ماذا يماثل قولى : جوع أمد بزاد ؟ »

يعنى « طوامير » ، طوى : جوع ومير : من مار ه الطعام ، وهو مثل قوله : أمد بزاد .

وقوله : ما مثل قول المحاجى : «وظهر أصابته عين ؟ »

يعنى : « مطاعين » جمع مطعون ، ومطا مثل ظهر ، وعين ـ من عانه أى أصابه بالعين .

وَلَيْلِ الرِّئَالَ ثُمَانَى وَشِــقِرَّاقٌ تَأَخَّرْ

وقوله :ما مثل قولك للذى حاجيت : صادف جائزه ؟ »

ومثله « الفاصــلة » وهى الحائلة بين الشيئين ضد الواصــلة وكله ألى مثل صادف وتكتب بالياء إذا انفردت ، وصلة : جائزة أو عطية .

وقوله : ألا اكشف لى مامثل : « تناول ألف دينار »

ومثله : « هادية » تأنيث الهادى ، والعنق أيضا ، ومعنى ها : خذ وتناول ، وديه هي ما يعطى لأهل القتيل ، وهى من الذهب ألف دينار . »

وقوله : مامثل : « أهمل حلية » بين هـ-يت ـ وغل .

ومثله : « الحاشــية » وهى اسم لمن يمشى الرحل من الأصياف ، وحاشية السرج ما يغطى به ومعنى الفى أهمل وشية : حلية »

وقوله : مامثل قولك ـ للذى أضحى يحاجيك : « اكفف اكفف . »

ومثله : « مهمه » وهو الصحراء ، ومعنى مه : اكفف وتكررها للتأكيد .

وقوله : بين ـ فما رلت دا بيان ـ مامثل قولى : « الشقيق أفلت »

ومثله : « أخطار » ـ جمع خطر ، وهو ما يؤدى إلى الهلاك ، وإذا فصلته كان : « أخ » من معانيه الشقيق ، وطار : أفلت .

وقوله : مامثل قولك المحا حى دى الحجى : « ما اختار فضه »

ومثله « أبارقه » جمع ابريق ، وإذا فصلت كانت أبى أى ما اختار ، ورقة : اسم من أسماء الفضة .

وقوله : أوضح لنا ما مثل قو لك للمحاجى : « دس جماعه »

ومثله : « طافية » وهى مايطفو على الماء ، وطأ : أمر من وطئ ، والفئة : الجماعة .

وقوله أنت المبين ، فقل لنا ما مثل قولى : « خالى اسكت . »

ومثله : « خالصة » أى خال صه ، ومعناها خالى اسكت .

وقوله فى مقامته الطيبة فى حوار طويل بين فقيهين .

ـ ما تقول فيمن توضأ ثم لمس ظهر نعله ؟

ـ انتقض وضوءه بفعله .

يعنى من لمس زوجته.

ـ فإن توضأ ثم أنكاه البرد ؟

ـ يجدد الوضوء من بعد ؟

يعنى بالبرد : النوم

ـ أيمسح المتوضئ أنثييه ؟

ـ قد ندب إليه ، ولم يوجب عليه .

يعنى : الأذنين .

ـ أيجوز الوضوء مما يقذفه الثعبان

ـ وهل أنظف منه للعريان

يعنى : جمع ثعب ، وهو مسيل الوادى .

ـ أيستباح ماء الضرير ؟

ـ نعم ، ويجتنب ماء البصير .

يعنى بالضرير : حرف الوادى ، وبالبصير : الكلب .

ـ أيحل التطوف فى الربيع ؟

ـ يكره ذاك للحدث الشنيع

يعنى بالتطوف : التغوط ، وبالربيع : النهر الصغير .

ـ أيجب الغسل على من أمنى ؟

ـ لا ، ولو ثنى .

يعنى : من نزل « منى »

ـ هل يجب على الجنب غسل فروته ؟

ـ أجل ، وغسل ابرته .

يعنى بالفروة جلدة الرأس ، وبالابرة عظم المرفق .

وهكذا إلى أن استوفى مائة مسألة من هذا النوع .

المقامة النحوية

وقوله فى المقامة الرابعة والعشرين :

فما كلمة هى ـ إن شئتم ـ حرف محبوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب ، وأى اسم يتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، وأية هاء ـ إذا التحقت أماطت الثقل ، وأطلقت المعتقل ، وأين تدخل السين فتعزل العامل من غير أن تحامل ، وما منصوب أبداً على الظرف ، لايخفضه سوى حرف ، وأى مضاف أخل من عرى الاضافة بعروة ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة ، وما العامل الذى يتصل آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثل عمله ، وأى عامل نائبه أرحب منه وكراً ،وأعظم مكراً ، وأكثر لله ـ تعالى ـ ذكراً ؟ وفى أى موطن تلبس الذكران ،براقع النسوان ؟ وتبرز ربات الحجال، بعمائم الرجال ؟ وأين يجب حفظ المراتب، على المضروب والضارب ؟ وما اسم لايعرف إلا باستضافة كلمتين، أوالاقتصار منه على حرفين ، وفى وضعه التزام ، وفى الثانى إلزام ؟ وما وصف ـ إذا أردفت بالنون ـ نقص صاحبه فى العيون ، وقوم بالدون ، وخرج من الزبون وتعرض للهون .

وقد فسره بقوله :

« أما الكلمة التى هى حرف محبوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب » فهى نعم . إلخ .

(وأما الكلمة التى هى حرف محبوب أو اسم لما فيه حرف حلوب) فهى نعم إن اردت بها تصديق الأخبار أو العدة عند السؤال فهى حرف وإن عنيت بها الابل فهى اسم والنعم تذكر وتؤنث ، وتطلق على الابل وعلى كل ماشية فيها إبل ، وفى الابل الحرف وهى الناقة الضامرة سميت حرفا لتشبيهها لها بحرف السيف ، وقيل أنها الضخمة تشبيها لها بحرف الجبل (وأما الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم) فهو سراويل . قال بعضهم هو واحد وجمعه سراويلات ، فعلى هذا القول هو فرد ، وكنى عن ضمه الخصر بأنه حازم ، وقال آخرون بل هو جمع واحده سروال مثل شملال وشماليل ، وسربال وسرابيل ، فهو على

فَتَأَمَّلْ مَا أُنْبَرِى فِكْـــرِى لَهُ ، ثُمَّ تَدَبَّرْ

هذا القول جمع ، ومعنى قوله ملازم أى لاينصرف وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع وهو كل جمع ثالثه ألف وبعـدها حرف مشـدد أو حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن لثقله وتفرده دون غيره من الجموع بأن لا نظير له فى الأسماء الآحاد ، وقد كنى فى هـذه الأحجية عمالا ينصرف بالملازم كما كنى فى التى قبلها عما ينصرف باللازم (وأما الهاء التى إذا التحقت أماطت الثقل وأطلقت المعتقل) فهى الهاء اللاحقة بالجمع المقدم ذكره كقولك صيارفة وصياقلة فينصرف هـذا الجمع عند الحاق الهاء به لأنها قد أصارته إلى أمثال الآحاد نحو رفاهية وكراهية فخف بهذا السبب وصرف لهـذه العلة ، وقد كنى فى هـذه الأحجية عما لاينصرف بالمعتقل كما كنى فى التى قبلها عما لاينصرف بالملازم (وأما النصب التى تعزل العامل من غير أن تحامل) فهى التى تدخل على الفعل المستقبل وتفصل بينه وبين أن التى كانت قبل دخولها من أدوات النصب فيرتفع حينئذ الفعل وتنتقل أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصـير المخففة من الثقيلة ، وذلك كقوله تعالى ــ علم أن سيكون منكم مرضى وتقديره علم أنه سيكون (وأما المنصوب على الظرف الذى لا يخفضه سوى حرف) فهو عند إذ لايجره غير من خاصة وقول العامة ذهبت إلى عنـده لحن (وأما المضاف الذى أخل من عرى الاضافة بعروة واختلف حكمه بين مساء وغدوة) فهو لدن ولدن من الأسماء الملازمة للاضافة وكل مايأتى بعدها مجرور بها إلا غدوة ، فان العرب نصبتها بلدن لكثرة اسـتعمالهم إياها فى الكلام ، ثم نونتها أيضا ليتبين بذلك أنها منصوبة لأنها من نوع المجرورات التى لاتنصرف ، وعند بعض النحويين أن لدن بمعنى عند والصحيح أن بينهما فرقا لطيفا وهو أن عند يشتمل معناها على ماهو فى ملكك ومكنتك مما دنا منك وبعد عنك ولدن يختص معناها بما حضرك وقرب منك (وأما العامل الذى يتصل آخره بأوله ويعمل معكوسـه مثل عمله) فهو يا ومعكوسها أى وكلاهما من حروف النداء وعملهما ما فى الاسم المنادى سيان وإن كانت يا أجول فى الـكلام وأكثر فى الاسـتعمال وقد اختار بعضهم أن ينادى بأى القريب فقط كالهمزة (وأما العامل الذى نائبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مكراً ، وأكثر لله تعالى ذكراً) فهو باء القسم وهـذه الباء هى أصل حروف القسم بدلالة اسـتعمالها مع ظهور فعل القسم فى قولك : أقسم بالله ، ولدخولها أيضا على المضمر كقولك بك لأفعلنّ ، وإنما أبدلت الواو منها فى القسم لأنهما من حروف الشفة ، ثم لتقارب معانيهما لأن الواو تفيد الجمع والباء تفيـد الالصاق ، وكلاهما متفق والمعنيان متقاربان ، ثم صارت الواو المبـدلة من الباء أدور فى الـكلام وأعلق بالأقسام ، ولهذا ألغز بأنها أكثر لله تعالى ذكرا . ثم إن الواو أكثر موطنا من الباء لأن الباء لا تدخل إلا على الاسم ولا تعمل غير الجر والواو تدخل على الاسم والفعل والحرف وتجر تارة بالقسم وتارة باضمار رب وتنتظم أيضا مع نواصب الفعل وأدوات العطف ، فلهذا وصفها برحب الوكر وعظم المـكر (وأما الموطن الذى يلبس فيه الذكر أن براقع النسوان وتبرز فيه ربات الحجال بعمائم الرجال) فهو مراتب العدد المضاف ، وذلك ما بين الثلاثة إلى العشرة فانه يكون مع المذكر بالهاء ومع المؤنث بحذفها كقوله تعالى ــ سخرها عليهم سـبع ليال وثمانية أيام ــ والهاء فى غير هـذا الموطن من خصائص المؤنث كقولك قائم وقائمة ، وظالم وظالمة ، فقد رأيت كيف انعكس فى هذا الموطن حكم المذكر والمؤنث حتى انقلب كل منهما فى ضد قالبه وبرز فى بزّة صاحبـه (وأما الموضع الذى يجب فيـه حفظ المراتب على المضروب والضارب) فهو حيث يشتبه الفاعل بالمفعول لتعذر ظهور علامة الاعراب فيهما أو فى إحداهما ، وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى أو من أسماء الاشارة نحو ذاك ، وهذا فيجب حينئذ لازالة اللبس إقرار

كل منهما فى رتبته ليعرف الفاعل منهما بتقدمه والمفعول بتأخره (وأما الاسم الذى لايفهم إلا باستضافة كلتين أو بالاقتصار منه على حرفين) فهو مهما وفيها قولان أحدهما أنها مركبة من مه التى هى بمعى أكفف ومن ما ، والقول الثانى وهو الصحيح أن الأصل فيها ما زيدت عليها ما أخرى كما تزداد ما على أنّ ، فصار لفظها ما ما ، فثقل عليهم توالى كلتين بلفظ واحد فأبدلوا من ألف ما الأولى هاء فصارتا مهما ، ومهما من أدوات الشرط والجزاء ومتى لفظت بها لم يتم الكلام ولا عقل المعنى إلا بإيراد كلتين بعدها كقولك مهما تفعل أفعل وتكون حينئذ ملتزما للفعل ، وإن اقتصرت منها على حرفين وهما مه التى بمعى اكفف فهم المعنى وكنت ملزما من حاطبته أن يكف (وأما الوصف الذى أردف بالنون نقص صاحبه فى العيون وقوم بالدون وحرج من الربون وتعرض للهون) فهو ضيف إذا لحقته النون استحال إلى ضيفن وهو الذى يتبع الضيف ويتنزل فى النقد منزلة الريف .

ومن ألاعيب الحريرى قوله فى مقامة أخرى ــ مما يقرأ طردا وعكسا فى مقامته المغربية :

« لم أخامل ، كبر رجاء أجر ربك ، من يرب إذا بر ينم ، سكت كل من نمّ لك تكس » وقوله :

«أس أرملا إذا عرا وارع إذا المرء أسا
أسند أخا نباهة أبن إخاء دنسا
أسل جناب غاشم مشاغب إن جلسا
أسر إذا هب مرا وارم به ، إذا رسا
اسكن تقو ، فعسى يسعف وقت نكسا . »

المقامة القهقرية

وقوله فى مقامته القهقرية :

« ألمرفون رسالة أرضها سماؤها ، صبحها مساؤها ، نسجت على منوالين ، وتجلت فى لونين ، ووصلت إلى جهتين ، وبدت ذات وجهين .

إن بزغت من مشرقها ، فناهيك برونقها ، وإن طلعت من مغربها ، فيا لعجبها »

وهذه الرسالة التى تقرأ من أولها كما تقرأ من آخرها هى :

« الانسان صنيعة الأحسان ، ورب الجزل فعل الندب ، وشيمة الحر ذخيرة الحمد ، وكسب الشكر استثمار السعادة ، وعنوان الكرم تباشير البشر ، واستعمال المداراة يوجب المصافاة ، وعقد المحبة يقتضى النصح وصدق الحديث حلية اللسان ، وفصاحة المنطق سحر الألباب ، وشرك الهوى آفة النفوس ، وملل الخلائق شين الخلائق ، وسوء الطمع يباين الورع ، والتزام الحزامة زمام السلامة ، وتطلب المثالب شر المعايب ، وتتبع العثرات يدحض المودات ، وخلوص النية خلاصة العطية ، وتهنئة النوال ثمن السؤال ، وتكلف الكلف يسهل الخلف ، وتيقن المعونة يسنى المؤونة ، وفضل الصدر ، سمة الصدر ، وزينة الرعاة مقت السعاة ، وجزاء المدائح بث المنائح ، ومهر الوسائل ، تشفيع المسائل ، ومجلبة الغواية استغراق الغاية ، وتجاوز الحد ، يكل الحد ، وتعدى الأدب ، يحبط القرب ، وتناسى الحقوق ، ينشئ العقوق ، وتحاشى الريب ، يرفع الرتب ، وارتفاع الأخطار ، لاقتحام الأخطار ، وتنوء الأقدار بمواتاة الأقدار ، وشرف الأعمال ، فى تقصير الآمال ، وإطالة الفكرة ، تنقيح الحكمة ، ورأس الرياسة ، تهذيب السياسة ، ومع الحاجة ، تلقى الحاجة ، وعند الأوجال تتفاضل الرجال ، وبتفاضل الهمم تتفاوت القيم ، وبتزيد السفير ، يبين التدبير ، وبختل الأحوال تتبين الأهوال ، وبموجب الصبر ثمرة النصر ، واستحقاقه الاحاد بحسب الاجتهاد ، ووجوب الملاحظة ، كفاء المحافظة ،

وصــفاء الموالى ، بتعهد الموالى ، وتحلى المروءات بحفظ الأمانات ، واختبار الاخوان بتخفيف الأحزان ، ووقع الأعداء بكف الأوداء ، وامتحان العقلاء بمقارنة الجهلاء ، وتصر المواقب بؤن المعاطب ، واتقاء الشنعة بنشر السمعة ، وقبح السمعة ، وقبح الجفاء ينافى الوفاء ، وجوهر الأحرار عند الأسرار . »

وقوله من خطبة لانقط فيها ولا إعجام — فى مقامته السمرقندية : —

«الحمد لله الممدوح الأسماء المحمود الآلاء الواسع العطاء المدعو لحسم اللأواء ، مالك الأمم ، ومصور الرمم ، وأهل السماح والـكرم ، ومهلك عاد وإرم ، أدرك كل سر علمه ، ووسع كل مصرحلمه ، وعم كل عالم طوله ، وهد كل مارد حوله ، أحمده حمد موحد مسلم ، وأدعوه دعاء مؤمل مسلم ، وهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد ، العادل الصمد ، لا ولد له ولا والد ، ولا رده معه ولا مساعد ، أرسل محمداً للاسلام ممهدا الخ »

وفى مقامته المراغية — رسالة ، « حروف إحدى كلمتيها يعمها النقط وحروف الأخرى — كما يقول — لم يعجمن قط » وهى :

« الـكرم — ثبت الله جيش سعودك — يزين ، واللؤم — غض الله جفن حسودك — يشـين . والأروع يثيب ، والمعور يخيب ، والحلاحل يضيف ، والماحل يخيف ، والســمح يغذى ، والمحك يقذى ، والعطاء ينجى ، والمطال يشجى ، والدعاء يقى ، والمدح ينقى ، والحر يجزى ، والالطاط يخزى ، واطراح ذى الحرمة غى ، ومحرمة بنى الآمال بغى ، وما ضن إلا غبين ، ولا غبن إلا ضنين ، ولا خزن إلا شقى ، ولا قبض راحه تقى ، وما فتئ وعدك يفى ، وآراؤك تشفى ، وهلالك يضى ، وحلمك يغضى ، وآلاؤك تغنى ، وأعداؤك تفنى ، وحسامك يفنى الخ الخ . »

وله رسالة سينية كتبها — على لسان بعض الأمراء — إلى بعض أصدقائه عتاباً :

باسم السميع القدوس أستفتح ، وبإسعاده أستنجح ، سيرة سيدنا الأسفهلار ، السيد النفيس ، سيد الرؤساء ، سيف السلاطين ، حرست نفسه ، واستنارت شمسه ، واتسق أنسه ، وبسق غرسه .

إلى أن يقول :

« وسيف الســلاطين مستأثر بأنس السماع وحسو الـكؤس
سلاى ، وليس لناس الســلوّ يناسب حسن سمات النفيس
وسن تناسى حلاســــه وأسوا السجايا تناسى الجليس
وسر حسودى بطمس الرسوم ، وطمس الرسوم كرمس النفوس
وساق الحسام بكأس السلاف ، وأسهى بعوس وبوس . »

إلى اخر القصيدة .

ورسالة شينية ، وهى التى كتبها لأحد أصدقائه يمدحه فيها ، وفيها يقول :

« بإرشاد المنشى أنشى ، شــغفى بالشيخ شمس الشعراء ، ريش معاشه ، ونشا رياشه ، وأشرق شهابه ، واعشوشبت شعابه ، يشاكل شغف المنتشى بالنشــوى ، والمرتشى بالرشـوى ، والشادن بمرشف الشباب ، والعطشان إلى شيم الشراب ، وشكرى لتحشمه ومشقته ، وشواهد شفقته ، يشاكل شكر الناشد للمنشد ، والمسترشد للمرشــد ، والمستشعر للبشر ، والمستجيش للجيش المشمر ، وشعارى إنشاد شعره ، وإشــجاء الـكاشح والمـكاشر بنشره »

وهكذا إلى أن قال :

« فأشعاره مشهورة ، ومشاعره وعشرته مشكورة ، وعشائره
شأى الشعراء المشمعلين شعره مشاتيه وشجو الحشا ، ومشاغره
وشوه ترقيش المرقش رقشه ، فأشــياعه يشكونه ، ومعاشره

إلى المعتمد على الله

« وكتب أيضا رحمه الله إليه أيده الله . »

يـأيُّهَا الظَّافِرُ نِلْتَ الْمُنَى ... وَلاَ يَنَلْنَا فِيكَ مَحْذُورُ

إنَّ الْخِلاَلَ الزُّهْرَ قَدْ ضَمَّهَا ... ثَوْبٌ عَلَيْكَ ـ الدَّهْرَ ـ مَزْرُورُ

لاَ زَالَ لِلْمَجْدِ الَّذِي شِدْتَهُ ... رَبْعٌ ـ بِتَعْمِيرِكَ ـ مَعْمُورُ

حَتَّى يُوَفَّى فِيكَ مَا يَبْتَغِي ... مُعْتَضِـــدٌ بِاللهِ مَنْصُورُ

***

وَافَاكَ نَظْمٌ ـ لِيَ فِي طَيِّهِ ـ ... مَعْنًى مُعَمًّى اللَّفْظِ مَسْتُورُ

مَرَامُهُ يَصْعُبُ ، مَا لَمْ يَبُحْ ... ـ بِالسِّرِّ ـ قُمْرِيٌّ[1] وَعُصْفُورُ

وَبُلْبُلٌ ، ثُمَّ يَكُرُّ الَّذَا ... تَقَدَّمَا ، فَاللَّفْظُ مَكْرُورُ

ثُمَّ تَرَى الْبُلْبُلَ قَدْ حَثَّهُ ... نَسْرٌ ، بِهِ الشُّفْنِينُ[2] مَنْسُورُ

ثُمَّ الْغُرَابُ الْجَوْنُ ، يَتْلُوهُ قُمْـــرِيٌّ ... وَدَرَّاجٌ وَزَرْزُورُ

وشاق الشباب الشم والشيب وشيه ، ... فمنشوره بشرى المشوق ، وناشره
شمائله معشوقة — كشموله — ... وشربه مستبشر ، ومعاشره . »

إلى آخر القصيدة .

(١) القمرى : طائر حسن الصوت — ويجمع على قمارى — ويقال للذكر منه : الورشان .
قال ابن سيده : « القمرى طير صغير » وعده — فى المحكم — من الحمام .
وقد زعموا أن القمارىّ — إذا ماتت ذكورها — لم تتزاوج إناثها .
والورشان — الذى هو ذكر القمرى — يوصف بالحنوّ على أولاده ، حتى أنه ربما قتل نفســه إذا رآها فى يد القانص ، وقد مرّ بك فى « ص ١٠٧ » قول ابن زيدون :
« إن تمنى البلبل اهتاج غناء الورشان »

(٢) الشفنين — كما فى حياة الحيوان وابن البيطار — نوع من الحمام ، قالوا : « وهو الذى تسميه العامة باليمام » وجمعه شفانين

ثُمَّ يَلِي الدُّرَّاجُ[1] ـ مِنْ بَعْدُ غِرْ نِيقٌ[2] ـ وَمُكَّاءٌ[3] وَشُرْشُورُ[4]

وَبَاشِقٌ ، ثُم إذَا حَلَّقَ الشَّاهِينُ ـ وَالْعُصْفُورُ مَذْعُورُ ـ

ثُمَّ سَلِ الْمُكَّاءَ يَصْدُقْكَ ، وَالْـــعُصْفُورَ ، وَالْقُمْرِيُّ مَزْجُورُ

وَإِنْ جَرَى الدُّرَّاجُ ـ فِي إِثْرِهِ الـــزُّرْزُورُ ـ فَالْمَطْوِيُّ مَنْشُورُ

وَثُمَّ فَاعْلَمْ أَنَّ مَوْضُوعَهَا حَرْفٌ ، لِفَصْلِ اللَّفْظِ مَقْدُورُ

وَفِي الَّذِي ضَمَّنْتُ نُصْحٌ ، لِمَنْ جَدَّ ـ مِنَ الْأَعْدَاءِ ـ مَشْكُورُ[5]

---

(١) الدراج ـ ضم الدال ـ طائر ظاهر جناحيه أغبر ، وباطنهما أسود ـ فى حجم القطا إلا أنه ألطف . والجاحظ يعده من جنس الحمام ، لأنه يجمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام .

قالوا : وهو كثير النتاج يبشر ، بقدوم الربيع ، وهو يصلح بهبوب الشمال وصفاء الهواء ، ويسوء حاله بهبوب الجنوب ، حتى لايقدر على الطيران .

(٢) الغرنيق أو الغرنوق : طائر مائى ، وقيل هو الكركى أو طائر يشبهه .

قالوا :

وهو دون الحمام ـ فى المقدار ـ ولونه الحمرة مع كدورة ، وفى صوته ترجيع وتحزن .

ومن شأنها أنها تحبس أصواتها ـ إذا اختلطت ـ ومن طبعه أنه إذا فقد أنثاه لم يزل ـ فيما يزعمون ـ أعزب إلى أن يموت ، وكذلك الأنثى إذا فقدت ذكرها .

قالوا :

وهو شديد الاحتراس ، وفيه ألفة للبيوت .

(٣) المكاء : طائر . (٤) الشرشور : طائر يسمى : « البرقش » وجمعه شراشير .

(٥) والبيت المطير فى هذه القصيدة هو :

« أنت ـ إن تمر ـ طائر فليطع من يناو . »

ولنضع فى الجدول التالى أمام كل حرف طائرة على الترتيب الذى ذكره فى القصيدة هكذا : ـ

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
أ	قرى	ع	نسر	ف	دراج	ن	عصفور
ن	عصفور	ز	شفنين	ل	غرنيق	ى	مكاء
ت	بلبل	ط	غراب	ى	مكاء	ن	عصفور
ا	قرى	ا	قرى	ط	شرشور	ا	قرى
ن	عصفور	ف	دراج	ع	باشق	ف	دراج
ت	بلبل	ر	زرزور	م	شاهين	ر	زرزور

جـــواب(١)

« فجاوبه ذو الوزارتين رحمه الله . »

حَظِّيَ - مِنْ نُعْمَاكَ - مَوْفُورُ وَذَنْبُ دَهْرِي بِكَ مَغْفُورُ

وَجَانِبِي - إِنْ زَمَنِي رَامَهُ - حَجْرٌ(٢) لَدَى ظِلِّكَ مَحْجُورُ

***

يَا ابْنَ الَّذِي سِرْبُ الْهُدَى آمِنٌ مُنْذُ انْبَرَى يَحْمِيهِ مَوْفُورُ

وليعلم القارئ أن الشاهين فى قوله : « ثم إذا حلق الشاهين . » ساقط ليس له حرف هجاء كغيره من طيور القصيدة ، وقد أشار إليه بقوله :

« وثم فاعلم أن موضوعها حرف لفصل اللفظ مقدور . »

وقد ضحك المعتمد ، وجاوبه بالقصيدة التالية :

« يا خير من يلحظه ناظرى، شهادة ما شابها زور

ومن إذا ما ليل خطب دجا لاح به - من رأيه - نور

رأيك - إما شمته - صارم عضب على الأعداء مشهور

جاءتنى الطير التى سرّها نظم به قلبى مسرور

شعر هو السحر فلا تنكروا أنى به - ماعشت - مسحور

اللفظ والقرطاس - إن شبها - قيل هما مسك وكافور

وإنه لما اعتـدى خاطرى مسائلا جاوب عصـــفور

هوى لجيش الطير من فكرتى صـقر فولى وهو مقهور

فلاح لى بيت فؤادى له دأبا على ودك مقصور

حدثك من شكرى يا سيدى بما بدا لى منك موفور

قصرت فى نظمى فاعذر فتى صاحاك فى التقصير معذور

فأنت إن تنظم وتنثر فقد أعوز منظوم ومنثور

لا يعدكم روض من الحفظ فى ال إكرام والترفيع ممطور . »

(١) بعث ابن زيدون بهذه القصيدة للمعتمد ردا على قصيدته التى ذكرناها فى هذه الصفحة .

(٢) الحجر الـكنف أو الحرام ، يقال : « هذا حجر عليك » أى حرام و « نشأت فى حجر فلان » أى فى كنفه ومنعته وحفظه وستره .

أَجَبْتَ أَمْرِي بِالَّذِي لَمْ يَزَلْ ... يُصْغِي إِلَيْهِ مِنْهُ مَأْمُورُ
أُلْبِسَ مِنْكَ الْمُلْكُ أَسْنَى الْحُلَى ... بِظَافِرٍ يَنْمِيهِ مَنْصُـــــور

***

يَا مُرْوِيَ الْمَأْثُورِ ، يَا مَنْ لَهُ ... مَجْدٌ - مَعَ الْأَيَّامِ - مَأْثُورُ
عَبْدُكَ - إِنْ أَكْثَرَ مِنْ شُكْرِهِ - ... فَهْوَ بِمَا تُولِيهِ مَشْكُورُ
إِنْ تَعْفُ عَنْ تَقْصِيرِهِ مُنْعِماً ... فَالسَّرْوُ(١) أَنْ يُقْبَلَ مَيْسُورُ
إِنَّ حَلَالَ السِّحْرِ - إِنْ صُغْتَهُ - ... فِي صُحُفِ الْأَنْفُسِ مَسْطُورُ
نَظْمٌ زَهَانِي مِنْهُ إِذْ جَاءَنِي ... عِلْقٌ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَذْخُورُ
هَوَى إِلَيْهِ طَرَبًا خَاطِرِي ... كَمَا تَلَقَّى الْوَصْلَ مَهْجُورُ
لَا غَرْوَ أَنْ أُفْتَنَ إِذْ لَاحَظَتْ ... فِكْرِيَ مِنْهُ أَعْيُنٌ حُورُ
تَشِفُّ عَنْ مَعْنَاهُ أَلْفَاظُهُ ... كَمَا وَشَى بِالرَّاحِ بَلُّورُ
جَهِلْتُ - إِذْ عَارَضْتُهُ - غَيْرَ أَنْ ... لَا بُدَّ أَنْ يَنْفُثَ مَصْدُورُ

***

يَا آلَ «عَبَّادٍ» مُوَالَاتُكُمْ ، ... زَاكٍ - مِنَ الْأَعْمَالِ - مَبْرُورُ
إِنَّ الَّذِي يَرْجُو مُؤَاذَاتَكُمْ ... - مِنَ الْمُنَاوِينَ - لَمَغْرُورُ
مَكَانُهُمْ مِنْكُمْ كَمَا انْحَطَّ عَنْ ... مَنْزِلَةِ الْمَرْفُوعِ - مَجْرُورُ
يَدْنُو إِلَيْكُمْ مَا نَأَى عَنْكُمُ ... إِنَّ الْعُلَى مِنْ أُنْسِهِ نُورُ
لَا زِلْتُمُ تَشْأَوْنَهُمْ مَا انْجَلَى ... - عَنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ - دَيْجُورُ
وَلَا يَزَلْ يَجْرِي بِإِيرَاثِكُمْ ... أَعْمَارَهُمْ - لِلَّهِ - مَقْدُورُ

---

(١) السّرو : المروءة والشرف .

إلى المعتمد

« وكتب أيضا رحمه الله إليه أيده الله

يَا مُرْضِياً كُلَّ مَخْدَمْ ... وَمُرْوِيًا كُلَّ لَهْذَمْ

وَيَا سَمِيَّ المصَـــلَّى ... عَلَى اسْمِهِ وَالْمُسَـــلِّمْ

وَيَا ابْنَ أَعْظَمِ مَنْ هَا ... بَهُ الْمُلُوكُ وَأَكْرَمْ

وَافَاكَ لِلطَّيْرِ سِرْبٌ ... لَدَيْهِ سِرٌّ مُكَتَّمْ

إِنْ تَسْأَلِ الطَّيْرَ عَنْهَا ... مُسْتَعْلِمًا مِنْهُ تَعْلَمْ

وَالنَّسْرُ وَالرَّهْوُ (١) يُنْبِيـــكَ وَالظَّلِيمُ (٢) الْمُصَلَّمْ

---

(١) الرهو : الكركي ، وهو — كما جاء في صبح الأعشى — طائر أغبر طويل الساقين في قدر الأوزة ، ويجمع على كراكيّ ، وفي طبعه خور يحمله على المحارس ، حتى إنه إذا — احتمع جماعة من الكراكيّ — يحرسها بالنوبة بيتها ، ومن شأن الذي يحرس منها ، أن يهتف بصوت حي ، كأنه ينذر بأنه حارس .

فاذا قضى نوبته قام واحد ممن كان نائما يحرس مكانه حتى يقضى كل منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل صفا واحدا يقدمها واحد منها — كالرئيس لها — وهي تتبعه ، يكون ذلك حينا ، ثم يخلفه آخر منها مقدما حتى يصير الذي كان مقدما مؤخرا ، وفي طبعها التناصر والتعاضد ، ومن خاصتها أن أنثاها لاتقعد للسفاد بل يسفدها — وهي قائمة — ويكون سفاده سريعا كالعصفور .

وقال القزويني — في عجائب المخلوقات :

والكركي لا يمشي على الأرض إلا باحدى رجليه ، ويعلق الأخرى ، أو يضعها وضعاً خفيفاً مخافة أن تخسف به الأرض .

قال — في « المصايد والمطارد » :

وهو من أشد الطير صوتا يسمع على أميال .

قالوا : وكانت الكراكي تأتي إلى مصر من بلاد الترك ، وفي طلبها وصيدها كانت تتغالى ملوك مصر تغاليا لايدرك حده ، وتنفق في ذلك الأموال الجمة .

(٢) الظليم — ذكر النعام — وقد جاء في صبح الأعشى —في معرض الكلام عن النعام — قوله :

« هو طائر معروف ، مركب من صورتي جمل وطائر ، ولذلك تسميه الترك « دواتش » بمعنى « طير جمل » وتسميه الفرس « اشتر مرك » ومعناه « جمل طائر » ويسمى ذكر النعامة : الظليم . قالوا : ومساكنها الرمل ، وتضع بيضها سطراً مستطيلا ، بحيث لو مد عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن الأخرى ، ثم تعطى كل بيضة منها نصيبها من الحضن ، لأنها لاتستطيع ضم جميع البيض تحتها » .

ثمّ الهَديلُ (١) تَلِيهِ حَمَامَـــةٌ تَتَرَنّمْ
إلَى عُقَابَيْنِ تَدْعُو هُمَا الظَّلِيمَ فَيَفْهَمْ
ثُمّ العُقَابُ (٢) مَعَ الصَّقْـــرِ، فَهْوَ بِالشّرْحِ أَنْعَمْ
وَالرَّالُ (٣) وَالرَّهْوُ وَالقَبْـــجُ (٤) فَالثَّلاَثَةُ حُوَّمْ
ثُمّ العُقَابُ فَسَـــلْهُ وَالصَّقْرُ لاَ يَتَلَعْثَمْ

وإذا خرجت الطعم ، فوجدت بيض نعامة أخرى حضنته وسيبت بيضها فربما حضنت هذه بيض هذه . ولذلك توصف — فى الطير — بالحمق .

ويقال : إنها تقسم بيضها أثلاثاً ، فمنه ماتحضنه ، ومنه ماتجعله غذاء لها ، ومنه ما تفتحه وتجعله فى الهواء حتى يتولد فيه الدود فتغذى به أفراخها إذا خرجت . قالوا :

« وليس للنعام حاسة سمع ، ولكنه قوى الشم ، يستغنى بشمه عن سماعه . حتى يقال : إنه يشم رائحة القانص من بعد . وفى أساطير العرب :

أن النعامة ذهبت لتطلب قرنين فقطعوا أذنيها .

ومن خصائصها أنها تبتلع العظم الصلب والحجر فتذيبه معدتها .

(١) الهديل ذكر الحمام ، قال أبو العلاء فى داليته المشهورة :

« أبنات الهديل : أسعدن أوعدن قليل البكاء بالاسعاد . »

(٢) العقاب : طائر من الجوارح تسميها العرب بالكاس ، قيل العقاب سيد الطيور والنسر عريفها » وتقول العرب : « أبصر من عقاب » قال ابن دريد فى مقصورته الرائعة :

« فاستنزل الزباء — قسرا — وهى من عقاب لوح الجو أعلى منتمى . »

وقد جاء فى صبح الأعشى : أن العقاب مؤنثة لا تذكر ، وتجمع على عقبان وأعقب .

وجاء فى « المصايد والمطارد » قوله :

« وهى من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر فى الطير — أعظم منها وأصل لونها السواد . »

فمنها سوداء دحوجية ، وحدارية — وهى التى لابياض فيها — ومنها القعماء — وهى التى يخالط سوادها بياض — ، ومنها الشقراء وهى التى فى رأسها نقط بياض — قال « أبو عبيدة » و « يونس » :

« ويقال لذكر العقاب « الغرن » ويقال إن ذكور العقبان من طير آخر لطاف الجرم لاتساوى شيئا ، تلعب بها الصبيان » والعقاب من أسرع الطير طيرانا . (ارجع إلى صبح الأعشى ج ٢ ص ٥٣)

(٣) الرأل : ولد النعام ، قال أبو العلاء :

« قد كنت قلت — فى كلام لى قديم — إننى قد هجرت الشعر هجر الرأل تركته . »

(٤) القبج : الكروان ، معرب « كبج » بالفارسية وهو طائر فى قدر الدجاجة طويل الرجلين حسن الصوت لاينام الليل .

إِلَى حُبَارَى [1] وَبَازٍ   وَحَالِكِ اللَّوْنِ أَعْصَمْ [2]

ثُمَّ السَّمَامُ [3] مَعَ الرَّا   لِ كَىْ يَبُوحَ الْمُجَمْجَمْ [4]

إِلَى عُقَابٍ وَرَهْوٍ   يُفْصِحْ بِمَاشِئْتَ أَسْحَمْ

وَمَا الظَّلِيمُ بِآلٍ   فَلَوْ زَجَرْتَ لَتَرْجَمْ

ثُمَّ الْعُقَابُ سَيُوحِي   لِلصَّقْرِ لاَ تَتَكَلَّمْ

وَعَقْعَقٌ وَهَدِيلٌ   وَالْقَبْجُ فِى ذَاكَ مُلْثَمْ

وَثَمَّ فَصْلٌ كَمَا قَدْ   عَهِدْتَ فِيمَا تَقَدَّمْ

يَا مُلْبِسَ الدَّهْرِ وَشْياً   مِنَ الْجَمَالِ مُنَمْنَمْ

اِسْلَمْ سَنِىَّ الأَمَانِى   مُؤَزَّرَ النَّصْرِ مُطْعَمْ [5]

---

(١) الحبارى : طائر — يقع على الذكر والأنثى — قالوا : «ويضرب به المثل — فى البلاهة والحمق يقال : « هو أبله من الحبارى » قيل ذلك لأنها إذا غيرت عشها ذهلته وحضنت بيض غيرها .

(٢) الأعصم : الظبى . قال ابن دريد :

« لو ناجت الأعصم لانحط لها — طوع القياد فى شماريخ الذرى . »

وجمعه عصم ، قال الشاعر :

« واد نيتنى حتى — إذا ما فتنتنى   بقول يحل العصم سهل الأباطح

تناءيت عنى حين — لالى حيلة —   وغادرت ما غادرت بين الجوانح . »

(٣) السمام : ضرب من الطير ، واحدته سمامة .

(٤) المجمجم : الذى لا يفهم ، قال المعرى :

« جمجم هذا الزمان قولا   وكلنا يرتجى بيانه . »

(٥) والبيت المطير — فى هذا الشعر — هو :

« أهلك عدوك ، واسلم ،   واظفر بسؤلك — وأنعم . »

وقد فك المعتمد

بيت مطير

« وكتب اليه المعتمد أيده الله

يا سيدى يامعدن العلم

يا آلة للحرب والسلم

وجه طيور الشعر نحوى فقد

بث فؤادى شرك الفهم

فبعث اليه ببيت مطير وجاوبه رحمه الله .

أَلْحَقَنِي بِرُّكَ بِالنَّجْمِ ... يَا ابْنَ الْبُدُورِ الزُّهْرِ مِنْ لَخْمِ

يَا لَابِسَ الْمَجْدِ الَّذِى زَانَهُ ... بِالْعِلْمِ زَيْنَ الْبُرْدِ بِالرَّقْمِ

قَدْ لَثِمَتْ كَفِّى الدَّرَارِىَّ مُذْ ... شَافَهْتُ تِلْكَ الْكَفَّ بِاللَّثْمِ

قُلِّدَ مِنْكَ الْمُلْكُ عَضْبَ الظُّبَا ... يَمْضِى مَضَاءَ الْقَدَرِ الْحَتْمِ

فِرِنْدُهُ الرَّقْرَاقُ مِنْ بِشْرِهِ ... وَحَدُّهُ مِنْ نَافِذِ الْعَزْمِ

* * *

قَدْ جَاءَنِي النَّظْمُ الَّذِى خِلْتُهُ ... مُؤَلَّفَ اللُّؤْلُؤِ فِى النَّظْمِ

حَلَّيْتَنِي مِنْه بِفَخْرٍ يُرَى ... فِى غُفْلِ حَالِى رَائِقَ الْوَشْمِ

مُسْتَدْعِيًا طَيْرَ الْمُعَمَّى لِكَىْ ... يَصِيدَهَا فِى شَرَكِ الْفَهْمِ

فَهَاكَهَا تُهْدَى إِلَى خَاطِرٍ ... يَسْتَخْرِجُ الْإِفْصَاحَ مِنْ عُجْمِ (١)

(١) البيت المطير فى هذه القصيدة هو :

« أنت – إن سر طائر مليطع من ينافر . »

والبيت المطير

اِظْفَرْ كَمَا أَنتَ ظَافِرْ　　بِكُلِّ غَاوٍ مُنَافِرْ

وطير له أيده الله بيتين وهما

«شعر من محض ودّه
لك فى علم طيره
فهى مهما زجرتها
لم تخبر بغيره . »

ففكهما وجاوبه رحمه الله

أَيُّهَا المَاجِدُ الَّذِى　　خِيرُهُ وَفْقُ خَيْرِهِ

وَالَّذِى سَيْرُ مُشْتَرِى　　أُفْقِنَا دُونَ سَيْرِهِ

مَلِكٌ صَحَّ - مِنْ أَدِيـ　　ـمِ الْهُدَى - قَدُّ سَيْرِهِ

فَهُوَ - الدَّهْرَ - نَفْعُهُ　　حَاضِرٌ ، دُونَ ضَيْرِهِ

***

يَا لِلَيْلِى سَئِمْتُ مِنْ　　سَهَرِى فِى قُمَيْرِهِ ؟

عَزَّ - فِى وَهْنِهِ - مَرَا　　مٌ عَنَا فِى سُحَيْرِهِ

«شِعْرُ مَنْ مَحْضُ وُدِّهِ　　لَكَ فِى عِلْمِ صَيْرِهِ

فَهْيَ - مَهْمَا زَجَرْتَهَا -　　لَمْ تُخَبِّرْ بِغَيْرِهِ . »

جواب على بيت مطير

« قال يمدح المعتمد على الله أبا القاسم محمد بن المعتضد بالله وعباد بن محمد بن عباد ، أدام الله تأييده ، فى حياة أبيه - وكان قد عمى له بيتا :

« الحاجب الأعلى العضد قرّة عين المعتمد »

فكه - أيده الله - وجاوبه بأربعة أبيات ، وهى:

يا سيدى ، الأعلى ومن
أعددته أقوى العدد

حلت طيورك بى ، وقد
قرّبت منها ما بعد

كاشفتنا عن سرّها
فوشى إلىّ بها الصرد

بيتا يدلّ على اعتقا
دك ياجميل المعتقد

الحاجب الأعلى العضد
قرة عين المعتضد

فجاوبه ذو الوزارتين بقصيدة ، وهى : »

لَوْ أَنَّ مَنْ جَارَ قَصَدْ   لَمْ يَجْزِ - عَنْ وَصْلِى - بِصَدّْ
مَسِىءُ عَهْدٍ - أَرْخَصَتْ   عَيْنَاهُ فى قَتْلِى الْعَمَدْ
مَالِكُ سُلْطَانِ الْهَوَى   أَمَّنَهُ مِنَ الْقَوَدْ (١)
مُخَلَّدٌ خَلَّدَ - بَرْ   حَ الشَّوْقِ - فى كُلِّ خَلَدْ
وَعِزُّ الرِّضَى ، لِحُبِّهِ   نَهْجٌ - إِلَى قَلْبِى - جَدَدْ

قَاسٍ إِذا مَا قِيلَ : « أَبْلَى حُلَّةَ الْهَجْرِ » أَجَدْ
أَوْ قُلْتُ : « قَدْ هَبَّ نَسِيمُ الْوَصْلِ لِي مِنْهُ » رَكَدْ
مَا كُنْتُ آبَى صَدَّهُ لَوْ أَنَّ سُلْوَانِيَ صَدّْ

***

فِتْنَةُ وَجْدٍ ، هِيَ كَالْفِتْنَةِ فِي الْعِجْلِ الْجَسَدْ
غَيْرُ مُبِينٍ ، طَرْفُهُ يَغْصِبُ بِالْخَصْمِ الْأَلَدّْ
عَصْفَ « أَبِي الْقَاسِمِ » بِالْقَتْلِ إِذَا الْقَتْلُ مَرَدْ
الْحَاجِبُ الْأَعْلَى الَّذِي لَوْ مَاجَدَ الشَّمْسَ مَجَدْ
مَحْضُ التُّقَى ، عَفُّ الْهَوَى غَمْرُ النَّدَى ، صَدْقُ الْجَلَدْ
رَكِينُ طَوْدِ الْحِلْمِ إِنْ حُبَاهُ فِي النَّادِي عَقَدْ
مُوَفَّقُ الْأَنْحَاءِ عَادَ فِي أَسَالِيبِ الرَّشَدْ
لَوْ قَصَّ كُنْهَ جُودِهِ لِلْبَحْرِ وَافَى ، فَاسْتَمَدّْ
مُؤَمَّلٌ - مَعَ الرِّضَا - يُهَابُ فِي حِينِ الْبُعُدْ
إِنْ قُلِّدَ الْأَمْرَ كَفَى وَإِنْ تَوَلَّى الثَّغْرَ سَدّْ
مَاءُ سَمَاحٍ فَاضَ فِي جَمْرِ ذَكَاءٍ فَاتَّقَدْ
يَا عَضُدَ الدَّوْلَةِ ، يَا مَوْلًى بِبَارِيهِ اعْتَضَدْ ! (١)
وَمَنْ - بِفَضْلِ اللَّهِ - حَازَ النَّصْرَ فِي جِدٍّ وَجَدّْ

---

(١) وفي الأصل

« يا عضد الدولة يا من يباريه اعتضد . »

أَصْبَحَ أَعْلَى وَالِدٍ فَاوَقَهُ أَسْنَى وَلَدْ
حَدَّثْتَنَا عَنْ سَرْوِهِ (١) نَاهِيكَ مِنْ قُرْبِ سَنَدْ

***

مَلْكٌ - إِذَا نَحْنُ اعْتَمَدْ نَا مِنْهُ أَوْفَى مُعْتَمَدْ -
تَهَلَّلَتْ شَمْسُ جَبِينٍ وَاسْتَهَلَّتْ مُزْنُ يَدْ
مُمَحِّصُ الدَّهْرِ الَّذِي أَصْلَحَ مِنْهُ مَا فَسَدْ
وَعَاضِدُ الدِّينِ الَّذِي قَدْ كَانَ - قَبْلُ - يُضْطَهَدْ
وَنَاصِرُ الْعِلْمِ الَّذِي نَفَّقَهُ لَمَّا كَسَدْ
مَنْ لَمْ يَعِدْ إِلاَّ وَفَى، وَلاَ وَفَى إِلاَّ وَعَدْ
شَاوَرَنِي - فِي أَمْرِهِ - شَيْحَانُ لَوْ شَاءَ اسْتَبَدّْ
يَخْشَى الْعَدُوُّ مِنْهُ عَزْ مَ قَسْوَرٍ شَاكِي اللِّبَدْ
سَمْحٌ لَهُ - مَهْمَا عَنَا - فَظٌّ عَلَيْهِ إِنْ عَنَدْ
كَالسَّيْفِ - فِي حَالَيْهِ - إِنْ رَاقَ فِرِنْدٌ رَاعَ حَدّْ
يَا مُهْدِيَ السِّمْطِ الَّذِي قُلِّدْتُهُ فَخْرَ الأَبَدْ
أَحْسَنُ مِنْ رَقْمِ عِذَا رٍ سَائِلٍ فِي وَشْيِ خَدّْ
أَوْ مَبْسِمٍ حُلْوِ اللَّمَا يَفْتَرُّ عَنْ عَذْبٍ بَرَدْ

---

(١) السرو : المروءة : والشرف ، وفي الأصل : « حدثنا عن سروة »

إلى المعتمد

قَدْ قُلْتُ ـ لَمَّا هزَّنِي مِنْهُ الْبَدِيعُ الْمُفْتَقَدْ ـ

« نَسِيمُ أَيلولِ سَرَى أَمْ وَرْدُ نَيْسَانٍ وَرَدْ »

خَاطِرِيَ السَّهْمُ وَشْى بِسِرِّ طَيْرِى لاَ الصُّرَدْ

وَفِطْنَـــةٌ تَأَلَّفَتْ ـ مِنَ المُعَمَّى ـ مَا شَرَدْ

شِنْشِـــنَةٌ أَعْرِفُهَا فِى شِبْلِ مَلْكٍ مِنْ أَسَدْ

٭

يَا آلَ « عبَّادٍ » مِثَا لٌ لَيْسَ يَعْدُوهُ السَّدَدْ

مَنْ لِى بِشُكْرِ نِعْمَةٍ ، الْحُرُّ عَنْهَا مُعْتَبَـــدْ

سُوِّغْتُ مِنْهَا الْعِزَّةَ الْــــقَعْسَاءَ فِى الْعَيْشِ الرَّغَدْ

حَيْثُ اُسْتُضِيفَ مَنْهَلٌ صَـــفَا إِلَى ظِلٍّ بَرَدْ

كَأَنَّهَا لِى جَنَّـــةٌ حُفَّتْ بِمَكْرُوهِ الْحَسَدْ

يَحْمِلُهَا مِــــنِّىَ وَا فِى الشُّــكْرِ صَافِى الْمُعْتَقَدْ

كَمْ قَامَ بِالشُّــكْرِ إِلَى أَنْ أَثْقَلَتْهُ فَقَعَدْ

قَصَّرَ ، لَـكِنْ لَمْ يُقَصِّـــرْ مُبْلِغُ الْعُذْرِ اجْتَهَدْ

وُقِيتُ بَطْشَ الْعَيْنِ فِيـــكُمْ بِالْعَمَى لاَ بِالرَّمَدْ

صرعى الحب [1]

أَخَذْتَ ثُلْثَ الْهَوَى غَصْباً ، وَلِى ثُلُثٌ وَالْمُحِبِّينَ ـ فِيما بَيْنَهُمْ ـ ثُلُثُ

تَاللهِ ، لَوْ حَلَفَ الْعُشَّاقُ : أَنَّهُمُ مَوْتَى مِنَ الْوَجْدِ ـ يَوْمَ الْبَيْنِ ـ مَاحَنِثُوا

---

(١) من شعر ابن زيدون الذى قاله فى معة صباه ، وقد أورده المراكشى صاحب كتاب المعجب فى تاريخ أخبار المغرب ، ولم يرد فى ديوان ابن زيدون

قَوْمٌ - إِذَا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَاوُصِلوا - مَاتُوا ، فَإِنْ عَادَ مَنْ يَهْوَوْنَهُ بُعِثُوا
تَرَى الُمحِبِّينَ صَرْعَى - فِى عِرَاصِهِم - كَفِتْيَةِ الْكَهْفِ ، مَايَدْرُونَ مَالَبِثوا

ذكرى قرطبة

« ومما قاله يتشوّق ابنة المهدى ومعاهده بقرطبة ، وضمنها بيت أبى الطيب - فى أوّل قصيدته الكافورية :

« بم التعلل ؟ لا أهل ، ولا وطن ،
ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن ؟ »

قصيدة أوّلها (١) : »

هَلْ تَذْكُرُونَ غَرِيباً عَادَهُ شَجَنُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - وَجَفَا أَجْفَانَهُ الْوَسَنُ
يُخْفِى لَوَاعِجَهُ - وَالشَّوْقُ يَفْضَحُهُ - فَقَدْ تَسَاوَى - لَدَيْهِ - السِّرُّ وَالْعَلَنُ
يَا وَيْلَتَاهُ ، أَيَبْقَى - فى جَوَانِحِهِ - فُؤَادُهُ ، وَهْوَ بِالأَطْلاَلِ مُرْتَهَنُ
وَأَرَّقَ الْعَيْنَ - وَالظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ - وَرْقَاءُ قَدْ شَفَّهَا - إِذْ شَفَّنِى - حَزَنُ
فَبِتُّ أَشْكُو وَتَشْكُو - فَوْقَ أَيْكَتِهَا - وَبَاتَ يَهْفُو ارْتِيَاحًا بَيْنَنَا الْغُصُنُ

***

يَا هَلْ أُجَالِسُ أَقْوَامًا أُحِبُّهُمُ كُنَّا وَكَانُوا - عَلَى عَهْدٍ - فَقَدْ ظَعَنُوا
أَوْ تَحْفَظُونَ عُهُوداً لاَ أُضَيِّعُهَا إِنَّ الْكِرَامَ - بِحِفْظِ الْعَهْدِ - تُمْتَحَنُ

وَمِنْهَا :

إِنْ كَانَ عَادَكُمُ عِيدٌ ، فَرُبَّ فَتًى بِالشَّوْقِ قَدْ عَادَهُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - حَزَنُ
وَأَفْرَدَتْهُ اللَّيَالِى - مِنْ أَحِبَّتِهِ - فَبَاتَ يُنْشِدُهَا - مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ - :
« بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لاَ أَهْلٌ ، وَلاَ وَطَنٌ ؟ وَلاَ نَدِيمٌ ، وَلاَ كَأْسٌ ، وَلاَ سَكَنٌ ؟ »

(١) ذكرها ، كتاب المعجب فى تاريخ أخبار المغرب ، ولم ترد فى ديوان ابن زيدون .


رسائل ابن زيدون وأخباره
وشعر الملكين
واخبارهما

الرسالة الهزليـــة [1]

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الْمُصَابُ بِعَقْلِهِ ، الْمُوَرَّطُ بِجَهْلِهِ ، الْبَيِّنُ سَقَطُهُ ، الْفَاحِشُ غَلَطُهُ ، الْعَاثِرُ فى ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ ، الْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ ، السَّاقِطُ ـ سُقُوطَ الذُّبَابِ ـ عَلَى الشَّرَابِ ، الْمُتَهَافِتُ ـ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ [2] ـ فى الشِّهَابِ ، فَإِنَّ الْعُجْبَ أَكْذَبُ ، وَمَعْرِفَةَ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصْوَبُ ، وَإِنَّكَ رَاسَلْتَنِى مُسْتَهْدِيًا ـ مِنْ صِلَتِى ـ مَا صَفِرَتْ مِنْهُ أَيْدِى أَمْثَالِكَ ، مُتَصَدِّيًا ـ مِنْ خُلَّتِى ـ لِمَا قُرِعَتْ دُونَهُ أُنُوفُ [3] أَشْكَالِكَ ، مُرْسِلاً خَلِيلَتَكَ مُرْتَادَةً ، مُسْتَعْمِلاً عَشِيقَتَكَ قَوَّادَةً ، كَاذِبًا نَفْسَكَ أَنَّكَ سَتَنْزِلُ عَنْهَا إِلَىَّ ، وَتَخْلُفُ ـ بَعْدَهَا ـ عَلَىَّ :

« وَلَسْتَ بِأَوَّلِ ذِى هِمَّةٍ   دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ [4] »

***

وَلاَ شَكَّ أَنَّهَا قَلَتْكَ إِذْ لَمْ تَضَنَّ بِكَ ، وَمَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَغَرْ عَلَيْكَ ، فَإِنَّهَا أَعْذَرَتْ فى السِّفَارَةِ لَكَ ، وَمَا قَصَّرَتْ فى النِّيَابَةِ عَنْكَ ، زَاعِمَةً أَنَّ الْمُرُوءَةَ لَفْظٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ ، وَالْإِنْسَانِيَّةَ اسْمٌ أَنْتَ جِسْمُهُ وَهَيُولاَهُ [5] ، قَاطِعَةً أَنَّكَ انْفَرَدْتَ

---

(١) انظر ص « ٢٣٧ »

(٢) الفراش مشهور بأنه يطرح نفسه فى النار فيحترق ، قال الشاعر :

« هل أنتم إلا الفرا   ش رأى الشهاب وقد توقد

فدنا ، فأحرق نفسه   ولو اهتدى رشد الأبعد . »

(٣) قرع الأنف أى العجز والذلة ، والعرب تقول للكفء : « هو الفحل لا يقرع أنفه » وقد قال ابن زيدون فى إحدى قصائده فى « ص ٦٧ » : « وأنف الفحل لا يقرع . »

(٤) البيت للمتنبى ، وهو من قصيدته المشهورة :

« إلام طماعيـــة العاذل   ولا رأى فى الحب للعاقل

يراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل »

والقصيدة مشهورة فليرجع إليها القارئ فى ديوانه إن شاء .

(٥) أصله وحقيقته .

بِالْجَمَالِ، وَٱسْتَأْثَرْتَ بِالْكَمَالِ ، وَٱسْتَعْلَيْتَ فِى مَرَاتِبِ الْجَلَالِ ، وَٱسْتَوْلَيْتَ عَلَى مَحَاسِنِ الْخِلَالِ ، حَتَّى خَيَّلْتَ أَنَّ يُوسُفَ ـ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ حَاسَنَكَ فَغَضَضْتَ مِنْهُ ، وَأَنَّ ٱمْرَأَةَ الْعَزِيزِ [١] رَأَتْكَ فَسَلَتْ عَنْهُ ، وَأَنَّ قَارُونَ [٢] أَصَابَ بَعْضَ مَا كَنَزْتَ ، وَالنَّطِفَ [٣] عَثَرَ عَلَى فَضْلِ مَا رَكَزْتَ ، وَكِسْرٰى [٤] حَمَلَ غَاشِيَتَكَ ، وَقَيْصَرَ [٥] رَعٰى مَاشِيَتَكَ ، وَالْإِسْكَنْدَرَ قَتَلَ دَارًا [٦] فِى طَاعَتِكَ ، وَأَرْدَشِيرَ [٧] جَاهَدَ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ بِخُرُوجِهِمْ عَنْ جَمَاعَتِكَ ، وَالضَّحَّاكَ [٨] ٱسْتَدْعٰى مُسَالَمَتَكَ ، وَجَذِيمَةَ

---

(١) امرأة العزيز مشهورة بحبها يوسف الصديق وقصتها معروفة .

(٢) قارون : يضرب به المثل فى الثراء والغنى ، وقد جاء فى الكتاب الكريم : « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . »

(٣) قالوا : إنما هى النطف بن حبير بن حنظلة اليربوعي ، وقد كان مقيما بالبادية مع بنى تميم ، وقد نهب أموالا كان أرسلها كسرى إلى عامله ذهباً ومسكا ولآلئ ، فضرب به المثل بما أصاب من ثروة طائلة ، قال بعض ولده :

« أبى النطف المارى الشمس، إنى عريق فى السماحة والمعالى . »

(٤) كسرى : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الفرس .

(٥) قيصر : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الروم .

(٦) يعنى الاسكندر الأكبر المقدونى وتاريخه مشهور ، و « دارا » هو ملك الفرس الذى انتصر عليه الاسكندر وقتله . (٧) اسم ملك من ملوك الفرس .

(٨) الضحاك يزعمون أنه قتل « جشيد » ـ سيد الشعاع ، وملك الأقاليم السبعة وأول من عمل السلاح واستخرج الابريسم ، والقز ، وألزم أهل الفساد الأعمال الشاقة فى قطع الصخور ، واستخراج المعادن . قالوا : وطال عمر « جشيد » وتجبر ، وادعى الربوبية ، فخرج عليه الضحاك ، وتبعه خلق كثير من أعداء « جشيد » فظفر به الضحاك ، فهرب « جشيد » بين يديه فظفر به الضحاك وأمر بنشره بمنشار ، وقال له : « إن كنت إلها فادفع عن نفسك »

ثم ملك الضحاك ـ فيما يزعمون ـ وطغى وتجبر وفجر ودان بدين البراهمة ، وكان ـ فيما يقولون ـ أول من غنى له ، وضرب الدنانير والدراهم ، ولبس التاج ، ووضع العشور ، إلى آخر مازعموه .

الأَبْرَشَ (1) تَمَنَّى مُنَادَمَتَكَ ، وَشِيرِينَ قَدْ نَافَسَتْ بُورَانَ فِيكَ (2) ، وَبَلْقِيسَ (3) غَايَرَتِ الزَّبَّاءَ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ (4) إِنَّمَا أَرْدَفَ لَكَ ، وَعُرْوَةَ بْنَ جَعْفَرٍ (5) إِنَّمَا رَحَلَ إِلَيْكَ ، وَكُلَيْبَ (6) بْنَ رَبِيعَةَ إِنَّمَا حَمَى المَرْعَى بِعِزَّتِكَ ، وَجَسَّاساً إِنَّمَا قَتَلَهُ

---

(١) جذيمة الأبرش ، قد سبقت الاشارة إليه فى «ص ٢٠٢» فليرجع إليها من شاء .

(٢) شيرين : هى زوجة كسرى أبرويز ، وبوران هى ابنته ، وقد أشار المعرى إلى شيرين إشارة طريفة فى رسالة الغفران فقال :

ولو قالت شيرين الملكة لكسرى : « جعلنى الله فداءك » لخالته — فى ذلك — ونافقته ، وإن راقته ووافقته ، على أنه أخذها من حال دنية ، فجعلها فى النعمة السنية ، وعشقه — فى ذلك — الأحباء ، وجرت لهم — فى ذلك — قصص وأنباء ، وقيل له — فيما ذكر — :

« كيف تطيب نفس الملك لهذه المومس ؟ »

فضرب لهم المثل بالقدح ، جعل فى الاناء الشعر والدم ، وقال للحاضر :

« تجيب نفسك لشرب ما فيه ؟ » فقال : « إنها لا تطيب وهى بالأنجاس قطيب . »

فأراق ذلك الشىء وغسله وهذب وعاءه ، وجعل فيه — من بعد — مداما . وعرضه على الندامى ، فكلهم بهش أن يشرب ، فقال : « هذا مثل شيرين » .

(٣) بلقيس هى ملك بلاد سبأ ، والزباء هى التى قتلها عمرو بن عدى وقتل أباها جذيمة بن الأبرش ، وقد مر ذكره .

(٤) مالك بن نويرة : من مشهورى فرسان العرب وشجعانهم فى الجاهلية ، وقد أدرك الاسلام . قالوا وارتد وبعث أبو بكر خالد بن الوليد لقتال أهل الردة ، فكان إذا صبح قوماً تسمع الآذان فان سمعهم كف عنهم ، وإن لم يسمعهم قاتلهم إلى أن مرّ بالبطاح وبه مالك وأصحابه ، فقيل إنهم لم يسمعوا أذاناً فقاتلهم ، وأتى بمالك بن نويرة أسيراً فأمر خالد بقتله . قالوا : واحتجّ قوم لخالد فى قتله ، وطعن عليه آخرون فى كلام طويل مشهور ، وقد رثاه أخوه متمم رثاءه الرائع ، وقد سمعه عمر فقال له : وددت لو رثيت أخى زيداً بمثل مارثيت به أخاك ، فقال له متمم : والله لو علمت أن أخى صار إلى ماصار إليه أخوك لم أرثه ولم أحزن عليه ، ومن أبيات متمم التى سارت فى رثائه مسير الأمثال قوله :

« وقالوا أتبكى كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى ، فالدكادك
فقلت لهم : « إن الأسى يبعث الأسى دعونى فهذا كله قبر مالك »

(٥) عروة بن جعفر — كان ينتسب إلى جعفر هو وأهل بيته ، وكان يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك ، وكان هو السبب فى حرب الفجار المشهورة .

(٦) كليب بن ربيعة — هو رئيس الحيين من بكر وتغلب ، وقد بلغ من جبروته وبغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ويقول وحش كذا وكذا فى جوارى فلا تهاج ولا يورد أحد مع إبله ولا توقد نار مع ناره ، ولا يحتبى فى مجلسه ، ولا يتكلم إلا باذنه كما يدلك على ذلك قول أخيه مهلهل فى رثائه :

نبئت أن النار — بعدك — أوقدت واستبّ — بعدك — يا كليب المجلس .

بِأَنَفَتِكَ ، وَمُهَلْهِلاً[1] إِنَّمَا طَلَبَ ثَأْرَهُ بِهِمَّتِكَ ، وَالسَّمَوْءَلَ[2] إِنَّمَا وَفَى عَنْ عَهْدِكَ ، وَالْأَحْنَفَ[3] إِنَّمَا احْتَبَى فِي بُرْدَتِكَ ، وَحَاتِمًا[4] إِنَّمَا جَادَ بِوَفْرِكَ ، وَلَقِيَ الْأَضْيَافَ

وتكلموا فى ـ أمر كل عظيمة ـ لوكنت حاضر أمرهم لم ينبسوا . »

وقد قتله جساس بن مرّة زوج أخت كليب ، وكان ذلك سبباً فى حرب البسوس .

(١) مهلهل بن ربيعة ـ هو أخو كليب والآخذ بثأره فى حرب طويلة تغنينا شهرتها عن ذكرها .

(٢) السموءل ـ هو السموءل بن عاديا ، وهو من يهودى يثرب ، ويضرب به المثل ـ فى الوفاء ـ بحادثته المشهورة مع امرئ القيس الذى أودع عنده وديعة ومضى ، وحاول الحارث بن ظالم أن يأخذها من السموءل فأبى ، ثم ظفر الحارث بابنه ، فقال السموءل : إن لم تعطنى وديعة امرئ القيس قتلت ابنك فأبى . فقتل الحارث ابن السموءل وانصرف ، والسموءل هو صاحب اللامية المشهورة التى يقول فى أولها :

« إذا المرء لم يدنس ـ من اللؤم ـ عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل ـ على النفس ـ ضيمها ، ... فليس ـ إلى حسن الثناء ـ سبيل . »

(٣) الأحنف ـ هو الأحنف بن قيس ويضرب به المثل فى الحلم .

(٤) حاتم ـ هو حاتم الطائى وهو أشهر من ضرب به المثل فى الجود .

قالوا : ـ « وأجواد العرب فى الجاهلية ثلاثة :

« حاتم الطائى ، هرم بن سنان ، كعب بن مامه »

قالوا « وحاتم أشهرهم ذكراً » .

وقد أدرك مولد النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومات قبل بعثه ، ومن مختار شعره قوله : ـ

« أعاذل إن المال غير مخلد ... وإن الغنى عارية مترود

وكم من جواد يفسد اليوم جوده ... وساوى قد ذكرته الفقر فى غد

وكم لى آباء ، فما كف جودهم ... ملام ، ومن أيديهم خلقت يدى . »

وقوله :

« لحا الله صعلوكا مناه وهمه ... ـ من العيش ـ أن يلقى لبوسا ومطعما

ولله صعلوك يساور همه ... ويمضى ـ على الأحداث ـ والهول ـ مقدما

إذا مارأى يوماً مكارم أعرضت ... تيمم كبراهن ، ثمت صمما . »

وقوله :

« أماوى إن المال غاد ورائح ... ويبقى ـ من المال ـ الأحاديث والذكر

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق به الصدر

أماوى إن يصبح صداى بقفرة ... ـ من الأرض ـ لا ماء لدى ولا خمر

ترى أن ما أهلكت لم يك ضرنى ... وأن يدى ـ مما بخلت ـ به صفر

وقد علم الأقوام لو أن حاتما ... أراد ثراء المال كان له وفر

وأنى لا آلو ـ بمالى ـ صنيعة ... فأوله زاد وآخره ذخر

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى ... وكلا سقاناه ـ بكأسيهما ـ الدهر

فما زادنا بغياً ـ على ذى قرابة ـ ... غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقر . »

بِبِشْرِكَ ، وَزَيْدَ[١] بْنَ مُهَلْهِلٍ إِنَّمَا رَكِبَ بِفَخِذَيْكَ ، وَالسُّلَيْكَ[٢] بْنَ السُّلَكَةِ إِنَّمَا عَدَا عَلَى رِجْلَيْكَ ، وَعَامِرَ بْنَ مَالِكٍ[٣] إِنَّمَا لَاعَبَ الْأَسِنَّةَ بِيَدَيْكَ ، وَقَيْسَ[٤] بْنَ زُهَيْرٍ إِنَّمَا اسْتَعَانَ بِدَهَائِكَ ، وَإِيَاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ[٥] إِنَّمَا اسْتَضَاءَ بِمِصْبَاحِ ذَكَائِكَ ،

---

(١) زيد بن مهلهل — أدرك الاسلام ، وكان فارساً مشهوراً ، بعيد الصيت ، وشاعراً نابغاً ، وكان يسمى زيد الخيل لكثرة ما عنده من الخيل ، فلما أسلم سماه النبي — صلى الله عليه وسلم — زيد الخير .

(٢) السليك بن السلكة جاهلي قديم ، وهو أحد صعاليك العرب وأحد لصوصهم العدائين الذين كانوا لا يلحقون ، قال ابن الرومي في وصف شهر رمضان :

« يمشي الهوينا ، وأما حين يطلبنا فلا السليك يدانيه ولا السلكة . »

(٣) عامر بن مالك — المشهور بملاعب الأسنة ، وأمه أم البنين المشهورة التي افتخر بها لبيد عند النعمان في قوله :

« نحن بنى أم البنين الأربعه . »

(٤) قيس بن زهير — هو صاحب الحروب المشهورة بين عبس وذبيان بسبب الفرسين (داحس والغبراء) وكان يضرب به المثل في الدهاء ، فيقال : « أدهى من قيس . »

(٥) إياس بن معاوية — هو صاحب الفراسة والأجوبة السديدة الرائعة ، وكان قاضي البصرة ، ويضرب به المثل في الذكاء . قال أبو تمام :

« إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس . »

قالوا : وكان سبب ولايته القضاء أن عمر بن عبد العزيز أرسل رجلا من أهل الشام وأمره أن يجمع بين إياس والقاسم بن أبي ربيعة ويولي القضاء أنفذهما ، فجمع بينهما ، فكان كل منهما يمتنع من الولاية ، فقال إياس للشامي : « سل الحسن البصري عني وعن القاسم ، وسل ابن سيرين . » فعلم القاسم أنه إن سأل عنهما أشارا به ، فقال للشامي : « لا تسأل عنه ، فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياساً لأفضل مني وأعلم بالقضاء ، فإن كنت ممن يصدق ، فينبغي لك أن تصدق قولي ، وإن كنت كاذباً فما يحل لك أن أن توليني القضاء وأنا كذاب » ، فقال إياس للشامي : « إنك جئت برجل فأقمته على شفير جهنم فافتدى نفسه من النار بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو من النار » فقال الشامي : « أما إذ فطنت لها فإني أوليك » فاستقضاه ، فلم يزل على القضاء مدة ثم هرب . قالوا : « ولما ولي القضاء دخل عليه الحسن البصري فبكى إياس وقال له : « بلغني أن القضاة ثلاثة : رجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة » فقال الحسن « إن فيما قص الله تعالى في النبي داود ما يرد قول مولاي . » ثم قرأ قوله تعالى « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً » فحمد سليمان ولم يذم داود ، وأخباره كثيرة مشهورة في كتب الأدب ، فلا حاجة بنا إلى الإفاضة .

وَسَحْبَانُ[1] إِنَّمَا تَكَلَّمَ بِلِسَانِكَ ، وَعَمْرُو[2] بْنُ الْأَهْتَمِ إِنَّمَا سَحَرَ بِبَيَانِكَ ، وَأَنَّ الصُّلْحَ - بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ - تَمَّ بِرِسَالَتِكَ[3] ، وَالْحِمَالَاتِ - بَيْنَ عَبْسٍ وَذُبْيَانَ - أُسْنِدَتْ إِلَى كَفَالَتِكَ ، وَأَنَّ احْتِيَالَ هَرِمٍ - لِعَلْقَمَةَ وَعَامِرٍ حَتَّى رَضِيَا - كَانَ ذَاكَ عَنْ

---

(١) سحبان وائل — يضرب به المثل فى الفصاحة والبيان والقدرة على الخطابة ، أدرك الاسلام ومات سنة أربع وخمسين . قال الأصمعى « وكان إذا خطب يسيل عرقاً ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ، ولا يقعد حتى يفرغ » قالوا : « وقدم على معاوية وفد من خراسان فيهم — سعيد بن عثمان — فطلب سحبان فلم يوجد فى منزله فاقتضب — من ناحيته — اقتضاباً وأدخل عليه فقال : « تكلم » فقال : « انظروا لى عصا تقوّم من أودى » قالوا : « وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين . » قال : « ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه وعصاه فى يده . » فضحك معاوية وقال : « هاتوا عصا فجاءوا بها إليه فركلها برجله ولم يرضها . » وقال : « هاتوا عصاى » فأتوا بها فأخذها ، ثم قام وتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ما تنحنح ، ولا سعل ، ولا توقف ، ولا ابتدأ فى معنى فخرج منه وقد بقى عليه منه شىء ، فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان : ألا تقطع على كلامى ، فقال معاوية « الصلاة » قال : « هى أمامك ، ونحن فى صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد » ، فقال معاوية : « أنت أخطب العرب . » فقال سحبان : « والعجم والجنّ والانس »

(٢) عمرو بن الأهتم — من سادات بنى تميم وخطبائهم فى الجاهلية والاسلام ، وكان — لجماله — يدعونه : « المكحل » قالوا : « ووفد على النبىّ — صلى الله عليه وسلم — هو والزبرقان بن بدر فأسلما وأكرمهما النبىّ — صلى الله عليه وسلم — » فسأل النبىّ — صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر بحضوره فقال عمرو : « مطاع فى أدنيه ، شديد العارضة فى قومه ، مانع لما وراء ظهره » .

فقال الزبرقان : « يارسول الله إنه ليعلم منى أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى . » فقال عمرو : « أما والله لئن علمت ما قد علمت ، إنه لزمن المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، ضيق العطن ، حديث الغنى . » ورأى تغير النبىّ — صلى الله عليه وسلم — لما اختلف قوله ، فقال : « يارسول الله لا تعجب ، لما رضيت قلت أحسن ما علمت ، ولما غضبت قلت أقبح ما علمت ، فوالله ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الثانية . » فقال النبىّ — صلى الله عليه وسلم — : « إنّ من البيان لسحرا . » وتوفى سنة ٥٧ هـ — ومن مأثور حكمه قوله :

« أشجع الناس من رد جهله بحلمه . » وقوله « أفّ للحر لو كان شىء يشترى ما كان شىء أنفس من العقل ، فالعجب لمن يشترى الحمق بماله فيدخله فى رأسه فيقىءّ فى جيبه ويسلح فى ذيله . » وكان ممن حرّم الخمر — على نفسه — فى الجاهلية .

(٣) بكر وتغلب ابنا وائل — هم الذين أشعلوا حرب البسوس ، وقد دامت سنين طويلة قتل فيها عظماء الحيين وأخبارها مشهورة .

إِشَارَتِكَ، وَجَوَابَهُ لِعُمَرَ ـ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ أَيِّهِمَا كَانَ يَنْفِرُ ـ وَقَعَ عَنْ إِرَادَتِكَ[1]، وَأَنَّ الْحَجَّاجَ[2] تَقَلَّدَ وِلَايَةَ الْعِرَاقِ بِجَدِّكَ، وَقُتَيْبَةَ[3] فَتَحَ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ بِسَعْدِكَ، وَالْمُهَلَّبَ[4] أَوْهَنَ شَوْكَةَ الْأَزَارِقَةِ بِيَدِكَ، وَفَرَّقَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ بِكَيْدِكَ، وَأَنَّ هُرْمُسَ[5] أَعْطَى بَلِينُوسَ[6] مَا أَخَذَ مِنْكَ، وَأَفْلَاطُونَ[7] أَوْرَدَ عَلَى إِرِسْطَالِيسَ[8] مَا نَقَلَ عَنْكَ، وَبَطْلَيْمُوسَ[9] سَوَّى الْإِصْطِرْلَابَ بِتَدْبِيرِكَ، وَصَوَّرَ الْكُرَةَ عَلَى تَقْدِيرِكَ،

---

(١) يشير بذلك إلى عمر بن الخطاب حين قال لهرم بن قطبة بعد أن أسلم: « أيهما كان الأفضل عندك يعني عامراً وعلقمة » فقال: « لو قلت الآن فيهما كلمة لعادت الحرب بين الحيين. » فأعجب بذلك القول عمر وسرّ من سياسته وبعد نظره وقال له: « بحقّ حكمتك العرب »

(٢) الحجاج ـ هو الحجاج بن يوسف الثقفي ولد سنة ٤١ ونشأ بالطائف، وولي الكوفة، واشتهر بسفك الدماء، وهو الذي حاصر مكة وفيها عبد الله بن الزبير وضربها بالمنجنيق (انظر ص ١٦ من كتاب مصارع الأعيان) وحروبه مع شبيب، وعبد الرحمن بن الأشعث مشهورة، وقد ذكرناها في مصارع الأعيان من «ص٥٧ إلى ص١١٥» فليرجع إليها من شاء، وكان يعجب بسرعة الجواب، وله نوادر كثيرة في ذلك، قالوا: إنه قال ذات يوم لأحمد بن يونس « فكرت في أمرك فوجدت دمك والله حلالا » فقال: « أيها الأمير أشدّ ما في القضية أن هذا الرأي بعد الفكر » فضحك وعفا عنه، وقالوا إنه أتي بقوم من أصحاب ابن الأشعث فأمر بضرب أعناقهم، فقام رجل فقال: « أيها الأمير إن لي عندك يدا » فقال « وما هي؟ » قال « شتمك رجل بحضرة ابن الأشعث فرددت عنك » فقال: « من يشهد لك؟ » فأشار: «هذا» وأشار بيده إلى رجل منهم، فقال: « صدق أيها الأمير» فقال « ما منعك أن تفعل كما فعل؟» قال « بغضي لك » ، فقال الحجاج « أطلقوا هذا ليده عندنا ، وهذا لصدقه في مثل هذا الوقت » قال مالك ابن دينار: « والله لربما رأيت الحجاج يتكلم على المنبر ويذكر حسن صنعه إلى العراق وسوء صنعهم له حتى يخيل إلى أنه مظلوم » وقال الحسن البصري « لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج « إن امرءا ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول حسرته . »

(٣) قتيبة ـ هو قتيبة بن مسلم الباهلي نشأ في المروانية وولي الأمارة، وكان شجاعاً فطناً .

(٤) المهلب ـ هو المهلب بن أبي صفرة وهو الذي يعزى إليه الفضل في القضاء على الخوارج (انظر ص ٩٢ : ٩٧ من كتاب مصارع الأعيان)

(٥) هرمس ـ هو الذي يزعم نفر من الصابئة أنه نبيّ مرسل وأنه إدريس عليه السلام ويسندون إليه شرائعهم في تعظيم الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر والتقرّب إليها بالذبائح وغيرها .

(٦) بلينوس ـ هو الذي تزعم الصابئة أن رسالة هرمس انتقلت من بعده إليه .

(٧ ، ٨) أفلاطون وإرسطاليس ـ علمان من أعلام فلاسفة اليونان وقادة الفكر الممتازين .

(٩) بطليموس ـ هو صاحب كتاب المجسطي ، والجغرافيا ، والاسطرلاب وغير ذلك ، وهو أوّل من لعرض الفلك والهندسة .

وَبِقْرَاطَ[1] عَلِمَ الْعِلَلَ وَالْأَمْرَاضَ بِلُطْفِ حِسِّكَ ، وَجَالِينُوسَ[2] عَرَفَ طَبَائِعَ الْحَشَائِشِ بِدِقَّةِ حَدْسِكَ ، وَكِلَاهُمَا قَلَّدَكَ فِى الْعِلَاجِ ، وَسَأَلَكَ عَنِ الْمِزَاجِ ، وَاسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الْأَعْضَاءِ ، وَاسْتَشَارَكَ فِى الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ ، وَأَنَّكَ نَهَجْتَ لِأَبِى مَعْشَرٍ[3] طَرِيقَ الْقَضَاءِ ، وَأَظْهَرْتَ جَابِرَ بْنَ حَيَّانَ[4] عَلَى سِرِّ الْكِيمِيَاءِ ، وَأَعْطَيْتَ النَّظَّامَ[5] أَصْلًا أَدْرَكَ بِهِ الْحَقَائِقَ ، وَجَعَلْتَ لِلْكِنْدِىِّ[6] رَسْمًا اسْتَخْرَجَ

---

(١) بقراط — علم من أعلام الطب واليونان .

(٢) حالينوس — من العلماء المتازين الدين كان لهم الفصل فى ترقيـة فن الطبّ ، وقد عرف حواص الحشائش ، وقاس أمرحتها وطبائعها ، وشرّح الأعضاء ، ووضع الكتب الىميسة فى الطب .

(٣) أبو معشر : كان فى أول أمره من أصحاب الحديث ىىعداد ، وكان يشنع على الكندى الفيلسوف المعروف ويغرى العامة به — قالوا « ىدس له الكندى من حسن له النطر فى علم الحساب والهندسة فأحبهما ثم عدل إلى أحكام النحوم فتعمق ومهر وانقطع بدلك شرّه عن الكندى لأنه من جنس علومه .

(٤) جابر بن حيان — من أعلام العلماء العرب فى الكيمياء .

(٥) النطام — إمام من أئمة المعتزلة ، وكان آية فى الدكاء من صعره . قالوا : إنه جاء إلى الخليل بن أحمد ليعلمه ، فقال له الخليل يمتحنه وفى يده قدح زجاج : « يابنى صف لى هده الزجاجة » فقال : « أبمدح أم بذمّ » قال « بمدح » قال « تريك القذى، ولا تقبل الأذى، ولا تستر ما وراءها » قال « فذمها » قال « يسرع إليها الكسر ، ولا تقبل الجبر » قال « فصف لى هـذه النخلة » وأومأ إلى نخلة فى داره . قال « بمدح أم ذمّ ؟ » قال « بمدح » قال « حلو جناها، باسق منتهاها ، ناضر أعلاها » قال « فذمها » قال « صعبة المرتقى، بعيدة المجتنى ، محفوفة بالأذى » فقال الخليل « يابنى نحن إلى التعلم منك أحوج » ثم اشتغل على أبى الهذيل العلاف بمذهب الكلام إلى أن برع وظهر فى أيام المعتصم وتبعه خلق كثير — وحكى عنه قال « مات لصالح بن عبـد القدوس ولد ، فمضى إليـه أبو الهذيل والنظام معه وهو غلام حدث كالتبع له فرآه محترقاً ، فقال أبو الهذيل « لاأعرف لجزعك وجهاً إذا كان الناس عندك كالزرع » فقال صالح « ياأبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك » فقال أبو الهذيل « وما كتاب الشكوك ؟ » قال « كتاب وضعته من قرأه شكّ فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان » فقال له النظام « فشك أنت فى موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشك أيضاً فى أنه قد قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه » فحصر صالح وكان مذهبه مذهب السوفسطائية فإنهم يزعمون أن الأشياء لاحقيقة لها ، وإن مانستبعده يجوز أن يكون على مانشاهده ، ويجوز أن يكون على غير مانشاهده ، وأن حال اليقظان كحال النائم ، وتوفى سنة ٢٢١ هـ وسنه ست وثلاثون سنه .

(٦) الكندى — يعقوب الكندى من كبار فلاسفة الاسلام — انتقل إلى بغداد واشتغل بفنّ الأدب ، ثم بعلوم الفلسفة — وحل مشكلات الأوائل وله مؤلفات بارعة — وهو مشهور بالبخل ، وكان يقول : من شرف البخل أنك تقول للسائل « لا » ورأسك مرفوع إلى فوق ، ومن ذل العطاء أنك تقول « نعم »

بِهِ الدَّقَائِقَ ، وَأَنَّ صِنَاعَةَ الْأَلْحَانِ اخْتِرَاعُكَ ، وَتَأْلِيفَ الْأَوْتَارِ وَالْأَنْقَارِ تَوْلِيدُكَ وَابْتِدَاعُكَ ، وَأَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنَ يَحْيَى[١] بَارِي أَقْلَامِكَ ، وَسَهْلَ[٢] بْنَ هَارُونَ مُدَوِّنُ كَلَامِكَ ، وَعَمْرَو بْنَ بَحْرٍ[٣] مُسْتَمْلِيكَ ، وَمَالِكَ بْنَ أَنَسٍ[٤] مُسْتَفْتِيكَ ، وَأَنَّكَ الَّذِي أَقَامَ الْبَرَاهِينَ ، وَوَضَعَ الْقَوَانِينَ ، وَحَدَّ الْمَاهِيَّةَ ، وَبَيَّنَ الْكَيْفِيَّةَ وَالْكَمِّيَّةَ[٥] ،

وأنت مشير برأسك إلى أسفل ، ومؤلفاته كثيرة منها (أقسام العقل الانسى) وكتاب (الجوامع الفكرية) وكتاب (الفلسفة الأولى) وغيرها .

(١) عبد الحميد بن يحيى — هو عبد الحميد بن سعيد الكاتب المشهور ، وكان يقال « بدأت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد ، وكان فى أول نشأته معلم صبيان بالكوفة ، فلما اتصل بمروان الجعدى قبل أن يصل إلى الخلافة صحبه وانقطع إليه فلما جاء الأمر بالخلافة سجد مروان وأصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان « لم لم تسجد ؟ » فقال « ولم أسجد على أن كنت معنا فطرت عنا يعنى بالخلافة » فقال « إذن تطير معى » قال « الآن طاب السجود » وسجد وظل كاتب مروان طول خلافته .

(٢) سهل بن هارون — من أهل نيسابور — رحل إلى البصرة فنسب اليها وكان شعوبياً ، واشتهر بالبخل . قال الجاحظ : قى رجل سهل بن هارون فقال : « هب لى ما لا ضرر به عليك » فقال : « وما هو يا أخى ؟ » فقال : « درهم » قال : « لقد هونت الدرهم وهو طابع الله فى أرضه لا يعصى ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف عشر دية المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذى هونته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم » قال : « فانصرف الرجل ولولا انصرافه لم يسكت » وحكى دعبل الخزاعى قال : « أقمنا يوما عند سهل بن هارون وأطلنا الحديث حتى أضر به الجوع فدعا بغدائه فأتى بصحفة فيها مرق تحته ديك هرم فأخذ كسرة وتفقد ما فى الصحفة فلم يجد رأس الديك وبقى مطرقا ثم قال للغلام : « أين الرأس ؟ » قال : « رميت به » قال : « ولم ؟ » قال : « لم أظنك تأكله » قال . « ولم ظننت ذلك ؟ فوالله إنى لأمقت من يرمى برجله ، فكيف برأسه ؟ والرأس رئيس يتفاءل به ، وفيه الحواس الخمسة ، ومنه صيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذى يتبرك به ، وعينه التى يضرب بها المثل ، ودماغه عجيب لوجع الكلية ، ولم أر عظما قط أهش من رأسه فان كان بلغ من جهلك أن لا تأكله فعندنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح والساق ، انظر أين رميته فقال : « والله ما أدرى » قال : « لكنى أدرى أنك رميته فى بطنك » .

(٣) عمرو بن بحر — هو الكاتب المشهور ويكنى بأبى عثمان ويعرف بالجاحظ وهو ممن يفخر به البيان العربى حتى قيل : « مما فضل الله به أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — على غيرها من الأمم : عمر بن الخطاب فى سياسته ، والحسن البصرى فى علمه ، والجاحظ فى بيانه » — نشأ ببغداد وتتلمذ على النظام وانفرد بحسن البيان والفصاحة ، وأخباره مشهورة فى كتب الأدب فلا داعى للافاضة فيها —

(٤) مالك بن أنس — هو صاحب المذهب المشهور .

(٥) الماهية — ماهية الشيء ما يحصل فى الذهن من صورة كلية مطابقة له بعد حذف المشخصات عنه إن كان جزئياً . و(ما) وهى أحد حدود العلم عند الحكماء فان العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام . علم (ما) وعلم

وَنَاظَرَ فِي الْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ[1]، وَمَيَّزَ الصِّحَّةَ مِنَ الْمَرَضِ، وَفَكَّ الْمُعَمَّى[2]، وَفَصَلَ بَيْنَ الِاسْمِ وَالْمُسَمَّى، وَصَرَّفَ وَقَسَّمَ، وَعَدَّلَ وَقَوَّمَ، وَصَنَّفَ الْأَسْمَاءَ وَالْأَفْعَالَ، وَبَوَّبَ الظَّرْفَ وَالْحَالَ، وَبَنَى وَأَعْرَبَ، وَنَفَى وَتَعَجَّبَ، وَوَصَلَ وَقَطَعَ، وَثَنَّى وَجَمَعَ، وَأَظْهَرَ وَأَضْمَرَ، وَاسْتَفْهَمَ وَأَخْبَرَ، وَأَهْمَلَ وَقَيَّدَ، وَأَرْسَلَ وَأَسْنَدَ، وَبَحَثَ وَنَظَرَ، وَتَصَفَّحَ الْأَدْيَانَ، وَرَجَّحَ بَيْنَ مَذْهَبَيْ مَانِي وَغَيْلَانَ[3]، وَأَشَارَ بِذَبْحِ الْجَعْدِ[4]، وَقَتْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ، وَأَنَّكَ لَوْ شِئْتَ خَرَقْتَ الْعَادَاتِ، وَخَالَفْتَ الْمَعْهُودَاتِ، فَأَحَلْتَ الْبِحَارَ عَذْبَةً، وَأَعَدْتَ السِّلَامَ رَطْبَةً[5]، وَنَقَلْتَ غَدًا فَصَارَ

(كيف) وعلم (كم). فالعلم الذى يطلب منه ماهيات الأشياء هو العلم الالهى، والذى يطلب منه كيفيات الاشياء هو الطبيعى، والذى يطلب منه كميات الأشياء هو الرياضى.

(١) الجوهر والعرض: الجوهر — فيما يقولون — هو الجسم، كالانسان والفرس والحجر ونحو ذلك. والعرض الحال والوصف المتعاقب عليه كالألوان من بياض، وسواد وحمرة، والحركات المختلفة من قيام وقعود واضطجاع، وجميع ماعدا الجوهر فاسم العرض واقع عليه.

(٢) وفك المعمى — وهو اللغز، ارجع الى «ص ٢٨٤»

وكان الجاحظ يقول «ليس للمعمى شىء قد كان كيسان مستملى أبى عبيدة يسمع خلاف ما يقال، ويكتب خلاف ما يسمع، ويقرأ خلاف ما يكتب، وكان أعلم الناس باستخراج المعمى — قالوا: «وكان النظام — على قدرته على أصناف العلوم — لايقدر على استخراج أخف ما يكون من المعمى.

(٣) مانى وغيلان — مانى هو الذى تنسب إليه المانوية وهو ثنوى — نسبة إلى الاثنين — لزعمه أن صانع العالم اثنان، أحدهما فاعل الخير وهو النور، والآخر فاعل الشر وهو الظلمة، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا حساسين سميعين بصيرين وهما مختلفان فى النفس والصورة، متضادان فى الفعل والتدبير، فجوهر النور فاضل حسن نير ونفسه خيرة قديمة نافعة. منها الخير والسرور والصلاح وليس منها من الشر شىء، وجوهر الظلمة على ضد ذلك جميعه، وقد أشار المتنبي إلى هذا المذهب بقوله:

« وكم لظلام الليل عندك من يد   تخبر أن المانوية تكذب. »

وكان مانى راهباً بحران. قالوا: «وكان مؤمنا بالمسيح معظماً من أساقفة النصارى، ثم وثب به حاسدوه فأحدث ديناً ودعا إليه وتبعه كثير من المجوس.

وغيلان هو ابن يونس القدرى الدمشقى. قالوا كان أبوه مولى لعثمان بن عفان، وكان غيلان أول من تكلم فى القدر، وخلق القرآن فى الاسلام فى رأى بعض المؤرخين.

(٤) الجعد — هو مولى بنى الحكم وكان يعلم مروان بن محمد الجعدى ويقطن دمشق وينسب اليه بعض المؤرخين أنه أول من تكلم بخلق القرآن.

(٥) السلام: الحجارة الصلبة.

أَمْسًا ، وَزِدْتَ فِى الْعَنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا [١] ، وَأَنْتَ الْمَقُولُ فِيهِ :

« كُلُّ الصَّيْدِ [٢] فى جَوْفِ الْفَرَا . » وَ

« لَيْسَ عَلَى اللّٰهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فى وَاحِدِ [٣] . »

وَالْمَعْنِىُّ بِقَوْلِ أَبِى تَمَّام :

« فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا — عَلَى مَا فِيكَ — مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ . »

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ أَبِى الطَّيِّبِ :

« ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا . »

فَكَدَمْتَ فِى غَيْرِ مَكْدَمٍ [٤] ، وَاسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ [٥] ، وَنَفَخْتَ فِى غَيْرِ ضَرَمٍ [٦] ، وَلَمْ تَجِدْ لِرِيحٍ مَهَزًّا ، وَلَا لِشَفْرَةٍ مَحَزًّا ، بَلْ رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ،

---

(١) العناصر : هى فى رأى القدماء أربعة : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

(٢) كل الصيد فى جوف الفرا — مثل يضرب فى وصف الشىء المربى على غيره قالوا : « وأصله أن قوماً خرجوا للصيد فصاد أحدهم ظبياً وآخر أرنباً وآخر فرا ، وهو الحمار الوحشى ، فقال لأصحابه : كل الصيد فى جوف الفرا — يعنى أن جميع صيدكم يسير فى جنب ما صدته ، وزعم بعضهم أن الفرا اسم واد كثير الصيد وهو قول مردود ، وأما قول الشاعر : « وواد كجوف العير قفر قطعته »

فليس من هذا وإنما أراد الوادى المعروف بجوف حمار ، وحمار اسم رجل قديم كان فى واد خصيب فظلم عشيرته ، فأرسل الله عليه ناراً فأحرقته وأحرقت الوادى فخلا وسكنته الجن فقيل : أخلى من جوف حمار ، وحجب يوماً أبو سفيان بن حرب عن النبى — صلى الله عليه وسلم — ثم أذن له فقال : « يا رسول الله ما كدت تأذن لى حتى تأذن لحجارة الجلهتين » فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يا أبا سفيان كل الصيد فى جوف الفرا » . (٣) هذا البيت من قصيدة لأبى نواس فى مدح الفضل بن يحيى .

(٤) كدمت فى غير مكدم — عضضت فى غير موضع للعض ، وهذا المثل يضرب لمن يطلب ما يعجز عنه

(٥) فى هذا إشارة إلى قول الشاعر :

« فلو ناراً نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ فى رماد
لقد أسمعت — لو ناديت حيا — ولكن لا حياة لمن تنادى . »

(٦) يشير إلى قول المتنبى لسيف الدولة معرضاً بأبى فراس :

« أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم . »

وَتَمَنَّيْتَ الرُّجُوعَ بِخُفَّىْ حُنَيْنٍ[١] ، لِأَنِّى قُلْتُ :

« لَقَدْ هَانَ[٢] مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ . » وَأَنْشَدْتُ :

« عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ،حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ[٣] »

وَنَخَرْتُ[٤] وَبَسَرْتُ[٥] ، وَعَبَسْتُ فَكَفَرْتُ ، وَأَبْدَأْتُ وَأَعَدْتُ ، وَأَبْرَقْتُ وَأَرْعَدْتُ[٦] وَهَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِى ، وَلَوْلَا أَنَّ لِلْجِوَارِ ذِمَّةً ، وَلِلضِّيَافَةِ حُرْمَةً ، لَكَانَ الْجَوَابُ فِى قَذَالِ[٧] الدُّمُسْتُقِ ، وَالنَّعْلُ[٨]

---

(١) خفى حنين — مثل يضرب لمن يرجع بالخيبة — وكان حنين فيما يقولون إسكافا من أهل الحيرة ساومه أعرابى بخفين ولم يشتر منه شيئاً فغاظه ذلك فخرج عليه وعلق أحد الخفين على شجرة فى طريقه وتقدم قليلا وطرح الآخر وكمن ، فجاء الأعرابى فرأى أحد الخفين فوق الشجرة ، فقال « ما أشبه هذا بخف حنين لو كان معه آخر لتكلفت أخذه » ثم تقدم قليلا فرأى الخف الآخر مطروحا فنزل وعقل بعيره فأخذه ورجع ليأخذ الأول فخرج حنين من المكمن وأخذ بعيره وذهب ورجع الأعرابى إلى أهله بخفى حنين .

(٢) لقد هان من بالت عليه الثعالب — شطر بيت هو :

« أرب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب . »

قاله رجل من بنى سليم كان يعبد صنماً ، فرأى ذات يوم ثعلباً يبول على الصنم فكسره وأنشد هذا البيت وذهب إلى النبىّ — صلى الله عليه وسلم — فأسلم .

(٣) البيت لأبى تمام من قصيدة رثاء ، منها قوله :

وقلت : «أخى» قالوا «أخ ذو قرابة»؟ فقلت لهم : «إن الشكول أقارب»

صديقى فى رأيى وعزمى ومذهبى وإن باعدتنا فى الأصول المناسب

عجبت لصبرى بعده — وهو ميت — وكنت امرأً أبكى دماً وهو غائب

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب . »

(٤) نخرت — النخير صوت الأنف عند الغضب .

(٥) والبسر — الاستعجال بالشىء قبل أوانه . وهو فى قوله تعالى : « عبس وبسر » معناه أظهر العبوس قبل أوانه . (٦) الابراق والارعاد — كناية عن التهديد وأصلها من البرق والرعد. قال الشاعر:

«فقل للسماء : ارعدى وابرقى فاما وصلنا إلى المنزل . »

(٧) أى لفعلت بهذه المرأة التى أرسلتها رسولا من قبلك — لولا حرمة الضيافة — فعل سيف الدولة بالدمستق ، وهو لقب يطلق على كل قائد من قواد جيش الروم ، وقد هزمه سيف الدولة وأشار المتنبى إلى ذلك بقوله :

« وكنت إذا كاتبته قبل هذه كتبت إليه فى قذال الدمستق . »

(٨) مثل تضربه العرب وقد ضمنه أحد الشعراء قوله :

« إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل لها حاضرة

حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتِ الْعَقْرَبُ ، وَالْعُقُوبَةُ مُمْكِنَةٌ إِنْ أَصَرَّ الْمُذْنِبُ ، وَهَبْهَا لَمْ تُلَاحِظْكَ بِعَيْنٍ كَلِيلَةٍ عَنْ عُيُوبِكَ ، مِلْؤُهَا حَبِيبُهَا [١] ، حَسَنٌ فِيهَا [٢] مَنْ تَوَدُّ وَكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ ، وَوَسَمَتْكَ بِسِيمَاكَ ، وَلَمْ تُعِرْكَ شَهَادَةً ، وَلَا تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ، بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بِكْرِهَا فِيمَا ذَكَرَتْهُ عَنْكَ ، وَوَضَعَتِ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقْبِ [٣] بِمَا نَسَبَتْهُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتْ بِهِ عَلَيْكَ ، فَالْمُعَيْدِيُّ [٤] تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ :

هَجِينُ الْقَذَالِ [٥] ، أَرْعَنُ [٦] السِّبَالِ ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِلَاوَةِ [٧] ، مُفْرِطُ الْحُمْقِ وَالْغَبَاوَةِ ، جَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّئُ الْجَابَةِ وَالسَّمْعِ ، بَغِيضُ الْهَيْئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالْجِيئَةِ ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ ، مُنْتِنُ الْأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ الْمَعَايِبِ ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ :

---

(١) إشارة إلى قول المجنون :

« أهابك إجلالا ، ومابك قدرة علىّ ، ولكن ملء عين حبيبها. »

(٢) فى هذا إشارة إلى قول عمر بن أبى ربيعة :

ولقد قالت لجارات لها وتعرت ـ ذات يوم ـ تبترد
أكما ينعتنى تبصرننى ـ عمركن الله ـ أم لم يقتصد؟
فتضاحكن وقد قلن لها : «حسن فى كل عين من تود.»

(٣) الهناء : القطران ، والنقب : الجرب ، وهذا المثل يضرب لمن يضع الأمور فى مواضعها ، وهو نصف بيت لدريد بن الصمة فى الخنساء وهو :

« متبذلا تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب.»

(٤) مثل يضرب لمن يكون مخبره خيراً من منظره . قاله النعمان لشقة بن ضمرة ، وكان يعجبه مايسمع عنه ، فلما رآه استزرى منظره ، فقال النعمان : لأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه .

فقال له : « أبيت اللعن إن الرجال ليسوا بجزر ، وإنما يعيش المرء بأصغريه قلبه ولسانه . »

(٥) القذال ـ جماع مؤخر الرأس ، وهجين القذال : أى خسيس الأصل . قالوا : « لأن الذى يعرف لؤم نسبه إذا ولى طأطأ رأسه حياء وذلا ، فكأن اللؤم يتبين من قذاله » وقيل « بل لكثرة انهزامه فى الحروب . »

(٦) أرعن : أحمق ، والسبال : جمع سبلة وهى شعرة الشفة العليا وخصت الرعونة بها لأنها علامة الرجل.

(٧) العلاوة : الرأس مادام على العنق ، وفى الفراسة أن طول العنق والرأس من دلائل الحماقة .

كَلاَمُكَ تَمْتَمَةٌ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ، وَبَيَانُكَ فَهْفَهَةٌ، وَضَحِكُكَ قَهْقَهَةٌ(١)، وَمَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ، وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ(٢):

«مَسَاوٍ لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الْغَوَانِي ... لَمَا أُمْهِرْنَ إِلاَّ بِالطَّلاَقِ(٣)»

حَتَّى إِنَّ بَاقِلاً(٤) مَوْصُوفٌ بِالْبَلاَغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ، وَهَبَنَّقَةَ(٥) مُسْتَوْجِبٌ لاِسْمِ الْعَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ، وَطُوَيْساً(٦) مَأْثُورٌ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِرِ إِذَا قِيسَ عَلَيْكَ، فَوُجُودُكَ عَدَمٌ، وَالاِغْتِبَاطُ بِكَ نَدَمٌ، وَالْخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ، وَالْجَنَّةُ مَعَكَ سَقَرٌ، كَيْفَ رَأَيْتَ لُؤْمَكَ لِكَرَمِي كِفَاءً، وَضَعَتَكَ لِشَرَفِي وَفَاءً، وَأَنَّى جَهِلْتَ أَنَّ الأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا، وَالطَّيْرَ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى أُلاَّفِهَا، وَهَلاَّ عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لاَ يَجْتَمِعَانِ، وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ

---

(١) قال الجاحظ — التمتمة: التردد في التاء، والفأفأة: التردد في الفاء، والعقلة: التواء اللسان عند إرادة الكلام، والحبسة تعذر الكلام، واللفف: إدخال حرف في حرف، والرتة تمنع الكلام، فإذا جاء منه شيء اتصل، وقيل العجمة فيه، واللثغة أن يعدل من حرف إلى حرف، والغنة أن يشرب الحرف صوت الخيشوم والخنة أشد منها، واللكنة أن يعترض الكلام حرف أعجمي، والطمطمة أن يكون الكلام شبيها بالعجمي.

وأما الغمغمة فهي أن يسمع الصوت ولا يبين تقطيع الحروف — والفهفهة: العي في النطق، والقهقهة: الضحك الشديد يستدلون به على قلة العقل.

(٢) الهرولة: بين المشي والعدو، والمسألة: الفقر، والمخرقة: نوع من الخرق، الذي هو ضد الرفق، ومنه يقال: المخراق وهو شيء يلعب به كأنه يخرج لإظهار الشيء بخلافه.

(٣) البيت لأبي تمام. (٤) باقل: مضرب المثل في العي.

(٥) هبنقة: مضرب المثل في الحمق وضعف العقل — قالوا: ووضع عقداً في عنقه علامة لنفسه لئلا يضيع قالوا: وراقبه أخوه إلى أن نام، فأخذ العقد من عنقه وجعله في عنق نفسه، فلما انتبه هبنقة ورأى أخاه، قال «أنت أنا، فأنا يا ترى، من هو أنا» وهو جاهلي.

(٦) المغني الماجن المشهور، وكان يسكن المدينة، وهو أول من غنى بها على الدف بالعربية، ويضرب به المثل في الشؤم، لأنه ولد يوم مات النبي — صلى الله عليه وسلم —، وفطم يوم مات أبو بكر، وختن يوم قتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان، وكانت أمه تمشي بالنميمة بين نساء الأنصار، ونوادر شؤمه كثيرة مشهورة في كتب الأدب

لاَ يَتَمَارَيَانِ ، وَقُلْتَ : « الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لاَ يَسْتَوِيَانِ » وَتَمَثَّلْتَ [1] :

« أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً   عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟ »

وَذَكَرْتَ أَنِّى عِلْقٌ لاَ يُبَاعُ [2] مِمَّنْ زَادَ ، وَطَائِرٌ لاَ يَصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ ، وَغَرَضٌ لاَ يُصِيبُهُ إِلاَّ مَنْ أَجَادَ . مَا أَحْسَبُكَ إِلاَّ كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِيَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِيَةِ ! وَلَوْلاَ أَنَّ جُرْحَ الْعَجْمَاءِ جُبَارٌ [3] ، لَلَقِيتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لاَقَى يَسَارٌ [4] ، فَمَا هَمَّ إِلاَّ بِبَعْضِ مَا بِهِ هَمَمْتَ ، وَلاَ تَعَرَّضَ إِلاَّ لِأَيْسَرِ مَا لَهُ تَعَرَّضْتَ ، أَيْنَ ادِّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ ، وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السِّيَرِ وَالْأَخْبَارِ ؟ أَمَا ثَابَ إِلَيْكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

« بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ   وَتُنْكَحُ فِى أَكْفَائِهَا الْحَبِطَاتُ ؟ »

---

(١) البيت لعمر بن أبى ربيعة ، وعمرك الله بالنصب فيهما لأنه لم يرد القسم ، وإنما أراد سألت الله أن يطيل عمرك (بالفتح) أى حياتك ، وبعده قوله :

« هى شامية إذا ما استقلت   وسهيل إذا استقل يمانى . »

(٢) العلق : النفيس وهو من قصيدة للحريث بن فحطان التميمى كانت له فرس اسمها — سكاب — فأراد بعض ملوك اليمن أخذها منه فهرب بها وقال :

« أبيت اللعن إن سكاب علق   نفيس لا تعار ولا تباع
مفــداة مكرمة علينا   تجاع لها العيال ، ولا تجاع
فلا تطمع أبيت اللعن فيها   ومنعكها بشىء يستطاع . »

(٣) العجماء : البهيمة ، والجبار : الهدر ، والمعنى : أن البهيمة إذا جرحت لادية لها ولا قصاص ، وهو مثل يضرب ، لمن يستهان به .

(٤) يسار : اسم عبد دميم أسود كان النساء يرينه فيضحكن منه لقبحه ويحسبهن لغفلته معجبات به حتى نظرت إليه بنت مولاه فضحكت فظن أنها رضيت له ، فقال لصاحب له أسود : « قد والله عشقتنى مولاتى ، فلأزورنها الليلة » فقال له صاحبه « يا يسار ، اشرب لبن العشار ، وكل لحم الحوار وإياك وبنات الاحرار » فقال له « والله مارأتنى حرّة إلا عشقتنى » فلما أمسى قال لصاحبه « احفظ على الابل حتى أنصرف ، وأعود إليك » فنهاه فلم ينته حتى دخل على بنت مولاه يراودها عن نفسها ، فقالت له « مكانك فان للحرائر طيبا ، أشمك إياه » فقال لها « هاتيه » فأتته بطيب وموسى قاطعة ، فأشمته الطيب ، ثم أنحت بالموسى على هنه فقطعته ، فخرج هارباً حتى أتى صاحبه ودمه يسيل ، فضرب به المثل .

وَهَلاَّ عَشِيتَ وَلَمْ تَغْتَرَّ ؟ وَمَا أَشُكُّ أَنَّكَ تَكُونُ وَافِدَ الْبَرَاجِمِ [1]، أَوْ تَرْجِعُ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ [2] ، أَوْ أَفْعَلُ بِكَ مَافَعَلَهُ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ بِالْجُهَنِيِّ ، إِذْ جَاءَهُ خَاطِباً فَدَهَنَ اسْتَهُ بِزَيْتٍ وَأَدْنَاهُ مِنْ قَرْيَةِ النَّمْلِ ، وَمَتَى كَثُرَ تَلاَقِينَا وَاتَّصَلَ تَرَائِينَا ، فَيَدْعُونِي إِلَيْكَ مَادَعَا ابْنَةَ الْخُسِّ إِلَى عَبْدِهَا مِنْ طُولِ السِّوَادِ [3] ، وَقُرْبِ الْوِسَادِ ؟ وَهَلْ فَقَدْتُ الْأَرَاقِمَ [4] فَأُنْكِحَ فِي جَنْبٍ [5] ؟ أَوْ عَضَلَنِي هَمَّامُ بْنُ مُرَّةَ فَأَقُولَ : « زَوْجٌ مِنْ عُودٍ ، خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ ؟ »

وَلَعَمْرِي لَوْ بَلَغْتُ هٰذَا الْمَبْلَغَ لَارْتَفَعْتُ عَنْ هٰذِهِ الْخُطَّةِ ، وَلاَ رَضِيتُ بِهٰذِهِ الْخُطَّةِ ، فَالنَّارُ ، وَلاَ الْعَارُ ، وَالْمَنِيَّةُ ، وَلاَ الدَّنِيَّةُ ، وَالْحُرَّةُ تَجُوعُ وَلاَ تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا [6] :

---

(١) وافد البراجم : هو رجل من بنى تميم — والبراجم خمسة من أولاد حنظلة — والعرب تضرب المثل بوافد البراجم لأن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلا من بنى تميم لثأر له عندهم ، وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة فبينما هو يلتمس بقية المائة إذ مرّ رجل اسمه عمار فاشتم رائحة القتار فظن أن الملك اتخذ طعاماً فعدل إليه فقيل له « من أنت » فقال : « أنا وافد البراجم » فألقى فى النار .

(٢) شاعر جاهلى وفد هو وابن أخته طرفة بن العبد على عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة فنادماه وبينما طرفة يشرب يوما معه وفى يده جام من ذهب فيه شراب أشرفت أخت عمرو ، فرآها طرفة فقال : « ألا بأبى الظبى الذى تبرق شفتاه ، ولولا الملك القاعد ألثمنى فاه » فسمعها عمرو فأسرها فى نفسه وهم بقتله ، ولكنه خاف من هجاء المتلمس ، فكتب لهما كتابين إلى عامل البحرين ، وقال : « إنى كتبت لكما بصلة فاقبضاها من عامل البحرين » فخرجا من عنده بالكتابين ، ومرّ المتلمس بغلام من أهل الحيرة ، فطلب إليه أن يقرأ كتابه فاذا فيه « إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه واصلبه » فأقبل على طرفة فقال « والله لقد كتب لك بمثل هذا ، فادفع كتابك إلى الغلام يقرؤه » فقال : « كلا ما كان ليجترئ على قومى بمثل هذا » فألقى المتلمس صحيفته فى نهر الحيرة وذهب طرفة فقتل .

(٣) ابنة الخس امرأة جاهلية زنت بعبد لها ، فلما قرعوها وعيروها بفعلتها ولاموها عليها قالت لهم معتذرة : « لقد حملنى على ذلك قرب الوساد ، وطول السواد » وهى تعنى بطول السواد : طول السرار ، وفى الحديث : « السواد من السحر » تقول : ساودته أى ساررته ، أنظر « ص ١٩٨ » (٤) حى من تغلب .

(٥) حىّ من اليمن ، وهو من شعر مهلهل التغلبى حين هرب وطالت عليه حرب البسوس فنزل فى طريقه على حىّ من اليمن فخطبوا إليه ابنته فساقوا المهر وهو جلود من أدم وغصبوه على الزواج فقال :

« أعزز على تغلب بما لقيت   أخت بنى الأكرمين من جشم
أنكحها فقدها الأراقم من جنـ   ـب وكان الحباء من أدم
لو بأبانين جاء خاطبها   ضرج ماأنف خاطب بدم . »

(٦) هذه أمثلة لم نعثر لها على قصص الأحدوثة

فَكَيْفَ وَفِى أَبْنَاءِ قَوْمِىَ مَنْكَحٌ ... وَفِتْيَانِ هِزَّانَ الطِّوَالِ الْغَرَانِقَهْ[١]

❊

مَا كُنْتُ لَا تَخَطَّى الْمِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ، وَلَا أَمْتَطِى الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَادِ، فَإِنَّمَا يَتَيَمَّمُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً، وَيَرْعَى الْهَشِيمَ، مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ مَنْ لَا ذَلُولَ لَهُ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبْوَتِى إِلَيْهِ، وَشَهِدْتَ مُسَاعَفَتِى لَهُ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ، وَرَيْحَانِ الْمِصْرِ، الَّذِينَ هُمُ الْكَوَاكِبُ عُلُوَّ هِمَمٍ، وَالرِّيَاضُ طِيبَ شِيَمٍ:

«مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِى يَسْرِى بِهَا السَّارِى[٢]»

حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا، مَا أَنْتَ وَهُمْ، وَأَنَّى تَقَعُ مِنْهُمْ، وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَاوُ عَمْرٍو فِيهِمْ، وَكَالْوَشِيظَةِ[٣] فِى الْعَظْمِ بَيْنَهُمْ، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا بَلَغْتَ قَعْرَ تَابُوتِكَ، وَتَجَافَيْتَ عَنْ بَعْضِ قُوتِكَ، وَعَطَّرْتَ أَرْدَانَكَ، وَجَرَرْتَ هِمْيَانَكَ، وَاخْتَلْتَ فِى مِشْيَتِكَ، وَحَذَفْتَ فُضُولَ لِحْيَتِكَ، وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ، وَمَطَطْتَ حَاجِبَكَ، وَرَقَّقْتَ خَطَّ عِذَارِكَ، وَاسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ، رَجَاءَ الْاكْتِنَانِ فِيهِمْ، وَطَمَعاً فِى الْاعْتِدَادِ مِنْهُمْ، فَظَنَنْتَ عَجْزاً، وَأَخْطَأَتِ اسْتُكَ الْحُفْرَةَ[٤]، وَاللّٰهِ لَوْ كَسَاكَ مُحَرِّقٌ الْبُرْدَيْنِ[٥]، وَحَلَّتْكَ مَارِيَةُ[٦] بِالْقُرْطَيْنِ وَقَلَّدَكَ عَمْرٌو الصَّمْصَامَةَ[٧]، وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعَامَةِ[٨]، مَا شَكَكْتُ فِيكَ،

---

(١) اسم قبيلة — والغرانقة الشباب، والبيت للأعشى.

(٢) البيت للعرندس أحد بنى بكر بن كلاب.

(٣) قطعة العظم تكون زيادة فى العظم الصميم — يقال فلان وشيظة فى قومه أى حشو فيهم.

(٤) مثل يضرب لمن يطلب أمرا فيخطئه ولا يناله. (٥) انظر ص « ٢٠٠ »

(٦) ابنة ظالم زوج الحارث الأكبر الغسانى — وقد أهدت قرطيها إلى الكعبة.

(٧) انظر ص « ٢٠٧ — ٢١٠ »

(٨) فرس الحارث بن عباد التغلبى من ساداث بنى وائل

وَلاَ سَتَرْتَ أَبَاكَ ، وَلاَ كُنْتَ إِلاَّ ذَاكَ ، وَهَبْكَ سَامَيْتَهُمْ فِى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ ، وَجَارَيْتَهُمْ فِى غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ ، أَلَسْتَ تَأْوِى إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتُهُ لَكَاعِ [1] ؟ إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبٌ خَالِى الذِّرَاعِ ، وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِهِ مِمَّنْ لاغَلَبَ إِلاَّ عَلَى الْأَقَلِّ الْأَخَسِّ مِنْهُ ، وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِى بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ ، وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَىَّ ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَىَّ ، وَبَيْنَ آخَرَ قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ ضُرَاطُهُ ، وَهلْ يَجْتَمِعُ لِى فِيكَ إِلاَّ الْحَشَفُ وَسُوءُ الْكِيلَةِ [2] ، وَيَقْتَرِنُ عَلَىَّ بِكَ إِلاَّ الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِى بَيْتِ سَلُولِيَّه [3] :

تَعَالَى اللهُ يَا سَلْمُ بْنَ عَمْرٍو ... أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ [4]

مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ ، وَتَرْبَعَ بِذَلْكَ عَلَى ظَلْعِكَ ، وَلاَ تَكُنْ بِرَاقِشَ [5] اَلدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعَنْزَ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةِ لِحَتْفِهَا ، فَمَا أَرَاكَ إِلاَّ سَقَطَ بِكَ الْعَشَاءُ عَلَى سِرْحَانَ [6] ، وَبِكَ لاَ بِظَبْيٍ أَعْفَرَ [7] ، أَعْذَرْتَ إِنْ أَغْنَيْتَ شَيًّا ، وَأَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا [8] .

---

(١) القعيدة : الروحة ، واللكاع : اللئيمة ، والبيت للحطيئة يقول :

« أطوّف ما أطوف ثم آوى ... إلى بيت قعيدته لكاع . »

(٢) مثل يضرب فى الخلتين السيئتين يجتمعان . قالوا أنه لعمرو بن معديكرب ، والحشف أردأ التمر ، والكيلة مصدر يدل على الهيئة .

(٣) وهى امرأة من سلول ، وهو مثل قاله عامر بن الطفيل عند ماتوعد النبىّ — صلى الله عليه وسلم — فدعا عليه وقال : اللهم اكفنى عامرا بما شئت ، فظهر فى رقبته غدة مات منها وجعل يقول : « غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية . » (٤) البيت لأبى العتاهية . (٥) يشير إلى المثل (جنت على أهلها براقش) (٦) الذئب . (٧) مثل يضرب للشماتة بالرجل — أى نزل بك المكروه ولا نزل بظبى ، والأعفر الذى لونه لون التراب . (٨) يشير إلى قول المعرى :

«لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادى

ونار لو نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ فى رماد.»

ولعله اقتبسها فى قصيدته من شعر عمرو بن معـ

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ   وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي[1]

وَإِنْ بَادَرْتَ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ ، كُنْتَ قَدِ اشْتَرَيْتَ الْعَافِيَةَ لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ قُلْتَ جَعْجَعَةٌ وَلَا طِحْن ، وَرُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ[2] الرَّاعِدَةِ ، وَأَنْشَدْتَ :

« لَا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ   قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وَإِنْ جَرَحَا[3] . »

فَعُدْتَ لِمَا نُهِيتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتُعْفِيتَ مِنْهُ ، بَعَثْتُ مَنْ يُزْعِجُكَ إِلَى الْخَضْرَاءِ[4] دَفْعًا ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا وَكْزًا وَصَفْعًا ، فَإِذَا صِرْتَ إِلَيْهَا عَبَثَ أَكَّارُوهَا[5] بِكَ ، وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ ، فَمِنْ قَرْعَةٍ مُعْوَجَةٍ تُقَوِّمُ فِي قَفَاكَ ، وَمِنْ فُجْلَةٍ مُنْتِنَةٍ يُرْمَى بِهَا تَحْتَ خُصَاكَ ، ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ، لِتَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ :

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ   رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى[6]

---

(١) وهما مثلان يضربان في التحذير، وقد نظمهما الحارث بن وعلة اليشكري ، وقد قتل بعض سادات قومه أخاه فقال:

«أقتلت سادتنا بلا ترة   إلا لتوهن قوة العظم
ووطئتنا وطئا على حنق   وطء المقيد نابت الهرم
وزعمت أنا لا حلوم لنا   إن العصا قرعت لذي الحلم
لا تأمنن قوما ظلمتهم   وبدأتهم بالشرّ والغشم
إن يأبروا نخلا لغيرهم   والشيء تحقره وقد ينمي
الآن لما ابيض مسربتي   وعضضت من نابي على جذم
ترجو الأعادي أن أسالمها   جهلا توهم صاحب الحلم
قومي هم قتلوا أميم أخي   فإذا رميت يصيبني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جللا   ولئن أصبت لأوهنن عظمي.»

(٢) الجعجعة: صوت الرحى، والطحن : الدقيق، والصلف : قلة الخير والبركة، وسحاب صلف: أي قليل الماء كثير الرعد ، وهما مثلان يضربان لمن يتوعد من غير أن يفعل . (٣) هذا البيت لبشار بن برد ــ وبعده قوله :

«عسر النساء إلى مياسرة   والصعب يركب بعدما جمحا.»

(٤) الناحية : المروعة من البلد ، والوكز : ضرب الظهر مع الدفع أو الضرب بمجتمع اليد على الذقن

(٥) الأكارون : الزارعون. (٦) البيت للمتنبي ــ من قصيدة في ذم كافور الاخشيدي وهجائه ، ومنها قوله:

«وقد كنت أحسب قبل الخصـ   ـى أن الرؤوس محل النهى
فلما نظرت إلى عقله   وجدت النهى كلها في الخصى
وقد ضل قوم بأصنامهم   فأما بزق رياح فلا.»

الرسالة الجدية لابن زيدون (١)

« كتبها لابن جهور

يا مَوْلاَىَ وَسَيِّدِى الَّذِى وِدَادِى لَهُ ، وَاعْتِمَادِى عَلَيْهِ ، وَاعْتِدَادِى بِهِ ، وَامْتِدَادِى مِنْهُ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ مَاضِىَ حَدِّ الْعَزْمِ ، وَارِىَ زَنْدِ (٢) الْأَمَلِ ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ ، إِنْ سَلَبْتَنِي - أَعزَّكَ اللهُ - لِبَاسَ نَعْمَائِكَ ، وَعَطَّلْتَنِي مِنْ حُلَى إِينَاسِكَ ، وَأَظْمَأْتَنِي إِلَى بَرُودِ (٣) إِسْعَافِكَ ، وَنَفَضْتَ بِي كَفَّ حِيَاطَتِكَ ، وَغَضَضْتَ (٤) عَنِّي طَرْفَ (٥) حِمَايَتِكَ ، بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ ، وَسَمِعَ الْأَصَمُّ ثَنَائِي عَلَيْكَ (٦) ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِحْمَادِي إِلَيْكَ - فَلاَ غَرْوَ قَدْ يَغَصُّ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ الْمُسْتَشْفِيَ بِهِ ، وَيُؤْتَى الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ ، وَتَكُونُ مَنِيَّةُ الْمُتَمَنِّي فِي أُمْنِيَّتِهِ (٧) ، وَالْحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الْحَرِيصِ (٨) :

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الْفَتَى ... وَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الْحُسَّادِ

وَإِنِّي لَأَتَجَلَّدُ ، وَأُرِي الشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ (٩) ، فَأَقُولُ :

---

(١) ارجع إلى « ص ٤٩ » (٢) الزند : الزناد ، وورى الزند هو اقتداحه وخروج النار منه .

(٣) برود : بارد . (٤) غضضت : خفضت .

(٥) طرف : عين . (٦) يشير إلى قول المتنبي :

« أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم . »

(٧) فيما يؤمله ويتمناه .

(٨) الحين : الهلاك ، والجهد : الطاقة ، وهذا مثل من أمثال العرب مشهور . قال عدى بن زيد :

« قد يدرك المبطئ من حظه ... والحين قد يسبق جهد الحريص . »

(٩) يشير إلى قول أبي ذؤيب الهذلي :

« وتجلدى للشامتين أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع .

وقد تمثل به معاوية قبيل وفاته .

هلْ أنا إلا يدٌ أدماها سِوارُها (١)، وجَبينٌ عضَّ بهِ إكليلُهُ (٢)، ومَشْرَفِيٌّ (٣) ألصقَهُ بالأرضِ صاقِلُهُ، وسَمْهَرِيٌّ (٤) عرَضَهُ على النارِ مُثَقِّفُهُ، وعَبْدٌ ذَهَبَ بهِ سيِّدُهُ مَذْهَبَ الذي يقولُ:

« فقَسا ليَزْدَجِروا ومَنْ يَكُ حازِمًا   فلْيَقْسُ أحيانًا على مَنْ يَرْحَمُ (٥) »

هذا العَتْبُ محمودٌ عَواقِبُهُ، وهذهِ النَّبْوَةُ (٦) غَمْرَةٌ (٧) ثُمَّ تَنْجَلي، وهذهِ النَّكْبَةُ سَحابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَليلٍ تَقَشَّعُ (٨)، ولَنْ يَريبَني مِنْ سيِّدي أنْ أبطأَ سَيْبُهُ (٩)، أوْ تأخَّرَ - غيرَ ضَنينٍ - غَنَاؤُهُ (١٠)، فأبطأُ الدِّلاءِ فَيْضًا أملؤُها (١١)، وأثقَلُ السَّحائبِ مَشْيًا أحفَلُها (١٢)، وأنفعُ الحَيا ما صادَفَ (١٣) جَدْبًا، وألذُّ الشَّرابِ ما أصابَ غَليلًا (١٤)، ومعَ اليومِ غَدٌ، ولِكُلِّ أجَلٍ

---

(١) السوار: نوع من الحلي يلبس في الساعد، وقريب من هذا قول المتنبي:

« وكم — وما أثرت بهم — يد لم يدمها إلا السوار
لها — من قطاعه — ألم وعض، وفيها — من حلاله — افتخار. »

(٢) الأكليل: التاج.   (٣) المشرفي: السيف.

(٤) السمهري. الرمح.

(٥) البيت لأبي تمام، وقريب من هذا المعنى قول المعري:

« اضرب وليدك تأديبا على رشد   ولا تقل هو طفل غير محتلم
ورب شق برأس جر منفعة،   وقس على شق رأس السيف والقلم. »

(٦) النبوة: الجفوة.   (٧) الغمرة: الشدة. قال الشاعر:

« وما هي إلا غمرة ثم تنجلي   سريعا وإلا سوءة تتصرم. »

(٨) مثل عربي: يشير إلى أن العسر سيتبعه اليسر بعد قليل.

(٩) سيبه: جوده أو عطاؤه.   (١٠) غناؤه: خيره أو نفعه.

(١١) مثل عربي، يقولون: « لعل أبطأ الدلاء أملؤها » وقد استشهد به الحريري في إحدى مقاماته، ومعناه إن أبطأ الدلاء في الصعود هي الدلاء الممتلئة بالماء.

(١٢) أحفلها: أكثرها ماء.

(١٣) الحيا: الغيث أو المطر.

(١٤) الغليل: شدة العطش.

كِتَابٌ ، لَهُ الحَمْدُ عَلَى اُهتِبَالِهِ (١) ، وَلاَ عَتْبَ عَلَيْهِ فِى إِغْفَالِهِ (٢) :

« فَإِنْ يَكُنِ الفِعْلُ ـ الَّذِى سَاءَ ـ وَاحِداً ، فَأَفْعَالُهُ ـ اللاَّتِى سَرَرْنَ ـ أُلُوفُ . »

***

وَأَعُودُ فَأَقُولُ :

« مَا هٰذَا الذَّنْبُ الَّذِى لَمْ يَسَعْهُ عَفْوُكَ ، وَالجَهْلُ الَّذِى لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ ، وَالتَّطَاوُلُ (٣) الَّذِى لَمْ يَسْتَغْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ ، وَالتَّحَامُلُ الَّذِى لَمْ يَفِ بِهِ اُحْتِمَالُكَ ، وَلاَ أَخْلُو مِنْ أَنْ أَكُونَ بَرِيئاً ، فَأَيْنَ العَدْلُ ؟ أَوْ مُسِيئاً ، فَأَيْنَ الفَضْلُ ؟ »

إِلاَّ يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِى ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ (٤)

حَنَانَيْكَ (٥) قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى (٦) ، وَنَالَنِى مَا حَسْبِى بِهِ وَكَفَى ، وَمَا أُرَانِى إِلاَّ أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ (٧) فَأَبَيْتُ وَاُسْتَكْبَرْتُ ، وَقَالَ لِى نُوحٌ (٨) : « اُرْكَبْ مَعَنَا » فَقُلْتُ : « سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ المَاءِ » وَأُمِرْتُ

---

(١) اهتباله : اغتنامه .

(٢) اغفاله : تغاضيه وتغافله .

(٣) التطاول : التكبر ، والتطول : التفضل ، والتحامل : التكليف بما لا يطاق ، والاحتمال : هو القدرة على الحمل .

(٤) البيت الأول للبحترى ، والثانى مأخوذ من قول الشاعر :

« هبنى ظلوماً ملتـــه بمساءة فصاصاً وأين الأحدياء عن بالفضل ؟ . »

(٥) حنانيك : رحمتك وهو مثنى كلمة حنان .

(٦) الزبى : جمع زبية وهى الحفرة فى مكان مرتفع لا يعلوه الماء تحفر لصيد الأسد ، فاذا وصل اليها السيل كان سيلا عظيما لاعهد للناس به ، وهو مثل يضرب للشىء يربى على غايته .

(٧) يشير الى استكبار ابليس عن السجود لآدم حين أمره الله بذلك فعصاه وحقت عليه اللعنة ، ففضل نفسه عليه لأنه من نار وآدم من طين ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فى قوله تعالى : « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

(٨) يشير الى قصة نوح حين فاض الطوفان ، وركب السفينة هو ومن معه وخالفه ابنه وعصاه فهلك ، وقد أشار الكتاب الكريم الى ذلك فى قول نوح : « يا بنىّ اركب معنا ولا تكن من الكافرين » وقول ابنه : « سآوى الى جبل يعصمنى من الماء » .

بِبِنَاءِ الصَّرْحِ [١] لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى ، وَعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ [٢] ، وَاعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ [٣] ، وَتَعَاطَيْتُ [٤] فَعَقَرْتُ [٥] ، وَشَرِبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ جُيُوشُ « طَالُوتَ » [٦] ، وَقُدْتُ الْفِيلَ لِأَبْرَهَةَ [٧] ، وَعَاهَدْتُ قُرَيْشًا عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ [٨] ، وَتَأَوَّلْتُ فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ [٩] ، وَنَفَرْتُ إِلَى الْعِيرِ بِبَدْرٍ ، وَانْخَذَلْتُ بِثُلُثِ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ [١٠] ، وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي

---

(١) الصرح : القصر — يشير إلى قصة فرعون وهي مذكورة في الكتاب الكريم حين قال : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً » .

(٢) يشير الى عجل بني إسرائيل الذي عبدوه .

(٣) يشير الى قصة بني إسرائيل حين نهوا عن الصيد في يوم السبت فخالفوا ما نهوا عنه، فحق بهم العذاب

(٤) تعاطيت : أي قمت على أطراف أصابع رجلي ورفعت يدي وضربت .

(٥) عقرت : قتلت يقال عقر البعير بالسيف أي ضرب قوائمه به وهو يشير بذلك إلى ناقة صالح ومن عقرها ، وإلى الآية الكريمة: « فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها»

(٦) يشير الى الذنب الذي اقترفه جيش « طالوت » عليه السلام ، وإلى الآية : « إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني إلا من اغترف غرفة بيده » ولكن أكثرهم خالفه وشرب منه فوقعوا في الاثم ، قال أبو العلاء :

« سقيا لدجلة والدنيا مفرقة حتى يعود اجتماع النجم تشتيتا
وبعدها لا أريد الشرب من نهر كأنما أنا من أصحاب طالوتا»

(٧) يشير إلى قصة أبرهة عامل اليمن من قبل النجاشي حين ذهب لهدم الكعبة ومعه الفيلة لغضبه عليها إذ بنى كنيسة في صنعاء اليمن ليحجّ إليها الناس بدل الكعبة فلم يعبأوا بها وتغوط رجل فيها وأحرقها بعض تجار اليمن ، وغضب النجاشي من ذلك ، وأمر أبرهة عامل اليمن بهدمها والقصة مذكورة في الكتاب الكريم « ألم تر إلى ربك كيف فعل بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول . » وقد أشار المعري إلى هذه القصة في لزومياته بقوله :

« حديث جاء عن قابيـ ل — في الدهر — وهابيلا
وطير عكفت يوماً على الجيش أبابيـلا
متى نرحل عن دنيا تزيد العقل تخبيلا . »

(٨) يشير إلى الصحيفة التي كتبتها قريش وعلقوها في الكعبة يقررون فيها مقاطعة النبيّ — صلى الله عليه وسلم — ومحاربة الاسلام بعد أن رأوا إسلام عمر وحمزة الذي اعتزّ بهما الدين .

(٩) نقض بيعة العقبة : مخالفة الاجماع والشذوذ عن جهة الصواب .

(١٠) يشير الى واقعة « أحد » حين انخذل ابن سلول هو ومن معه من المنافقين ورجعوا بثلث الجيش .

بَنِي قُرَيْظَةَ (١) ، وَجِئْتُ بِالإِفْكِ (٢) عَلَى عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ ، وَأَنِفْتُ مِنْ إِمَارَةِ أُسَامَةَ (٣) ، وَزَعَمْتُ أَنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ (٤) كَانَتْ فَلْتَةً ، وَرَوَّيْتُ رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ (٥) ، وَمَزَّقْتُ الأَدِيمَ (٦) الَّذِي بَارَكَتْ يَدُ اللهِ عَلَيْهِ ، وَضَحَّيْتُ بِالأَشْمَطِ (٧) الَّذِي عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامِ (٨) .

« ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْداً وَقَيْنَةً   وَضَرْبَ عَلِيٍّ بِالْحُسَامِ الْمُسَمَّمِ »

---

(١) بنو قريظة : طائفة من اليهود وقد أمر النبيّ — صلى الله عليه وسلم — أصحابه بعد عودته من غزوة الخندق أن يصلوا العصر فى بنى قريظة يعنى بذلك أن يسرعوا فى الذهاب إليهم .

(٢) يشير إلى جريمة مسطح وحسان فى حادثة الافك ، وهى اتهام عائشة زوج النبيّ — صلى الله عليه وسلم — حين كانت عائدة من غزوة بنى المصطلق ونزلت من الهودج لقضاء حاجتها وسار أصحاب الرسول — صلى الله عليه وسلم — من غير أن يتفقدوا عائشة ، وكانت قد تخلفت عن الركب ، ومرّ بها صفوان وكان متخلفاً عن الركب فأركبها على جمله ، ولما وصلا أشاع أعوان السوء عنها ماأشاعوه ، ثم برأها القرآن ، وأظهر طهارتها ، وألجم أهل الافك والبهتان .

(٣) يشير الى تولية النبيّ — صلى الله عليه وسلم — أسامة بن حارثة قيادة الجيش الذى ذهب إلى الشام وإلى تعالى بعض المهاجرين ، وأنفتهم من إمارته ، وغضب الرسول — صلى الله عليه وسلم — عليهم وتقريعه إياهم ، وصعوده المنبر وهو عاصب رأسه لمرضه .

(٤) يشير الى رأى الشيعة فى أن علىّ بن أبى طالب كان أجدر بالخلافة من أبى بكر وعمر ، وأن أبا بكر قد اختلسها لنفسه اختلاساً .

(٥) يشير الى فتك أبى شجرة السلمى فى بعض حروب الرّدّة بجيش خالد بن الوليد .

(٦) يشير إلى أديم «عمر» أى جلده الذى مزّقه أبو لؤلؤة المجوسى حين قتله ، ويشير الى قول الشاعر فى رثائه :

«جزى الله خيراً من إمام ، وباركت   يد الله فى ذاك الأديم الممزّق .»

(٧) يعنى بالأشمط : عثمان بن عفان ، وهو يشير إلى قول حسان بن ثابت فى رثائه :

«ضحوا بأشمط ، عنوان السجود به،   يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا .»

(٨) قطام : اسم امرأة أغرت عبد الرحمن بن ملجم بقتل علىّ وفرضته مهراً لها ، فأجابها إلى ماطلبت ، وإلى هذا البيت قوله :

«فلا مهر أغلى من علىّ — وإن علا —   ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم »

وقد أشار البحترى إلى ذلك أبدع إشارة حين قال :

« ولا عجب للأسد إن ظفرت بها   كلاب الأعادى من فصيح وأعجم

فحربة وحشى سقت حمزة الردى ،   وموت علىّ من حسام ابن ملجم .»

وَكَتَبْت إِلَى عَمْرِو بْنِ سَعْدٍ : « أَنْ جَعْجِـعْ[1] بِالْحُسَيْنِ » وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَ مَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ[2] :

« لَيْتَ أَشْيَاخِي ـ بِبَدْرٍ ـ عَلِمُوا   جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلْ »

وَرَجَمْتُ الْـكَعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِذَ عَلَى الثَّنِيَّةِ[3] ، لَـكَانَ ـ فِيمَا جَرَى عَلَيَّ ـ مَا يَحْتَمِلُ أَنْ يسَمَّى نَـكَالاً ، وَيُدْعَى ـ وَلَوْ عَلَى الْمَجَازِ ـ عِقَاباً .

« وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِامْرِئٍ   تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا ! »

***

فَـكَيْفَ وَلاَ ذَنْبَ إِلاَّ نَمِيمَةٌ أَهْدَاهَا كَاشِحٌ[4] ، وَنَبَأٌ جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ .

وَهُمُ الْهَمَّازُونَ الْمَشَّاءُونَ[5] بِنَمِيمٍ ، وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لاَ يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا الْعَصَا ، وَالْغُوَاةُ[6] الَّذِينَ لاَ يَتْرُكُونَ أَدِيماً[7] صَحِيحاً ، وَالسُّعَاةُ[8] الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ : « مَاظَنُّكَ بِقَوْمٍ ، الصِّدْقُ مَحْمُودٌ إِلاَّ مِنْهُمْ »

« حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ،   وَلَيْسَ ـ وَرَاءَ اللهِ ـ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ »

وَاللهِ ، مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلاَ انْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاغِيَةِ[9] ، وَلاَ نَصَبْتُ لَكَ[10] بَعْدَ التَّشَيُّعِ ، وَلاَ أَزْمَعْتُ يَأْساً مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ تَـكَفَّلْتَ بِهِ

---

(١) يشير إلى تحريض عبيد الله بن زياد على قتل الحسين حين أرسل عمر بن سعد لقتاله وأعقبه شمر وأمر عبيد الله عمرو بن سعد أن يجعجع بالحسين أى يضيق عليه الخناق .

(٢) وقعة الحرّة ـ يشير إلى مافعله يزيد بن معاوية حين أرسل عقبة بن مسلم لمحاربة أهل المدينة وإباحتها ثلاثة أيام ، ولما تمّ ليزيد ذلك تمثل بقول ابن الزبعرى : « ليت أشياخى . . . . الخ . »

(٣) يشير إلى رجم الحجاج الكعبة بالمنجنيق وصلبه عبد الله بن الزبير وهو يسميه بالعائذ أى الملتجئ ، والثنية : طريق العقبة .   (٤) الكاشح : العدوّ .

(٥) الهمازون : الذين يكثرون الهمز وهو الغيبة ، والمشاءون : الذين يكثرون السعى بين الناس بالنميمة .

(٦) الغواة : جمع غاو وهو الضال .   (٧) الأديم الجلد .

(٨) السعاة : الذين يسعون بين الناس بالفساد .   (٩) الصاغية : صاغية الرجل خاصته الذين يصغون إليه ويغشون مجلسه .   (١٠) ولا نصبت لك : عاديتك

الثِّقَةُ عَنْكَ ، وَعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ . فَفِيمَ عَبَثَ الْجَفَاءُ بِأَذِمَّتِي[١] ، وَعَاثَ الْعُقُوقُ فِي مَوَاتَاتِي ، وَتَمَكَّنَ الضَّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ وَلِمَ ضَاقَتْ مَذَاهِبِي ، وَأَكْدَتْ مَطَالِبِي ؟ وَعَلَامَ رَضِيتُ مِنَ الْمَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ . بَلْ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ[٢] ؟ وَبِأَنْ غَلَبَنِي الْمُغَلَّبُ[٣] ، وَفَخَرَ عَلَيَّ الْعَاجِزُ الضَّعِيفُ ، وَلَطَمَتْنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ[٤] ؟ وَمَا لَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وَتُدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقْ[٥] ؟ أَمْ كَيْفَ لَا تَتَضَرَّمُ جَوَانِحُ الْأَكْفَاءِ[٦] حَسَدًا لِي عَلَى الْخُصُوصِ بِكَ ؟ وَتَتَقَطَّعُ أَنْفَاسُ النُّظَرَاءِ مُنَافَسَةً فِي الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ وَقَدْ زَانَنِي قَدِيمُ خِدْمَتِكَ ، وَزَهَانِي وَسْمُ نِعْمَتِكَ ، وَأَبْلَيْتُ الْبَلَاءَ الْجَمِيلَ فِي سِمَاطِكَ[٧] ، وَقُمْتُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ عَلَى بِسَاطِكَ ؟

« أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ غُرَّ قَصَائِدٍ هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا
ثَنَاءٌ يَظَلُّ الرَّوْضُ مِنْهُ مُنَوَّرًا ضُحًا ، وَيُخَالُ الْوَشْيُ فِيهِ مُنَمْنَمَا »

---

(١) الأذمة : العهود والحرمات . (٢) رضيت من الغنيمة بالإياب : مثل يضرب في القناعة بالسلامة قال امرؤ القيس :

« لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب . »

(٣) المغلب : أي الضعيف . قال الشاعر :

« فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب . »

(٤) في المثل « لو ذات سوار لطمتني » ، يشير إلى ضعف المعتدي وحقارته والعادة أن السوار لا تلبسه إلا الحرة . قال الشاعر :

« بلاء ليس يعدله بلاء عداوة غير ذي حسب ودين
يبيحك منه عرضاً لم يصنه ويرتع منك في عرض مصون . »

وقال المعري : « خف يا كريم على عرض تعرضه لعائب ، فلئيم لا يقاس بكا
إن الزجاجة لما حطمت سبكت وكم تحطم من در فما سبكا . »

(٥) وتدركني ولما أمزق : يشير إلى قول الممزق العبدي ، وقد استشهد به عثمان بن عفان في كتابه إلى علي :

« فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلي وإلا فأدركني ولما أمزق . »

(٦) الأكفاء : جمع كفء ، وهو الند أي المثيل .

(٧) السماط : الصف ، وقد مر بك قول ابن زيدون في ص « ١٤٤ »

« إذا ما استوى في الدست عاقد حبوة ، وقام سماطا حفله فلي الصدر

أي صفا حفله » .

وَهَلْ لَبِسَ الصَّبَاحُ إِلاَّ بُرْدًا طَرَّزْتَهُ بِفَضَائِلِكَ ، وَتَقَلَّدَتِ الْجَوْزَاءُ إِلاَّ عِقْدًا فَصَّلْتَهُ بِمَآثِرِكَ ، وَاسْتَمْلَى الرَّبِيعُ إِلاَّ ثَنَاءً مَلأْتَهُ بِمَحَاسِنِكَ ، وَبَثَّ[1] الْمِسْكُ إِلاَّ حَدِيثًا أَذَعْتَهُ فِي مَحَامِدِكَ ؟ مَا يَوْمُ «حَلِيمَةَ» بِسِرٍّ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَكُنْ سَلِيبًا[2] ، وَلاَحَلَّيْتُكَ عُطْلاً[3] ، وَلاَوَسَمْتُكَ غُفْلاً ، بَلْ وَجَدْتُ آجُرًّا وَجِصًّا[4] فَبَنَيْتُ ، وَمَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ ، حَاشَ لَكَ أَنْ أُعَدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ[5] وَأَكُونَ كَالذُّبَالَةِ[6] الْمَنْصُوبَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتَحْتَرِقُ ، فَلَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ — بِكَ وَبِي — فِيكَ أَوْلَى ، وَلَعَمْرِي إِنَّ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ[7] إِذَا بَلَغَتْنِي الشَّمْسُ وَنَبَا بِيَ الْمَنْزِلُ ، وَأَصْفَحَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تَقْطَعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ .

فَلاَ أَسْتَوْطِنُ الْعَجْزَ ، وَلاَ أَطْمَئِنُّ إِلَى الْغُرُورِ . وَمِنَ الْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ : «خَامِرِي أُمَّ عَامِرٍ[8]» وَإِنِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ أَنَّ الْجَلاَءَ[9] سِبَاءٌ[10] وَالنُّقْلَةَ مُثْلَةٌ[11] :

(١) بثّ : نشر ، وقوله « مايوم حليمة بسر » مثل يضرب في كل أمر متعالم مشهور ، وأصله أن الحارث بن أبي شمر وجه جيشاً إلى المنذر بن ماء السماء في الغزوة التي قتل فيها ، وأمر ابنته حليمة فأخرجت لهم مركناً فيه خلوق أي طيب ، فقال خلقيهم فخرجت إليهم ، فجعلت تخلقهم وهي من أجمل نساء عصرها ، ومضى القوم حتى أتوا المنذر ، فقالوا أتيناك من عند صاحبنا وهو يدين لك بالطاعة ويعطيك حاجتك ، فتباشر المنذر بذلك ، وغفل المنذر وعسكره بعض الغفلة فحملوا عليه فقتلوه ، وكان الحارث قد أوصاهم بذلك قبل أن يوجههم إليه ، فقيل : مايوم حليمة بسر فذهبت مثلا .

(٢) السليب : المسلوب (٣) العطل : العاطل . قال الطغرائي :

« أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل . »

(٤) الآجر : الطين ، والجص : الجير . وقد تناول الكتاب والشعراء هذا المعنى ، ولكنا لم نقرأ أبدع من قول أمير الشعراء في قصة قبير على لسان وصيفة ملكة فارس :

« إني وضعت ذهباً في بوتقه ولم أصف — بالطيب — إلا زنبقه
وقلت عن شمس النهار : مشرقه . »

(٥) يشير إلى قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية . »

(٦) يشير إلى قول عباس بن الأحنف :

« صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق . »

(٧) في المثل « إذا بلغتك الشمس فتحول » (٨) خامري أم عامر : مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلباتها ولم تمنعه معرفته أن يميل إليها ويغتر بها . قال البهاء زهير :

« خدعوك بالقول المحال فصح أنك أم عامر . »

(٩) الجلاء : النزوح عن الوطن . (١٠) السباء : الأسر . (١١) والمثلة : النكال .

«وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجَرًّا وَمَسْحَبَا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ، وَإِنْ يُسِئْ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارَ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا[1]»

عَارِفٌ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَطَنُ لَا يُخْشَى فِرَاقُهُ، وَالْخَلِيطُ لَا يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ[2]، وَالنَّسِيبُ لَا يُجْفَى، وَالْجَمَالُ لَا يَخْفَى، ثُمَّ مَا قِرَانُ السَّعْدِ بِالْكَوَاكِبِ أَبْهَى أَثَرًا، وَلَا أَسْنَى خَطَرًا، مِنَ اقْتِرَانِ غِنَى النَّفْسِ بِهِ، وَانْتِظَامِهَا نَسَقًا[3] مَعَهُ، فَإِنَّ الْحَائِزَ لَهُمَا، الضَّارِبَ بِسَهْمٍ فِيهِمَا — وَقَلِيلٌ مَا هُمْ — أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَدَ مَنْهَلَ بِرٍّ، وَحَطَّ فِي جَنَابِ قَبُولٍ، وَضُوحِكَ قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ، وَأُعْطِيَ حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ.

وَقِيلَ لَهُ: «أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلُ»

غَيْرَ أَنَّ الْوَطَنَ مَحْبُوبٌ، وَالْمَنْشَأَ مَأْلُوفٌ، وَاللَّبِيبُ يَحِنُّ إِلَى وَطَنِهِ، حَنِينَ النَّجِيبِ[4] إِلَى عَطَنِهِ[5]، وَالْكَرِيمُ لَا يَجْفُو أَرْضًا فِيهَا قَوَابِلُهُ[6]، وَلَا يَنْسَى بَلَدًا فِيهَا مَرَاضِعُهُ، قَالَ الْأَوَّلُ:

« أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعِجٍ — إِلَيَّ وَسَلْمَى — أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي[7] وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا»

هَذَا إِلَى مُغَالَاتِي بِعَقْدِ جِوَارِكَ، وَمُنَافَسَتِي بِلَحْظَةٍ مِنْ قُرْبِكَ، وَاعْتِقَادِي

---

(١) كبكب : الجبل . (٢) الزيال : المفارقة .

(٣) النسق : ما كان على نظام واحد . (٤) النجيب : الفحل الكريم من الابل .

(٥) العطن : مبرك الابل حول الماء .

(٦) القوابل : جمع قابلة وهى التى تتلقى المولود عند خروجه (الداية) .

(٧) وفى رواية : « عق الباب . » وفى أخرى : « شق الشباب » وفى رواية الـسام : « نيطت على تمائمى » والتمائم : ما يعلق للطفل ليقيه شر الحسد . قال الشاعر :

« وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

أَنَّ الطَّمَعَ - فى غَيْرِكَ - طَبَعٌ ، وَالْغِنَى - مِنْ سِوَاكَ - عَنَاءٌ ، وَالْبَدَلَ مِنْكَ أَعْوَرُ ، وَالْعِوَضَ لَفَاءٌ (١) :

« وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِى زَادَنِى ... ضَنًّا بِهِ نَظَرِى إِلَى الْأُمَرَاءِ »

وَكُلُّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الْفَرَا (٢) ، وَفِى كُلِّ شَجَرَةٍ نَارٌ ، وَاسْتَمْجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ (٣) ، فَمَا هٰذِهِ الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ يَتَوَلَّاكَ ، وَالْمَيْلُ عَمَّنْ لَا يَمِيلُ عَنْكَ ، وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فِيكَ ، وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ :

« يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ ... وِجْدَانُنَا كُلَّ شَىْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ »

أُعِيذُكَ وَنَفْسِى مِنْ أَنْ أَشِيمَ (٤) خُلَّبًا (٥) ، وَأَسْتَمْطِرَ جَهَامًا (٦) ، وَأَكْدِمَ (٧) فى غَيْرِ مَكْدَمٍ ، وَأَشْكُوَ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعُقْبَانِ (٨) وَالرَّخَمِ ، فَمَا أَبْسَسْتُ (٩) لَكَ إِلَّا لِتَدِرَّ ، وَمَا حَرَّكْتُ لَكَ الْحُوَارَ (١٠) إِلَّا لِتَحِنَّ ، وَمَا نَبَّهْتُكَ إِلَّا لِأَنَامَ (١١) ، وَمَا سَرَيْتُ إِلَيْكَ ، إِلَّا لِأَحْمَدَ السُّرَى (١٢) لَدَيْكَ . وَإِنَّكَ

---

(١) لفاء : خسيس . قال الشاعر :

« وما أنا بالضعيف فتظلمونى ... ولا حظى اللفاء ولا الخسيس »

(٢) كل الصيد فى جوف الفرا : انظر « ص »

(٣) المرخ والعفار : نوعان من الشجر سريعا الاتقاد ، وقريب من هذا قول المعرى :

« وأبصرت فيك المحل والمحل مثمر ... وأجنى من حلك الطلح والضال . »

(٤) أشيم : أراقب السحاب لأرى أين يمطر . (٥) الخلب : البرق الذى لا يصحبه غيث .

(٦) الجهام : السحاب الذى لا ماء فيه .

(٧) أكدم : أعض - والمثل العربى : « كدمت فى غير مكدم » - وهو يضرب لمن يريد الشىء من غير أهله . (٨) يشير إلى قول المتنبى :

« ولا تشك إلى قوم فتشمتهم ... شكوى الجريح إلى العقبان والرخم . »

(٩) أبسست : رفقت من الرفق . (١٠) الحوار : ولد الناقة . (١١) يشير إلى قول بشار بن برد :

« إذا أيقظتك حروب العدا ... فنبه لها عمراً ، ثم نم

فتى لا ينام على غرة ... ولا يشرب الماء إلا بدم . »

(١٢) يشير إلى المثل المشهور : « عند الصباح يحمد القوم السرى » يشير إلى قرب الفرج بعد الضيق .

إنْ سَنيْتَ [١] عَقْدَ أمْرِى تَيَسَّرَ ، وَمَتَى أعْذَرْتَ [٢] فى فَكِّ أسْرِى لَمْ يَتَعَذَّرْ ، وَعِلْمُكَ مُحِيط بِأنَّ المَعْرُوفَ ثَمَرَةُ النِّعْمَةِ ، وَالشَّفَاعَةَ زَكَاةُ المُرُوءَةِ ، وَفَضْلَ الجاهِ ـ تَعُودُ بِهِ ـ صَدَقَةٌ :

« وَإذَا امْرُؤٌ أهْدَى إلَيْكَ صَنِيعَةً ـ مِنْ جَاهِهِ ـ فَكَأنَّهَا مِنْ مَالِهِ [٣] »

لَعَلِّى أُلْقِى العَصَا بِذَرَاكَ [٤] ، وَتَسْتَقِرُّ بِىَ النَّوَى فِى ظِلِّكَ ، وَأسْتَأْنِفُ التَّأدُّبَ بِأدَبِكَ ، وَالاحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ ، فَلاَ أُوجِدَ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لَحْظَةٍ [٥] ، وَلاَ أدَعَ لِلْقَادِحِ مَسَاغَ لَفْظَةٍ ، وَاللهُ مُبَشِّرُكَ مِنْ إطْلاَبِى بِهٰذِهِ الطَّلِبَةِ [٦] ، وَإشْكَائِى [٧] مِنْ هٰذِهِ الشَّكْوَى ، بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ المَصْنَعِ ، وَتَسْتَوْدِعُهَا أحْفَظَ مُسْتَوْدَعٍ ، حَسْبَمَا أنْتَ خَلِيقٌ لَهُ ، وَأنَا مِنْكَ حَرِىٌّ بِهِ ، وَذٰلِكَ بِيَدِهِ وَهَيِّنٌ عَلَيْهِ .

⁂

وَلَمَّا تَوَالَتْ عِذَرُ هذَا النَّثْرِ ، وَاتَّسَقَتْ دُرَرُهُ ، فَهَزَّ عِطْفَ غُلَوَائِهِ ، وَجَرَّ ذَيْلَ خُيَلاَئِهِ ، عَارَضَهُ النَّظْمُ مُبَاهِيًا ، بَلْ كَايَدَهُ مُدَاهِيًا ، حِينَ أشْفَقَ أنْ يَسْتَعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُهُ ، وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ ألْطَافُهُ [٨] : فَاسْتَحْسَنَ العَائِدَةَ [٩] مِنْهُ ، وَاعْتَدَّ بِالفَائِدَةِ لَه ، فَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذِّهْنَ العَلِيلَ ، وَالخَاطِرَ الكَلِيلَ ، حَتَّى زَفَّ إلَيْكَ عَرُوسًا مَجْلُوَّةً ، فِى أثْوَابِهَا ، مَنْصُوصَةً [١٠] ، بِحَلْيِهَا وَمَلاَبِهَا [١١] :

---

(١) سنيت : يسرت وسهلت .
(٢) أعذرت : طلبت العذر .
(٣) البيت لأبى تمام . (٤) ذراك : كنفك وظلك .
(٥) لحظه : نظره .
(٦) الطلبة : المطلوب . (٧) إشكائى : إزالة شكواى .
(٨) ألطافه : خيره وبره .
(٩) العائدة : الجميل أو الصنيع .
(١٠) منصوصة : مرفوعة على المنصة ليلة الزفاف . (١١) الملاب : الزعفران .

فالهوى فى طُلُوعِ تلكَ النجومِ ... والمُنَى فى هُبُوبِ ذاكَ النسيمِ (١)
سَرَّنا عيشُنا الرقيقُ الحواشِي ... لو يدومُ السرورُ للمستديمِ
وطرٌ ما انقضَى إلى أنْ تقضَّى ... زمنٌ، ما ذمامُهُ بالذميمِ
إذْ ختامُ الرضا المسوَّغِ مسكٌ ... ومزاجُ الوصالِ منْ تسنيمِ
وغريضُ الدلالِ غضٌّ جنَى الصبـ ... ـوةِ، نشوانُ منْ سُلافِ النعيمِ
طالما نافرَ الهوى – منهُ – غِرٌّ ... لمْ يطُلْ عهدُ جيدِهِ بالتميمِ

***

أيها المؤذِنِي بظُلْمِ الليالِي ... ليسَ يومِي بواحدٍ منْ ظَلُومِ
قمرُ الأفقِ – إنْ تأمَّلْتَ – والشمسُ هُمَا يُكسفانِ دونَ النجومِ
وهوَ الدهرُ ليسَ ينفكُّ ينحُو ... – بالمصابِ العظيمِ – نحوَ العظيمِ

***

بوَّأَ اللهُ «جَهْوَراً» شرفَ السؤْ ... دَدِ فى السروِ واللُّبابِ الصميمِ
واحدٌ سلَّمَ الجميعُ لهُ الأمـ ... ـرَ، فكانَ الخصوصُ وفقَ العمومِ
قلَّدَ العُمْرُ ذا التجاربِ فيهِ، ... واكتفَى جاهلٌ بعلمِ العليمِ
خطَرٌ يقتضِى الكمالَ، بنوعَىْ ... خُلُقٍ بارعٍ وخَلْقٍ وسيمِ

***

أيها ذا الوزيرُ: ها أنا أشكُو، ... والعصا بدْءُ قرْعِها للحليمِ
ما عنانا أنْ يأنفَ السابقُ المرْ ... بطَ فى العتقِ منهُ والتطهيمِ
وبقاءُ الحسامِ – فى الجفنِ – يُثنِى ... منهُ بعدَ المضاءِ والتصميمِ

(١) انظر شرح هذه القصيدة فى «ص ٥٠» من هذا الديوان

أفصَبْرٌ مِئِينَ خَمْساً مِنَ الأَيَّا ... مِ ؟ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمِ !
وَمُعَنًّى — مِنَ الضَّنَى — بِهَنَاتٍ ... نَكَأَتْ بِالكُلُومِ قَرْحَ الكُلُومِ
سَقَمٌ لاَ أُعَادُ فِيهِ، وَفِي العَا ... ئِدِ أُنْسٌ يَفِي بِبُرْءِ السَّقِيمِ
نَارُ بَغْيٍ، سَرَى — إِلَى جَنَّةِ الأَمْـ ... ـنِ لَظَاهَا، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ
بِأَبِي أَنْتَ — إِنْ تَشَأْ — تَكُ بَرْداً ... وَسَلاَمًا، كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ
لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءُ، وَالحَمْدُ — فِي صَوْ ... بِ الحَيَا — لِلرِّيَاحِ، لاَ لِلغُيُومِ
وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذَلِّلَ — لِي الصَّعْـ ... ـبَ — مَثَابِي إِلَى الهُمَامِ الزَّعِيمِ
وَوِدَادٌ — يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَا ... ءَ — وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الكَرِيمِ
وَثَنَاءٌ أَرْسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظَّا ... عِنِ عَنْ شَوْقِهِ، وَلَهْوَ المُقِيمِ
فَهْوَ رَيْحَانَةُ الجَلِيسِ — وَلاَ فَخْـ ... ـرَ — وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ
لَمْ يَزَلْ مُغْضِياً — عَلَى هَفْوَةِ الجَا ... نِي — مُصِيخاً إِلَى اعْتِذَارِ الكَرِيمِ
وَمَتَى تَبْدَإِ الصَّنِيعَةَ يُولِعْـ ... ـكَ تَمَامُ الخِصَالِ بِالتَّتْمِيمِ

وَقَالَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ :

« لَيْسَ دَهْرِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظَلُومِ ... وَبَلاَءٌ مِنْ حَادِثٍ وَقَدِيمِ
لَيْسَ يُسْتَنْكَرُ النُّحُولُ لِمِثْلِي، ... جَسَدِي مُبْتَلًى بِقَلْبٍ مَشُومِ . »

* * *

ها كَهَا — أَعَزَّكَ اللهُ — يَبْسُطُهَا الأَمَلُ، وَيَقْبِضُهَا الخَجَلُ، لَهَا ذَنْبُ التَّقْصِيرِ، وَحرْمَةُ الإِخْلاَصِ، فَهَبْ ذَنْباً لِحُرْمَةٍ، وَاشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ، لِيَتَأَتَّى لَكَ الإِحْسَانُ مِنْ جِهَاتِهِ، وَتَسْلُكَ إِلَى الفَضْلِ مِنْ طُرُقَاتِهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

إلى المظفـــر (١)

« وكتب إلى المظفر سيف الدولة أبى بكر بن الأفطس ، صاحب بطليوس ، وضمنها قصيدة أوّلها .

لبيض الطلى ، ولسود اللمم
بعقلى — مذ بن عنى — لمم »

لَمَّا لَبِسَ الحَاجِبُ — أعَزَّهُ اللهُ — رِدَاءَ المَجْدِ مُعْلَمًا ، وَحَمَلَ لِوَاءَ الحَمْد

---

(١) كان المظفر من أعظم ملوك الطوائف . وكان أحرص الناس — كما يقولون — على جمع علوم الأدب ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، وقد ألف كتاباً كبيراً — فى الأدب — فى عشرة أجزاء ضخمة ، وقد ولى « بطليوس » بعد موت أبيه « عبد الله بن مسلمة » المعروف بابن الأفطس وقد استبد « عبد الله » هذا بالملك سنة ٤٣١ هـ — بعد فتنة بنى أمية بالأندلس — فلما مات أعقبه ابنه « أبو بكر المظفر » وصفا أمره وبه شأنه ، ومازال بها حتى مات سنة ٤٦١ هـ . وخلفه عليها ابنه المتوكل حتى قتله يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٥ هـ وقد كان ابن عباد يغريه بقتله — فيما يقولون — وكان المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، وقد رثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة ، وهى :

« الدهر يفجع — بعد العين — بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب — وإن أبدى مسالمة — والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس — تأخذه يد الضراب — وبين الصارم الذكر
فلا تغرّنك — من دنياك — نومتها ، فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالى — أقال الله عثرتنا من الليالى ، وخانتها يد الغير —
فى كلّ حين لها — فى كل جارحة منا — جراح ، وإن زاغت عن النظر
تسرّ بالشىء ، لكن كى تغر به كالايم ثار إلى الجانى من الزهر
كم دولة — قدمضت والنصر يخدمها — لم تبق منها ، وسل ذكراك من خبر
هوت بدارا ، وفلت غرب قاتله ، وكان عضباً — على الأملاك — ذا أثر
واسترجعت — من بنى ساسان — ماوهبت ، ولم تدع — لبنى يونان — من أثر
وأتبعت أختها طسما ، وعاد على عاد وجرهم منها ناقض المرر
وما أقالت ذوى الهات — من يمن — ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
ومزقت سبأ — فى كلّ قاصية — ، فما التقى رائح منهم بمبتكر
وأنفذت — فى كليب — حكمها ، ورمت مهلهلا بين سمع الأرض والبصر

مُعْلَنًا ، فَاسْتَطَارَ بَارِقُ فَخْرِهِ ، وَاسْتَضَاءَ فَائِحُ ذِكْرِهِ ، وَشُهِرَتْ مَحَاسِنُهُ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ ، وَسَارَتْ مَآثِرُهُ مَسِيرَ الشَّمْسِ بِكُلِّ مَكَانٍ ، لِمَا سَوَّغَ مِنْ كَرَمِهِ ،

ولم ترد — على الضليل — صحته … ولا ثنت أسداً عن ربها حجر

ودوخت آل ذبيان وإخوتهم … عبساً ، وعضت بنى بدر على النهر

وألحقت بعدى — بالعراق — على … يد ابنه أحمر العينين والشعر

وأهلكت «أبرويزا» بابنه ، ورمت … بيزد جرد إلى « مرو » فلم يحر

وبلغت «يزد جرد» الصين واختزلت … عنه — سوى الفرس — جمع الترك والخزر

ولم ترد مواضى « رستم » وقنا … «ذى حاجب» عنه سعداً فى ابنة الغير

يوم القليب بنو بدر فنوا وسعى … قليب بدر — بمن فيه — إلى سقر

ومزّقت «جعفراً» بالبيض ، واختلست … — من غيله — «حمزة» الظلام للجزر

وأشرفت بخبيب — فوق فارعة — … وألصقت « طلحة » الفياض بالعفر

وخضبت شيب عثمان دما ، وخطت … إلى الزبير ، ولم تستحى من عمر

وما رعت — لأبى اليقظان — صحبته … ولم تزوده إلا الضيح فى الغمر

وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن ، … وأمكنت — من حسين — راحتى شمر

وليتها — إذ فدت عمراً بخارجة — … فدت علياً بمن شاءت من البشر

وفى ابن هند وفى ابن المصطفى « حسن » … أتت بمعضلة الألباب والفكر

فبعضنا قائل : « ما اغتاله أحد » … وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر

وأردت ابن زياد بالحسين ، فلم … يبؤ بشسع له — قد طاح — أو ظفر

وعممت — بالظبى — فودى أبى أنس ، … ولم ترد الردى عنه قنا « زفر »

وأنزلت مصعباً — من رأس شاهقة — … كانت بها مهجة المختار فى وزر

ولم تراقب مكان ابن الزبير ، ولا … راعت عياذته بالبيت والحجر

وأعملت — فى لطيم الجن — حيلتها ، … واستوسقت لأبى الذبان ذى البخر

ولم تدع — لأبى الذبان — قاضبه ، … ليس اللطيم لها « عمرو » بمنتصر

وأحرقت شلو «زيد» بعد ما احترقت … — عليه وجداً — قلوب الآى والسور

وأظفرت بالوليد — بن اليزيد — ولم … تبق الخلافة بين الكأس والوتر

« حبابة » حب رمان أتيح لها ، … و « أحمد » قطرته نفحة القطر

ولم تعد قضب السفاح نائية … عن رأس مروان أو أشياعه الفجر

وأسبلت دمعة الروح الأمين على … دم بفخ لآل المصطفى هدر

وأشرقت جعفراً — والفضل ينظره — … والشيخ يحيى بريق الصارم الذكر

وأخفرت — فى الأمين — العهد ، وانتدبت … لجعفر بابنه والأعبد الغدر

وما وفت بعهود المستعين ، ولا … بما تأكد للمعتز من مرر

وأوثقت فى — عراها — كل معتمد ، … وأشرقت — بقذاها — كل مقتدر

وَأَسْبَغَ مِنْ نِعَمِهِ ، وَوَطَّأَ - لِلآمِلِينَ - مِنْ أَكْنَافِهِ ، وَهَزَّ - إِلَى الرَّاغِبِينَ - مِنْ أَعْطَافِهِ ، وَرَفْرَفَتْ أَجْنِحَةُ الأَهْوَاءِ إِلَيْهِ ، وَاهْتَزَّتْ جَوَانِحُ الآمَالِ إِلَيْهِ ،

وروعت كل مأمون ومؤتمن ، وأسلمت كل منصور ومنتصر
وأعثرت آل عباد - لعا لهم - بذيل زباء لم تنفر من القمر

⁂

بنى المظفر - والأيام ما برحت مراحلا - والورى منها على سفر
سحقا ليومكم يوماً ، ولا حملت - بمثله - ليلة فى مقبل العمر
من للأسرة ؟ أو من للأعنة ؟ أو من الأسنة ؟ يهديها إلى الثغر
من للظبى ؟ وعوالى الخط قد عقدت - أطراف ألسنها - بالعى والحصر
وطوقت - بالمنايا السود - بيضهم فاعجب بذاك ، وما منها سوى الذكر
من للبراعة ؟ أو من لليراعة ؟ أو من للسماحة ؟ أو للنفع والضرر ؟
أو دفع كارثة ؟ أو ردع آزفة ؟ أو قمع حادثة تعيى على القدر ؟
ويح السماح وويح الناس - لو سلما - وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية تعزى إليهم - سماحا - لا إلى المطر
ثلاثة ما رأى العصران مثلهم فضلا ولو عززا بالشمس والقمر
ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رقوا وكل ما طار - من نسر - ولم يطر
ثلاثة كذوات الدهر - منذ نأوا عنى - مضى الدهر لم يربع ولم يحر
ومر - من كل شىء - فيه أطيبه حتى التمتع بالآصال والبكر
أين الجلال الذى عشت مهابته قلوبنا وعيون الأنجم الزهر ؟
أين الإباء الذى أرسوا قواعده على دعائم من عز ومن ظفر
أين الوفاء الذى أصفو شرائعه فلم يرد أحد منها على كدر
كانوا رواسى أرض الله - منذ نأوا عنها - استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها ، فمذ خبوا عثرت هذى الخليقة - يا لله - فى سدر
كانوا شجى الدهر ، فاستهوتهم خدع منه بأحلام عاد فى خطى الحضر
ويل امه من طلوب الثأر مدركه منهم بأسد سراة فى الوغى صبر
من لى - ولا من بهم - إن أظلمت نوب ولم يكن ليلها يفضى إلى سحر ؟
من لى ومن بهم إن عطلت سنن وأخفيت ألسن الآثار والسير ؟
من لى ومن بهم إن طبقت محن ولم يكن وردها يفضى إلى صدر ؟
على الفضائل - إلا الصبر - بعدهم سلام مرتقب للأجر منتظر
يرجو عسى ، وله - فى أختها - أمل والدهر ذو عقب شتى وذو غير
قرطت آذان من فيها بفاضحة على الحسان حصى الياقوت والدرر . »

وَكَثُرَ التَّغَايُرُ عَلَى تَفَيُّؤِ ظِلِّهِ ، وَالتَّنَافُسُ فى الِاعْتِلَاقِ بِحَبْلِهِ ، وَكُلٌّ اسْتَفْرَغَ جُهْدَهُ ، وَتَرَسَّلَ عَلَى حَسَبِ مَا عِنْدَهُ ، وَلَا غَرْوَ أَنْ يُسْتَمْطَرَ الْغَمَامُ ، وَيَكْثُرَ - فى الْمَشْرَبِ الْعَذْبِ - الزِّحَامُ [١] .

وَمَا زِلْتُ - أَبْقَى اللهُ الْحَاجِبَ - أَتَلَقَّى مِنْ مَسَاعِيهِ الْمَشْكُورَةِ ، وَيَقْرَعُ سَمْعِي بِمَآثِرِهِ الْمَأْثُورَةِ ، مَا هُوَ أَنْدَى مِنْ بُلُوغِ الْأَمَلِ ، وَأَشْهَى مِنِ اخْتِلَاسِ الْقُبَلِ ، وَأَغَضُّ مِنْ جَنِيِّ الزَّهَرِ ، وَمَا هُوَ أَلْطَفُ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ ، حَتَّى انْقَادَتْ نَفْسِي فِي زِمَامِ التَّأْمِيلِ وَالْمَوَدَّةِ ، وَنَازَعَتْ إِلَى الْأَخْذِ بِحَظٍّ مِنَ الِاعْتِلَاقِ وَالْمُمَازَجَةِ ، وَنَظَرْتُ إِلَى مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْبُعْدِ الْمَانِعَةِ ، وَامْتِدَادِ التَّأَنِّي الْمُعْتَرِضَةِ ، فَغَضَضْتُ طَرْفَ الْخَيْبَةِ ، وَطَوَيْتُ كَشْحاً عَلَى الْيَأْسِ مِنْ دَرَكِ الْأُمْنِيَةِ ، إِلَى أَنْ نَدَبَنِي الْأَدِيبُ « أَبُو فُلَانٍ » إِلَى مُخَاطَبَتِهِ ، وَحَرَّضَنِي عَلَى مُكَاتَبَتِهِ ، وَنَبَّهَنِي عَلَى مَا فِي التَّثَاقُلِ - عَنْ مُدَاخَلَتِهِ - مِنَ التَّضْيِيعِ الصَّرِيحِ ، وَالتَّقْصِيرِ الْبَيِّنِ الصَّحِيحِ ، إِذْ هُوَ أَسْنَى عِلْقٍ غُولِيَ فِيهِ ، وَأَنْفَسُ ذُخْرٍ نُوفِسَ فِيهِ ، فَطَرِبْتُ - إِلَى ذٰلِكَ - كَمَا طَرِبَ النَّشْوَانُ مَالَتْ بِهِ الْخَمْرُ ، وَاهْتَزَزْتُ كَمَا اهْتَزَّ - تَحْتَ الْبَارِحِ [٢] - الْغُصْنُ الرَّطْبُ ، وَرَأَيْتُ شُكْرَ يَدِ الْعَلْيَاءِ فِيمَا حَثَّنِي إِلَيْهِ ، وَحَضَّنِي عَلَيْهِ ، مِمَّا فِيهِ حِلْيَةُ الْفَخْرِ ، وَمَكْرُمَةُ الدَّهْرِ ، أَنْ أَسْتَفْتِحَ بَابَ الْمُكَاتَبَةِ بِالشَّفَاعَةِ ، وَأَنْهَجَ طَرِيقَ الْمُخَاطَبَةِ فِي الْعِنَايَةِ بِهِ ، وَتَبَيَّنْتُ - بَعْدَ ذِمَامِ الطَّلَبِ ، وَحُرْمَةِ الْوُدِّ وَالْأَدَبِ - مَا أَسْتَقْصِرُ نَفْسِي مَعَهُ أَنْ أَتَقَدَّمَ فى

---

(١) يشير إلى المثل المشهور : « المورد العذب كثير الزحام »

(٢) ريح بارح - ريح شديدة .

خِدْمَةِ رَغْبَتِهِ قَلَمِي ، وَقَدْ تَأَخَّرَ قَدَمِي ، وَبَعْدَ الِاقْتِصَارِ بِغَيْبَةِ كِتَابِي ، دُونَ أَنْ أَزُمَّ إِلَيْهِ رِكَابِي، وَهُوَ فَتًى نَامَ جَدُّهُ ، وَاسْتَيْقَظَ حَدُّهُ ، فَتَنَكَّرَ الزَّمَانُ لَهُ، وَاعْتَرَتِ الْأَيَّامُ لَهُ ، بَيْنَ ذِئَابِ سِعَايَةٍ عَوَتْ عَلَيْهِ ، وَعَقَارِبِ وِشَايَةٍ دَبَّتْ إِلَيْهِ ، وَأُصْلِيَ بِنَارِ حَرْبٍ لَمْ يَجْنِهَا ، وَآلَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى فِرَاقِ أَحِبَّتِهِ ، وَالْبُعْدِ عَنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِ ، وَمَمْلَقِ تَمَائِمِهِ ، عَلَى ضِيقِ حَالِهِ ، وَضَعْفِ إِحْسَانِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَزِدِ الحَاجِبَ إِلَّا وَلَاءً ، وَعَلَيْهِ إِلَّا ثَنَاءً ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ يُعِيدُ شُكْرَهُ وَيُبْدِيهِ ، وَيَنْشُرُ حَمْدَهُ وَيَطْوِيهِ ، وَالْحَاجِبُ ـ أَدَامَ اللهُ إِعْزَازَهُ ـ وَلِيٌّ بِأَعْدَائِهِ عَلَى زَمَانِهِ الْغَشُومِ ، وَأَمَلِي بِإِنْصَافِهِ مِنْ دَهْرِهِ الظَّلُومِ ، بِإِلْبَاسِهِ مِنْ جَمِيلِ رَأْيِهِ مَا عَرِيَ مِنْهُ ، وَإِيرَادِهِ مِنْ شَرِيعَةِ رِضَاهُ مَا حُلِّئَ عَنْهُ ، وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأُفُقِ الَّذِي لَمْ يَرَ كَوْكَبَ سَعْدٍ إِلَّا فِيهِ ، وَلَا تَلَقَّى نَسِيمَ حَيَاةٍ إِلَّا مِنْهُ، فَإِنَّهُ مِمَّا يُؤَلِّفُهُ مِنْ إِحْسَانِهِ ، وَيَأْتِيهِ مِنَ الْفَضْلِ فِي شَانِهِ ، مُسْتَجْزِلَ شُكْرِ مَنْ أَنْهَضَهُ لِسَانٌ ، وَاسْتَقَلَّ بِهِ بَيَانٌ ، وَهُوَ أَهْلُ الْفَضْلِ ، وَالْمَعْهُودُ مِنْهُ كَرَمُ الْفِعْلِ ، وَاللهُ يُبْقِيهِ وَيُعْلِيهِ ، وَهُوَ حَسْبُهُ وَحَسْبِي فِيهِ .

وَلَمَّا اطَّرَدَ هٰذَا النَّثْرُ بِحُسْنِ اتِّسَاقِهِ ، وَلَذِيذِ مَذَاقِهِ ، هَزَّتِ النَّظْمَ أَرْيَحِيَّةٌ جُذِبَ لَهَا بِعِنَانِهِ ، وَعَارَضَهُ بِهَا فِي مَيْدَانِهِ ، وَأَبَتْ أَنْ يَنْفَرِدَ النَّثْرُ بِلِقَاءِ الْحَاجِبِ وَمُشَافَهَتِهِ ، وَتَسْتَبِدَّ بِأَنْ تَلْمَحَ غُرَّتَهُ ، وَتَخْدُمَ بِالْحُضُورِ حَضْرَتَهُ ، فَأَثْبَتُّ مِنْهُ مَا إِنْ أَنْعَمَ عِنْدَ تَصَفُّحِهِ بِالصَّفْحِ عَنِ الزَّلَلِ الَّذِي يَعْرِضُ فِيهِ ، وَالْخَلَلِ الَّذِي يَبْدُو مِنْهُ ، وَصَلَ النِّعْمَةَ بِمِثْلِهَا ، وَقَرَنَ الْعَارِفَةَ بِشَكْلِهَا .

لِبِيضِ الطُّلَى وَلِسُودِ اللِّمَمْ بِعَقْلِيَ ـ مُذْ بِنَّ عَنِّي ـ لَمَمْ [1]

---

(١) ارجع الى هذه القصيدة فى « ص ١٢٦ »

فَفِي نَاظِرِي ـ عَنْ رَشَادٍ ـ عَمًى، وَفِي أُذُنِي ـ عَنْ مَلاَمٍ ـ صَمَمْ[1]

قَضَتْ بِشِمَاسِي ـ عَلَى الْعَاذِلِينَ ـ شُمُوسٌ مُكَلَّلَةٌ بِالظُّلَمْ

فَمَا سَقِمَتْ لَحَظَاتُ الْعُيُونِ إِلاَّ لِتُغْرِيَنِي بِالسَّقَمْ

يَلُومُ الْخَلِيُّ عَلَى أَنْ أُجَنَّ وَقَدْ مَزَجَ الشَّوْقُ دَمْعِي بِدَمْ

وَمَا ذُو التَّذَكُّرِ مِمَّنْ يُلاَمُ وَلاَ كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُذَمْ

⁂

وَإِنِّي أَرَاحُ إِذَا مَا الْجَنُوبُ رَاحَتْ بِرَيَّا جَنُوبِ الْعَلَمْ

وَأَصْبُو لِعِرْفَانِ عَرْفِ الصَّبَا وَأُهْدِي السَّلاَمَ إِلَى «ذِي سَلَمْ»

وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوَ «الْبُرُوقِ» أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ ابْتَسَمْ

أَمَا وَزَمَانٍ ـ مَضَى عَهْدُهُ حَمِيداً ـ لَقَدْ جَارَ لَمَّا حَكَمْ

قَضَى بِالصَّبَابَةِ ثُمَّ انْقَضَى وَمَا اتَّصَلَ الأُنْسُ حَتَّى انْصَرَمْ

لَيَالِيَ نَامَتْ عُيُونُ الْوُشَاةِ عَنَّا، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَنَمْ

وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهَوَى فَأَجْنَتْ ثِمَارَ الْمُنَى مِنْ أَمَمْ

وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الأَدَمْ

كَأَنَّ «أَبَا بَكْرٍ» الأَسْلَمِيَّ أَجْرَى عَلَيْهَا فِرِنْدَ الْكَرَمْ

وَوَشَّحَ زَهْرَةَ ذَاكَ الزَّمَانِ بِمَا حَازَ مِنْ زُهْرِ تِلْكَ الشِّيَمْ

هُوَ الْحَاجِبُ الْمُعْتَلِي لِلْعُلاَ شَمَارِيخَ كُلِّ مُنِيفٍ أَشَمْ

مَلِيكٌ ـ إِذَا سَابَقَتْهُ الْمُلُوكُ ـ حَوَى الْخَصْلَ أَوْ سَاهَمَتْهُ سَهَمْ

فَأَطْوَلُهُمْ ـ بِالأَيَادِي ـ يَداً، وَأَثْبَتُهُمْ ـ فِي الْمَعَالِي ـ قَدَمْ

---

(١) قال ابن هانئ الأندلسي :

« وفي بصري ـ عن سواكم ـ عمى ، وفي أذني ـ عن سواكم ـ صمم .

*
* *

وَأَرْوَعَ، لاَ مُغْتَــــفِي رِفْدِهِ يَخِيبُ، وَلاَ جَارُهُ يُهْتَضَمْ
ذَلُولُ الدَّمَاثَةِ صَــعْبُ الإِبَاءِ ثَقِيفُ الْعَزِيمِ إِذَا مَا اعْتَزَمْ
سَمَا لِلْمَجَــرَّةِ - فِي أُفْقِهَا - فَجَــرَّ عَلَيْهَا ذُيُولَ الْهِمَمْ
وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرَ النُّجُومِ وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وُطْفَ الدِّيَمْ
نَهِيكٌ - إِذَا جَنَّ لَيْلُ الْعَجَاجِ - سَرَى مِنْهُ فِي جُنْحِهِ بَدْرُ تِمّ
فَشَامَ السُّيُوفَ بِهَامِ الْكُمَاةِ وَرَوَّى الْقَنَا فِي نُحُورِ الْبُهَمْ
جَوَادٌ ذَرَاهُ مَطَافُ الْعُفَاةِ وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمْ
يَهِيــجُ النِّزَالُ بِهِ وَالسُّؤَا لُ لَيْثاً هَصُوراً وَبَحْراً خِضَمْ
شَهِدْنَا، لأُوتِيَ فَصْلَ الْخِطَابِ وَخُصَّ بِفَضْلِ النُّهَى وَالْحِكَمْ
وَهَلْ فَاتَ شَيْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمْ

*
* *

وَمُسْــتَحْمَدٍ بِكَرِيمِ الْفَعَا لِ - عَفْواً - إِذَا مَا اللَّئِيمُ اسْتَذَمْ
شَمَائِلُ تُهْجَــرُ عَنْهَا الشَّمُولُ وَتَجْفُو لَهَا مُشْــجِيَاتُ النَّغَمْ
عَلَى الرَّوْضِ مِنْهَا رُوَاءٌ يَرُوقُ وَفِي الْمِسْكِ طِيبُ أَرِيجٍ يُشَمْ

*
* *

أَبُوهُ الَّذِي فَلَّ غَرْبَ الضَّلاَلِ وَلاَءَمَ شَعْبَ الْهُدَى فَالْتَأَمْ
وَلاَذَ بِهِ الدِّينُ مُسْــتَعْصِماً بِذِمَّــةِ أَبْلَجَ وَافِي الذِّمَمْ
وَجَاهَدَ - فِي اللهِ - حَقَّ الْجِهَا دِ مَنْ دَانَ - مِنْ دُونِهِ - بِالصَّنَمْ

فلاَ سامِيَ الطرْفِ إلاَّ أذَلّ ... وَلاَ شامِخَ الأنفِ إلاَّ رَغَمْ
تَقَيَّلَ فى العِزِّ ـ مِن حِمْيَرٍ ـ ... مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الأُمَمْ
هُمُ نَعَشُوا المُلْكَ حَتَّى اسْتَقَلّ ... وَهُمْ أظْلَمُوا الخَطْبَ حَتَّى اظْلَمْ
نُجُومُ هُدًى ـ وَالمَعَالِى بُرُوجٌ ـ ... وَأُسْدُ وَغًى وَالعَوَالِى أَجَمْ

* * *

«أَبَا بَكْرٍ» اسْلَمْ عَلَى الحَادِثَاتِ، ... وَلاَ زِلْتَ ـ مِنْ رَيْبِهَا ـ فى حَرَمْ
أُنَادِيكَ ـ عَنْ مِقَةٍ ـ عَهْدُهَا ... كَمَا وَشَتِ الرَّوْضَ أَيْدِى الرِّهَمْ
وَإِنْ يَعْدُنِى عَنْكَ شَحْطُ النَّوَى ... فَحَظِّى أَخَسُّ وَنَفْسِى ظَلَمْ
وَإِنِّى لأُصْفِيكَ مَحْضَ الهَوَى ... وَأُخْفِى ـ لِبُعْدِكَ ـ بَرْحَ الأَلَمْ
وَغَيْرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الذِّمَامِ ... إِذَا حُسْنَ ظَنِّى عَلَيْهِ أَذَمْ

* * *

وَمُسْتَشْفِعٍ بِىَ ، بَشَّرْتَهُ ... ـ عَلَى ثِقَةٍ ـ بِالنَّجَاحِ الاتَمّ
وَقِدْمًا أَقَلْتَ المُسِىءَ العِثَارَ ... وَأَحْسَنْتَ ـ بِالصَّفْحِ ـ عَمَّا اجْتَرَمْ
وَعِنْدِى ـ لِشُكْرِكَ ـ نَظْمُ العُقُودِ ... تَنَاسَقُ فِيهَا اللآلِى التُّوَمْ
تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ ... إِذَا لَبِسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الهَرَمْ
فَعِشْ مُعْصِمًا بِيَفَاعِ السُّعُودِ ... وَدُمْ نَاعِمًا فى ظِلاَلِ النِّعَمْ
وَلاَ يَزَلِ الدَّهْرُ ، أَيَّامُهُ ... لَكُمْ حَشَمٌ ، وَاللَّيَالِى خَدَمْ

***

هٰذَا أعَزَّ ٱللهُ الحَاجِبَ مَا ٱقْتَنَصَتْهُ الْقَرِيحَةُ مَعَ ٱقْتِضَائِهَا ، وَأَجَابَتْهَا بِهِ الْبَدِيهَةُ عِنْدَ ٱسْتِدْعَائِهَا ، وَالذِّهْنُ [١] عَلِيلٌ ، وَالطَّبْعُ كَلِيلٌ ، وَالرَّوِيَّةُ فَاسِدَةٌ ، وَسُوقُ الْأَدَبِ — إِلاَّ عِنْدَهُ — كَاسِدَةٌ ، وَلَوْ أَنِّى أُوتِيتُ — فى النَّثْرِ — غَزَارَةَ عَمْرٍو ، وَبَرَاعَةَ ٱبْنِ سَهْلٍ ، وَأُمْدِدْتُ — فى النَّظْمِ — بِنَظْمِ الْبُحْتُرِىِّ ، وَصِنَاعَةِ الطَّائِىِّ [٢] لَمَا وَدَدْتُ — إِلَى الحَاجِبِ — إِلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْهُ ، وَلاَ أَوْرَدْتُ عَلَيْهِ غَيْرَ مَاصَدَرَ عَنْهُ ، وَلاَ أَنْفَذْتُ مَا أَنْفَذْتُ إِلاَّ بَيْنَ أَمَلٍ يَنْبَسِطُ ، وَخَجَلٍ يَقْبِضُ ، فَرَأْيُهُ مُوَفَّقٌ فى أَنْ يَمْنَحَ مَا بَعَثَ الْأَمَلُ إِسْعَافًا ، وَمَا أَوْجَبَ الخَجَلُ إِغْضَاءً ، لِيَأْتِىَ الْإِحْسَانَ مِنْ جِهَاتِهِ ، وَيَسْلُكَ — إِلَى الْفَضْلِ — طُرُقَاتِهِ . وَمُرَاجَعَتُهُ لِى عَنْ كِتَابِى بِعَهْدِ كَرِيمٍ يَكُونُ كُحْلاً لِعَيْنِ الرِّضَا بِوَحْيَةِ الْقَوْلِ ، أَقِفُ بِهِ مِنْ تَوَالِى النِّعَمِ عَلَيْهِ ، وَٱنْتِظَامِ الْأَحْوَالِ — بِالصَّلاَحِ لَدَيْهِ — عَلَى مَا تَبْتَهِجُ لَهُ نَفْسِى ، وَيَنْتَظِمُ مَعَهُ عِقْدُ أُنْسِى ، يَدٌ عِنْدِى جَنَاهَا شَهْدٌ ، وَشَذَاهَا عَنْبَرٌ وَوَرْدٌ ، وَرِدَاؤُهَا الشُّكْرُ الجَزِيلُ ، وَأُتْبِعُهَا الثَّنَاءَ الجَمِيلَ ، إِنْ شَاءَ ٱللهُ .

وَلْيُبَلَّغْ مِنِّى سَلاَمًا يُهْدِى إِلَيْهِ نَدَّهُ [٣] ، وَتَحِيَّةً أَوَّلُهَا عِنْدِى وَآخِرُهَا عِنْدَهُ .

---

(١) وفى الأصل : « والدهر » .

(٢) يعنى أبا تمام .

(٣) الند (بالفتح) ويكسر : الطيب أو العنبر ، وفى الأصل : « يهدى إليه نه » »

إلى ابن مسلمة

« وكتب من قرطبة إلى ابن مسلمة باشبيلية
قبل تحوّله إليها : »

يَا سَيِّدِى وَأَرْفَعَ عُدَدِى ، وَأَوَّلَ الذَّخَائِرِ فى عَدَدِى ، وَأَخطَرَ عِلْقٍ مَلأَتْ مِنِ اقْتِنَائِهِ يَدِى ، وَمَنْ أَبقَاهُ اللهُ فى عِيشَةٍ بَارِدَةِ الظِّلَالِ ، وَنِعمَةٍ سَابِغَةِ الأَذْيَالِ ، قَدْ تَقَاصَرَ الثَّنَاءُ عَلَيْكَ، وَتَوَالَى الحَدِيثُ الحَسَنُ عَنْكَ ، حَتَّى حَلَلْتَ مَحَلَّ الامَانَةِ ، وَكُنْتَ مَوْضِعَ تَقْلِيدِ الوَطَنِ ، وَثَبَاتِ الطَّوِيَّةِ ، وَاللهُ يُمَتِّعكَ بِمَا حَازَهُ لَكَ مِنَ الخيرِ ، وَوَفَّرَهُ عَلَيْكَ مِنْ طِيبِ الذِّكْرِ .

فى عِلْمِكَ — أَعزَّكَ اللهُ — مَا تَقْتَضِيهِ العُطْلَةُ مِنْ إظْلَامِ الخَاطِرِ ، وَصَدَإِ النَّفْسِ ، وَيَجْنِيهِ طُولُ المُقَامِ مِنْ إخْلَاقِ الدِّيبَاجَةِ وَإِرْخَاصِ القَدْرِ ، وَقَدْ آنَ أَنْ أَجْتَنِيَ ثَمَرَةً مِنْ آدَابِ أَطَلْتُ الاِعْتِنَاءَ بِهَا، وَأَخْلَاقٍ أَدَمْتُ رِيَاضَةَ النَّفْسِ عَلَيْهَا ، وَلَمَّا مَخَضْتُ المُلُوكَ وَجَدْتُ عَبِيرَهُمُ الَّذِى أَنْسَى[1] السَّالِفَ قَبْلَهُ، وَتَقَدَّمَ الدَّاهِرَ مَعَهُ، وَأَتْعَبَ الغَابِرَ بَعْدَهُ ، الحَاجِبَ فَخْرَ الدَّوْلَةِ مَوْلَاىَ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ ، وَكَبَتَ أَعْدَاءَهُ ، مَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ مِنْ سَنِيِّ الهِمَمِ ، وَسَمَاحَةِ الشِّيَمِ ، وَانْتِظَامِ أَسْبَابِ الرِّيَاسَةِ ، وَكَمَالِ آلَاتِ السِّيَاسَةِ ، وَاجْتِمَاعِ المَنَاقِبِ الَّتِى أَفْرَدَتْهُ عَنِ النُّظَرَاءِ ، وَأَعْلَتْهُ عَنْ مَرَاتِبِ الأَكْفَاءِ ، فَرَأَيْتُ — قَبْلَ أَنْ أَحْتَمِلَ لِغَيْرِهِ نِعْمَةً ، أَوْ أُوسَمَ مِمَّنْ سِوَاهُ بِصَنِيعَةٍ — أَنْ أَعْرِضَ نَفْسِى مَمْلُوكَةً عَلَيْهِ ، عَرْضَ مَنْ لَا يُؤَمِّلُهَا — لِإِجَارَتِهِ — إِلَّا بِالِاسْتِجَارَةِ ، وَلَا يَطْمَعُ لَهَا — فى قَبُولِهِ — إِلَّا بِالمُسَامَحَةِ ، فَلَوْ كُنْتُ الوَلِيدَ بْنَ عُبَيْدٍ بَرَاعَةَ نَظْمٍ ، وَجَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى بَلَاغَةَ نَثْرٍ، وَإِبْرَاهِيمَ

---

(١) وفى الأصل : « أطلب

أَبْنَ نَهْدِيٍّ طِيبَ مُجَالَسَتِهِ ، وَإِمْتَاعَ مُشَاهَدَتِهِ ، ثُمَّ حَضَرَتْ مَجْلِسَهُ الْعَالِي ، لَمَّا كُنْتُ - بِسَعَةِ إِحَاطَتِهِ - إِلاَّ فِي جَانِبِ التَّقْصِيرِ ، وَتَحْتَ غَمْرَةِ النُّقْصَانِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَعْدَمْ فِي نَجَابَةِ غَرْسِ الْيَدِ ، وَإِصَابَةِ طَرِيقِ الْمَصْنَعِ ، مِنْ وِلاَيَةٍ أُخْلِصُهَا وَنَصِيحَةٍ أُمْحِضُهَا ، وَشُكْرٍ أُجْنِيهِ الْغَضَّ مِنْ زَهَرَاتِهِ ، وَثَنَاءٍ أُهْدِي إِلَيْهِ الْعَطِرَ مِنْ نَفَحَاتِهِ ، مِنْهَا مَا سَوَّغَكَ اللهُ مِنَ الْمَوْهِبَةِ فِي ذَلِكَ ، وَأَنْهَضَكَ بِأَعْبَاءِ الشُّكْرِ لَهَا ، وَمِنْهَا شَرَفُ مَذْهَبِكَ ، وَكَرَمُ سَجِيَّتِكَ ، وَصِحَّةُ مُشَارَكَتِكَ لِمَنْ لَمْ يَسْتَوْجِبْهَا أَسْتِيجَابِي ، وَلاَ أَسْتَدْعَاهَا بِمِثْلِ أَسْبَابِي ، مِنْ تَدَانِي الْجِدَارِ وَتَصَافِي السَّلَفِ ، وَالِانْتِمَاءِ إِلَى أُسْرَةِ الْأَدَبِ ، فَإِنْ وَافَقَتِ الْمُسَاعَفَةُ الْإِرَادَةَ فَحَظٌّ أَقْبَلَ ، وَعَبْدٌ بَلَغَ مِنْ قَبُولِ سَيِّدِهِ مَا أَمَّلَ

وَلَمْ أَقُلْ - عَمَّرَكَ اللهُ - كَمَا قِيلَ فِي النَّجْمَيْنِ ، بَلْ قُلْتُ : « وَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ » وَإِنْ عَاقَ حِرْمَانٌ عَادَتُهُ أَنْ يُعَوِّقَ عَنِ الظَّفَرِ ، وَيَعْتَرِضَ دُونَ الْأَمَلِ ، فَأُعْلِمُهُ - أَيَّدَهُ اللهُ - أَنِّي فِي حَالَيِ الْعُطْلَةِ مَعَ غَيْرِهِ وَالتَّصَرُّفِ - وَيَوْمَيِ الِانْقِطَاعِ وَالتَّصَوُّفِ[1] ، كَالْمُهْتَدِي بِالنَّجْمِ حِينَ عَدِمَ ذُكَاءَ ، وَمُتَيَمِّمِ الصَّعِيدِ حِينَ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ .

فَإِنْ أَغْشَ قَوْمًا غَيْرَهُ أَوْ أَزُرْهُمُ ... فَكَالْوَحْشِ يُدْنِيهِ مِنَ الْأَنَسِ الْمَحْلُ

وَاللهُ يَتَوَلَّاهُ بِالْفُسْحَةِ فِي عُمُرِهِ ، وَالْإِعْلاَءِ لِأَمْرِهِ ، وَيَصْرِفُ الْأَقْدَارَ مَعَ إِيثَارِهِ ، وَيُصَرِّفُ وُجُوهَ التَّوْفِيقِ إِلَى اخْتِيَارِهِ ، وَلَكَ - يَا سَيِّدِي - فِي أَنْتِدَابِكَ مَا أَنْتَدَبْتَكَ لَهُ مَا لِلسَّاعِي الْمُنْجِحِ مِنَ الشُّكْرِ ، وَلِلْمُجْتَهِدِ الْبَالِغِ مِنَ الْعُذْرِ ، مِلاَكُ الْأَمْرِ بِتَقْدِيمِ الْمُرَاجَعَةِ بِالْجَوَابِ ، فَأَسْكُنُ إِلَيْهِ ، وَالْجَنَابِ فَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، وَأُهْدِي إِلَيْكَ نَدَى الْغَضِّ النَّاضِرِ مِنْ سَلاَمِي ، وَالْأَرِجَ الْعَاطِرَ مِنْ تَحِيَّتِي .

---

(١) التصوف : بالواو والياء العدول والإنصراف . وفي الأصل « ويومي الأيقظان » .

رسالة إلى المعتضد

« وكتب إثر ذلك إلى المعتضد رقعة يقول فيها :

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ الْحَاجِبِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ - مَوْلاَىَ وَسَيِّدِى وَمَوْلَى الْمَنَاقِبِ الْجَلِيلَةِ ، وَالضَّرَائِبِ النَّفِيسَةِ - فِى أَكْمَلِ مَا تَكَفَّلَ لَهُ بِهِ مِنْ عُلُوِّ الْقَدْرِ ، وَنَفَاذِ الْأَمْرِ ، وَأَحْظَاهُ مِنَ النِّعَمِ بِأَسْبَغِهَا سِرْبَالاً ، وَأَبْرَدِهَا ظِلاَلاً ، وَأَحْمَدِهَا مَآلاً.

كُنْتُ - أَعَزَّ اللهُ الْحَاجِبَ - مَوْلاَىَ قَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْوَزِيرِ أَبِى عَامِرٍ عَبْدِهِ بِمَا أَيْقَنْتُ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَيْهِ ، وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ ، فَكَتَبَ الْوَزِيرُ إِلَى بَعْضِ أَسْبَابِهِ بِمَا يَقُومُ مَقَامَ الْمُرَاجَعَةِ لِى بِمَا يَرْتَفِعُ عَنْ قَدْرِى ، وَلا تَتَّسِعُ لَهُ سَاحَةُ شُكْرِى ، لِعِلْمِى أَنَّهُ مِنَ الْحَاجِبِ - أَيَّدَهُ اللهُ - صَدَرَ ، وَبَعْدَ إِذْنِهِ[1] نَفَذَ ، وَالَّذِى عَدَانِى عَنْ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ فِى ذَلِكَ إِلَى الْحَاجِبِ - أَبْقَاهُ اللهُ - التَّأَدُّبُ بِآدَابِ خِصْيَانِ الْعَبِيدِ فِى الْإِجْلَالِ وَالْإِعْظَامِ ، وَتَرْكِ التَّبَسُّطِ وَالْإِقْدَامِ ، وَقَلَّمَا اسْتَغْنَتْ أَوَائِلُ مَطَالِبِ الْأَتْبَاعِ لِحَضْرَةِ الْمُلُوكِ عَنْ وَسَائِطَ تُمَهِّدُ لَهَا وَتَعْتَمِدُ أَوْقَاتَ الْإِمْكَانِ بِهَا ، لِأَنِّى مَا اتَّخَذْتُ إِلَى الْحَاجِبِ - أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ - غَيْرَ سِيَادَتِهِ ذَرِيعَةً ، أَوِ الْتَمَسْتُ إِلَيْهِ إِلاَّ مِنْ نَفَاسَةِ نَفْسِهِ شَفَاعَةً ، وَأَىُّ مَعْدًى لِمِثْلِى عَنْ تَفَيُّؤِ ظِلاَلِهِ ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ . وَصِنَاعَةُ الْآدَابِ كَاسِدَةٌ إِلاَّ عَلَيْهِ ، وَطَرِيقُ الْأَمَلِ مُوحِشَةٌ إِلاَّ إِلَيْهِ ، وَلاَ يَدْعُنِى إِلَى اسْتِطْلَاعِ مَا قِبَلَهُ شَكٌّ فِى كَرَمِهِ ، وَلاَ سُوءُ ظَنٍّ بِسَمَاحَةِ شِيَمِهِ ، بَلْ لُزُومُ الطَّرِيقَةِ فِى التَّوْطِئَةِ لِلْمَطْلَبِ ، وَالتَّدَرُّجِ إِلَى إِحْرَازِ الْأَدَبِ ، وَحَسْبِى أَنَّ أَمَلِى قَدِ ارْتَادَ الْجَنَابَ

---

(١) فى الأصل : « وبغير إذنه »

الرَّحْبَ ، وَالمَشْرَبَ العَذْبَ ، وَلَعَلَّ الحُظُوظَ سَتُكْشَفُ ، وَالنَّوائِبَ سَتُصْرَفُ، إِلَى أَنْ أَبْعُدَ إِلَى أَبْعَدِ غَايَاتِ الأَمَلِ مِنْ مُشَاهَدَةِ حَضْرَتِهِ العَلْيَاء ، وَالنَّظَرِ إِلَى غُرَّتِهِ الزَّهْرَاء ، فَوَاللهِ مَا يَنْصَرِفُ فِكْرِي ، وَلاَ يَنْصَرِمُ حِينٌ مِنْ عُمْرِي ، إِلاَّ فِي الذِّكْرِ لَهُ ، وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ ، وَالمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنَا أُقَدِّمُ الاعْتِذَارَ مِنْ مَهَابَةٍ تَتَمَلَّكُ جَنَانِي ، وَحَصَرٍ يَكَادُ يَقْطَعُ فِي أَوَّلِ المُشَافَهَةِ لِسَانِي ، فَإِنْ حَدَثَ ذَلِكَ فَعُذْرِي عُذْرُ[1] الفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ وَقَدِ انْقَطَعَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ ، فَقَالَ: «يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! مِنْ فَرَاهَةِ العَبْدِ أَنْ تَمْلِكَ قَلْبَهُ هَيْبَةُ سَيِّدِهِ » .

وَسَيُفْضِي - بِمَشِيئَةِ اللهِ - إِلَى مَا يَسْتَجِيزُهُ الحَاجِبُ مَوْلاَيَ مِنْ إِمْتَاعِ مَنْ شَاهَدَ ، وَيَسْتَطْرِفُهُ مِنْ أَدَبٍ يَسْتَطْلِعُهُ مِنْ إِجْمَالِ طَلَبٍ ، وَجَمَالِ مَذْهَبٍ ، كَمَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي سَأَصِلُ إِلَى مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ مِنْ بَهَاءِ مَنْظَرٍ ، وَسَنَاءِ مَخْبَرٍ ، وَرِفْعَةِ شَأْنٍ ، وَعِظَمِ سُلْطَانٍ ، وَلَعَلَّ السَّعَادَةَ تُهَيِّئُ لِي مِنَ الحَظِّ مَا أُثْبِتُ بِهِ مَا ادَّعَيْتُهُ لِنَفْسِي مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَأُنْجِزُ مَعَهُ مَا قَدَّمْتُ عَنْهَا مِنْ هَذِهِ العِدَاتِ ، فَحَوْلُ اللهِ فِي ذَلِكَ كَفِيلٌ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، زَادَ اللهُ الحَاجِبَ مَوْلاَيَ مِنْ سَنِيِّ قِسَمِهِ ، وَهَنِيِّ نِعَمِهِ ، وَبَلَّغَهُ النِّهَايَةَ مِنْ آمَالِهِ .

رسالة من قرطبة

« وكتب إليه بعد أن صدر من حضرته إلى قرطبة رسالة يقول فيها : »

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ مَوْلاَيَ لِلنِّعَمِ يُطَوِّقُهَا، وَالآمَالِ يُصَرِّفُهَا[2]، وَالمِنَنِ يُقَلِّدُهَا وَالأَحْرَارِ يَسْتَعْبِدُهَا .

---

(١) في الأصل : « فعذرى عند الفضل . »

(٢) وفي نسخة الذخيرة المنقولة عن النسخة المنقولة عن النسخة المغربية : « يصدقها » .

يَعلَمُ الَّذِى أَسْأَلُهُ إِعزَازَ مَوْلاَىَ وَإِعْلاَءَ أَمْرِهِ ، وَصِلةَ تأييدِهِ ، وَتمكِينَ نصْرِهِ، أَنِّى ـ لَمْ أَزَلْ مُنْذُ فَارَقْتُ حَضْرَتَهُ الْجَلِيلَةَ حَضْرَةَ الَمجْدِ وَالسِّيَادَةِ ، وَمَحَلَّ الْإِقْبَالِ وَالسَّعَادَةِ ـ لَهِجَ اللِّسَانِ بِمَا حَبَانِى مِنْ ثِمَارِ الْحِكْمَةِ وَالنِّعْمَةِ ، وَأَفَادَنِى مِنْ عَقْدِ الْادَبِ وَالنَّسَبِ ، فَمِنْ كَبِدِ حَاسِدٍ تَصَدَّعَتْ ، وَأَنْفاسِ مُنافِسٍ تَقَطَّعَتْ ، وَنَاعِمِ الْبَالِ أُكْسَفْتُ بَالَهُ ، وَمُتَمَنٍّ لِحَالِى طَالَمَا تَمَنَّيْتُ حَالَهُ ، وَقَلَّمَا أَنَالُ أَدْنَى مَكَانَةٍ مِنْهُ ، وَأَرْقَى أَوَّلَ دَرَجَةٍ مِنَ الْخُصُوصِ بِهِ ، تَحْسُدُهُ الْكَوَاكِبُ فِى إِشْرَاقِهَا ، وَتَنْحَشِدُ إِلَيْهِ الْأَمَانِى مِنْ أَطْرَافِهَا ، لِعَبِيدِهِ الذِينَ أَنَا آخِرُهُمْ فِى الْخِدْمَةِ ، وَأَوَّلُهُمْ فِى شُكْرِ النِّعْمَةِ ، وَيَرْفَعُ مِنْ هِمَمِهِمْ مَا انْخَفَضَ ، وَيَبْسُطُ مِنْ آمَالِهِمْ مَا انْقَبَضَ ، وَلاَ يُعْدِمُهُمُ التَّقَلُّبَ فِى نِعْمَتِهِ ، وَالِاعْتِلاَقَ بِأَسْبَابِ ذِمَّتِهِ ، بِمَجْدِهِ وَكَرَمِهِ ، وَكَانَتْ مِنْ مَوْلاَىَ ـ أَعَزَّهُ اللهُ ـ إِشَارَةٌ بَلْ عِبَارَةٌ أَعْدَدْتُهَا طَلِيعَةً لِسُعُودٍ تَتَوَافَى طَلَقًا ، وَمُقَدِّمَاتٍ لِمَسَرَّاتٍ تَتَوَالَى نَسَقًا ، فَلَمَّا لَحِقَ الْجِسْمُ بَعْدَ تَرْكِهِ النفْسَ لَدَيْهِ ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْهَا إِلَيْهِ ، بِالْوَطَنِ الَّذِى أَسْلاَنِى عَنْهُ ، وَأَسْنَى لِى الْعِوَضَ مِنْهُ ، تَأَنَّيْتُ مِنْ طَاعَتِهِ الْمُقْتَرِنَةِ بِطَاعَةِ اللهِ فِى نَفْسِى مَمْلُوكَتِهِ لِمَا أَنَا مُهَنَّأٌ بِهِ مُنَافَسٌ فِيهِ ، فَسَاعَفَتِ الْمَآرِبُ ، وَأَسْمَحَتِ الْمَطَالِبُ ، وَلَمْ يَرِبْنِى تَعَذُّرُ وَجْهٍ حَاوَلْتُهُ ، وَلاَ عَدَانِى تَيَسُّرُ أَمْرٍ تَنَاوَلْتُهُ ، وَلَمْ تَبْقَ عِلَّةٌ تُسَوِّغُ بِاعْتِرَاضِهَا الِاعْتِذَارَ إِلاَّ مَا يَتَرَاخَى مَا يُعَاوِدُ أَمْرَهُ ، وَيَتَجَدَّدُ فِى الْحَرَكَةِ إِذْنُهُ ، وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ لِأَنَّ الْإِذْنَ بَعُدَ عَهْدُهُ ، وَلِأَنَّ الْمِيعَادَ لَمْ يُحْكَمْ عَقْدُهُ ، بَلْ تَجَنَّبْتُ أَنْ أُدِلَّ بِتَرْكِ الْمُشَاوَرَةِ ، أَوْ أُخِلَّ بِرَسْمِ الْمُؤَامَرَةِ ، فَلِمَوْلاَىَ الطَّوْلُ فِى أَمْرِ الْوَسَاطَةِ عِنْدَهُ بِمُرَاجَعَةٍ أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا ، وَأَجْتَهِدُ فِى الِانْتِهَاءِ إِلَيْهَا ، وَاللهُ يُبَلِّغُنِى الْآمَالَ مِنْ وَقْفَةٍ بِحَضْرَتِهِ ، وَنَظْرَةٍ إِلَى غُرَّتِهِ ، وَتَقْبِيلٍ لِرَاحَتِهِ ، وَتَصَرُّفٍ فِى سَاحَتِهِ ، فَهُوَ الْمَالِكُ لِذَلِكَ ، الْقَادِرُ عَلَيْهِ .

من رسالة

« وله من رسالة حذف أبو الحسن هنا أكثرها ولم يذكر إلا قطرة من وابل ، أو نفثة من سحر بابل ، وها أنا مثبتها على تواليها ، إشارة لحسن معانيها، واستفادة من سنى أدبه فيها ، وهى[1] : »

يَا سَيِّدِى الَّذِى كُنْتُ أَرَاهُ أَعَدَّ عُدَدِى ، وَأَخَصَّ جُنَنِى ، مِنْ زَمَنِى ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ فى أَصْلَحِ الْأَحْوَالِ ، وَأَفْسَحِ الآمَالِ .

أُبْدِئُ جَرْىَ كِتَابِى إِلَيْكَ بِشَرْحِ الضَّرُورَةِ الْحَافِزَةِ إِلَى مَا صَنَعْتَ مِمَّا بَلَغَنِى أَنَّكَ صَدَّكَ اللَّائِمَانِ بِى عَلَيْهِ ، وَأَوَّلَ السَّفِيهَانِ الرَّأْىَ فِيهِ ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ وَيْلٌ لِلشَّجِىِّ مِنَ الْخَلِىِّ ، وَهَانَ عَلَى الْأَمْلَسِ مَا لاَقَى الدَّبِرُ .

وَأُوَسِّطُهُ بِمُعَاتَبَتِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنِ انْفِصَالِكَ عَنِّى ، وَبَرَاءَتِكَ مِنْ آكَدِ الْمِحْنَةِ مِنِّى ، وَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ فى وِرْدٍ وَلاَ صَدَرٍ مِنْ مُشَارَكَتِى فِيهَا ، وَلاَ كَانَتْ لَكَ نَاقَةٌ وَلاَ جَمَلٌ فى مُظَاهَرَتِكَ لِى عَلَيْهَا ، مَعَ الْقُدْرَةِ لَكَ عَلَى تَهْوِينِ خَطْبِهَا ، وَتَذْلِيلِ صَعْبِهَا ، وَتَلْيِينِ شَدِيدِهَا ، وَتَقْرِيبِ بَعِيدِهَا ، فَأَرَى صِدْقَكَ الْحَدِيثَ وَمَا ذَاكَ بُخْلاً مِنِّى لِبُخْلِى عَلَيْكَ بِالْإِغْضَاءِ أَنْتَ عَيْنِى (وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِى) غَضُّ أَجْفَانِهَا عَلَى الْقَذَى[2] وَإِنَّمَا يُعَاتَبُ الْأَدِيمُ ذُو الْبَشَرَةِ[3] ، وَالْمَثَلُ السَّائِرُ : يَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِىَ الْعِتَابُ ، وَقَالَ الآخَرُ :

---

(١) ابن بسام . (٢) جملة «وليس من حق عينى» ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها لأن السياق يقتضيها ، وهو يشير إلى قول ابن الرومى :

« أنت عينى ، وليس من حق عينى غض أجفانها على الأقذاء . »

(٣) المعاتبة : المعاودة وبشرة الأديم : ظاهره الذى عليه الشعر ، أى إنما يعاد إلى الدباغ من الأديم ماسلمت بشرته ، وهو مثل يضرب فى إمكان المراجعة والاستعتاب، وفى الأصل « وإنما يعاتب الأديم على البشرة . »

أَبْلِغْ أَبَا مِسْمَعٍ عَنِّى مُغَلْغَلَةً وَفِى الْعِتَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أَقْوَامِ

وَأَخْتِمُهُ بِتَكْلِيفِكَ مَا كَانَ سَبَبَ الْكِتَابِ ، وَالدَّاعِىَ إِلَى الْخِطَابِ ، عَسَاكَ أَنْ تَتَلَافَى عَوْدًا ، مَا ضَيَّعْتَ بَدْءًا ، وَتَهْتَبِلَ آخِراً ، مَا أَغْفَلْتَ أَوَّلاً ، فَيَعُودَ عَيْثُ مَا أَفْسَدْتَ ، وَإِنْ كُنْتَ فِى ذٰلِكَ : « كَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ » [١] فَنَعْتُهُ الْفَوْتَ قَبْلَ الْعَطَبِ .

وَخَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعَا

فِى عِلْمِكَ أَنِّى سُجِنْتُ مُغَالَبَةً بِالْهَوَى ، وَهُوَ أَخُو الْعَمَى ، وَقَدْ نَهَى اللّٰهُ عَنِ اتِّبَاعِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ إِذْ يَقُولُ : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ . » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ . »

دُونَ تَأَنٍّ تُدْرِكُ بَعْضُ الْحَاجَةِ بِهِ ، أَوِ اسْتِثْبَاتٍ تُؤْمَنُ مُوَاقَعَةُ الزَّلَلِ مَعَهُ ، بَلْ : « أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلْ . » وَشَهِدَ ابْنُ الْعَشَّارِ الْعَارِى عَنِ الثِّقَةِ وَالْأَمَانَةِ ، الْبَعِيدُ مِنَ الرِّعْيَةِ وَالصِّيَانَةِ ، النَّاشِرُ لِأُذُنَيْهِ طَمَعاً ، الآكِلُ بِيَدَيْهِ جَشَعاً ، فَكَانَ : « الْقَوْلُ مَا قَالَتْ حَذَامِ » . وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَنْ أُلْحِقَ بِالشُّهُودِ ، وَهُوَ وَاوُ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَنُونُ الْجَمْعِ الْمُضَافِ مَعَهُمْ ، دُونَ أَنْ يُلْحَقَ بِخُزَيْمَةَ ذِى الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيَنُوبَ مُنْفَرِداً عَنِ اثْنَيْنِ .

« لَيْسَ عَلَى اللّٰهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِى وَاحِدِ . »

---

(١) يضرب للأمر الذى انتهى فساده ، وذلك أن الجلد إذا حلم أى فسد إهابه ووقع فيه دود فتنقب لم يرج له إصلاح ، ويروى عن الوليد بن عتبة أنه كتب إلى معاوية :

« فإنك والكتاب إلى على كدابغة وقد حلم الأديم . »

وَلَيْتَنِي مَعَ مَنْ لاَ يَحِلُّ قَوْلُهُ عَلَيَّ ، أُعْذَرُ فِي شَهَادَتِهِ إِلَيَّ ، وَلَمْ يَقْتَرِنِ الْحَشَفُ مَعَ سُوءِ الْكِيلَةِ ، وَيَسْتَضِيفُ لِي الْغُدَّةَ إِلَى الْمَوْتِ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ ، خُطَّتَا خَسْفٍ لَمْ أَرَ النَّجَاءَ مِنْهُمَا إِلاَّ أَنْ رَكِبْتُ الْحَوْلِيَّ الْأَشْهَبَ ، وَرَأَيْتُ خُرَاسَانَ مَكَانَ السُّوقِ أَوْ هِيَ أَقْرَبُ ، وَكَانَ الْمُتَوَلِّي سِجْنِي بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ إِنْفَاذِهِ ، لَهُ مَجْلِسٌ حَضَرَهُ فُقَهَاءُ الْحَضْرَةِ وَمَنْ أُعْلِمَ بِسِيمَاهُمْ ، وَجَرَى فِي غِشْيَانِ الْحُكَّامِ مَجْرَاهُمْ ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ اتَّهَمَنِي بِالْمُغَيَّبِ عَلَى عَهْدِ الْمُتَوَفَّى مَوْلاَيَ - كَانَ - نَقَعَ اللَّهُ صَدَاهُ ، وَبَلَّ ثَرَاهُ ، وَثَبَتَ عِنْدَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنِّي مِمَّنْ تُعَامِلُهُ الْهِمَمُ ، وَلاَ تَرْتَفِعُ عَنْهُ الظِّنَنُ ، فَكُلُّهُمْ أَفْتَى بِالْإِعْذَارِ إِلَيَّ ، فِيمَا شَهِدَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ عَلَيَّ ، ثُمَّ سَجَنَنِي أَنْ لَمْ آتِ بِمَدْفَعٍ ، أَوْ أَصْدَعْ مِنَ الْحُجَّةِ بِمَقْنَعٍ ، فَاحْتَاطَ وَاجْتَهَدَ ، وَتَحَرَّى وَاقْتَصَدَ ، وَصَالَحَنِي مِنْ هَذِهِ الْفُتْيَا عَلَى النَّصَفِ بِتَأْخِيرِ الْإِعْذَارِ ، وَتَقْدِيمِ الصُّلْحِ ، وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ[1] ، ثُمَّ أَظْهَرْتُ إِلَيْهِ عَقْدًا كَانَ الْمُتَوَفَّى قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ ، وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ ، قَدْ أَشْهَدَ فِيهِ أَنْ لاَ مَالَ لَهُ ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا تُحِيطُ بِهِ الدَّارُ الَّتِي تُوُفِّيَ بَعْدَ هَذَا الْإِشْهَادِ فِيهَا ، إِنَّمَا هُوَ لِلْغَانِيَةِ الَّتِي فِي عِصْمَتِهِ ، حَاشَا دَقَائِقَ بَيَّنَهَا ، وَمُحَقَّرَاتٍ عَيَّنَهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَشْهَدَ بِهَذَا عَلَى نَفْسِهِ ، وَتَقَيَّدَ مِثْلُهُ مِنْ لَفْظِهِ ، فَمُحَالٌ أَنْ يُخَلِّفَ عَهْدًا ، وَيَهْلِكَ مِنْ وَصِيَّةٍ ، وَسَأَلْتُهُ الشُّورَى فِيمَا أَثْبَتُّهُ مِنْ هَذَا الْعَهْدِ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى ذَلِكَ ، وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الشُّورَى مِنْ أَدَبِ اللَّهِ إِذْ يَقُولُ : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا

---

(١) جاء في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجامعة لأحكام القضاء التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري قوله : « والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراما أو حرم حلالا . » وفي الأصل : « والسجن جائز بين المسلمين ».

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ » . لَوَجَبَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا لَقَاحُ الْعَقْلِ ، وَرَائِدُ الصَّوَابِ ، وَأَنَّ لِلْمُشَاوِرِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ، صَوَابًا يَفُوزُ بِمَحْمَدَتِهِ ، أَوْ خَطَأً يُشَارَكُ فِى مَذَمَّتِهِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

«وَلاَ تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً مَكَانُ الْخَوَافِى عُدَّةٌ لِلْقَوَادِمِ[1] . »

قَدْ قَرَعْتُ لَهُ الْعَصَا وَنَبَّهْتُهُ عَلَى أَنَّ الَّذِى دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ ، لاَ يَسُوغُ دَفْعِى عَنْهُ ، وَلاَ يَجُوزُ مَنْعِى مِنْهُ[2] ، فَحِينَئِذٍ عَلَّلَنِى بِمَوَاعِيدَ : كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً ، إِذَا قَطَعْنَا مِنْهُ عَلَمًا بَدَا عَلَمٌ ، وَكَانَ آخِرَهَا ـ الَّذِى نَسَخَ بِهِ مَا قَبْلَهُ ـ أَنْ تُدْرَجَ الشُّورَى إِلَى أَبْنَاءِ الشُّورَى لِلْوَرَثَةِ ، فَتَوَيْتُ أَرْقُبُ هٰذَا الْحِينَ ، وَأَرْجُو أَنْ يَحِينَ ، كَمَا يَرْجُو أَخُو السَّنَةِ الرَّبِيعَ : وَكَمَا فِى بُطُونِ الْحَامِلاَتِ رَجَاءٌ .

« فَكُنْتُ وَإِيَّاهُ سَحَابَةَ مُمْحِلٍ رَجَاهَا ، فَلَمَّا جَاوَزَتْهُ اسْتَهَلَّتِ »

وفى فصل منها :

وَلَمْ أَقُصَّ عَلَيْكَ يَا سَيِّدِى مِمَّا أَجْلَبْتُهُ إِلاَّ مَا شُهِرَ شُهْرَةَ الإِسْمِ ، وَعُرِفَ مَعْرِفَةَ النَّسَبِ ، وَمَا يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسِرٍّ ، وَكُنْتُ أَوَّلَ حَبْسِى قَدْ وُضِعْتُ مِنَ السِّجْنِ فِى مَوْضِعٍ قَدْ جَرَتِ الْعَادَةُ بِوَضْعِ مَسْتُورِى النَّاسِ ، وَذَوِى الْهَيْئَاتِ مِنْهُمْ فِيهِ ، وَفِى الشَّرِّ خِيَارٌ ، وَبَعْضُهُ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ ، فَنُيِتُ ـ مِنْ مُطَالَبَةِ بَعْضِ مَا يَهْتَمُّ النَّاظِرُونَ فِى السِّجْنِ لَه وَيَسْعَوْنَ إِلَيْهِ ـ بِمَا اقْتَضَى نَقْلِى إِلَى حَيْثُ الْجُنَاةُ الْمُفْسِدُونَ ، وَاللُّصُوصُ الْمُقَيَّدُونَ ، وَشَكَوْتُ ذٰلِكَ إِلَى الْحَكَمِ الْحَابِسِ لِى فِى الْيَوْمِ الَّذِى مَضَى ذِكْرُهُ بِمَشْهَدِ مَنْ تَقَدَّمَ

---

(١) البيت لبشار بن برد .

(٢) فى الأصل : « ونبه على الذى دعوته إليه ، لا يسوغ لى دفعه منه ، ولا يجوز معى منه . » وما أثبتناه هنا هو ما يمكن أن يستقيم به المعنى .

وَصْفُهُ ، فَانْتَفَى مِنَ الرِّضَا بِهِ ، وَأَظْهَرَ الِامْتِعَاضَ مِنْهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُوَكَّلِ بِالسِّجْنِ فِى اخْتِيَارِ مَجْلِسٍ أُبَايِنُ فِيهِ مَنْ لَا تَلِيقُ بِى مُلَابَسَتُهُ ، وَأَنْتَبِذُ مِمَّنْ لَا تُرْضَى لِى مُجَالَسَتُهُ ، ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَحْضَرَهُ مَجْلِسَ نَظَرِهِ ، وَأَمَرَ بِتَأْدِيبِهِ ، عَلَى امْتِثَالِهِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ ، وَانْتِهَائِهِ إِلَى مَا حَدَّ لَهُ ، وَاسْتَأْنَفَ الْعَهْدَ فِى التَّضْيِيقِ عَلَيَّ ، وَمَنَعَ مَنِ اعْتَادَ صِلَتِى مِنَ الْوُصُولِ إِلَيَّ ، فَأُصْعِدْتُ إِلَى غُرْفَةٍ فِى السِّجْنِ أَقْنَعَنِى بِهَا مَعَ خَسَاسَتِهَا ، وَأَسْلَانِى عَنِ الْمُصِيبَةِ بِالْكَوْنِ فِيهَا — عَلَى مَضَاضَتِهَا — انْفِرَادِى مِنْ لَفِيفِ الْأَخْلَاطِ ، وَمَنْ ضَمَّهُ السِّجْنُ مِنَ السِّفْلَةِ وَالسُّقَّاطِ ، فَحِينَ اسْتِوَائِى إِلَيْهَا عَهِدَ بِحَطِّى إِلَيْهِمْ ، وَخَلْطِى بِهِمْ ، وَوَضْعِى بَيْنَهُمْ ، فَنُقِلْتُ وَدَخَلَ إِلَيَّ فِى هٰذِهِ الْحَالِ مَنْ أَبْلَغَ إِلَيَّ عَنِ ابْنِ أَخِى الْحَكَمِ رِسَالَةً جَامِعَةً مِنَ السَّبِّ الْفَاحِشِ فُنُونَهُ ، مُشْتَمِلَةً مِنَ الْوَعِيدِ الْمُرْهِبِ عَلَى ضُرُوبِهِ . فَلَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِى .

« وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ ، وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ »

فَلَمْ أَسْتَطِعْ صَبْرًا ، وَعَلِمْتُ أَنِّى قَدْ أَبْلَيْتُ عُذْرًا ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُعْذَرَ لِى لَبِيدٌ وَكَادَ[1] ، وَرَأَيْتُ أَنَّ الْعَاجِزَ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ . فَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَهْ ، وَلَمْ أَسْتَجِزْ أَنْ أَكُونَ ثَالِثَ الْأَذَلَّيْنِ الْعَيْرِ وَالْوَتِدِ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الظُّلْمِ

---

(١) يشير الى قول لبيد يخاطب بنتيه :

فقوما فقولا بالذى قد علمتما ولا تخمشا وجها، ولا تحلقا الشعر

وقولا : « هو المرء الذى لاخليله أضاع ولاخان الصديق ولاغدر »

إلى الحول، ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

واعتذر كاعتذر أى بعذر ، فهما بعد تمام الحول اذا أمسكتا عن النوح والبكاء على أبيهما فلهما العذر .

وَالْهَرَبَ مِمَّا لاَ يُطَاقُ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ . قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ : « فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« لاَ عَارَ لاَ عَارَ فِى الْفِرَارِ، فَقَدْ   فَرَّ نَبِىُّ الْهُدَى إِلَى الْغَارِ »

وَنَظَرْتُ فِى مُفَارَقَةِ الْوَطَنِ ، وَالْبَيْنِ عَنِ الْأَحِبَّةِ، فَتَبَيَّنَ لِى أَنَّ إِيحَاشَ نَفْسِى بِإِينَاسِ أَهْلِى ، وَقَطْعَهَا فِى مُوَاصَلَةِ وَطَنِى ، غَبْنٌ فِى الرَّأْيِ ، وَخَوَرٌ فِى الْعَزْمِ ، وَوَجَدْتُ الْحُرَّ يَنَامُ عَلَى الثُّكْلِ ، وَلاَ يَنَامُ عَلَى الذُّلِّ، وَأَذِنْتُ إِلَى قَوْلِهِمْ : لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْبِلاَدِ نَسَبٌ ، وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فَتَحَوَّلِ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُحْدَثِينَ :

« أَرَى النَّاسَ أُحْدُوثَةً   فَكُونِى حَدِيثاً حَسَنْ
كَأَنْ لَمْ يَزَلْ مَا أَتَى   وَمَا قَدْ مَضَى لَمْ يَكُنْ
إِذَا وَطَنٌ رَابَنِى   فَكُلُّ مَكَانٍ وَطَنْ »

وَلَمْ أَسْتَغْرِبْ أَنْ أُسَامَ بِمِثْلِ هٰذَا الْخَسْفِ فِى مَسْقَطِ رَأْسِى ، وَمَعَقِّ[1] تَمَائِمِى ، وَأَوَّلِ أَرْضٍ مَسَّ تُرَابُهَا جِلْدِى ، فَقَدِيماً ضَاعَ الْمَرْءُ الْفَاضِلُ فِى وَطَنِهِ ، وَكَسَدَ الْعِلْقُ النَّفِيسُ فِى مَعْدِنِهِ . قَالَ بَعْضُهُمْ :

« أُضِيعُ فِى مَعْشَرِى، وَكَمْ بَلَدٍ   يَعُودُ عُودُ الْكِبَاءِ مِنْ حَطَبِهْ »

فَاسْتَخَرْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاضِحَ وَجْهِ الْعُذْرِ ، ثَابِتَ قَائِمِ الْحُجَّةِ ، عِنْدَ مَنْ غَضَّ عَيْنَ الْهَوَى ، وَخَزَنَ لِسَانَ التَّعَسُّفِ ، وَاللهُ يُصِيبُ غَرَضَ الصَّوَابِ بِرَأْيِ ، وَيُقَرِّبُ غَايَةَ النَّجَاحِ عَلَى سَعْيِ، حَسْبَمَا ذٰلِكَ فِى عِلْمِهِ أَنِّى مَظْلُومٌ مَبْغِيٌّ

(١) المعق : الموضع الذى تعق أى تشق فيه عن الصبي التمائم ، ومنه قوله :
« بلاد بها عق الشباب تمائمى   وأول أرض مس جلدى ترابها. »

عَلَىَّ مَنْسُوبٌ مَا لَمْ آتِهِ إِلَىَّ، فَهُوَ الْمُؤَمَّلُ لِذَلِكَ، وَالْمَرْجُوُّ لَهُ، وَلَعَمْرُكَ يَاسَيِّدِي إِنَّ سَاحَةَ[1] الْعُذْرِ لَتَضِيقُ عَنْكَ، وَمَا تَكَادُ تَتَّسِعُ لَكَ، فِي إِسْلاَمِكَ تِلْمِيذَكَ وَابْنَ جَارِكَ وَشَيْخِكَ الَّذِي لَمْ تَزَلْ مُثَابِراً عَلَيْهِ آخِذًا عَنْهُ مُقْتَبِساً مِنْهُ مَعَ إِكْثَارِكَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا، وَالِاعْتِدَادِ بِهِ، وَادِّعَاءِ الْحِفْظِ لَهُ، وَقَدْ رَوَيْتَ أَنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ، وَسَمِعْتَ الْمَثَلَ: «أُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا.» فَالْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ، وَلاَ أَقَلَّ مِنَ اسْتِعْمَالِ الْجِدِّ، وَاسْتِغْرَاقِ الْجَهْدِ، فَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ، وَلاَ لَوْمَ فِي امْرِئٍ بَلَغَ الْعُذْرَ، وَلَكِنْ مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ، وَمَا حُمَّ وَاقِعٌ، وَلاَ حَذَرَ مِنْ قَدَرٍ، وَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلَ، وَتَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِي مَا جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ، وَأَنَا الآنَ بِحَيْثُ أَمِنْتُ بَعْضَ الأَمْنِ، إِلاَّ أَنَّ رِزًّا[2] مِنْ وَعِيدٍ سَقَطَ إِلَىَّ بِأَنَّ السَّعْيَ لَمْ يَرْتَفِعْ، وَأَنَّ مَادَّةَ الْبَغْيِ لَمْ تَنْقَطِعْ، وَأَنَّ الْبَصِيرَةَ مُسْتَحْكِمَةٌ فِي اسْتِرْجَاعِي مِنَ الأُفُقِ الَّذِي أَحُلُّ بِهِ، وَالْجَنَابِ الَّذِي أَحُطُّ فِيهِ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ فِي ظَنِّي مَا كَانَ أَشَارَ لِي إِلَيْهِ بَعْضُ مَنْ كُنْتُ آوِي إِلَى الثِّقَةِ بِعَهْدِهِ، وَأَبْنِي عَلَى الْوَثَاقَةِ مِنْ عَقْدِهِ، مِنَ الْفُقَهَاءِ الْمَوْسُومِينَ بِالأَثَرَةِ عِنْدَ الْحَكَمِ الْمَذْكُورِ وَالْمَكَانَةِ مِنْهُ، وَقَدْ عَاتَبْتُهُ عَلَى تَأَخُّرِهِ عَنْ مُظَافَرَتِي وَتَقْصِيرِهِ فِي مُؤَازَرَتِي، فَاعْتَذَرَ بِأَنَّ ذَلِكَ لاَ سَبِيلَ إِلَيْهِ، وَلاَ مَنْفَذَ لِلْحِيلَةِ فِيهِ، إِذِ الْمُحَرِّضُ عَلَىَّ لاَ تَتَأَتَّى مُعَارَضَتُهُ، وَلاَ يَتَهَيَّأُ الِاسْتِبْدَادُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ وَصَفَنِي بِالْبَذَاءِ وَمَا بِي بِالتَّسَلُّطِ عَلَى الأَعْرَاضِ، وَوَاللَّهِ مَا اسْتَجَزْتُ هَذَا بَعْدَ أَنْ هَتَكَ

---

(١) فى الأصل: «ان ساعة العذر.» وفى هامش الأصل «لعلها سعه» وقد أثبتنا مكانها «ساحة» التى هى على صورتها فى الخط ليستقيم المعنى.

(٢) الرز والركز الصوت الخفى تسمعه من بعيد.

مِنْ سِتْرِى مَا هَتَكَ ، وَأَنْتَهِكَ مَا أَنْتَهِكَ ، إِنْ كُنْتُ أَقُولُ مَعْذُوراً ، وَأَنْفُثُ مَصْدُوراً. فَكَيْفَ قَبْلَ ذٰلِكَ إِذْ لَمْ يَحْدُثْ سَبَبٌ ، وَلاَ عَرَضَ مُوجِبٌ ، وَمَالِي وَهٰذَا الْمُجْتَنَى ثُمَّ مَالِيَا ، وَ « سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » وَلَيْسَتْ هٰذِهِ بِبِكْرٍ مِنَ النَّمَائِمِ الَّتِي دَخَلَ بِهَا بَيْنَ الْعَصَا وَلِحَائِهَا :

« فَإِنِّى رَأَيْتُ غُوَاةَ الرِّجَا ... لِ لاَ يَتْرُكُونَ أَدِيماً صَحِيحاً »

*

وَمَنْ يَأْذَنْ إِلَى الْوَاشِينَ تُسْلَقْ ... مَسَامِعُهُ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادِ

وَيَا سَيِّدِى :

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلْقِى شَرِقٌ ... كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِى

وَوَاللهِ مَا تَوَهَّمْتُ أَنِّى أُوتَى مِمَّنْ أُوتِيتُ مِنْهُ مَعَ اتِّصَالِى بِهِ ، وَانْقِطَاعِى إِلَيْهِ ، وَانْتِسَامِى بِالتَّأْمِيلِ لَهُ ، وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهِ . إِنَّ الْمَعَارِفَ فِى أَهْلِ النُّهَى ذِمَمٌ . وَلٰكِنْ :

إِذَا كَانَ غَيْرُ اللهِ ـ لِلْمَرْءِ ـ عُدَّةً ... أَتَتْهُ الرَّزَايَا مِنْ وُجُوهِ الْفَوَائِدِ

لَقَدْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الشِّيَمِ ، وَشُرُوطِ الْمُرُوءَةِ وَالْكَرَمِ ، أَنْ يَهَبَ لِى مَا أَنْكَرَ لِمَا عَرَفَ ، وَيَغْفِرَ مَا سَخِطَ لِمَا رَضِىَ ، وَيَدْفَعَ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، وَيُؤْثِرَ الَّذِى هُوَ أَجْمَلُ وَأَرْفَقُ ، وَيَتَوَقَّفَ عِنْدَ مَا نُصَّ لَهُ مِنْ سِعَايَةٍ ، وَزُفَّ إِلَيْهِ مِنْ وِشَايَةٍ ، فَإِنْ كَانَ بَاطِلاً أَلْغَاهُ ، وَفَضَحَ الْمُخْبِرَ الْمُتَقَرِّبَ بِهِ وَأَقْصَاهُ ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا صَبَرَ صَبْرَ الْحَلِيمِ ، وَأَغْضَى إِغْضَاءَ الْكَرِيمِ ، وَقَبِلَ إِنَابَةَ الْمُعْتِبِ ، وَاقْتَصَدَ فِى مُؤَاخَذَةِ الْمُذْنِبِ ، فَقَدَّمَ التَّوْقِيفَ ، قَبْلَ التَّثْقِيفِ ، وَالتَّأْنِيبَ ، قَبْلَ التَّأْدِيبِ فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَانِى عِتَابٌ ؛ وَالْحُرُّ يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لاَ تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ، أَىُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ ؟

وَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ أَنَّ بِالْحَضْرَةِ قَوْمًا لاَ يَحْصُرُهُمُ الْعَدُّ تُحْتَمَلُ سَقَطَاتُهُمْ، وَتُغْتَفَرُ هَفَوَاتُهُمْ، وَتُقَالُ عَثَرَاتُهُمْ :

وَمَا شَرُّ الثَّلاَثَةِ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكِ الَّذِى لاَتَصْبَحِينَا(١)

وَمَا أَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُدْلُونَ بِوَسِيلَةٍ إِلاَّ شَارَكْتُهُمْ فِيهَا، وَلاَ يَمُتُّونَ بِذَرِيعَةٍ يَنْفَرِدُونَ دُونِى بِهَا :

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّى يَصِيرَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدَا

فَإِنْ كَانَتْ مُسَامَحَتُهُمْ لِسَابِقَةٍ سَلَفَتْ فَقَدْ أَحْرَزْتُ مِنْهَا الْحَظَّ الْأَعْلَى، أَوْ لِكَمَالِ أَدَبٍ فَقَدْ ضَرَبْتُ فِيهِ بِالْقِدْحِ الْمُعَلَّى، أَوْ لِلُطْفِ تَوَدُّدٍ فَمَا قَصَّرْتُ فِى الِاجْتِهَادِ غَيْرَ أَنِّى حُرِمْتُ التَّوْفِيقَ، وَالْأَمْرُ لِلهِ، رُبَّ مُجْتَهِدٍ مَا خَابَ إِلاَّ لِأَنَّهُ جَاهَدَ.

فَإِنْ كَانَ ذَنْبِى أَنَّ أَحْسَنَ مَطْلَبِى أَسَاءَ فَفِى سُوءِ الْقَضَاءِ لِىَ الْعُذْرُ

وَاللهِ لَقَدْ أَظْهَرْتُ مَدْحَهُ، وَأَضْمَرْتُ نُصْحَهُ، وَتَمَمْتُ عَلَى الصَّاغِيَةِ لَهُ، وَجَرَيْتُ مِلْءَ الْعِنَانِ إِلَى الِاعْتِلاَقِ بِهِ، أَسْقِيهِ السَّائِغَ مِنْ مِيَاهِ وُدِّى، وَأَكْسِيهِ السَّابِغَ مِنْ بُرُودِ حَمْدِى، وَأُجْنِيهِ الْغَضَّ مِنْ ثَمَرَاتِ شُكْرِى، وَأُهْدِى إِلَيْهِ الْعَطِرَ مِنْ نَفَحَاتِ ذِكْرِى لاَ يُفِيدُنِى التَّحَبُّبُ إِلَيْهِ، إِلاَّ ضَيَاعًا لَدَيْهِ، وَلاَ يَزِيدُنِى التَّقَرُّبُ مِنْهُ، إِلاَّ بُعْدًا عَنْهُ :

كَأَنِّىَ أَسْتَدْنِى بِهِ ابْنَ حَنِيَّةٍ إِذَا النَّزْعُ أَدْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدَا

وَالَّذِى أُحِبُّهُ مِنْكَ، وَأَثِقُ فِى الْمُسَارَعَةِ إِلَيْهِ بِكَ لِقَاؤُهُ مُجَارِيًا ذِكْرِى، مُفَاوِضًا

---

(١) أى ليس شر الثلاثة يا أم عمر الذى لاتسقينه الصبوح بصاحبك، وفى الأصل :
« وما شر الثلاثة ـ أم عمرو ـ لصاحبك الذى لا تصحبينا. »

فى أمْرِى ، مُعْلِماً لَهُ بِالَّذِى لاَ يَذْهَبُ عَنْهُ ـ مِنْ أَنَّ الَّذِى اخْتَرْتُهُ لِنَفْسِى غَايَةُ مَايُسِيءِ الْعَدُوُّ بِهِ ، وَيُسَاءِ الْمَوْلَى مِنْهُ ـ فَالْجَلاَءِ أَخُو الْقَتْلِ ، وَالْغُرْبَةُ أَحَدُ السَّبَاءَيْنِ قَالَ اللهُ تَعَالَى : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ . » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

«وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لاَ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجَرًّا وَمَسْحَبَا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ ، وَإِنْ يُسِئْ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارَ فِى رَأْسِ كَبْكَبَا»

وقَدْ هجَرْتُ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ ظِئْرِى ، وَالدَّارَ الَّتِي كَانَتْ مِهَادِى ، وَغِبْتُ عَنْ أُمٍّ أَنَا وَاحِدُهَا ، تَمْتَدُّ أَنْفَاسُهَا شَوْقًا إِلَيَّ ، وَتَغُضُّ أَجْفَانَهَا حُزْنًا عَلَيَّ ، وَاللهُ يَرَى بُكَاءَهَا ، وَيسْمَعُ لِي ـ عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي ـ نِدَاءَهَا ، فَالِاسْتِجَابَةُ مَضْمُونَةٌ لِلْمُخْلِصِ وَالمَظْلُومِ ، وَقَدْ حَمَلْتُ السِّمَتَيْنِ ، وَاسْتَوْجَبْتُ الصِّفَتَيْنِ ، وَلْتَكُنْ بُغْيَتُكَ الَّتِي تَدَّخِرُهَا عَلَيْهَا كَلِمَةَ تَأْمِينٍ ، وَإِشَارَةً إِلَى تَأْنِيسٍ وَتَسْكِينٍ ، تُرَاجِعُنِي بِهَا فَأَظْهَرُ بِحَيْثُ أَنَا آمِنًا ، وَأُلْقِي الْعَصَا مُطْمَئِنًّا ، فَإِنْ وَجَدْتَ حَزَّ الشَّفْرَةِ ، فَالعَوَانُ لاَ تُعَلَّمُ الْخِمْرَةَ[1] ، فَإِنْ أَشْبَهَتِ اللَّيْلَةُ الْبَارِحَةَ ، أَعْلَمْتَنِي بِذٰلِكَ ، فَطَلَبْتُ الْأَمْنَ فِي مَظَانِّهِ ، وَتَقَرَّيْتُ السَّلاَمَةَ فِي مَوَاطِنِهَا ، وَصَبَرْتُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ حَالٍ مُعَقِّبٌ ، وَلَرُبَّمَا أَجْلَى لَكَ الْمَكْرُوهُ عَمَّا تَحْمَدُ ، وَلَكَ يَا سَيِّدِي فِي انْتِدَابِكَ لِمَا نَدَبْتُكَ إِلَيْهِ الْفَضْلُ ، وَالْأَيَادِي قُرُوضٌ ، وَالصَّنَائِعُ وَدَائِعُ :

« لاَ يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ . »

وَالتَّحِيَّةُ الطَّيِّبَةُ وَالسَّلاَمُ الْمُرَدَّدُ عَلَى سَيِّدِي .

---

(١) الخمرة : اسم للهيئة من الاختمار أى وضع الخمار على الرأس ، وهو مثل يضرب لمن حذق الأشياء وجرب الأمور .

شعر الملكين

(١)

شـــعر المعتضـــد

« قال المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبو عمرو
عباد بن محمد بن عباد رحمه الله . »

« لقد بسط الله المكارم من كفى
فلست — على العلات منها — أخا كف
تنادى بيوت المال — من فرط بذلها —
يمينى : « قد أسرفت ظالمق كفى »
ألفرى يمينى بالسماح فتنهمى
ولا ترتضى خلا يقول لها : يكفى
لعمرك ، ما الاسراف فىّ طبيعة ،
ولكن طبع البخل عندى كالحتف . »

(وقال)

«من للشجاعة والكرم إلا الطلوم المطلم
من لست لعدم عنده غير التدلّل والعدم
أحيا المكارم والعلا وأقام ما آد الهمم
يلقى العداة ، وسيفه قد قط هامات البهم . »

(وقال)

« لعمرك إنى — بالمدامة — قوال ،
وإنى — لما يهوى الندامى — لفعال
وإنى — لنحل الخليل — لناعش ،
وإنى — لقتل المناوى — لقتال
قسمت زمانى — بين كدّ وراحة —
فللرأى أسحار ، وللطيب آصال
فأمسى — على اللذات واللهو — عاكفا
وأضحى — بساحات الرياسة — أختال
ولست — على الإدمان — أغفل بغية
من المجد ، إنى — فى المعالى — لمحتال

إذا نام أقوام عن المجد — صلة —
أسهد عينى أن تنام بى الحال
وإن راق أقواماً — من الناس — منطق
يروق ، بدا منى مقال وأفعال . »

(وقال)

« أقوم — على الأيام — خير مقام ،
وأوقد — فى الأعداء — شر ضرام
وأنفق — فى كسب المحامد — مهجتى ،
ولو كان — فى الذكر الجميل — حمامى
وأبلغ — من دنياى — نفسى سؤلها ،
وأضرب — فى كل العلا — بسهام
إذا فصح الأملاك نقص ، فإنه
يبينه — عند الأنام — تمامى . »

(وقال)

« من كان يسلو عن نوال فأنا الذى لست يسال
البخل عين نقيصة ، والجود عين للكمال
أبصرت رشدى فى الندى ، فالبخل — عندى — كالضلال
هذا زعاف طعمه ، والجود حلو كالزلال . »

(وقال)

« لو كان قلبى — عن الاشغال — منتزحاً ،
نادى لفقد حبيب النفس : واحربا
لكنما شغله بالمجد — مجتهداً —
يلهيه عن حبه إن بان أو قربا . »

(وقال)

« هذى السعادة قد قامت على قدم
وقد خلقت لها فى مجلس الكرم
فان أردت — إلهى — بالورى حسناً
فلكنى زمام الدهر والأمم
فانى لا عدلت الدهر عن حسن ،
ولا عدلت بهم عن أكرم الشيم
أقارع — الدهر — عنهم كل ذى طلب
وأطرد — الدهر — عنهم كل ذى عدم . »

(وقال)

« عن القصد قد جاروا ، وما جرت عن قصد
إذا حميت طرق العرائس عن أسد
إذا اعترضوا للبخل أعرضت عنهم ،
وإن من أقوام كتمت الذى أسدى
لله ما أخى من العدل والندى ،
ولله ما أبدى من الفضل والحمد
ولا ألتقى صبو نغير بشاشة
إذن لجحدت الله معروفه عندى . »

(وقال)

« ألام ، ومالوى — على الحب — واجب ،
وقد صادنى طرف كحيل وحاجب
أمحب عنى — والفؤاد يحبها —
لقد عز محبوب تماه حاجب
أروم فؤادى — فى الغرام — ليبلنى
وكيف وما دون الأبية حاجب . »

(وقال)

« زهر الأسنة — فى الهيجا — غدت زهرى
غرست أشجارها مستحزل الثمر
ما إن ذكرت لها من معرك جلل
إلا تخللته بالصارم الذكر
حتى غدوت وأعدائى تخاطبنى
يا قاتل الناس بالأحقاد والمكر . »

(وقال)

« وإذا توعرت المسالك لم أرد
فيها السرى إلا برأى مقمر
وإذا طلبت عزيمة فقاتحى
فيها العزيمة والسنان السمهرى . »

(وقال)

« كلام — كمثل الدر — تنثره نثراً
ووصل — كطل الروض — تعطيكه نزراً
ولو لم تشب وصلى بهجر لخلتنى
أشاهد منها الشمس أو ألثم البدرا . »

(وقال)

« أتاك الليل مبتكراً يناقصه سنا البدر
ذر الساعات تبسطه ستقبضه يد الفجر . »

(وقال فى القاضى أبى القاسم أبيه) .

« ألا يا مليكا يرتجى ويهاب
وبحراً له — فى المكرمات — عباب
ومولى عدتنى — مذ نشأت — مكارم ،
يصوب بها — من راحتيه — سحاب
أطعتك — فى سرى وجهرى — جاهداً ،
فلم يك لى — إلا الملام — ثواب
وأعملت جهدى فى رضاك مشمرا
ومن دون أن أمضى إليه حجاب
ولما كبا حدى إليك ولم يسغ
لنفسى — على سوء المقام — شراب
وقل اصطبارى ، حين لاح لى عندكم
— من العطف — إلا قسوة وتباب
فررت بنفسى أبتغى فرجة لها
على أن حلو العيش بعدك صاب
وما مرنى إلا رسولك أن جرت
إلى به صم الهضاب وكاب
فقال مقالا لم أحد عن مقاله
مآباً ، وعن بعض الأمور مناب
دعاك أمير المؤمنين مثوباً
فقلت : « أمير المؤمنين مجاب »
فجئت أغذ السير ، حتى كأنما
يطير بسيرى — فى الفلاة — عقاب
وما كنت — بعد الأين — الا موطنا
بعزمى على ألا يكون إياب

ولكنك الدنيا إلى حبيبة
فما عنك لى ـ إلا إليك ـ ذهاب
وعضك فى ترك الملام ، فانه
ـ وحقك ـ فى قلبى ظماً وحراب
إذا كانت النعمى تكدر بالأذى
فما هى إلا محنة وعذاب
ولا تمضين بالمنع كى فانه
ـ وحدك ـ نقص للعلا وخراب
فوالله ما أبغى بدلك غير أن
تحلى بحدوى راحتيك رقاب
ويهدى إليك الناس دون تصنع
ثمة صدق لم يشبه كذاب
فكل نوال لى ، إليك انتسابه،
وأنت عليه ـ بالثناء ـ مثاب
بقيت مكين الأمر، مادر شارق،
وما لاح فى أفق السماء شهاب .»

(وقال)

« يا قاتل الصب ولا واق
لا ترض بالله بإنفاق
عيناك قد قادت إلى الردى
فالقلب محتاج إلى راق
لولاك ـ والرحمن ـ ما كنت من
يحسب فى جملة عشاق
قد لدغت صدغاك قلبى فهل
تنعم للدغ بدرياق . »

(وقال)

« رعى الله من يصلى فؤادى بحبه
سعيراً ، وعيى منه فى جنة الخلد
غزالية العينين شمسية السنا
كثيبية الردفين غصنية القد
شكوت إليها حبها بمدامعى
وأعلمتها ما قد لقيت من الوجد
فصادف قلبى قلبها ـ وهو سالم ـ
فأعدى، وذو الشوق المبرح قد يعدى
فجادت ـ وما كادت ـ على بجدها
وقد ينبع الماء النمير من الصلد
فقلت لها : « هاتى ثناياك إننى
أفضل نوار الأقاحى على الورد
وميلى على حسمى بحسنك » فانثنت
تميد الذى أملت منها كما تبدى
عناقاً ولثماً أرويا الشوق بيننا
ـ مرادى ومثى ـ كالشرار من الزند
فياساعة ـ ما كان أقصر وقتها
لدى ـ تقضت غير مذمومة العهد .»

(وقال)

« ينادون قلبى، والغرام يجيب،
وللقلب ـ فى حين النداء ـ وجيب
مشوق دعاه الشوق والوجد والهوى
يجيب نداء الحب وهو يجيب
يقاسى فؤادى الوحب والحب واصل ـ
فكيف تراه إن جفاه حبيب ؟
إذا أخطأ الأحباب ترتيب حالهم
فإن فؤادى ـ دائماً ـ ليصيب
عليم بأسرار الغرام ، لأنه
بصير ـ بأدواء الحسان ـ طبيب
يواصلنى سراً، ويصرم ظاهراً،
وذلك ـ من أحبابى ـ عجيب . »

(وقال)

« ببيض الهند والأسل الحداد
أرجى أن يتم لى مرادى
فأبلغ بغيتى ، وأريح نفسى ،
وتحمد حالتى فى كل نادى
ففى الدهر فى قتل الأعادى ،
وحسم رقابهم فى كل وادى
فذاك الفرض ـ والرحمن ـ عندى
كنفل الفرض فى حال الجهاد . »

(وقال)

« وليل ظللنا فيه نعمل كأسنا
إلى أن بدت للصبح ـ فى الليل ـ أعمال

وولت نجوم الليل تجرى هزيمة
وجاء — مع الاصباح — نصر وإقبال
قضيت — من هذا وذاك — لبانة
وتمّ لنا فتح مبين وآمال . »

(وقال)

« وليل أدمنا فيه شرب مدامة
إلى أن بدا الصبح فى الليل تأثير(١)
وجاءت نجوم الصبح تضرب فى الدجى
وولت نجوم الليل والليل مقهور
لحزنا — من اللذات — أطيب طيبها
ولم يعدنا همّ ولا عاق تكدير
خلا أنه — لو طال — دامت مسرة
ولكن ليالى الوصل فيهن تقصير . »

(وقال)

« ألعلم أن قلبى غير صاح ؟
وأنى — من سلوك — فى انتزاح
وكنت — الدهر — أصطاد المعالى
فقد أصبحت من صيد الملاح
تسقينى البخيلة كأس صد
وتمزجها — لتعليلى — براح
ولو شاءت حياتى — الدهر — سقت
حرور القلب من شبم قراح
وكانت تصنع الحسنى جميلا
ولكن ليس تلقى غير لاح
فسقينى — فديتك — من عقار
ونادينى : هلمّ إلى اصطباح . »

(وقال)

« يطول علىّ الدهر إن لم ألاقها ،
ويقصر — إن لاقيتها — أطول الدهر
لها غرّة كالبدر — عند تمامه —
وصدغا عبير نمقا صفحة البدر
وقد كمثل الغصن — مالت به الصبا —
ولفظ كما انحلّ النظام من الدرّ

(وقال)

« ذكراك فى فىّ قد شيبت بتسبيحى
أفديك يا فتنة الجثمان والروح
الله يعلم أنى لست أهجركم
دهرى ولا تنقضى فيكم تباريحى
إن كنت أشرح معنى حبكم شغفاً
فإنّ سرك عندى غير مشروح . »

(وقال)

« ياجاهل الحبّ إنّ الحبّ ذو سند
مهما أحزعنه يوماً سوف أعتمد
أيجهل الحب من أضحى به حرق
تكاد من حرّها الأحشاء تتقد
الله يعلم أنى شيق أبدا
لا ينقضى الشوق حتى ينقضى الأبد
إن يشرب الجسم برد الوصل منتعشاً
يهدى إليه فؤادى حر ما يجد . »

(وقال)

« لله درّ الحبّ ماذا يصنع
يعنو له ملك الزمان ويخضع
للحب سلطان عظيم شأنه
مهما يقل قولا فقلبى يسمع
إن يغر بالهجران مالك مهجتى
أقبل إليه بحالتى أتضرّع
ماذا انتفعت بحالتى عند الهوى
حال الهوى أبداً أحل وأرفع . »

(وقال)

« لله ما حلد الأحماس فى خلدى
لمن غدا والندى كالروح والجسد
للأوحدى أبى الجيش الذى ظفرت
منه بأنفس علق فى الأنام يدى
موفق الرأى فى الرايات لذته
فى الجدّ والجود لا فى العيشة الرغد
إذا رأته العلا نادته مفصحة
يا قرّة العين بل يا فلذة الكبد . »

---

(١) هذه المقطوعة أدرجت سهواً ضمن شعر ابن زيدون

(وقال)

« أترى اللقاء كما نحبّ يوفق
فنظلّ نصبح بالسرور ونغبق

حتام تمطلني الليالي قرب من
قلبي له متشوّف متشوّق

ملك أغرّ أغار أن تحظى به
لسواى ألحاظ ولحظى مملق

أفدى أبا الجيش الموفق أنه
للمكرمات ميسر وموفق

ماهي به الزمن البهي كأنه
نشر على وجه الزمان ورونق

ملك إذا فهنا بطيب ثنائه
طلت به أفواهنا تتمطق

حسب الرياسة أن غدت مرادمة
نساه فهو التاج وهي المفرق. »

(وقال)

« عرفت عرف الصبا إذ هب عاطره
من أفق من أنا في قلبي أشاطره

أراد تجديد ذكراه على شحط
وما تيقن أني الدهر ذاكره

ينأى المزار به والدار دانية
يا حبذا الفال لو صحت زواجره

ذكرى أبا الجيش هل يقضى اللقاء لنا
فيشتفي ملك حص أنت ناظره

قصاره قيصر إن قام ممتحراً
لله أوله مجد وآخره . »

(وقال)

« كأنما ياسميننا الغضّ
كواكب في السماء تبيضّ

والطرف الحمر في جوانبه
كخدّ عذراء ناله العضّ . »

(وقال)

« تنام ومدنفها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر
لئن دام هذا وهذا به سيهلك وجداً ولا يشعر. »

(وقال)

« أنام وما قلبي عن المجد نائم
وإنّ فؤادي بالمعالي لهائم

وإن قعدت بي علة عن طلابها
فإن اجتهادي في الطلاب لقائم

يعزّ على نفسي إذا رمت راحة
براح مثنيى الطباع الكرائم

وأسهر ليلي مفكراً غير طاعم
وغيرى على العلات شبعان نائم

ينادى اجتهادي إن أحس بفترة
ألا أين يا عباد تلك العزائم

فتهتزّ آمالي وتقوى عزائمي
وتذكرني لذاتهن الهزائم . »

(وقال)

« أنا في الحب مغرم مستقيل
كل نيل أناله لى قليل

لى جثمان من يظنّ صحيحاً
وفؤادي من الغرام عليل

(١) أعطى حقي
إنّ صبري ـ على التجني ـ جميل
لى ذهن ـ مثل الحسام ـ صقيل
هو من كثرة التجني عليل . »

(وقال)

« إني على ألفتي بالسهد والكمد
أدعوك يا منى الأجسام بالسهد

قطعت قلبي الذي أعطاك جوهره
إني وهبتك محض النفس والكبد

يا درّة لم تلح في كف غائصها
إلا أهل إليها آخر الأبد

قلبي بكفك لا أرجو الفكاك له
مثل الفريسة حلت في يدي أسد. »

---

(١) هكذا وجد ناقصاً بالأصل.

(وقال)

« يا غرة تسخر بالبدر
ومقلة تنفث بالسحر
ومبسما نظم من جوهر
وماؤه من أعطر الخمر
ومنطقاً أوتيت من سحره
أحر في قلبي من الجمر
وشادنا تيمني شخصه
ووكل الأجفان بالسهر
تاجر بي الله تفز بالرضى
وتربح الجنة في التجر . »

(وقال)

« يا درة قلبي بها مفتون
يسلو وإن سئل السلو ضنين
الله يعلم أن قلبي مغرم
من كان داصبر فليس يكون
أو أن من يشرى رضاك معوزه
بالخلد قلنا: إنه المغبون . »

(وقال)

« يا قمرا أصبح لى مالكا
لا تتركني هكذا هالكا
وفلذة الكبد التي ضمها
مبيتها الدهر بأوجالكا
رق على قلب العميد الذى
يود أن يجرى على بالكا
حسنت في خلق وخلق فلم
رضيت بالقبح لأعمالكا . »

(وقال)

« يصبرني أهل المودة دائما
وإن فؤادى والاله صبور
أغار على معنى الرئاسة إننى
على كل حسن في الزمان غيور
أصرف ذهنى في أمور كثيرة
وأعلم أن الدائرات تدور . »

(وقال)

«غصن من التبر فوقه ورق
كأنه الصبح تحته شفق
يا أبدع الناس في محاسنه
رق على من أذابه الأرق
مددت كفى رجاء رأفتكم
لا تتركوني ينالني الغرق
بحر دموعي مغرق جسدى
تداركوا مهجتي وبى رمق . »

(وقال)

« رعي الله حاليا حديثاً وماضيا
وإن كنت قد جردت عزمى ماضيا
فما لليالى لا تزال ترومنى
ويرمين منى صائب السهم قاضيا
وقد علمت أن الخطوب تطيعنى
وما زلت من لبس الدنيات عاريا
أجدد في الدنيا ثيابا جديدة
يجدد منها الجود ما كان باليا
فما مر لى بخل بخاطر مهجتى
ولا مر بخل الناس قط بباليا
ألا حبذا في الحمد إتلاف طارفى
وبذلى عند الحمد نفسى وماليا . »

(وقال)

« يجور على قلبي هوى ويجير
ويأمرني إن الحبيب أمير
أطوع لأمر الحب طوع مسلم
وإن كان من شأنى إباً ونفور
أغار عليه من لحاظى صيانة
وأكرمه إن المحب غيور
أخف إلى لقيا الحبيب وإننى
لعمرك في كل الأمور وقور . »

(وقال)

« أطلت عثار المجد بالبيض والسمر
وقصرت أعمار العداة على قسر
ووسعت سبل الجود طبعاً وصنعة
لأشياء — فى العلياء — ساوبها صدرى
فلا مجد للانسان ما كان ضده
يشاركه فى الدهر بالنهى والأمر . »

(وقال)

« كأن عشى القطر فى شاطىءِ النهر
وقد زهرت فيه الأزاهر كالزهر
ترشّ بماء الورد رشا وتنثنى
لتغليف أفواه بطيبة الخمر . »

(وقال حين دخل على المعتمد مالقه)

« أرية أنت فائدة الزمان
فقد فقت الممالك فى معان
وقد رمناك من بلد بعيد
فأدناك الاله بلا توان
بذلنا جهدنا عزما وحزما
ووطئنا الكماة على الطعان
وأجهدنا العزائم والمساعي
وأعملنا الحسام مع السنان
ليهنىء أهل مالقة انتصارى
وإعزازى لهم بعد الهوان
سيقدمهم وينميهم جميعا
رضاع الخير إن درت لبانى
وأرقيهم ذرا درج المعالى
كما أجنيهم ثمر الأمانى
وأصناف الذى يبدى لسانى
إليهم ما يجن لهم جنانى
لحق عليهم شكر امتعاضى
وما خلق امتنان بامتنان
ولكن الحقائق مخبرات
وكم خبر ينوب عن العيان
ألم أعتقهم من كل كفر
جرى فى ضبعهم ملء العنان
وتوراة محرفة أعرّت
مطالت دلة السبع المثانى
إلى أن ثار بى عزم يمان
فأدرك سؤله العضب اليمانى
وأنصبت الصوارمُ خاطبات
فكان قصاؤها سحر البيان
فعاد البرّ معمور المغانى
وآب الفسق مهدوم المبانى
وقام إمام جامعهم يصلى
وآنست المسامع بالأذان
وكان ذوو الهدى ما بين ثاو
قتيل أو فقيد العقل فانى
مذ اقترنت ببربرهم يهود
أباح حسامهم حسن القران
عناد جر ما أوليت فيهم
— من الفتكات — بكر أو عوان
وحسبى فى سبيل الله موت
يكون ثوابه خلد الجنان . »

(٢)

شعر المعتمد

(قال رحمه الله حين خرج من مالقة مستعتباً لأبيه :)

« سكن فؤادك لا تذهب به الفكر
ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وإن يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مردّ لما يأتى به القدر
وإن تكن خيبة فى الدهر واحدة
فكم غدوت ومن أشياعك الظفر
إن كنت فى حيرة من جرم مجترم
فإن عذرك — فى ظلمائها — قمر
كم زفرة — فى شغاف القلب — صاعده
وعبرة من شئون العين تنحدر
فوض إلى الله مما أنت خائفه
وثق بمعتضد بالله يغتفر
ولا تروعك خطوب إن عدا زمن
فالله يدفع والمنصور ينتصر
واصبر ، فإنك من قوم أولى جلد
— إذا أصابتهم مكروهة — صبروا
من مثل قومك — والملك الهمام أبو
عمرو أبوك — له مجد ومفتخر
سميدع يهب الآلاف مقتدراً
ويستقل عطاياه ويحتقر
له يد كل جبار يقبلها
لولا نداه لقلنا إنها « الحجر »
يا ضيغما يقتل الأبطال مفترسا
لا تُوهنن فإنى الناب والظفر
وفارسا تحذر الأقران صولته
صن عبدك القن فهو الصارم الذكر
هو الذى لم تشم يمناك صفحته
إلا تأتّى مراد وانقضى وطر
قد أخلقتنى صروف — أنت تعلمها —
وقال موردها : « ما لى بها صدر »
فالنفس جازعة ، والعين دامعة ،
والصوت مرتفع ، والسر منتشر
وزاد همى ما بالجسم من سقم
وشبت رأساً ، ولم يبلغنى الكبر
وذبت إلا دماء فىّ يمسكنى
أنى عهدتك تعفو حين تقتدر
لم يأت عبدك ذنباً يستحقّ به
عتباً ، وها هو قد ناداك يعتذر
ما الذنب إلا على قوم ذوى دغل
وفى لهم عهدك المعهود إذ غدروا
قوم نصيحتهم غشّ ، وصدقهم
مين ، ونفعهم — إن صرفوا — ضرر
يميز البغض فى الألفاظ إن نطقوا
ويعرف الحقد فى الألحاظ إن نظروا
إن يحرق القلب نفث من مقالهم
فإنما ذاك من نار القلى شرر
مولاى دعوة مملوك به ظمأ
برح وفى راحتيك السلسل الخصر
أجب نداء أخى قلب تملكه
أسى وذى مقلة أودى بها السهر
لم أوت من زمنى شيئاً أسر به
فلست أعهد ما كأس ولا وتر
ولا تملكنى دل ولا خفر
ولا سبى خلدى غنج ولا حور

رضاك راحة نفسى لا بجت به
فهو العتاد الذى للدهر أدخر
هو المدام التى أسلو بها فإذا
عدمتها عبثت فى قلبى الفكر
ما ترك الحر من زهد ولا ورع
فلم يفارق لعمرى سنى الصغر
وإنما أنا ساع فى رضاك فإن
أحققت فيه فلا يفسح لى العمر
ما سرنى وأحاشى عصر عطفكم
يوم أخل به فى عينى القصر
أحل ولى راحة أخرى علقت بها
نظم الكلى فى القنا والهام تنتثر
كم راحة لى فى الأعداء واضحة
تفنى الليالى ومايفنى لها الخبر
سارت بها العيس فى الآفاق فانتشرت
فليس فى كل حى غيرها سمر
لا زلت ذا عزة قعساء شامخة
لا يبلغ الوهم أدناها ولا النظر
ولا يزل وزرمن حسن رأيك لى
آوى إليه فنعم الكهف والوزر
أليك روضة فكرى جاء منتها
ندى يمينى لا طل ولا مطر
حملت ذكراك فى أرجائها شجرا
فكل أوقاتها للمجتنى ثمر . »

(وله إليه)

« أيا ملكا يحل عن الضريب
ومن يلتذ غفران الذنوب
ومن فى كفه بؤسى ونعمى
تصرف فى العدو والحبيب
تسخطك الممض أحل نفسى
ومالى غير عفوك من طبيب
ولست بمنكر ذنبى ولكن
نى قد جئت فى حال المريب
فان عاقبتنى فجزاء مثلى
وإن تصفح فليس من الغريب

بقيت مؤيدا ما لاح برق
ومافنى الحمام على قضيب . »

(وله إليه)

« ألا ياملكا طال فى الخطب مفزعا
ويا واحداً فاق الخلائق أجمعا
ترفق بعبد وده لك شيمة
إذا كان ذو ود سواه تصنعا
لئن كنت عن جهل حديثك حائرا
فكم عاثر قالت علاك له : « لعا »
أقلنى تقل عبدا شكورا وصارماً
يخر من الأعداء لينا وأخدعا
علتنى من السخط الأليم سحابة
فأعر بهار يح الرضى كى تقشعا . »

(وله إليه)

« مولاى أشكو إليك داء أصبح قلبى به قريحا
إن لم توجه رضاك عنى فلست أدرى له صريحا
سخطك قد زادنى سقاما
فابعث إلى الرضى مسيحا . »

(وله إليه)

« ياليث حرب داق الأعادى
طعمين منه أريا وسما
هذا إذا ناشوه حربا
وذا إذا استوهبوه سلما
لا غرو أن حم منك جسم
عادة الأسد أن تحما
وليهننى أن طلعت بدراً
لأعين الخلق مستتما
لا زلت تلقى العداة بؤسى
منك وتلقى الولاة نعمى
ولتحز من قال من حسود
إن يكن الحق قد ألما . »

(وله)

« يا بدر تم تجلى فالأرض تشرق منه
العجز خلق ذميم فلا تحدث عنه . »

ابن عمـار (١)

« وكتب ذو الوزارتين أبو بكر بن عمار
الى المعتمد على الله حين تقبض النصرانى
على الرشيد ابنه إذ حاول أسر مهجيه . »

« أصـدق ظنى أم أصيخ الى صحبى فأمضى عزمى أم أعوج مع الركب

---

(١) ابن عمار

الوزير أبو بكر « محمد بن عمار » ذو النفس العصامية ـ كما يقول المراكشى ـ كان أحد الشـعراء المجيدين على طريقة أبى القاسم «محمد بن هانئ الأندلسى» وربما كان أحلى منزعا منه ـ فى كثير من شعره . ولشعره ديوان يدور بين أيدى أهل الأندلس ولم أر أحدا ممن أدركته ممن من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلا رأيته مقدما له مؤثرا لشعره ، وربما تعالى بعضهم فشبهه بأبى الطيب وهيهات . فمن قصائده المشهورة التى أجاد فيها ما أراد ، قصيدته التى كتب بها من سرقطة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه وهى : ـ

« على وإلا ما بكاء الغمائم ... وفى وإلا ما نواح الحمائم
وعنى أثار الرعد صرخة طالب ... لثأر، وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها ... لغيرى، ولا قامت له فى مآتم. »

وفى هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله :

«أبى أن يراه الله إلا مقلدا ... حمية (١) سيف أو حمالة غارم. »

ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

«حاء الهوى فاستشعروه عاره ... وبعينه فاستعذبوه أواره
لا تطلبوا ـ فى الحب ـ عزا، إنما ... عبدانه فى حكمه أحراره
قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم: ... يا حبذاه وحبذا اضراره
قلبى هو اختار السقام لجسمه ... زيا ، فخلوه وما يختاره
عيرتمونى بالنحول ، وإنما ... شرف المهند أن ترق شفاره
وشمتم لفراق من آلفته ... ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه ؟ ... أو انه داك النوم عاد غراره؟
إن كان أعيا القلب من حرب الهوى ... خذلته من دمعى إذن أنصاره . »

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عنى بجمعها أهل الأندلس، وأنا ـ إن شاء الله ـ مورد منها ما لا يخل بالشرط الذى التزمته ، ولا يخرج عن الحد الذى رسمته ، حسب ما بقى على خاطرى من ذلك، لأنى كنت فى

(١) الحميلة والحمالة : علاقة السيف

وانى لتهفو بى اليك مودة يعثرها ما قد تعرض من ذنبى
إذا اقتدت فى رأى مشيت مع الهوى وإن أنقه نكصت على عقبى

حداثة سنى قد صرفت عنايتى الى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد لما تضمنته من الآداب . وقد فتشت خزانة حفظى فلم ألف فيها إلا نبذة يسيرة وأنا موردها إن شاء الله عز وجل :

فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى أبا بكر أصله من «شلب» من قرية من أعمالها يقال لها : «شنبوس» مولده ومولد آبائه بها، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه فى الرياسة فى قديم الدهر ولا حديثه حظ، ولا زكا منهم بها أحد . ورد مدينة شلب طفلا فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ، ثم رحل الى قرطبة فتأدب بها ومهر فى صناعة الشعر فكان قصاراه التكسب به فلم يزل يجول الأندلس مسترفدا لايخص بمدحه الملوك دون غيرهم بل لايبالى ممن أحد ولا من استعطف من ملك أو سوقة ، وله فى ذلك خبر ظريف ، وذلك أنه ورد فى بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفها فكتب بشعر الى رجل من وجوه أهل السوق وكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيرا ووجه بها إليه، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز — ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه فدخلها ابن عمار فى موكب ضخم وحملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ، فكان أول شىء سأل عنه الرجل صاحبه صاحب الشعير ، فقال : ما صنع فلان أهو حى ؟ قالوا : نعم فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله : « قل له لو ملأتها برا لملأناها تبرا » ولم يزل ابن عمار على الحال التى ذكرناها من التقلب فى بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على المعتضد بالله أبى عمرو فامتدحه بقصيدته المشهورة التى أولها :

« أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا

وفيها يقول بمدح المعتضد :

« عباد المخضر نائل كفه والجو قد لبس الرداء الأغبرا
قداح زند المجد ، لا ينفك من نار الوغى إلا الى نار القرى
يختار إذ يهب الخريدة كاعبا ، والطرف أجرد، والحسام مجوهرا»

وفى هذه القصيدة يقول فى وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

« شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود ، وإن تسموا بربرا
أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحمرا.»

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله :

«السيف أفصح من «زياد» خطبة فى الحرب إن كانت يمينك منبرا. »

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسنها، وأمر له بمال وثياب ومركب ، وأمر أن يكتب فى ديوان الشعراء فكان كذلك، ثم تعلق بالمعتمد على الله — وهو إذ ذاك شاب — فلم تزل حاله معه تتزيد وموات خدمته له تقوى

وما أغرب الأيام فيما قضت به   تريني بعدي عنك آنس من قربي
أهابك للحق الذي لك في دمي   وأرجوك للحب الذي لك في قلبي

وتأكد إلى أن صار ابن عمار ألصق بالمعتمد من شعرات قصه(١) ، وأدنى إليه من حبل وريده. كان المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار ، ثم اتفق أن ولى المعتمد على الله شلب من قبل أبيه فاستوزر بن عمار هذا في تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما ، فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار عن بلاده حسب ماتقدم الايماء إليه ، فلم يزل ابن عمار مغتربا في أقاصى بلاد الأندلس إلى أن توفى المعتضد بالله، فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك الرجل فيه أخاه ولا أباه . وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب ، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحفى به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه : « لتضعن رأسك معى على وساد واحد » فكان ذلك . قال ابن عمار : فهتف بى هاتف في النوم يقول : « لا تغتر أيها المسكين إنه سيقتلك ولو بعد حين » قال : « فانتبهت من نومى فزعا وتعوذت ثم عدت » فهتف بى الهاتف على حالته الأولى فانتبهت ، ثم عدت فسمعته ثالثة فانتبهت فتجردت من أثوابى ، والتففت في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفيا به ، وقد أزمعت على أنى اذا أصبحت مستخفيا حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت ، فانتبه المعتمد فافتقدنى فلم يجدنى فأمر بطلبى فطلبت له في نواحى القصر وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، وكان هو الذي وقع على فكانت منى حركة فأحس بى وقال : « ما هـذا يتحرك في هـذا الحصير ؟ » ثم أمر به ففض ، فخرجت عريانا ليس على الا السراويل . فلما رآنى فاضت عيناه دموعا وقال: « يا أبا بكر ما الذي حملك على هـذا ؟ » فلم أر بدا من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتى من أولها إلى آخرها ، فضحك وقال : « يا أبا بكر ، أضغاث أحلام هذه آثار الخمار » ثم قال لى « وكيف أقتلك ، أرأيت أحداً يقتل نفسه ؟ ما أنت إلا كنفسى» فشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الأمر نفسه ، ومرت على ذلك الأيام والليالى إلى أن كان من أمره ما سيأتى الايماء إليه ، فصدقت رؤيا بن عمار وقتل المعتمد نفسه كما قال .

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد سأله ابن عمار ولاية شلب وهى كانت بلده ومنشأه كما تقدم ، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أنبه ولاية جعل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها ، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه وضعف عن احتمال الصبر عنه ، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد ولم يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر إلا اضطلع به ، وكان فيه كالسكة المحماة ، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الاذفنش إذا ذكر عنده ابن عمار . قال هو رجل الجزيرة ، وكان ابن عمار هو الذي رده عن قصد اشبيلية وقرطبة وأعمالها ، وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها ، فخافه الناس ، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه. فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وأيسر تدبير ، وذلك أنه قام بصنعة شطرنج في غاية الإتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها ، جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل ، وحلاها بالذهب ، وجعل أرضها غاية في الاتقان فخرج من عند المعتمد رسولا إلى الاذفنش فلقيه في أول بلاد المسلمين فأعظم الأذفنش قدره وبالغ

(١) القصّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه أراد به رأس الصدر وهو العظام التى تتلاقى فى وسط الصّدرْ حيث ينبت الشعر.

ولى حسنات لوأمت ببعضها   الى الدهر لم يرقع لنائبة سربى

فى إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة فى حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الأذفنش فنقل خبرها إليه وكان العلج (الأذفنش) مولعا بالشطرنج فلما لقى ابن عمار سأله « كيف أنت فى الشطرنج ؟ » وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بمكانه منه ، فقال له بلغنى أن عندك سفرة فى غاية الاتقان ، قال ابن عمار نعم ، فقال كيف السبيل الى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه قل له أنا اتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فان غلبتنى فهى لك ، وإن غلبتك فلى حكمى ، فقال له الأذفنش هلمها لننظر إليها ، فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وضعت بين يدى العلج صلب وقال ماظننت أن اتقان الشطرنج يبلغ الى هذا الحد ، ثم قال لابن عمار كيف قلت فأعاد عليه الكلام الأول ، فقال له الأذفنش لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدرى ماهو ، ولعله شىء لا يمكنى ، فقال ابن عمار لا ألعب الا على هذا الوجه وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سرّ ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأذفنش وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يوازروه على أمره ففعلوه فتعلقت نفس العلج بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار فهونوا عليه ، فقالوا له : « إن غلبته كان عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وإن غلبك فما عساه أن يحتكم وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شىء يطلب منه ، وقالوا إن طلب ابن عمار مالم يمكن فنحن لك برده عن ذلك ، ولم يزالوا به حتى أجاب ، وأرسل إلى ابن عمار ، فجاء ومعه السفرة ، فقال له : « قد قبلت ما رسمته . » فقال له ابن عمار : « فاجعل بينى وبينك شهوداً سماهم له ، فأمر الأذفنش بهم فحضروا واقتتحا يلعبان ، وكان ابن عمار كما ذكرنا طبقة فى الأندلس لايقوم له أحد فيها ، فغلب الأذفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعلج فيها مطعن . فلما حققت الغلبة . قال له ابن عمار : « هل صح أن لى حكمى ؟ » قال « نعم » قال : « أن ترجع من هاهنا إلى بلادك » فاسودّ وجه العلج وقام وقعد وقال لخواصه « قد كنت أخاف من هذا حتى هوّنتموه علىّ فى أمثال هذا القول» وهم بالنكث والتمادى لوجهه . فقبحوا ذلك عليه وقالوا له : «كيف يحمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى فى وقتك» فلم يزالوا به حتى سكن وقال : « لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة ، فقال ابن عمار « هذا كله لك » وجاءه بما أراد فرجع ، وكفّ الله بأسه ، ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية ، وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به ، ثم إن المعتمد حدث له أمل فى التغلب على مرسية وأعمالها ، وهى التى تعرف بتدمير ، وكانت بيد أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر كان هو المتغلب عليها والمدبر لأمرها ، فجهز المعتمد جيوشا عظيمة ، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببنى عبد العزيز ببلنسية ، فكان بها إلى أن مات رحمه الله ، ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بنى طاهر كما ذكرنا حدثته نفسه ، وسوّل له سوء رأيه أن يستبدّ بأمره ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ، فلم يزل يصرف الحيلة فى ذلك إلى أن تمّ له بعضه ، ودانت له مرسيه وأعمالها ، وطمع فى ملك بلنسية إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية ، يقال له ابن رشيق كان أبوه من من عرفاء الجند بها ، وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه ، وقامت معه العامة وبعض الجند ، فجاء يركض حتى المدينة ، وقد غلقت أبوابها دونه فحاصروها بمن معه أياماً ، فامتنعت

وكم قد فرت يمناك بى من صريبة فلا غرو يوما أن تقل من غربى

عليه ولم يقدر على دخولها ، فبقى حائرا لايدرى ما يصنع ولا أين يتوجه ، وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأ فهرب حتى لحق ببنى هود بسرقطة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته ، وبغضه فى عيونهم مافعل مع صاحبه وولى نعمته، فأخرجوه عن بلادهم ولم تزل البلاد تتقاذفه وملوكها تشناه، إلى أن وقع فى حصن من حصون الأندلس فى عاية المعة يدعى شقورة،كان المتغلب عليه رجلا يقال له ابن مبارك فأكرم وفادته، وأحسن نزله، ثم بداله بعد أيام فقبض عليه وقيده وحمله فى سجنه . فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له لاعليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكونى عندك ، وتعرضنى عليهم فما منهم إلا من يرغب فىّ ، فمن كان أشدهم رغبة حمل لك مالا ووجهت بى إليه،ففعل ابن مبارك ذلك فما عرصه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه ، وكتب فيمن كتب إلى المعتمد ، وفى ذلك يقول ابن عمار :

«أصبحت فى السوق ينادى على رأسى بأنواع من المال
والله ما جار على ماله من ضمى بالثمن العالى . »

وفى هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعى نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعى موسى فأتى بها ، فقال فى ذلك :

« بوسى شقورة عندى أربت على كل بوسى
هـــدت هارون فيها فظلت أطلب موسى . »

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد أن بعث إليه بمال وخيل ، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا فى الاحتياط عليه وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلى تبن وقيوده ظاهرة للناس ، وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصتهم وعامتهم حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسـعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم،لايصل إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعد لايستطيع الوصول إليــه ، فسبحان محيل الأحوال ، ومديل الدول ، فدخل ابن عمار قرطبــة كما ذكرنا بعد العزّة القعساء ، والملك الشامخ ، والرياسة الفارعة ، ذليلا ، جائعاً فقيراً ، لايملك إلا ثوبه الذى عليه ، فسبحان من سلبه ماوهبه ، ومنعه ما كان به أمتعه ، وأخبربعض الموكلين به ماا تفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنتـه قال : « لما قربنا من قرطبــة بحيث يرانا الناس ، خرج فارس من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار وكان معتما أزال العمامة عن رأســه ، فجاء الفارس حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا فى الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء فقال « الذى حثت فيه صنعه هـذا الرجل قبل أن أصل إليه » فعلمنا أنه أرســل ليزيل عمامته ، فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التى ذكرت يرســف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعــدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار فى ذلك كله مطرق الرأس لا ينبس إلى أن انقضى كلام المعتمد ، فكان من جواب ابن عمار أن قال : «،ما أنكر شيئا مما يذكره مولانا ـ أبقاه الله ـ ولو أنكرته لشهدت علىّ به الجمادات فضــلا عمن ينطق ، ولــكن عثرت فأقل ، وزللت فاصفح » فقال المعتمد : « هيهات إنها عثرة لاتقال » وأمر به فاحدر فى النهر إلى إشبيلية فدخل به إشبيلية على الحال التى دخل عليها قرطبــة وجعل ، فى غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك ، وهو باق إلى وقتنا

ولا بد ما بيني وبينك من نثا   يطبقها مابين شرق الى غرب

هذا مطال سجنه هناك . كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توسل بها الى الدهر لنزع عن جوره ، أو الى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقى لم تنجح ، ودعوات لم تسمع ، وتمائم لم تنفع ، فمنها قوله :

«سجاياك ـ إن عافيت ـ أندى وأسمح   وعذرك ـ إن عاقبت ـ أجلى وأوضح
وإن كان ـ بين الخطتين ـ مزية   فأنت ـ إلى الأدنى من الله ـ تجنح
حنانيك في أخذي برأيك ، لا تطع   عداي ولو أثنوا عليك وأفصحوا
فإن رجائي أن عندك غير ما   يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة   يكران في ليل الخطايا فيصبح
وهبني قد أعقبت أعمال مفسد   أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلني بما بيني وبينك من رضى   له ـ نحو روح الله ـ باب مفتح
وعف على آثار جرم سلكتها   بهبة رحمى منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم   فكل إناء بالذي فيه يرشح
سيأتيك في أمري حديث وقد أتى   بزور بني عبد العزيز موشح
وما ذاك إلا ما علمت فإنني   إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
كأني بهم ـ لا در لله درهم ـ   أشاروا بحالي بالشمات وصرحوا
وقالوا: « سيجزيه فلان بفعله »   فقلت: «وقد يعفو فلان ويصفح»
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتمى   ولكن حلما للمؤيد يرجح
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا   سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لي ذنب غير أن لحلمه   صفاة يزل الذنب عنها فيسفح
عليه سلام كيف دار به الهوى   إلي فيدنوا أو علي فينزح
ويهنيه إن مت السلو فإنني   أموت ولي شوق إليه مبرح
وبين ضلوعي من هواه تميمة   ستنفع لو أن الحمام يجلح . »

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل من البغداديين ، فجعل يزري على البيت «وبين ضلوعي» ويقول ماأراد بهذا المعنى ، فكان من جواب المعتمد رحمه الله أن قال : أما انه سلبه الله المروءة والوفاء ، لما أعدمه الفطنة والذكاء انما نظر الى بيت الهذلي من طرف خفي وهو ـ

« وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع . »

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد إلى أن قتله صبرا في شهور سنة ٤٧٩ وتلخيص خبر قتله أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التي تقدم إنشادها ، فأدركت المعتمد بعض الرقة ، فوجه إليه ليلا وهو في بعض مجالس أنسه فأتي به يرسف في قيوده ، فجعل المعتمد يعدد منته عليه ، وأياديه قبله ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر غير أنه أخذ في البكاء ، وجعل يترقق للمعتمد ، ويمسح عطفيه ، ويستجلب من الألفاظ كل مايقدر أنه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعطفت المعتمد سابقته وقديم حرمته ، فحبسه ، فكتب ابن عمار من فوره بما دار له المعتمد إلى ابنه الراضي بالله ، فوافاه الكتاب ـ وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار أحن قديمة ـ فلما قرأ الراضي الكتاب قال لهم : «ما أرى ابن عمار الا سيتخلص» فقالوا له « ومن أين علم مولانا ذلك » فقال : « هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه أن مولانا المعتمد قد

ولاشك أن العفو منك سجية فلم يبق إلا أن تخفف من عتبي .»

(فجاوبه المعتمد على الله)

«تقدم إلى ما اعتدت عندى من الرحب ورد تلقك العتبي حجابا من العتب
متى تلقى تلق الذى قد بلوته صفوحا عن الجانى رءوفا على الصحب
سأوليك منى ما عهدت من الرضى وأعرض عما كان إن كان من ذنب
فما أشعر الرحمن قلبي قسوة ولا صار نسيان الأذمة من شعبي
تكلفته أسى به لك سلوة فليس يعانى الشعر مفترك اللب .»

(وللمعتمد على الله إلى ذى الوزارتين أبى بكر)

« قد زارنا النرجس الذكيّ وقد عطشنا وثم ريّ
ونحن فى مجلس ندىّ وإن من يومنا العشىّ
ولى حبيب غداً سمى يا ليته ساعد السمىّ . »

(وللمعتمد إلى الوزير أبى عمر بن عطمش)

« فديت أبا عمر من فتى متى يختبر غيبه يحمد
وداد صحيح ، وخلق مليح ونطق فصيح ، لدى المشهد
أتتنى البديهة تهدى بديعا وأبدع ما فى الرياض الندى
أزاهر : لم تنتشق بالأنو ف لطفا ، ولا جنيت باليد
خجلت لشكواك فى طيها فما كدت أسمع للمنشد
وقد عبرت لك تلك الرؤى ليشبع طاو ويروى صدى
فهون عليك من النائبات إذا كان نصرى بالمرصد
وكن مخبرى أمس سائلى سؤال مدلّ على مسعد
فجاءتك صفراء عند المنا م تسرى من الأفق الأبعد
فحيتك بالعس النرجسى ولاقتك بالملبس السجدى
وعاشتك بالريق لو أنه أبيح لذى الزهد لم يزهد . »

وحده بالخلاص « فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره ، فلما قاموا من مجلس الراضى نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر ، وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب عن ذكرها فبلغ المعتمد ذلك فأرسل إلى ابن عمار ، وقال له : « هل أخبرت أحداً بما كان بينى وبينك البارحة » فأنكر ابن عمار كل الأنكار ، فقال المعتمد للرسول « قل له الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت فى إحداهما القصيدة ، فما فعلت بالأخرى ؟ » فادعى أنه بيض فيها القصيدة فقال المعتمد « هلم المسودة » فلم يحر جوابا ، فخرج المعتمد حنقا وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التى فيها ابن عمار ، فلما رآه علم أنه قاتله ، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تثقله حتى انكب على قدمى المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يثنيه شىء فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ولم يزل يضربه به حتى برد ، ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك ، فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصا حسب ما بقى على خاطرى » « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب »

(وله رحمه الله)

« كتابي وعندي من فراقك ماعندي وفي خلدي ما فيه من لوعة الوجد
وما خطت الأقلام إلا وأدمعي تخط كتاب الشوق في صفحة الخد
ولولا طلاب المجد زرتك طيبه عميدا كما زار الندى ورق الورد
فقبلت ما تحت اللثام من اللمى وعانقت ما فوق الوشاح إلى العقد
أغائبة عني وحاضرة معي لئن غبت عن عيني فإنك في كبدي
أقيمي على العهد الذي كان بيننا فإني على ما تعلمين من العهد . »

(وللوزير الكاتب أبي الوليد بن المعلم)

« أيدك الله إنه يوم تحجب فيه الصلاة والصوم
وتحفر الراح غير وانية لاعار في حفرها ولا لوم
فانشط إليه فانه أمل يبلغه في نديك القوم
لازلت مستيقظ السعود لنا وعنك في أعين الردى نوم . »

(فأجابه أيده الله)

« حمت بخفاقة الجناح وقد أمكن ورد فلا يطل حوم
وسمت في الطيب والسرور متى لم يزر يوما بطيبه سوم
وهاهو الحلس المعد لكم فادخل إليه وليدخل القوم
إلى كؤس لو شاء شاربها يعوم فيها لأمكن العوم . »

(فجاوبه رحمه الله)

« لبيك لبيك من مناد له الندى الرحب والندي
ها أنا بالباب عبد قن قبلته وجهك السني
شرفته والداه باسم شرفته أنت والنبي . »

(وقال)

« سلي تعلمي إن كنت غير عليمة بأن ليس في حبي لغيرك مطمع
وأن لي القلب الذي ليس خاليا من الوجد والجفن الذي ليس يهجع
يذكرنيك الغصن يهتز عندما يهب نسيم ، والغزالة تطلع
ووالله لا أنساك أذكر موضعي لديك ولا أنفك نحوك أنزع . »

(وقال)

« ألكم إلى الصب الشجي معاد منفك عنه للأسى أصفاد
رحل اصطباري إذ رحلتم قائلا أوب الأحبة بيننا الميعاد
يا من شكت دنوهم ووصالهم فبدا دعي من الشعوب حداد
كم بت منكم بين غصني بانة كالسيف تضغط متنه الأغماد . »

(وقال فى معشوقة اسمها « اعتماد » تؤخذ حروف اسمها من أوائل هذه الأبيات .

«أغائبة الشخص عن ناظرى ... وحاضرة فى صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون ... ودمع الشئون وقدر السهاد
تملكت منى صعب المرام ... وصادفت ودّى سهل القياد
مرادى لقياك فى كل حين ... فياليت أنى أعطى مرادى
أقيمى على العهد ما بيننا ... ولا تستحيلى لطول البعاد
دسست اسمك الحلو فى طى شعرى ... وألفت فيه حروف اعتماد .»

(وقال)

« قلبى موال لمعاديه ... وعاشق من لا يباليه
خلى الظلوم كلما زدته ... مودة زاد تجنيـــه
يا غفر الله له ذنبه ... فى ظلم صب هائم فيه
ياحسن الوجه بحق الهوى ... لا ترض قبح الهجر والتيه .»

(وقال)

إنى رأيتك فى المنام ضجيعتى ... وكأن ساعدك الوثير وسادى
وكأنما عانقتنى وشكوت ما ... أشكوه من وجدى وطول سهادى
وكأننى قبلت ثغرك والطلى ... والوجنتين ونلت منك مرادى
وهواك لولا أن طيفك زائر ... فى الحب لى ما ذقت طعم رقاد .»

(وقال يستدعى الوزير المصرى الحكيم)

« أيها الصاحب الذى فارقت عيـ ... ـنى ونفسى منه السنا والسناء
نحن فى المجلس الذى يهب الرا ... حة والمســمع الغنى والغناء
نتعاطى التى تنسيك فى اللـ ... ـذة والرقــة الهوى والهواء
فأته تلف راحــــة ومحيا ... قد أعـدا لك الحيا والحياء . »

(وله)

«لما نأت نأى الكرى عن ناظرى ... وصرفتـه لما انصرفت عليــه
طلب البشـير بشارة يجرى بها ... فوهبت قلبى واعتذرت إليه . »

(وله)

« الجود أحلى على قلبى من الظفر ... ومن منال قصى السـؤل والوطر
ومن غناء أريوى فى الصبوح لنا ... يا طلعة الشـمس فى الآصال والبكر
وقد حننت إلى ما اعتدت من كرم ... حنين أرض إلى مسـتأخر المطر
وقد تناهت يدى عن كأسها غضبا ... ومجت الأذن أيضاً نغمة الوتر
حتى أملك هــنيى ما تجود به ... وأسمع الحمد بالأخرى على الأثر
فيهاتها خلعا أرضى السماح بها ... محفوفة فى أكف الضرب بالبدر .»

(وله)

« من للملوك بشأو الأصيد البطل هيهات جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها فأصبحت فى سرى الحلىّ والحلل
عرس الملوك لنا فى قصرها عرس كل الملوك به فى مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم هجوم ليث بدرع الباس مشتمل . »

(وله إلى المعتضد بالله)

« مولاى ياذا الأيادى كواكفات الغوادى
أما عبيــد معدّ لهم داء الأعادى
واعتادت النفس منى تصـيد الآساد
إنى عليها مقيم لرائح أو لغاد
أكر بالضرب فيها والطعن عند الجلاد
حتى أبحت حماها بمرهفات حداد
إن لم تكن أسد غيل تكن حمآدر واد
يحق لهم وطىّ وكندة ومراد
ملكت من أرض حمص إلى قرى سنداد . »

(وله رحمه الله)

« لطن بنا أم الربيع سآمة ألا عمر الرحمن ذماً تواقعـه
أأسام طيا فى ضلوعى كناسه وبدر تمام فى فؤادى مطالعه
وروضة حسن أجتنى من ثمارها وبارد ظلم لم تكدر شرائعـه
إذا شئت كفى نوالا تعيضه على معتفيها أو عدواً تقارعه . »

(وله)

« أمطلع زهر نجوم الكلام ومشرقه من خلال الحلك
أتانا قريضـك والهم حىّ لدينا وأمسى به قد هلك
مهاك موارد ود صـفت يعلك فيها الذى أنهلك . »

(وله)

« دراً بعثت مفصلا بجمان أو روضة مسكية الريحان
لا بل عروساً قد زففت تولدت ما بين فكرنا قد وبنان
سمعاً لأمرك إذ دعوت إلى التى تدع القلوب قليلة الأحزان
أما الكؤس فقد جرت ما بيننا بيدى غزال ساحر الأجفان
حث ينغيني للمدام بطرفه وبحكه ومتى أشا غنانى
فلا لعمرك لم أكن لأضيعه لا تحسبنا من بنى سهوان . »

(وله)

« إن كان تضريدا لغير تعمد فلأجعلن مكانه وردا
من قهوة ضمنت أكوسها ناراً تكون على الحشا برداً . »

(وله)

« اشرب الكأس في وداد ودادك وتأنس بذكرها في انفرادك
قمر غاب عن جفونك مرآ ه وسكناه في سواد فؤادك . »

(وله)

« حسدت كتابي على فوزه بإبصاره الغرة الزاهره
فياليت شعري يكون الكتاب فتلحظه المقلة الساحره . »

(وله في اعتماد أيضاً)

« بكرت تلوم وفي الفؤاد بلابل سفها وهل يثني الحليم الجاهل
يا هــــذه كفي فإني عاشق من لا يرد هواي عنها عاذل
حب « اعتماد » في الجوانح ساكن لا القلب ضاق به ولا هو راحل
يا ظبيــــة سلبت فؤاد محمد أو لم يروعك الهزبر الباسل
من شك أني هائم بك مغرم فعلى هواك له على دلائل
لون كسته صفـرة ومدامع هطلت سحائبها وجسم ناحل . »

(وله في اعتماد أيضا)

« أدار النوى كم دار فيك تلددي وكم عقني عن دار أهيف أغيد
حلفت به لو قد تعرض دونه كماة الأعادي في النسيج المسرد
لجردت للضرب المهنـد فانقضى مرادي وعزما مثل حد المهند
فما حل خل من فؤاد خليله محل « اعتماد » من فؤاد محمد
ولكنها الأقدار تردي بلا ظبا وتصمي بلا قتل وترمي بلا يد . »

(وله)

« مشمسك أفوح في معطسي ووجهك أملح في ناظري
ظفرت بقربك بعد امتناع فمن ذاك سميت بالظافر . »

(وله)

« يأيها الشمس التي قلبي لها أحد البروج
لولاك لم أك مؤثرا فرش الحرير على السروج . »

(وله)

« أباح لطيفي طيفها في الكرى الخدا فعض به تفاحة واجتنى وردا
وأدنى ثغراً شممت لشميه تخيل لي أني شممت به ندا
ولو قدرت زارت على حال يقظه ولكن حجاب البين ما بيننا مدا

أما وجدت عنا الشئون معرجا ولا وجدت منا خطوب النوى بدا
سقى الله صوب القطر أم عبيدة كما قد سقت قلبي على حره بردا
هي الظبي جيداً ، والغزالة مقلة وروض الربا نوحاء، وغصن النقا قدا.»

(وله)

« من عاشق يشكو صبابته إلى محب هائم مثله
كلاهما صب إلى إلفه حران ظمآن إلى وصله
يا رب عجل جمع هذا بذا وقرب الشكل إلى شكله . »

(وله)

« قلبي لبعدك عني عاسل فشوق صحيح وجسمي عليل
وودي على حسب ما تعلمين تزول الجبال وما إن يزول
فلا تستحيلي لبعد الديار فاني مع البعد لا أستحيل . »

(وله)

« القلب قد لج فما يقصر والوجد قد جل فما يستر
والدمع جار قطره وابل والجسم بال شفه أصفر
هذا ومن أعشقه واصل كيف به
لكن عدتني نائبات النوى عن دوحه
والكوكب الوقاد تحت الدجى في أفقه
والنرجس الفواح عب الندى في روضه
قد خبرت عني أني امرؤ في شعور
وأبدت الإشفاق من حالتي ومثل ما تـ
واستفهمت أن كنت داعلة أو دا اشتياق
سيدتي ! لم تمسي عاشقا أضحى كما أ
إذ قلت : هل من ألم طائف ما بك أو شوق فما تصبر
ظلمت بالشك هواي الذي يعرفه الغيب والمحضر
والله ما سقمي إلا هوى كل هوى في جنبه يصغر
غير جسمي فاعلمي أنني أروم لقياك ولا أقدر
فاستغفري الله من الظلم لي فإن من يظلم يستغفر . »

(وقال)

« يا طيبة لطفت مني منازلها فالقلب منهن والأحداق والكبد (١)
حبي لك الناس طراً يشهدون به وأنت شاهدة إن يثنهم حسد
لم يعرف الوصل فيما بيننا أبداً لو كنت واحدة مثل الذي أجد. »

---

(١) نسبت هذه الأبيات خطأً لابن زيدون انظر « ص ٢٢٣ »

(وقال)

« هل راكب ذاهب عنهم يحيينى إذ لا كتاب يوافينى فيحيينى (١)
قد مت إلا ذماء فى يمسكه أن الفؤاد بلقياهم يرجينى
ما سرح الدمع من عينى وأطلقه إلا اعتياد أسى فى القلب مسجون
صبراً لعل الذى بالبعد أمرضنى بالقرب يوما يداوينى فيشفينى
كيف اصطبارى وفى كانون فارقنى قلبى وها نحن فى أعقاب تشرين
شخص يذكرنى فاه وغرته شمس النهار وأنفاس الرياحين
لئن عطشت إلى ذاك الرضاب لكم قد بات منه يسقينى فيروينى
وإن أفاض دموعى نوح باكية فكم أراه يغنينى فيشجينى
وإن بعدت وأضنتنى الهموم لقد عهدته وهو يدنينى فيسلينى
أوحل عقد عزائى نأيه فلكم حللت عن خصره عقد الثمانين
ياحسن إشراق ساعات الدنو بدت كواكبا فى ليالى بعده الجون
والله ما فارقونى باختيارهم وإنما الدهر بالمكروه يرمينى
وما تبدلت حبا غير حبهم إذن تبدلت دين الكفر من دينى
أمدى الحبيب الذى لو كان مقتدراً لكان بالنفس والأهلين يفدينى
يارب قرب — على خير — تلاقينا بالطالع السعد والطير الميامين . »

(وقال)

« ولما التقينا للوداع غدية وقد خفقت فى ساحة القصر رايات (٢)
وقربت الجرد العتاق وصففت طبول ولاحت للفراق علامات
بكينا دما حتى كأن عيوننا لجرى الدموع الحمر فيها جراحات
وكنا نرجى الأوب بعد ثلاثة فكيف وقد كانت عليها زيادات »

(وقال)

« أهلا بكم صحبتكم — نحوى — الديم وحان أن يتسنى لى بكم حلم
حثو المطى ولو ليلا بعجلة فلن تضلوا ومن بشرى لكم علم
لانتم القوم إن خطوا بجد قلم وأن يقولوا يصب فصل الخطاب فلم
لاخرق — إن رقوا كتباً — ولا حصر إذ ينتدون ولا جور إذا حكموا
افدم أبا الأصبغ المحبوب تلق فتى هش المودة لا يزرى به سأم
هذا فؤادى قد طار السرور به إذ كنت تلقاك الوخادة الرسم
سأكتم الليل ماأشكوه من بعد وأسأل الصبح عنكم حين يبتسم . »

---

(١) وردت هذه القصيدة فى « ص ٦١ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .
(٢) وردت هذه القصيدة فى « ص ١٠٩ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .

(وقال)

«الشمس تخجل من جمالك فتغيب مسرعة لذلك
والغيث يجهي أن يصوب لما يراه من نوالك
والبــدر يطلع ناقصاً حتى يتمم من كمالك . »

(وقال)

« وشادن أسأله قهوة فجاد بالقهوة والورد (١)
فبت أسقى الراح من ريقه وأجتنى الورد من الخد. »

(وله)

« يا هلالا إذا بدا لى تجلت عن فؤادى دجنة الـكربات
وغزالا لمقلتيــه بقلبي فتكات كأنها فتكاتى
تهت إذ حزت بالوصال وبالهـــجر حياتى تملكا ومماتى
فترفق بموقف أنت منـــه فى سواد القلوب والحدقات
أنا أخشى عليك ياساكن القلـــب المبلى بالصد من نفرات »

(وله)

« أنا فى عذاب من فراقك سكران من خمر اشتياقك
صب الفــؤاد إلى' اعتنا قك وارتشافك واعتناقك
لا تحسـبى أنى ســلو ت لما توالى من فراقك
هــدى جفونى أقسمت لا تلتقى مالم تلاقــك
فصــلى جميل الظن بى وثقى بقلبي فى وثاقك . »

(وقال)

« وشمعة تنفى ظلام الدجى تحيي للعـــدم من الناس
قد جعل الرحمن من لطفه حياتها فى القطع للراس
ساعدتها والـكأس يسعى بها من ريقه أشهى من الكاس
ضياؤها لاشك من وجهه وحرها من حر أنفاسى »

(وله)

« يأبديع الحسن والإحســـان يا بدر الدياجى
يا غزالا صاد مــــنى بالطــلى ليث الهياج
قــد غنينا بسنا وجـــهك عن ضوء السراج »

(وله)

« تم له الحسن بالعذار واقترن الليـــل بالنهار
أخضر فى أبيض تبـدّى فذاك آسى وذا بهارى

(١) انظر « ص ٦٠ »

قد حوى مجلسى تماماً إن يك من ريقه عقارى . »

(وله)

« لله در أبى السنان من فارس شهم الجنان
تخشاه آساد الرجا ل كما تريم به القيان
فبأسه يفنى العدا ويحسنه يصبى الحسان . »

(وله)

« يقاتل باللحظ محبوبنا وبالسيف والرمح أمضى قتال
فطورا يصيد ظباء النساء وطورا يصيد أسود الرجال . »

(وله)

« إذا ما اقتحمت الوغى دارعاً وقنعت وجهك بالمغفر
حسبنا محياك شمس الضحى عليها سحاب من العنبر . »

(وله)

« يا قمرا قلبى له مطلع وشادنا فى مهجتى يرتع
والله ما أطمع فى العيش مذ أصبحت فى وصلك لا أطمع
ليت كما يرتع فى مهجتى أنى فى ريقته أكرع . »

(وله)

« وأغن يلعب بالهموم كما غدت أرماح قومى بالعداة لواعبا
ذى نغمة يسبى العقول بها رشاً من عند رضوان أتانا هاربا . »

(وله)

« مجن حكى صانعوه السما لتقصر عنه طوال الرماح
وصاغوا مثال الثريا عليه كواكب تقضى لنا بالنجاح
وقد زدان أطواقه بالنجوم كما لبس الأفق ثوب الصباح . »

(وله)

« أيا نفس لا تجزعى واصبرى فإن الهوى ما به منصف
حبيب جفاك وقلب عصا ك ولاح لحاك ولا ملطف
شجون منعن الجفون الكرى وعوضنها أدمعا تنزف . »

(وله)

« أبصرت طرفك عند مشتجر القنا فبدا لطرفى أنه ملك
أو ليس وجهك فوقه قمرا يجلى بنير نوره الحلك . »

(وله)

« فتكت مقلتاه بالقلب منى وبكت مقلتاى شوقاً إليه

لحكي لحظه لنا سيف عباد ودمعي له سحاب بديه .»

(وله)

« يا قمرا أفقه فؤادي مقالة لم تشب بإفك
ومن غدا مسترق حر الكلام قد حازه بملك
نثرت در القريض نثرا يقوم دهي له بسلك
فقلت لله در ذهن يخرج درا من بحر فلك
وجاءت الطير مودعات سرك يا سركل ملك
يبتال دلا على وداد محضته لي بغير شك . »

(وله)

« بعثت بالمرسل انبساطاً مني على خلقك الجميل
نزراً حقيراً نفيه يأتي فضلك في العذر والقبول
لو أنه مهجتي لكانت تصغر في قدرك الجليل . »

(وله)

« ترفقاً يا أبا يحيى ومن ظفرت كفي به ودعاني نصله الظافر
إن حال ما بيننا ريحاننا الناضر مناظر القلب حقا نحوكم ناظر
أحمي مكانك من قلبي وأمنعه كما حمى الحاجب الإسلام بالناصر . »

(وله)

« أحلفتني وعدك لي ومحلفاً أعهدكا
بعد بأن تهجرني واجر على عادتكا.»

(وله)

« وردت أبا الفتح ياسيدي ورود الكرى بعد طول السهاد
ولما احتللت بنا لم تحل من العين والقلب غير السواد
ودونك منا طيوراً غدت تطير إليك بريش الوداد . »

(وله)

« أبا الوليد تجاوز وهب لنا التغميضا
واقبل جواباً على نظمك الصحيح مريضاً
زففت نحوي عروساً تجتاب روضاً أريضا
حلوتها في سواد تجلو المعاني بيضا
وقد منحتك نزراً لا حقك المفروضا
وسوف أرفع جهدي من قدرك المخفوضا.»

(وله إلى أبيه رحمه الله)

« يا متبع الإكرام إلماما ومتبـــع الإنعام إتماما
وعادلا فى الناس لكنه أصــبح للأموال ظلاما
قرنت فى كفك بحر الندى بصارم أسكنته الهاما
وجمت فيك خصال الورى وحزت آراء وإقــداما
فالموت والعيش بيمناك قد صرن أســيافا وأقلاما
أثقلت بالإنعام ظهرى ، فقد ألجمت عن شكرك إلجاما
سفكت إفضالا دمى كي ترى تزيد فى عمرك أعــواما
فاسلم لاهراق دماء العدا ما طرد الإصباح إظلاما . »

(وله إليه يطلب مجنا)

« أيا ماجدا لم يرم شامخاً من المجد فاحتل غير القنن
سألتك صفراء بكراً تجد على بها شامخاً للـــمن
ترد الســـنان إذا أمها شبا حده من قويم السنن
وإن كنت من معشر فى الوغى أقاموا القلوب مقام الجنن . »

(وله إليه يطلب عوادا)

« ألا يا غرّة السعد وقرّة ناظر المجــد
ومولاى الذى ما زا ل يسحب حلة الحمد
لعبدك همة هامت بركض الضمر الجرد
ويرغب ضارعا منها إلى علياك فى الورد
وإن تقبضه من عبد تمنّ به على عبد . »

(بعث إليه مسرجا فكتب إليه)

« خلعت ثوب الصبىّ على السيــد الوفىّ
يا مســـترقا بنعما ء كل حر سرىّ
أتى على الورد سرج كالهدى فوق الهدىّ
سوف أورد رمحى عليه قلب الكمىّ . »

(وله إليه)

« يا أيها الملك الذى كفاه بخلت السحاب
أنعمت بالبيض الكعا ب على والخيل العراب
وغدوت تخشى العتا ب كما ترجى الثواب
برضاك أبصر نائي ال آمال منى ذا اقتراب
وبطيب أيامى لديـــك عرفت أيام الشباب
فشكرت منه أو ليائيــه من أياديك العذاب
بشبا سنانى فى الطعا ن وحد سيفى فى الضراب

وشبا لسانى فى الهجا ... فل بالتمثر لا يشاب
لازلت تنتعل النجو ... م وخد شانئك فى التراب»

(وله إليه)

« يا أيها الملك الذى لم يزل ... يسرى إلى غرته السارى
وجامعا فى كفه بالندى ... والبأس بين الماء والنار
اهنأ فقد نلت الذى تشتهى ... نفسك واشكر نعم البارى .»

(وله إليه يطلب الإذن بالصيد)

« امنن على عبد رجاك بساعة ... يرتاح فيها باصطياد أرانب
حتى يصيد عبدك الأبطال فى ... يوم الوغى بأسنة وقواضب .»

(وله إليه)

« وساعة للزمان مسعفة ... قنصت فيها أرانبا وحجل
فلا أرانى الإله منك رضى ... إن لم أصد من عداك كل بطل .»

(وله إليه)

«أيها البدر يشرق فى الظلام ... وستر الله مد على الأنام
وليث الغاب إقداما وبأسا ... ورب الفضل والنعم الجسام
عبيدك مولع بالصيد قدما ... وحب الصيد من شيم الكرام
فإذنك فيه واسلم للأعادى ... تدير عليهم كأس الحمام .»

(وله إليه)

« أيا ملكا عمى فضله ... ولم ألف فى بحر نعماه زجرا
عهدت البحار لجزر ومد ... وتأبى بحار أياديك جزرا
دعونا الأمانى لما رضيت ... فجاءت توالى علينا وتترى
فلم يبق لى أمل أرتجيه ... سوى أن أقوم بنعماك شكرا
بقيت ولا ملك إلا غدا ... غدا ملك كفك قهراً وقسرا

(وقال)

أمتصداً بالله دعوة آمل ... رجاك على بعد فأصبح ذا قرب
فأم مأمولا وأم ميمما ... وحامت أمانيه على مورد عذب
موارد ما حلأن عنهن حائما ... ولا غادرته غير مستعذب الشرب
وها أنا ظمآن لمنهل وردكم ... وحسبى موقوف على وردكم حسبى
أقر بالذى أملت مذ كنت آملا ... وتحتل من علياه فى المنزل الرحب
لجئت أغذ السير حتى كأننى ... لإفراط إغذاذى على ظهر النجب
فألفيت أعلى الناس قدرا وسؤددا ... وعدلا فدته النفس صدقا بلا كذب
يحن إلى راجيه كالوامق الصب ... ويهتز للمعروف كالصارم العضب
وإنى لما تولى وأوليت شاكر ... فمن شكر النعماء نال رضى الرب .»

وقال (١)

« لما تماسكت الدموع وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو ع على فمي السم النقيع
إن تستلب عني الدنا ملكي وتسلمني الجموع

---

(١) جاء في كتاب المراكشي قبل هذه الأبيات الرائعة مايلي :

قال يوسف بن تاشفين لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : « كنت أظن أني ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي ، فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ » فاتفق رأيه ورأي أصحابه على أن يراسلوا المعتمد يستأذنونه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ، ومجاهدة العدو والسكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك ، فأذن لهم بعد أن وافق على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار لمملكتهم وجدوا في كل بلد أعواناً ، وقد كانت قلوب أهل الأندلس كما ذكرنا قد أشربت حب يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمر عليهم رجلا من قراباته يسمى « بلجين » وأسر إليه ما أراده ، فجاز بلجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة ، فقال : « أين تأمرني بالسكون ؟ » فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد ، وكان مبدؤها في شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدوة دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك ، فتشعبت جموعه وأهواؤها ملتئمة ، وانتثرت بلاده وقلوب أهلها على محبته منتظمة ، ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المؤمنين انتشر ذلك في الأندلس ، وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم الساكنون في الحصون إلى قرطبة فحاصروها وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البلد وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عذراً ، وأظهر في الدفاع عن نفسه جلدا وصبرا ، وذلك في مستهل صفر الكائن في سنة ٤٨٤ فزادت الإحنة والمحنة ، واستمرت في علوائها الفتنة . وأجمعت على الثورة بحضرة اشبيلية طائفة ، فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف له عن مرادها ، وأثبت عنده سوء اعتقادها ، وأغرى بتمزيق أديمها ، وسفك دمها ، وحض على هتك حريمها ، وكشف حرمها ، فأبى له ذلك مجده الأثيل ، ورأيه الأصيل ، ومذهبه الجميل ، وما حباه الله من حسن اليقين ، وصحة العقل والدين ، إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة فقاموا بجيش غير مستنصر ، واستنفروا بغاثا غير مستنسر ، فبرز هو من قصره ، سيفه بيديه ، وغلالته ترف على جسده لادرقة له ولا درع عليه ، فلقي على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكي السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه ، وعصمه الله منه ودفعه بفضله عنه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه ، فخر صريعاً ، وانهزمت تلك الجموع ، ونزل المتسنمون للأسوار عنها ، وظن أهل اشبيلية أن الخناق قد تنفس ، فلما كان عصر ذلك اليوم ، عاودهم القوم ، فظهروا على البلد من واديه ،

فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا ... ع أيسلب الشرف الرفيع ؟
قد رمت يوم نزالهم ... إلا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ... ـص عن الحشى شيء دفوع
وبذلت نفسي كي تسيـ ... ـل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن ... بهواي ذلي والخشوع
ما سرت قط إلى القتا ... ل وكان من أملي الرجوع
شيم الألى أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع .»

ويئس من سكنى ناديه ، وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه ، وشبت النار في شوانيه ، فانقطع عندها العمل والقول ، وذهبت القوة من أيدي أهلها والحول ، وكان الذي ظهر عليها من جهة البر رجل من أصحاب يوسف أمير المسلمين والتوت الحال أياما يسيرة إلى أن ورد الأمير سير ابن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخي أمير المسلمين بعساكره متظاهرة ، وحشود من الرعية وافرة ، والناس في خلال هذه الأيام قد حاصرهم الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سباحة ، ويعبرون النهر ساحة ، ويتولهون مجاري الأقذار ، ويترامون من شرفات الأسوار : حرصاً على الحياة والموفون بالعهد ، المقيمون على صريح الود ، ثابتون إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى فيه حم الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من واديه ، وأصاب حاضره وباديه ، بعد أن جد الفريقان في القتال ، واجتهدت الفئتان في النزال ، وظهر من دفاع المعتمد — رحمه الله — وبأسه ، وترامِيه على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه ، ولا تناه لخلق إليه ، وفي ذلك يقول المعتمد بعد نازل بالعدوة أسيراً حسيراً :

« لما تماسكت الدموع وتنبه القلب الصديع » .... الخ

فشنت الغارة في البلد ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبدا ولا لبدا ، وانتهبت قصور المعتمد نهباً قبيحا ، وأخذ هو قبضا باليد ، وأجبر على مخاطبة ابنيه المعتمد بالله والراضي بالله ، وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة لو شاء أن يمتنعا بهما لم يصل أحد إليهما . أحد الحصنين يسمى رندة ، والآخر مارتلة ، فكتب رحمه الله ، وكتبت السيدة الكبرى أمهما مستعطفين مسترحمين معلمين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما فانفا من الذل وأبيا وضع يديهما في يد أحد من الناس بعد أبيهما ، ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ، ونبذ دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ومواثيق محكمة . فأما المعتمد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه وأما الراضي بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفي جسده ، ورحل المعتمد وآله بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله بلغة زاد ، فركب بالسفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدوة بطنجة ..

(وقال)

«قل لمن قد جمع العلـ ـم وما أحصى صوابه(١)

(١) قال المراكشي في كتاب المعجب :

« أقام المعتمد بطنجة أياماً ، ولقيه بها الحصري الشاعر ، فجرى معه على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الالحاف، ورفع إليه أشعاراً قديمة كان قد مدحه بها، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه ولم يكن عنـد المعتمد في ذلك اليوم مما زود به فيما بلغني أكثر من ستة وثلاثين مثقالا طبع عليها ، وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها سقطت من حفظي ووجه بها إليه فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه كان هذا الرجل أعني الحصري الأعمى أسرع الناس في الشعر خاطرا إلا أنه كان قليل الجيد منه ، فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها : قل لمن قد جمع الخ »

وأقام المعتمد بطنجة رحمه الله أياما على الحال التي تقـدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينـة مكناسـة ، فأقام بها أشهرا إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة اغمات ، فأقاموا بها إلى أن توفي المعتمد رحمه الله ودفن بها وقبره معروف هناك ، وكانت وفاته في شهور سنة ٨٧ وقيل سنه ٨ فالله أعلم ، توفي وسنه إحدى وخمسون سنة ، فمن أحسن ما رثي به المعتمد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبانة أولها :

«لكل شيء من الأشياء ميقات ... وللمنى من مناياهن غايات
والدهر في صبغة الحرباء منغمس ... ألوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج في يده ... وربما قمرت بالبيدق الشاة
فانفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الأرضي قد كتمت ... سريرة العالم العلوي « اغمات »
طوت مظلتها لا بل مـذلتها ... من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان بين الندى والبأس أنصله ... هنـدية وعطاياه هنيـدات
أنكرت إلا التواء القيود به ... وكيف تنكر في الروضات حيات
وقلت هن ذؤابات فلم عكست ... من رأسه نحو رجليه الذؤابات
رأوه ليثاً فخافوا منـه عادية ... عذرتهم فلعدوى الليث عادات.»

وله من قصيدة يرثيهم بها وهي كثيرة الجيد أولها :

« مريسة دخلتها النائبات على ... أساود لهـم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تعمرها ... فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
تلك الرماح رماح الخط ثقفها ... خطب الزمان ثقافا غير معتاد
والبيض بيض الظبا فلت مضاربها ... أيدي الردى وثنتها دون إغماد
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة ... وكل شيء لميقات وميعاد
كم من دراري سعد قد هوت ووهت ... هناك من درر للمجد افراد
نور ونور فهذا بعـد نعمته ... ذوي وذاك خبا من بعـد إيقاد
يا ضيف اقفر بيت المكرمات فخذ ... في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

كان فى الصرة شعر فتنظرنا جـــوابه
قد أثبناك مهـــلا جلب الشعر ثوابه .»

ويا مؤمل واديهم ليسكنه خف القطين، وجف الزرع بالوادى
ضلت سبيل الندى بابن السبيل، فسر لغير قصد، فما يهديك من هاد .»

وفيها يقول :

« اسيت ـ الاغداة النهر ـ كونهم فى المنشـــئات كأموات بألحاد
والناس قدملئوا العبرين، واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حط القناع، فلم تستر مخدرة ومزقت أوجـــه تمزيق أبراد
تعرقوا حيرة، من بعد ما نشأوا أهلا بأهل، وأولاداً بأولاد
حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم ـ والنوح يتبعها ـ كأنها إبل يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دمع، وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد
من لى بكم ـ يابنى ماء السماء ـ إذا ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى .»

وهى طويلة جدا هذا ما اخترت له منها .

« ولما اتصل برعاعة الشعراء وملحق أهل الكديه ماصنع المعتمد رحمه الله مع الحصرى تعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق ، فقال فى ذلك رحمه الله .

« شعراء طنجة كلهم والمغرب ، ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
سألوا العسير ـ من الأسير ـ وإنه بسؤالهم لأحق ، فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخميـــة ـ طى الحشا ـ ساواهم فى المطلب
قدكان ـ إن سئل الندى ـ يجزل، وإن نادى الصريخ ببابه اركب يركب »

وله فى هذا المعنى رحمه الله :

« قبح الدهر ، فماذا صـــنعا كلما أعطى نفيسا نزعا
قد هوى ـ ظلماً ـ بمن عادته أن ينادى كل من يهوى لعا
من إذا الغيث همى منهمراً أخجلتها كفـــه فانقطعا
من غمام الجود من راحته عصفت ريح به فانقشـــعا
من إذا قيل الخنا صم وإن نطق العافون همسا ســـمعا
قل لمن يطمع فى نائلـــه قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعـــوة جبر الله العفاة الضيعا . »

معارضات الشعراء لابن زيدون (١)

« أولع كثير من الشعراء من قدماء ومحدثين بمعارضات ابن زيدون ، ولو أردنا أن نثبت معارضاتهم الكثيرة لقصائده المشهورة لاحتجنا إلى سفر ضخم فلنجتزئ بقصيدة « أبي بكر بن الملح » التي ذكرها « ابن بسام » في كتاب الذخيرة من القدماء ، وقصائد أمير الشعراء أحمد شوقي بك التي عارض بها ابن زيدون . »

معارضة أبي بكر

قال ابن بسام بعد أن ذكر نونية ابن زيدون التي أولها :
« أضحى التنائي بديلا من تدانينا » (٢)

« وهذه القصيدة بجملتها فريدة ، وقد عارضه فيها جماعة قصروا عنه منهم « أبو بكر بن الملح » نازعه فيها الراية ، فقصر عن الغاية حيث يقول من قصيدة أولها . »

هل يسمع الربع شكوانا فيشكينا
أو يرحم القول معناه فيغنينا

ثم استمر في غزلها إلى أن قال :

يا باخلين علينا أن نودعكم
وقد بعدتم عن اللقيا لحيونا
قفوا نزركم وإن كانت فرائدكم
نزراً ، ومنكم بالوصل ممنونا
سركم الوصل ظناً لا فقدتكم
فكان بالوهم موجوداً ومظنونا
مسرى من المسك عن مسرا كم خبر
بعيد عهد هواكم سيرة فينا
أيام بدركم يجلو ليالينا
نوراً وطيبكم يرعى بوادينا
مهلا فلم نعتقد دين الهوى تبعاً
ولا قرأنا بصحف المس تلقينا
قد نصرف العذل يغوينا ويرشدنا
ونترك الدار تسلينا وتشجينا
ونتبع الحيّ والأشواق محرقة
نحوم بالماء والأرحام تحمينا
كواكب بسماء النقع قد جعلت
لنا رجوماً وما كنا شياطينا

معارضات أمير الشعراء

اندلسية

« نظم أمير الشعراء هذه القصيدة الرائعة وهو في منفاه بإسبانيا يحن فيها إلى الوطن العزيز ويصف كثيراً من مشاهده ومعاهده

(١) انظر «ص ٤١٢» (٢) انظر «ص ٤»

يا نائح «الطلح» أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقصُّ علينا غير أن يداً
قصت جناحك جالت فى حواشينا !
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا
أخا الغريب : وظلاً غير نادينا
كل رمته النوى ! ريش الفراق لنا
سهماً ، وسلّ عليك البين سكينا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع
من الجناحين عيّ لا يلبينا
فإن يك الجنس — يابن الطلح — فرّقنا
إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تأل ماءك تحناناً ولا ظمأ
ولا ادّكاراً ، ولا شجواً أفانينا
تجرّ من فنن ساقاً إلى فنن
وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
أُساة جسمك شتى حين تطلبهم
فمن لروحك بالنطس المداوينا !

⁂

آهاً لنا ! نازحى أيك بأندلس
وإن حللنا رفيفاً من روابينا
رسم وقفنا عَلَى رسم الوفاء له
نجيش بالدمع ، والإجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم
ولا مفارقهم إلا مصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة
للناس ، كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم
كالخمر من «بابل» سارت «لدارينا»
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته
تماثل الورد «خيريا» و «نسرينا»
نسقى ثراهم ثناء ، كلما نثرت
دموعنا نظمت منها مراثينا
كادت عيون قوافينا تحركه
وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا
لكنّ مصر وإن أغضت عَلَى مقة
عين من الخلد بالكافور تسقينا
عَلَى جوانبها رفّت تمائمنا
وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا
وأربع أنست فيها أمانينا
ومطلع لسعود من أواخرنا
ومغرب لجدود من أوالينا
بنا فلم نخل من روح يراوحنا
من برّ مصر وريحان يغادينا
كأمّ موسى ، عَلَى اسم الله تكفلنا
وباسمه ذهبت فى اليمّ تلقينا

ومصر كالكرم ذي الإحسان : فاكهة
لحاضرين ، وأكواب لبادينا

⁂

ياساري البرق يرمي عن جوانحنا
بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا
لما ترقرق في دمع السماء دماً
هاج البكا فخضبنا الارض باكينا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه
عَلَى نيام ولم تهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا عَلَى قدم
قيام ليل الهوى للعهد راعينا
كزفرة في سماء الليـــل حائرة
مما تردد فيه حـــين يضوينا
بالله إن جبت ظلماء العباب عَلَى
نجائب النور محدوًا (بجرينا)
ترد عنك يداه كل عادية
إنساً يعثن فساداً أو شياطينا
حتى حوتك سماء النيل عالية
عَلَى الغيوث وإن كانت ميامينا
واحرزتك شفوف اللازورد عَلَى
وشْيِ الزبرجد من أفواف وادينا
وحازك الريف أرجاء مورجة
ربت خمائل ، وأهتزت بساتينا
فقف إلى النيل واهتف في خمائله
وانزل كما نزل الطل الرياحينا
وآس ما بات يذوى من منازلنا
بالحادثات وَيضوى من مغانينا

⁂

ويامعطرة الوادي سرت سحراً
فطاب كل طروح من مرامينا
ذكية الذيل لو خلنا غلالتها
قميص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا
بالورد كتباً ، وبالريا عناوينا
فلو جزيناك بالأرواح غالية
عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا
هل من ذيولك مسكى نحمله
غرائب الشوق وشياً من أمالينا
إلى الذين وجدنا ود غـــيرهم
دنيا وودهمو الصافي هو الدينا

⁂

يا من نغار عليهم من ضمائرنا
ومن مَصون هواهم في تناجينا
ناب الحنين إليكم في خواطرنا
عن الدلال عليكم في أمانينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا
في النائبات فلم يأخذ بأيدينا

وما غلبنا على دمع ولا جلد
حتى أتتنا نواكم من صياصينا

ونابغى كأن الحشر آخره
تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا

نطوى دجاه بجرح من فراقكمو
يكاد فى غلس الأسحار يطوينا

إذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا
حتى يزول ، ولم تهدأ تراقينا

بتنا نقاسى الدواهى من كواكبه
حتى قعدنا بها : حسرى تقاسينا

يبدو النهار فيخفيه تجلدنا
للشامتين ، ويأسوه تأسينا

*

سقياً لعهد كأكناف الربى رفة
أنى ذهبنا ، وأعطاف الصبا لينا

إذ الزمان بنا غيناء راهية
ترف أوقاتنا فيها رياحينا

الوصل صافية ، والعيش ناغية
والسعد حاشية ، والدهر ماشينا

والشمس تختال فى العقيان تحسبها
«بلقيس» ترفل فى وشى اليمانينا

والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت
لو كان فيها وفاء للمصافينا

والسعد لو دام ، والنعمى لو اطردت ،
والسيل لو عف ، والمقدار لو دينا

ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا
ماء لمسنا به الإكسير أو طينا

أعداه من يمنه «التابوت» وارتسمت
على جوانبه الأنوار من سينا

له مبالغ ما فى الخلق من كرم
عهد الكرام وميثاق الوفيينا

لم يجر للدهر إعذار ولا عرس
إلا بأيامنا أو فى ليالينا

ولا حوى السعد أطغى فى أعنته
منا جياداً ، ولا أرخى ميادينا

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا
ولم يهن بيد التشتيت غالينا

ولا يحول لنا صبغ ولا خلق
إذا تلون كالحرباء شانينا

لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت
فى ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا

ألم تؤله على حافاته ، ورأت
عليه أبناءها الغر الميامينا ؟

إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا
خمائل السندس الموشية الغينا

وبات كل مجاج الواد من شجر
لوافظ القز بالخيطان ترمينا

وهذه الأرض من سهل ومن جبل .
قبل (القياصر) دِنّاها (فراعينا)

ولم يضع حجراً بان على حجر
في الأرض إلا على آثار بانينا

كأن أهرام مصر حائط نهضت
به يد الدهر لا بنيان فانينا

إيوانه الفخم من عليا مقاصره
يفني الملوك ولا يبقى الأواوينا

كأنها ورمالا حولها التطمت
سفينة غرقت إلا أساطينا

كأنها تحت لألاء الضحى ذهباً
كنوز (فرعون) غطين الموازينا

⁂

أرض الأبوة والميلاد ، طيبها
مر الصبا في ذيول من تصابينا

كانت محجلة فيها مواقفنا
غرا مسلسلة المجرى قوافينا

فآب ـ من كُرَةِ الأيام ـ لاعبنا ،
وثاب ـ من سنة لأحلام ـ لاهينا

ولم ندع لليالي صافياً ، فدعت
«بأن نغص فقال الدهر : آمينا»

لو استطعنا : لخضنا الجو صاعقة .
والبر نار وغى ، والبحر غسلينا

سعيا إلى مصر نقضي حق ذاكرنا
فيها إذا نسي الوافي وباكينا

كَنْزٌ (بحلوان) عند الله نطلبه
خير الودائع من خير المؤدينا

لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا
لم يأته الشوق إلا من نواحينا

إذا حملنا لمصر أوله شجناً
لم ندر أي هوى الأمين شاجينا

زحلة

« وقال معارضاً قصيدة ابن زيدون التي أولها :
« ما للمدام تديرها عيناك »

شيعت أحلامي بقلب باك
ولمحت من طرق الملاح شباكي

ورجعت أدراج الشباب ووردُه
أمشي مكانهما على الأشواك

وبجانبي واه كأن خفوقه
لما تلفت جهشة المتباكي

شاكي السلاح إذا خلا بضلوعه
فإذا أهيب به فليس بشاك

قد راعه أني طويت حبائلي
من بعد طول تناول وفكاك

ويح ابن جنبي كل غاية لذة
بعد الشباب عزيزة الإدراك

لم تبقَ منا يا فؤاد بقيةٌ
لفتوّة أو فضلة لعراك
كنا إذا صفقت نستبق الهوى
ونشد شد العصبة الفُتّاك
واليوم تبعث فيّ حين تهزنى
ما يبعث الناقوس فى النساك

*

يا جارة الوادى طربت وعادنى
ما يشبهُ الأحلامَ من ذكراك
مثّلتُ فى الذكرى هواكِ وفى الكرى
والذكرياتُ صدى السنين الحاكى
ولقد مررت على الرياض بربوة
غناء كنت حيالها ألقاك
ضحكتْ إلىّ وجوهها وعيونُها
ووجدت فى أنفاسها ريّاك
فذهبت فى الأيام أذكر رفرفا
بين الجداول والعيون حواك
أذكرت هرولة الصبابة والهوى
لما خطرت يقبلان خطاك
لم أدر ما طيبُ العناق على الهوى
حتى ترفّق ساعدى فطواك
وتأوّدت أعطاف بانك فى يدى
واحمرّ من خفرَيهما خداك
ودخلت فى ليلين فرعِك والدُّجى
ولثمتُ كالصبح المنوّر فاك
ووجدت فى كنه الجوانح نشوةً
من طيب فيك ومن سلاف لَماك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت
عينيّ فى لغة الهوى عيناك
ومحوت كل لُبانة من خاطرى
ونَسيت كل تعاتب وتشاكى
لا أمسِ من عمر الزمان ولا غدٌ
جُمِعَ الزمان فكان يوم رضاك

*

لُبنان ردّتنى إليكَ من النوى
أقدار سيرٍ للحياة دراك
جمعت نزيلَىْ ظَهرها من فرقة
كرةٌ وراء صوالج الأفلاك
نمشى عليها فوق كل فجاءة
كالطير فوق مكامن الأشراك
ولَوَ انّ بالشوق المزار وجدتنى
ملقى الرحال على ثراك الذاكى

*

بنت البقاع وأم بَرْدَوْنِيّها
طيبى كجلق واسكبى بَرَداك
ودمشق جنات النعيم وإنما
ألفيت سُدّة عدنهنّ رُباك

قسما لو انتمت الجداول والربا
لتهلل الفردوس ثم نماك

مرآك مرآه وعينك عينه
لم يا زحيلة لا يكون أباك

تلك الكروم بقية من بابل
هيهات نسّى البابلى جناك

تبدى كوشى الفرس أفتن صبغةٍ
للناظرين إلى ألذ حِياك

خرزات مسك أو عقود الكهربا
أُودعن كافوراً من الأسلاك

فكرتُ فى لَبن الجنان وخمرها
لما رأيت الماء مس طلاك

لم أنس من هبة الزمان عشية
سلفت بظلك وانقضت بذراك

كنت العروس عَلَى مَنصة جنحها
لُبنان فى الوشى الكريم جلاك

يمشى إليك اللحظ فى الديباج أو
فى العاج من أى الشعاب أتاك

ضمت ذراعيها الطبيعة رقة
«صِنِّين» و «الحرمون» فاحتضناك

والبدر فى ثَبَج السماء منوّرٌ
سالت حلاه على الثرى وحلاك

والنيرات من السحاب مطلة
كالغيد من ستر ومن شباك

وكأن كل ذؤابة من شاهق
ركن المجرة أو جدار سماك

سكنت نواحى الليل إلا أنة
فى الأيك أو وتراً شجىٌ حراك

شرفاً عروس الأرز كل خريدة
تحت السماء من البلاد فداك

ركز البيان على ذراك لواءه
ومشى ملوك الشعر فى مغناك

أدباؤك الزهر الشموس ولا أرى
أرضا تمخض بالشموس سواك

من كل أروع علمه فى شعره
ويراعه من خلقه بملاك

جمع القصائد من رباك وربما
سرق الشمائل من نسيم صباك

(موسى) ببابك فى المكارم والعلا
وعصاه فى سحر البيان عصاك

أحللت شعرى منك فى عليا الذرا
وجمعته برواية الأملاك

إن تكرمى يا زحل شعرى إننى
أنكرت كل قصيدة إلاك

أنت الخيال بديعهُ وغريبه
الله صاغك والزمان رواك

وقال

« وقال معارضاً كافية ابن زيدون التى أولها :

« ودع الصبر محب ودعك (١) »

ردت الروح عَلَى المضنى معك
أحسن الأيام يوم أرجعك

مرّ من بعدك ما روعنى
أترى يا حلو بعدى روعك

كم شكوت البين بالليل إلى
مطلع الفجر عسى أن يطلعك

و بعثت الشوق فى ريح الصبا
فشكا الحرقة مما استودعك

يا نعيمى وعذابى فى الهوى
بعذولى فى الهوى ما جمعك

أنت روحى ظلم الواشى الذى
زعم القلب سلا أو ضيعك

موقعى عنــدك لا أعلمه
آه لو تعلم عنــدى موقعك

أرجفوا أنك شاك موجع
ليت لى فوق الضنا ما أوجعك

نامت الأعــين ، إلا مقلة
تسكب الدمع وترعى مضجعك



صفحات من كتاب الذخيرة لابن بسام

فصل فى ذكر ذى الوزارتين الكاتب أبى الوليد ابن زيدون واجتلاب عيون أخباره، ونصوص رسائله وأشعاره .

قال أبو الحسن كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم وخاتمة شعراء مخزوم، أحد من جر الأيام جراً، وفاق الأنام طرا، وصرّف السلطان نفعا وضرا، ووسع البيان نظماً ونثرا، إلى أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزهر اقترانه، وحظ من النثر غريب المباني، شعرى الألفاظ والمعاني أخبرنى غير واحد من وزراء اشبيلية قال: خلص ابن عبد العزيز من يد عباد، خلوص الفرزدق من يد زياد، وبقيت حضرته من أهل هذا الشان، أعرى من ظهر الأفعوان وأخلى من صدر الجبان، فهمّ باستجلاب (محمد بن الباجى) المشهور أمره، الآتى فى القسم الثانى من هذا الديوان ذكره، وكأنّ أبا الوليد غص بذلك وواطأ أبا محمد بن الجد على الاشارة بالاستغناء عما هنالك، فكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبى الوليد إلى شرق الأندلس، فيقال تأتى باشبيلية كتب هى بالنظم الخطير، أشبه منها بالمنثور

حظوته عند ابن جهور

وقد أجرى ذكره أبو مروان بن حيان فى وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته، فقال «ونوه بفتى الآداب، وعمدة الظرف، والشاعر البديع الوصف، أبى الوليد أحمد بن زيدون ذى الأبوّة السنية بقرطبة، والوسامة، والدراية، وحلاوة المنظوم، والسلاطة، وقوّة العارضة، والافتنان فى المعرفة، وقدمه للنظر على أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة وقصره بعد مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤسا، فأحسن التصرف فى ذلك، وغلب على قلوب الملوك» قال أبو مروان وكان أبو الوليد من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة فى أيام الجماعة والفتنة وبرع أدبه، وجاد شعره، وعلا شأنه، وانطلق لسانه، فذهب به العجب كل مذهب وهون عنده كل مطلب، وكان علقه من عبد الله بن أحمد بن المكرى أحد حكام قرطبة ظفر أحجن، أداه إلى السجن، فألقى نفسه يومئذ على أبى الوليد بن جهور فى حياة والده أبى الحزم فشفع له وانتشله من نكبته وصيره فى صنائعه، ولما ولى الأمر بعد والده نوه به وأسنى حظه وقدمه فى الذين اصطنع لدولته، وأوسع راتبه وحلاه كرامة لم تقنعه فيما زعموا، واتفق أن عن له مطلب بحضرة إدريس الحسنى بمالقة، فأطال الثواء هنالك، واقترب من إدريس، وخف على نفسه، وأحضره مجالس أنسه، فعتب عليه ابن جهور، وصرفه فى السفارة بينه وبين أمراء الأندلس فيما يجرى بينهم من التراسل والمداخلة، فاستقل بذلك لفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة، فاكتسب الجاه والمنفعة ولم يبعده ذلك من التهافت فى الترقى لبعد الهمة، فهوى عما قليل إلى عباد صاحب إشبيلية احتذبه إلى ذلك فهاجر عن وطنه إليه، ونزل على كنفه، وصار من خواصه وصحابته، يجالسه فى خلواته، ويراسل له فى مهم رسائله على حال من التوسعة، وكان ذهابه لعباد سنة ٤٤١ هـ إحدى وأربعين وأربعمائة . قال أبو الحسن : «فأما سعة ذرعه، وتدفق طبعه، وغزارة بيانه، ورقة حاشية لسانه، فالصبح الذى لاينكر ولا يرد، والرمل الذى لايحصى ولا يعد . »

بداهته وتصرفه بفنون القول

أخبرنى من لاأدفع خبره من وزراء إشبيلية قال: « عهدى بأبى الوليد قائما على جنازة بعض حرمه والناس يعزّونه على اختلاف طبقاتهم، فما سمع يجيب بما أجاب به غيره لسعة ميدانه، وحضور جنانه .» وقد أخرجت من أشعاره التى هى حجول وغرر ونوادر أخباره التى هى مآثر وأثر، ورسائله

التي أخرست الحفل ، واستوعت أمد المطلق الجرل.

. . . .

. . . .

. . . .

وله في ابن جهور ، وكتب بها من السجن :

« ماجال بعدك لحظي في سنا القمر
إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر » الخ

وله أيضاً قصيدة فريدة خاطب بها ابن جهور وهو في تلك الحال من الاعتقال أوّلها :

« ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي
ويطلب ثأري البرق منصلت النصل . »

وفي بني جهور يقول :

« بني جهور أحرقتم بجفائكم
جناني ، فما بال المدائح تعبق
تعدونني كالعنبر الورد إنما
تطيب لكم أنفاسه حين يحرق . »

وأراه توارد في هذين البيتين مع أبي علي بن رشيق القيرواني حيث يقول :

« أراك اتهمت أخاك الثقه
وعندك مقت وعنــدي مقه
وأثني عليك وقد سؤتني
كما طيب العود من أحرقه . »

وأخذاه معاً من قول أبي تمام :

« لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف فضل طيب العود . »

***

وأنشدني بعض أهل وقتنا ، وهو أبو مروان بن شماخ لنفسه :

« نوائب عالتني ، فأبدت فضائلي
وكانت وكنت النار والعنبر الوردا . »

ولغيره :

« إن مسّ النار جسمي
أبديت طيب نسيم

كالعنبر إن عض يوما
أبان فضل الكريم . »

***

وأبو الوليد بن زيدون — على كثرة إحسانه — كثير الاهتدام في النثر والنظام ، وكتب إلى أبي بكر مسلم وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن ، فصلا من رقعة :

« وبلغني أنك أحد اللائمين ومن أمثالهم ويل للشجيّ من الخليّ ، وهان على الأملس مالاقى الدبر واعتبك على انفصالك عني وترى أنك أحد الحمة مني فلم أستطع صبراً ، وعلمت أن العاجز من لايستبدّ فالمرء يعجز لامحالة ، ولم أستحر أن أكون ثالث الأذلين العير والوتد ، وتذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لايطاق من سنن المرسلين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : ففررت منكم لما خفتكم . ففطرت في مفارقة الوطن فقديما ضاع الفاضل في وطنه ، وكسد العلق النفيس في معدنه كما قال :

« أصبح في معشري وكم بلد
يكون عود الكباء من حطبه »

فاستخرت الله في إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن إلا أن السعي لم يرتفع ومادة البغي لم تنقطع ، وختم رسالته بهذا النظم :

« شحطنا وما بالدار نأي ولا شحط
وشط — عن نهوى — المزار وماشطوا . »

***

. . . .

كان أوّل هذه القصيدة ناظراً إلى قول راشد أبي حكيمة حيث يقول :

« ومستوحش لم يمش في أرض غربة
ولكنه ممن يحبّ غريب . »

ويناسبه أيضا قول المتنبي :

« إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
أن لا تفارقهم فالراحلون هم . »

قوله هرمت وما الشيب البيت ناقص من قول المتنبي :

« إن لا يشب فلقد شابت له كبدى
شيب إذا خصبته سلوة نصلا . »

وقد كرّر هـذا المعنى أبو الطيب فى مواضع من شعره وكلف به وشعب الكلام فيه فتصرف ، وقد تقدّم إنشاده ، ومنه أيضاً قول عبد الجليل المرسى للمعتمد ابن عباد :

***

« أتتك على حلائقها حيادى
وإن كان الصباغ لها شكالا . »

وكتب أيضاً أبو الوليد بن زيدون من محبسه ذلك إلى أبى حفص بن برد بهذه الأبيات :

« ماعلى ظبىَ باس يجرح الدهر وياسو (١)
ربما أشرف بالمر ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك إغفا ل، ويرديك احتراس
والمحاذير سهام والمقادير قياس
يا أبا حفص وما سا واك فى فهم إياس
من سنا رأيك لى فى غسق الخطب اقتباس
وودادى لك نص لم يخالفه القياس
أذؤب هامت بلحمى فانتهام وانتهاس
يلبد الورد السبتى وله بعد افتراس
إن أكن أصبحت شو ساً فللميث احتباس
فتأمل كيف يغشى مقلة المجد النعاس
ويفت المسك فى التر ب فيوطا ويداس
لا يكن عهدك ورداً إن عهدى لك آس
وأدر ذكرىَ كأساً ما امتطت كفك كاس
فعسى أن يسمح الدهر فقد طال الشماس . »

قوله يلبد الورد السبتى البيت كقول النابغة :

« وقلت يا قوم إن الليث منقبض
على براثنه للوثبة الضارى . »

وأخذه ابن الرومى فقال :

« سكنت سكوناً كان رهناً بوثبة
عماس كذاك الليث للوثب يلبد . »

وقوله لا يكن عهدك ورداً من قول العباس بن الأحنف :

« لا تجعلى وصلنا كالورد حين مضى
دا طلعة وأديمى الورد كالآس . »

كرّره العباس فى موضع آخر ، فقال :

« ولكننى شبهت بالورد عهدها
وليس يدوم الورد والآس دائم . »

***

ما أخرجته من شعر ابن زيدون فى النسيب وما يناسبه من قصيدة :

« بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا (١)
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأياً ولم نتقلد غيره دينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانية
قطافها فجنينا منه ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما
كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
إذ طالما غير النأى المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ياسارى البرق غاد القصر فاسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا
من لو على البعد حيا كان يحيينا
ربيب ملك كأن الله أنشأه
مسكا وقدر إنشاء الورى طيناً

---

(١) أثبتنا هذه الأبيات هنا لاختلاف روايتها عن رواية الذخيرة .

(١) أثبتنا هذه الأبيات هنا لاختلاف روايتها عن رواية الديوان .

إذا تأوّد آدته ـ رفاهية ـ
توم العقود وأدمته البرى لينا
كانت له الشمس ظئرا فى أكلته
بل ما تجلى لنا إلا أحايينا
يا روضة طال ما أجنت لواحظنا
وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها
منى ضروبا ولذات أفانينا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة
وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها
والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قد غض من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
إنا قرأنا الأسى عند النوى سورا
مكتوبة، وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله
شربا وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
ـ سالين عنه ـ ولم نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبناك عن كثب
لكن عدتنا ـ على كره ـ عوادينا
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة
فينا الشمول، وغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا
سيما ارتياح، ولا الأوتار تلهينا
دومى على الوصل ما دمنا محافظة
فالحر من دان إنصافا كما دينا
فما استفدنا خليلا عنك يصرفنا
ولا استفدنا حبيبا عنك يسلينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه
بدر الدجى لم يكن ـ حاشاك ـ يصبينا
أبدى وفاء، وإن لم تبذلى صلة
فالذكر يقنعنا، والطيف يكفينا
وفى الجواب متاع إن شفعت به
بيض الأيادى التى ما زلت تولينا
عليك منى سلام الله ما بقيت
صبابة بك نخفيها فتخفينا . »

وهذه القصيدة يحملها مريدة وقد عارضه فيها جماعة قصروا عنه (١) . . . .

وله من أخرى أثر نزهة كانت له بمنية الزهراء :

« إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا . »

وله من أخرى، وكتب بها من بطليوس أيام تكرره عليها وهى من غرر نظامه وحر كلامه :

« يا دمع صب ما شئت أن تصوبا
ويا فؤادى آن أن تذوبا . »

وله :

« وضح الحق المبين ونفى الشك اليقين . »

وقال :

« صحت فصح بها السقيم ريح معطرة النسيم . »

وقوله :

« يا ليل طل لا أشتهى إلا بوصل قصرك
لو بات عندى قمرى ما بت أرعى قمرك . »

وقوله :

« ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك . »

وقال :

« بينى وبينك ما لو شئت لم يضع
سر إذا ذاعت الأشياء لم يذع . »

وفيها يقول :

« ته أحتمل واستطل أصبر وعز أهن
وول أقبل وقل أسمع ومر أطع . »

أراه احتذى بهذا البيت مذهب أبى العميثل الأعرابى :

« فاصدق وعف وبر واصبر واحتمل
واصفح ودار وكاف واحلم واشجع
والطف ولن وتأن وارفق واتئد
واحزم وجد وحام واحمل وادفع . »

كقول ديك الجن :

« أحل وامرر وضر وانفع ولن واخشن
ورش وابر وانتدب للمعالى . »

وهذا البيت صنعه المولدون وعدوه تقسيما

(١) وقد أثبتنا بعض هذه المعارضات فى ص « ١٠٤ »

وتمطيطاً وتبعهم المتنبي فقال :

« اقل انل اقطع احمل عل سـل أعد
زد هش بش تفضل ادن سر صل . »

ثم زاد المتنبيّ من هذا وبى حق قال :

« عش ابق اسم اسر قد جد
مرانه جد رف اسربل . »

بيته المعروف . وأحسن لعمرى ابن زيدون فى هذا التقسيم، ودامع بالحديث فى صدر القديم، ولو .قرع سمع أبى منصور بهذا الشذوذ لما كان عند ابن وسكيز بمذكور ،ولا أعرب بغرائب الصاحب ولا سدائم البديع . ومن شعر أبى الوليد فى النسيب السائر العريب الطيار المليح الخفيف الروح قوله :

« أما رضاك فشىء ماله ثمن
لو كان ساحى فى ملكة الزمن . »

وقال من أخرى :

« أنت معنى الضى وسر الضلوع
وسبيل الهوى وقصد الدموع . »

وقال :

« عريب بأرض الشرق يشكر للصبا
تحملها منى السـلام إلى الغرب
وما ضر أنفاس الصبا فى احتمالها
سلام فتى يهديه جسم إلى قلب . »

وهذا منقول من قول العباس بن الأحنف حيث يقول :

« تالله ما شطت نوى ظاعن
سار من العين إلى القلب . »

وقال أبو الوليد من أخرى :

« سأحب أعدائى لأنك منهم
يا من يصح بمقلتيه ويسقم . »

وقال من قصيدة :

« أما فى نسيم الريح عرف معرف
لنا هل لذات الوقف بالجزع موقف . »

وقال أيضاً أبو الوليد من جملة قصيدة :

« يا أيها الملك الذى تدبيره
أضحى لمملكة الزمان ملاكا . »

وله من أخرى فى ابن جهور :

« هـــذا الصباح على سراك رقيبا
فصلى بفرعك ليلك الغربيبا . »

وقال ابن زيدون أيضاً :

« أما وألحاظ مراض صحاح
تصبى وأعطاف نشاوى صواح . »

وفى بنى جهور يقول عند نكبة بنى ذكوان :

« لولا بنو جهور ما أشرقت همم
عند السوالف فى أجيادها تلع . »

قوله فى هـــذه القصيدة إن السيوف إذا ما طاب جوهرها فى أول الطبع لم يعلق بها الطبع ، ينظر بلحظ قريب إلى قول حبيب :

« والسيف مالم يلف فيه صيقل
من سنخه لم ينتفع بصقال . »

وله من أخرى يهنئ المعتضد بن عباد بهزيمة ابنه اسماعيل لابن الأفطس وقتل ولد إسحاق بن عبدالله فى تلك الحرب :

« ليهن الهدى إنجاح سعيك فى العدا
وإن راح صنع الله نحوك واغتدى . »

وفاة ابن زيدون

ومما يتعلق بذكر وفاة ذى الوزارتين رحمة الله عليه فصل من تاريخ الشــيخ أبى مروان بن حيان رأيت إثباته لنبل مساقه ، وحسن انساقه . يقول فيــه ، وفى يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ســنة اثنين وســتين وأربعمائة سار الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد إلى إشبيلية الحضرة الأثيرة لمطالعتها ، وتأنيس أهلها من وحشة خامرت عامتهم من أهل عدوان رحل منهم على يهودى جاء(١) لأمر جهــة السوق عنــدهم ، فرهم أنه ســب الشريعة فبطش به المسـلم وسط السوق وجرحه وحرك عليه العامة ، فقبض عليــه صاحب المدينـة بها عبد الله بن سلام واعتقله فكان لعامة الناس فى حبســه كلام وإكثار خشن ناله ، فخاطب السلطان بقرطبة يعرفه ما كان منه ويستأمره فى شأنه ، فجعل إنفاذ ولده الحاجب سراج الدولة إلى اشبيلية فى جيش

(١) فى القطعة التالية كثير من الاضطراب وقد أثبتناها كما

كثيف من نخبة غلمانه ووجوه رجاله لمشارفة القصة
والاحتياط على العامة، فغدوا معه وسط هذا اليوم
وأنفذ معه ذا الوزارتين أبا الوليـد بن زيدون أحد
الثـلاثة أكابر وزرائه المثناة وزارتهم محمد دولتـه
ألزمه النفوذ مع الحاجب على قية وعلة متألماً منـه
ولم يعذره فى التوقف لأجله ، فمضى لطيته مساقا إلى
منيتـه وخلف ولده أبا بكر الفذ الوزارة المرتسمة
بالكتابة ، ورآه سادا مكانه بالحضرة ، فأقر فيها
أياما ، ثم أمر بالمسـير وراء والده لأمر كلفه أعجل
بالانطلاق له ، فقضى نحبـه غداة يوم السبت لثمان
خلون من المحرم سنة ثلاث وسـتين بعدها ، فخلت
منهم منازلهم بقرطبة وصيرت إلى سواهم ، فتحدث
الناس بسق مكان الأدب ابن زيدون لدى السلطان
وإن استمساكه لعلى مرتبة بعدمختصه المعتضد بالله .
كان من المعتمد على الله رعاية لخصوصية أبيـه به
يمص باسـتمرارها تفناه المختصان به الحظيان لديه
المستهمان لخاصته ابن مرتين وابن عمار إلى أن عملا
فى إبعاده وإبعاد ابنه الرقيب بعـده وأمضى حلمه ،
فنفدها استنباعا عصبة ، واستهملا مكانه ، واحتويا
على خاصة السلطان ، وتدبير دولتـه ، ولـكل دولة
رجال ، ولـكل مكتب إبدال ، ولم يطل الأمد لابن
زيدون بعـد لحاق ابنه به ، ووحدانه إياه متزايدا
فى مرضه ، نازعا عن الآمة على جهده فى استدعائها
على انتهاء المدة ، وانتهاك القوة ، فاستقر به وجعه
إلى أن قضى نحبـه ، وهلك بدار هجرته اشبيلية
صدر رجب سنة ثلاث وستين ، ودفن بها مشهودا
مفتقدا ، واحتوى ترابها عليه ، فيابعد ما بين قبره
وقبرأبيه لديا رحمة الله عليهما فقدتولى من أبى الوليد
كهل لن يخلف الدهر مثله جمالا وبيانا وبراعة وسلطانا
وظرفا وحلولا من مراتب البلاغة نظما ونثرا بمرقبة
لم يخلف لها بعده عاطيا نقرانه بين الكلامين وبراعة
فى الفنين إلا أن يكون عند أولى التحقيق والتحصيل
فى النظم أمد طلقاء، واحث عنقاء فلا يلحقه فيه تقصير
ولا يخشى رهقا شهوده فى الفنين عـدول مقانع
حضور عـند أهل المعرفة ، ولما اتصل خبر هلكه
بعشيرته أهل قرطبة شيعوه وبكوا لفقده وحزنوا
عليه،إذ كان منهم متعصبا له،هاويا إليهم،حدبا عليهم
وليجة خـير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية ،
فصار مصابه كفا فيـه من تأميلهم والبقاء لمن تمرد
به وحده لارب غـيره ولاحرم إذا أعز الله إخوانه
بابتـدار بقاء فتاه النـدب أبى بكر ولده ساد أمثله
ساميا مسماه عائطا عداه عاطيا منتهاه بأبوة صدق
يجرى إلى العلى بضيفه من سماحة ودماثة وحصافة
ونزاهة ومعرفة ووفور حظ من أدب بلاغة وكتابة
وشركة فى التعاليم العلمية واشتداد فى رعاية متقادم
الذمة لم يعقد إخوان أبيـه معها إلا غيبتـه خلال
حركى حاله عما قليل بعد أبيه عند سلطانه قسطاس
السياسة فاستبصر فى استحصاره وأدناه من احتبائه
ورقاه فى مراتب والده متقلا له فى درجاتها راضيا
بلاءه فيها ناطه به منها حتى فرع دروتها عما قليل
فأحظاه بالوزارة وصـيره وزيرا لحضرته الأثيرة
اشبيلية، وجعله أعاظم خططها العلية معاطس الناس
من قوام المملـكة خطة ولاية المدينة وواتاه الزمان ،
والله يؤتى فضله من يشاء له الفضل والامتنان .

وقال :

« لا طار لى حظ إلى غاية
إن لم أكن منك مريش الجناح
وعتباك بعـد العتب أمنية
مالى على الدهر سواها اقتراح
لم يثنى عن أمل ما جرى
قد يرتع الحرق وتؤسى الجراح
فاحمد بحمى الرأى عمن يريح
منه العدا بكل شاكي السـلاح
واشـفع فللشافع لدمى بما
تمر من عقد وثيق النواح
إن سحاب الأفق منها الحيا
والحمد فى تأليفها للرياح . »

وكان القاضى أبو بكر بن ذكوان أجل من اشتمل
عليه أوان مجدا وشرفا ونفسا فى العلم وتطرفا مع
دعابة حـين خلواته تحل حى المحتى ورفاقه عنـد
نشواته كالتنوخى والمهلبى، فإذا أصبحوا بكر أبوبكر
إلى مصادرة ما يتجه عليه الحكم ومواجهته وأذكر

ما كان عليه من فكاهته فكأنه في بردية الامام وكأنه وقار بديل أوشمام مع عدله في قضائه وإنفاذ الحكم بمقتضى الحق وإمضائه حتى إذا راح الرواح عادوا إلى القصف وتجاروا في ميدانهم كل وصف إلى أن اختلس أبو بكر منها وتقلص ذيل مؤانسته عنها ، فاعتاض عنه بسواه وأفاضوا فيما كانوا فيه وما لديه ، واتفق أن مر يوما بقبره في لمة من إخوانه وجماعة من عمار ميدانه فعطفوا عليه مسلمين ووقفوا عليه متألمين ، فقال أبو الوليد :

« يا قبره العطر الثرى لا معدن
حلو من الفتيان فيك حلال »

وله :

« على داره الشرق مني تحية
زكت وعلى وادي العقيق سلام »

وله :

« خليلي لافطر يسر ولا أضحى
فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى»

وله يرثي :

« أعباد يا أوفى الملوك لقد عدا
عليك زمان من سجيته الغدر . »

ونلمع من خبرهذه الواقعة بلمحة . قال أبو مروان في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة أوقع ابن عباد بابن الأفطس إلى جنب يابرة ، وكان سبب هذه الحرب أن فتح ابن يحيي صاحب لبلة يؤمئذ خليفةابن الأفطس والى آل عباد للضرورة وكاشفه ابن الأفطس وخانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله الصامت عند ما حمله إليه وديعة عند تورطه في حرب ابن عباد قبل فانبتت بينهما العصمة ، وأرسل ابن الأفطس في ذلك الوقت خيله للضرب على ابن يحيي فاستغاث عباد فأرسل إليه خيلا منتقاة فلحقت الخيل الأفطسية وهي قد شنت الغارة على لبلة ، فكرت عليهم إذ كانوا ضعفهم واسترسلوا في اتباع العباديين ولا يشعرون، فإذا بعباد بجملته في كمين قد خرج أثرهم فدهشوا وولوا الأدبار ، فركبهم السيف ، وبذل عباد المال في رؤوسهم، وكانت تقاة خيل ابن الأفطس وأبطال رجاله نظر لعباد من رؤوسهم مائة وخمسين رأساً ومن خيلهم مثلها فقص جناح قرنه وأفنى حماة رجاله ثم إن عباد أثرذلك جمع حلفاء خيله وقود عليها ابنه إسماعيل مع وزيره ابن سلام ، وخرج نحو بلاد ابن الأفطس يابرة وقد واستدعى أيضاً ابن الأفطس حليفته إسحاق بن عبد الله فلحقت به خيله مع ابنه أبي العر سد أن جمع ابن الأفطس بقايا جيشه من هزيمتهم المتقدمة الذكر ، وأخرج كل من قدر على ركوب دابة من البياض ببلده وحشد من رجال البوادي بعمله خلقاً كثيراً وأقبل بجمعه هذا المتحوب ليدفع خيل ابن عباد عن بلده يابرة ، وقد كان برابرة خليفته إسحاق في عسكره قالوا له لا تقمم ملست لعرف قدر من زحف نحوك ونحن رأيناهم وسمعنا بجمعهم بإشبيلية فلم يسمع منهم ومضى ، فالتقى الفريقان من غير نزول ولاتعبئة فاختلطوا واجتلدوا مليا لحقق العاديون الضراب وتاسوا الشدات لحاد البرابرة عند أصحاب اسحاق ، وانهزم ابن الأفطس وحل السيف على جميع من معه ، فاستأصلهم القتل وقتل ولد اسحاق وحز رأسه وبعث إلى إشبيلية مع رأس ابن عم ابن الأفطس صاحب يابرة يدعي عبيد الله الحرار ونجا ابن الأفطس في خيله إلى يابرة . قال أبو مروان وأقل ما سمعت في إحصاء قتلى هذه الوقيعة ثلاثة آلاف فأزيد وأخبرني من أثق به أن بطليوس بقيت خالية الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها في وقعة ابن عباد هذه بفتيان أعمار الناء الشيوخ الكهول الذين أصيبوا يومئذ فاستدلت على بشو المصيبة ، وجزع إسحاق بن عبد الله بمصاب ابنه ولم يستحر لصده عباد في طلب رأس ابنه ، فإن عباداً أضافه إلى رأس جده محمد بن عبد الله بإشبيلية انتهى كلام ابن حيان .

قال ابن بسام ولم يزل الرأسان عند آل عباد مع عدة رؤوس أهدتها الفتنة المبيرة حتى فتحت إشبيلية على الأمير الأجل سير بن أبي بكر فجيء بجوالق مقفل مختوم عليه، وأمر بفتحه، لا يشك أنه مال أو ذخيرة فاذا هو مملوء

من الرؤوس فأعظم ذلك وهاله ، وأمر برفع كل رأس منها إلى من بقى من عقبه بالحضرة . حدثنى من رأى رأس يحيى بن علىّ الحمودى ثابت الرسم غير متكلم الشكل فدفع إلى بعض ولده فدفنه .

وقال ابن زيدون وابن جهور من قصيدة أولها :

«أجل إن ليلى حيث أحياؤها الأزد
مهاة حمتها فى مراتعها الأسد »

وكان ابن جهور يومئذ كسر دنان الخمر ، وكان أيضاً يومئذ لمثل ذلك عبد الرحمن بن سعد المصفر بشعر أوله :

«كسرت لجبر الدين أوعيـة الخمر
فأحرزت خصل السبق فى الكسر والجبر
عمدت إلى الشر الذى جمعوا
ففرقت منه فاسترحنا من الشر . »

فى أبيات غير هـذه استبردت جلتها وإنما ذهب إلى عكس قول من تقدم من أعيان الشعراء من ذم صب الشراب ، ومن أشهره قول بكر بن حارثة الكوفى وقد رأى من سلطان وقته مثل ذلك فقال :

« يا لقومى لقد جنى السلطان
لا يكن للذى أهان الهوان . » الخ

وبلغنى أن الجاحظ أنشد هذه الأبيات ، فقال للمنشد من حق الفتوة أن أكتبها قائما وما أقدر إلا أن يمدنى الفرس به ، قال المحدث فأمددته ، وقام يكتبها ، وكان بكر بن حارثة هـذا مولى بنى أسد طيب الشعر خليعا ماجنا ، وكان يألف هدهداً يأتيه كل يوم فى موضع يعينه شرابا فلا يزال يشرب على صـوته إلى أن يسكر ، وكان أيضاً يهوى غلاما نصرانيا وهو القائل :

« زناره فى خصره معقود
كأنه من كبدى مقدود . »

وبكر القائل :

« قلبى إلى ما ضرّنى داعى
يكثر أسقامى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدوى إذا
كان عدوى بين أضلاعى . »

ولصالح ابن عبيد فى ذلك :

« ليس همى ولا طويل انتحابى
لمشيب أزال عنى شـبابى . »

رحم وقال ابن زيدون يرثى :

« انظر لحال السرو كيف تحال
ولدولة العلياء كيف تدال . »

وله من أخرى مما وجدته بخط ابن حيان يرثى أبا الحزم ابن جهور :

« ألم تر أن الشمس قد ضمها القبر
وإن قد كفانا فقدنا القمر البدر . »

وله من أخرى فى هذا العروض ، وقد تكرر فيها بعض أبيات القصيدة الأولى ورثى بها أم أبى الوليد ابن جهور يقول فيها :

«هو الدهر، فاصبر للذى أحدث الدهر
فمن شيم الأحرار فى مثلها الصبر . »

إلى أبيات غير هذه من سائر أبيات القصيدة استمر فيها بالتقديم والتأخير والتأنيث والتـذكير رثى بها آخرا عبادا المعتضد ، وجعل أول قصيدته قوله :

«هو الدهر فاصبر للذى أحدث الدهر . »

ثم أتبعه بقوله :

« حياة الورى نهج إلى الموت مهيع
لهم فيه إيضاع كما يوضع السفر . »

يتلاعب أبو الوليد بهذه القصيدة تلاعب الحطيئة بنفسه ، ويتصرف تصرف أبى حنيفة فى مذهبه ، فأنث وذكر وقدم فيه وأخر . قال أبو العلاء :

« رب لحد قد صار لحدا مرارا
ضاحكا من تزاحم الأضداد . »

وبلغنى أنه وجد لابن زيدون إثر موت عباد شعر يقول فيه :

« لقـــد سرنا أن النعى موكل
بطاغيـــة قد حمّ منــــه حمام
تجانب صوب المزن عن ذلك الصدى
ومر عليه الغيث وهو جهام . »

وقال يخاطب الوزير أبا عامر بن عبـدوس من القصيد ...

« أثرت هزبر الشرى إذ ربض
ونبهته إذ هدا فاغتمض . »

ومما أغفله ابن بسام من لسيف أبي الوليد الصحيح الأقسام ، النازح عن الاطماع والأوهام ، المصدق قول الجفرية فيما يعص من الإلهام قوله :

« لئن قصر اليأس فيك الأمل
وحال تجنيك دون الحيل . »

وقوله أيضاً :

« فديتك ليس لي قلب فأسلو
ولا نفس فآنف إن جفيت . »

وقوله :

« أني أصيع عهدك
أم كيف أحلف وعدك ؟ »

ولأبي بكر بن عمار يخاطب أبا الوليد بن زيدون رحمهما الله :

« كيف اعتززت على الدليل
وقطعت أسباب الوصول
وقتلتني ، وزعمت أن
الذنب منى للقتيل
وعليك عاهدت العدا
وإليك ملت عن العذول
يا قاتلي ومدامعي
في صفحتى أهدى دليل
ما أليق الفعل الجميـ
ـل بذلك الوجه الجميل
فبرزت في خلق الكريـ
ـم ووراءه خلق البخيل
ودعوتني حتى أجبـ
ـتك ثم حدت عن السبيل
جد بالقليل فإن نفـ
ـسي منك تقنع بالقليل
واذكر على زمن قطعنا
ه بصافية شمول
إذ نسحب الأذيال ما
بين الخليج إلى النخيل
ونحل من سيف الغدير
خيمة الظل الظليل
والروض ممطور النسيـ
ـم عليه أنفاس القبول
والشمس ترمقها خلا
ل النبت عن طرف كليل
ايان يحدو الرعد من
ورق السحائب كالحمول
ويهز كف البرق في الـ
آفاق مرهفة النصول
زمن ستذكيه الحما
م منى وتذهل عن هديل
يا برق أودية الحمى (١)
تهديك نفسي من رسول
عرج بشلب محييا
ما شئت من تلك الطلول
والمع على شرفات حمـ
ـص قرارة الشرف الأثيل
فإذا جلاك أبو الوليـ
ـد بناظر اليقظ النبيل
فاقرأه من قبلي سلا
ما يقتضى حسن القبول
يا غرة الزمن البهيـ
ـم وعزة الأدب الذليل
ومحكم القلم القصـ
ـير على شبا الرمح الطويل
أعلمت أني خادم
ذكراك بالشكر الجزيل
لم أستحل عما عهد
ت مع الزمان المستحيل
شفع عنايتك الجليـ
ـلة بي لدى الملك الجليل

(١) وفي الأصل : أودية الحمى

ولئن أجبت لراغب
وأقلت عثرة مستقيل
يا أنس بدر في الظلا
م وبدر ظل في المقيل
فلكم أتيت بمثلها
سوهي الصنيعة في مثيل.»

ولابن زيدون يتغزل في ولادة :

« يا نازحا وضمير القلب مثـواه
أنستك دنياك عبداً أنت مولاه . »

وله يتشوق إليها :

«غريب بأرض الشرق يشكر للصبا
تحملها منه السلام إلى الغرب
وما ضر أنفاس الصبا في احتمالها
سلام فتى يهديه حسم إلى قلب . »

وله :

« أيوحشني الزمان وأنت أنسي
ويظلمني النهار وأنت شمسي . »

وله :

« ولقد شكوتك بالضمير إلى الهوى
ودعوت من حنق عليك فأمنا . »

وله يتغزل ويعاتب ويستعطف ويستنزل :

« يا مستخفاً بعاشقيه ومستغشا لنا محبيه . »

وكتب عن المتضد إلى صهره الموفق أبى الجيوش ابن مجاهد :

«عرفت عرف الصبا إذ هب عاطره
من أفق من أنا في قلبي أشاطره
أراد تجديد ذكراه على شحط
وما تيقن أن الدهر ذاكره
نأى المزار به والدار دانية
يا حبذا الفال لو صحت زواجره
خل أبا الجيش هل يقضى اللقاء لنا
فيشتفى منك قلب أنت هاجره . »

قال ابن بسام : وأما ولادة التي ذكرها ابن زيدون في شعره فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصري ، وكانت في نساء زمانها، واحدة أو أنها حضورشاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم انساب ، وطهارة أثواب ، على أنها سمح الله لها ، وتغمد زللها، طرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، لقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها، كتبت — زعموا — على أحد عاتقي ثوبها :

« أنا والله أصلح للمعالي
وأمشي مشيتي وأتيه تيها . »

وكتبت على الآخر :

« أمكن عاشقي من لثم خدي
وأعطي قبلتي ، من يشتهيها . »

هكذا وجدت هذا الخبر ، وابرأ إلى الله من عهدة ناقليه ، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه، ولها مع أبي الوليد أخبار طوال وقصار يفوت إحصاؤها ويشق استقصاؤها — وأما ذكاء خاطرها ، وغرارة نوادرها ، فآية من آيات فاطرها — مرت بالوزير أبي عامر بن عبدوس المتقدم الذكر ، وكان بقرطبة أحد أعيان المصر ، ويعص من هذي باسمها ، وقصر على حكمها ، وأمام داره بركة تتولد على كثرة الأمطار، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقذار وقد نشر أبو عامر كميه ، ونظر في عطفيه ،وحشر أعوانه إليه ، فقالت له أبا عامر :

« أنت الخصيب وهـذه مصر
فتـدفقا ، فكلاكما بحر . »

فتركته لا يحير حرفا ، ولا يرد طرفا ، وطال عمرها وعمر أبي عامر حتى أربيا على الثمانين وهو لايدع مراسلتها ، ولا يغفل مواصلتها — وتحيف هـذا الدهر المستطيل حال ولادة ، فكان يحمل كلها ، ويرقع ظلها ، على خوف واديه ، وخود روائحه وغواديه ، أثراجيلا أبقاه، وطلقا من الظرف جرى إليه حتى استوفاه — وكانت — زعموا — تقرض أبياتاً من الشعر ، وقد قرأت أشياء منه في بعض التعاليق أضربت عن ذكره ، وطويته بأسره، لأن أكثره

ليس له عنـدى إعادة ولا إبداء ، ولا من كتابى فى أرض ولا سماء . ولنشير هنا بشىء من أخبار أبيها المستكفى مدا لأطناب الآداب ، ووفاء بشرط الكتاب ، ننسخه من كتاب ابن حيان :

هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الناصرى ، بويع يوم قتل عبد الرحمن المستظهر يوم السبت لثلاث خلون من ذى القعدة سـنة أربع عشرة وأربعمائة ، فسمى بالمستكفى بالله ، اسما ذكر له فاختاره لنفسه ، وحكم سوء الاتفاق به لمشاكلته لعبد الله المستكفى العباسى أول من تسمى به فى اسـمه ووهنه وتخلفه وضعفه بل كان هـذا زائداً عليه مقصراً عن خلال ملوكية كانت فى المستكفى سميه لم يحسنها محمد هـذا لفرط تخلفه على اشتباههما فى سائر ذلك كله من نوبتهما بالفتنة ، واستظهارهما بالفسقة ، واعتداء كل منهما على ابن عم ذى رحم ماسـة ، وتوسط كل منهما فى شأنه بامرأة خبيثة ، فلذلك حسناء الشيرازية ، ولهذا ابنة عسكرى المروزية ، فأصبحا فى ذلك على فرط التباين عبرة ، وقال صاحب قطب العروس : ومن عجب اتفاقهما فى الأخلاق ، وفى العمر واللقب وأن كل واحد منهما خلع عن الأمر ، وكل واحد منهما تركه أبوه صغيراً ، ولم يكن محمد من هـذا الأمر فى ورد ولا صدر ، إنما أرسله الله على الأمة محنة وبلية ، إذ كان منذ عرف غفلا عطلا منقطعاً إلى البطالة ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا من كل خلة تدل على فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى اسـتجاز طلب الصدقة ، وهان حتى أهانه أهله على ما لهم من المهنة وأيته ــ أيام الخسف بأهل بيته فى الدولة الحمودية ، ولم يكن ممن لحقه الاعتقال منهم لركاكته ــ يقصد أهل الفلاحة يومئذ بقرطبـة أوان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكلعا ومخاطبـة ، وبالجملـة فى تلخيص التعريف بأمره أن أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس فى الإمارة منذ تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سـقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عاهر الخلوة ضـد القتيله عبد الرحمن المسـتظهر فى الأدب والمعرفة ، وكان افتتح هـذه السنة المؤرخة القاسم بن حمود بخلافته وآخرها محمد هذا المذكور وكان بينهما عبد الرحمن المستظهر فتصرمت تلك السنة المكرة على ثلاثة خلفاء ، وهذا من غريب الأنباء ولله البقاء السرمدى ، وقلد محمد هذا الأمر ولم يكن من أهله ، فنافق جميع الناس بالإيناس واستمالهم بالأهوية ، ورأى أن المال عزيز ، وأن البشر رخيص يقوم مقامه ، وينوب منابه ، وكان يقول الناس أجمعين ، ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما أحببتم من الخطط فتسمى بالوزارة فى أيامه مفردة ومثناة أراذل الدائرة ، وأخابث النظار فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة ، وأما الشرطة العليا ومادونها من رفيع المنازل ، فحملها كثير من التجار والعامة ، وانثال الناس على ابتناء هذه المنازل عند السلطان بالطماعية فى كرة الدولة ففتحوا بابه ، وعمروا فناءه ، وتملقوا بالمنى ، فلما استبانوا ضعفه رفضوا خططهم ، وتبرأ كثير منهم منها ، وأقسم أنه لم يتقلدها ولا سيما عند تكرر التقسيط عليهم للغرامة عند إلحاح الإضافة ، فجرت لبعضهم عند الانتفاء عن تلك الخطط نوادر ظريفة مضحكة وانتهى هـذا التنويه العام بهـذا المسلك الهمام إلى أن فصله أيضاً فى طبقات أهل العلم فأسهم منهم الفقهاء فآثر العلية منهم المشاورين أصحاب الصون بالارتقاء إلى خطة الوزارة خالطاً لهم فيها بما ذكرناه من زعانف الخدمة وكبار الدائرة ، وجاء فى ذلك بطامة لم تسمع فى الأعصر الخالية فأخطأوا وألحقوا بالدين وصمته ، وطلبوا زيادة المثل على العامة ، فافتتنوا بهـذه الخطة وشدوا أيديهم عليها ، وهجروا من حظهم فى الخطاب عنها مفرطين بما يعاب من ذلك إلى أن مضوا لسبيلهم ، وارتقى المسـتكفى أيضاً بكثير ممن يحمل المحابر ، ويدرس مسائل الدفاتر ، من أصاغر الطبقة الفقهية إلى ما أطلت عليهم من منزلة الشورى ، فوسم كافتهم بوسم الفتوى فأسرف فى ذلك حتى بلغ عددهم

بقرطبة يومئذ الأربعين ، وذلك مما لم يعهد فى الغابرين ، وكثر الإرجاف بتغير رجال الدائرة ، فاضطرت قرطبة لكثرة ما فيها من المردة ، فقبض على جماعة من بنى عمه وحاشيته منهم علىّ بن أحمد ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب المتقدمى الذكر سجنوا بالمطبق، ثم عاجل المستكفى ابن عمه عبدالعزيز العراقى فخنق وأمسى ميتاً وساء إلى الناس فلم يسهل عليهم اعتياله ، وفى أيام المستكفى هذا استؤصل بقية قصور جده الناصر بالخراب ، وطمست أعلام قصور الزهراء ، واقتلع نحاس الأبواب ورصاص القنى وغير ذلك من الآلات ، فطوى بخرابها بساط الدنيا ، وتغير حسنها إذ كانت له جنة الأرض فعدا عليها قبل تمام المائة من كان أضعف قوة من فأرة المسك ، وأوهى بيتاً من بقة النمرود ، والله يسلط جوده على من يشاء له العزّة والجبروت ، فلما كانت سنة ست عشرة وتحرك يحيى بن حمود إلى قرطبة ، وضعف أمر المستكفى ، اتفق الملأ على خلعه ودخلوا عليه وقالوا : لقد علم الله اجتهادنا فى تثبيتك ، فاعتاص ذلك علينا ، واضطررنا إلى مقاربة عدونا وها نحن خارجون إليه ، ولا ندرى ما يحدث عليك بعدنا فإن تك لك الكرة فلا تيأس ، فما اليوم غد ، فأحسن الرد ، واستشعر الذلّ ، واهتبل الفرة ، وعزم على الهرب ، فخرج على وجهه وقد لبس ثياب الغانيات ، متنقباً بين امرأتين لم يميز منهن لمراسه على التخنيث ، وخرج عن قرطبة ، فمات بأقليش ، فكانت دولته تسعة عشر شهراً صعاباً نكدات سوداً مشوّهات مشئومات انتهى ما لخصته من كلام ابن حيان . قال أبو الوليد : كنت فى أيام الشباب ، وغمرة التصابى هائماً بغادة تسمى ولادة ، فلما قدم اللقاء ، وساعد القضاء كتبت إلىّ :

« ترقب إذا جن الظلام زيارتى
فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك مالو كان بالبدر مابدا
وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يسر »

فلما طوى النهار كافوره ، ونشر عبيره ، أقبلت بقد كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل ، فلما إلى روض مدبج ، وماء سحسح ، فدقامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرّ الطلّ منثور ، وجيب الراح مزرور فلما شببنا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، برح كل منا بحبه ، وشكا إليه ما نقله ، وبتنا بليلة نجنى الحوان الثغور ، ونقطف رمان الصدور ، فلما انفصلنا صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً :

« ودع الصبر محب ودعك
ذائعاً من سره ما استودعك . »

قال أبو الوليد وكانت عتبة قد غنتنا :

« أحبتنا إنى بلغت مؤملى
وساعدنى دهرى وواصلى حبى
وجاء يهنينى البشير بقربه
فأعطيته نفسى، وزدته قلبى . »

سألها الإعادة بغير أمر ولادة ، فخفنا منها برق التبسّم ، وبدا عارض التجهم ، وعاتبت عتبة :

« وما ضربت عتبى لذنب أتت به
ولكنما ولادة اشتهت ضربى
فقامت تجر الذيل عاثرة به
وتمسح طل الدمع بالعنم الرطب . »

فبتنا على العتاب ، من غير اصطحاب ، ودم المدام مسفوك ، وما بدا الهو متروك ، فلما قامت خطباء الأطيار ، على منابر الأشجار ، وانفت من الاعتراف وباكرت إلى الانصراف ، وشت بمسك الأنفاس على كافور الاطراس :

« لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا
لم تهو جاريتى ولم تتخير
وتركت غصناً مثمراً بجماله
وجنحت للغصن الذى لم يثمر
ولقد علمت بأننى بدر السما
لكن دهيت لشقوتى بالمشترى . »

صفحات من كتاب نفح الطيب

وقد صنف أبو الوليد بن زيدون كتاب (التبيين) فى خلفاء بنى أميـة بالأندلس على منزع كتاب (اليقين) فى خلفاء الشرق للمسعودى .

ومثل ابن زيدون فى قصيدته التى لم يقل مع طولها فى النسيب أرق منها وهى التى يقول فيها :

« كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قدغض من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا . »

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولاده الروانية التى تقول مداعبـة للوزير ابن زيدون ، وكان له غلام اسمه علىّ :

« ما لابن زيدون على فضـلـه
يعتابنى ظلماً ولا ذنب لى
يلحظنى شزراً إذا جئتـــه
كأنما جئت لأخصى علىّ . »

ومن حكايات أهل الأندلس فى خلع العـذار والطرب والطرف وغـير ذلك كسرعة الارتجال ما حكاه صاحب (بدائع البدائه) قال :

أخبرنى من أثق به بما هذا معناه —

قال : « خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليـد بن زيدون ، ومعهما الوزير ابن خلدون من إشبيلية إلى منظرة لبنى عباد لموضع يقال له (الفنت) تحف به مروج مفترقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة عن ثغور النوار ، فى زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه بوسميها ووليها وجلتها فى زاهر ملبسها وباهر حليها ، وأرداف الربى قد تأزرت بالأزر الخضر من نباتها وأجياد الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها ، ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم عند هباتها ، وهناك من البهار مايزهى على مداهن النضار ، ومن النرجس الريان ، مايهزأ بنواعس الأجفان ، وقد لووا الانفراج للهو والطرب والتنزه فى روضى النبات والأدب ، ومشوا صاحباً لهم يسمى (خليفة) هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم ليأتيهم بنبيذ يذهبون الهم بذهبه فى لجين زجاجه ، ويرمونه منها بما يقتضى بتحريكه الهرب عن القلوب وإزعاجه ، وجلسوا لانتظاره ، وترقب عوده على آثاره ، فلما بصروا به مقبلا من أول الفج بادروا إلى لقائه ، وسارعوا إلى نحوه وتلقائه ، واتفق أن فارساً من الجند ركض فرسه فصدمه ، ووطأ عليه فهشم عظمه ، وأجرى دمه وكسر قصال النبيذ الذى كان معه ، وفرق من شملهم ماكان الدهر جمعه ، ومضى على غلوائه واكضاً حتى خفى عن العين خائفاً من متعلق به يحول بينه وبين الحين ، وحين وصل الوزراء إليه تأسفوا عليه ، وأفاضوا فى ذكر الزمان وعدوانه والخطب وألوانه ، ودخوله بطوارق المضرّات على تمام المسرات وتكديره الأوقات للمعات بالآفات المؤلمات ، فقال ابن زيدون :

« ألهو والحتوف بنا مطيفه
ونأمن والمنون لنا مخيفه . »

فقال ابن خلدون :

« وفى يوم وما أدراك يوم
مضى قصالنا ومضى خليفه . »

فقال ابن عمار :

« هما غادرتنا راح وروح
تكسرتا فاشفاق وخيفه . »

وكتب الوزير الشهير أبو خالد ابن زيدون إلى الوزير أبى عبد الله بن عبد العزيز أثر صدوره عن بلنسية .

« راحت فصح بها السقيم . . . . . » الأبيات

ولما ورد إشبيلية نزل بدار الوزير الكاتب ذى

الوزراتين . أبي عامر بن مسلمة ، وهو يبنى مجلساً ، وصنع أبياتاً كتبت فيه :

« عمر من يعمر دا المجلسا . . . . . » الأبيات

وقال فيه أيضاً :

« ادوها فقد حسن المجلس . . . . » الأبيات

وكتب إلى الوزير أبي المعالى المهلب بن عامر يستدعيه :

« طابت لنا ليلتنا الحالية . . . . . » الأبيات

وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر المذكور معاتباً :

« تباعدنا على قرب الجوار
كأنا صدنا شحط المزار
تطلع لى هلال الهجر بدرا
وصار هلال وصلك فى سرار
وشاع شنيع قطعك لى بوصلى
فهلا كان ذلك فى استتار
أيجمل أن ترى عنى صدورا
فأصبح مولعا دون اصطبار
وكنت أريد سمعك من عتابى
ولكن عاقنى فرط الحمار
فراع مودتى واحفظ جوارى
فإن الله أوصى بالجوار
وزدنى منعما من غير أمر
وآنس موحشاً من عقر دار . »

وكتب إليه ابن زيدون :

« هواى وإن تناءت عنك دارى . . . » الأبيات

وكان أبو المطاف إذ ورد إشبيلية رسولا قد سأله أن يريه شيئاً من شعره فمطله به حتى كتب إليه شعراً يستعطفه ، فأجابه ابن زيدون فى العروض والقافية :

« أفدتنى من نفائس الدرر . . . . . » الأبيات

وهى أكثر مما ذكر . وكتب (أعنى ذا الوزارتين ابن زيدون) إلى ولادة :

« أضحى التنائى بديلا من تدانينا . . . . » الأبيات

وإنما ذكرت هذه القصيدة مع طولها لبراعتها ، ولأن كثيراً من الناس لا يذكر جملتها ، ويظن أن ما فى القلائد وغيرها منها هو جميعها وليس كذلك فهى وإن اشتهرت بالمشرق والمغرب لم يذكر جملتها إلا القليل ، وقد كنت وقفت بالمغرب على تسديس لها لبعض علماء المغرب ولم يحضرنى منها الآن إلا قوله فى المطلع :

« ما للعيون بسهم الغنج تصمينا
وعن قطاف جنى الأعطاف تحمينا
تألف كان يحيينا ويصفينا
تمزق عاث فى شمل المحبينا
أضحى الفراق بديلا . . . . » الخ

وما أحسن قوله فى هذا التسديس :

« ما للأحبة دانوا بالنوى ورأوا
تعويض عهد اللقا بالبعد حين نأوا
رعاهم الله كانوا للعهود رعوا
فغيرتهم وشاة بالفساد سعوا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نغص فقال الدهر آمينا . »

وقد ذكرنا فى الباب الرابع موشحة ابن الوكيل التى وطأ فيها لنونية ابن زيدون هذه فلتراجع — رجع — وقال ذو الوزارتين ابن زيدون يتغزل :

« وضح الصبح المبين . . . . » الأبيات

ومحاسن ابن زيدون كثيرة وقد ذكرنا منها فى غير هذا المحل جملة . وسألت جارية من جوارى الأندلس ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أن يزيد على بيت أنشدته إياه وهو :

« يا معطشى عن وصال كنت وارده
هل منك لى غلة إن صحت واعطشى . »

وكانت الجارية المذكورة تتعشق فتى قرشياً والوزير يعلم ذلك وهى لا تعلم أنه يعلم ، فقال :

« كسوتنى من ثياب السقم أسبغها ظلما
وصيرت من لحف الضنا فرشى
. . . . » الأبيات

وحكى أن الوزير أبا الوليد بن زيدون توفيت ابنته وبعد الفراغ من دفنها وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم ، فقيل إنه ما أعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد .

ابن جهـــور

قال فى المطمح :

الوزير الأجلّ أبو الحزم جهور بن محمد ابن جهور ، و بنو جهور أهل بيت وزارة اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة فى وزاره ، وأبو الحزم هـذا أمجدهم فى المكرمات ، وأنجدهم فى الملمات - ركب متون الفنون فراضها ، ووقع فى بحور المحن فخاضها ، منبسط غير منكمش ، لا طائش اللسان ولا رعش ، وقد كان وزّر فى الدولة العامرية فشرفت بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلما انقرضت ،وعاقت الفتن واعترضت ، تحيز من التدبير مدّتها ، وخلى لأخلافه تدبير الرياسة وشدّتها ، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء و يدبر غير مظهر للانفراد ، ولا متصرف فى ميدان ذلك الطراد ، إلى أن بلعت الفتنة مداها ، وسوّغت ما شاءت رداها ، وذهب من كان يجد فى الرياسة ويخب و يسعى فى الفتنة، ولما ارتفع الوبال ، وأدبرذلك الاقبال راسل مستمدّا بهم ومعتمداعلى بعضهم تخييلا منه وتمويها وتداهيا على أهل الخلافة وذويها وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام وأومض منه لأهل قرطبة برق خلبه يشام ثقة بسرعة التيائها ، وتعجيل انتكاثها ، وأنابوا إلى دعائه ، وأجابوا إلى استدعائه ، وتوجهوا مع ذلك الامام ، وألموا بقرطبة أحسن المام ، فدخلوها بعدفتن كثيرة ، واضطرابات مستثيرة والبلد مقفر ، والجلد مسفر ، فلم يبق غير يسير حتى نبذ واضطرب أمره فخلع ، واختطف من الملك وانتزع ، وانقضت الدولة الأموية، وارتفعت الدولة العلوية ، واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم ، ودبرها بالجدّ والعزم ، وضبطها ضبطا آمن حائفها ، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها ، وخلا له الجوّ فطار ، واقتضى اللبانات والأوطار ، فعادت له قرطبة على أكمل حالتها ،وانجلى به نور جلالتها ، ولم تزل به مشرقة ، وغصون الآمال فيها مورقة الى أن توفى سنة ٤٣٥ فانتقل الأمر الى ابنه أبى الوليد ، واشتمل منه على طارف وتليد ، وكان لأبى الحزم أدب ووقار وحلم سارت بها الأمثال وعلم المثال ، وقد أثبت من شعره ماهو لائق ، وذلك قوله فى تفضيل الورد . .

« الورد أحسن ما رأت عينى وأذ
كى ما سقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه .
فتذللت تنقاد وهى شواهد
واذا تبدّى الورد فى أغصانه
يزهو فذا ميت وهـذا حاسد
واذا أتى وفـد الربيع مبشرا
بطلوع صفحته فنعم الوافـد

ليس المبشر كالمبشر باسمه
خبر عليه من النبوّة شاهد
وإذا تعرى الورد من أوراقه
بقيت عوارفه فهنّ خوالد . »

⁂

وقال صاحب كتاب المعجب :

ولما انقطعت دعوة بنى أمية كما ذكرنا بالأندلس ، ولم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة ، ولا من تليق به الرياسة استولى على تدبير ملك قرطبة جهور بن محمد بن جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدّم ذكر نسبه فى ترجمة هشام ، وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت كان آباؤه وزراء الدولة الحكمية والعامرية ، وهو موصوف بالدهاء ، وبعد الغور ، وحصافة العقل ، وحسن التدبير، ولم يدخل من دهائه فى الفتن الكائنة قبل ذلك وكان يتصاون عنها، ويظهر النزاهة والتدين والعفاف ، فلما خلا له الجوّ وأصفر الفناء ، وأقفر النادى من الرؤساء وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها ، واضطلع بحمايتها ، ولم ينتقل إلى رتبة الامارة ظاهرا جريا على ما قدّمنا من إظهار سنن العفاف بل دبرها تدبيرا لم يسبق إليه ، وذلك أنه جعل نفسه ممسكا للموضع إلى أن يجىء من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك ورتب البوّابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحوّل عن داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جندا له وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورؤوس الأموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون فى كل وقت كيف حفظهم لها ، وفرّق السلاح عليهم ، وأمرهم بتفرقته فى الدكاكين والبيوت حتى إذا دهمهم أمر فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه ، وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ، ويعود المرضى جاريا على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك المتغلبين ، وكان آمنا وادعا وقرطبة فى أيامه حرما يأمن فيه كل خائف ، واستمرّ أمره على ذلك إلى أن مات فى غرّة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدّة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهرا ، ثم ولى ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمدّ بن جهور ، فجرى فى السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير مخل بشىء من ذلك إلى أن مات أبو الوليد المذكور فى سلخ شوّال من سنة ٤٤٣ فغلب عليها بعد أمور جرت — الأمير الملقب بالمأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة فدبرها مدّة يسيرة إلى أن مات ، وخلف فيها بعده من البربر رجل يعرف بابن عكاشة أظن اسمه موسى ، فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن

عباد على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .
فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها دارا للملك وبعدغلبة المعتمد عليها صارت تبعا لاشبيلية.

جهور (١)

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله ابن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة رئيس قرطبة ، يكنى أبا الحزم . روى عن أبي بكر عباس بن الهمذاني ، وأبي محمد الأصيلي ، والقاضي أبي عبد الله بن مفرّج ، وأبي القاسم خلف بن القاسم ، وأبي يحيى زكريا بن الأشج وغيرهم . وسمع منهم وأخذ العلم عنهم ، وقد أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عتاب الفقيه ، فقال حدّثنا ثقة من الشيوخ الأكابر ، وهو يعني أبا الحزم هذا ، ثم صار تدبير أهل قرطبة إلى أبي الحزم هذا فأنفها بالرياسة فيها ، إلى أن توفي يوم الخميس لسبع بقين من المحرّم من سنة ٤٣٥ ودفن بداره ، وصلى عليه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور متولي الأمر من بعده ، وكان سنه يوم وفاته إحدى وسبعين سنة ، وكان مولده أوّل المحرم سنة ٣٦٤ .

أما قرطبة فاستولى عليها أبو الحسن جهور بن محمد بن جهور ، وكان من وزراء الدولة العامرية، موصوف بالدهاء والعقل ،ولم يدخل في شيء من الفتن قبل هذا بل كان يتصاون عنها ، فلما خلا الجوّ وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى وقام بحمايتها ، ولم ينتقل إلى رتبة الأمارة ظاهرا بل رتبها ودبرها تدبيرا لم يسبق إليه ، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن يجيء من يستحقه ، ورتب البوّابين والحشم على أبواب قصور الامارة ولم يتحوّل عن داره إليها ، ودعا ما يتحصل من الأموال السلطانية بايدي رجال رتبهم له .
وكان جهور يشهد الجنازة ، ويعود المرضى ، ويحضر الأفراح على طريق الصالحين ،وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك ، وكان مأمون الجانب فأمن الناس في أيامه ، وبقي كذلك إلى أن مات سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، وقام بأمرها بعده أبو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات .

بنو عباد

• أما أحوال إشبيلية فانها كانت في طاعة الفاطميين أعني عليّ بن حمود ، والقاسم بن حمود ، ويحيى بن عليّ بن حمود أيام كان الأمر دائرا بينهم على ما تقدّم ذكره . فلما زحف يحيى بن عليّ بالبربر إلى قرطبة وهرب القاسم بن حمود منها ، وقصد اشبيلية ، وقد كان ابناه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر أهل إشبيلية ، واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما فأخرجوهما ، وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضا ، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم ، وتجتمع به كلمتهم، فتوارد

(١) من كتاب الصلة لابن بشكوال .

اختيارهم بعد محض الرأى وتنقيح التدبير على القاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله ، وسعة صدره ، وعلوّ همّته ، وحسن تدبيره ، فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك ، فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أوّلا وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالا سماهم لهم يكونون له أعوانا ووزراء وشركاء لايقطع أمرا دونهم ، ولا يحدث حدثا إلا بمشورتهم ، وهؤلاء المسمون هم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، ومحمد بن بريم الالهانى ، وأبو الأصبغ عيسى حجاج الحضرمى ، وأبو محمد عبد الله بن علىّ الهوزنى و رجال آخرون ذهبت عنى أسماؤهم ولا أعرف قبائلهم و بيوتهم ، ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد ، ولم يزل يدبر أمر إشبيلية ، وهؤلاء المذكورون من وزرائه ، وكان له من الولد إسماعيل وهو الأكبر يكنى أبا الوليد وعباد يكنى أبا عمرو ، فأمّا إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه أمل فى التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من إشبيلية بعسكر من جند إشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صنهاجة ، فأسلمت إسماعيل عساكره ، وكان أوّل قتيل وقطع رأسه وسير به إلى مالقة إلى إدريس ابن علىّ الفاطمى كما تقدّم ، وبقى الأمر كذلك ، والقاضى أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير ، وكان صالحا مصلحا إلى أن مات فى شهورسنة ٤٣٩ .

صفحات من كتاب العينى (١)

وأما إشبيلية فاستولى عليها قاضيها محمد ابن إسماعيل بن عباد اللخمى ، وهو من ولد النعمان بن المندر ، وفى هدا الوقت ظهر أمر المؤيد هشام بن الحكم ، وكان قد اختفى وانقطع خبره ، وكان ظهوره بمالقه ثم سار منها إلى المرّيه ، فخافه صاحبها زهير العامرى وأخرجه منها ، وقصد قلعة رباح فأطاعه أهلها ، فسار إليهم صاحبها أوّل إسماعيل ذى النون ، فحاربهم وضعفوا عن مقاومته فأخرجوه ، فاستدعاه القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد إليه باشبيلية ، وأذاع أمره ، وقام بنصره ، فسار إليه وقام بواجبه ، وكتب بظهوره إلى ملوك الأندلس فأجاب أكثرهم وخطبوا له ، وجرت بيعته فى المحرّم سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، ثم إن عباد سير جيشا إلى زهير العامرى بأنه يخطب للمؤيد فاستنجد زهير حيوس بن ماكر الصنهاجى

(١) كتاب عقد الجمان للعينى ، القسم الرابع

صاحب غرناطة ، فسار إليه بجيشه فعادت عساكر ابن عباد ، ولم يكن بين العسكرين قتال ، وأقام زهير ببأسه ، وجاء حيوس إلى مالقة فمات وولى بعده ابنه باديس ، واجتمع هو وزهير ليتفقا كما كان زهير وحيوس فلم يستقر بينهما قاعدة واقتتلا فقتل زهير ، وجمع كثير من أصحابه ، والتقى عسكر ابن عباد وابنه إسماعيل مع باديس بن حيوس ، وعسكر إدريس العلوى صاحب سبتة بطنجة واقتتلوا قتالا شديدا فقتل إسماعيل ثم مات بعده القاضى أبو القاسم بن عباد وولى بعده ابنه أبو عمرو ، ولقب المعتضد بالله فضبط ما ولى وأظهر وفاة المؤيد ، واشتمل بأمر إشبيلية وبقى كذلك إلى أن مات وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد ولقب بالمعتمد على الله ، فاتسع فى ملكه ، وشمخ سلطانه ، وملك كثيرا من الأندلس ، وملك قرطبة أيضا ، وولى عليها ابنه الظافر بالله فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة فحسده عليهما فضمن له جرير بن عكاشة ، وسار إلى قرطبة ، فأقام يسعى فى ذلك وهو ينتظر الفرصة ، فاتفق أن فى بعض الليالى جاء مطر عظيم ومعه ريح شديدة ورعد وبرق فثار جرير فخرج الظافر فيمن معه من العبيد والحرس ، وكان صغير السن فحمل عليهم ودفعهم عن الباب ، ثم إنه عثر فى بعض كرانه فسقط فوثب عليه شخص فقتله ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد وأهل البلد إلا والقصر قد ملك

وتلاحق بجرير أصحابه وأشياعه ، وترك الظافر ملقى على الأرض ، فمرّ عليه بعض أهل قرطبة فأبصره على تلك الحالة فنزع رداءه وألقاه عليه ، وكان أبوه إذا ذكره يتمثل بهذا البيت :

« ولم أدر من ألقى عليه رداءه
سوى أنه قد سل عن ماجد محض. »

ولم يزل المعتمد يسعى فى أخذها حتى عاد ملكها إليه وترك ولده المأمون فيها فأقام بها حتى أخذها يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد حروب كثيرة يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى وأخذت إشبيلية من أبيه المعتمد ، وبقى مسجونا فى أغمات إلى أن مات بها ، وكان هذا وأولاده جميعهم ـ الرشيد ، والمأمون ، والراضى ، والمعتمد ، وأبوه ، وجدّه علماء شعراء ـ

ملوك الطوائف (١)

بقلم الأستاذ نيكلسون

تفرقت امبراطورية عبد الرحمن الثالث العظيمة ، وظهر على أنقاضها عدّة ممالك صغيرة « دويلات » أنشأتها الظروف والمصادفات ، وكان يحكمها بعض القادة المظفرين .

وقد أحسن نيكلسون فى تشبيه تاريخ إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى

(١) فصل مختار من كتاب نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى للشارح

بتاريخ إيطاليا فى القرن الخامس عشر ، فقد كان وجه الشبه ـ كما يقول ـ كبيرا جدا بينهما .

وكان هؤلاء القادة الذين اقتسموا بلاد الأندلس أشبه بأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم فى إيطاليا اسم : «Condottieri» وكان من بينهم ملوك العبادية الذين قطنوا إشبيلية ، وهم أقوى ملوك ، وقد أطلق عليهم كتاب المسلمين اسم : « ملوك الطوائف »

وعلى الرغم من أن ذلك كان عصر تدهور سياسى ، وعلى الرغم من أن إسبانيا تشكو عجز مواردها الاقتصادية ، فقد وصل المجتمع فى تلك الأيام الى مستوى لم يصل الى مثله من قبل .

وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة علنا نستطيع أن نستعرض فيها أمامنا الشوط البعيد المدى الذى قطعته الآداب والعلوم فى طريق النجاح فى ذلك العصر الذى يعد أزهى عصور الاحتلال الاسلامى فى أوروبا .

***

فبينما ترى العرب الفاتحين فى آسيا ـ كما بينا ذلك ـ قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بما لا نهاية له فأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم إذ تراهم لم يكادوا يعبرون مضيق جبل طارق ـ فى الغرب ـ حتى انعكست الآية تماما .

وذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع فى أيديهم آلاف المسيحيين من كل جهة فتحوها فعاش أولئك المسيحيون فى كنف المسلمين ، وأحسنت الحكومة معاملتهم ، ومنحتهم الحرية الدينية وكثيرا ما رفعتهم إلى مناصب عالية فى الجيش وفى بلاط الملك . فاعتنق كثير منهم الحضارة الاسلامية وافتتن بها افتتانا .

حتى رأينا « القارد » كاهن قرطبة فى أواسط القرن التاسع للميلاد يولول فى أوائل ذلك العصر شاكيا من أبناء دينه انصرافهم إلى مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتيى المسلمين وفلاسفتهم لا يقصدون بذلك إلى تفنيدها بل يقصدون إلى التعبير عن خوالجهم بأسلوب عربى رائع صحيح .

وكان القارد يتساءل .

أنى يتاح لانسان فى هذه الأيام أن يقابل واحدا من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذى يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء والحواريين ؟ واحسرتاه :

إن كل الشبان المسيحيين ذوى المواهب لا يعرفون الا العربية والا كتابات العرب فهم يقرءونها و يدرسونها بحماسة بالغة منتهاها كما أنهم ينفقون المال الطائل لا قتنائها فى مكاتبهم وتراهم أنى وجدوا يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالاعجاب .

فاذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية أزورجانبهم وأجابوك

بازدراء أنها أسفار تافهة لاخطر لها .

واحسرتاه عليهم ! لقد نسى المسيحيون أنفسهم حتى لينذر العثور بين آلاف منا على على فرد يستطيع أن يحرر الى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به على حين ترى جمهرتهم قادرة على الابانة عما فى نفوسهم بأسلوب عربى رائع ، وعلى حين ترى حذقهم فى قرض الشعر العربى قد وصل الى حدّ فاقوا معه العرب أنفسهم .

ومهما يكن فى كلام هذا الكاهن من اغراق فما يترفع عن الجدل والتشكك أن الثقافة الاسلامية قد أخذت بألباب المسيحيين الاسبان ، كما افتتن بها اليهود الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعداتهم العديدة وكتاباتهم التى أنشئوها بلغتهم و بلغة أبناء عمهم العرب .

أما المولدون والصابئون من الاسبانيين الذين لانوا بالاسلام فقد استعربوا تماما بعد أجيال قليلة ، ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الأدب العربى .

***

وقد كان للشعر العربى — فى أوروبا — على الاجمال الخصائص التى رأيناها فى الشعر المعاصر له فى الشرق .

فان الأوزان المصطلح عليها والقيود التى لم يستطع أساطين بغداد أن يحرّروا أنفسهم من ربقتها ظلت بحذافيرها فى قرطبة واشبيلية.

وكما تأثر الشعر العربى فى الشرق بالآداب الفارسية ، فقد تأثر فى اسبانيا كذلك باتحاد الآريين والساميين واندماجهم شيئا فشيئا .

فكان ذلك سببا فى ادخال عناصر جديدة ظهرت فى آدابها ، ولعل أمتع ميزات الشعر الأندلسى هى ذلك الوجدان العاطفى الرقيق الذى يندر وجود مثله فى النسيب والذى ظهر كثيرا فى أغانيهم عن الحب وهو وجدان لايقتصر على تصوير فروسية القرون الوسطى بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه إحساسا جديدا بمحاسن الطبيعة التى جلته .

ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على الكثيرين من الآريين الذين قد لايسهل عليهم تفهم روح المعلقات أو قصائد المتنبى .

دراسات الكتاب لابن زيدون

« أثبتنا فى هذه الصفحات أهمّ الدراسات
التى كتبت ـ فى العصر الحديث ـ عن
ابن زيدون إتماما للفائدة . »

١ — دراسة الدكتور أحمد ضيف (١)

اقترنت الوزارة فى الأندلس بالأدب ، فكان الوزير كاتباً وشاعراً ، وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء ، وكانت الشهرة بالكتابة والشعر ، وفنون الأدب ، وفروع العلوم من وسائل الوصول إلى امتلاك الوزارة ، فكان للوزراء أثر عظيم فى سير البلاغة والأدب ، وأصبحت منزلة الأدب كمنزلة الوزراء أنفسهم فى الدولة ، وظهر فى الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا فى مناصب الملك ، وتقلبوا فى مراكز الدولة ، وتغلبوا على شئونها ، وهم جميعا من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأصحاب الشورى ، وأعلام الحياة العقلية .

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الأدباء والشعراء المجيدين ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المخزومى الأندلسى القرطبى ، أشهر من عرف فى حلبة الأدباء ، وأظهرهم ميزة فى فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان ، لأنه صورة من صور الأدب فى الأندلس ، وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب فى بلاد المغرب .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة فى سنة ٣٩٤ ﻫ وتوفى بإشبيلية سنة ٤٦٣ ﻫ وهو ثالث ثلاثة سموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله بن أحمد بن غالب والده ، والثانى أبو بكر ابنه وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولا ، وهم من أصل عربى كما أشرنا إلى ذلك فى كلامنا على القبائل التى نزلت الأندلس من العرب . كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالما وأديباً . مات سنة ٤٠٥ فكان عمر ابنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، وكان أبو الوليد منذ حداثته ميالا إلى العلم والتعليم ، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلى ، وكانت نشأته فى قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث ، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين ، وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ منها شيئاً كثيراً ، كما وعى كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء ، وأمثال العرب وحوادثها ، ومسائل اللغة ، حتى أصبح فى مقدمة الشعراء والأدباء ، واندمج فى مجالس الأدب ، فصار علماً من أعلامها ودعامة من دعائمها ، وكانت قرطبة لاتزال فى أوج علا عزها على الرغم من أفول شمس بنى أمية بها ، وأهلها فى رخاء من العيش ، أكثرهم يميل إلى العلم والأدب ومجالسة الأدباء ، فامتلأت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل إلى المجون ، ساعده ذلك على أن يسبق غيره ، وأن ينال شهرة

---

(١) من كتاب بلاغة العرب فى الأندلس للدكتور أحمد ضيف

واسعة بين أترابه . وكان للنساء أثر عظيم في هـذه المجالس ، فاتجه الناس إلى الاندماج فيها واستعذبوا هـذا المورد ، وانصرفت همم الأدباء إلى التفوق في هذا الميدان ، فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الأدباء وصورة البلاغة من نظم ونثر ، وكأنما ضاعت كل صبغة جدية في المجامع الأدبية لجرى الوزراء على المجاهرة بالمجون ، وكان ابن زيدون أحد أبطال هؤلاء لجذب إليه الأنظار .

وكان لولادة بنت المستكفي الخليفة الأموي شهرة عظيمة في قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها ، فوقع ابن زيدون في شركها ووقعت في شركه ، واشتمل كل منهما على صاحبه ، حتى حسد عليها وحسدها الناس عليه ، وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول ، فتقرب إلى ولادة حتى أمالها إليه ، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون واتهمته كما اتهمها بذلك أيضا ، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتتت من شملهما وحالت بين قلوبهما ، لذلك غلب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره ، واستولى على قلب ولادة ، ثم حدث أن رجعت إلى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية ، ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس ، فكانت هـذه الحال سبب اضطراب في حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الأدباء وأصحاب الأقلام والمفكرين ، وهـذه الحادثة من أكبر الحوادث في حياة ابن زيدون . عاش ابن زيدون في بيئة كلها اضطراب ودسائس ، وترقى ودرج في ذلك وتقلد الوزارة فيها ، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بني أمية ، فكان من أشياع ابن جهور أحد ملوك الطوائف الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ وعلت منزلة ابن زيدون هناك ، فاتخذه ابن جهور وزيراً له فلك أزمة الأمور ، وكان أقرب الناس إلى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية ، وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذكائه ودهائه ، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به ، وحدثت حوادث أوغرت عليه صدور كثير من منافسيه والحاسدين على فضله ومنزلته ، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلا ، فاستعفر واستعطف بما يلين من أجله الحديد ، فلم يفلح في إرضاء الأمير فعزم على إعمال الحيلة والهرب من السجن . واختفى بقرطبة إلى أن استشفع بأبي الوليد بن جهور عند أبيه أبي الحزم حتى شفع له ، وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته ، ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقائه في قرطبة ، فهاجر إلى إشبيلية سنة ٤٤١ ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتمد وبقي هناك إلى آخر عمره . هـذه حياته وأخلاقه ، وقد ذكرها في شعره ونثره ومنها يرى أن حركات عقله كانت تتفوذلك خطوة بخطوة ، فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة ، لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية إلى أقسام ثلاثة : عشقه لولادة وأثر ذلك في نفسه وما كتبه في هذا ، ثم مدحه لابن جهور وابن عباد ثم أثر السجن في حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لأخلاق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم في شعره ، فقد كان المجون مسحة خاصة في النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون في الغزل ، وكثير من شعره في ذلك كان منبعثا عن ثوران في نفسه وغليان في ميوله وأهوائه ، أذكى ذلك كله حبه لولادة ، فإن عشقه هذا فتح له بابا واسعاً

من الخيال قال فيه ما شاء وشاءت عواطفه أن توحي إليه ، كذلك كانت آلامه وما لاقاه في السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه وإلهاما من إلهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جهور ، وكاد له منافسوه في حبّ ولادة حتى نالوا منه ، وشغلوا غلتهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد أن ائتمنه وعرف له رأيه السديد وبراعته في إدارة الأمور وسلمه زمام الدولة ، ولم يكن لابن جهور أن يخطئ في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته ، فإذا نال ابن زيدون مكانة في نفس ابن جهور ، فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق ، ولكن أعداؤه تمكنوا من ابن جهور فغضب عليه وأمر سجنه ، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعرى أثارتها آلامه فأخذ يئن أنيناً جيلا ، ويفتن في آلامه ووصفها والتعبير عنها مرّة شعراً ومرّة نثراً . . . والفنى يمزج فنه دائما بكل ما يرى ويسمع ويشعر ، ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الادراك ، التي إذا أنت تئن أنين الموسيقى ، وإذا شكت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعوراً الواسعة التصوّر والإدراك الدقيق ، الذى يحمل الشكوى حيلة والكلام فيها جيلا . كتب ابن زيدون من السجن إلى صديقه أبي حفص بن برد يشكو ويئن من بلواه وهو ينهضه الأمل مرة ويقعده اليأس أخرى ، ولا يترك شاردة تمرّ بخاطره إلا هدأ بها نفسه ، وتسلى بها عن آلامه . يستسلم أحياناً إلى القضاء فيشعر في نفسه براحة واطمئنان ، ويقلب أمامه صفحات الأيام فلا يحس من الحوادث التي ألمت به ، ويرجع إلى صديقه فيسليه هو نفسه ، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته ، لأن السعادة خلسة ، ثم يعود فيذكر أعداءه وينالهم منه ويبين أن ذلك ليس بالعجب لأنه :

إن قسا الدهر فللمـــاء من الصـــخر انبجاس

ويرى أنه حسد لمكانته ، ويمزج ذلك بالعبر والحكم والسخرية والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجع أنينه وألمه وحقده على الناس ، ولا سيما حاسديه ، ويضرب المثل كي يسكن من نفسه ، وهو في ذلك كعادته في الشكوى : يهبط مرّة إلى الدرك الأسفل من اليأس ، ويترفع أخرى إلى ذروة الرجاء ، وكأنه في شجار مستمرّ بينه وبين نفسه وشعوره ، كل هذه المعاني في أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق ، يكاد يلمح الإنسان فيها خاطره المضطرب المتماوج . حيث يقول :

« ما على ظنيّ باس يجرح الدهر ويأسو.» الخ

هذه نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذى يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول ، ليس ذلك لأنه مطرب مرقص بوزنه وقافيته ، بل لأنه ساحر بمعانيه وجماله ، كل معنى فيه تحتاج إليه النفس في مثل هذه المواقف ، ولقد كانت هذه المعاني سائغة للنفس لأن الشاعر صادق في قوله ، معبر عن شعوره يرسم صوره من نفسه الحزينة المتألمة ، لهذا كان الشعر جيلا .

وقد بدأ قصيدة من قصائده في هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن في ذلك ، وكأنما كان يبكى حظه ويندبه بهذا الأسلوب الفخرى ، أو كأنما كل معنى من هذه المعاني كانت تهدئ خاطره وتريح نفسه ، فلما مدح ابن جهور مدحه في قالب استعطاف ، وتوسط بين المدح الخالص والعتب الجدى ، وقد ظهر بنفس كبيرة وأنف أشم حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان مادحا أشدّ منه عاتباً ، لأنه كثيراً ما كان في مثل هذا الموقف لاينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد أن يعلى عليها ولو نسى أنه في موقف مذلة ، وكأنه كان يتسلى بهذا ، لأنه يرى أن أعداءه لم ينالوا منه إلا لأنه فاتهم بعلمه وفضله حتى إنه قال متهكما :

« ولو أنى أسـتطيع كي أرضى العـدا شريت ببعض الحلم حظا من الجهل .

وكل قصائده التى أرسلها يستعطف بها ابن جهور هى أثر ذلك الشقاء الذى لقيه فى سجنه ، وصورة من صور البؤس الذى حرّك شعوره وفتق منْ لسانه ، وأثار فى نفسه عواطفه الشعرية المدلهمة المملوءة هماً وغماً .

ولـكن أسلوبه فى الشكوى والاستعطاف واحد فى نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده فى ذلك وما فيها من المعانى برسالته الجدية ، وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شـدّة تألمه فى السجن ، فانه لم يخرج عن عادته فى ضرب الأمثال والفخر بنفسه ، وأنه أنبل إنسان وأكرم من دبّ على وجه الأرض .

غـير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشـية ، جذاب خلاب ، تظهر عليه سيما الابتكار والصدق فى التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشـعرية الصرفة ، بل به كثير من الحقائق التى كان يمليها عليه شعوره كما قال :

« ما جال بعـدك لحظى فى سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر . »

وكتب إلى أحد أصدقائه وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن ، فقال :

« . . . وبلغنى أنك أحد اللائمين لى الخ »

إلى أن قال :

« شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا . »

إلى آخر ماقال فى هذه القصيدة التى هى من أبدع قصائد الشكوى وأجمعها لذكر الماضى والحاضر والاستغفار والاستعطاف ، والسرور بذكر ما انقضى والبكاء على الحاضر ، وهى أيضاً أظهر فى لهجتها الجدية من كثير من شعره ، ولذلك كانت أخف فى أسلوبها ومعانيها ، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه ، كل ذلك عاجه السجن وماتذوقه من الآلام ، فرسمه فى شعره ، لأنه رجل ذى يعرف كيف يصوّر مايشعر به ويعبر عما يجول بخاطره . ولقد يلاحظ الانسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشـئة عن تفكير طويل أو علم واسع ، وإنما هو خيالى أكثر منه مفكراً ، وشاعر أكثر منه عالما ، وهذه كل حال شعره ونثره .

أما مدحه ورثاؤه فهما فى المرتبة الأخيرة من شعره ، لأنه على جمال أسلوبه فى ذلك ، وحسن تصرفه فى المعانى لا يكاد يعثر الانسان فيه على معنى جديد ولا رأى خاص ، بل يكاد يكون كل ما جاء من المعانى من قبيل معارضة غيره من الشعراء والأخذ بمعانيهم ممزوجاً ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان .

ومن أجمل قصائده كلامه فى المعتضد بن عباد وابنـه المعتمد ، ومن أرقّ كلامه فى الشكوى ، وأقرب عباراته وصولا إلى القلوب بكاؤه على الماضى ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله :

« الهوى فى طلوع تلك النجوم والمنى فى هبوب ذاك النسيم . »

ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حنيناً مؤلماً ، فاذا قرأت شـعره فى ذلك رأيت نفسـك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكى وبكيت معه ، كما قال :

« ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح تقضت مبانيها مدامعه نزحا .

الغزل فى شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع فى الأندلس ، وميول النفوس ، واختلاط النساء بالرجال ، واندماج كثير من الأديبات فى مجالس اللهو والطرب ؛ أن المرأة شغلت جزءاً عظيما منْ أوقات الرجال المفكرين ، وملأت

رءوسهم ، كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم ، فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور ، والخمر تدير العقول ، وتملى عليها القول ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال ، والعقول ثملة بنشوة الغرام والرءوس مثقلة بحرارة المدام ، والناس لا يفوتهم الطرب ، ولا يريدون أن يتواروا عنه لعلقته بنفوسهم ، حتى فى أشدّ المحن ، فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو فى سجنه لصديقه أبى حفص بن برد يقول :

« وأدر ذكرى كأساً ما امتطت كفك كاس
واغتنم صفو الليالى إنما العيش اختلاس . »

وقع ابن زيدون فى شرك ولادة بنت المستكفى بالله ، وكانت حليمة ماجنة بارعة رفيعة بين الأدباء « تناصل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . . . خرجت على نهاية فى الأدب والظرف ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، وسهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلوّ نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها . . . » وقالوا « إنها كانت بالمغرب كعلية بالمشرق ، إلا أن هذه تزيد الحسن ، وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة فى الغناء ، وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمرّ فيه النادر وإنشاد كثير مما اقتضاه عصرها . . . . . وكانت من الأدب والظرف ، وتتييم السمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب» فنال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هى من نفسه ، حتى كتبت إليه تضرب له موعداً فقالت :

« ترقب إذا جنّ الظلام زيارتى فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر . »

قال أبو الوليد : « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل ديجوره ، أقبلت بقد كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل ، فملنا إلى روض مدبج ، وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرّ الطلّ منثور ، وجيب الراح مزرور . فلما شببنا نارها ، وأدركت منا ثأرها ، صرح كل منا بحبه وشكا ما بقلبه . . . وأنشدتها :

« ودع الصبر محب ودعك ذائع من سرّه ما استودعك . »

وكتبت إليه بعد ذلك تقول :

« ألا هل لنا من بعد هذا التفرّق سبيل فيشكو كل صب بما لقى . »

إلى أن قالت :

« تمرّ الليالى لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من رق التشوق معتقى
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الوبل مغدق . »

ولا نريد الآن أن نتكلم فى العشق وأثره فى النفس وما يوحيه من روائع القول وجمال الفكر حتى عند عامة الناس ، فإن تاريخ الإنسانية حافل بحوادثه . ولكنا نقول : إن العشق فى كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية ، لأن الشعر الذى هو وحى النفوس وجمال الإدراك الإنسانى ، أكثر [illegible]

أكبر مظاهر الجمال فى الحياة ، ومن لم يفتح له قلبه يوماً ما ، لم ير غير ظواهرها ولم يتسرب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس فى التآلف ، وكثير من آمال الناس فى تلك الصلة النفسية ، والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن فى الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالى الجميل . لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سرّ من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الإنسان وأخلاقه وآلامه وآماله . إن النساء منبع من منابع الشعر ، والشعراء مدينون لهنّ بأفضل الصفات لديهم وهى وصف شعور الناس ، والشاعر الذى يشعر بالحب لايتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم ، وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين . إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات مايجول من المعانى ويدفعها إلى النفوس فتصبو إليها ، ويذيعها بين العشاق فيرى كلّ قلبه وكأنه ينظر فى مرآة يرى فيها صورته ، وذلك لا يكون إلا فى الشعر .

فإذا أخطأ العرب فى إمعانهم فى هذا النوع والإكثار منه ، فقد أخطأوا من جهة واحدة : وهى تكرار المعانى وتقليد بعضهم بعضاً فى ذلك ، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد ، وأن صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة ، وأن المعانى محصورة فى ذلك . ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة فى الخيال ، فكان فنياً مبدعاً . أرأيت شعراء العرب كيف يطنبون فى وصف الأمكنة التى اجتمعوا فيها مع صديقاتهم ، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين : الأول إحياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، إذ كل شىء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأمكنة جميلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التى تسطع عليهم والأشجار التى كانت تظللهم ، والكواكب التى كانت تتجسس أخبارهم ، جديرة بأن لاتنسى ، لأنها أثر من آثار العشق . الثانى أن الشاعر الفنى يفر من التكرار ، ويعرف أن معانى العشق والحب سرعان ماتنفد ، فهو يتحايل على شتّ شىء من المعانى الأخرى التى لها صلة بذلك ، كي يتسنى له أن يجول فى ميدان أوسع ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع المَقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لإظهار الصورة التى يريد أن يبرزها . كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنيين أو قريباً منهم . فقد التجأ إلى مدينة الزهراء الجميلة فى أيام الربيع ، يريد أن يسلى نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، فذكر فى شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك وأبدع أيما إبداع ، وافتن افتنانا عظيما فى ذلك ، فقال :

« إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا »

وإذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فليس ذلك فى ابتكار المعانى التى لم يسبق إليها ، وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب وكأن الانسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان فى التعبير والاسلوب . كما فى قوله :

« إليك من الأنام غدا ارتياحى وأنت من الزمان مدى اقتراحى . »

ولقد يسمع الانسان أنينه فى شعره ، ويرى أنته المحزونة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . على أنه يلتذ لذكر محبوبته ويذوق الآلام بسببها . فيقول :

« متى أبثك ما بى يا راحتى وعذابى . »

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه مخلص كل الإخلاص فى حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته ، وأنه يرى فى سبيل العشق مالا يراه غيره ، ويهون عليه كل شىء فى سبيل إرضاء حبيبه حتى حياته ، وهو فخور بهذا كما قال :

« أنى تضيع عهدك أم كيف تخلف وعدك . »

على أننا لا نبرئ ابن زيدون من التصنع أحياناً فيما يقول لأنه كان كغيره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فإن تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول الشعر ، كما قالوا إن السلطان أمره أن يعارض قطعاً كان يغنى بها ، واستحسن ألحانها ، فأنشأ أبياتاً كأنها صادرة من عاشق متيم ، وضمنها مدح السلطان ، فقال :

« يقصر قربك ليلى الطويلا ويشفى وصالك قلبى العليلا . »

وفى بعض كلامه ، مايدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعانى التى قيلت فى العشق ، فيبسطها ويلبسها ثوباً جديداً وكأنها له ، وقد برع براعة عظيمة فى ذلك كما قال :

« يا غزالا أسارنى موثقاً فى يد المحن . »

وهو فى كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره ، خفيف الروح ، عذب الألفاظ ، سهل الأسلوب .

أما نونيته التى أرسل بها إلى ولادة وبثها كثيراً من شعوره وآرائه المختلفة . فهى على شهرتها وجمالها كـكل شعره ولذلك لم نذكرها .

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برسالتيه الجدية والهزلية . أما الأولى فهى التى كتبها فى سجنه يستعطف بها ابن جهور وأما الرسالة الهزلية فكتبها على لسان ولادة يتهكم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركته فى غرامه .

اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما النادر المثال ، ولاحتوائهما على كثير من الأسماء التاريخية والأمثال العربية ، واقتباس أبيات من الشعر معروفة وقعت فى صوغ الكلام وكأنها خلقت من أجله ، أو فصلت على سمته ، وليس من السهل اقتباس المثل فى أمكنته ، ولا من الهين أن يخوض الإنسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال فى نواحيه ، ويميز بين الجيد وغيره ، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ، ثم يصوغ ذلك كله فى قالب واحد ويضم بعض أجزائه إلى بعضها ، ويمزجه كما يمخض الزبد ، فلا يتنافر منه جزء مع آخر .

إن الكلام على هذا النحو أصعب من الابتكار فى التأليف المبتدأ ، وكلما قرب إلى القارئ الأسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر بسعة اطلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت فى نفسه منزلته ، وكلما فاجأه اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى ما غاب عن ذهنه ، أو تلميح إلى قصة لا يغفل أن تذكر فى مثل هذا الكلام ، أو عبارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل ينطق به ، أو ذكر رجل شهير يمجده ، أو نكتة تسر بها نفسه ، أو مسألة دينية يرتاح لها ويلتذ بذكرها ، زاد إعجابه بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل إنسان غير قادر على ذلك ، وأن هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل ذلك فى نثر ابن زيدون وهو من دواعى الإعجاب بأسلوبه فى رسائله ، فقد عرف كيف يأتى فى كتاباته بالتناسق فى المعانى والألفاظ ، بل عرف أن يأتى بهذا التناسق فى التأليف والجمع ، وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفاً جميلا ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها مايناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة

جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذى يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذي يؤلف بين اللون واللون . ولقد حاول ابن زيدون فى رسالتيه الوصول إلى غرضه ، فلم يدع وسيلة مايجسم بها المعنى فى نفس القارئ لتنهال عليه المعانى ويكون غرضه أوضح ، ورأيه أظهر ، إلا فعلها ، فكل ما ذكره من الأمثلة المقتبسة والمعانى المختارة قصد به توضيح ما يريد .

فى رسالته الجدية أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه مما اتهم به ويكيل بأعدائه ، فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستذل نفسه تارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر إخلاصه له ويتملق إليه أخرى ، ويعتذر عنه فيما وقع منه فى حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شماتة أعدائه ، فقال :

« يا مولاى وسيدى الذى ودادى له . الخ . »

ثم أخذ يتعلل بالآمال ، ويضرب فى ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدئ منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو ويحمده على كل شىء ، كما يحمد الله على السراء والضراء ، فقال :

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلى . »

ثم وقف موقف المذلة وكأنما يسمع الإنسان بكاءه فى كلامه ، واستصغر ذنبه فى ساحة عفو سيده ، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة ، فقال :

« وأعود فأقول : ماهذا الذنب الذى لم يسعه عفوك . الخ »

والعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تيقظه الشديد ، ثم أخذ بعد ذلك يبرئ نفسه ، ويعجب من سيده الذى يصغى إلى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن جهور لو ما لا يظهر إلا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف ولا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح . الخ »

ثم ذكره بإخلاصه له ، ومدحه إياه ، وأخذ يرجع إلى استعطافه وعلقه ، فقال :

« وقد زانى رسم خدمتك . الخ »

ثم جاءته عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى ، فبين له أن مثله لا يصبر على الهوان وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده إلى مكان آخر ، ويخاطر فى هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام مستأنساً بأدبه وفضله ، فقال :

« ولعمرك ماجهلت أن صريح الرأى أن أتحول إذا بلغتنى الشمس الخ . »

وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور إلى أن ينسى استعطافه لما يظن فى هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه ، فأخذ يلطف من حدته ، ويسكن من هياجه ، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شىء لديه فى الحياة ، فقال :

« غير أن الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف . الخ »

ثم أخذ يقوى أمله فى إجابة طلبه ، ويضرب الأمثال فى ذلك ، ويمدح البقاء فى جوار سيده بقوله

« أعيذك ونفسى من أن أشيم خلبا وأستمطر جهاما . الخ »

هذا أكثر ما فى هذه الرسالة الجدية ، وأعظم ما فيها تأليفها الذى يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة التى تهيج مرة وتجمد أحياناً ثم ترجع وتلين ، وكأنما الكاتب فى نزاع مستمر بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان يشتد كل منهما عند ما يخاف قوة صاحبه .

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارئ إذا وقف عن كثب ونظر إلى حركاتها نفسه وهو يكتب أو

يمكر في هذه الرسالة . يرى نفسه الأبية وهو يفخر بها ويعلن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه المتهكمة ، وهو يحصى ويعد الذنوب الكبيرة التي تستحق مثل عقوبته ، لايريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حق وحرق في الرأى ، ويرى نفسه الكئيبة التي أحدثتها الاكدار فذلت وأخذت تستعطف وتستشفع وتتملق ، يرى الإنسان كل ذلك في هذه الرسالة ، ومن هنا جمالها وإبداعها . لاما بها من الأسلوب البليغ أو العبارات المختارة لا غير .

أما رسالته الثانية التي كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة ، فقد دلّ فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع في الهجاء ، لأنه أقذع في ذم ابن عبدوس إقذاعا ، وتهكم به تهكماً لا مثيل له حتى إنه ليخيل إلى الإنسان أنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوباً جيلا خلاباً يدل على تمكنه من التصرف في الكلام ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لأن هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها الذي يستغرق أربعة أخماسها أو أكثر ، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والأبيات المشهورة ، والاطناب في ذكر الأسماء التي يكفي منها القليل ، ليس فيها ما يدعو إلى الملل ، ولا ما يشعر بالاستهجان والابتذال . على أن بها شيئاً كثيراً من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسما لمشهوري الرجال ، سردها سرداً ، وكان يكفي عشرها ، وأكثر أيضاً من صفات الذم مما كاد يكون ثرثرة ولغواً ، ولكنه ستر كل ذلك ببراعته في الصناعة ، وليس أدل على جفاء الطبع وغلظته من هذه الرسالة ، فقد ابتدأها بسماجة نادرة ، ولكنها سماجة أديبه فنيه فقال :

« أما بعد أيها المصاب بعقله الخ »

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء ، ثم أقذع في الذم والفحش في صفاته فقال :

« وهبها لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك ملؤها حبيبها حسن فيها من تود . الخ »

واستمرّ على هذا النحو إلى آخر الرسالة يضرب الأمثال للاستهزاء والتهكم ، ولقد كشف ابن زيدون في هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة للانتقام وأنه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة في طبعه ، وخشونة في أخلاقه مع ذلك فهي رسالة تمتاز بأسلوبها ، وتناسق عباراتها ، ولعلّ ابن زيدون أخذ هذا الأسلوب عن الجاحظ في بعض رسائله ، كما في رسالة التربيع والتدوير .

٢ — دراسة الأستاذ السكندرى[1]

علمه وأدبه وبديهته :

نشأ ابن زيدون في عصر احتل فيه نظام ملك بني أمية لجأة ثورة البربر المشؤومة ، وقامت هذه الثورة وآثار الحضارة في كل شيء من علم وأدب ودون ضاربة بجرانها في قرطبة ، فكانت غنية بالعلماء والفقهاء واللغويين والشعراء والمحسنين في كل صناعة ممن نبتوا في عصر المنصور الهيّ ، فصادف ابن زيدون من نبل من علمهم وكرع من أدبهم ، وكان أبوه وعشيرته من أهل الفقه والأدب فلم يكن إقباله على ما أخذ به أهلوه أنفسهم بدعاً من نفسه ، وإنما جرى في مضمارهم فبزهم علماً وأدباً ، وبعد صيت وعلوّ همة .

كتابة ابن زيدون

(أ) طريقته فيها :

كانت طريقة كتابة الأندلسيين منذ عصر الناصر والمستنصر جارية على أسلوب ابن العميد وحلبته من أمثال الصاحب بن عباد والبديع والخوارزمي والصابي ومن تابعهم من أمثال الحريري والعماد والاصفهاني ، وكان الكاتب الأندلسي الذي ينسج على منوالها ، وإن حلّ المأثور من النظم وضمن نص القرآن والحديث لايغلب ذلك على قوله فتفقد فيه صورة نفسه وخاصة طبعه ، بل كانت تكون له التشبيهات الرائعة والتعليلات الحسنة ثم هو لا يخرج عن التزام السجع غالباً . وابن زيدون رعي هـذه الطريقة من بعض الوجوه وخالفها من بعض ، فأما ما رعاه في كتابته منها فهو :

١ ــ حل المنظوم من مشهور الأبيات .

٢ ــ الاحتجاج والاستشهاد بكثير من هذه الأبيات مستعملا لها استعمال الأمثال فلا ينسبها إلى قائلها .

٣ ــ الاقتباس من القرآن الكريم أو الحديث بلفظهما أو تغيير بعض نظمهما .

٤ ــ تضمين الحكم والأمثال بلفظ أصحابها أو تغيير في نظمها .

وأما ماخالف فيه فهو :

١ ــ عدم التزام السجع

٢ ــ الاستكثار من أمثال العرب القديمة استكثاراً كاد يسد قوله الخاص بجانبه ضائعاً وبخاصة الغريب من هذه الأمثال .

٣ ــ الاستكثار جداً من ذكر أسماء رجال التاريخ المشهورين .

٤ ــ الاستكثار جداً من أسماء الوقائع الشهيرة في التاريخ .

٥ ــ الاستكثار من الجمل المترادفة على مثال واحد في المعنى الواحد حتى يتكوّن منها فصل طويل يشغل فراغاً كثيراً من الرسالة لو اقتصر على فقرة واحدة من الفقر المتكرّرة في المعنى لنزلت الرسالة إلى خمسها أو سدسها . وهذه الطريقة غلبت على كتابته وهي على رسالتيه الجدية والهزلية أغلب ولاسيما الهزلية .

(ب) منزلته فيهما :

اشتهر ابن زيدون عند المغاربة والمشارقة بأنه من بلغاء الكتاب والشعراء ، فأما الشعر فلا جدال في استحلاله ، فلاستحقاقة ذلك الصيت الذائع فيها تأويل وتعليل يخرجان عن حدّ بلاغة الكتابة في ذاتها إلى أمور خارجة عن جوهر الاجادة ، وذلك أن كتابته اشتهرت بين الناس لأمرين :

أوّلا : أنها ليست على منوال كتابة الأندلسيين في عصره بل هي مخالفة لها في بعض الصور ، وصدور العمل المخالف لعمل الناس من رجل متوسط في الحال لافت بذاته للأنظار ، باهر للنفوس ، فكيف به لو صدر من ذي شأن نبيه بمنصب رفيع ونسب عريق ، وصيت ذائع في السياسة والأدب والشعر وحسن المحاضرة والمنادمة .

وثانياً : أنها باهرة لامعانيها وروعة أساليبها وشدة حوكها في نفس قارئها بل بما اشتملت عليه من وفرة التضمين والاستشهاد والوقائع وأسماء الرجال ، مما يكبر من شأن كاتبها في الصدور ، ويشهد له

بطول الباع ، وسعة الاطلاع ، ويكبر من شأنها هي ، إذ تكون بمثابة مجموعة أدبية حافلة بمأثور الأقوال ، معرّفة بكثير من حوادث التاريخ وأسماء الأبطال ، بحيث إذا حفظ ناشئ متأدب الرسالة منها أودعت صدره زبدة اطلاع كثير وبحث طويل ، فكأن شهرته آتية من طريق التثقيف والتعليم ، فتكون في الأدب أشبه بمتن من متون العلم كثير المسائل والاحكام وجيز العبارة ، وهذا السبب بعينه هو سبب شهرة مقامات الحريري ، وبعض القصائد المحتوية على كثير من أسماء الرجال وحوادث التاريخ والحكم والأمثال ، كمقصورة ابن دريد ورائية ابن عبدون في رثاء دولة بني الأفطس ، ونونية الرندي ، ولامية ابن الوردي ، ونونية البستي ونحوها ، وكلها عظيمة الأثر في التعليم والتأديب وسرعة التوقيف على أكثر ما لا يسع الأديب جهله في لفظ يسير وزمن قصير ، لا في بلاغتها ذاتها وحسن تأثيرها في النفس حتى تستجيب النفس لداعيها ، وتميل على قائلها ، ولذلك نجد رسالة ابن زيدون الجدية التي استعطف بها جهوراً لم تؤد ما وضعت له . ولا نعني بكلامنا هذا أن الرجل كان قليل الخاطر ، أو ضعيف الارتجال ، فكل من تعرض لذكر أخباره يصفه بقوة العارضة ، وسرعة البديهة والارتجال ، وأنه كان في مجلس ولادة يرتجل المقطعات الشعرية المليحة ، ويحاضر بالنكت النادرة والأجوبة المسكتة ، ودون بعض حرمه موقف الناس يعزّونه على اختلاف طبقاتهم فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره ، وتلك غاية لا تدرك .

وإنما خلق الرجل شاعراً مطبوعاً ، واضطرته الوزارة إلى الترسل والكتابة فكانت كتابته بالشعر أشبه منها بالنثر ، وأكثر المغاربة لا يتحدثون إلا في شعره على عكس المشارقة .

رسالته الجدية

هذه الرسالة أشهر رسائله وأبلغها ، وأكثرها عائدة على المتعلمين الذين يحفظونها لتنوّع فصولها وتعدد الأغراض التي رمت إليها ، والمعاني التي لوحت بها على ما أثاره من أمل كاتبها ، وما حوته من روعة التأثير في النفس . وهذه الرسالة بعث بها من السجن إلى جهور يستعطفه بها ولكنه مزج الاستعطاف بكثير من الزهو والامتنان ، واستقطاع العقاب على ذنب متوهم على طريقته الكتابية التي وصفناها آنفا .

وإذا حللنا هذه الرسالة إلى عناصر الأغراض التي تألفت منها وجدنا أنها لا تعدو عشرة أغراض تؤدى في عشرة أسطر إلا أن كثرة الجمل المترادفة الأسلوب والصورة زادت في ذرعها طولا .

وذلك أنه ناداه بألفاظ السيادة أولا ، ثم اعتذر له عن نكبته إياه بعد ما أحس الجاد به الإنسان بصدق حدمته له وثنائه عليه ، بأن عمل الخير قد يعود على صاحبه بالشرّ ، وأوّل هذه المقابلة بأنها صادرة عن حسن نية وقصد تأديب ، ثم أخذ يستريث العفو ، ويستعطع هذا العقاب الذي كان بعضه كافياً لردع الأبالسة وكبار الفتاك والخارجين على الأنبياء والأئمة والدين ، مع أن المسألة لا تخرج عن وشاية حساد سمع جهور لهم فنكب وليه الذي نوه بذكره ، ثم أخذه الزهو فذكر أنه كان في مكنته أن يستبدل بخدمته خدمة من يرحب بعض الملوك ، غير أنه عز عليه مفارقة وطنه ومولاه القديم ، ثم عوذ نفسه من أن يكون معه كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وناشده المتنبي حتى توقع الفكاك ، ثم استملح نثر هذه الرسالة ورأى أن يستلحقها بقصيدة ، فكانت هذه في رأينا آنق لفظاً ، وأعذب مورداً ، وأطيب الساقا .

« ثم أورد القصيدة وقال : »

محاسن هذه الرسالة ومعايبها

لا ريب أن مكان هـذه الرسالة من الأدب العربى مكان المشهور المأثور المحفوظ فى الصدور المخلد فى السطور وذلك لأمور :

الأول : أنها جراب أدب حاو لجلة نماذج مختلفة من عيون مواد الأدب بما ضمنت من اقتباس القرآن والحديث ، والأمثال ، والحكم ، والأبيات المشهورة ، وحل نظم الكثير منها والإشارة إلى ما فيها من وقائع التاريخ الشهيرة التى يجدر بالأديب معرفتها والاستشهاد بها .

الثانى : حسن ملاءمتها بين هذه الصنوف وحودة رصفها وجمع شتاتها فى موضوع واحد مما يعسر على غير حاذق التوفيق بين متباينه ، ويجعل نمطها غريباً ونسجها وحيداً .

الثالث : حصافة عبارتها وجزالة لفظها فى كثير من مواضعها وخاصة ما استقل به كاتبها معنى وإنشاء .

ولكننا إذا نظرنا إليها بعين الناقد وأمعنا البحث فى بلاغتها أى مطابقتها فى معانيها ومبانيها لمقتضى الغرض الذى وضعت له ، وهو الاستعطاف ، وجدنا أنها تقصر دون بلوغه لجلة أمور :

الأول : كثرة ما ردده كاتبها فيها من عبارات الامتنان على مولاه بطول ثنائه عليـه وحسن سابقته عنده وعظيم بلائه فى إقامة دولته مما يعده الرئيس عادة تعييراً وتجبيهاً .

الثانى : تهديد مولاه بأنه لولا حب الوطن لكان له أرفع مقام فى خدمة غيره من الملوك الذين يتسارعون إلى الترحيب به ، ويتنافسون فى استخدام أمثاله .

الثالث : أن وضعها بهـذه الصورة يجعلها غـير كفيلة بانجاح الغرض الذى وضعت له (وهو تحريك عاطفة الرحمة والعفو) بما يصرف نفس قارئها عن أن يتأثر ببلاغتها ويشـغلها بتذكر الحوادث والقصص التى أتت عليها ، وأسماء الناس ، ومضرب الأمثال ، فلا يفرغ القارئ من تعرف اسم رجل حتى يقع فى مضرب مثل ، ولايخلص من تفهم شاهد حتى يتقحم فى أوعر منـه ، فيتقسم فهمه ، ويتشتت تأثره ، وإنما يأتى التأثر من انصباب غمرة من الانحداعات المتكررة ، بتكرر العبارات البليغة المؤثرة ، فتحدث بمجموعها أثراً كلياً فى النفس ، فتجيش بالشفقة ، وتهش للعفو ، ومثل ذلك كان الإنشاء المبرقش بكثير من أنواع البديع غير مؤثر ببلاغته ، لشغله الذهن عن التأثر ، وصرفه إلى تفهم البديعية .

ومن هذه الوجهة نرى أن رسالة ابن زيدون ليست مثالا يحتذى للإنشاء البليغ المؤثر فى النفس .

الرابع : وقوع بعض هفوات له ذكرها الصفدى كاحتياج فقارها إلى ذكر فقار بعـد تتم معناها وتلتئم بها مع ما بعدها (وهـذه نضرب صفحاً عن ذكرها) وكبعض أخطاء فى المعنى والوقائع (وهـذه نشير إلى بعضها ، ومن أراد مراجعة الجميع فعليه بشرح الصفدى) .

فمن هذه قوله (وتأولت فى بيعة العقبة) وسياق كلامه فى هذا الفصل يقتضى ذكر أسماء أناس منكرات يبرأ هو أن يكون مثلهم ، ولم ينقل أحد من أهل الأثر أن أحداً ممن بايع فيها تأولها أو نكثها .

ومنها قوله « وتخلفت عن الصـلاة فى بنى قريظة » ولم يعلم أن رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنكر على من تخلف عن صـلاة العصر فى بنى قريظة وصـلاها فى الطريق بل أقر الجميع على عملها وعد ذلك من اجتهاد الصحابة .

ومنها قوله « وزعمت أن بيعة أبى بكر كانت فلتـة » مع أن قائل هـذه الكلمة عمر بن الخطاب ، ولم يقلها عن إرادة سوء فلا ينبغى أن يتمثل به فى أعمال الجناة .

ومنها قوله « وكتبت إلى عمرو بن سعد أن جعجع بالحسين » مع أن المكتوب إليه الحرث بن يزيد التميمي لا عمر بن سعد .

وقد أتى الصفدي على عيوب آتية من تصحيف أو سوء تأويل منه هو ، أعرضنا عنها خوف التطويل .

رسالته الهزلية

كان الوزير أبو عامر بن عبدوس ينافس ابن زيدون في حب ولادة ، فاتفق أن حدثت مودة بينهما ، فأرسل ابن عبدوس إليها امرأة من صواحباته تستميلها إليه ، وتذكرها بفضله وأدبه ، فردت ولادة المرأة خائبة ، وكتب ابن زيدون إلى ابن عبدوس عقب رجوع المرأة هذه الرسالة على لسان ولادة ، يرد عليه ويتهكم ويهجوه ويتوعده . وفي ظننا أن ابن زيدون كتبها من نفسه تشفياً من ابن عبدوس لا عن رأي ولادة ورضاها عما أفحش فيها وأقذع .

والرسالة كسابقتها في قلة أغراضها وتكرار أساليب فصولها ، وذلك أنه بدأها بوصف ابن عبدوس بأوصاف الحمقى والجهلاء منكراً منه إرسال حليلته إلى ولادة ، مثنية عليه ومرغبة فيه ، واصفة له بأوصاف أعيان الزمان من العلماء ، والأدباء ، والأطباء ، والفلاسفة ، والشجعان من فلان وفلان ، وإن ولادة طردتها أشنع طردة ، ثم أخذ يهجوه بأوصاف في الخلق والخلق ، وإن ولادة لو أرادت الرجال لكان لها من الأكفاء من قومها وأعيان زمانها من يفضله سناً وشرفاً وجمالا الخ .

٣ - دراسة الأستاذ علام سلامه[1]

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي القرطبي كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة وبرع في الأدب والفنون ، مع علمه وفضله ، وذاع صيته ، وارتفعت مكانته ، واختص به أبو الوليد ابن جهور أحد ملوك الطوائف واتخذه وزيراً واعتمد عليه في السفارات بينه وبين ملوك الأندلس ، فأعجب القوم به ، ونموا ميله إليهم لبراعته ، وحسن سيرته ، واتفق أن نقم عليه ابن جهور وحبسه ، فاستعطفه برسالته السابقة وبأمثالها فلم يغن ذلك عنه شيئاً فتحيل لنفسه حتى تسلل من حبسه واتصل بالمعتضد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤١ فحل منه محل السويداء من الفؤاد ، واستخلصه استخلاص المعتصم لابن أبي دؤاد يجالسه في خلواته ، ويركن إلى إشارته ، ولم يزل عنده وعند ابنه المعتمد قائم الجاه وافر الحرمة حتى توفي سنة ٤٦٣ وكان له ابن يقال له أبو بكر تولى وزارة المعتمد ، وقتل يوم أخذ يوسف بن تاشفين قرطبة سنة ٤٨٤ وقد أثنى عليه ابن بسام في الذخيرة بقوله : كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بني مخزوم ، فاق الأنام طرا ، ووسع البيان نظماً ونثراً ، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المباني ، شعري الألفاظ والمعاني .

ومما يحكى عنه في سعة البيان والقدرة على التفنن في أساليب الكلام أن ابنه توفيت فوقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم ، فما أعاد عبارة قالها لأحد ، وهذا عجيب للغاية ، ولا سيما من محزون فقد قطعة من كبده :

« ولكنه صوب العقول إذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحاب . »

كتابته

كان ابن زيدون مع صفاء قريحته ، وقوة سليقته فى البيان يؤثر الرواية والتأنى لفسح القول ، وكان مع سعة روايته لفنون الأدب عليما بأخبار العجم والعرب ، متمسكا من كل ما يعوز الأديب بسبب ، فليس بدعاً أن يكون لكل أولئك آثار فى كتابته ، وليس بدعاً أن لم تكن كتابته عفو الخاطر السانح ، ولا وحى البديهة البادهة ، ولا عصارة عصر الجبين ووليدة التكلف ، فقد جاءت خلاصة الرواية الحصيفة تؤيدها قوة الطبع ومصاصة التنقيح السديد، يؤازره لطف الذوق ، كما جاءت سبيكة رائعة صاغها صنع من مبتكر المعانى الساحرة ، ومستلب الأمثال السائرة ، ومقتبس الأبيات النادرة ، ورصعها بفرائد من أخبار الناس ونوادر الحوادث .

ولئن كان البديع قد فاته فى استرسال الطبع ، ولطف الخيال ، ورشاقة المعانى ، لقد فاق هو البديع فى متانة المبانى ، والتغلغل فى نواحى المعانى ، والبصر بمواضع الاقتباس ، وتوشية الرسائل بأخبار الناس .

أما أوضح مميزاته ففخامة الألفاظ فى غير كزازة ، وعلو الأسلوب فى غير اعتساف ، ورصانة المعانى فى غير جفاف ، والتأليف بين جمال الخيال وجلال الحقيقة .

ومن محاسن رسائله رسالتاه الجدية والهزلية وكلتاهما غرة فى جبين الآداب العربية ، وقد عنى بشرحهما كثير من الأدباء . أما شعره فله ديباجة رائعة ، وصياغة بارعة كأنما هو سبائك النضار ، أو حدائق الأزهار ، إذا نسب أنساك صاحب بثينة ، وإن مدح حلته شاعر مرينه ، ومن مقطعاته التى تشهد له بجودة الطبع ، وإتقان الصنعة قوله :

« بينى وبينك مالو شئت لم يضع سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع . »

ومن شعره الذى يختلط بالروح رقة ، وبالهواء لطافة قصيدته التى كتبها إلى ولادة التى كان شديد الكلف بها والهيام بحبها يستديم عهدها ، ويؤكد ودها ، وفيها يقول :

« أضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا . » الخ

وقد سقنا أكثر هذه القصيدة لبراعتها ، وقد ضمن بعض شطورها ابن الوكيل فى موشحة ، وسدسها بعض أدباء المغرب .

٤ - دراسة الأستاذ أحمد زكى باشا

أوليـــة ابن زيدون

كان فى جملة القبائل التى ذهبت إلى الأندلس رهط من بنى مخزوم توطنوا فى جهات قرطبة وما إليها ، وناهيك بهذه القبيلة ذات الشرف الصميم ، واللسان القويم .

فكان بنو زيدون من رجالاتهم المعدودين ، خصوصاً فى الفقه والأدب ، واشتهر منهم ثلاثة حفظ لنا التاريخ أسماءهم ، وهم :

(١) أبو بكر غالب بن زيدون
(٢) أبو الوليد أحمد بن زيدون
(٣) أبو بكر بن زيدون

كان مولد الأول فى سنة ٣٠٤ ومات سنة ٤٠٥ بعد أن بلغ من العمر مائة سنة . توفى فى ضيعة له . ثم نقلوا تابوته إلى قرطبة ، ودفن بالربض (أى الضاحية) .

وهنالك رثاه أبو بكر عبادة الشاعر الأندلسى بما يعرفنا بمقامه فى قوله :

«أى ركن من الرياسة هيضا وجموم من المكارم غيضا
حملوه من بلدة نحو أخرى كي يوارو به ثراه الأريضا
مثل حمل السحاب ماء طيبا لتداوى به مكاناً مريضا . »

وأما ثانيهم فهو واسطة العقد ، والذى يدور عليه كلامنا . والثالث هو الذى تقلد بعد أبيه (أى الوليد) وزارة للمعتمد بن عباد ، وانتقم لأبيـه من ذى الوزارتين ابن عمار ، وكان أبو بكر هـذا هو الذى تولى السفارة عن ابن عباد إلى يوسف بن تاشـفين صاحب المغرب الأقصى حينما تنمر الاسـبانيون مع ملكهم الإدفونش (الفونس السادس) لملوك الطوائف ، وخصـوصاً لبنى عباد فى خطب يطول شرحه ، ولا يسع المقام تلخيصه .

من هو ابن زيدون ؟

هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى الأندلسى . كان مولده بقرطبة فى سـنة ٣٩٤ أعنى فى الوقت الذى سرى فيه الانحلال فى جسم الخلافة المروانية بالأندلس بعد أن بلغت من المجد نهاية النهايات ، وأدركت من الفخامة مالا تصدق معه الروايات . فى ذلك الوقت تحللت عرى الدولة ، فاقتسم المسلمون على أنفسهم ، وتخاذلوا ، واستنصروا أعداءهم على بعضهم بعضا ، وسـلموا البلاد والقلاع والحصـون واحداً تلو الآخر إلى أعدائهم وأمدوهم بالمعونة على إخوانهم ، وهكذا حتى أودت تلك الفوادح بذلك الملك الكبير ، ثم أتت على القوم بأكلهم فأصبحوا خـبراً بعد عين . نتساءل عنهم بقولنا كيف وأين ؟ فى تلك الأيام اسـتظهروا على شهواتهم بجر ذيولها ، وامتروا بطالاتها من أخلاف أباطيلها . حتى انشقت عصاهم ، ودارت بدائرة السوء على الجهالة رحاهم .

كان ابتداء الاضمحلال والانحلال من أوّل يوم جلس فيـه المسـتعين على عرش الخلافة فى منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ

فقد كانت أيامه كلها كما وصفها ابن حيان الأندلسى « شداداً نكرات ، صعاباً مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحات المنتهى والخاتمة ، ما فقد فيها حيف ، ولا ورق خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء العصبية ، وظعن الأمن وطول المخافة ، دولة كفاها ذما أنها تمخضت عن الفاقرة الكبرى ، وآلت من التى بعـدها إلى ما كان أعضـل وأدهى . مما طوى بساط الدنيا ، وعفا رسمها وأهلك أهلها ، وإذا أراد الله شيئا أمضاه . »

وكذلك لم يكن فى المستكفى أدنى كفاية للخلافة . وإنما أرسله الله على الأمة محنة وبليـة . إذ كان منذ عرف منقطعاً إلى البطالة ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا عن كل حلية تدل على فضـله ، عصته الفتنة فأملق ، وهان حتى أهانه أهله ، ولقد رآه أبو حيان مؤرخ الأندلس المشهور أيام الخسف بأهل بيته فى الدولة الحمودية ولم يكن ممن لحقه الاعتقال منهم لركاكته . كان يقصـد أهل الفلاحة يومئذ بقرطبـة أوان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها. قال « وقد أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس فى الامارة منذ تلك الفتنة أسـقط منه ،

ولا أنقص . إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عامل الحلوة . »

ذلك الوقت هو الذى أشار إليه ابن حزم بقوله :

« فضيحة لم يقع فى الدهر مثلها ، أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ، ويخطب له فى زمن واحد : أحدهم خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم المؤيد. والثانى محمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء ، والثالث محمد بن على بن حمود بمدينة مالقة ، والرابع إدريس بن يحيى بن على بسبتة ، تلك هى الأيام التى دب العرب والبربر فيها فى خصام مستديم ، وكان كل من الفريقين منقسما على نفسه ، وكان الجميع فى خلاف مع أهل المغرب الأقصى من الجنوب ، وفى حروب وخطوب مع بقايا الأمم الاسبانية من الشمال والغرب . فى ذلك الوقت العصيب تفرق أهل الأندلس فرقاً . وتغلب فى كل جهة منها متغلب . وهم الذين عرفهم التاريخ باسم — ملوك الطوائف — وقد أرادوا أن يفخموا أنفسهم وممالكهم فتقسموا ألقاب الخلافة ، كما تناهبوا أشلاءها . فكان منهم المعتضد ، والمأمون ، والمؤتمن والمستعين ، والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ، والموفق ، والمتوكل . إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية . حتى قال فى ذلك أبو علىّ الحسن بن رشيق بيتين سارا سير الشمس ، وبقيا بقاء الدهر ، وهما :

« مما يزهدنى فى أرض أندلس سماع معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الاسد .»

فكانت طرطوش ، وسرقسطة ، وافراغه ، ولاردة ، وقلعة أيوب فى يد بنى هود . وكانت بلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز ، وكان الثغر أى مافوق طليطلة فى يد بنى ذى النون وكانت قرطبة فى يد أبناء جهور ، وكانت اشبيلية فى يد بنى عباد ، وكانت مالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة فى يد بنى برزال من البربر ، وأما المرية فكانت فى يد زهير العامرى الخادم ، ثم خيران العامرى الخادم ، ثم ابن صمادح وكانت دانية وأعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) فى يد مجاهد العامرى ، وكانت بطليوس ويابرة وشنترين فى يد بنى الأفطس ، فلا عجب إذا كثر الوزراء فى تلك الأيام ، ولا عجب إذا كثر أيضاً ذوو الوزارتين ، فالناس على دين ملوكهم ، فكان كل من امتلك مائة كيلو متر مربعاً فى مثلها يعد نفسه سلطاناً كبيرا . ويتخذ من الحاشية مايضارع به أبهة الخلافة وقد كان عهدهم بها قريباً — فكثر عندهم الوزراء ، وكثر بينهم الذين يلقبون أنفسهم بذى الوزارتين .

ومن الطبيعى أن الرياسة إذا انحطت عن خلالتها تبعها المرؤوس فى السقوط ، فلما تدلت الخلافة فى الانحلال صارت الوزارة أيضاً فى درجات الهوان . فإن المستعين الذى ذكرناه قال بعد أن جلس على عرش الخلافة للناس أجمعين . ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما أحببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة مفردة ومثناة أراذل الدائرة ، وأخابث النظار ، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة (عن ابن بسام)

وصارت هذه الرتبة تنحط مع انحطاط الدول ، حتى نزلت فى أواسط القرن الثامن للهجرة إلى الدرجة التى وصفها لنا ابن فضل الله العمرى حيث قال :

« سألت الشيخ العلامة ركن الدين أبا عبد الله بن القويع رتبة الوزير بالمغرب ، فقال : ليست بطائل ، ولا لصاحبها شىء من الأمر . بل هو كالجاويش يخرج من قدام السلطان يوم الجمعة : حقيقة دون السمعة »

وقد استبدّ هؤلاء الرؤساء بتدبير ما تغلبوا عليه من الجهات ، وانقطعت الدعوة الخلافية، فلم يبق لخليفة

هاشمى أو أموى ذكر على منابر الأندلس خلا أيام يسيرة دعي فيها بإشبيلية لهشام المؤيد بن الحكم (أو لشخص شبه له) حسبما اقتضته الحيلة ، واضطر إليه التدبير . ثم انقطع ذلك ، فأشبهت حال ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا . وحال قواد الاسكندر بعد وفاته . ولم يزل هؤلاء الرؤساء فى اقتتال وتخاذل ، يستعينون بعدوّهم جميعاً فيميل تارة إلى هذا وطورا إلى ذلك حتى اختلت الأحوال إلى أن تولاهم الضعف فاستنصروا بالمرابطين فانتظم الشمل ، وعادت المياه لمجاريها . ولكن إلى أجل معين . ثم عاد الانشقاق والانقسام ، فامحت كلمة الاسلام ، وانطفأ ذلك النور ، وباد القوم من أخرهم فى سنة ٨٩٧ هجرية . بعد أن أقاموا فيها ثمانية قرون . لأن دخولهم كان فى سنة ٩٢ للهجرة على يد طارق بن زياد .

***

رفعت الستار عن هذا المنظر المحزن ليكون لكم ولأمم المشرق تذكرة وعبرة . خصوصاً فى الأوقات الحاضرة ، والآن أقول لكم إنه على الرغم من توالى الفتن . واضطراب الأحوال كانت سوق الأدب رائجة وبضاعته نافقة . فكل أمير ، وكل وزير ، وكل كاتب ، وكل وجيه كان له من الأدب نصيب وافر .

عرفنا من تقسيم الأندلس بين ملوك الطوائف أن بنى جهور استبدوا بقرطبة وأن بنى عباد استأثروا بإشبيلية ، فى المملكة الأولى درج ذو الوزارتين ابن زيدون وترقى وظهر فضله . وفى الثانية قضى بقية أيامه فى العزّ والكرامة . وكانت بها وفاته فى محرم سنة ٤٦٣ على التحقيق الدقيق كما نص عليه معاصره ابن بسام ولا عبرة بالأقوال الأخرى فى وفاته . لأن الذين قالوا بوفاته فى سنة ٤٠٥ خلطوا بينه وبين أبيه فأب ابن زيدون .

اشتغل ابن زيدون بالأدب ، وفحص عن نكته ، ونقب عن دقائقه . إلى أن برع وبلغ من صناعتى النثر والنظم المبلغ الطائل . حتى قال فيه ابن بسام :

«كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم وخاتمة شعراء بنى مخزوم . . . الخ .»

وماهتم أن أصبح فى الأندلس «متيم ذلك الحى ، وعاشق ولادة لاى ، زاد على مجنون ليلى ، وقيس لبنى ، وابن أبى ربيعة صاحب الثريا ، تركه هواه أخف من قلم ، وأشهر من نار على علم . وله مع ولاده أخبار ماحكى مثلها ابن أبى عتيق ، ولا الاصفهانى عن سكان وادى العقيق ، ولا الأصمعى عن أهل ذلك الفريق ، أندى من نسيم الصباح ، وأرق من ريق الموادى فى ثغور الأقاح»

وإذا تصفحنا دواوين الأدب عند الأمم الأخرى لا نجد له شبيهاً سوى تيبولس شاعر الرومان .

وتنقسم حياة ابن زيدون إلى قسمين مهمين (١) فى قرطبة ، (٢) فى إشبيلية .

***

أوّلا — فى قرطبة : برع ابن زيدون فى الأدب ، حتى كان أبو الوليد فى الأندلس شبيهاً ومثيلا لأبى الوليد فى دولة المتوكل العباسى ، وقد سماه الناس بحترى الأندلس ، ولقد صدقوا .

فمن جملة المحفوظ عنه فى صباه قوله :

أخذت تلك الهوى غصباً ولى تلك . . الخ .

ثم هام بعد ذلك بحب ولاده بنت المستكفى الخليفة الأموىّ بالأندلس ، وكانت أديبةً ، شاعرة ، جزلة القول حسنة الشعر ، تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء . وعمرت عمراً طويلاً ولم تتزوّج قط . جاءت على خلافً

أبيها في كلّ أوصافها . فكانت مصداقاً لقوله تعالى « يخرج الحيّ من الميت » وقد ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله ، فصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم ، وتحاضرهم ، ويتعشقها الكبراء منهم ، وكانت على خلق جميل ، وأدب غض .

وكان لابن زيدون معها أخبار تطرف القلوب ، وتشنف المسامع ، لأنه خلع في هواها العذرى عذاره ، وقد شهد المؤرخون كلهم لها بالعفة والصيانة . ولكن الشعراء في كل واد يهيمون ، فكيف لايهيم بولاده أبو الوليد بن زيدون .

والمقام لايتسع لاشعاره فيها وإشعارها إليه . ولكنى آتيكم براموز ومثال ، واترك الباقى لغير هذا المجال.

ودعها ذات يوم فأنشدها مرتحلا :

« ودع الصبر محب ودعك . . . الخ »

ثم قال :

« ياتارحا وضمير القلب القلب مثواه . . . الخ »

ولما كان مجلس ولادة بقرطبة منتدى لاحرار المصر . ومداوها ملعباً لجياد النظم والنثر . يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة مسامرتها ، وهى مع ذلك محافظة على علوّ النصاب ، وكرم الأنساب ، وطهارة الأثواب ، ولقد طمع بعضهم في الاستئثار بها دون ابن زيدون فنازعه على حبها وزاحمه في ودها رجل من رجالات عصره ، وهو أبو عبد الله البطليوسى ، فكتب إليه ابن زيدون يزجره بهذا الزجر :

« أبا عبد الإله اسمع . . . الخ . »

ومنهم الوزير أبو عامر ابن عبدوس الملقب بالفار . وكان من أكابر رجالات قرطبة ، فاغتاظ ابن زيدون وبعث إليه بهذه الأبيات :

« أثرت هزبر الشرى إذ ربض . . . الخ »

ثم كتب له رسالته المشهورة على لسان ولادة ، وقد عبث فيها به كما عبث الجاحظ في رسالته « التربيع والتدوير » بأحمد بن عبد الوهاب الكاتب في بغداد ، فاشتهرت رسالة ابن زيدون في المشارق والمغارب وهى التى شرحها كثير من أدباء المشارقة ، كابن نباتة والصفدى .

وشرح ابن نباتة قد طبع في مصر مراراً . وهو في غاية الحسن ونهاية الفائدة . وأما شرح الصفدى لهذه الرسالة فلم يصلنا . على أن ابن عبدوس لم ينثن عن محاولته . حتى تمكن من إيقاع الجفوة بين ابن زيدون وولادة ، واستأثر بها دونه ، فاغتاظ ابن زيدون والتجأ إلى قريضه القارص ، فلسع الرجل بقوله :

« أكرم بولادة ذخرا لمدخر | لو فرقت بين بيطار وعطار
قالوا أبو عامر أضحى يلم بها | قلت الفراشة قد تدنو من النار
عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا | فيمن نحبّ وما في ذاك من عار
أكل شهى أصبنا من أطايبه | بعضاً وبعضاً صفحنا عنه للفار.»

ولقد فاز ابن زيدون بماء . من إقصاء الفار عن حماه . بل أن ولادة أخذت تعبث بذلك الوزير. حتى إنها مرت به ذات يوم فى تربها وسربها ، وكان الوزير ابن عبدوس جالساً على داره يستنشق الهواء العليل ، وكانت أمام داره بركة تجمعت فيها مياه المطر ، والساقى إليها شىء من أقذار الدار . وكان الوزير

جالسا فى أبهته وعظمته وقد تحركية ، ونظر فى عطفيه ، وحضر أعوانه إليه . فلما قربت منه ولادة نادته باسمه ، فهش إليها وبش ، واقترب من البدر فقالت له وهى تشير إلى البركة : يا ابن عبدوس :

« أنت الخصيب وهــذه مصر فتــدفقا فكلاكما بحر . »

ثم نفرت كالظبي الشارد وتركته حائراً ثائراً . باهتاً صامتاً ، لا يحير جواباً ، ولا يعى خطأ ولا صــوابا ، وهذا البيت لأبى نواس تمثلت به ولادة وقلته هذا النقل الحسن من المدح إلى الهجاء .

غير أن هــذا الوزير صبر حتى خلا جو قرطبة من ابن زيدون فاســتأثر بولاده وعاش وعاشت حتى بلغا الثمانين وهما يتراسلان ويرتعان فى بساتين الأدب ورياض العفاف .

***

لم يبلغ ابن زيدون الخامسة والعشرين من عمره حتى نبه ذكره ، وعم صيته . اصطفاه أبو الحزم بن جهور المتغلب على قرطبة ونواحيها وضواحيها ونوه به لأنه رآه فتى الآداب ، وعمدة الظرف . والشاعر البــديع الوصف . ولما له قرطبــة من الأبوة السلفية ، والوسامة والدراية ، وحلاوة المنظوم ، وقوة العارضة ، والافتنان فى المعرفة ، فكانت الكتب تعد من إنشائه إلى شرق الأندلس فيقال : تأتى اشبيلية كتب هى بالنظم الخطير ، أشبه منها بالمنثور . ثم ترقى فى وظائف الدولة القرطبية حتى صار إليه النظر على أهل الذمة . ثم رآه ابن جهور أهلا للوزارة فرقاه إليها . بل حمله ذا الوزارتين ، فكان منه بمنزلة الســمير والوزير والمشــير والســفير . فكم أنفذه إلى ملوك الطوائف لأمور سياســية . ولمخابرات تقتضيها المعاملات والمجاملات التى التى يوجبها ، أو تدعو إليها علاقاته معهم أو مع ملوك الاسبانيين الذين كانوا يتربصون به وبهم دوائر السوء . فأحسن ابن زيدون التصرف فى ذلك . وغلب على قلوب الملوك . حتى كان كل ملك يخطب وده . ويتمنى أن يقيم عنده . ولــكنه بعــد أداء مهمته يرجع إلى صاحبه بقرطبة وإلى مجالس أنســه بها . ولهوه بأهلها فى ذلك الوقت المضطرب بالفتن الداخلية والخطوب الخارجية . كانت الجاسوســية لها أثر فى مصالح الدولة ، وفى أحوال الأفراد .

نترك أمور الدولة وســياستها جانباً . ونقتصر على الدائرة التى ارتضينا لأنفسنا الجولان فيها وهى ميدان الأدب .

ونذكر حكاية تدل على الجاسوسية الفردية فى تلك الأيام .

كانت بقرطبة جارية تتعشق فتى من القرشــيين . وكانت لوجدها كاتمة . ولــكن الخبر وصــل إلى الوزير ابن زيدون ، فلم يعبأ به لأن القوم كلهم كانوا متطفلين فى هذه السبيل .

وكانت الجارية تقول الشعر فجاشت نفسها ببيت فذ وامتنع عليها ما تريد . وهذا البيت هو :

« يا معطشى عن وصال كنت وارده هل منك لى غلة إن صحت : واعطشى . »

فجاءت إلى كبير الوزراء . وأمير الشــعراء . وسألته أن يزيد عليه شيئاً وهى تظن أنه لا يعلم بما هى فيه من الغرام . فأمســك القرطاس واغتنم فرصة الروى ، وما يعلمه من السر المطوى ، فــكتب :

« كســوتنى من ثياب السقم أسبغها ظلماً وصيرت من لحف الضنى فرشى . »

. . . .

« حتى إذا التذت الأجفان طيب كرى جفا المنام وصاح الليل يا قرشى . »

ومن تأمل أحوال الأندلسيين رأى أنهم كانوا يبالغون فى التشبه بالشرقيين فى كل ما اشتهروا به أو اشتهر

من أحوالهم ، فدائنهم وعمائرهم وقصورهم ومنازههم سموها بما اختاره الشرقيون فى بلادهم كذلك حاكوهم فى مجالس أنسهم . وأنا أقتصر على مايتعلق بابن زيدون وصحبه ، وأمهد لذلك بما كان فى بغداد .
كان فى دار السلام الوزير المهلبى المشهور ، والقاضى التنوخى ، وقد بلغنا من الكبر سناً عالياً . ولهما ذقون بيضاء تنهال على صدورهما ، وكانا يتعاطيان فى النهار أمور الدولة بغاية الحشمة والوقار . حتى إذا جن الليل اجتمعا فى مجلس العقار ، فكانا يغمسان فى أوانى من البلور والنضار ، ولا يكتفيان بلذة الشراب ، بل يمسان أدقانهما فى الأوانى ، ثم يرش كل منها الشراب بتلك الرشاشات الغريبة على صاحبه لتتم لهما لذة السكر حسا ومعنى . باطناً وظاهراً ، ويستمران على ذلك طرفا من الليل . حتى إذا جاء الصباح عادا إلى أشغالهما ، الوزير فى تدبير الدولة ، وقاضى القضاة فى النظر فى الخصومات ، والحكم على مقتضى الشرع ، وأستمرا على هذه الحال فى معاقرة المدام ، حتى وافاهما الحمام .

فاسمعوا نظير ذلك فى قرطبة . كان القاضى أبو بكر بن ذكوان ، من الجلالة بأسمى مكان ، أدركته حرفة الأدب ، وله فى العلم باع طويل ، وكان يتشبه فى خلوته مع ابن زيدون ، بالقاضى التنوخى مع الوزير المهلبى ، وهنالك ما شئت من دعابات ورقاعات ، وما تخيلت من فكاهات ومجانات ، حتى إذا أصبحا ، ذهب ذو الوزارتين إلى شأنه فى ديوانه ، وبكر أبو بكر إلى مجلس الحكم بمقتضى الحق ، ومتى اقترب المساء عادا إلى التصف ، وتجاوزا فى ميدانهما كل وصف ، إلى أن سطا الدهر على أبى بكر .

واتفق أن مر ابن زيدون يوماً بقبر ابن ذكوان فى لمة من إخوانه ، وجماعة من عمار ميدانه ، فعطفوا عليه مسلمين ، فقال أبو الوليد بن زيدون مرتجلا :

« انظر لحال السرو كيف تحال . . . . الخ »

***

فتى أديب حر يصل إلى هذه المكانة قبل أن يصل إلى الثلاثين من العمر ، فكيف لا يكون كما كان المتنبى حرب الزمان والدهر . ثم قد دبت عقارب الغيرة بينه وبين حاسدى نعمته وسعادته ، والمناظرين والأنداد فتألبوا عليه وتآمروا حتى اتهموا بإيداعه فى شراكهم ، ونجحوا لدى الأمير ابن جهور فحبسه حبساً طالت مدته ، فكانت تلك السجون مثارا لشجونه ، فبعد أن صاغ لبنى جهور ولا سيما لأبى الحزم قلائد وخرائد ، كتب إليه من السجن أشعاراً ورسائل مختارة ، فاضت بها نفسه فى التنصل والاعتذار والاستشفاع والاستعطاف ، ولكن المراجين له على مركزه فى الدولة ، وعلى حب ولادة كانوا دائما يفورون ، فبقى فى السجن مدة تنيف على الخمسمائة يوم .

كتب لابن جهور تلك الرسالة البديعة التى طبعها أحد المستشرقين فى سنة ١٨٨٩ . وهى التى شرحها العلامة صلاح الدين الصفدى .

ولقد زارته أمه فى سجنه . تخانتها دمعتها ، فقال يخاطبها من قصيدته اللامية التى وجهها إلى ابن جهور مستعطفاً :

«ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى . . . . الخ »

وما ألطف وصفه لنفسه ولوشاته فى إحدى قصائده الطنانة :

« كأن الوشاة — وقد منيت بإفكهم — أسباط يعقوب وكنت الذيبا . »

هذه الأحوال مضافة إلى نفس كبيرة تتعب فى مرادها الأبدان ، شيبت رأس ابن زيدون وجعلته هرما قبل

الأوان ، قد رأى الشيب فى رأســه وعارضيه . فبكى على نفسه وقال من قصيدة أخرى يستعطف بها ابن جهور أيضا :

« لم تطو برد شبابى كبرة وأرى برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كثب وللشبيبة غصن غـير مهتصر . »

وفيها يقول بما يعرفنا بأنه عارف قدر نفسه :

« أحين رف على الآفاق من أدبى غرس له من جناه يانع الثمر ؟
وسيلة سببا إن لا تكن نسبا فهو الوداد صفا من غير ما كدر . »

فدلنا بذلك على أن الشيب ألم برأســه وبلحيته ، قبل أن يصــل إلى الثلاثين من عمره . وذلك مصداق لما ذكرناه من أنه بلغ مراتب العلا وهو فى سن الفتوة وريعان الصبا ، وذكر الصفدى أنه كان يخضب بالسواد .

ثم أنه تحيل فى الهرب ونجح . فلما خرج من الســجن اختفى بقرطبة وأقام فيها متوارياً ، ثم نظم قصيدة طويلة يخاطب فيها ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر بن مسـلم للشـفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور وفيها يعرفنا أن مدة حبسه بلغت خمس سنين . قال :

« ســنون من الأيام خمس قطعتها أسيراً ، وإن لم يبد شد ولا ربط . »

والقصيدة طويلة جميلة جليلة ، ثم إنه ما زال بأبى الوليد بن جهور يستشفع به إلى أبيه أبى الحزم ، حتى شفع له وانتشله من نكبته وصيره فى صنائعه ، ولما ولى الأمر بعد والده نوه به وقدمه فى الدين اصطنع لدولته وجلله كرامة لم تقنعه ، زعموا . فلا غرابة إذا بكى واستبكى حينما مات أبو الوليــد بن جهور الذى أذاقه من الحبس والعذاب ألواناً . فقد وجد ابن بسام بخط ابن حيان هذه المرثية البديعة لابن زيدون فى أبى الحزم :

«ألم تر أن الشمس قد ضمها القبر . . . . الخ »

ولكننا نعود إلى ولادة ونتساءل هل نسى أبو الوليــد ولادة ؟ كلا . بل عاد إلى التودد إليها والتقرب منها ، وكان يذكرها فى قرطبة ويراسلها بأشعاره الرائعة الفائقة .

ذهب مرّة إلى الزهراء يتأمل فى محاسنها فوصفها بقوله :

« إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقاً . . . . الخ »

ثم أرسله أبو الوليد بن جهور سفيراً إلى حضرة إدريس الحسنى بمالقة .

فأطال الثواء هنالك واقترب من إدريس وخف على نفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، فعتب عليه ابن جهور وصرفه عن السفارة بينه وبين أمراء الأندلس فيما يجرى بينهم من التراسل والمداخلة .

إلى هنا انقضت أيامه فى قرطبة ، فلقد خشى أبو الوليـد أن يلاقى من الوليد ما لاقاه من الوالد . وحينئذ صحت عزيمته على الهجرة من قرطبة والذهاب إلى المعتضد بن عباد بإشبيلية .

فلامه بعض أصحابه على ما اعتزمه من التحول عن وطنه وهجر أهله وخلانه ، فكتب إليه رسالة ضافية يعتذر فيها لنفسه ويقول من جملتها ما نصه :

«وكنت أول حبسى قد وضعت من السجن فى موضع قد جرت العادة بوضع مستورى الناس . . . الخ.»

ولكن ابن زيدون كان قد ذاق من الدهر حلوه ومرّه فلم يرض لنفسه بالذهاب إلى إشبيلية دون أن يكون على ثقة من أمره . فلذلك كتب رسائل بديعة إلى بعض المقربين من المعتضد ، ثم إلى المعتضد نفسه ، ليمهد السبيل إلى الهجرة . حتى إذا تحقق أنه سينزل فى إشبيلية على الرحب والسعة أزمع الرحيل إليها ، وكان ذلك فى سنة ١٠٤٦ للهجرة .

واتفق فى وقت فراره من قرطبة إلى اشبيلية أن صادفه عيد الأضحى ، فرأى الناس مبتهجين بالعيد ، وهم يتزاورون ويتبادلون التهانى ، وهو شريد طريد ، ففاضت نفسه بوصف حاله :

« خليلى لا فطر يسر ولا أضحى . . . . الخ »

فلما وصل إشبيلية . نزل على كنف المعتضد ، وأصبح من خواصه وصحابته يجالسه فى خلواته ، ويرسله فى مهم رسائله ، وولاه الوزارة وحفظ له لقبه « ذا الوزارتين » .

كان المعتضد جعل مجلسه منحطا عن مجلس ابنه وولى عهده المعتمد بن عباد فكتب المعتمد لابن زيدون :

« أيها المنحط عنى مجلسا وله فى النفس أعلى مجلس
بفؤادى لك حب يقتضى أن ترى تحمل فوق الأرؤس . »

فأجابه ابن زيدون يشكره :

« أسقيط الطل فوق النرجس أم نسيم الروض تحت الحندس ؟ »

ولكن هل أنساه ذلك ولادة ومحاسنها . أم قرطبة ومساكنها ؟ كلا فلم يزل صاحبا مشغوفا بهذه وبتلك وأشعاره أكبر دليل على ذلك . فكلما حانت له فرصة ، أو هزته نشوة ، قال فيهما أقوالا تذيب الفؤاد .

فلقد تشوّق إلى قرطبة وساكنيها بقصيدة تدل على حنينه لها ولمن فيها ، فقال :

« على الثغب الشهدى منى تحية . . . . الخ »

وكان يبلغه عن بنى جهور ما يسوءه فى نفسه وقراباته فى قرطبة ، فقال يخاطبهم :

« بنى جهور أحرقتمو بجفائكم فؤادى ! فما بال المدائح تعبق
تعدوننى كالعنبر الورد إنما تفوح لكم أنفاسه حين يحرق . »

وأما أمداحه فى المعتضد بن عباد فشىء كثير جليل .

وقد كتب عنه إلى صهره الموفق أبى الجيش بن مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية المعروفة الآن بجزائر البليار :

« عرفت عرف الصبا اذهب عاطره . . . . الخ . »

قلت فيما تقدّم إن ملوك الطوائف كانوا منقسمين على أنفسهم ، وإن الحرب كانت دائرة بينهم فإليكم مثالا واحداً مما يتعلق بابن زيدون ، وذلك أن الحرب وقعت بين المعتضد صاحب إشبيلية ، وبين ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فانهزم ابن الأفطس هزيمة فظيعة ، وخسر خسارة جسيمة ، فقال ابن زيدون يهنىء المعتضد :

« ليهن الهدى إنجاح سعيك فى العدا . . . . الخ .

هذا مع أن ابن زيدون سبق له مدح ابن الأفطس بمدحة غراء فى قصيدته التى يقول فيها

« لبيض الطلى ولسود اللمم . . . . . . الخ . »

ولا غرابة فى ذلك ، فالملك عقيم ، وتصاريف السياسة تقضى بالتغيير من حال إلى حال . خصوصا إذا انقسمت أمة من الأمم على نفسها وخاضت فى غمار الخطوب والفتن ، وفوق ذلك ، أطيس القلب من مدح إلى هجاء ومن ملام إلى سلام ، هو سجية من سجايا الشعراء الكرام وغير الكرام .

فلما مات المعتضد بن عباد وتولى الملك إبنه المعتمد بن عباد كان لابن زيدون عنده تلك الكرامة وهذه الحفاوة ، تدليلا على ذلك شهادة التاريخ ويؤيدها قول ابن زيدون نفسه فى رثاء المعتضد ومخاطبته روحه بعد دفنه :

«أعباد ! يا أوحد الملوك لقد عدا ، عليك زمان من سجيته الغدر.» الخ

ومن المعلوم أن ابن زيدون هو الذى دبر دولة المعتضد وأظهر صولته وأغراه بأعدائه ، وزين له الايقاع بماله ووزرائه . فغدا شجا فى صدورهم ، وبكدا فى سرورهم . فلمّا آل الأمر إلى المعتمد ، قام حساده وخصومه وسعوا لديه فى النكاية به ، ثم رموا إليه برقعة فيها قصيدة طويلة أولها :

« يا أيها الملك العلى الأعظم اقطع وريدى كل باغ يئتم !
واحسم بسيفك داء كل منافق يبدى الجميل . وضد ذاك يكتم ! »

وهى قصيدة طويلة تتألف من ٢٧ بيتاً كلها اغراء بابن زيدون على سبيل التصريح المفهوم . ولكن المعتمد كان أعقل من ابن جهور . فلم يصغ لتلك النميمة ، ولم تنجع لديه تلك السعاية فقال فى صدهم وردكيدهم فى نحرهم :

« كذبت مناكم : صرحوا أو جمجموا . . . . الخ .»

فلما بلغ ابن زيدون ما راجعهم به ، وتحقق حسن مذهبه ، وعلم أن حيلتهم قد أخفقت ، وسعايتهم ما نفقت ، وسهامهم تهرعت ، ومكائدهم تبددت وتورعت ، قال يمدح المعتمد ويعرض بأعاديه بقصيدة طويلة مطلعها :

« الدهر إن أملى فصيح أعجم . . . . الخ . »

واستقرّ المعتمد به فى وزارته ، فكان أحد وزرائه الثلاثة الأكابر المشاة وزارتهم (أى أحد الثلاثة الذين يلقب كل واحد منهم بذى الوزارتين) والآخران هما ذو الوزارتين ابن عمار ، وذو الوزارتين ابن خلدون (جد صاحب التاريخ المشهور) .

خرج الثلاثة فى أحد الأيام من إشبيلية الى مطرة (قصر خلوى) لبنى عباد بموضع يقال له القنت (تقريبا لفظ اسبانى) وهو متنزه تحف به مروج مشرقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة عن ثغور النوار . . . فى زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه بوسميها ووليها ، وحملتها فى زاهر ملبسها وباهر حليها ، وأرداف الربى قد تأزرت بالازر الخضر من نباتها ، وأجياد الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها ، ومجامر الزهر تعطر أرديه النسائم عند هبابها ، وهناك من البهار ، مايزرى على مداهن النضار ، ومن النرجس الريان ، ما يزرأ بنواظر الأحبان ، وقد نووا الانفراد للهو والطرب ، والتنزه فى روضى النبات والأدب ، وبعثوا صاحباً لهم يسمى «حليمة» هو قوام لذتهم ، ونظام مسرتهم ، ليأتيهم بنبيذ يذهبون الهم بذهبه فى لجين رحاحه ، ويرمونه بما يقضى بتحريكه الهرب عن الدلوب وإزعاجه ، فجلسوا لانتظاره ، وترقب عوده على آثاره ، فلما بصروا به مقبلا من أول الفج بادروا إلى لقائه وسارعوا نحوه . واتفق أن فارساً من الجند ركب فرسه فصدمه ، ووطئ عليه فهشّم أعظمه ، وأجرى دمه ، وكسر قصال (١) النبيذ الذى كان معه ، وفرق من شملهم ما كان الدهر جمعه ، ومضى على غلوائه راكضاً حتى خفى عن العين ، خائفاً من متعلق به يحين متعلقه الحين ، وحين وصل الوزراء إليه تأسفوا عليه وأفاضوا فى ذكر الزمان وعدوانه والخطب وألوانه ، وحوله بطوام المضرّات ، على تمام المسرّات ، وتكديره الأوقات المنعمات ، بالآفات المؤلمات ، فقال ابن زيدون :

« أنلهو والحتوف بنا مطيفة وتأمن والمنون لنا مخيفه »

فقال ابن خلدون :

« وفى يوم وما أدراك يوم مضى قصالنا ومضى خليفه »

---

(١) القصال كلمة يستعملها المغاربة والأندلسيون بمعنى جرة النبيذ ، وهو إناء من الفخار .

فقال ابن عمار :

« هما طارتا راح وروح تكسرتا فأشفاف وجيفه»

ولابن زيدون مدائح فى المعتمد بن عباد كلها درر وغرر ، وآيات بينات ، وله معـه مداعبات ومطارحات ومساجلات ، فتارة يشوقه إلى تعاطى الحيا فى قصوره البديعة ، وتارة يرسل له التفاح ويكتب عليه الأشعار ، يدعوه إلى تناول العقار ، وتارة يهنيه ، وأخرى يمدحه ، وله بيتان قد بلغا حـد الابداع فى هـذا الباب . قال يخاطبه :

« مهما امتدحت سواك قبل فانما مدحى إلى مدحى لك استطراد

يغشى الميادين الفوارس حقبة كيما يعلمها النزال طراد »

فما أحسن هذا التنصل بالتمرن على المديح ، حتى إذا أجاد وبلغ المراد أهدى ثمرته إلى ابن عباد .

هذه قطرة من بحر من بحور شعر ذلك الفرد ، وأما نثره فشىء سيد حصره ، ومما يجهله كثيرون أنه ألف كتابا فى التاريخ وجعله ابن حزم من مفاخر الأندلس ، وقال إن أبا الوليد بن زيدون ألف كتاب التبيين فى خلفاء بنى أمية بالأندلس على منزع كتاب التبيين فى خلفاء المشرق للمسعودى ، وقد نقل صاحب نفح الطيب سطرا أو سطرين عن هذا الكتاب الذى لم يبق له أثر ولا عين .

وما زال ابن زيدون يتشوق لقرطبة ولمن فيها ويعمل لدى المعتمد بن عباد حتى جعل قرطبة منتهى أمله . فسعى فى مداخلة أهلها . ومواصلة ذوى الكلم فيها لأنه رأى عدم الفائدة والمكايدة لاستمساك أهلها بدعوة الخلافة وأنفتهم من زوالها عنهم وانطماس رسومها فى ملدهم ، فلما فاز بالمرام وانتظمت تلك العاصمة الصحة فى ملكه ، ذهب إليها مسرعا واهتم بتدبير شؤونها ، هنالك جاشت نفسه بالفخر على سائر ملوك الطوائف فقال

« من للملوك بشأو الأصيد البطل . . . . الخ . »

أما ابن زيدون ، فقد عاد قرير العين إلى وطنه وأهله ، وكانت له شـيعة كبيرة فى قرطبة ، فارتفع جده ، وزاد إقبال الدنيا عليه وبلغت حظوته عند المعتمد درجة لا يطمع فيها .

فحينئذ سعى فى هلاكه صاحباه ، ابن مرتين وابن عمار ، وتلطفا فى إبعاده وإبعاد ابنه من بعده ليخلو لهما الجو ، وليعرفا بالاستئثار بابن عباد ، ولقد ساعدتهما الظروف .

فقد وقعت فتنـة فى إشبيلية واضطر ابن عباد للتعجيل بارسال جيش كثيف إليها تحت قيادة ابنه سراج الدولة بن عباد ، فسـول ابن مرتين وابن عمار لابن عباد أن يرسل ابن زيدون مع سراج الدولة وتلطفا فى تفهيم السلطان أن ذهاب ذى الوزارتين فيه حقن للدماء ، وحفظ للنظام ، لما له من المكانة العاليـة والجاه الرفيع ، ولأنه محبوب لدى جميع القلوب ، ثم وسـوسا له بأن المصلحة كل المصلحة هى فى وجود ابن زيدون الوزير العاقل المدبر المحنك المحبوب بجانب سراج الدولة الذى هو قرة عين الملك ، ومطمح الأنظار لبقاء البيت العبادى ، وما زال الرجلان ينسجان على هـذا المنوال حتى ألحا خصـوصاً لعباب ابن زيدون فى مرض ألزمه البيت .

صـدر إليه الأمر بالذهاب ولم يعذره السلطان فى التوقف لما به من الآلام ، فخرج منها مع الحاجب سراج الدولة بن عباد والجيش متوجهين إلى إشبيلية ، وكان ذلك يوم ١٣ ذى الحجة سنة ٤٦٢ ، وخلف فى قرطبة ابنه الوزير الكاتب أبا بكر بن زيدون ، ولـكن صاحبينا (ابن مرتين وابن عمار) مازالا يعملان لدى ابن عباد حتى صدر الأمر إلى أبى بكر ابن زيدون أيضا بأن يلحق بأبيه فى اشبيلية .

حينئذ خلا لهما الجو فاستأثرا بالأمور كلها وانفردا بتدبير الدولة بلا مشارك لهما فى الموقف ولا معارض

لهما فى اغراضهما ، وكأن زوال دولة ابن عباد كان مقدارا على يد هـدين الرجلين فابن مرتين ، يكفى فى التعريف بمراميه أنه ابن مرتين أى أنه من أصل غير عربى ، فان جده رجل إسـبانى ، وأما ابن عمار فقد أنكر فضل ابن عباد ، وشق عصا طاعته ، وسعى فى الفساد والخراب ، وخرق العهود ، وخان وألب ابن عباد حتى أوهى دولته ، على ماهو معروف مشهور .

أما ابن زيدون وهو فى إشبيلية ، فلم يطل الأمد به بعد خلق ابنه به ، فكأنه جاء ليكفنه ويدفنه بها فى صدر رجب سنة ٤٦٣ ، حينئذ تولى منه كهل لن يخلف الدهر مثله جمالا و بياناً وروعة وظرفاً .

وهو عند أولى التحقيق فى النظم أمد طلقا ، وأحث عنقاً ، فلا يلحقه تقصـير ، ولا يخشى وهناً ، ولما وصل خبره إلى قرطبة ، وله فيها عشيرة كبيرة وأشياع كثار ، تنازعوه وحزنوا عليه لأنه كان منهم ، هاوياً إليهم ، حدباً عليهم ، وليحة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية .

فأراد السلطان أن يترضاهم فأرسل لابنه (أى أبى بكر ابن زيدون) وقربه إليه ، ورقاه فى مراتب والده حتى أعطاه الوزارة وقد اغتنم هذا فرصة ماوقع من ذى الوزارتين ابن عمار من الخروج على ابن عباد فأوغر صدر ابن عباد عليه ، ومازال يعمل لديه حتى كان سبباً فى هلاك ابن عمار على ماهو معروف مشهور .

انتهى الكتاب



تم طبعه « بشركة مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده » فى يوم الخميس ٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥١ (٤ اغسطس سنة ١٩٣٢) م

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبى

فهرس

القوافي من ديوان ابن زيدون [1]

حرف الألف

حرف الباء

[1] كل ما وضعناه بين قوسين هو لغير ابن زيدون

حرف الراء

حرف السين

حرف الميم

حرف الواو

حرف الياء

